



# هَذَا الْعَالَمُ الْجَدِيدُ حَضْرَةُ امريكا اللاتينية



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/ومزي حنفي  
القاهرة

هذا العالم الجديد  
مضائق أمريكا اللاتينية



نشر هذا الكتاب بالاشتراك  
مع  
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر  
القاهرة - نيويورك  
مايو سنة ١٩٧٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠٠/٣٣٠٢

# هذا العالم الجديد مضارة أمريكا اللاتينية

تأليف  
وليم ليتل شورز

ترجمة  
محمد سيد نصر

الناشر  
دار النهضة مصر  
١٨ شارع كامل صدقي - بالجيزة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق •

This is an authorized translation of **THIS NEW WORLD** by William Lytle Schurz. Copyright 1954 by William Lytle Schurz. Published by E.P. Dutton, Inc., New York, New York.

## المشتري كون في هذا الكتاب

المؤلف : وليم ليتل شورن

مؤرخ لامع وصحفي وموظف سابق بوزارة الخارجية . له معرفة أصيلة واسعة بحياة أمريكا اللاتينية . فقد عرف الفلاحين ورجال الأعمال والعمال والمهنيين والجنود والموظفين الحكوميين ، وكون صداقات مع الهنود الذين يقطنون الأرجاء الداخلية في أمريكا الجنوبية ، وقطع في أسفاره ما يزيد على خمسة وعشرين ألفاً من الأميال خلال الأدغال ونحو منابع أنهار وادي الأمزون . ونظراً إلى كونه دبلوماسياً وصحفياً ومستكشفاً ووكيل أعمال تجارية ومديراً للتصدير في شركة صناعية كبيرة ، ومستشاراً اقتصادياً لحكومة من حكومات أمريكا اللاتينية ، فمن المحتمل أنه قد رأى أمريكا اللاتينية من زوايا أكثر عدداً من تلك التي استخدمها أي أمريكي آخر . وقد كان للدكتور شورن علاقة في وقت من الأوقات بالمعهد الأمريكي للتجارة الخارجية في مدينة فيكس بولاية أريزونا

المترجم : محمد سيد نصر

تخرج في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٧ ، وجامعة ليفربول ( درجة الشرف في الجغرافية سنة ١٩٣١ ) . عمل مدرساً في المدارس الثانوية ، ثم مدرساً فاستاذاً مساعداً بجامعة القاهرة ( كلية التجارة فالآداب ) ثم كبيراً لمفتشي المواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم . وهو عضو الجمعية الجغرافية المصرية ، والجمعية التاريخية المصرية ، ولجنة البيان العربي . ألف عدة كتب منها : أصول الجغرافية العامة ، و جغرافية النقل - جغرافية المواد الخام ، و جغرافية المعادن والقوى ، و وحدة الجغرافية الطبيعية للوطن العربي ، كما ترجم عدة بحوث وكتب ، واشترك مع آخرين في ترجمة أطلس العالم والأطلس العربي .

مصمم الغلاف : امين لبيب

( يعمل مصمم ديكور بالمتحف الزراعي . صمم كثيراً من أغلفة كتب المؤسسة . يقوم بأعداد المعارض التي تقيمها وزارة الزراعة في مدن وقرى الجمهورية .

مكتبة الكتاب  
ملك الأستاذ الدكتور  
رمزي زكريا بطرس





الصفحة

### المفصل الثالث الاسباني

١١٤	الرواقية الإسبانية
١١٧	أنماط إسبانيا
١١٩	الأندلس
١٢٢	الإسبان في العالم الجديد
١٢٦	الفردية الإسبانية
١٣٥	الزهو الإسباني

### المفصل الرابع المقاتل

١٥١	الموت والفاتحون
١٥٦	الجندي الإسباني
١٦١	« القصة السوداء »
١٦٥	البحث عن الذهب
١٦٨	مشروع الفتح
١٧٢	العدالة في الفتح
١٧٥	الفتح بوصفه حربا
١٨٤	فتح المكسيك
١٨٦	فتح بيرو
١٩٣	الاقطار النائية
١٩٧	مهمة الاستعمار
٢ ٣	البرتغاليون في البرازيل:



الفصل الخامس  
الزنجي

٢١٦	:	.	.	.	.	.	.	.	تجارة الرقيق
٢٢٣	.	.	.	.	.	.	.	.	الونجى فى البرازيل
٢٣٤	.	.	.	.	.	.	.	.	الونجى فى المستعمرات الإسبانية
٢٤٠	.	.	.	.	.	.	.	.	الونجى فى المجتمع الاستعمارى
٢٤٥	.	.	.	.	.	.	.	.	المولد
٢٤٨	.	.	.	.	.	.	.	.	الونجى فى هايتى
٢٥٤	.	.	.	.	.	.	.	.	الونجى فى حضارة أمريكا اللاتينية

الفصل السادس  
الأجنبي

[illegible]

## المفصل السابع

### الكنيسة

٣٢٧	التصوف الإسباني
٣٢٩	الدولة والكنيسة في إسبانيا
٣٣٠	الكفر ومحكمة التفتيش
٣٣٧	الكنيسة في العالم الجديد
٣٣٩	الجهاز التنظيمي
٣٤٩	رجال الدين
٣٥٨	الكنيسة والدولة في ظل الجمهوريات

### المرأة

### المفصل الثامن

٣٧٠	المرأة الهندية
٣٧٦	المرأة الإسبانية في الفتح
٣٩٩	الفتح والمرأة الهندية
٤١١	المرأة الإسبانية في فترة الاستعمار
٤١٨	الليماوية
٤٢٤	خمس من نساء المستعمرات
٤٣١	المرأة والأسرة في الجمهوريات

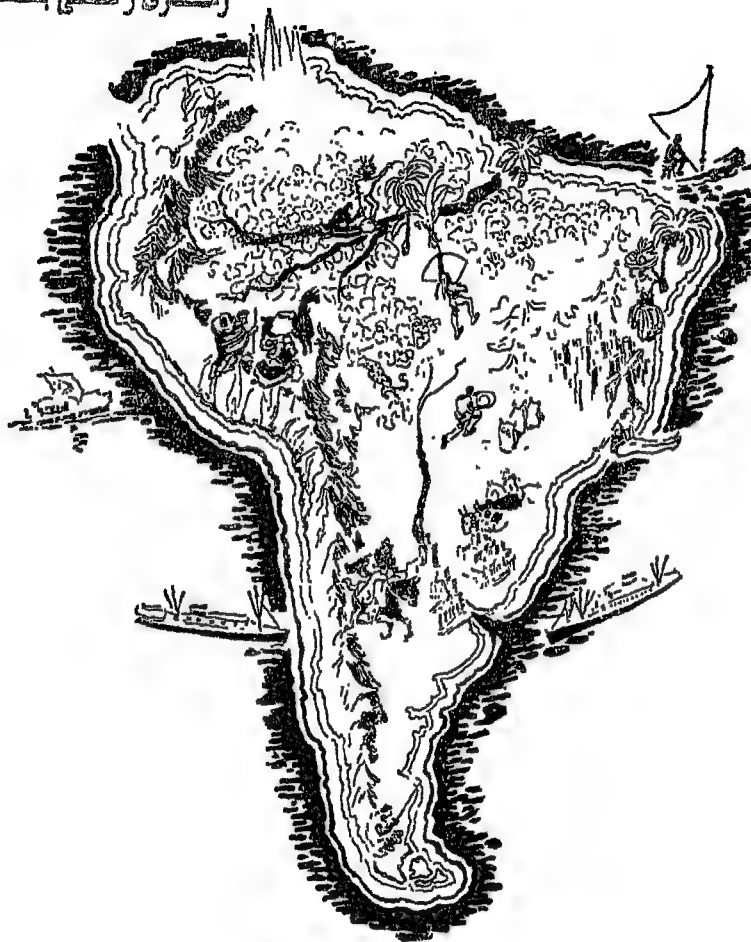


— ١٢ —

المنحة

- ٥٢٧ . . . . . البرتغاليون .
- ٥٢٨ . . . . . الولايات البرازيلية وسكانها
- ٥٣١ . . . . . الأخلاق البرازيلية
- ٥٣٩ . . . . . ثقافة البرازيل
- ٥٤٨ . . . . . خاتمة

هذا الكساف  
ملك الأسماك والكساف  
رمزي زكي بطرس





## الفصل الأول

# البيعة

عندما يرحل قوم عن مسقط رأسهم إلى بلد آخر فإنهم ينزعون إلى الحكم على بيئتهم الجديدة بالأساليب المألوفة التي تعودوها في وطنهم القديم وقد ترك الإسبانيون الذين نزحوا إلى العالم الجديد وراءهم أرضاً صعبة شحيحة ، إذ تنوسط بلادهم هضبة تكاد تخلو من الأشجار ، تلفحها حرارة الشمس القاسية في الصيف ، وتبردها الرياح القارسة التي تهب من وراء الجبال العابسة التي تعترض سطح هضبة قشتالة في كل مكان . وقد اعتاد معظم الإسبانيين الحياة دائماً على مرأى من الجبال ، وأصبحوا يشعرون بالغربة وهم يلبحون الأفق على شكل خط مستقيم ؛ ذلك أن الجبال كانت تمثل أمام ناظرهم اتجاهات ثابتة يرونها في غدوهم ورواحهم ، وعلامات على السطح يهتدون بها عند الرؤية . فعلى الرغم من أن وجه الطبيعة في إسبانيا يبدو للأجنبي عن البلاد منفراً وغير كريم بصفة عامة ، فإنه لم يصل إلى الحد الذي ينال من شخصية الذين ترعرعوا في نطاقه العبوس . ومن الناحية الروحية نجد أن طريقة حياتهم الخشنة تبدو مناسبة لقوتهم وعظمتهم . ونفذ جزء من الصفة الصلبة للجبال إلى أرواحهم وأجسامهم ، كما قد يشاهد المرء اليوم الفلاحين في أراجون وقشتالة القديمة الذين يبدوون وكأنهم قطعة من نفس الأرض المحيطة بهم . وقد ارتضى الإسبانيون الذين فتحوا واستقروا في الهند الغربية المعيشة في كنف الجبال ، ولم ينتظروا الاستفادة منها كثيراً بجانب أنها تحمي ظهورهم في وقت الخطر . فقد كانوا يعرفون طريقهم في مسالكها وجبالها ، بل إنهم كانوا أحياناً يقيمون مدنها على قمم التلال ، كما فعلوا عند سيبولفيدا وسوريا . وفي العصور الوسطى عندما

كان الإسبان يهاجرون بعضهم بعضا ، وعندما اتفقوا جميعا على محاربة المسلمين ، كانوا يتوجون النتوءات الجبلية بالقلاع ، كذلك الموجودة في ألمانسا وبنيافيل وسيجوفيا . وتبدو قسوة الأرض الإسبانية مصورة في خلفية أعمال الرسامين من الجريكو إلى ثولواجا .

وحول حافة شبه جزيرة أيبيريا تبدو الطبيعة أكثر سخاء . فمع أن الجبال في كثير من البقاع والمسافات طويلة تصل إلى البحر ، إلا أنها في بعض الأحيان تتفتح عن مساحات سهلية كسهل فيجا عند بلانسية ، وعن قطاع ساحلي متسع بين أليكانتي وقرطاجنة ، والجزء الأدنى لنهر الوادي الكبير . وأشهر من كل هذه مثلا ، الجانب الغربي للبرتغال . وبينما نجد أرجاء إسبانيا المطلة على الأطلنطي مثل أستورياس وولايات الباسك جبلية ، إلا أنها أكثر خضرة من مرتفعات قشتالة وأراجون الجرداء ، وكذلك الحال في أرجاء البرتغال المرتفعة . وفي الريتييرا الإسبانية المحمية ، التي تطل شرقاً على البحر المتوسط الدفيء ، يتغير النبات السائد ، فتتنامو أشجار البرتقال وغابات نخيل النمر وحقول قصب السكر .

هذه كانت الخلفية الطبيعية التي حمل ذكرياتها معهم الإسبان والبرتغاليون إلى جزر الهند ، والتي أصبحت قطعة من تكوينهم الجنسي ، فلم يكونوا يجدوا في العالم الجديد إلا القليل من الصور المناظرة لما في وطنهم ، فإذا وجدوا شيئا منها تعلقوا به بحنين وتعاطف . غير أن الطبيعة كانت في أغلب الأحوال على نطاق أكبر بدرجة مهلقة مما عهدوه في شبه الجزيرة ، فكل شيء أكبر : الجبال ، الغابات ، السهول ، المستنقعات ، بل إن مظاهر الطبيعة كانت أعنف وأكثر مباغنة ، ففي غضبها انفجرت في بعض الأحيان في صورة زلزال وعواصف وثوران براكين .

واتسمت انطباعات العالم الجديد الأولى بالنشوة والإعجاب . فدهش



المستكشفون من نصارة النبات وتنوعه ومواقع الأرض البهجة كلها أبحروا بين الأتيل . لقد اعترت كولبس — وهو الإسباني المتبني — نشوة عندما شاهد هسبانيولا<sup>(١)</sup> وسمع منها الأصوات فقال : « إن البلب كان يغنى ، وكذلك غيره من صغار الطير ، كما تغنى في ذلك الشهر في إسبانيا . . . لقد كان ذلك أعظم بهجة في الدنيا . وأطلق على الجزيرة اسم « إسبانيا الصغيرة » لأن سهول السيباو الغنية ذكرته — بضغط واضح على مخيلته — « بخصبها » على الأقل « بأراضى قشتالة » ، بل لقد أشاد أكثر بحضرة كوبا ووصفها بأنها « أبدع ما وقعت عليه العين من الجزر » ، وهى عبارة استغلتها مصلحة السياحة في جمهورية كوبا إلى أقصى حد . ولقد عرف بيتر مارتز ، الراهب الإيطالى الذى عاش فى البلاط الإسباني ، كثيراً عن الجزر الشاعرية من كولبس ورفاقه ، ومن المحتمل أنه فى أثناء كتابته عن شتاء قشتالة القاسى كان يفكر فى مفاتن هسبانيولا : « ماذا ينبغي المرء من السعادة فى هذه الدنيا أكثر من أن يعيش فى بلاد توجد بها مثل هذه العجائب التى تراها العين وتستمتع بها النفس ؟ وهل هناك معيشة أراضى من تلك التى يعيشها المرء فى بلاد لا يجبر فيها على أن يحبس نفسه فى حجرات ضيقة هرباً من البرد القارس أو الحرارة الحارقة ؟ بلاد ليس من الضروري فيها أن يحمل الإنسان جسمه بالملابس الثقيلة فى الشتاء أو يجمد رجله على نار مستمرة ، وهى عادة تقدم العمر فى ملح البصر ، وتسبب ألف مرض مختلف . ومع ذلك فقد كان قلقاً لأن « عبر هذه البلاد وروائعها الرقيقة » قد تؤدى إلى الكسل والتأنت والحياة المترفة .

وعندما توغل الإسبانيون فى داخل القارة تغير وجه العالم الجديد . وفى بعض الأحيان كانوا يلقون الطبيعة فى أسوأ مظاهرها ، وكثيراً ما اضطروا إلى شق طريقهم إلى موطن قدم ثابتة على « الأرض الصلبة »<sup>(\*)</sup> ، خلال النباتات المائية والمستنقعات الأخرى التى تحف بالسواحل . وفيما وراء نطاق

(\*) Tierra Firme أو الأراضى الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية .

المستنقعات الذي لم يكن أرضاً ولا ماء ، ولكنه عنصر مكون من كليهما ، امتدت ، لمئات الأميال ، الغابة المطيرة والجبال غير المطروقة كالتى عبرها فرانسيسكو سيزار فى طريقه الشاق إلى هضبة كندينا ماركا فى كولومبيا ، وتلك التى قابلها كورتيس فى رحلته الطويلة من المكسيك إلى هندوراس .

غير أن كورتيس وجد فى المكسيك أرضاً محبة إليه . وكانت فيها صفات كثيرة تذكره وغيره من الإسبانين بإسبانيا . فقد كتب إلى الإمبراطور شارل يقول : « مما رأيت وعلمت خاصا بالشبه بين هذه البلاد وإسبانيا ، فى الخصب ، والحجم ، والمناخ ، وفى مظاهر أخرى كثيرة بها ، بدا لى أن أليق اسم يطلق على هذه البلاد هو إسبانيا الجديدة ( المكسيك فى البحر المحيط ، وهذا باسم جلالتم - ما أسميتها ) . وعلق « الفاتح المجهول الاسم » فى نغمة مماثلة بقوله : « إن أرض إسبانيا الجديدة تشبه إسبانيا ، والجبال ، والتلال ، والودية ، والسهول ، ولها نفس المظاهر تقريبا ، باستثناء كون الجبال أكثر فظاعة ووعورة . » وأضاف : إن الحقول فى المكسيك كانت « مرضية للغاية ، ، فهنا فى الحقيقة أرض تحوز القبول .

وفى نصف الكرة الجنوبي أيضا ، كان الإسبانىون دائى البحث عن أرض تشفى حنينهم إلى الوطن . فقد كتب سيثا دى ليون عن الإقليم المحيط بكيكو يقول : « الأرض جميلة جدا وتشبه على وجه الخصوص إسبانيا فى مراعيها ومناخها . » وقال عن إقليم ريو بمبا البعيد المنحدر عن الهضبة : « إن سهوله الجميلة تشبه كثيرا سهول إسبانيا فى المناخ ، وفى الأزهار والحشائش ، وأشياء أخرى . »

غير أنه فى وادى تشيلي بالذات ، فى الطرف الجنوبي لمسار الفتوح الطويل ، وجد الإسبانىون أرض الميعاد . حيث لا عودة منها ولا رغبة فى العودة منها . فهنا ، فى الحافة البعيدة للعالم ، بين حائط الانديز العظيم

## البيئة

٥

والمحيط الهادى ، وجد الإسبانىون خاتمة المطاف لحلمهم (\*) ، وأطلق عليها الفاتح بدرو دى فالديا « أحسن بقعة أرض فى العالم . . . . . صحية جدا ، وخصبة للغاية ، جميلة ، وذات مناخ جميل جدا » ، فقد كانت أرضا تتصف « بالرضا الكثير » ، وهواؤها كان « بهجة » ولم يوجد هناك كثير من الذهب وكان الهنود محاربين أشداء ، ولكنها كانت أرضا طيبة للرجال ليحيوا فيها حياتهم ، وكان امتلاكها يستحق القتال . وكتب عنها الأب أكوستايقول : « إن البلاد التى تشبه فى الحقيقة إسبانيا أكثر ما يمكن ، والتى تشبه أقاليم أوروبا ، فى جميع الهند الغربية ، هى منطقة تشيلي التى تعد خارج القساعة العامة لهذه المناطق الأخرى فى كونها تقع دون المنطقة المحرقة ومدار التجدى . وهذه البلاد معتدلة وخصبة وتنتج جميع أنواع الفواكه التى يمكن أن تنمو فى إسبانيا ، وتنتج مقادير وافرة من الخبز والنيذ ، وتسكثر بها المراعى والماشية . فالهواء صحى ونقى وحرارتها بين الحر والبرد . » .

## البرازيل

وكما حدث فى فتوحات إسبانيا حدث كذلك فى البرازيل ، إذ بدأ البرتغاليون يهتمون جديا بالمستعمرة الشاسعة التى كانوا أهملوها زمناً طويلا ولم تكن خضرة الشواطىء المدارية الغضة جديدة عليهم كما كانت على الإسبانين ، فقد سبق أن اتبعت سفنهم السواحل الغربية لإفريقية ، وكان عليهم وقتذاك أن ينفذوا فى البحار إلى الشرق حتى المحيط الهادى قبل أن يولوا اهتمامهم نحو « أرض البيغاوات » . ومن الجدير بالذكر أن دوارتى كويلو « صاحب التزام » برنامبوكو (\*\*) وأكثر مستعمري البرازيل الأوائل

---

(\*) Ultima Thule : الحد الأقصى . والأصل جزيرة كشفها بئاس الإغريق فى القرن الرابع ق . م على مسيرة ستة أيام شمال جزر أوركي ، ولعلها جزيرة من جزر شتلند ، أو أيسلند أو النرويج أو جتلند .

(\*\*) الآن رسيفى : Recife

نجاحا ، كانت له تجربة مماثلة في الشرق . وفي الحقيقة كانت الخبرة القرية العهد في إفريقية وآسيا ذات قيمة عظيمة للبرتغاليين في إيجاد مجتمع ريفي في شمال البرازيل . فقد كان لهم سابقة معرفة بالظروف الإدارية التي وجدوها في العالم الجديد .

وبعد أن تسكفل البرتغاليون باستعمار البلاد وتطورها أحسوا بسحرها . فقد كتب بيرودى ماجاليس يقول : « إنها كانت « أنسب مقاطعة في أمريكا للجنس البشرى ، لأن الهواء عادة طيب ، والتربة خصبة للغاية ، و (الأرض) ذات منظر يعد أبهج وأجمل ما وقعت عليه عين بشرية » .

وقال الأب الجزويتى أنشيتا : « إن البرازيل كلها حديقة مزدهرة يانعة وشجر وارف ، ويمضى العام دون أن تقع العين على شجرة جرداء أو نبات يابس . وتبدو الغابات كما لو كانت تلمس السحاب ، وحجم الأشجار يثير الإعجاب ، وهناك اختلاف كبير في أنواعها . وكثير منها يغل فاكهة طيبة ، وإن الشيء الذى يكسبها سحراً خاصاً هو كثرة الطيور الجميلة من كل صنف يمكن مشاهدته فيها ، تشدو بأنغام لا تقل جمالا بأى حال من الأحوال عن أنغام البلابل والزقيقة والكناريا البرتغالية . وهذه العصفير يصدر عنها توافق في النغم لدرجة أن من يمر بها يجد نفسه مضطرا إلى تسبيح الرب . والغابات معتدلة ويافعة لدرجة لا يمكن أن تقارن بها الغابات الجميلة الصغيرة التى غرسها الإنسان في البرتغال ، (٢) : ويضيف قوله : « ولا تمل العين بالنظر إلى كل هذا السناء المتغير » . أما للأب بتا فقد كانت البرازيل « جنة أرضية » ولم يكن هناك « بحر أجمل » في أية بقعة من بقاع العالم . وقال هانز ستادن — وهو الألمانى الذى كان يحن إلى وطنه — « إنها أرض تسر الناظرين ، فالأشجار دائمة الخضرة ، ولكن ليس هناك غابة تشبه غاباتنا » وقال . « إن المتوحشين يمشون عراة » كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة .

وكانت مظاهر الطبيعة الثلاثة التي وجدها الإسبانى أو البرتغالى فى القارة الجديدة هى الأنديز وغابة الأمازون والنباتات الأرجنتينية ، ولم يحب واحداً منها ، إذ فقد سيطرته على جسمه نفسه فى الأنديز الشاهقة ، وفى الغابة عوقت الأشجار سيره ، وراعتة الأنهار ، وانهاالت فوق رأسه الأمطار . وكانت النباتا خاوية للغاية ، وتسببت الجبال العالية فى «توترات» عصبية لم يستطع التحكم فيها ، وبدأ فى الغابة المطيرة جو من الكآبة ، وعلى مروج النباتا خشى أن يصبح عقله خاوياً فى فراغها اللانهائى أو إذا انكب على التفكير فمن المحتمل أن تصبح أفكاره بلا هدف أو تتشتت فى دوامة . وأجمعت المظاهر الثلاثة على التقليل من شخصيته ، وانتقصت جزءاً من شعوره بالآهمية . ولذلك تجنبها واتجه نحو أراض أصغر توافق روح إسبانيا الجديدة — نحو أراض قد يستطيع السيطرة عليها أو يعيش معها فى وئام . وكانت هذه هى المشكلة التى كتب عنها همبولدت يقول : « فى العالم القديم تكون الأمم والفوارق التى بين حضاراتها الصفة الرئيسية فى الصورة ، أما فى العالم الجديد فالإنسان يكاد يختفى هو وما ينتجه وسط المظهر الطائل الذى تبيده الطبيعة الموحشة العجابة » .

### الأنديز

لقد شعر الإسبانى أنه غريب فى الأنديز العالية ، ولكن الكورديليرا كانت موطناً الرعية من الإنكا ، ولم يتركوها أبداً دون أن يشعروا بالندم أو بالمخاطرة بصحتهم . وكلما أعاد الإنكا إسكان شعوبهم أراضى جديدة فى امبراطوريتهم لأسباب اقتصادية وسياسية كانوا حريصين على ألا يحركوا فريقاً منهم إلى منطقة يختلف ارتفاعها عن المنطقة التى تعودوا عليها زمناً طويلاً . فقد تلامم الهندى لآلاف السنين بيولوجيا وروحياً مع موطنه المحلى ، فصدره الذى يشبه البرميل ، بفرخ رثيئه الشاذ ، إنما هو نتيجة تطور نشأ لتعويض قلة الأكسجين فى الجو المخلخل . وحملت اللاما أثقاله وقدمت له رفقة فى فيافى الهضبة الصامتة ، وأمدته صوفها بالملبس الذى

وقاه البرد وفراؤها بالفراش الذى ينام عليه فى الليل . وفى أغلب الأحيان كان روئها وقوده الوحيد . وكانت السكوكا(\*) مسكنا للجوع والتعب والآلم الذى كان يشعر به فى جسمه . وكانت الشمس تطلع فتدفئه بعد برد الليل وتخرج من أطرافه خدر الفجر . واتخذ نقطى الانقلاب علامة للفصول . وكانت الشمس الخيرة الهدف الرئيسى لعبادته . وغير وجه الجبال بالمدرجات وقنوات الرى حتى جعلها ملائمة لاستخداماته . أما القمم العالية مثل اليماني وسوراتا وهواسكاران التى ارتفعت فوق مستوى السهول العالية فقد كانت ملاجئ للأرواح لا يقترب منها ، بل ينظر إليها برهبة واحترام . فهذه وجميع مظاهر السطح - السهول المرتفعة المقبضة ، والأودية اليانعة بين سلاسل الجبال ، والسطح الفسيح لهضبة السكولاو ، والأنهار ذات المساء القارس التى تنبع من حقول الثلج ، والبحيرة ذات الجزيرة المقدسة وخلفيتها المهيبة - كلها كانت مألوفة ومحبوبة لديه كإطار خالد لحياته القصيرة .

ولم تكن الأندين بأى حال من الأحوال وطننا للإسباني ، فقد كانت بالنسبة إليه ، مهما حسنت الأمور ، بمثابة مئوى فى معسكر كبير للتعدين . وكان إغراء المعادن هو الذى استطاع أن يجتذبه لفترة طويلة من الأراضى المنخفضة ، ولم يرتض الإقامة فترات طويلة نسبيا فى الأماكن الكثبية مثل پوتوسى أو كاستروفيرينا أو أورورو ، سوى الباسك ومواطنى أستورياس . وحتى هؤلاء كانوا يرجعون إلى المستويات المنخفضة ، كما كانت الحال عند شوكيساكا أو لابلاتا وكوشابمبا حيث كانوا يميلون إلى قضاء معظم وقتهم ، وحيث نزحوا نهائيا ليستمتعوا بشرواتهم فى راحة . أما أهل الأندلس ذوو الدم الدافئ فقد تجنبوا السهول المرتفعة ، وأما القشتالى فلم يكن يغريه عادة للعيشة فترة بين النصور الفحاحة تاركاً السهل سوى الحصول على وظيفة نائب الحاكم المحلية .

(\*) COCA : عشب تستخلص من أوراقه مادة مخدرة ومنشطة هى السكوكاين ( الاصله يروى ) .

وكان الكفاح لتهيئة الحياة للبيئة الطبيعية في الجبال العالية أمراً صعباً على الإسبان ، وكثيراً ما قاسى الفاتحون الأُمريين ، كما قاسى الذين جاءوا من بعدهم ، من برد المرتفعات . فقد كتب سيبثا دى ليون عن جنود بشارو في مطاردتهم للأماجرو يقول : « لقد استمروا في سيرهم متهاونين ، دون أن يحملوا معهم خيامهم لتحميهم من تساقط الثلج الثقيل ، ولم يستطعوا تحمل البرد . . . ولم يكن سوى نفحة من الحظ أنهم لم يموتوا جميعاً فرسة للجلد » . وقد انتاب رجال بشارو أيضاً دوار الجبال أو « مرض الجبال » . يقول سيبثا : « لقد انتابهم الدوار وأثر فبههم لدرجة تسبب عنها قى مورتنج بل لقد ألقوا بأسلحتهم إلى الأرض » (٣) وهذه بعض أعراض واحد من الأمراض الكريهة الناتجة عن عدم التوازن بين ضغطي الجسم والجو في المرتفعات العليا ، ويزيد تفاقمه نقص الأكسجين اللازم للتنفس . ويميل القادم الجديد إلى السلاسل الجبلية إلى الشكوى من التوترات العصبية الحادة . فالحياة المضطربة في بوتوسي في أوقات الرخاء لم تكن الشرط الطبيعي الوحيد لمعسكر تعدين غنى بالثروة المعدنية ، فالارتفاع الشاهق إلى درجة غير معهودة ، تسكاد تصل إلى أربعة كيلو مترات فوق سطح البحر ، جعل مزاج الناس أميل إلى الإثارة والتشاجر الذي كان ينشب في بعض الأحيان في عنف هائج لا هدف منه . ومن معوقات الحياة في الأنديز العالية قاسى الرجال من العقم (٤) . فقد مضى وقت طويل قبل أن تحمل النساء وتلد في بوتوسي ، ومضى وقت أطول قبل أن يستطيع الأطفال المولودون تحمل أخطار الطفولة في مهد المدينة الامبراطورية ، الممقوتة . وإلى الآن تعد هذه العوامل معوقاً لتكاثر السكان البيض فوق المستويات العليا ، في هضاب الأنديز حيث لا تزال الغالبية للسكان هنوداً أو مولدين .

وإلى أسفل ، على ارتفاع قريب من ٢٧٠٠ متر في العروض الإدارية تبتدى منطقة يمكن أن يعيش فيها المرء عيشة تقرب من الحياة الطبيعية

العادية ، إذ يقل الضغط على القلب والرئتين كثيرا ، ويمكن للمرء أن يحتفظ بالدفع دون جهد كبير إلا في الليل . وعلى مستوى الارتفاع العام توجد مدن قديمة هامة مثل كشكو ، وكوشامبا ، وكيتو ، وبوجوتا ، وكثير من المدن الصغرى حيث استقر الإسبان وعاشوا في راحة واطمئنان — وإنجاب الأطفال .

وإذا استثنينا الجزر المنخفضة في الأنيل والأرجاء الجنوبية المعتدلة من القارة أظهر الإسبان ميلانحو الأراضي التي ترتفع من ٩٠٠ إلى ٢١٠٠ متر فمدينة المكسيك وأريكا يزد ارتفاعهما قليلا على هذا النطاق . وتقع سانتياجو وسان سلفادور تحت هذا المستوى .

ولكن في هذا النطاق تقع معظم المدن الكبرى في المكسيك وكولومبيا . وعواصم جواتيمالا وهندورس وكستاريكا وفنشولا (فنزويلا) ومدن كثيرة غيرها في أمريكا الإسبانية . وهنا في وسط هذا النطاق من الأرض الوسطى وجد الإسباني مناخا ينشطه بدل أن يخدره أو يبطئه ، وأكسبه إحساسا بتركيب جسمي سليم لا تهدده الملاريا ولا دوار الجبال . وهنا يمكنه أن يزرع المحصولات والنباتات الأخرى التي ألفها في إسبانيا . فضلا عن ذلك ففي هذه الارتفاعات كان حجم الجبال مما يستطيع معه أن يقيس أبعادها ويدركها ويشترك معها على قدم المساواة .

والمكسيك بلاد جبلية كإسبانيا . ومع أن الجبال هي المورد التقليدي — والحادع — لثروتها المعدنية ، فإن الغالبية العظمى للسكان قد اعتمدوا في معيشتهم دائما على الزراعة . ولم تكن حياتهم التي حبوها طيبة أو سخية ، لأن منظر الطبيعة القاسي والواضح يحوى بين ربوعه أرضا قليلة صالحة للزراعة . ويزدحم معظم السكان في أحواض بين جبال الهضبة الوسطى حيث تتركز الأرض القليلة القابلة للزراعة <sup>(٥)</sup> . ولكن السباق الذي



يجرى بين كثرة إنجاب الأطفال واستهلاك التربة أجبر الجمهورية على إدخال سلسلة من مشروعات الري في الأرجاء الشمالية للبلاد ، الغرض منها زيادة مقادير الطعام القليلة اللازمة لأبناء الأمة . وتسقط الأمطار فوق الهضبة في فصل بالذات ، وينتج عن عدم التثبيت من سقوطها إيمان كبير بالقضاء والقدر لدى الشعب المكسيكي الذي كان تهديد الجوع ماثلا أمامه دائماً كما كان في إسبانيا .

وقد شجعت الجبال التي قطعت البلاد إلى جيوب وسورت الاودية والسهول ، تفصلها بعضها عن بعض ، على العزلة وجمود الجماعات الذي أسس في الأصل على فروق جنسية . وتأصل بالقصور الذاتي لمئات السنين . وفي جهدها لتثبيت الروح القومية في الشعب اضطرت حكومة الجمهورية إلى محاربة الروح المحلية المتأصلة ذات الجذور الجنسية والطبوغرافية معا ، وأفادت أقلية من السكان فقط من الخطوط الحديدية والطرق الرئيسية والطائرات التي أحدثت ثورة في هذه الأرض الوعرة . ولا تزال الأغلبية متعلقة بالقرى كما كانوا يفعلون قبل مجيء الإسبانين غير عابئين بالتوسلات التي تبعث بها العاصمة للاندماج في مجتمع المكسيك الأكبر . واتسع البلاد في الشمال ، وتبدو المناظر أكبر . وهناك نجداً لأهالي أكثر حبالاً خطرة . ويتوقون إلى معرفة مادون الأفق ، ويتحركون في نطاق أوسع . بيد أنه ، حتى في هذه الأرجاء ، ترتفع سيرا مادي بخوانقها مكونة مانعا يكاد يستحيل معه السفر بين الداخل والولايات التي تطل على المحيط الهادى .

وإذا كانت هذه المظاهر مما تتصف به أمريكا الجنوبية فقلما نستطيع أن ننظر على مرتفعات البرازيل صفة الجبال . ومع ذلك فكثير من هذه الهضبة الشاسعة الوعرة يقع فوق ارتفاع أربعة آلاف قدم . وهذا هو

الظرف الذى يشرح لنا المناخ المعتدل الذى يتمتع به جزء كبير من البلاد كان يصبح ، لولا ذلك ، مدارياً كما هى الحال فى العروض المماثلة فى إفريقيا. ففى ساو باولو نجد هضبة ممتدة نحو الغرب ، وتدعو الناس إلى قلب القارة. كما فعل المستكشفون البرتغاليون (\*) الأوائل الذين اخترقوا قلب القارة. الثنائى إلى حوضى باراجواى وماديرا . وإن مواقع الأنهار التى تصب فى بارانا الأعلى هى التى خلقت طرقاً طبيعية إلى ماتو جروسو لأهالى ساو باولو (\*\*). المخاطرين . أما ميناس جيرائس فمعظمها ذو صفة جبلية بالفعل ، وغالبية سكانها الذين يعيشون بين سلاسل الجبال يتصفون بالحذر والرجعية التى يمتاز بها الجيليون . وقد كانت دائماً مورداً لمعظم ثروة البرازيل المعدنية — الذهب والماس والحديد والمنجنيز والميكس وبلورات السكوارتز — ولو أن الزراعة هى التى وطدت أهالى ميناس (\*\*\*) فى موطنهم الجبلى .

### البها

البها الأرجنتينية سهل شاسع يمتد من ساحل الأطلنطى ونهر بارانا حتى السفح القارى الذى يعد أول إشارة تومىء إلى الاقتراب من الأنديز ويحيط ، جهة الشمال ، بتلال كوردوبا حتى ينتهى عند سفح الجبال التى تهبط من بوليفيا ، أو يندمج بعيداً نحو الشرق فى السهول المنخفضة التى تسكوها الغابات فى إقليم شاكو الأرجنتينى . وينتهى نحو الجنوب فيما وراء ريو نيجرو ليحل مكانه إقليم الاستبس الذى تكتسحه الرياح فى بتاجونيا وتعد الأراضى الخصبة بين النهرين بارانا وأوروغواى امتداداً للبها ، ولكن لها صفاتها المحلية الخاصة . ومن المحتمل أنه إلى الأسفل من سطحها المكسو بالحشائش توجد أغنى تربة على سطح الأرض . ولا يوقف

(\*) Bandeirantes مستكشفو الأرجاء الداخلية من البرازيل : حملة الأعلام .

(\*\*) Paulistas

(\*\*\*) Mineiros

استواء سطحها لمئات السكيلومترات ارتفاع ولا علام سطحية يعرف بها الناس اتجاهاتهم .

واخترق الإسبانيون الأوائل هذا الفراغ الطبوغرافى من أربعة اتجاهات : من شواطئ مصب اللابلاتا ، وبالممرات المرتفعة من ناحية تشيلي ، والتي أدت إلى سفوح إقليم كويو الجذاب ، ومن هضبة تشاركاس فى بيرو العليا ، وابتاع مجرى الهر من المستعمرات الهندية فى باراجواى . وقد روعهم اتساع الأرجاء الداخلية الهائل فى أول الأمر ، فتشبثوا بأطرافه حيث وجدت الجبال أو الأنهار أو المحيط لتعطيم بعض الإحساس بالشخصية فى العالم الذى عرفوه (٦) . وقد روعهم كذلك الهنود المتوحشون الذين اقتسموا فيافيهم مع الجواناكا الصغير الذى ينتمى إلى اللاما ، والفسكاشا الحفار (\*) والإيمو أو نعامة العالم الجديد . وانضم إلى هذه الحيوانات فى زمن مبكر الخيول والماشية التى ترعرت وتكاثرت بدرجة مدهشة فى حالتها البرية كلما توغلت فى البها . وسبب الحصول على الحصان ثورة فى النقل بين هنود البها الذين وجدوا فيه وسيلة للسيطرة على أعدائهم ، وكانوا لا يزالون يترجلون فى تحركاتهم ، ووسيلة فعالة للهجمات المباغتة على المستعمرات المنعزلة التى استقر فيها الإسبانيون ولم يستطع الرجل الأبيض أن يشغل البها وينهض بها قبل أن يندمج الهندى دما بالإسبانى فى عملية تهجين بطيئة ، أو قبل أن زحزح عن الأرض بالقوة الحربية فى منتصف القرن الماضى . وفى هذه الفترة الطويلة ظل دخيلا وحيداً فى بيئة كانت غريبة عن جميع ذكرياته وتقاليده ، ومنفرة لما تتوق إليه نفسه الإسبانية من شوق دفين . وعندما تلامم أخيراً مع موطنه لم يصبح إسبانيا بعد ، ولكن مخلوقاً من مخلوقات البها لا يستطيع قشتالى أن يرى فيه قرابة . ففى

(\*) حيوان فارص .

القرن الثالث ، من خوان دى جاراي إلى مارتن فييرو ، طراً عليه تحول عميق جدا . (٧)

وكانت الببيا كلها في نظر الجوشو (\*) وهو خلاصة هذه العملية التطورية . « عشبا وسما » (٨) ، وقد وصفها مواطن أرجنتيني معاصر بأنها عالم بلا وجهة أو علامات أو أبعاد . وأطلق على الإسبانيين الأوائل الذين دخلوها « سادة الفراغ » (\*\*) فراغ لا حد له ، حيث كانت رؤية الجواناكو (اللاما الوحشية) أو النعامة لا بد أن تسبب في بعض الأحيان إحساسا بحقيقة وجود هذا العالم . فهنا وجد الإنسان نفسه مقيداً في لانهاية الفضاء . وعندما سورت الببيا وأقيمت البوابات المقفلة على حدود حظائر الماشية المحاطة بالأسلاك الشائكة ، أصبحت شيئاً محدوداً يمكن قياس أبعاده ، وعرف الجوشو حينذاك أن يومه قد انقضى .

ويصف و . ه . هـ دسن التغير الذي طراً على أولئك الذين سكنوا الببيا فيقول : « جاء المستعمرون الأوائل من أراض تعود الناس فيها الجلوس في ظلال الأشجار ، حيث افترضوا أن الحنطة (القمح) ، والنبذ ، وزيت الزيتون ، كانت من الضروريات ، وحيث كانت « السلطة » موجودة في الحديقة . فمن الطبيعي أنهم أنشأوا الحدائق وغرسوا الأشجار للظل . والفاكهة معا في أية بقعة بنوا فيها بيتا في الببيا ، ولقرنين أو ثلاثة قرون ، بدون شك ، حاولوا أن يعيشوا كما يعيش الناس في إسبانيا ، في الأقاليم الريفية . أما الآن فقد كان شغلهم الشاغل في حياتهم هو تربية الماشية ، ولما كانت الماشية تتجول ماشاءات فوق السهول الشاسعة وكانت أشبه بالحيوانات البرية منها بالمستأنسة ، فقد أصبحت حياتهم فوق ظمور الخيل . ولم

(\*) راعي البقر في الببيا .  
(\*\*) Senores de nada .

يستطيعوا بعد ذلك حفر الأرض ، أو حرثها ، أو حماية محصولاتهم من الحشرات والطيور ومن حيواناتهم نفسها . وتركوا زيتهم ونيذهم وخبزهم وعاشوا على اللحم وحده ، وجلسوا تحت الظل ، وأكوا ثمار الأشجار التي غرسها آباؤهم أو أجدادهم ، حتى ماتت الأشجار طاعنة في السن أو اجتثت من فوق الأرض ، أو أهلكتها الماشية ، ولم يعد هناك ظل ولا فاكهة .

« ولذلك حدث أن المستعمرين الإسبانيين في مروج البها تجنبوا حياة الشعب الزراعي وانخرطوا في حياة الرعي أو حياة الصيد الصرفة ، وبعد ذلك عندما اهتز النير الإسباني ، كما كان يسمى ، نشبت الحروب والاضغاث التي كانت تشنها الطوائف المختلفة باستمرار ، والتي كانت تشبه قتال « الغريبان مع القنادس » ، فيما عدا أن القتال هنا كان بالمدى بدلا من المناكير ، وأوغلت بهم في ظروف حياتهم الوحشية والهمجية » .

وكانت هذه هي « الوحشية » التي كان دومنجو فاوستينو سارمينتو يقابلها « بمدينة » الكايتول الأرجنتيني . ولما كان الجوشو قد قيدوا بركوب الخيل ، فقد أصبحوا شعباً من القنطاريين(\*) ، يثقله ويقلقه السير على الأقدام ، قليل الكلام ، سيء الظن ، ولكن له شريعة وخلقاً يتضمنان وقار مظهره الفطري وكرمه العربي نحو عابر سبيل ضال أسلم نفسه لرحمته ، جواب آفاق لا يستقر له مقام ، وفوضوياً من ولادته ، حائقاً على كل القيود والسيطرة ، سواء من قبل الدولة أم الأسرة أم الكنيسة ، أشعث ، فظا ، غير مهندم ، يحتقر زخرف سكان المدن وتفاهتهم ، كثير أكل اللحم ، ولكن معتدلاً في احتسائه الخمر ، يعوض من تعاطيه اللحم نصف النىء . الإكثار من تناول الماتى(\*\*) ، وقويت فيه حاستا البصر والسمع إلى حد

(\*) من قنطورس Centaurs حيوان خرافي لأفريقي ، نصفه آدمي ونصفه حصان .

(\*\*) maté أو شاي باراجواي ، أوراق نوع من شجرة « عيد الميلاد » يشرب في أمريكا الجنوبية كالشاي .

بالغ ، بأذنين تلاءم مع السكون ، وعينين كعقلى الصقر ، يمضى وقت فراغه فى استرخاء كالسكب المجهد فى حظيرة كوخ أو تحت ظل شجرة أو مبو فى تبادل الذكريات مع بنى قومه فى أحد الأدغال المنعزلة على الطريق ، أو ألعاب خشنة مملّة على ظهر الخيل أو ، إذا ندر وكان ذا مزاج للإنشاد ، فى تقاسيم شاقة لأشعار حزينة مملّة على رنين القيثارة . أما حبه فيشبه شيئاً عارضاً ألم يبشرته ، ومنزله سرج حصانه . .

فلقد ابتعد كثيراً عن النقط الأصلية لحياة سلفه الإسبانيين الذين حاولوا فلاح البها كأنها حقل فى إستريما دورا . وفى الأجيال المتعاقبة غيرته البها بالتدرج وصبته فى قلبها هى . ولما انتهى إلى وفاقه مع مطالب الأرض التى لا تلين انتهى كذلك ، دون تيقظ وعلى كره منه ، إلى وفاق مع عدوه الهندى ، واستعار من الهندى مهارته وطرق معيشته ، واستعار نساءه ، لأن المرأة التى حملت أطفاله وقامت بالعمل فى البيت فى أثناء تجواله فى السهول كانت تنتمى إلى أصل تيهلش ، أو كاشيكل ، أو جوارانى .

وانسل الجوشو مع الماشية الطويلة القرون والمراعى الطلقة<sup>(٩)</sup> ، فلم يكن له مكان فى عصر المجتمع الريفى الجديد وملاك المزارع العظام . وبذلك أصبح حادثاً تاريخياً عارضاً وجزءاً من أساطير وقصص أرجنتينيا ليس إلا . وفى عصر أكثر سوفسطائية كثرت حوله الكتابات الأدبية التى تحن إلى الماضى . فلقد صورته سيزاريو برنالدودى كيروس فى خيامه المحترقة ، أما رانسكو مولينا كامبوس فقد صور أحواله الخاصة وبطولاته الخشنة فى صورة هزلية .

### الانوس

وفى مؤخرة الكتلة الإسبانية توجد مساحة أخرى من الأرض تشبه فى طبوغرافيتها العامة البها الأرجنتينية . وهذه هى لانوس فنشويلا وكولومينا

التي تستوعب قسماً كبيراً من حوض الأورينوكو الأعلى وخصوصاً الأراضي التي توجد عند نهري أبوري وأروكا . وهي « بحر من الحشائش ، مثل البها كما وصفها همبولدت . ولكنها تتلاشى على طول مجارى الأنهار عندما تحمل محلها الأشجار القصيرة والأعشاب . وهي ليست مهيأة لمعيشة الإنسان معيشة راضية ، كما أحرزت الإسبانيين الأوائل الذين جابوا فيها بلا هدف باحثين عن أرض الذهب (\*) . فلم يكن من المستطاع إقامة مجتمع متمدن في مثل هذه البيئة . فالمنامح مدارى إلى حد بعيد ، وتجد الحشرات فيه بيئة صالحة لها . ففي أغلب أيام السنة تلفح الشمس السهول وتشققها بعد انتهاء فصل الأمطار . وفي سائر الأيام تتحول مساحات شاسعة من الأرض إلى محيط ضحل مثل سهل ولاية بنى فى بوليفيا . أما الوقت الذى يقع بين هذين الفصلين فهو وقت الأوحال والملازيا ، ويستمر حتى يختفى الجمل والمستنقعات من فوق الأرض الغرقى .

وظلت اللانوس لعصور طويلة مركزاً لتربية الماشية ، ويشبه سكان اللانوس ( اللانيرو ) ، بأجسامهم الهزيلة ، الماشية نصف البرية التي يرعونها وهم مهرة فى ركوب الخيل ، وقد أدوا خدمة قيمة كرماحين لكل من الجانبين فى حروب الاستقلال . وفى العهود التالية كثيراً ما كان كبار الساسة يجدون من السهل تجنيد خيالة غير منتظمين من صفوفهم . ولما كان الأفق فى اللانوس مفتقراً إلى إغراء الجبال المديد ، فإنهم لم يتعودوا التجوال بعيداً كما فعل الجوشو الذى كان رحالاً صميماً ، تدور أفكارهم تقريباً فى نفس دوائر الفكر والانفعالات البسيطة كما هى عند الجوشو ، كما تمتاز حياتهم بنفس الخشونة وتتضاءل شخصية كل منهم بجانب عالمهم الطبيعى الشاسع . وبينما استسلم الجوشو لطغيان « مدنية » سارمينتو ، بقى اللانيرو على حاله لم يتغير إلا قليلاً فى الأراضي الخلفية الآسنة فى الجمهوريتين . وقد تسكفت صعوبة الوصول

إلى اللانوس ، والجاذبية الفائقة التي تضفيها أحوال المعيشة فوق المرتفعات  
وانشغال فنشويلا المذهل بالبتروول ، على تركه دون إزعاج في عزلة  
وتخلفه (١٠) .

واللانوس مسرح قصة « السيدة بربارا » لمؤلفها رومولو جاييجوس ،  
وهي من أشهر قصص أمريكا اللاتينية . ففي تأملات سانتوس لوشاردو  
في أحوال آباءه الأوائل ، وهو الأرستقراطي الصغير الذي عاد لثو له  
أرض أسرتة التي استوطنها الأجداد ، يصور جاييجوس طبيعة وأحوال  
اللانوس وسكانها . ويكتب عن « كفاح اللانير ضد الطبيعة وضد الوبالة  
التي تبعد الجنس ، وضد الفيضان والجذب اللذين يتناوبان الأرض فيما بينهما  
وضد الوحشة التي تحجبها عن المدنية » . ويقول عن المتناقضات في مزاج  
قاطن هذه الأماكن الماحلة إنه « جموح يتحمل العذاب ، كسول لا يعمل ،  
فإذا خاض المعارك نجده مندفعاً وحريصاً ، وأمام رئيسه نظامياً ومخلصاً ،  
ونحو صديقه سيء الظن أريحيماً ، ونحو المرأة شهوانياً وجافاً ومع نفسه  
مخلوقاً له حواسه ومعتدلاً ، فإذا خاطبك فهو شخص تهكمي وشريف ،  
متشكك ويؤمن بالخرافات ، ويجمع بين البهجة والكتابة ، واقعي ومخترع  
للأوهام ، وإذا ترجل تواضع . أما إذا امتطى الخيل داخلته الكبرياء » .

### الغابة

كانت الغابات المطيرة آخر الأرجاء التي استعمرت في أمريكا اللاتينية .  
ومعظمها لا يزال حتى الآن فراغاً سكائياً ، فبعد أربعة قرون يقطن سلفاً (\*)  
الأمزون سكان أقل عدداً من سكان بورتوريكو . وإذا استثنينا الرحال  
المتأصل ، والمبشر ، وطريد المجتمع ، كان هناك إغراء قليل للهجرة من

(\*) Selva : اللفظ الذي يطلق على غابة الأمزون الاستوائية وتسمى به الغابات  
الحارة عموماً .



الأرض المسكونة في الجبال أو على طول السواحل نحو الفيافي القاحلة إلى أن جاء رواج المطاط في أوائل القرن العشرين فأوجد دافعاً مربحاً كبيراً يجذب الناس نحو الغابة .

وبعد وادي الأمزون أكبر مساحة غابية شاسعة في العالم . ويندج نحو الشمال في حوض نهر أورينوكو ، ويندج في الجنوب ، بعد عبور خط تقسيم مياه منخفض غير واضح ، في الأراضي التي تحيط بمنابع مجموعة نهر بلات . وهناك غابات مطيرة أخرى في أمريكا اللاتينية - في جنوب المكسيك ، وفي السهول الساحلية في أمريكا الوسطى ، وفي إقليم شوكو الكثير البلب في كولومبيا ، ثم إلى الجنوب على طول المحيط الهادي إلى حافة صحراء بيرو . فإذا بعدنا نحو الشرق اندج في أجزاء من ولايتي باهيا واسيرتو سانتو البرازيليتين اللتين تطلان على المحيط الأطلنطي . ولكنها ، جميعاً أو شتى ، لاتقارن في الحجم بمساحة غابة الأمزون الشاسعة وخطوط تقسيم مياه أورينوكو وباراجواي المناخية .

وقد توغل الإسبانيون والبرتغاليون مبكرين في الطرق المظلمة ، ولم يحبوا مالاقوه إلى درجة كافية ترغهم في الإقامة فيها أو العودة إليها . فلم يجدوا ذهباً في ركاز أوحاط معبد على الرغم من أنهم بحثوا في طول تلك الأرجاء وعرضها عن أرض الذهب (الدورادو) أو المدينة الخيالية ذات الثروة التي كانت تجعل روة كشكو وتينوشتلان(\*) ضئيلة بجانبها . فلم تقدم لهم الأمزونياً تعويضاً يروق لهم نظير ماعانوه من الإرهاق والممل الذين لانهاية لهما . ولقد شن كورتيس ونهينيث دى كيسادا غارات طويلة وشاقة في أعماقها ، وكان جنشالو بشارو وفرانسسكو دى أوريانا يتقابلان جيئة وذهاباً عند مفترق طرقها . كذلك فعل كثير من الفاتحين الأقل شأنًا والواقعيين

(\*) عاصمة الازاتقة Ogatecs : الآن مدينة المكسيك.

أمشاهما . فقد أبحر پدرو دى تيشيرا نحو منابع النهر ليعلم البلاد ومياهها للبرتغال، ولكن إلى الوقت الذى نزل فيه الأب أكونيا من الأنديز فى سنة ١٦٣٩ لم يكن لدى أحد كلمة طيبة يقولها عن أرض الأمزون . أما القس الجزوبى فقد أشاد حتى بالمناخ ، ولو أن « شعاع القمر القليل » كان يسبب له الصداع ، وكان يرى أن البلاد «جنة» لولاء وباء البعوض . وكان أتباعه الذين أسسوا الإرساليات على نهر مارانيون الأعلى أول الأوربيين الذين استقروا فى وادى الأمزون . وعبر المستكشفون من أهالى ساو باولو خط تقسيم المياه إلى حوض نهر ماديرا فى نزوحهم الذى أشادت به الأساطير ، ولكنهم وجدوا دافعا ضئيلا يربطهم بتلك الفيا فى النائية . وفوق ذلك فإنهم لم يتركوا سجلا عن أسفارهم ، شأنهم شأن معظم الرجال المجهولين الذين سلكوا مؤخرا مجارى الأنهار بحثا عن المطاط . ولم يذع الرجال الذين تعلموا القراءة والكتابة قصة أمزونيا للعالم إلا بعد أن دخل همبولدت العظيم الوادى سالكا طريق قناة كاسكيارى من الأورينوكو . ومن ذلك الوقت كتب فريق ممتاز من العلماء والرواد والمراقبين عن عجائبها الطبيعية ، ومن بينهم الضباط البحريون الأمريكان هردن ، وجين ، وبتس العالم الطبيعى الإنجليزى ، وأجاسيدس وولاس ، وأرتن وهيث وتشيرتش ، وسبكس ومارتش الألمانى ، والأخوان كودرو ، وجنرال رندن رئيس الخدمة البرازيلية الهندية المشهور ، وبول لى كوانت الفرنسى الذى أسهم فى دائرة المعارف ، ويوكليدس داكونا وجوزيه فيرسيمو البرازيليان . وتيودور روزفلت وليوملر ، وديكى وهانسن وتوملنسن ( مؤلف كتاب « البحر والغابة » ) . وفى أثناء ذلك دخل البرتغاليون الوادى فى أعداد متزايدة فى القرن الثامن عشر بحثا وراء الرقيق الهندى ومخضولات الغابة الأخرى . واستمر التسرب الضئيل فى القرن التالى ونمت مستعمرات جديدة على الأنهار ، ولكن لم تصبح الهجرة على نطاق كبير حتى أوائل هذا القرن . وحتى فى ذلك الوقت كان ميدان الاستعمار شاسعا لدرجة أن تلك القفار كانت تغلق أبوابها وراءهم

كلما رق التيار البشرى فى مداخلها الكثيرة ، فبدت كأنها خاوية كما كانت دائماً .

فقد كانت بيئة لا يستطيع أن يختارها وطناً بحرية سوى المخاطرين أو المهيأين لها جسمياً . ومن القادمين الجدد امتاز البرتغالى على الإسبانى فى تهيئة نفسه لها ، وهنا ، كما كانت الحال فى أى مكان آخر فى المدارين أظهر سهولة مشهودة ليتلاءم مع الظروف الغريبة المجردة . أما الإسبانى ، الذى تعود دائماً المعيشة فى الأرض المكشوفة ، فقد تحاشى الغابة كما لو كانت سجنًا أخضر . فلما حاول فعلاً أن يعيش فى المدارين أصر على أن يحمل معه كثيراً من ثقافته التى لم تكن ملائمة للوسط الجديد بأى حال من الأحوال . وعلى النقيض من ذلك كان البرتغالى يترك وراءه من ثقافته ما لم يخدم غرضاً ينفعه . أما الزنجى فى أمزونيا ، وقد ألف أباًؤه بيئة شبيهة فى إفريقيا المدارية ، فقد كان فى موطنه ، وفى الحقيقة كان شعوره بأنه فى موطنه ، يفوق شعور الهندى الذى لم يهيم نفسه تماماً للبيئة التى عاش فيها زماناً طويلاً . واتضح فى آخر الأمر أن خليطاً من الثلاثة — البرتغالى والزنجى والهندى — كان أكثر ما يلائم المطالب الخاصة التى تستلزمها الحياة فى الغابة المطيرة . وكان المولد من المزيج الثلاثى قوياً وصلباً ، لا يساور نفسه الحنين إلى وطن أصلى ، بخلاف الهندى الذى بدا دائماً ، وبصورة غامضة ، كأنما يحن إلى أرض ما ، كان يقطنها أجداده ولا يستبقى فى ذاكرته شيئاً عنها . وعلى النقيض كان المولد المختلط جزءاً أساسياً من البيئة المحلية ، كما كان المستوطن فى العابات الكندية .

والحقائق البيئية الأساسية فى الأمزونيا هى الأنهار والغابة والأمطار والحرارة . وتأتى أوقات تبدو فيها هذه المظاهر الأربعة شيئاً واحداً لاعناصر متفرقة فى عالم فطرى وغير منتظم الشكل لا يجد فيه الإنسان مقاما .

فالأنهار هي الطرق ، ولكن إذا اشتدت تيارات الماء فإن السفر في اتجاه واحد يكون أشد بكثير منه في الاتجاه الآخر . ويسافر الناس فوقها بالسفن البخارية أو الزوارق وعلى الأطواف وبشتى أنواع المراكب ، غير أن أغلبها قوارب محفورة من جذوع الأشجار . ولكن مهما يكن نوع المركب فعادة ما كان الشخص يستخدم الماء إذا أراد الانتقال من مكان إلى آخر . وربما يفقد قاربه في النهر الجياش ، أو قد يوجهه بمهارة خلال المندفعات المائية حيث تعترض المجرى التلال البازلتية . وهو ملاح ماهر ، خصوصا كلما كان يجرى في عروقه الدم الهندي ، لأن الهندي يتجنب الغابة نحو النهر المكشوف الذي يفهم مسالكه . ومن أكثر الأمور الشائقة التي يتصف بها ملاحو النهر المرشد الذي يقود الجايولا أو السفن البخارية ذات القاع المستوي من بليم إلى مناوس . فهو يعرف أسرار ونزوات نهره — جوانب النهر المتحركة ، الحواجز المغطاة بالماء ، التيارات والدوامات التي في المجرى ارتفاع الماء المفاجيء وانخفاضه الذي قد يترك سفينة جانحة على شاطئ مرتفع من الليل حتى الصباح . وهو يستطيع أن يقرأ ضوء الشمس فوق سطح الماء ، وحيث يبدو كل شيء متشابها للغريب نجده هو يعرف علامات الشاطئ سواء بالنهار أم في ظلال القمر .

وإذا كان النهر وسيلة للنقل فهو كذلك مصدر للطعام ، لأن أنهار الأمزون غنية بالأسماك . ففي بعضها — كنهر برانكو — تكثر السلاحف المائية ، ولحها ويبيضها لايزالان غذاء رئيسيا لسكان النهر . وكذلك يستطيع الإنسان أن يشرب وهو مطمئن من الأنهار بخلاف جداول الغابة التي قد يلوث ماؤها بالسموم النباتية .

والحياة على ضفاف الأنهار أكثر راحة من الحياة في الغابة خصوصا حيث تكون هذه الضفاف مرتفعة ، كما هو الشأن غالبا ولمسافات طويلة . وكثير من المدن في الأمزون ذات مواقع جميلة ، كما هي الحال في سانتارم

عند مصب نهر تاپاجوس وأوبيدوس وتفيه ، حيث عاش بيتس العالم الطبيعي سنوات عدة . فالجو أبرد على ضفاف النهر ، وفي الليل قد يهب منه نسيم منعش نحو الأرض . فإذا امتد البصر على طول النهر ، وهو منظر عميق ومتسع في بعض الأحيان ، اكتسبت النفس انطلاقة مريحة من ضغط الغابة الغلاب في الخلف . ثم إن النهر كذلك يوجد اتصالا بالعالم في الخارج ، ولذلك قل الشعور بالعزلة واحتفظ الشخص إلى حد ما بشعوره بأنه مشترك مع زملائه . وحتى جامع المطاط عند منابع الأنهار الصغيرة يدرك أنه ليس منعزلا إلى حد اليأس ، وأن الأنهار ستقوده أخيرا إلى المدن حيث يركب الناس العربات فوق الإطارات التي قد يستمد مطاطها من الأشجار التي يشرطها في ركنه النائي من الغابة الكبيرة . والأنهار كذلك تدعو إلى عدم الاستقرار ، فعادة التنقل عند سكان الأمزون الذين يترددون في تلبيت مساكنهم في مكان واحد إنما هي نتيجة للدعوة إلى الحركة التي تمنحها لهم الطرق المائية المتدفقة .

وتتضاءل أمام الأمزون سائر أنهار العالم الأخرى . وكان اسمه البارانا جواسو ، أي « النهر الكبير » عند شعب النوبي ، أما عند البرتغاليين فقد كان اسمه ريو — مار ، أي البحر « النهر أو العذب » ، « بحر أمريكا الجنوبية المتوسط »<sup>(١١)</sup> . ولكن لا يمكن لأية مغالاة أن تعطينا فكرة حقيقة عن عظمتة وقوته — عن فيضانه الأصفر الذي لا يرحم ، والذي يصرف نصف قارة في مساحتها الأغزر مطرا ، والذي ينتهي بعد أن يغير لون الأطلنطي لأكثر من مائتي كيلو متر من الشاطئ .

وهو من الضخامة بحيث لا يكفي أن يطلق عليه اسم واحد . فقبل التقائه بمصب نهر نيجرو فهو الأمزون الحقيقي . ومن هناك حتى حدود بيرو يسمى سوليوس أو نهر السولومونز . وفي مجراه في بيرو حتى منبعه

في الأنديز اسمه مارانيون . وليس من المستغرب أن ينزع الناس إلى رهبته والتواضع في حضرته، لأنه يجسم قوة حركية دائمة لا يوجد مثلها في أى مكان آخر في الطبيعة .

وفي رأى ه. م. توملنسن الذى كان يرى في الأمازونيا شيئاً من أبعاد الفلك ، أن النهر نفسه « شجرة مهولة » ذات مجار مائبة متشعبة لانهاية لها تغذى أنهاره . وتعد بعض فروع الأمازون الكبرى نفسها مثل ماديرا ونيجرو وبوروس وجوروا وتاباجوس وتوكانتس — أراجوايا ضمن أنهار العالم الكبيرة. ومع ذلك فعلى الرغم من ملل الأمازونيا الخادع — لأنه تشابه ظاهري أكثر منه حقيقة واقعة — فإن للأنهار شخصيات خاصة بها ، تكسب سكانها أو المترددين عليها أمزجة خاصة . وهى تختلف في لون مائها. فنهر نيجرو ، وكذلك جوتاهاى ومجار ثاوية أخرى ، على درجة من سواد اللون يبدو معها كما لو كان ينبع من عين مليئة بالمداد ، ثم خفف لونه في أثناء الجريان بواسطة أفرعه الشاحبة . أما نهر بوروس وجوروا كثير الثنيات فأصفران كالبحرى الرئيسى نفسه . أما تاباجوس وشنجو وتوكانتس — أراجوايا التى تنحدر من هضبة البرازيل الوسطى وتجرى بين التلال الصخرية في أجزاء طويلة من مجاريها وحيث تكثر المندفعات المائية فيها فيأها رائحة تسر الناظرين .

ولبعض الأنهار مسيلات محدودة بوضوح كسهر أوهيو ، حيث كونت لها مجار نهابة وطبيعية ، في حين أن غيرها، مثل جابورا الأدنى أو الأفرع المضطربة في المثلث الواقع بين ماديرا الأدنى والأمازون ، معقدة ومتاهات مضطربة . ويتدفق الأمازون نفسه بمجرى واحد فقط في خانق أو بيدوس للعميق . ومع أنه قد يوجد مجرى رئيسى واحد فإن هناك على كل جانب

مجارى جانبية (ه) ، تصلها بعضها ببعض قنوات عرضية (\*\*) وفى فصل الفيضان ، عندما تذوب الثلوج فى الاندين ينتشر البحر العذب فوق السهل الفيضى الشاسع بين سفوح ، الارض الصلبة ، إلى الشمال والجنوب . أما السكان البرمائيون الذين يعيشون عادة على مسطحات السهل الفيضى (\*\*\*) فيلجأون حينئذ إلى الأرض الأعلى أو يسكنون فى منازلهم التى يبنونها على قوائم حتى يهبط الفيضان تاركا عالمهم المغمور مكسوا بطبقة سميكه من الطمي والفضلات .

وعلى الرغم من أن هذه العملية لا تنقطع ألبتة ، فى فصل الطوفان السنوى يغير النهر بعنف تقليدى على الأرض التى يجرى فيها . فى بعض الأحيان يمزق أرجاء كبيرة منها فيفصلها عن أماكنها ويحملها مع التيار ، وهى أشبه بجزر طافية مكتملة بالأشجار التى على أفرعها قد تجلس القردة أو تحط الطيور . وفى الطريق قد تتكسر الجزيرة أو تجد مستقرا فى دوامة فى الفيضان حيث تتصل ثانية بالأرض المزعزعة . وفى الليل قد يسمع المرء أحيانا صوتا كقصف الرعد تحدثه ضفاف النهر الهاوية التى قوضها الفيضان الذى لا يرحم لمسافات طويلة . وفى نفس الوقت ، إذا ما اتجهنا إلى ماوراء المنصب الفاجر الذى يتسع بين اليباس وجزيرة ماراجو يبنى النهر العظيم فى جهد أخير جزرا أخرى أكبر فى مياه البحر . فليس هناك وسط آخر ، إذا استثنينا وسط المحيط وحده ، يجعل المرء شاعرا بصغره وتفاهته كما فى هذا الاضطراب المتحرك من الماء والأرض .

ومن ناحية أخرى هناك شقات طويلة من مجارى الأنهار يتحكم فيها الناس فى الماء ويشعرون بالطمانينة فى حضرته . فعلى نهر تاباجوس الجذاب

---

paranas (\*)

furos (\*\*)

varzea (\*\*\*)

مثلا، هناك شواطئ رملية واسعة ومدرجات جميلة تصلح أرضا للسكنى ، وعلى نهر برانكو تمتد شواطئ (٥) رملية لكيلو مترات على ضفافه، وقد توجد جروف عالية قائمة فوق النهر لمسافات طويلة يمكن للسرى من فوق قممها أن يرى منظرا رائعا فوق المساحات البعيدة من الماء المكشوف . وفى بعض الأحيان توجد شقات من الماء الهادىء تنوسطها جزر نظيفة كما فى نهر ترمبيتاس ومويس . وهناك نوع آخر يناقض النبات الصاحب الذى تنصف به الغابة المطيرة فى السهول الفيضية ، ألا وهو منظر الطبيعة الميت الذى تبدو فيه الجزر المكتنبة المتناثرة فى مجرى بواسو فى نهر نجرى فوق مناوس .

وهناك نوعان من الغابة : غابة تنمو فى الأرض الصلبة ، أو الأرض المرتفعة ، وأخرى تنمو فى السهل الفيضى . وغالبا ماتكون الأولى مكشوفة ونباتاتها الأرضية قليلة قد يستطيع المرء السير فيها دون مشقة . وتغلب فيها الأشجار ذات الخشب الصلب . وإلى أعلى يوجد ستر لا تنفذ منه الشمس إلا حيث توجد فتحة طبيعية . أما غابة السهل فتمثل الأدغال فى أسوأ مظاهرها . وهى تخطر على بال الذين يكتبون عن « النار الخضراء » . وهى تتكون من نبات كثيف متلبد فيه يكثر النخيل الاستوائى وشجر الأنوب (\*\*\*) وأنواع أخرى من الأشجار ذات الخشب اللين مختلطة بنباتات أرضية سميكة، وأعشاب لا تستطيع شق طريقها فيها سوى السكين الصلبة .

وفى أسوأ الظروف يشعر المرء فى الغابة بدهشة وإعجاب عندما يشاهد ثروة الحياة النباتية الهمجية ، وحيوية الطبيعة المدارية المذهلة والمتفتحة . وقد وصفها توملنسن بأنها الأرض المفرطة « الغزيرة الإنتاج » ، وكان للعالم

(\*) praias

(\*\*) أو شجر الأبواق ، وسمى كذلك لأن كثيرا من أفرعه مفرغة باوى إليها النمل .

وهو من فصيلة التوت : (cecropias)



الطبيعي بيتس لحظات استعلاء أو نشوة في أركانه المفضلة في البرية . غير أن ظروف الغابة المطيرة لا تجلب السعادة ، فهي لم تكن أبدا مضيافة ولا كريمة ، وفي أعماقها قد يصبح من السهل جدا أن يموت المرء جوعا أو ظمأ ، أو يضل طريقه بلا رجاء . وكتب بول لى كوانت يقول : « إنها مظلمة وساكنة إلى درجة منفرة بسبب ما بها من كثرة الهوام . وتدخل في نفس المسافرين وقعا من الحزن الغامض ، والقلق ، ونوعا من الضيق يجعله يصدر لطفة امتنان وصيحة من الفرح إذا صادفته بقعة مكشوفة (\*) » . أو عندما يصل إلى شاطئ مشمس لنهر من الأنهار ، وكتب توملينسن عن منظر الغابة المششوم والمتوعد الذي يجعل الناس فيها دائمي اليقظة تلقائياً تجاه غوايتها ، يقول : « ظلمنا نسير ، وعندما استيقظنا لم نستطع أن نفكر في كلمات تعبر عما شعرنا به عندما نظرنا إلى تلك الأبهاء الطويلة الصامته في ذلك المنزل بلا اسم ، فقد عرفنا أن هناك شيئاً ، ولكن لم يكن هناك ما يدل على الشكل الذي يبدو فيه هذا الشيء عندما يظهر » . وإذا أرخى الليل سدوله على الغابة يشتد شعور الإنسان باليأس . وفترة الغسق بصفة خاصة مجلبة للضيق ، نظرا إلى أن الظلام العادي يتطور إلى حلقة دامسة . وبينما تسكون الغابة في سكون أثناء النهار ، إذا استثنينا صيحة عارضة لطائر أو طنين الحشرات فإن الحياة تدب فيها أثناء الليل . فالحيوانات الكبيرة تأخذ في التجول ، وفي بعض الأحيان يسمع الإنسان صراخ الحيوانات التي تقع فريسة لها مختلطة بأصوات غريبة لا يمكن التعرف على مصدرها . يضاف إلى ملاسبات الليل في الغابة إمكان هبوب زوبعة مدارية تعد تجربة مرعبة لأي شخص عدا قاطن الغابة العتيد الذي هيأ حياته لظروفها .

وإلى حيوانات الامزونيا ، كبيرها وصغيرها ، يرجع طابعها الخاص .

فأكلت اللحم الكبيرة الوحيدة هي النمر الأمريكي ، والأبواغ السوداء منه ذات منظر بغيض ، والبيومة انذى يعرف محليا «بالأسد» ، وكلاهما لا يعتدى ، ولكنهما مع القطط المفترسة التى تجوب الأدغال بالليل ، يضيفان كثيرا إلى الأحداث التى تمثل على مسرح الغابة فى الظلام . وكثيرا ما يستدل على حلول الليل بعواء الجواريا فى أعالي الأشجار . والاسم العلمى للاتق لهذه القردة الكبيرة والجموحة الحمراء هو القردة العواء (\*) . ولما كانت أصواتها تسمع فوق الرؤوس فى غسق الليل المدارى المحقق ، فإن زئيرها يعد أعظم الأصوات التى تثير الرعب فى الطبيعة .

ومن بين مظاهر الغابة المتألفة الأخرى لغط القردة الصغيرة المصرع ، والصياح الشاكى الذى يصدر عن التوقان (\*\*) وصراخ الماكو (البغواء الأمريكى) . ذى الشكل الجميل وهو طائر والضحك الساخر الذى يصدر من الأوراتاوى . أو عصفور الطيف الذى يسميه الأهالى «أم القمر» (\*\*) و«الأناغم المرائية» . الصادرة من النسر الأسود أو الكاراكراى ، والصفير الأجش المصلصل الذى تحدثه السيجانا أو الطائر المتن الذى يبدو أقرب إلى العظاءة «السحلية» منه إلى الطير ، وتقيق صفادع الأشجار الكبيرة . ومن الحشرات صغير الجاكيرانامبوي الذى يشبه صوت القاطرة . ومن حسن الحظ أن هذه جميعاً لا تسمع فى وقت واحد ، ولكن كلا منها يبعث بنصيبه ليزيد من توتر أعصاب القادم الجديد إلى الغابة . وحتى أولئك الذين يعيشون خارج الغابة العظيمة لا يقابلون هذه الأصوات بالرضا ، ولو أنهم قد يحاولون تفسيرها من بين أطياف شعب التوبى .

ومن رفاق الإنسان فى البرية الأفعى القباطة (+) والاناكندا (السوكر

mycetes beelzebub (\*)

(\*\*) طائر له منقار طويل .

mae la luna (\*\*\*)

+ boa constrictor سميت كذلك لأنها تقتل فريستها بالانغاف حولها والقبض ..

روجو) أو الحية المائية الضخمة. والأولى تسلك في حياتها مسلكاً لا تستأهل معها سمعتها الرديئة ، ففي بعض الأحيان يحتفظ بها الأهالي في أكواخهم لصيد الجرذان . أما الأناكندا التي تقتسم الأنهار مع التاسيح والأسماك المتوحشة فتكبر حتى تصبح ذات أبعاد كبيرة ، ويخشاها سكان الغابة كثيراً . وأخطر منها الجاراراك السامة وغيرها من الأفاعى الصغيرة التي تختبئ في الأشجار القصيرة في السهل الفيضى . أما الوطواط المصاص وهو أكثر إيذاء ، وقد يمتد جناحه أكثر من نصف متر ، وله منظر فظيع جعل بيتس يطلق عليه اسم « عفريت » الخرافات الساخر فقد عده « أقل الوطواط ضرراً » أما الوطواط الصغير الرمادى اللون (\*) فهو المسخ الحقيقى الذى يمتص الدماء .

ولعنة الأمزونيا الحقيقية هي الحشرات . فقد فرحت حياتها بشغلها زمناً طويلاً وهي تسيطر على أرجائها المنعزلة فالبعوض ، سواء البعوضة الصغيرة (\*\*) وبعوضة الملاريا (\*\*\*) ، يتجول الى مسافات بعيدة وبشراهة ، ولو أن وباء البعوض أشد في بعض الأرجاء منه في البعض الآخر . وتخلو منه إلى درجة ما أجزاء من الوادى ، ولكن هناك أما كن مثل كارابانابا أو « البعوض الكثير على السوليموس حيث يزيد البعوض من حدة الحياة . وفي فترة النهار ينشط الذباب العضاض ، وهو نقمة رهيبية لأن عضته تترك خدوشاً من الحكاك الملح على الجلد ، وذبابة المتبوكا الكبيرة المهاجمة التي تفضل الهجوم على الجفون . والبرغوث الصغير الذى يشبه نظيره الأمريكى في أثر اللدغ .

والنمل سيد الأرض . فالنوع المعروف بنمل السوبا يهلك زراعات سكان النهر ، وقد تسبب في جلاء السكان عن مساحات برمتها . أما النمل الأحمر المتوهج صغير الحجم فيتشبث بنبات السهل الفيضى ، فإذا أسند شخص

Phyllostoma (\*)

Culex (\*\*)

anopheles (\*\*\*)

جسمه إلى شجرة، أو احتك بفرع منها ، غطى جسمه في الحال بهذا العذاب المتوهج الذى لا مهرب منه سوى القفز فى أقرب الأنهار . أما علق السكلا فيتحرك فوق الأرض فى جيوش ضخمة وحشية ، وكما يقول: بيتس « حيثما يتحرك تأخذ دنيا الحيوانات جميعها فى المرح والمرج ، ويحاول كل كائن حى أن يتبعد عن طريقه » . ومن أنواع النمل الأخرى النمل المارد (\*) ، وطوله يبلغ سنتيمترين ونصف سنتيمتر ، وعضته تسبب ألما مبرحا .

ولمست الحياة الحيوانية كلها معادية للإنسان أو منفرة فى مظهرها مثل حيوان الكسلان القديم (\*\*) أو « قرد الليل » ذى الوجه الشبيه بالبوامة . وفى النهر درافيل وردية اللون لعوبة ( بوتو ) . فإذا تعمقنا فى الغابة نجسد الغزلان القزمية والذباب المضىء الكبير الحجم الذى تشع عيناه بالضوء الأبيض والأحمر ، والأخضر والقشة (\*\*\*) التى يبلغ طولها نحو سبعة عشر سنتيمترا ، والقوطة السعادين ( الباريجودو ) كما يوجد ديك الصخر البرتقالى الفاقع أو « طائر الأرغن » (\*\*\*\*) وتغريده الصغرى يبدو كما لو كان منبعثا من آدمى ، والفيرا بورو وتغريده أنغاما حلوة وفضية كالتى تذبذب من صندوق موسيقى عتيق . ويرى الإنسان فى ممرات الغابة الأجنتحة الزرقاء المتألقة للفراش المعروف باسم مورفو والذى يبلغ عرضه فى بعض الأحيان عشرين سنتيمترا . وقد رأى توملنسن واحدة فى وهج الضوء فى ممر من غابة « فراشة فاخرة ، لامعة وسريعة إلى درجة لا يمكن معها إلا أن تكون هاربة من الجنة » .

لذلك ينزع الدين يعيشون فى الأمونيا إلى الكتابة والسكون والقلق ..

tucandeira (\*)

antedeluvian (\*\*) أى من قبل الطوفان .

(\*\*\*) من السعادين الأمريكية

realejo (\*\*\*\*)

فظلام الغابة يرهق أنفسهم ، وسكونها يكبت عندهم الدافع الطبيعي للكلام .  
 وهم جوالون بغريزتهم ، ويشجعهم إغراء الأنهار الدائم على تشردهم . ونظراً  
 إلى كونهم جوالين في الصميم ، ولطول تعودهم على ذلك ، فلا يعول عليهم .  
 في تكوين قوة عاملة لمشروع مزرعة كبيرة تتطلب عمالة مستمرة لنجاح  
 خططها الطويلة الأمد . وكذلك نظراً إلى أن الإنسان هنا صغير في هذه  
 البيئة الضخمة نجده يشعر بتفاهته ، وتبدو جهوده ضئيلة ، وهناك مقومات  
 قليلة يكون بها شخصيته حتى أصبح متواضعا بصفة عامة .

وفي الوقت الذي يبتعد فيه قاطن الأمزونيا عن المراكز التي تعد نقطة  
 أمامية للمدينة على حافة البرية العظيمة ، يصبح أحيانا فوضويا من الناحية  
 الأخلاقية . لقد تحرر من القيود الأخلاقية التي تنظم المجتمع ، والتي تتمثل  
 في العادات القومية والكنيسة وسلطة الدولة . فقد يميل إلى السلب والتلذذ  
 بالقسوة ويفتك بمواطنيه بوحشية كما تفعل حيوانات الغابة . وهذا يفسر  
 « الثورات » العنيفة التي قام بها البوتومايو في غابات بيرو وحوادث مشابهة  
 على نهر جافاري وبوروس وأرض الأبونا المتنازعة خلال رواج المطاط  
 في أوائل القرن الحالى ، ويفسر كذلك نزوات الظلم التي كان يسلكها سادة  
 الأنهار الذين سيطروا زمنا طويلا على بعض الصناعات الرئيسية في الأمزون  
 أو على مساحات كبيرة من أحواض الأنهار . وكان يطلق على جزيرة  
 ماراپاتا في نهر نيجرو عند مناوس اسم «محجر الأرواح» ، حيث كان الرجال  
 الذين كتب عليهم الذهاب إلى غابات المطاط قد تركوا ضمائرهم من ورائهم  
 كأنها سقط المتاع . وفقدت جزيرتان عند مصب نهر جوروا وبوروس  
 اسميهما وأصبحتا تعرفان باسم « جزيرتي الضمير » \* . يقول لى كوانت :  
 « حقيقة إنها صورة مؤكدة ، إن الشخص الذى يوشك أن يعبر عتبة الباب  
 المؤدى إلى جنة « أرض المطاط » الشيطانية يترك وراءه أنبل غرائزه .  
 ويعبر هو نفسه فى ضحك عن هذا التهمك الفظيع » .

وأكبر مساحة صحراوية في أمريكا اللاتينية هي تلك التي تمتد على طول بيرو ، ثم إلى الجنوب حتى خط عرض كوكمبو في تشيلي . وهذه المنطقة الجذباء تشتمل على قطاع ساحلي يختلف في الاتساع ، وعلى الجبال المنخفضة المجاورة على الجانب الباسيفيكي للكوستيليرا ، وكثير منها صحراء صرفة ، أى إنها عديمة المطر في الواقع وفقر تماما ، كلها رمال وصخور لا ينمو بها نبات ما (١٢) وهناك نحو من ثمانين مجرى تنحدر من الأنديز عبر هذا القطاع الصحراوي ، منها نحو النصف يابس في بعض أيام السنة . وكل هذه المجارى في الواقع موجودة في بيرو ، ومن أشهرها اثنتان هما : سانتا الذي ينحدر خارجا من « خاتق » كاييجون دى هوايلاس « الصندوقي » الرائع في سلسلة جبال بيرو العالية ، وريماك ، وبالقرب من مصبه تقع مدينة ليما . وقبل مجيء الإسبانيين بوقت طويل عممت الشحوب الأصلية التي قطنت السهل الساحلي مياه هذه الأنهار على الأراضي لإطعام عدد كبير من السكان وللمساعدة على نمو مدن عظيمة مثل شان شان في أرض الشيمو ، وقد اندثرت من قديم . وعلى هذه الأراضي اليوم تقوم مزارع القطن وقصب السكر وحقول البرسيم الحجازي (\*) ، كما في واحة أريكيما الجميلة . فلقد شعر الإسباني الذي عاش من قبل بين الحقول المروية في سهول غرناطة وبلنسية وفي غيرها في شبه الجزيرة أنه في موطنه تماما كما كان في مندوثا وتوكومان على الجانب الآخر من الأنديز . وعلى خلاف مع العربي الذي اختلط دمه بدمه لم يرض بحياة البدو الصحراوية في أى مكان ، ولو أنه في كاليفورنيا السفلى وأرجاء أخرى في شمال غربي المكسيك أصبح وقد عود نفسه ، وتلاه المكسيكي ، على الأحوال الصحراوية حيث كان الماء شحيحا ، كما في صحراء في بيرو .

وفي سرتاو (\*) شمال شرقي البرازيل الذي يتركز في ولاية سيارا يوجد لإقليم كبير تستبين فيه الصفات الصحراوية ، وهذا هو إقليم فترات الجذب المديدة (\*\*) حيث كانت المجاعات تفتك بالسكان أحيانا، وتسببت في نزحات سكانية ضخمة إلى أجزاء أخرى في الجمهورية ، خصوصاً وادي البرازيل ، وفي سنة ١٩٥٢ إلى جنوب البرازيل ، وفي أرض الكائنجا هذه ، أو الأشجار القزمية والنباتات الملحية ، لايتأكد الناس من حلول الأمطار ، وفي بعض الأحيان ، كلما لفحت الشمس بلارحمة تلك الأرجاء ، يمضي السكان الجامعون يتناقل نحو الساحل بحثاً عن الطعام والماء .

وظروف المعيشة المزعزعة في المنطقة «بروز» التي تقع خلف البرازيل أدت إلى صفات خاصة في حياة أهالي سيارا وجيرانهم جعلتهم يختلفون عن بني وطنهم الذين يعيشون في مواطن أفضل . فهم الشعب الذي يصفهم يوكليدس دا كونا في كتابه «رجال السرتاو» ، وهو قصة عصيان المنتصوف أنطونيو كونسليرو وأتباعه المتعصبين ضد سلطة الحكومة (١٣) . وهم شعب يتصف أفراده بالشدة والشجاعة والتماسك ، قليلو الكلام ، شديدو التمسك بالحياة الدينية المتطرفة ، وعلى وجه الاحتمال ، أقرب الشعوب إلى قبائل الصحراء من أي شعب آخر في أمريكا اللاتينية .

### الزلازل والزوابع

كانت السهول والجبال والغابات مظاهر ثابتة للبيئة الطبيعية في أمريكا اللاتينية ، واستمر تأثيرها في مدنية القارة ثابتاً إلا من تغيير طفيف من قرن إلى آخر . ولكن من ناحية أخرى ، فإن مظاهر الطبيعة العنيفة — الزلازل وثورات البراكين والزوابع — لم يستطع أحد التنبؤ بحدوثها ،

(\*) Sertão مراعى فقيرة تنمو فوق الأراضي المرتفعة تتخللها أشجار

(\*\*) Seccas

وكانت سريعة الزوال إذا حدثت ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن حدوثها كان عرضيا ومتقطعا فإن آثارها على الحياة في البلاد قد تعيش طويلا .

ومن هذه العوامل الجائحة تعد الزلازل أهمها من ناحية عواقبها المادية والنفسية . يقول جوب هورتب — وهو أحد رجال هوكنز ، والذي تخلف في فيراكروث في عام ١٥٦٨ ، وقضى بضعة سنين في المكسيك — : « تحدث في الأنديز ثلاث مرات في السنة زلازل عجيبة تجعل الناس في ذعر بالغ وتعرضهم للخطر » . وتنتاب إقليم الكورديليرا من المكسيك إلى تشيلي هزات زلزالية عنيفة . ونظراً إلى حدائته نسبياً من الناحية الجيولوجية ، فإن الجمع بين ضيقه وارتفاعه الشاهق في جزء كبير من امتداده هو سبب الضغط والشد اللذين تسببا في كون هذه المنطقة مهددة بالزلازل في الوقت الحاضر . وكذلك فإن وجود البراكين النشيطة أو الهادئة في جهات معينة كما في أمريكا الوسطى وأكوادور دليل مستمر آخر على ذلك التهديد .

وقد قاست سبع عواصم في أمريكا اللاتينية من الزلازل العنيفة .. ويذكر خوان وأيووا ، الصابطان البحريان اللذان كانا في بيرو في منتصف القرن الثامن عشر ، ستة عشر منها في تاريخ ليمّا<sup>(١٤)</sup> . وقد كانت هناك في الواقع زلازل مدمرة في السنوات ١٦٣٠ و ١٦٨٧ و ١٧٤٦ - وفي زلزال ١٦٨٧ حدثت الهزات الأولى في الساعة الرابعة صباحاً بينما كانت المدينة لا تزال نائمة ، ثم تلتها هزات أعنف بعد انقضاء ساعتين ، وبعد أن هرب معظم الباقين على قيد الحياة مذعورين إلى الميادين والشوارع . وفي نفس الوقت اكتسحت كياو وهي المدينة التي تهدم ميناء ليمّا موجة مدمية . وإلى الشمال في مرتفعات كولومبيا أخذت الضجة الكبرى تدخل الرعب في نفوس الناس . وفي الساعة العاشرة والنصف من ليلة ٢٨ من أكتوبر سنة ١٧٤٦ تهدم معظم مدينة ليمّا في نحو ثلاث دقائق . وبلغ عدد الهزات أكثر من مائتين في الأربع والعشرين الساعة ، واستمرت



لبضعة أشهر ، ثم اكتسحت مدينة كياو موجة مدية ولم ينج سوى مائتين من السكان الذين كانوا يبلغون أربعة آلاف ، بينما غرقت تسع عشرة سفينة في الميناء . وكتب خوان وأيووا عن أريكيبا ثاني مدينة في بيرو يقولان :  
 « إن المسرات والمزايا تضيعها هزات الزلازل الخفيفة التي كثيراً ما تتعرض لها ، لدرجة أنها تحولت أربع مرات إلى خرائب من جراء هذه التقلصات (١٥) » .

وحدث أول تدمير للمدينة في ١٥٨٢ ، وفيها قتل آلاف من السكان .  
 وفي سنة ١٦٠٠ ثار بركان المستى بعنف ، وقاست المدينة من مصيبة مزدوجة : الثوران البركاني والزلولة . وبعد أربع سنوات حدث زلزال آخر ، ثم آخر في سنة ١٧٢٥ .

وفي ١٧٩٧ بعد تدمير كوماننا على ساحل فنشويلا دمرت كاراكس تدميراً فعلياً في ٢٦ من مارس سنة ١٨١٢ . ومن مجموع السكان الذين كان عددهم يبلغ ٥٠.٠٠٠ شخص قتل ١٢.٠٠٠ منهم ٤.٠٠٠ كانوا قد لجأوا إلى السكائن ، ومات ٨.٠٠٠ آخرون في أرجاء أخرى من البلاد . وبعد هذه الكارثة بدا ربيع لاترنداد وكأن منجماً قد انفجر في أسفله . وتوالت الهزات لأسابيع ، وفي ٥ أبريل بلغت من الشدة درجة الهزات الأولى ، وكانت الأرض في حركة مائجة لبضع ساعات .

ولم تقاس بلاد من الزلازل قدر ما قاست أكوادور؛ ففي عام ١٦٩٨ دمرت أمباتو من ثوران كوتوبا كسي الذي صحبه انفجار بركان كار هوا يراسو . وفي نفس الوقت دمرت لاتا كونجا تماماً من الزلازل ولم يبق قائماً في المدينة سوى أربعة منازل من سبعائة ، وفي سنة ١٧٤٣ ثم في سنة ١٧٥٧ دمرت لاتا كونجا كلية ، وفي سنة ١٧٩٧ دمرت المدينتان ومعهما مدينة ريوبما . وقد وصف همبولدت الزلزال الذي دمر ريوبما بأنه أعنف ما رآه

الذاكرة والأحداث ، فقد هلك جميع السكان فعلا بالإضافة إلى الكثيرين في أرجاء الولاية الأخرى . وقال ستيفنسن : « لقد تغير وجه الأرض كلية . . . . فبرزت جبال حيث كانت توجد أودية مزروعة ، واختفت الأنهار أو غيرت مجاريها . . . . وقد بلغ من تغير وجه الأرض الكامل أنه لم يعد هناك شخص يتعرف على أكبر مزرعة في المقاطعة . وبعد فترة توقف طويلة ألم الخطر من جديد بأ كوادور في سنة ١٩٤٩ حين دمرت أمباتو ثانية .

وقد عانت مدن تشيلي كذلك تكرارا وبقسوة من الاضطرابات الزلزالية . وأعنف زلزال ألم بسانتياجو حدث في ١٦٤٧ وفيها اهتزت المدينة من قواعدها ، ودفن آلاف الناس تحت الانقاض ، ودمرت كونسبسيون في ١٥٧٠ بعد تأسيسها بعشرين سنة فقط ، ثم في ١٧٣٠ ، ١٧٥١ ، بعدها تم نقل المدينة إلى موقعها الحالي لتصبح أنقاضا في ١٨٣٥ ليس إلا ، وحدثت سلسلة مديدة من الهزات في الجزء الأوسط من تشيلي سنة ١٨١٩ فيها حولت كويابو التي تقع إلى مسافة بعيدة في الشمال إلى أنقاض ، بعد أن دمرت على فترات طول كل منها ثلاث وثلاثون سنة منذ ١٧٧٣ . وداهم الخطر أريكا ثلاث مرات على الأقل من جراء الزلازل المصحوبة بالموجات المدية . وقد شاهد الأب فاسكيث دي اسبينوسا الأولى في ١٦١٨ . وأكبر الفواجع في تاريخ المدينة حدثت في ١٨٦٨ ، ويرجع السبب الرئيسى فيها إلى الموجة المدية أو « زلزلة البحر » ، وكانت عنيفة إلى درجة غير عادية بحيث دمرت حركة الشحن في الميناء وأودت بزورق حربي أمريكي إلى مسافة بعيدة في داخل الصحراء حيث يمكن رؤية هيكله حتى الآن . وأحدث زلزال عنيف في تشيلي حدث في سنة ١٩٣٩ الذي حول مدينة شيان في الجنوب إلى كومة من الانقاض ، وهلك نحو ٣٠٠٠ من سكانها<sup>(١٦)</sup> .

ومن البلاد الأخرى ، مندوشا في أرجنتيننا وقد دمرت تماما في

سنة ١٨٦١ من زلزال صحبه حريق ، وتسبب في موت عدد يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ شخص ، ومدينة سان خوان في الولاية المجاورة ، إذ بعد أن هدمها زلزال في سنة ١٨٩٤ بنيت من جديد لا لشيء إلا لتدمير ثانية في هذا القرن . أما مدن أمريكا الوسطى التي كانت فريسة للزلازل الخطرة في القرن الحالى فهي كارتاجو في كستاريكا ، ومدينة جواتيمالا ، وماناجوا ، وسان سلفادور .

وبلغت الخسارة المادية التي سببتها الزلازل درجة جسيمة،فهي لا تشمل فقط الخسارة في المباني المهدمة ، بل قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة الدمار الكلى لمدينة بأكملها . وفي أحيان أخرى يصحب هذه النكبات تخليخل في سطح الأرض نفسه ، وتحويل الأنهار من مجاريها العادية وتمزق في نظام الرى . ففي زلزال واحد في بيرو رجت الأرض رجا عنيفا أحلت بسببه أرجاء كثيرة من الأراضي الزراعية الممتدة على طول الساحل ، فكان لزاما أن ينقل الطعام من تشيلي حتى إصلاح قنوات الرى واستعادة خصب الأرض .

وإليك مثالا لسلسلة الكوارث المترتبة على حدوث زلزال بالانديز في بيرو في سنة ١٩٤١ ، عندما تسببت هزة في إضعاف الحائط الطمي الذي كان يحتفظ بمياه بحيرة جليدية في كايبيجون دى هوايلاس ، وفي نفس الوقت تفكك جسم الهر الجليدى نفسه ، ثم انزلق في البحيرة فدفق بشدة ماها إلى الوادى في أسفل .

وغمر حائط عال من الماء مدينة هواراث فأغرق نحو ١٢,٠٠٠ من السكان ، ونشر الدمار في مساحة واسعة من الأراضي الخصبة التي انتزعت من فوقها التربة السطحية وتناثرت فوقها الصخور .

ولهذه الكوارث آثار نفسية عميقة جدا على السكان المسكومين ،

وتسبب لهم قلقاً بالغاً . وهذه حقيقة واضحة بصفة خاصة عندما تستمر الهزات فترة أسابيع أو شهور قبل أن تهدأ الأرض ويستطيع الناس المشى فوقها ثانية فى ثقة . فالهوس الجماعى ونوبات الرعب تتلو غالباً حالة من القدرية والاستسلام . وتوتر الأعصاب البالغ الناتج من الذعر قد يؤدى إلى انفجار من التحمس الدينى المتعصب ، أو يفتى إلى جنون دفعة واحدة إذا اختل العقل من تذكر الأهوال ، أو إذا توقف انتظار التكرار الخطر .

ولدينا دليل من مصدر أصلى على نتائج الزلازل من الناحيتين العقلية والاجتماعية . فلدى الكتبتن بازل هول الضابط البحرى البريطانى الذى كان فى تشيلى فى أثناء حروب الاستقلال كثير يمكنه قوله عنها . فهو يكتب عن الزلزال الذى دمر مدينة كويابو الإقليمية فى سنة ١٨١٩ يقول : « بعد الهزة الأولى العنيفة التى عمت المدينة استمرت الأرض فى حركة مدة سبع دقائق ، وكانت فى بعض الأحيان تعلو وتهبط ، ولكن كثيراً ما كانت تتأرجح بسرعة هائلة ، ثم سكنت لبضع دقائق ، ثم ارتجت ثانية وهكذا ، بدون فترة من الهدوء تزيد على ربع الساعة لبضعة أيام . وقد هدأت الزلزلة قليلاً الآن . واستطالت فترات الهدوء وضعفت الهزات عن شدتها السابقة ، غير أنه لستة أشهر تالية لم يستطع أحد القول إنها قد انتهت تماماً ، لأن الأرض خلال هذه الفترة لم تستقر طويلاً ، وكانت الأصوات الخفيفة المنبعثة من الأرض نذيراً مستمراً لمصائب جديدة . وقد أبدى له أحد المواطنين ملاحظة قائلاً : « إن هذه الزلازل مروعة جداً ... فقبل أن نسمع الدوى ، أو على الأقل عندما نشعر تماماً أننا نسمعه ، نصبح فى حالة إدراك لما يحدث ، ولا أعرف تماماً كيف أن شيئاً غير عادى سوف يحدث ؛ فشكل شىء يبدو كما لو كان يغير لونه ، ويهبط مستوى تفكيرنا نهائياً ، وتبدو الدنيا كلها فى غير انتظام ، والطبيعة كلها مختلفة عما اعتادت أن تفعله ، ونشعر أننا قد خضعنا تماماً

وأحيط بنا من قوة خفية لا يستطيع كبح جماحها أحد أو أن يدرك كنهها أحد ثم يأتي الدوى المروع ، فيسمع بوضوح ، وفي الحال تصيح الأرض الصلبة جميعها في حركة تموج ذهابا وجيئة كسطح البحر . خذها مني كلمة ياسيدى : إن الزلزال الشديد يكفى ليضطرب أكثر الناس رجاحة عقل ، .

ويحكى السكاكين هول قصة توضح التوترات العصبية التي تنتاب الناس في جهات معرضة للزلازل . فقد كان حاضراً في حفل في إحدى ضواحي قلوبارايسو عندما شعر بهزة أرضية طفيفة . وكانت نساء الأسرة يغنين ، وواحدة تلعب على المعزف ، وأخرى على القيثارة ، ولحاة قفز الجميع يصيحون « الرحمة » واندفعوا إلى الشارع .

وكتبت مسر جريهام من بنات وطنه ، وكانت في تشيلي في نفس الوقت وشاهدت تجارب كثيرة مشابهة : « أنا أستطيع أن أفهم تماماً الآن تأثير الكوارث الكبيرة العامة في تدهور معنويات المجتمع وتفكك عراه . وتحكى عن تفجير الحماسة الدينية ، التي تلت سلسلة من الهزات الأرضية . » من اليوم التاسع عشر وشابات سانتياجو يجبن الشوارع يغنين الترانيم والأوراد في مواكب ، وعلى كل المذاهب كافة التي يعرفنها ، وهن لابسات ثيابا بيضاء . وحافيات الأقدام ، حاسرات الرؤوس ، شعث الشعور ، تتدلى عليهن الصليبان السود . وفي بادىء الأمر اكتظمت الكنائس وقرعت الأجراس تنذر بالغم دون انقطاع إلى أن فطنت الحكومة أن كثيراً من الأبراج وبعض الكنائس قد تشققت ، فأوصدتها لكيلا تنهار على رؤوس الناس ، ولذلك فهن يؤدين مراسم عبادتهن في الشوارع ، وتهب كل أسرة بناتها لهذه الخدمة المقدسة .

وقد جرت عادة الناس أن يفسروا هذه الكوارث بأن الله يأخذهم بها على ما اقترفوا من آثام ، ولذلك كانت تتبعها عادة مظاهر التوبة والاستغفار . فبعد تدمير سانتياجو في سنة ١٦٤٧ عكف الباقون من السكان على استغفار جماعى لإله غاضب ، وأقام الأسقف أمكنة لأربعين أو خمسين أباً لتقبل الاعتراف والتوبة فى الميادين العامة . وأقيمت المحاريب ومنابر الوعظ فى العراء ومن فوقها يدعو القساوسة السكان إلى الاستغفار . وتحركت المواكب فى الشوارع تنبعث منها أصوات الولولة وقرقعة السياط تلهب ظهور المستغفرين العارية . وحدثت مثل هذه المناظر فى «ليما» بعد زلزال سنة ١٦٥٥ . وذات مرة بعد أن ألقى أحد القساوسة الموعظة على الناس استسلموا إلى حالة مديدة من الألم الناتج عن هوس الإخلاص وإذلال النفس لدرجة جعلت الكثيرين يعانون من سقم التفكير ، ودفعتهم إلى حافة اختلال العقل . ويقال إن زلزال سنة ١٦٨٧ أدى إلى إحياء التمسك الدينى الشديد بين سكان بوجوتا المذعورين .

ويروى بويل قصة انطباعاته عن الزلازل التى حدثت فى جرانادا بأرض نيسكاراجوا ، فى سنة ١٨٦٥ ، يقول : « كان الجو عبارة عن صياح فظيع من الرعب . وحتى أصوات الزلزلة كانت تضيق وسط هوس الصراخ ... ولوثة شعب بأكمله أفقده الرعب صوابه » . وكتب عن الاهتزازات التى حدثت بعد ذلك ببضعة أسابيع يقول : « لقد حدثت ثمانون هزة واضحة بين الساعة التاسعة ليلاً والرابعة من بعد ظهر اليوم التالى .... وكان الشجعان من الرجال فى حالة وحشية من الرعب والانهيار ، فى حين كان مئات من الناس قد اختلت عقولهم . وحاصرت الجوع المموسسة كراسى الاعتراف ليل نهار ، ولم ينقطع قداس من محراب » . ويضيف : « من ذا الذى يستطيع أن يعجب إذا كانت المدينة كلها قد جن جنونها ؟ » .

والأنثيل هى الجزء الوحيد من أمريكا اللاتينية الذى يتعرض للزوابع

المدارية . ولو أن الرياح العاصفة قد تجتاح الساحل الشرقى المكسيك وأمريكا الوسطى حيث تسببت في بوار مساحة كبيرة من مزارع الموز في جواتيمالا سنة ١٩٥١ . وتنشأ الزوابع عادة في مساحة محدودة من المنخفضات البارومترية مركزها إلى الجنوب من كوبا . ومن هناك تتحرك بتقوس شمالى في اتجاه الجزر الكبيرة وتصل في بعض الأحيان إلى الولايات المتحدة قبل أن تهدأ قوتها . وقد مر كولمبس بتجربة من غضب إحدى هذه العواصف في رحلته الثانية ، ومنذ ذلك الوقت تعد هذه العواصف سبباً في الخسارة الكبيرة التي تلحق بالممتلكات والأرواح في جزر الهند الغربية . ومن الزوابع المدمرة بصفة خاصة تلك التي اجتاحت هاافانا في سنة ١٩٢٦ ، وتلك التي دمرت مدينة سانتو دومينجو القديمة تدميراً تاماً . وعلى الرغم من أنها تترك المحصولات والبساتين قفرأ ، وتمحو المباني الواهية التي تعترض طريقها ، فإن الخدمات المترولوجية في الجمهوريات الجزرية تمكن المدن من أن تستعد للملاقاتها في حذر وحرص أكثر من ذي قبل ، وتمكن السفن من التحرك بعيداً عن منطقة الخطر في الوقت المناسب .

وهكذا تعلم الناس كيف يعيشون مع الأرض كما وجدوها . وفي بعض الأحيان زاهم حصولوا على هذا التعلم بسهولة ويسر ، كما حدث في وادى تشيلي وفي پاراجواى والأحواض الموجودة في مرتفعات المكسيك ووادى الكوكا في كولومبيا ، حيث كانت الطبيعة صديقة ورحيمة . وفي بعض الأحيان — كما في البمبا وفي الأنديز العالية والأمزونيا — حيث كانت الطبيعة على نطاق شاسع لا يستطيع استيعابه عقل لإنسان ، وحيث كان الوضع ضيقاً لا تتحمله أنانيته المتغطرة ، جاء هذا التعلم صعباً ، وطالت فترة التوفيق بينه وبين البيئة . وبصفة عامة ، كان تعلم البرتغالى الذى اتصف بالمرونة أسهل كثيراً من تعلم الإسباني شديد الصلابة . وحيث كانت الطبيعة زائدة الشح استطاع الإنسان في بعض الأحيان أن يغيرها في حدود طاقته ومهارته كما فعل الأزارتقة والإنسكا من قبل .

وفي طور زادت فيه الطاقة كثيراً بالوسائل الهندسية والعلمية الحديثة تحكم الناس في كثير من الأماكن الممثلة بالرى واستئصال الأمراض . ولكي يجعلوا الحياة أكثر سخاء وإرضاء أو أكثر بهجة ، جلبوا من العالم القديم إلى الجديد المحصولات والحيوانات والفواكه والأزهار التي كانت جزءاً أساسياً من صميم حياتهم في شبه الجزيرة . فقد كان منظر شجرة برتقال أو تين عند الباب ، أو كرم ناضج في الشمس ، وجواد عربي مربوط من عقاله على القرب ، والورود في الفناء ، وقطة بجوار الموقد ، والبصل معلقاً بخيط في سقف المطبخ ، يجعلهم يشعرون باتمئذهم إلى هذا العالم الجديد . وإذا كان الخلف من بعدهم قد تباينوا في بعض النواحي ، فإن هذا التغير لا يرجع إلى حوادث أربعة قرون من التاريخ وتسرب عناصر اثنوجرافية إلى دماهم فحسب ، بل إلى تأثير البيئة الصامتة الرهيف كذلك .



## هوامش الفصل الأول

(١) يقول الأب أكوستا الذى يعد أول من دون بإسهاب والمعية ما يختص « بالتاريخ الطبيعى » للعالم الجديد : « عند ما نخرج من أوروبا إلى الهند الغربية نعجب حين نرى الأرض لطيفة وبائعة » .

José de Acosta, "The Natural and Moral History of the Indies" Vol. I., p. 163.

(ترجم عن الإسبانية فى جزءين — لندن ، ١٨٨٠ ) .

(٢) يذكر هذه العبارة صمويل بوتمان ، ص ٣ فى مؤلفه :

Samuel Putman, "Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing" — (New York, 1948).

Cieza de Leon, "Civil Wars in Peru : The War of (٣) Las Salinas".

(ترجم عن الإسبانية ، لندن ، ١٩٢٣ ، ) ، ص ١٧٩ .

Carlos Monge, Acclimatization in the Andes : (٤) Historical Confirmations of "Climatic Aggression,, in the development of Andean man".

ودكتور مونج ، وهو من علماء الطب فى بيرو ، قام بأبحاث عميقة فى الآثار البيولوجية للارتفاع فوق الأنديز . وقد لاحظ الملازمان هيرندن وجين عن ثرودى پاسكو فى أنديز بيرو أن « الحرارة شديدة هنا إلى درجة تمنع الدجاج من أن يقف بيضه ، واللاما من أن تلد ، وتضطر النساء فى فترة النفاس أن يلجأن إلى منطقة ذات طقس ألطف ، وإلا يمات أطفالهن » — عن :

Herndon and Gibbon, "Exploration of the Valley of the Amazon" (2 vols., Washington, D. C., 1854), II, 108.

(٥) « الإنسان فى المكسيك ، مع جميع ما قام به من أعمال ، ليس سوى مخلوق ضئيل مخنبيء فى خندق يصعب الوصول إليه ، يخدش الأرض بعصى خشبية أو فأس حديدية ، إذ تطنى الكتلة الجبلية على جميع مجهوداته . . . وكموطن بشري . . . يهيب هذا الإطار مسرعا فلما لعالم صعب وحياة شاقة . . . ولا يمكن ، اللهم إلا بأقصى مشقة ، أن يحصل المرء على كفاف العيش الذى قد تقدمه له أرضه وهى تنقسم له ولكنها تقاومه » — عن :

Frank Tannenbaum, "Mexico : The Struggle for Peace and Bread" (New York, 1950). p. 8.

(٦) « والبها شاسعة لدرجة أنه حتى أولئك الذين يعرفون حدود أراضيهم تمام المعرفة يتجهون فى أرجائها » — عن :

Lucio V. Mansilla, "Una Excursion a los Indios Ranqueles". (Buenos Aires), p. 26.

وقد كان العقيد مانسيا ضابطا في الجيش الأرجنتيني ، ويعد كتابه مرجعا كلاسيكيا في الفنون الهندية في أمريكا اللاتينية .

(٧) خوان دي جاراى هو الثانى وذو الأثر الفعال في تأسيس بوينس آيريس ، أما مارتى فييرو فكان شخصية صورها شعر خوسيه هيرنانديث وأتموذا للجوشو .

Robert Bontine Cunningham Graham, "The Conquest (٨) of the River Plate" (London 1924), p. 57 :

« فراغ مستو من الشمس والعشب والرياح » .

Christopher Isherwood, "The Condor and the Cows : و A South - American Travel Diary" (New York, 1949), p. 198.

(٩) عن تاريخ الجوشو انظر

Madaline Wallis Nichols, "The Gaucho, Cattle Hunter, Countryman, Ideal of Romance" (Durham, N. C., 1942).

(١٠) عن اللانوس انظر .

Miguel Triana, "Bulletin of the Pan - American Union".

واقنيس منه :

A. C. Wilgus, ed., "Readings in Latin—American Civilization (New York, 1946), p. 248.

W. L. Schurz, "The Amazon, Father of Waters", (١١) The National Geographic, Magazine April, 1926.

(١٢) « الصحراء ، شئ من الجمال ، وأريزونا ، بهجة إلى الأبد ، إذا قيسنا بساحل بيرو » ، عن :

Ephraim George Squier, "Peru: Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas" (New York, 1877), p. 25.

(١٣) ترجم القصة إلى الإنجليزية Samuel Putnam تحت عنوان :

"Rebellion in the Backlands".

ولمشرتها مطبعة جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٤ .

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, "A (١٤) Voyage to South America" (London, 1806), Vol. II, 81.

ترجمت عن الإسبانية في جزءين .

Juan and Ulloa, op. cit., II, 138. (١٥) المرجع المذكور

انظر أيضا :

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies", p. 505.

ترجمت عن الإسبانية ، واشنطن D. C. ، ١٩٤٢ .

Benjamin Subercaseaux, "A Geographic Extravaganza" (١٦)

ترجمت عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٤٣ ، ص ١٦٠ .

انظر أيضا تقريراً عن آثار الزلازل كتبه :

Norman Armour, "Bulletin of the Pan - American Union", March, 1939.





## الفصل الثامن

### الهندوكس

عندما شخص كولبس يبصره تجاه الشاطئ. من مرساة جواناهاني في ذلك الصباح من أكتوبر سنة ١٤٩٢ ، رأى عدداً كبيراً من أناس عراة متناثرين على الساحل (\*). ولما كان الإسبانون ، مهما تكن آراؤهم الشخصية ، يمتقنون العري بصرامة ، فقد حرص المستكشف على أن يخبر الملكة أنه من الخير « أن يعلمهم كيف يلبسون ثيابا » . ولما اختلط بأهالي الجزيرة في ذلك اليوم سرعان ما تبلورت آراؤه بخصوصهم . فقد لاحظ أنهم كانوا « ذوى بنية قوية ، وأجسامهم ممشوقة ، ووجوههم جميلة جداً ، وعيونهم « بدیعة للغاية » ، وفيما يتعلق بصفاتهم الخلقية فقد وجدهم كما وجد الآلهي الآخرين في الأنتيل شعباً « بسيطاً ، و « ديعاً جداً ، و « ساذجاً و كريماً » و « هيايا إلى درجة تثير العجب » ، وبدت منهم « بوادر المحبة

(\*) Arcadian من أركاديا في اليونان القديمة وكان يسكنها أناس بسطاء مهم

الفناء والرقص .

كما لو ودوا أن يقدموا قلوبهم عنواناً . وبعد حين كتب إلى الحكام أنهم يحبون جيرانهم كما يحبون أنفسهم، وأنهم يمتازون بأعذب الأصوات في العالم، وثغورهم باسمه على الدوام . وكان هؤلاء المتوحشون البسطاء من التاينو الذين ينتمون إلى شعب الأراواك الواسع الانتشار ، كان كولمبس قد سمع عن أعدائهم وظلمتهم التقليديين ، شعب الكاريب الطغاة ، ولكنه لم يلتق بهم في رحلته الأولى إلى العالم الجديد . وكان كولمبس قد تشبث بالوهم القائل لهم كانوا يقطنون على حدود الصين ، ولذلك فقد كانوا هندوياً ، ويقطنون جزر الهند العتيقة . ومن ثم أصبحوا هم وبؤر قرايتهم لآلاف كثيرة من كيلومترات من حولهم هندوياً .

وكما أن العالم الجديد قد سمي تكريماً لرجل لم يره أبداً على وجه الاحتمال ، فكذلك سمي سكانه شعب لم يقطنه أبداً .

وفي أثناء تقدم كولمبس بين جنات الجزر في مياه السكاريبي ، اقتنص بعض الوقت لطيل الشرح في شتات المطالب التي كانت تستلزمها بعثته ، أوضحها كما يوضح كتيب السائحين قوائم فرص الاستثمار في المجتمع، مراعاة للغرفة التجارية ، فيبلغ رؤسائه الملكيين المثقلين بالمصاعب أن الهنود « صالحون لأن يحكموا ، وتوكل إليهم الأعمال ، ويفلحوا الأرض ويعملوا كل شيء آخر قد يكون ضرورياً . ويضيف ملاحظة هامة قائلاً : « إنهم جرد من السلاح » ، ولا « علم لهم بالحروب » ، وأنهم « هيابون إلى درجة أن ألفاً منهم لا يستطيعون مواجهة ثلاثة » . والسكى يخفف وقع هذه الحقيقة الجريئة على ايزابلا المتدينة يشير إلى أن الهنود « شعب علينا أن ندخله ونحوه إلى ديننا المقدس » . أما بالنسبة إلى الطريقة المرسومة لخلاص نفوسهم الوثنية فقد كانت لتؤدي « بالحببة أكثر منها بالقوة » . فهو يضع نفسه في هذا في موقف الشخص الثنائي الذي لا يتراجع والذي يرى أن الهندي يمكن أن يخلق منه شخص يكون رقيقاً ومسيحياً في وقت معاً ، مما سبب

الكوارث الكثيرة للسياسة الذين كانوا يرسمون الأساليب الإدارية للإمبراطورية الإسبانية .

وفي كل مكان ارتاده الإسبان والبرتغاليون كان هناك هنود . وكان هؤلاء في بعض الأحيان أفراداً في جماعات لغوية صغيرة لا يعتد بهم ، دفعهم جيران لهم أشد بأساً إلى أرجاء لا يرغب فيها كثيراً ، ولكن غالباً ما كانوا ينتمون إلى واحدة من السلالات التي كانت تتجول ، أو التي قد توطد استقرارها في أرجاء شاسعة كانت تعد ملكاً لهم . فموطن التوبي — جوراني كان يشغل ملايين الكيلومترات المربعة مما هو الآن البرازيل وجمهوريات نهرلات . أما لإمبراطورية الإنكا فقد شملت معظم مساحة اكوادور الحالية وبيرو وبوليفيا وامتدت حتى بلغ امتدادها السكلى من الشمال إلى الجنوب أكثر من ٨٠٠ كيلو متر<sup>(٣)</sup> . وفوق هضبة أناهوا في المكسيك كانت شعوب الناهوا لا تزال في حركة ، ولم يكن الأزانقة قد توحدت فتوحاتهم بعد ، وهم شعب يتصف بالعدوان والسيطرة ، أو قد وصل إلى حدود توسعاته الطبيعية حينما أوقف الإسبانهم لإتمام مصيرهم<sup>(٤)</sup> . فإذا ما انجهمنا إلى ما دون غابات البرزخ عاش شعب المايا والقبائل ذوات القربى مثل السكيشى منعزلين ومتناثرين في الأراضي الممتدة من بوكاتان نحو الجنوب إلى مرتفعات جواتيمالا وهندوراس<sup>(٥)</sup> .

وبصرف النظر عن الموطن الذي نزحوا منه — ومن المحتمل أن يكونوا قد أتوا من آسيا عن طريق مضيق بيرنج — فإنهم سكنوا العالم الجديد فترة طويلة جداً قبل أن لقيهم الأوروبيون . وقد كشفت في أكوادور عظام بشرية في نفس الطبقات التي خلفها الماموث والحصان البدائي . وعاش الهنود في القارة فترة طويلة كانت كافية لإحداث اختلافات جذرية واضحة في نوعهم الجفسي . فقد كان هناك هنود صغار الأجسام مثل المايا ، وأناس أجسامهم كبيرة كقبائل الأونا في بتاجونيا — ولو أنهم غير المردة الذين

## هذا العالم الجديد

ذكرهم الإسبانيون في أول الأمر . وعلى الأنديز العالية تطورت صدورهم فاتخذت شكل البرميل ، مما ساعد الرئتين على استنشاق الأكسجين من الجو المخنخل ، ووقفوا أجهزتهم الجسمية الأخرى إلى مقتضيات حياتهم فوق تلك الارتفاعات . وبينما كان معظمهم ذوى بشرة تميل إلى الحمرة المشربة بالسمرة كان بعضهم أدكن تماما ، وكان البعض الآخر ذا لون فاتح جداً . ووجد الإسبانيون أفراداً كثيرين ذوى لون يشبه لونهم ، وكان اختيار العناصر الأصاح للتزاوج بين أفراد الأسر الحاكمة في بيرو والمكسيك قد أنتج طبقة مميزة تضم أفراداً ذوى سمخات أفنح وأطول قامة وأكثر وجهة من العامة من هذه الأجناس . وعلى الرغم من أنه في آلاف السنين الطوال التي استوطن فيها الهنود القارة قد فقدوا كل شيء يذكّرهم بشخصيتهم وأصلهم الآسيوى — فى ظل أرض الأساطير والقصص الشعبي دائماً — فإن الزمن لم يستاصل من أجسامهم بعض شوائب شرقية معينة كالعيون المنحرفة « والبقعة المغولية » التي يقال إنها توجد فى أسفل العمود الفقرى عند الأطفال .

بل إن الاختلاف الثقافى الذى حدث كان أكثر من الاختلاف الجسمى . ففي درجة الحضارة التي توصلوا إليها تراوحوا من الثقافة العتيقة التي اختص بها شعب الياغان البؤساء فى أرخبيل تشبلى إلى مستوى يقارن فى بعض النواحي بحضارة أوروبا فى القرن السادس عشر ، كما كانت الحال بين هنود المكسيك وبيرو ، وازدهرت بعض الحضارات ثم اختفت أو تدهورت أو فقدت شخصيتها بالانصواء فى كتلة شعوب أقوى شكيمة ، وإن كانت أكثر تخلفاً ، كالشعوب التي أقامت مدينة تياهو ناكو الجبارة بالقرب من بحيرة تيتيكাকা ، وبناء تيوتواكان المكسيكية القديمة (\*) ، والشعب الذى اندثر وخلف وراءه الأعمال الفنية الجميلة المنتشرة فى وادى الأمازون الأدنى .

(\*) Toltec حضارة المكسيك القديمة ..



وكما حدث للإمبراطوريات المصرية القديمة كانت بعض هذه الشعوب تزدهر وتضمحل على دورات طويلة كما حدث لشعب المايا العظيم الذي انتهت آخر فترة ازدهار له قبل أن يصل الإسبانئون إلى شواطئ يوكاتان (٦) . وقد وقفت الحروب والأوبئة وازدياد نسبة السكان في مواجهة مقادير الطعام المنتجة محليا وعملت على تقويض هذه الثقافات المزعزة وكثيرا ما تركتها مبتورة في دور تطورها.

### طرق المعيشة عند الهنود

تباينت عادات وفنون المعيشة كثيرا بتباين مستويات الحضارة أو الثروة الفطرية للبيئة الطبيعية . فمن ناحية الطعام كانت القبائل الأكثر بداءة يأكلون أى شئ يجدونه حولهم ، من نمل وديدان ونباتات الأرض ، والأصداف يلتقطونها من على الشواطئ في وقت الجزر ، أو بعض النباتات الغذائية كالتي تنمو طبيعيا في الغابة . ومن هذا المستوى المنخفض تدرج غذاء الهندي إلى أطايب الطعام التي صورها برنال دياش غذاء يوميا لموتسوما . فقد طور الهنود من الذرة والكاسافا والبطاطس النباتات الغذائية الرئيسية والتي لا تزال تكون الغذاء الأساسي لمعظم سكان أمريكا اللاتينية . ففطيرة الذرة (٥) المكسيكية، ووجبة الكاسافا الخشنة السمراء المشهورة في البرازيل، سبقت مجيء الأوروبيين بوقت طويل . وفي ذلك الوقت ، كما هو الآن ، قد يكون من الصعب ان نبالغ في أهمية الذرة في حياة أمريكا قبل مجيء كولمبس ، ذلك لأنها لم تهملهم أساسا مجتمع مستقر للملايين الناس فحسب ، ولكن عمليات زراعتها كانت ، إلى درجة خارقة ، عنصرا أساسيا في الأساليب الشعبية التي كان يمارسها الهنود (٧) . فقد كانت الذرة أكثر من طعام ، ذلك لأنها كانت دليلا على أسلوب معيشة . وفي جهات محلية

---

(\*) Tortilla : تورتيلا

مختلفة كان يحل محل هذه الأطعمة الأساسية البطاطا والبقول والقرع العسلي وخضراوات أخرى وفواكه محلية كثيرة والآناس وجبب السكين المغذية التي اشتهرت بها الأنديز ، والشوكولاته . أضف إلى ذلك السمك ولحم الحيوانات كلها أمكن ذلك . ومن حيوانات الصيد التي كان يكثر اقتناصها الجواناكو في البيا ، والأيايل ( الغزلان ) والقردة والديكة الرومية البرية وطيور أخرى مثل الموتوم وأنواع القوارض البضة التي تشتهر بها غابة الأمازون .

وفي مناسبات — وقد تكون هذه المناسبات كثيرة الوقوع — كان كثير منهم يأكلون زملاءهم مستمتعين باستساغة لحومهم . وقد يؤكل قلب الفريسة الضحية كظهر من مظاهر الطقوس الدينية لإله الحرب <sup>(٨)</sup> (٥) عند الأزاتقة ، غير أن الدافع إلى أكل لحوم البشر كان هو الزهم الذي كان يفوق في معظم الأحوال دافع الشعيرة الدينية . وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين الإسبانين قد بالغوا في حوادث أكل لحوم البشر وما تنطوى عليه من فظائع فإن الدليل على ممارسة هذه العادة واسع الانتشار بحيث لا يمكن تجاهلها . وإن لفظ «كانيبال» ، (٥٥) الانجليزى نفسه أى آكل لحوم البشر مشتق من قبائل الكاريب المتوحشين في البحر الكاريبي ، والذين كانوا يفرطون في حبهم له ويبدون استحسانا مسبقا للأجسام الإسبانية <sup>(٩)</sup> وكانت هذه العادة منتشرة بصفة خاصة بين قبائل البيخاو المتوحشين وقبائل أخرى في مرتفعات كولومبيا ، ولكنها كانت أيضا ظاهرة عادية في حياة شعوب الجواراني والتوبي <sup>(١٠)</sup> . وفي رواية إسبانية أن بعض قبائل كولومبيا كان يلتهم بعضهم بعضا بالمعنى الحرفي للاتهام <sup>(١١)</sup> .

واستساغ الهندود إثارة المشروبات الروحية كما يفعلون الآن <sup>(١٢)</sup> .

Huitzilopochtli (\*)

Cannibal (\*\*)

فشربوا البولكي التي استخرجوها من نبات الصبار الأمريكي في المكسيك والسوييا التي كانوا يستخلصونها من تخمير الذرة ومواد أخرى ، والعصارة القوية التي كانوا يأخذونها من أعشاب الخرنوب ، أو الخلاصة التي استخرجوها من معظم النباتات غير السامة التي يمكن تخميرها . وقد أتاحت لهم الخمر فترات من البهجة أو الركود العقلي كفرجة من رتابة الحياة اليومية أو مصاعبها . وفي بعض الأحيان ، وتحت تأثير إثارة الكحول أو المخدرات ، كانوا يقيمون حفلات السكر والعريضة ابتهاجا بطقس قبلي معين أو لمجرد المتعة من إقامتها . وعلى الرغم من جهود القساوسة للحد من عادات شربهم الخمر فقد جاء الوقت الذي حرصوا فيه على مراعاة احتفالات الكنيسة الكاثوليكية بنفس الاستهتار الوثنى ، ولكن بما أضافوه إلى ميسرات السكر الجديدة التي قدمتها لهم معرفة قصب السكر والكروم .

وتراوحت مساكن الهنود ، من المنازل الأرضية تحت السماء المكشوفة أو « أكواخ » من سعف النخل ينصبونها بسرعة في الغابة ، إلى مساكن جماعية موضونة (ه) عاشت فيها الجماعة في جو مختلط مليء بالدخان والروائح أو إلى دور كبيرة رصينة من الحجر المنحوت تقام للطبقات الحاكمة في القبائل المتقدمة . وقد استغل الهنود مواد البناء الموجودة حولهم استغلالا جيدا . وعلى الرغم من نقص الأدوات المعدنية لديهم فقد أظهروا عادة مهارة فائقة في استخدام تلك المواد في مساكن أدت الغرض من إقامتها إلى درجة مرضية جدا . والقاعدة العامة في مسكن المزارع المتوسط ، الذي يفلح الأرض لكفائته الذاتية في جهات أمريكا اللاتينية المدارية ، أن يكون مهيأ تهية فائقة لمقتضيات البيئة ، ومثاله « بوهو » الأراواك الذي يقطنه الفلاح الكوبي (هـ) والذي يشبه سلفه ونموذجه الهندي .

وفي الجهات ذات المناخ الحار سار الهنود عراة ، إذا استثنينا ميدعة

(\*) Imalocas : موضونة أى « مجدولة »

(\*\*) Guaijiro : جواخيرو

قطنية صغيرة أو الجراب ، القديم الذى كان يستخدم لستر ما أسماه  
الإسبانيون «العورات» (\*) وفى عهد الاستعمار تنازلوا بعض الشيء  
أمام احتجاج رجال الكنيسة الكاثوليك عن سيرهم عريانيين ، فيما عدا  
الحالات التى حصلوا فيها على كميات كافية من القطن لقمص فضفاضة (\*\*)  
كانت تستعملها نساء قبيلة الجوارانى . أما فى الأجواء الأقل حرارة فقد  
كانت الهندى يلبس أى شيء يمكن الحصول عليه لتغطية جسمه . وفى جنوب  
تاجونيا وتيرادل فويجو استخدم الفراء فى ملبسه . وفى معظم أرجاء القارة  
كانت النساء يلبسن جلابيب من أشجار القطن المحلية ، وعلى مرتفعات  
الأنديز جلابيب من صوف اللاما . أما صوف الفيكونيا (\*\*\*) الناعم فقد  
كان يحتفظ به للملابس طبقة الانكا . وعندما أدخل الأوروبيون نبات القطن  
الحولى والأغنام أمكن الحصول على نوعين من الألياف المفيدة ، واستطاع  
الهنود بسهولة أن يستخدموها فى صنع ملابسهم . ووصل السكان الهنود  
الأوائل فى وديان بيرو الساحلية إلى درجة عالية خارقة من المهارة فى النسيج  
وصنعوا أقمشة على درجة عظيمة من الجمال والمتانة (١٢) .

وكان لدى بعض الشعوب القديمة معلومات غزيرة اكتسبوها بالخبرة  
عن النباتات العلاجية . ولقد كان لفاعلية دليل الصيدلة الأهللى للإنكا وقع  
كبير فى نفوس الإسبانيين حتى إنهم أنشأوا كرسيًا للطب الهندى فى جامعة  
ليما ، وكتب المبشرون الكاثوليك الرسائل فى هذا الموضوع ، كما أعيد طبع  
مجموعة نباتات الأزاتقة ، المشهورة من جديد فى عصرنا هذا . وشملت  
المواد الطبيعية عند الهنود علاجاً لسوء الهضم ولعلاج أنواع العدوى التى  
تصيب الجسم من الخارج والأدوية القابضة لمنع النزيف واستخدام عقار  
الكوكا كمخدر . وبالإضافة إلى الكوكا أمدوا الطب الحديث بعقاقير منها

Verguenzas (\*)

Tupoy (\*\*)

Vicuna (\*\*\*) نوع برى من اللاما .

لحاء السكيناء وعرق الذهب وبلسم ييرو وسم السهام ومواد أخرى كثيرة ، وفي مضمار الجراحة هناك دليل على مهارة كبيرة عند الإنكا في تربنة الجماجم في حالات أمراض المخ. وبجانب رجال الطب المشعوذين ، الذين لأمناص من وجودهم بين قبائل الغابة ، كان هناك في كثير من الأحيان قدر كبير من المعرفة الطبية السليمة . ومن المحتمل أن الدافع إلى ممارسة السحر في أثناء ممارستهم مهنتهم كان نفسانيا إلى حد كبير ، وعلى الرغم من النقص في تعليمهم الرسمي فإن خلفهم الحديث المعروف «بالمطبيب» (\*) كالمقابلة الشعبية يؤدي خدمة فائقة دون شك بين السكان المتخلفين والمتناثرين الذين يقطنون في قلب القارة حيث لا يمكن الحصول على خدمات الأطباء المدربين .

وعلى خلاف الرأي السائد ، لم يكن احتمال طول الأعمار كبيراً . أما الحالات التي طالت فيها الأعمار بدرجة غير عادية فحالات شاذة عن القاعدة العامة (١٤) ، وكان معدل وفيات الأطفال مرتفعاً دائماً كما هو اليوم ، والأطفال الذين نجوا من بلايا الطفولة غالباً ما أظهروا انحلالاً كبيراً للأخطار العادية التي تصادفها حياة الهنود . ومع ذلك فحتى في المجتمعات المتقدمة نسبياً والجيدة التنظيم ، كمجتمعات ييرو والمكسيك ، فإن أخطار العرى والحوادث كانت كثيرة ومائلة على الدوام . أضف إلى ذلك أنه لولا حنان المرأة الهندية وما اتصفت به من قلق لتفاقت أحداث الهلاك إلى درجة كبيرة . وكثيراً ما عقب المؤرخون الأوائل والمسافرون من بعدهم على جمال منظر الأجسام الذي اتصف به من قبلهم من الهنود الذين بلغوا سن الرشد ، وعلى قلة الأشخاص المقعدين أو المشوهين .

وكان الهندي متخلفاً في مضمار التطور الفني ، فقد كانت تنقصه ملكة الاختراع والمهارة الغريزية في معالجة المسائل الطبيعية . وقامت الشعوب

التي تقدمت على سلم المدنية بأعمال هندسية تدعو إلى الإعجاب بطريقة ميكانيكية لا تتعدى مرحلة البداءة . أما مدنيهم — كشكو وكوبان ومتلا وبالنسكى وشيشن إتشا — فقد نافست من ناحية الهندسة المعمارية المدن القديمة في آسيا وشمال افريقية . فقد شكلوا ونقلوا كتلا هائلة الحجم من الحجر لبناء عمار فخمة ، وأنشأوا في الأنديز مجموعة من الطرق الممهدة حسدهم عليها الإسبانيون ، ولكنهم فشـلوا في صيانتها (١٥) ، وأقاموا الجسور الواسعة على البحيرة التي أحاطت بعاصمة دولة الأزاتقة والقناطر المعلقة المتينة فوق خواتق نهر أبوريماك العميقة وغيره من الأنهار ، وعليها كان يحرك الفتحون جيوشهم وأرتال الدواب المثقلة بأحمالهم . وحفروا الأنفاق في نتوءات الأنديز لتحويل الأنهار عن مجاريها ، ودرجوا سفوح الجبال حتى قممها وحفروا قنوات الري على نطاق لم يكن معروفا في ذلك الوقت في أوروبا (١٦) . وقاموا بكل هذه الأعمال بالقوة البدنية مهما يبلغ تصورهم الجريء لمشروعاتهم العظيمة . وكما كانت الحال في مصر القديمة عوضت السهولة التي كانوا يحصلون بها على الأيدي العاملة الكثيرة والمطبعة النقص في العدد والآلات . وبعد الصبر وفقدان الحاسة الزمنية من العوامل التي أخرت التطور الميكانيكي عندهم ، فلم تكن العجلة ولا العقد في المباني معروفين في العالم الجديد قبل الكشف الكولمبي .

وكانت صناعاتهم المعدنية بدائية . وعلى الرغم من أن مدخرات هائلة من خام الحديد توجد فوق سطح الأرض أو قريبا منه في جهات كثيرة من أمريكا اللاتينية ، فإن الهنود لم يتعلموا أبدا سر صهره كما فعل الزنوج الإفريقيون . وفي كثير من جهات القارة كان أمضى الأدوات في القطع تصنع من حجر السبع ( \* ) غير أنه في حالة وجود الفلز في حالة نقية كما في أجزاء من بوليفيا استخدم الهنود أدوات النحاس المسقى .

وإذا كان الهنود لم يشعروا بأنهم مضطرون لاختراع وسائل توفر لهم العمل باستخدامهم أحجاما كبيرة من الحجر والتراب ، فإن بعضهم قد ارتقى إلى درجة مشهودة في مضمار العلوم البحتة ، وطبقوا كشوفهم في الفلك والرياضيات في عملياتهم الهندسية وخدمة الزراعة التي كانوا يمارسونها ، وفي تنظيم دورات أعيادهم الدينية التي كانت تطابق حياتهم الجماعية مطابقة صميمة . وكان تقويم الملايا أدق من التقويم المستعمل في أوروبا في نفس الفترة من التاريخ . وعندما فسكت رموز العلائم التاريخية المنقوشة على الآثار القديمة أمكن تحديد كثير من التواريخ الهامة عن سيرتهم ويبدل تخطيط قلعة تيوتهاوا كان الضخمة في المكسيك القديمة وغيرها من المباني في المكسيك ويبرو على معرفة بالهندسة ربما كانت تسدى فضلا إلى العمارات العظيمة التي أقيمت في العصور الوسطى . وقد طور الملايا طريقة الأرقام المبنية على العدد ٢٠ والتي تضمنت الفكرة المجردة عن الصفر .

### السياسة والحرب عند الهنود

تنوعت النظم السياسية القديمة في العالم الجديد من حالة الفوضى أو انعدام سلطة معترف بها كلية إلى مرتبة عالية من تطور الدولة عند الإنكا . وفي بعض الأحيان كانت الجماعة تنظم في وقت الحرب فقط ، عندما يختار محارب فذ ليقودها إلى المعركة . وحتى قبائل الأروكانيان في تشيلي ، الذين كانوا يثيرون الرعب ، لم يتقدموا إلا قليلا دون هذا الدور البدائي في التنظيم . وفي أحيان أخرى ربما مارس الرجال كبار السن قدرا من السيطرة بوصف كونهم ملاذا وحفاظا على العادات والحكمة التي تزود بها الشعب ، ذلك لأن هذه الجماعات البدائية كانت محافظة أشد المحافظة ، وكثيرا ما كانوا يميلون إلى عدم تشجيع أى شيء مستحدث على أنه إساءة إلى الأرواح التي ترعى

القبيلة في أوقات الرخاء والشدة. أما الشعوب الأكثر مدنية كالآزاتقة والإنكا فقد أظهروا مهارة مشهودة في الإدارة العامة . فالسلطة في دولة الأزاتقة الاتحادية وامبراطورية الإنكا كانت في أيدي رجال الدين بمسئوليات متدرجة محدودة بوضوح ، وتشمل القيام بالأعمال الفنية المتخصصة لحكم الشعوب التي كانتا تحكمها . ولقد أعجب الإسبان بعبقريتهم السياسية واحتفظوا ببعض نظم الحكم التي ساروا عليها في المراحل الأولى من نظامهم الاستعماري .

وكانت الحرب أمراً عادياً في جماعات ما قبل الكشف الكولمبي . فبعض الشعوب مثل الكاريب والشيشيمك (١٧) والأروكاريان (١٨) الذين لا يقهرون كانوا محبين للحرب كقبائل السيوا أو الأيروكوا (٥) . وهناك قبائل أخرى كالتاينو في الأنديز والشيمو على ساحل بيرو والحشيشا في هضبة كولومبيا كانوا بغريزتهم محبين للسلام إلى حد كبير ، وكان يفتك بهم جيرانهم من محبي العدوان ، وربما كانت هذه الاشتباكات القبلية ، في أكثر صورها بداءة ، مقصورة على الإغارة على قرى الأعداء للحصول على ضحايا قربانية ، أو إمدادات من اللحم . وهذه كانت عادة شائعة عند التوني وأقربائهم الجواراني . وفي بعض الأحيان كان الدافع إلى الحرب هو استرقاق أعداء بالذات أو قبائل برمتها ، كما كانت الحال بين قبائل البوتوكودو في البرازيل . أما الأيبوني ، وهي قبيلة تقطن أمريكا الجنوبية ، فبعد أن خضعت لسيطرة جيرانها تعلمت كيف تذلل الخيل الوحشية التي أطلقها الإسبان في السهول ثم ردوا الكرة على مضطهديهم . فقد كانت الحرب أجدد اختبار للرجولة (١٩) في مجتمع يضع الشجاعة الشخصية فوق كل الفضائل الأخرى .

---

(\*) في أمريكا الشمالية.



أما بين الإنكا الأزانقة فقد اتخذت الحرب كثيراً من صفات المغامرات الحربية الأوربية . إذ هدفت حروبهم الإمبريالية إلى دوام إخضاع الشعوب الأخرى واغتصاب أراضيهم . فوجدت طبقة معينة من المحاربين تمتعت بمزايا وحقوق خاصة خصوصاً في المكسيك . وتطورت نظراتهم إلى الاستراتيجية بحيث فاقت كثيراً نوع الإغارة الليلية البدائية ، يتبعها أخذ الأسرى والانسحاب السريع إلى قواعدهم . فإن السرعة التي تعلم بها الأروكانيان خطط الإسبانين الحربية وطبقوها كانت أحد الأسرار التي جعلتهم يصمدون أمام الفاتحين طويلًا وبنجاح . ولكي يخضعوا أعداءهم دون إراقة دماء عمد الإنكا في بعض الأحيان إلى أساليب الحرب النفسية ، كما فعلوا مع شعب الشيمو على طول الساحل (٢٠) فقد تسرب عملاء الإنكا إلى عاصمة الشيمو ، وهناك نشروا بين الناس قصة المنعة التي اتصفت بها جيوشهم وتوكيدات المعاملة اللينة التي سيلاقونها إذا استسلم الشيمو دون مقاومة . ثم استكملت العملية الحربية بامتصاص الشعب المغلوب في الوحدة المنظمة لإمبراطورية الإنكا الرحبية التي لا مناص للتخلص منها بالثورة . فإذا امتاز الشعب المغلوب بكونه محارباً كشعب الكانياري فقد ينضم إلى جيوش الإنكا كقوة محاربة من الانكشارية .

ولم يعرف عالم الهنود أى اقتصاد نقدي ، ولا أفراداً أية فكرة عن الربح أو الثروة . فلم يكن هناك معنى عندهم لأن يكسب المرء رأس مال . وبين الشعوب الأكثر بداءة كانت الحياة عبارة عن وليمة أو مجاعة أو سعيًا وراء قوت اليوم ، وقوامه مقادير قد لا تكفي من الفواكه أو صيد البحر . والبر ، أو زراعة بدائية أو غنائم الحرب . ولم يستخدم الذهب أو الفضة حيث وجدا لغرض التعامل ، بل استعمل فقط في الفنون . ومن المحتمل أن أقرب شيء إلى العملة المتداولة كان استخدام حبوب الكاكاو في المكسيك كـمقياس للقيمة . وفي بعض الأقاليم كان هناك تبادل كثير بين بعض القبائل

وبعضها للسلع التي كانت ضرورية لحياة المجتمع التقليدية كالمالح وحجر السبج ورياش الزينة وسم السهام . ووجد الإسبان في عاصمة الأزاتقة أسواقاً عامة أدهشهم فيها تنوع البضائع وعمليات جيدة التنظيم في البيع والشراء ، وكانت على درجة من النظافة قد تفوق نظافة الأسواق الحالية في مدينة المكسيك إذا قورنت بها . وكانت جموع الشعوب المتمدنة مزارعين ، وكان اقتصادهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأرض ، حتى إنه اتخذ في أكثر الأوقات صفة دينية أو ثقافية كما كانت الحال في شعوب الإنكا في الأنديز . فهنا وجدت دولة وراثية تعنى بالمشكلات الاقتصادية التي كانت تهم المجتمع الأكبر كمتخزين مواد الطعام ضد إمكان حدوث المجاعات ، وموازنة المحصولات ضد احتمال حدوث قحط أو كارثة طبيعية أخرى في مختلف أقاليم الإمبراطورية . وكانت الزراعة متصلة إلى درجة كبيرة في واقع البيئة العمل ، وعلى قدر ما كانت طرق فلاحية الأرض عند الهنود تبعدو عتيقة للزراع الذي يستخدم الطرق الآلية اليوم ، فقد أصبحت بصفة عامة عن طريق التجربة والخطأ الطويل ملائمة إلى درجة كبيرة للظروف الطبيعية التي كان الهندي يفلح فيها الأرض . وعلى سبيل المثال نجد المحراث الصلب الحديث قد يصبح كارثة إذا استخدم في أنواع التربة الرقيقة الموجودة في يوكاتان حيث غرس فلاح المايا الذرة وزرعها لألف سنة دون أداة أخرى غير عصا حادة الطرف (٢١) .

### الثقافات الهندية

كان كل من الأزاتقة والمايا يستخدمون طريقة هيروغليفية من الكتابة ، ونظراً إلى أن مدينة الأزاتقة كانت قد بلغت أوج مجدها عند فتح الإسبانين لبلادهم فقد كان من الممكن حل الرموز المكسيكية المنحوتة بدون عناء . ومن ناحية أخرى كانت ثقافة المايا في ذلك الوقت قد وصلت

إلى درجة كبيرة من التدهور جعلت خلفاء أولئك الذين كسوا المعابد والأعمدة بالكتابة المنحوتة غير قادرين على قراءتها . وقليل من المخطوطات أو المجموعات الخطية التي كانت موجودة وقت وصول الإسبانين هي فقط التي نجت من حمية التدمير التي اتصف بها الفاتحون الذين كانوا لا يرون فيها سوى أنها آثار من الوثنية . ولم يمض طلاب العلم قدما في أية محاولة لتفسير كتابة المايا إلا في القرن الحالي ، ولا تزال غالبية الحروف الهجائية غير مترجمة حتى الآن . وتتصل معظم النقوش التي أميط عنها اللثام بالمسائل الفلكية والطقوس ، ولذلك فهي تنسم بصفة التقويم الديني ، وفيما عدا ذلك ، إذا استثنينا اختيارهم لتواريخ معينة تعد مفتاحا لمعرفة ماضيهم ، فإنهم لم يتركوا إلا ضوءا ضئيلا يوضح لنا التاريخ الغامض لهذا الشعب العجيب . فلم يطور الإنكا طريقة حقيقية للكتابة . ومع ذلك فبحلول أواخر القرن السادس عشر كانت قد تطورت طريقة العقد الحسابية البارعة التي سجلوا بها البيانات الإحصائية والتي أمكن بواسطتها توصيل أنواع أخرى من المعلومات ، ولو أن ذلك كان في نطاق ضيق . وكانت طريقة العقد هذه عبارة عن خيط معتد فيه تختلف ألوان العقد وتنظيمها وعددها لكي تستخدم في التعبير عن الحقائق السكمية . وعجب المؤرخون الإسبان في الأوائل من مقدرة طريقة العقد هذه على تسجيل المدركات الأخرى غير العددية (٢٢) . ولم يبتكر أى شعب من شعوب الهندو ألبته أية طريقة تقترب من أبجدية صوتية .

أما الأعمال الفنية التي أنجزتها شعوب ما قبل الكشف الكولمبي فقد كانت عظيمة جداً ، وبدأت من بعضها حاسة متطورة فائقة الجمال مصحوبة بمهارة فنية في الإنجاز بوسائل مختلفة . وفي بعض الأحيان كانت الرقابة الدينية تؤدي إلى أسلوب تقليدي في الفن كما هي الحال بين شعوب أخرى مثل

الإغريق البيزنطيين الذين سيطرت على ثقافتهم طبقة من الكهنة . مثلاً بين المايا نجد أن مثل هذه الرموز التي اكتسبت صبغة قانونية ، كالنمر الأمريكي والحية ، موجودة في مظاهر الفن الذي يمارسونه ، ومن ناحية أخرى نجد كثيراً من الأنية الفخارية التي خلفتها شعوب الساحل البيروفي كالشيمو والنياكا تبين أن لكل منها طابعها الخاص في معالجة الأنماط والمناظر الشعبية .

وتشمل أشكال الفن الهندي الأواني الفخارية والتصوير بالألوان والنحت وقطع الأحجار الثمينة ومصنوعات الذهب والفضة والرسم على الأقمشة والحفر على الخشب وتصفيف الأزهار والرياش (٢٣) . وهناك مجموعات ضخمة من هذه الكنوز محفوظة في متاحف الآثار في أمريكا اللاتينية ومتاحف الولايات المتحدة وأوروبا . وإلى عهد قريب كانت جمهوريات أمريكا اللاتينية لا تهتم إلا قليلاً بتاريخها الهندي الماضي ، بل كانت تزدري كنوزها الهندية كمخلفات بربرية . ولكن بازدياد تقدير الصفات الذاتية لهذه المخلفات والدور الذي تقوم به في تطوير الثقافات القومية نجدها تعزز الآن اعتزازاً كبيراً بهذه المخلفات التي تركها فن ما قبل العصر الأوروبي ، وعادة ما تمنع خروجها من البلاد . وقد تدهور الإنتاج الفني الهندي كثيراً منذ الفتح ، وبصفة خاصة منذ قدم الهندي مهارته في زخرفة الكنائس في المستعمرات . ويرجع هذا بدرجة كبيرة إلى فقدان اعتزازه بقومه والذي كان يلهم جهوده من قبل ، وإلى المحاباة التي كان يبديها ساداته الإسبانيون والبرتغاليون نحو الفن الأوروبي ، وفي أيامنا هذه ، إلى منافسة السلع المصنوعة آلياً . وقد نتج عن الثورة التي بدأت في سنة ١٩١١ أن اعترف بفضل الهنود على الثقافة المكسيكية كما أحيا الفنانون والاثروبولوجيون التعبير عن الحاسة الفنية السكامة للشعب المكسيكي . وكما أن الإعجاب والاهتمام اللذين أبداهما طلبة العلم الأجانب كانوا مسئولين ..

إلى حد كبير عن التحول في وجهة نظر سكان أمريكا اللاتينية نحو الثروة الثقافية لخلفية تاريخهم الهندي ، فإن قلة من الأمريكيين - أمثال وليم سبراتنج في المكسيك وترومان بيلي في بيرو - قد بذلوا جهداً كبيراً في استرجاع النماذج الأصلية والمهارة الفنية القديمة في تلك البلاد .

وبرعت شعوب المكسيك والمايا في مضمار التحت ، ولو أن إقليم شافن . في الأنديز كان أيضاً مركزاً للبراعة في نحت الأحجار . وأكثر الأغراض التي كان يمارس فيها الفن هو الزخرفة المعمارية كالمشبكات الهندسية الرقيقة على جدران متلا وزخرفة أو شمال الوافرة والنقوش العربية الطراز في شان . شان ومعبر منحوت في كويبان والرسوم المحفورة التي تشبه الكتابة المسمارية الآشورية عند معبر الشمس في تياهوآناكو . ومن بين الكنوز المحفورة الأخرى قرص حجري محفور من جنوب شرقي المكسيك له شكل يشبه الصدفة المنقوشة لعملة قديمة استخدمت في سيراكوس والنحوت المسرفة في الإفراط على أعمدة كوبان وكيريچوا وحجر شباك يدراس نجراس الفخيم بصورة الثلاث عشرة .

وفي جهات كثيرة من العالم الجديد صنعت الأجناس الوطنية آنية فخارية . لا حصر لتنوعها ، وكثيراً ما اتسمت بالجمال الفائق والبراعة الفنية . فقد صاغ أصحاب الحرف من بينهم ، بأيديهم الحساسة دون استخدام عجلة الفخاري زهريات وقوارير وأدنانا وأشكالاً صغيرة محفورة تمدنا بمعلومات كثيرة . عن تاريخ حياة شعوبهم وتطلعاتهم إلى إشباع رغبتهم في الجمال خارج واقع حياتهم اليومية . وقد بلغ هنود المكسيك والمايا وساحل بيرو الذروة في فنون صناعة الفخار ممثلة في الزهريات المزدانة بالصور التي خلفها المايا ، وآنية الفخار والأشكال الصغيرة التي تعكس حياة الشيمو العادية ، والزهريات الواضحة المتعددة الألوان التي خلفها النياثكا في جنوب

بيرو ، وكثير من أواني الموشيكوا والشيمو الفخارية اصطبغت بالفسكاهة في معالجة وقائع الأمور الشخصية . وبلغ التصوير الهزلي كذلك مستوى رفيعا بين بعض شعوب المكسيك ، كما في تمثال صغير لرجل ذى أبهة وحيثية من إقليم شياباس صنع كروى الشكل ، والأشكال الصغيرة التي خلفها التاراسكان في المرتفعات الغربية .

وعلى الرغم من فقدان أحسن ما وصل إليه الإنكا من المصوغات الذهبية عندما صهر الفاتحون فدية أتاها والبا وسلب كشكو وباشا كاماك ، أو ما اغتصبه « صيادو الكنوز » من المقابر طيلة أربعة قرون بعد ذلك ، فقد نجح من جشع وتخريب العصور المتأخرة القدر السكا في لتسعين منه مهارة التعدين وحاسة الجمال اللتان اتصفت بهما بعض الشعوب الهندية . ولقد أظهرت الكشف المثيرة في مقابر موتى ألبان في إقليم أوهاكا في المكسيك في وقتنا هذا مجموعة أسطورة الجمال من القلائد الذهبية واللوحات المصورة ، والميداليات « تعد نصراً للعمل الفنى الدقيق المعقد . وفى كشكو وجد الإسبانيون قرصاً للشمس من الذهب مرصعاً بأحجار الزمرد فى واجهة أحد أبنية الإنكا ، وفى ليلة الاحتفال التى تلت نهب عاصمة الإنكا قام به جندى برمية من لعاب « زهر » النرد بفسره ، وكما حدث للحدائق الذهبية التى تنارت فيها دمي الحيوانات والأشجار التى حرق النظر إليها رسول بشارو متعجباً مذهولاً فى قصر من قصور الإنكا فى تيبس ، كذلك اختفت لوحة كشكو الشمسية فى مصهر صائغ إسباني . وقد بقيت ، ضمن كنوز أخرى ، سنبله قح ذهبية تتدلّى منها أوراق هدايا « شواشى » من خيوط فضية . ومن بين الصياغ الآخرين للذهب شعب السكبايا فى كولومبيا وقبائل إقليمى الكوكلى والشيريكى فى البرزخ الذين صنعوا الزخارف البديعة ، كالشجرة الذهبية وبلورة السكوارتز ، والمدلاة الذهبية المطعمة بالزمرد فى صورة حيوان يشبه الثنين والمحفوظة فى متحف جامعة فيلادلفيا

وقد مارس الفنانون الهنود العمل في الذهب والفضة والنحاس وفي البرونز والسبائك الأخرى . وشملت العمليات التي استخدموها طريقة الصب بواسطة الشمع المفقود (٥) والنقش بالبارز ، والطرق ، وكساء المعادن ، والطلاء بالذهب ، والحفر ، والتطعيم ، والتغليف .

وكان المساي متفوقين على سائر الشعوب الهندية في فن النقش على الحجر خصوصاً في حفر حجر اليشم . أما الشعوب الأخرى التي برعت في قطع الجواهر فهم المستك وقبائل أخرى مكسيكية مارسوا فناً جميلاً في البلورات الصخرية ، كما في تلك القطع التي يمثلها تمثال الرجل في الحجر ، الموجود الآن بمتحف الإنسان في باريس . وإن قصص الأدوات الصلبة القاطعة يجعل ما قام به الهنود من أعمال في هذا المجال مثاراً مزيداً من الإعجاب .

وكان النسيج البيروفي مرآة تنعكس عليها الغرائز الفنية التي اتصفت بها تلك الشعوب . وقد حفظ المناخ الجاف الذي يسود في الأراضي الساحلية لحسن الحظ كثيراً من أنسجة عصر ما قبل الإسبانيين حتى وقتنا هذا ، وهي محفوظة الآن في متاحف لима . ونماذج الشيمو هذه ، وغيرها من المنسوجات ، تشمل الأقمشة المزركشة وحلل الحفلات والعبي والأثواب العادية كالبردة التي تتجلى فيها البراعة الفنية والدهشة والجمال الباهر في النصميم واللون . ومنها أعمال التطريز والنسيج الحريري المشجر ، وكذلك الأقمشة الرقيقة للنسيج التي انفردت بإنتاجها الأنوال الهندية . وعلى الرغم من أنها كانت تعادل صناعة الشعب الساحلي في بيرو فليس هناك أمثلة لنسيج مبكر للشعوب الجبلية في بيرو أو لشعوب المكسيك وأمريكا الوسطى احتفظ به حتى هذا العصر .

ومن بين الأمثلة الأخرى للفن الهندي الجدران المنقوشة في الغرفات

الداخلية لمعابد تيوتيهوا كان وشيشن إيتا وموتى ألبان والمخطوطات المزدانة التي كانت تشبه الأصول المخطوطية المصنّعة والحفر البديع في الخشب أو في أية مادة أخرى صالحة للحفر يمكن الحصول عليها ، يعبرون فيها عن دوافعهم الفنية ، وكانت لدى كثير من الشعوب الهندية موهبة غريزية للتعبير التصويري . ومن المحتمل أن أول مثل «لتصوير الأخبار» الذي نعرفه اليوم كان الأشكال المعبرة التي رسمها الإسبانيون والتي حملها رسل موتسوما معهم عند عودتهم بعد أول مقابلة مع الفاتحين .

وكانت الجماعة الهندية بصفة عامة نظاماً بشرياً دائم العمل يهدوء إلى درجة فائقة . وفي علاقات الناس الإنسانية بعضهم ببعض كان هناك كثير من الظرف والتقدير المتبادل . وكان الهنود يخفضون من أصواتهم ويتلفظون بالعبارات الرقيقة عند الحديث . وكان هناك قليل من الشجار أو العنف بين أفراد القبيلة . وهكذا فإن الأدب الفائق الذي يتصف به الشعب المكسيكي هو وراثته من الأدب الهندي على قدر ما هو وراثته من الأدب الإسباني<sup>(٢٤)</sup> . وكان سلوك الناس محكوما بقواعد معينة يتعلونها في الصغر . وكان النظام القبلي صارما إلى درجة أن القليلين كانوا يحسرون على انتهاك العادات الرئيسية للجماعة . وكان دستور السلوك هذا يهتم بمراعاة الأولوية التقليدية لرجال الدين أو السلطة التي تمارس في القبيلة ، وبمسئوليتهم الجماعية عن استمرار بقاء الجماعة وحمايتها من الأخطار التي تهددها سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، وبالتعامل العادل في حياة الجماعة اليومية . ونتج عن هذا أن الاحتكاكات التي تقتضيها الحياة تضاءلت إلى أقصى حد ، وارتقت عادة التعاون في شتى مجالات النشاط التي كانت تمارسها القبيلة إلى درجة عالية . ولما كانوا على ما هم عليه مجردين من حاسة الملكية أو غرائز حب التملك لمسا للغير ، كان الهنود يشاركون بعضهم بعضا في صيد البر والبحر بحرية ولإيثار . وكان يعاون بعضهم بعضا ، كما يفعلون في هذه الأيام ،



في الاعتناء بالمحصولات أو أى عمل لا يستطيعه رجل بمفرده .

وفي المجتمعات الراقية كمجتمعات المايا والإنكا كان هناك قدر كبير من الآبهة والفخفة المتعلقة بالعبادات وتمجيد الحكام ، وقدر كبير من الاحتفال الشعبي بمناسبة موسم المحصول والمراحل الأخرى في نظام العمل الذي يسود مجتمعا زراعيًا . فلما جاء الفتح اختفت مناسبات تلك المظاهر المؤثرة والاحتفالات ، وقلت تدريجيا مناسبات الترويح والمرح ، وتضاءل بازدياد عبء السيطرة الأجنبية على كواهل الشعب . وكانت هذه الفجوة الروحية الشيء الذي أرادت الكنيسة ملء فراغه باحتفالات الدين الجديد ، وبالموسيقى ، والمواكب ، والنشيبات الدينية ، والطقوس المهيبة التي تمارسها البلاد المسيحية التي تعتنق الكاثوليكية .

### الفتح

كانت وطأة الفتح على الحضارات الهندية بمثابة كارثة . وقد استمرت بعض هذه الحضارات فترة من الوقت لكي تذبل تدريجيا في جو النيذ الإسباني الذي تردت فيه . ولكن ثمارها لم تعد بعد نفس الثمار القديمة . وفي بعض الأحيان نجدها قد تقلصت واندثرت كلية بنقص التنشيط الذي جعلها من قبل ما كانت عليه . وفي أحيان أخرى كانت الثمار التي حملتها السكروم المولدة مرة المذاق ، كما كانت الحال بين شعوب الإنكا . واختفت بعض منها مع الجنس نفسه أمام أول دفع قام به الفاتحون ، كما حدث لحضارة التايانو في الأنثيل ، والبعض منها ، كالتوينامبا في البرازيل ، أنقذت حضارتهم لفترة من الوقت بهروب إلى الداخل البعيد<sup>(٢٥)</sup> . وقاوم الأروكانيان بضراوة ونجاح ، لدرجة أنهم استطاعوا الاحتفاظ بنمطهم التقليدي لحياتهم القبلية . غير أن حضارة الأزاتقة القديمة لم تسترجع كيائها أبداً بسبب التحطيم المسادي الذي قام به الفاتحون وبسبب الأبوة المختلفة التي أتت بها

الإسبانيون . ولم يصمد سوى بقايا مهبضة الجناح لا روح فيها من شعب متباه ليعملوا كفلاحين للمنتصرين .

ولم تسعف الشجاعة اليائسة التي طالما أبدتها الهنود شيئا أمام تفوق الإسبانين الحربى ، لأن حجاجهم غير المنظمة كانت تقف أمام جنديّة اجتاح فرسانها شعوب أوروبا في القرن السادس عشر . ولم يكن الأمر مجرد مسألة أسلحة متفوقة وقصص تروى عن الفرسان الإسبانين ، أو حتى الصفات الحربية الفائقة التي تحلى بها مشاتهم ، ولكن يضاف إلى ذلك قادة رؤساء الفرق مثل كورتيس . فقد كانت جميع الظروف فيما عدا الناحية العددية ضد الهنود أما عدم التكافؤ في الأعداد فلم يكن شيئا لأولئك الأبطال الذين زحفوا إلى تينوشنتلان وكاخاماركا (٢٦)

وقلما قام الهنود بتمرد على نير الحكم الإسباني بعد الفتح الأول وبعضهم كالشيشيمك قاوموا مدة أطول من جيرانهم ، وبعضهم كالكاريب لم يكن بد من شن حرب دموية ضدهم فترة طويلة حتى خضعوا . وعندما وصل الإسبانىون إلى يوكاتان انسحبت قبائل الاتا (\*) نحو الجنوب إلى جزيرة في بحيرة بيتين ، ولم يخرجوا منها متدفقين إلا بعد قرنين من الزمان . أما الشعوب التي قاومت الإسبانين بعناد زائد ، كبعض القبائل المتوحشة في مرتفعات كولومبيا ، فقد كان من الممكن إفناؤهم جزاء ما اقترفوه من متاعب . أما الشيرجوانو ، أبناء عمومة الجوارانى ، وهم الذين صدوا جيوش الإنكا وأبعدوهم عن الإقليم المنخفض إلى الشرق من إقليم كيناو في بوليفيا ، فقد صدوا حملة يقودها نائب الملك العظيم توليدو وأرغموها على التقهقر نحو الهضبة ، ولكن لتخضعهم فيما بعد لإرساليات الجزويت التبشيرية . وقاومت شعوب الأديز مرتين في ثورتين يائستين ضد القوة

(\*) من شعب المايا

الإسبانية : المرة الأولى في القرن السادس عشر في وقت لم تكن حدة الفتح قد هدأت بعد ، ثم مرة أخرى في القرن الثامن عشر عندما بدأ أفول إمبراطورية إسبانيا الاستعمارية . وفي كلتا الحالتين كان القائد سليل أسرة الإنكا - في الأولى مانكو ككاباك ، وفي الثانية توباك أمارو (٢٧) . أما الهنود المتوحشون في بمبا أرجنتينا فلم يتخلص منهم إلا بعد منتصف القرن الماضي . وبعد فترة طويلة من الإغارات والقتل والقتال لم يعط فيها فريق للآخر أية هودة ، دفع بقايا هذا الشعب المقاوم إلى جنوب ريو نيجرو بعد حملة قادها جنرال روكا ، وتركوا هناك للزمن والمجاعة تكفلان إفناءهم . ومن ذلك الوقت فقط أصبح النهوض بموارد البمبا في سلام ممكنا .

والتفكير في مصير إمكانيات هذه الحضارات البتراء ، إذا لم تكن قد استوصلت بقسوة إبان تطورها ، موضوع عقيم ولكنه محير فلم يكن بها عالم الإنكا إلا مجرد ذكرى عندما جاء الإسبانئون . وإذ لم تكن المسائل المشكلة القول بأن عظمتهم كان يمكن أن تسترجع مجدها بعد طول الركود الذي خيم عليه بعد الإمبراطورية القديمة . أما بالنسبة إلى المايا فالشيء الكثير كان متوقفا على ما إذا كانوا قد أمكنهم حل مشكلة موارد الطعام التي يحتمل أن يكون نقصانها قد أدى إلى انهيار حضارتهم القائمة على الذرة . أما الأزاتقة فلم يكن عندهم متسع من الوقت لتجميع فتوحاتهم وتوحيدها . فقد كان الأمر كما لو أن كابوس ماريوس قد فشل في إحلال الهزيمة بقبائل السمبري قبل أن يتمكن الرومان من الخروج من شبه الجزيرة لبيدأوا فتوحاتهم الإمبراطورية . فشعب الثابوتك وغيره من الشعوب التي كانت تعيش على حافة ممتلكات الدولة الاتحادية في انجهاات مختلفة بقوا حيث هم لتتناقص أعدادهم قبل الوصول إلى الحدود الطبيعية في عمليات التوسع . وفي أراضي دولة الأزاتقة كانت هناك بقاع مقلقة كدولة تلاشكالا الصغيرة المشاكسة . ومادامت دولة الأزاتقة تقوم إلى درجة زائدة على الخوف ،

فإن مطالب إله الحرب الدموية عندهم لم تكن لتتوفق بين الشعوب الخاضعة لهم أو رعاياهم من الشعوب وتسمح بسلام دائم كانوا في حاجة إليه . وعلى الرغم من تفوقهم من الناحية السياسية فربما لم يكن من المفروض أن فتوح الأزاتقة للسكسيك ليس هو آخر موجات الفتوح التي شاهدها تلك البلاد في العصور الوسطى الأوروبية . والسؤال الذي يدعو إلى مزيد من التحدى هو ماذا كان مصير إمبراطورية الإنكا إذا لم يأت الإسبانىون (٢٨) ؟ فقد كانت ، كدولة الأزاتقة ، لا تزال حديثة إذا أخذنا في الاعتبار أعمار الأمم . فإلى موت هواينا كاپاك وتقسيم الإمبراطورية المشتهوم كانت أمورها تساس بتعقل غير عادى ، وذكرياها ذات احترام فائق لدى المتأملين من الإسبانىين (٢٩) . وعلى الرغم من أنها كانت تقيم فضائل الأمان أكثر من تقدمها الخاص فقد سارت شوطا بعيداً نحو حضارة نبيلة حقاً ، إذ كانت تتضمن تطلعا كبيرا لإمكانات النو ، ولا يستطيع المرء إلا أن يحس أنها ربما كانت على أبواب عهد ازدهار باهر . فاندثارها كان أكبر كارثة سببها الفتح الإسبانى . أما فيما يتعلق بالقبائل التي تقطن غابات العالم الجديد فقد كانت ثقافتهم راكدة لفترة طويلة ، فعزلتهم وعدم اتصالهم بالحضارات العظمى ونمط حياتهم الاشتراكية ، مصبوبا في قالب جامد من العادات ، جعلت التطلمع إلى مستقبلهم مجرد امتداد لا نهاية له لماضيهم البدائى .

ومن جميع النواحي العملية تم الفتح قبل نهاية القرن السادس عشر بوقت طويل ، وسرعان ما اعترفت معظم الشعوب الوطنية بعدم جدوى الاستمرار في المقاومة المسلحة . عندما اقتيد زعمائهم أو أغروا للذهاب إلى معسكر الفاتحين بالزواج أو الإناعام بالألقاب ، وعندما ضربت الأماكن الحرام التي كانوا يتعبدون فيها في غضبة المسيحية المدمرة ، أصبحوا شعبا مبيض الجناح ، ثم غمروا في بحر من الجمود والحزن حتى استسلموا لمصيرهم كشعب خاضع . وتخلصت أعداد كبيرة من حياتهم مفضلين الانتحار على

المعيشة في ظل سيطرة غربية . وقلت أعداد الهنود تدريجياً واتخذوا موقف المقاومة السلبية التي أدت دورها في حفظ آثار هامة من ثقافتهم وشخصية جنسهم بالذات إلى وقتنا هذا، خصوصاً فوق مرتفعات الأنديز في بيرو .

وفي تلك الأثناء اضمحل السكان الأصليون جوهرياً في مساحات شاسعة (٣٠). فقد قتلت أعداد كبيرة في المذبحة التي جرت في عاصمة الأزانقة وفي حصار الهنود في كاشكو، لأن خسائر الأهالي في المواقع الحربية كانت دائماً متفاوتة . وقد استأصل اضطهاد المستعمرين الأوائل أمثال رولدان فعلاً قبائل التاينو في الأنثيل . وفي كل مكان حاول فيه الهنود استمرار المقاومة كما فعل السكاريب في فنزويلا والقبائل المتوحشة في وادي نهر كوكا في كولومبيا لم يقابلهم الإسبانيون بأى قدر من الرحمة، ولما رفض بعض القبائل الخضوع لهم أبادوهم فلم يبقوا منهم أحداً . ومع ذلك فليس هناك شك في أن من ماتوا منهم بالجدرى وأمراض أخرى جاء بها الأوروبيون كانوا أكثر عن ماتوا في المواقع الحربية، كما عملت المجاعة عملها في الأقاليم التي اضطرب فيها الاقتصاد الزراعى للهنود من جراء ظلم الفاتحين . وفي بعض الأحيان تعتمد الهنود رفض فلاحه الأرض حتى لا يستطيع الإسبانيون حصادها .

### الإسباني والهندي

أقام الإسبانيون في وقت مبكر نمطاً من استغلال الأراضي والمناجم مع الهنود كقوة عاملة اضطرابية . وكان هناك تنوع في الطرق التنظيمية لاستخدام الأيدي العاملة الهندية . ففي بادىء الأمر، وبترتيب بسيط يعرف « بالتوزيع الجديد » (\*) يخصص عدد من الأهالي ليعملوا لإسباني بالذات، أو قد يحيد المستعمر عن رسميات أخرى فيجمع من الهنود في

الاماكن المجاورة من هو في حاجة إليهم لخدمته . وفي أسوأ الظروف - وكان هذا أمراً مألوفاً بدرجة كافية - تمخض النظام عن رق مشروع . فأخذت أعداد جمة من الهنود كرقيق على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية ونقلوا إلى سانتو دومينجو لسد العجز في الأيدي العاملة المنهكة في هسبانيولا . وفي جنوب البرازيل كانت إغارات المولدين من البيض والهنود (\*) لجلب الرقيق مورداً عادياً للحصول على الهنود لفترة طويلة . وكانت المظالم الجائرة المترتبة على هذا النوع المفكك من الإجبار هو الذى أدى إلى ابتداء وثيقة الأرض (\*\*) التى استمرت خطة لتنظيم العمال الزراعيين طوال عصر الاستعمار . واتخذت الوثيقة شكل منحة معلومة لقطعة من الأرض ومعها حق استخدام العمال الهنود الذين يقطعونها . وتلبية لالتماس من الكنيسة ، صدرت في وقت مبكر مجموعة منمنقة من الفوانين لتأمين حقوق الأهالى . ومنحت الوثيقة للمستلم الأصلى مدة حياته فقط ، ولكن بعد ثورة جنشالوارو ، احتجاجاً على ما يسمى القوانين الجديدة لحماية الهنود ، أخذ مفعولها يزداد إلى أن جاء الوقت وأصبح المنحدرون من الممنوح الأصلى يملكون الأرض ملكية فعلية . أما قانون العمل (\*\*\* ) الخاص بالهنود فطريقة ابتكرت خصيصاً لتقديم مورداً منتظماً من العمال لاستغلال المناجم . وكانت نوعاً من السخرة فيه تستدعى الجماعات من مركز معين للتعدين ، مثل بوتوسى . لتسهم بتقديم الهنود للعمل فى المناجم . وحدد القانون المسافة التى يقطعونها من منازلهم إلى مكان العمل وفترة العقد وأحوال أخرى متعلقة بالخدمة .

وفي عصر نائب الملك المشهور فرانسيسكو دى توليدو (١٥٦٩ - ٨١)،

Mamelucos (\*)

Encomienda (\*\*)

Mita (\*\*\*)

الذي وضع النظام النهائي للحكم في الممتلكات الإسبانية ، تمحدد مركز الهندي في حياة يبيرو الاجتماعية والاقتصادية طيلة الحكم الإسباني . وكان توليد وإداريا كفتاً ، لكنه كان فظاً ، فرق الجماعات الهندية القديمة لكي يركز سكانها في أما كن حيث يمكن حكمهم بطريقة فعالة . وكان جهاز الإدارة في أيدي ممثلي الملك (\*) في المدن ، وكانوا مسئولين مباشرة أمام نائب الملك .

وفي قانون المستعمرات الإسباني «قوانين الهند الغربية» (\*\*) يتبلور التشريع المحكم الرحيم الذي صاغ ليحمي الهندي من ظلم ساداته الإسبانيين ، إذ لم تبد دولة استعمارية أخرى قلقاً نحو صالح رعاياها من الشعوب كما هو مدون في هذا القانون المشهور . وكانت بعض القوانين عامة عند تطبيقها ، وبعضها كان يهدف إلى مساواة معينة وضع أن الهنود قد تعرضوا لها ، فمثلاً لم يكن الهنود يجبروا على الحفر للعثور على كنوز في مقابر أسلافهم ، أو على قص شعرهم قصيرة عند التعميد ، أو على حمل إسباني في شبكة نوم أو محفة إلا في حالة المرض الواضح ، أو على نقل الجليد من الجبال إلى ليا . وأمرت المحاكم الشرعية والمدنية «ليحابوا ويساعدوا» الهنود في القضاء . وهناك قانون ينص على أن «الجرائم التي ترتكب ضد الهنود تعاقب بقسوة أشد من الجرائم التي ترتكب ضد الإسبانيين» (٣١) . وهناك قانون آخر تكرر ست مرات بين ١٥٢٦ وسنة ١٥٤٨ ينص على أن «الهنود يجب أن يكونوا أحراراً ولا يكونوا عرضة للعبودية» .

وكان تنظيم العمل الذي يؤديه الأهالي الشغل الشاغل للحكومة الإسبانية . وفي هذه الناحية تتنازع الرأي الرسمي وجهتا نظر ، إحداهما

Corregidor (\*)

Laws of the Indies (\*\*) وهي متضمنة في «قانون المستعمرات الإسباني» الشهير

الرغبة في حماية الهندي من الاستغلال والقسوة الواضحة ، ومن جهة أخرى كان الإسبانيون يدركون أنه إذا لم يعمل لهم الهنود فإن الامبراطورية الإسبانية كلها تصبح عالة ، وقد يكون من المستحسن أن ترد ثانية لأصحابها الأصليين . وحتى الموالون للهنود من الإسبانيين في محاولتهم التوفيق بين هذين النقيضين أزعجهم لإحجام الهندي الظاهري عن إرهاق نفسه نظير ميزة مالية — أو ما أطلق عليه أحد القوانين : « لإحجام الهندي عن العمل » . ونص قانون آخر على أن « الهنود عليهم أن يعملوا في مهنتهم وفي الحقول وحرف أخرى ، وعليهم أن يرتدوا الملابس » . وبمضى القانون فينص على أنه « عند الضرورة عليهم أن يجبروا على طرح الكسل مادام العمل ذا أهمية في حياتهم وصحتهم والحفاظ عليهم » . ونص قانون آخر على « وجوب معاملة الهنود بالحسنى لدرجة تكون ذات طابع يجعلهم لا يتوقفون عن تأدية الخدمات والعمل » . وبعبارة أخرى وجب أن يعامل الهنود معاملة طيبة ولكن لا يدللون . ويضيف نفس القانون شرحاً مؤداه أن « الهنود يلقون خسائر وأضراراً وظلماً في أشخاصهم ويمتلكاتهم من بعض الإسبانيين ومثلئ الملك والرهبان والقساوسة الذين يؤدي لهم الهنود كل أنواع العمل ، ولكن نظراً إلى أنهم أشخاص تعساء فإنهم لا يقاومون أو يدافعون عن أنفسهم ، ويقومون بأداء كل ما يطلب منهم من أعمال » . واتخذت الاحتياطات الكثيرة لحماية كل أنواع العمل التي ينتظر من الهنود القيام بها ، سواء أكانت في المناجم أم في الحقول أم الخدمة الشخصية للإسبانيين . ولم يكن للهنود أن يعملوا في مصانع النسيج التي كانت بمثابة « دكاكين الحلوى » ، في ذلك الوقت ، أو في حقول القصب التي كانت تعد من أعمال الزوج . وبالنسبة إلى العمال الذين يأتون للعمل ويقطعون مسافة تصل إلى عشرة فراسخ(\*) فإنهم يتناولون أجورهم أولاً فاولاً وكانت عادة تحميل الهنود

(\*) ثلاثين ميلاً ..



مالا يطبقون من الأثقال يندد بها د كعائق لهدايتهم وتكائهم وصحتهم،  
 وصدر الأمر بمنعها . غير أن الهندي كان من دواب الحمل  
 قبل مجيء الإسبانين ، ولا يزال كذلك في بعض جهات أمريكا اللاتينية  
 ولو أنه الآن سيد نفسه .

وهذه القوانين الخيرية الإنسانية كانت من إيجاء الكنيسة خصوصا  
 المذهب الدومينيكي الذي اتخذ في وقت مبكر صفة حامى الهنود . وجاهد  
 أتباع المذهب الفرنسيسكاني والجمعيات التبشيرية الأخرى بشجاعة في صف  
 الهنود ، كما فعل الجزويت في وقت لاحق . فلم يقتصروا على إنقاذ طبيعة  
 الهندي الروحية من الحضيض الحفير الذي تردى فيه إثر الفتح ، بل أفسحوا  
 له أبواب الراحة التي تهيئها له المسيحية إذا اعتنقها . ففي الفترة المبكرة من  
 حكومة نائب الملك المكسيكية بنوا مدارس عظيمة يتعلم فيها ، وحوه  
 بشجاعة من قسوة الأحكام أمثال نونيودي جوشمان ، كما فعل الأسقف  
 ثومراجا ، وضد الشراهة والقسوة من جميع الطبقات المدنية الإسبانية .  
 وكانوا يسيرون على انفراد بين القبائل الهمجية التي لم تكن قد أخضعت ،  
 وتعلموا لغات الهنود ، وكتبوا الرسائل العلية عن تاريخهم وعاداتهم كما فعل  
 الأب موتولينيا الفرنسيسكاني والأب توركيدادا والأب ساهاجون . أما  
 فاسكودي كيروجا ، أسقف مشوا كان ، ومن أتباع سير توماس مور ، فقد  
 حاول تطبيق فلسفته السكالية في خلق دولة هندية مثالية في الأراضي الخاضعة  
 لآسقفيته في غربي المكسيك . أما الراهب الدومينيكاني المشهور بارتولومي  
 دي لاس كاساس فقد أعطى فرصة لتطبيق آرائه الدينية والاجتماعية في  
 ولاية فيراپاث في جواتيمالا حيث كان الهنود يحكمون دون وساطة السلطة  
 المدنية . وقد كان لاس كاساس هو صاحب الكتاب المثير الذي ترجم إلى  
 معظم لغات غرب أوروبا والذي عليه تقع مسئولية « القصة السوداء » التي  
 تحكى عن القسوة التي عامل بها الإسبان الهنود ، والتي لطخت اسم إسبانيا

إلى الآن بما حوته من مبالغات وفي المحكمة الملكية في الدومنيكان كان الهنود يجدون وكلاء يدافعون عن قضاياهم أمام الهيئات صاحبة الشأن .  
حقا لقد كان النصف الأول من القرن السادس عشر فترة مجيدة في تاريخ الكنيسة .

أما بالنسبة إلى الجزويت ، الذين بدأوا نشاطهم في ميدان التبشير في وقت متأخر عن المذاهب القديمة ، فقد بلغت طريقة التبشير عندهم في قيادة الهنود اجتماعيا ودينيا درجة السكال . فقد أقامت الأخوة الدولية العظيمة سلسلة من الإرساليات كونت حلقاتها امبراطورية دينية في قلب أمريكا الجنوبية . وتناوبت بعثات الجمعية ممتدة بعرض القارة من إقليم مايناس الواقع في حوض الأمزون الأعلى ، الذي كان مسرحا لنشاط الأب صمويل فرث فسهول بنى حول ترينداد وإقليم الشيكيتو النائي شرق بوليفيا إلى پاراجواى وأراضى الميسونى والشروا في أرجنتيننا على نهر بلات . ووصلت مجموعة مثلها من البعثات إلى الشمال الشرقى نحو المنطقة الساحلية للبرازيل . وعلى الرغم من أن الأسلوب الذي اتبع كان متشابها إلى حد كبير ، سواء أكان في كاليفورنيا السفلى أم على ضفاف نهر أوروجواى ، فإن أحسن ما عرف عن هذه الجمعيات ما كان يطلق عليه اسم « التصفيات ، الباراجوية ، فيجمع سكان منطقة معينة في مقر البعثة حيث يصبحون رعايا نظام تثقيف خاص من نظم الآباء اليسوعيين . وهناك كان أفراد هذه التجمعات الأبوية الدينية يعوضون عما فقدوه في حرية الحركة والتصرف التي كانوا يمارسونها من قبل بما كسبوه من الأمان وزخارف المعيشة الجديدة . وفي ظل توجيهه السنين الذين كانوا يديران البعثة أقاموا الكنائس الكبيرة التي كانت مراكر لحياة المجتمع . وبالإضافة إلى التعاليم الدينية العادية تعلم الهنود مبادئ الموسيقى والرسم وحرفا يدوية معينة أظهروا في جميعها استعدادا كبيرا حماسيا . وكان الرجال يقتطعون كثيرا

من وقتهم في الحقل أو في العناية بقطعان الحيوانات التي تمتلكها البعثة ، ولما كان الجزويت هم أحسن الزراع في أمريكا اللاتينية فإن اهتمام الهنود كان يضمن لهم مورداً فياضاً من الطعام . وكان الفائض عن حاجات السكان الذين تضمهم البعثة ، أيا كان ، يباع في أسوئتيون أو بونيس أريس ، ويشترى بالثمن الأدوات التي لا يمكن إنتاجها محلياً وفي هذه الواحات الأركادية كان الهنود معزولين تماماً عن المؤثرات الفاسدة التي يتصف بها الإسبانيون المدنيون ومغريات العالم الخارجي بوجه عام . ومع ذلك فعندما طردت جماعة يسوع من المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في سنة ١٧٦٧ ، وحولت البعثات إلى بعثات علمانية ، فقد الهنود قدرتهم على الإبداع وعجزوا عن موادمة أنفسهم لأساليب حياة أسلافهم أو لأساليب حياة الإسبانين الديويين الذين كانوا يعيشون في البلاد والمدن . وعطل كثير مما قام به الجزويت من عمل في سنوات الفوضى والتفكك هذه التي تلت خروج الآباء . ولكن دماثة مجتمع البعثات جعل من أفراد شعب الجواراني فيما بعد رعايا طبيعيين لحكام جمهورية پاراجواي المطلقين . ولذلك فقد برزت التجربة اليسوعية لتحويل شعب قبل أن يصبح من الممكن ملاحظة فرصها النهائية للنجاح . أما مجموعة البعثات الفرنسية سكانية التي تركت في كاليفورنيا العليا في أواخر القرن الثامن عشر فلم تصنف شيئاً إلى النقط الأصلية للطريقة التبشيرية التي طورها أسلافهم المنفيون في الميدان .

وأكبر المساويء التي عومل بها الهنود كانت تتصل بطريقة العمل الإجباري « قانون العمل » . وعلى الرغم من أن طريقة مشابهة كانت سائدة في إمبراطورية الإنكا ، وخصوصاً في إنشاءات المرافق العامة ، فإن الرؤساء المنوط بهم العمل كانوا من نفس الجنس ، وكانت المصاعب الملزمة لهذا النوع من العمل يخفف من وطأتها اهتمام الإنكا الإنساني بصالح رعاياهم . أما تحت إدارة إسبانيين فإن السيطرة التي تلازم العمل في المناجم تؤدي

بطبيعة الحال إلى مساوىء كبيرة، نظرا إلى الدافع الأساسى فى الصناعة ، وإلى الظروف الصعبة التى كانت لا تنفصل عن العمل فى المناجم . ولما كان الهنود يتجمعون غالبا من مسافة بعيدة، فإنهم كانوا يستبقون فى المناجم بعد فترة العمل المقررة بالقانون ، ويطلق سراحهم وصحتهم مضعضة ، وبعد أن يكون فصل الزراعة قد انقضى لغرس محصولاتهم فى الحقول التى جلبوا منها . وكانوا يجبرون على حمل أثقال كبيرة من الخام من قاع المنجم إلى مراق شديد الانحدار ويعملون طول اليوم فى دهايز ضيقة فاسدة الهواء غالبا ما كانت تلسد عليهم للنقص فى عملية صلب الطبقات جيدا بالأخشاب . وفى بعض الأحيان كان يعلق عليهم فى داخل المناجم طيلة الأسبوع ويسمع لهم فقط بالخروج يوم الأحد لحضور القداس فى كنيسة قريبة<sup>(٣٢)</sup>. وفى مناجم الزمبق فى هوانكا فليكا فى بيرو بنيت كنيسة فى داخل المنجم ، فلم يكن من الضرورى التوجه بعيداً لترضية الروح فى الصلاة المقدسة . وعادة ما كانت ظروف العمل فى مصانع النسيج على نفس الدرجة من السوء ، فقد كان من المألوف فى هذه الصناعة أن يحتجز العمال دون أجل محدود ، وكانت زوجاتهم يأتين لهم الطعام كل يوم إلى مقر احتجازهم .

وتخلصت طريقة « الوثيقة » من أسوأ الأخطاء التى كانت ملازمة « لقانون العمل » . فكان الهنود يعمل على الأرض وتناط به الواجبات التى كانت مألوفة لديه دائما . وفى المساء كان يسكنه العودة إلى أسرته ، وفى ساعات فراغه كان يمكنه الاجتماع بزملائه لممارسة العلاقات العادية . وفيما دون ذلك كان مصيره متوقفا إلى حد كبير على سلوك المالك ، صاحب الوثيقة ،(\*) الذى يمتسكه ، وعلى ما إذا كان هذا الشخص يعيش على

الأرض الموثقة أو يترك إدارتها إلى الخولى(\*) . فقد ظهرت مساوئ الملكية التي يغيب عنها صاحبها مبكرة في العالم الجديد حيث تزايد استسلام ملاك الأراضي إلى مباحج الحياة في المدن ، لأن الحياة المدنية أصبحت أكثر جاذبية . وفي مثل هذه الأحوال كان الهنود أكثر تعرضاً لأن يعانون أشد العناء من قسوة المراقبين المولدين الذين كثيراً جداً ما كانوا يصبون جام فشلهم الاجتماعي على رؤوس بني جنسهم من أمهاتهم . وكان صاحب الأرض الإسباني بصفة عامة سيداً يتصف بالإنسانية والإنصاف (٣٣) . وفي أسوأ الظروف يمكن القول إن قلقه على مصالح أجراءه الهنود ، كوجودات عظيمة لها قيمتها ، كان إجراء تلميه المصلحة الانانية . وكان للطريقة التي يمثلها إمكانات عظيمة للخير ، ربما كانت عاملاً على استبقاء بعض القيم الرئيسية لمدينة الإنكا التي كان قد كتب عليها الضياع إلى غير رجعة بعد عصر توليدو ، أو على الأقل ، ربما كانت تنزع إلى الاحتفاظ بكثير من الأسس المتينة للمجتمع الهندي في وجه العوامل التي مزقته في عصر النظام الاستعماري . غير أن حكومة الامبراطورية الإسبانية لم تسمح أبداً لنظام الوثيقة أن ينمى إمكاناته الطبيعية كقوة محافظة في الحياة في ظل الاستعمار حتى أصبح الوقت متأخراً إلى درجة زائدة . ولم يكن يسمح لمالك الأرض أن يشعر بالأمان بدرجة كافية تجعله ينفرد بشخصيته في أراضيه وبين أتباعه ، كما كان يرتضى أن يفعل عدد كبير من طبقته دون شك . ولم يكن أبداً وثقاً من أن اليوم قد يجيء دون أن يلغى الملك حقه في امتلاك أراضيه خوفاً من أن سادة الأراضي قد يكون لهم في المستعمرات مصلحة مقررة قوية ومدبرة ، أو نظراً إلى اعتبارات إنسانية غير موجهة توجيهها سليماً .

وكثير من مساوىء النظام الاستعماري الإسباني ، كما قاسى منها الهنود ، كانت نتيجة جشع ممثلى الملك الذين كانوا نوابا للتاج فى المدن . فبالإضافة إلى سلطاتهم البوليسية التى جعلتهم مسئولين عن حفظ النظام فى هذه المراكز التى كان يكثُر فيها الشعب ، كان عليهم واجب تنفيذ القوانين الخاصة التى كانت تطبق على السكان الوطنيين . وهذا الامتياز كان سببا فى استصدار لائحة قانون العمل والعمال الهنود عامة . وتواطؤا مع أصحاب المناجم وأفراد آخرين من الأقلية الحاكمة وكثيراً ما كان ممثلى الملك يتجاوز عن انتهاكات قانون الهنود لمصلحته المالية الخاصة . وتحت ستار معين أو آخر قد يقرض الأموال على أولئك الذين قدم لهم العمال الهنود أو على الهنود أنفسهم . وفى بعض الأحيان كان يقوم بعملية تجارية لنفسه ويجبر الهنود على شراء سلع من عنده ليسوا فى حاجة إليها ، أو سلع لا يستطيعون دفع ثمنها من كفاف أجورهم . أما القضاة الهنود (\*) ، وقد تخلصوا من الخضوع لنظام حكمهم السابقين وأبدوا حماسة للتزلف للموظفين المكسيكيين ، فكثيراً ما اقترفوا مظالم صغيرة نحو بنى جلدتهم .

وعلى العكس ، فإن قصة السوداء ، وهى السجل الذى يحكى عن المعاملة التى كان يلقاها الهنود على أيدي الإسبان والبرتغاليين ، ترجع كفة هؤلاء إذا قورنت بمعاملة الإنجليز والأمريكيين ، فمن ناحية السكم كانت المشكلة مختلفة ، لأن عدد السكان الهنود فيما هو الآن أمريكا اللاتينية كان أكبر بكثير منه فى أراضي الولايات المتحدة الحالية ، ولذلك كان الهنود يمثل للفاحين والمستعمرين الإسبانين مشكلة أصعب بكثير نسبياً من المشكلة التى كان يمثلها للمستعمرين الإنجليز فى أمريكا الشمالية . فعندما كان يموت الهنود من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الإسبانين

كان العدد أكبر ، ولذلك فمن الناحية الإحصائية . كان سجل قسوة الإسبانيين أكثر سواداً ، كما هو الشأن في موت ألف من الناس ، فإنه يحتل عناوين أكبر ويحتل مكاناً أهم في الصحيفة من موت مائة . وفضلاً عن ذلك لم يوجد لاسر كأساس انجليزى يكتب بخياله تقريراً عن « تدمير الهنود ، في ولايات أمريكا الثلاث عشرة .

وكان الهنود الذين لقيهم الإنجليز « متبررين » ، وهذه هى الصفة التى ألصقها الإسبانيون بالهنود الذين كانوا على مستوى مشابه من الثقافة . فعلى خلاف السكان الوطنيين المتمدين في المكسيك وبيرو لم يثيروا اهتمام الإنجليز وهم ماضون في خططهم الاستعمارية وتنمية الأراضى الواقعة بين شاطئى الأطلنطى ومرتفعات الأبلش . فقد كان المستعمر الشمالى لا يتطالع إلى أية مساعدة من الهندى لأنه كان على استعداد للعمل بيديه لا بيد غيره . أما المستعمرون الأكثر أرسقراطية إلى الجنوب من نهر بوتوماك فقد وجدوا في العبد الزنجى القوة العاملة التى كانوا يحتاجون إليها في مزارعهم . وكما حدث بالنسبة إلى سكان البها في سهل أرجنتيناهنود كولومبيا(\*) كانت قبائل الايروكوا والديلاوير مجرد عقبات في سبيل الرجل الأبيض ، وكانوا يعاملون على هذا الأساس . وفي مثل هذه الأحوال كانت الوسائل المستخدمة مشابهة تماماً : تدمير الملجأ الأخير لشعب الملك فيليب في وادى كنتكتيك بالحديد والنار والتدمير الفعلى للشعوب الستة في وادى موهوك . وإذا استثنينا بضعة أفراد مثل صاحب الغبطة جون اليوت وروجر ولياسز ووليم بن لم يحدد الهنود أصدقاء أو مدافعين عنهم بين المستعمرين الإنجليز ، ولا توجد مجموعة تشريع رحيمة في التشريع الاستعمارى الإنجليزى كما هو موجود في قانون المستعمرات الإسباني .

ولم يتحسن مصير الهندي بعد الاستقلال . فقد نزح إلى ما وراء مرتفعات أليجاني ، وترتب على ذلك أن ازداد مجال التوسع ، وأسرع الهندي إلى التردى ، وبقيت الوسائل والغايات كما هي . فقد ساق جنرال وين « أنتوني المجنون » الهنود منهوكين وطردهم من أراضي نهر أوهيو . ومن هناك استمرت عملية المطاردة إلى الجنوب نحو الخليج وإلى الغرب نحو جبال روكي دون انقطاع إلى نهايتها حتى حبس الباقون من الجنس في معسكرات الاعتقال المبعجلة التي يسمونها متحفظات . وجزء كبير جدا من القصة عبارة عن إغارات ، وحروب ، ومعاهدات مبتورة ، وممارسة القسوة والغدر والجشع ، مخنطة بفورات النزعة الإنسانية . فقد كان الهندي عقبة في طريق الرائد ومن جاءوا بعده ، ولذلك فقد لزم إبعاده . أما عبارة « الرجل الأحمر النحيل » ، وهي الخرافة العاطفية التي ابتدعها كور وغيره كما ابتدعها جوسيه دي أنسكار في البرازيل ، فقد جاءت متأخرة كثيرا لكي تنقذ الهندي من مصيره المحتوم . لذلك لم يكن الإسباني ليستطيع أن يقوم بالمهمة بإتقان أكثر مما قننا به ، ويعبر أعضاء الطبقات الحاكمة اليوم في جمهوريات أمريكا اللاتينية التي لا تزال أغلبية سكانها من الهنود عن حسدهم لنا على الختام الذي أنهينا به مشكلتنا « نحن » الهندية .

### اختلاف الشعوب

جاء بعض الاختلاف نتيجة انتشار أكثر للتزاوج في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية . فقد نتج عن اختلاط الزواج على نطاق واسع خلق جنس جديد من المولدين (\*) اختلط فيهم دم الهندي بدم الفاتحين . ولم يكن لدى الشعوب الإسبانية أى تعصب جنسى ، كما أن قليلا من الفاتحين الأوائل

---

mestizos (\*)



كانوا قد أحضروا نساءهم معهم وكان امتثال النساء الهنديات السهل ، وهن فحורות حتى باقران وقتى مع سادتهن الجدد أو مستسلمات لمصيرهن كغنيمه من غنائم الفتح ، كافياً لإيجاد الطرف الضرورى لعملية التهجين . واستمر الاختلاط بسرعة اكبر ، وبدرجة أتم ، فى بعض الجهات عنها فى البعض الآخر ، خصوصاً فى البرازيل وباراجواى . فى جميع أنحاء البرازيل انطلق البرتغاليون دون ضابط تدفعهم الشهوة الجنسية ، وترتب على هذا الجنون الحيوانى لإيجاد طبقة ضخمة من المولدين الذين يعرفون اليوم باسم الكابوكلو(\*) . وفى إقليم ساوابولو كانوا هم طبقة المولدين الذين اتصفوا بالإقدام والذين استرقوا أبناء أخوالهم فى الإقليم الداخلى حتى حدود البعثات التبشيرية اليسوعية عند شلالات جوايرا (على نهر مانويل) على حدود باراجواى . وفى باراجواى نفسها انغمس الإسبانيون الذين اتبعوا مجرى النهر نحو الشمال من موقع بويذس أيريس المهجور مع نساء الجوارانى فى عيد المرافع الداعر ، مما بلور قالب الشعب فى باراجواى فى وقت مبكر . فإن باراجواى اليوم دولة من المولدين تتساوى فيها أهمية عناصر الثقافة الهندية ، بما فيها اللغة ، مع العناصر الموروثة من الثقافة الإسبانية ، بل تفوقها فى بعض النواحي . فقد كان التزاوج المختلط على نطاق كلى ، لأن كل إسباني كان يحتفظ بحريم من المحظيات حول المستعمرة النامية كما نمت أسونثيون سريعاً بالنسل من الأطفال المولدين الذين هم نتاج هذه الزيجات المتضاعفة . وعندما وصل هؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فاق عدد المولدين كثيراً عدد آبائهم المسنين . ونظراً إلى حيويتهم وتبرمهم فقد أعطوا للمستعمرة صيتها وسيطروا على حياتها الناشئة . وظلوا فترة من الوقت تتجاذبهم إسبانيا وأرض أمهاتهم من نساء الجوارانى ، لا شئ إلا لترجح كفة تعلقهم ، مما أدى إلى الاحتفاظ بمستعمرة باراجواى ضمن

الإمبراطورية الإسبانية ، ولكن على حساب حضارة كانت مولدة إلى درجة تامة كدرجة دماهم . وأدى نشاطهم تحت قيادة زعماء إسبانيين أقوياء مثل مارتينيث دى إيرا إلى أن يحدوا مخرجا مثمراً في المشروعات الجريئة نحو الجنوب . فقد كان المولدون الصغار من اسونثيون هم الذين أسسوا سانتافي على نهر پارانا الأدنى ، وباندفاعهم مع مجرى النهر أعادوا بناء بوينس أيريس سنة ١٥٨٠ بزعامة هوان دى جاراى . وعندما أصبحت المستعمرة النامية مركزاً ثانوياً للتوسع انتشر أبناؤها في ارض الكوريتى على أحد جانبي النهر العظيم ، وغربا عبر شمال أرجنتينا ليقابلوا التيار الاستعماري الذي انحدر جنوبا من بيرو ، وتحت قيادة انيوفودى شافيس عبروا من نهر باراجواى الأعلى إلى سهول شرقى بوليفيا ليؤسسوا سانتا كروث دى لاسيرا . وفي وقت لاحق تحرك فريق من الإسبانين المخاطرين والمولدين من باراجواى وبيرو وأراضى نهر بلات من الجنوب ومن تشيلي ولولاية كويو في الغرب إلى فيافي البما المكشوفة . وهنا ، بثورة من القسوة العارضة ، اغتصبوا نساء القبائل الهندية الذين قاوموا اعتداءاتهم بإصرار ، وخلفوا وراءهم سلالة الجوشو المشهورين ، الفرسان الذين طردوا الهنود نهائيا من سهول أرجنتينا . وحدث مثل ذلك فوق الأنديز في وادى تشيلي وطول الحدود المضطربة لولاية أروكو . فهناك تسبب هذا الهياج البيولوجى في خلق طبقة من الأشداء(\*) هى التى كونت الأساس الشعبى لجنس قوى في تشيلي .

وكانت المصاهرات بين الفاتحين الإسبانين ونساء الطبقات الأرستقراطية من الأهالى مثلاً لمستوى أعلى أمام الرتب الدنيا من الجنود الذين لم يأبهوا بالطموح ، ولو أنهم لم يكونوا أقل شهوانية . فكان لكل ضابط

كبير(\*) عشرات من « أميرات » الأزانقة والإنكا أصبحن محظيات أو زوجات شرعيات لقواد الفتح . وكان كثير من رفيقات الفاتحين هؤلاء نساء ذوات تربية مهذبة وعادات دمثة وأيضاً جاذبية جسمية فائقة ، توهلن للتقدم لأية طبقة من النبلاء . وكان تعلق بالبو بالابنة المخصصة لحاكم من حكام الهنود المحليين في منطقة البرزخ هو الذي جعله يتردد أمام الزواج العرفي من ابنة عدوه بدرارياس دافيل . وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى مصيره المحتوم على يد حميه الافتراضى . وفي نفس المنطقة أنجب ديجو دي ألماجرو ، شريك بثارو ابناً شجاعاً قاد حزب والده في حروب ييرو الأهلية . وكان لفرانسيسكو بثارو نفسه ، وهو الذي لم يتزوج أبداً ، لا في ييرو ولا في جزر الهند ، بضع بنات من نيبيلات أسرة الإنكا اللاتي كن لفترة محظياته وتزوجت إحداهن من هرناندو أخيه غير الشقيق (والشرعى الوحيد) وأصبحت سيدة عظيمة من سيدات إسبانيا .

وأشهر المولدين في فترة الفتح هو جارسيلاسو إنكادى لافييجا ، وكان أبوه ، الذى انحدر من أسرة من ألمع الأسر في إسبانيا ، أحد الفاتحين لييرو . وكانت أمه أميرة من أميرات الإنكا وأصبحت محظية لأبيه جارسيلاسو لافييجا ، ولكنه هجرها عندما تقاعد وعاد إلى إسبانيا وتزوج امرأة من أسرة نبيلة إسبانية . فنشأ جارسيلاسو الصغير في منزل والده في كشكو حيث عاش مولدين آخرين وشباناً إسبانيين من أسر عريقة . واستاء من التحقير الذى كان يلحق بطبقته والذى كان قد بدا فعلاً على شكل استعلاء جنسى ، وعد نفسه أقرب إلى أهالى ييرو منه إلى كونه إسبانياً ، ولو أنه قضى شطراً كبيراً من رجولته في إسبانيا ومات هناك . وكتب في « تعليقات الإنكا الملكية » قصة الشعب الذى انحدرت

منه أمه ، وكتب أيضا تاريخ الفتح الإسباني لبلادها ، وهو عمل من المرجح أنه أدق مما كتبه وكسب شهرة أكثر .

وكما حدث في بيرو انطلق فاتحو المكسيك يتخذون زوجات من نساء الأرستقراطية الأهلية ، وعندما دخل كورتيس بجيشه الصغير بلاد حلفائهم من قبائل تلاسكالا مهزت المعاهدة بتقديم صديقات هنديات عريقات المختد كمحظيات للضباط الإسبانين . وفي وقت لاحق أصبحت أميرات الطبقة الحاكمة من الأراقة زوجات أو محظيات لبضعة من الفاتحين . فدونيا مارينا ، وهى سليلة أسرة محلية من أعيان منطقة البرزخ ، وخدمت كورتيس خدمة جليلة كترجمة ومستشارة ، أنجبت من سيدها اللامع ابنا اسمه مارتن .

ولم يكن نظام المحظيات ظاهرة تنتهى بانتهاء فترة الفتح . فعلى الرغم من جهود الكنيسة والتاج لتهديب عادات السكان الإسبانين استمر شيوعه طيلة عهد الاستعمار ، مما أدى إلى تضاعف عدد السكان المولدين ، وأضاف إلى تدهور العادات المرعية ، فقد استمر هذا النظام فى الواقع كظاهرة مسلم بها فى مجتمع أمريكا اللاتينية ، ولو أنه أحيط بنوع معين من العرف يقلل من آثاره على حياة الأسرة .

### الهنود فى ظل الجمهوريات

كان لحركة الاستقلال فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية أثر ضئيل على أحوال الهنود (٣٤) . وإذا استثنينا ثورة الأب هيدالجو المشثومة فى المكسيك ، بقى الأهالى ، بصفة عامة ، متفرجين فى حروب التحرير التى اندلعت فى القارة . وإذا احتلت الجمهوريات مكان النظام الاستعمارى بإداراته المختلفة من القمع والحماية ، ترقب الهنود ببلادة مصيرهم تحت

الإدارة الجديدة . وفي ظل « الحكم الاستبدادي الرشيد » لشارل الثالث في إسبانيا والمركز بومبال في البرتغال كان قد بدأ في إدماج السكان الأصليين في المجتمع المدني . فخل المجتمع المدني (\*) محل البعثة التبشيرية خصوصاً في جميع الأماكن التي أجبر فيها الجزويت على التخلي عن سلطانهم الديني، ولو أن حياة جديدة بدأت تدب في كل لحظة لتخلق نظاماً تبشيراً بقدوم الفرنسيين إلى كاليفورنيا . وقبلها كان الانتقال بالنسبة إلى الهندي سبباً يدعو إلى الرضا، فقد ذهب عنه ولى أمره الذي ألفه ليجد نفسه يتيماً ، ليس إلا ، في عالم غريب قدم إليه زرا حقيقياً من التعويضات مقابل ما تخلى عنه ، وكثرت فيه المشكلات الجديدة التي لم يألّفها من قبل حتى يوائم حياته فيه . فلم يكن على استعداد للحياة المدنية بالمعنى الأوروبي .

نعم لقد ترك الهنود وشأنهم سنوات عدة بعد الاستقلال . وفي بعض الجهات أفادوا من الفوضى التي سادت تلك الفترة فاسترجعوا آثاراً من ثقافة سلفهم ، ولكن ثبت أن مكاسبهم كانت تافهة وبذت يومها . لقد كان الوقت متأخراً لاسترجاع القوة الدافعة التي سبق أن فقدت عند الفتح في القرن السادس عشر ، ولو أنهم استطاعوا بقوة الاستمرار وطول تمسكهم بعاداتهم أن يحتفظوا بما قد استبقوه طيلة عهد الاستعمار . لقد مرّ بهم قدر زائد من الأحداث لم يستطيعوا معه أن يرتقوا ما تقطع من الخيوط في نسج نمطهم الثقافي .

وفي الحقيقة كان على الهنود أن يدركوا أنهم قد استبدلوا مجموعة من السادة بمجموعة غيرها . فقد كان عليهم أن يبرهنوا أن لعملهم قيمة كبرى لدى ملاك الأرض ومديري المناجم ورجال الصناعة والكبار من ملاك غابات المطاط ليتمكنوا من أن يسمح لهم بحل مشكلة إنقاذهم اقتصادياً واجتماعياً خارج جهاز الجمهوريات الحديث . وتراكت المساواة

حيثما جرىء بالهندي إلى الميدان الاقتصادي الجديد . وكان الأرستقراطيون والرأسماليون المحليون عادة قساة القلوب فيما يتعلق بالهنود ، وكان رجال الدين ، حماهم التقليديون، قد فقدوا تحمسهم النبشيري والإنساني القديم . وكثيراً ما أصبحوا مستغلين صغاراً للهنود ، كما كان كثيرون غيرهم في أواخر عهد الاستعمار . وفقدوا الفرصة لزعامة معنوية كان يمكن بواسطتها إنقاذ العناصر الأفضل من الثقافة الهندية كتهايك الأسرة . وفي وقت لاحق كان على القساوسة أن يظهروا من جديد في طبيعتهم الأصلية عندما بدأت بعثات تبشيرية جديدة تخدم حاجات القبائل الغابية وتخلق منهم أبطالاً يتحدثون مستغليهم .

واختلف مصير الهنود في الجمهوريات اختلافاً كبيراً ، ولو أن فرصة تحسينه ظلت فترة طويلة غير مواتية في جميع الجهات . ففي أرجنتين طرد «المتبررون» من البيا وتركوا ليهلكوا على حدود بتاجونيا الماحلة (٣٥) . وفي بعض الأحيان كان موت الباقين من الجنس يستحث بطرق شيطانية . أما في الشمال فقد استغل آخرون في حقول قصب السكر في توكومان ، وفي الأراضي الجديدة في إلميم شاكو الأرجنتيني .

ولقد كان في إقليم الأمزون بالذات أن بدىء في استدعاء الهنود للدخول في العصر الصناعي بمنتهى الغلظة . وتجمعت الظروف التي ساعدت على استغلال الهندي : ارتفاع ثمن المحصول ، النقص المتكرر في الأيدي العاملة المتناوبة ، عزلة الإقليم ، قصر الإشراف من جانب الحكومة . ومن المحتمل أن هذه الاعتبارات كانت أسوأ بين قبائل الهيتوتو في حوض نهر بوتومايو وبين قبائل السكامبا بين نهري جافارى وهواياجا وعلى طول نهري يوروس وأيونا وفي إقليم بنى في بوليفيا ، أى في أبعد أرجاء الأمزونيا ، حيث كان عدد الأهالي من السكان الهنود أكبر بكثير من عدد المولدين .

وبعد أن بدأ القرن العشرون اهتمت بعض الحكومات بحالة السكان

الأصليين . وكان الدافع في بعض الأحيان إنسانيا خالصا، وهو الاعتراف المتأخر بمسئولية إسعاد جميع مواطني الدولة . وفي بعض الأوقات كانت الرغبة في إدماج الهندي بدرجة أكبر في حياة الأمة الاقتصادية تستحث تطبيق هذه السياسة فتزداد الإفادة من قيمتهم الذاتية كقوة عامة وكستهلكين للسلع . وتشتمل الدساتير الجديدة المتحررة على عبارات دينية خاصة بالهندي عادة ما كانت ذات علاقة ضئيلة بما هو واقع . فإن أيام السكان الأصليين ، التي أدت خدمات كلامية للأهالي الأصليين في الجمهوريات تقابل بالارتياح الذي تستحقه . فحزب الأبرستا في بيرو قد عظم اهتمامه الصادق بالهندي ، ولكن نزقه السياسي قد منع ترجمة مثله العليا إلى عمل .

وقد كان ضمن المبادئ الأساسية للثورة المكسيكية استرجاع مكان الهندي في الحياة القومية ووضعها في مكان يتناسب مع عدد الهنود وتراثه الثقافي العظيم . وقد قام بعض فلاسفة الثورة بالعمل والكتابة لصالح الهندي أمثال سوتو أي جاما ، ومانوبل جاميو ودكتور أتيل علماء الآثار . ومع ذلك فمن جميع القواد والسياسيين الذين شاهدوا مسرح الحياة المكسيكية منذ سنة ١٩١١ نجد أن الشخص الوحيد الذي أظهر اهتماما زادا على مستوى عدم الاكتراث بمستقبل الهندي كان لاشارو كارديناس . وعلى الرغم من أن الكثير قد بذل لصالح الهندي باسترداد أراضي الجماعة والتعليم فإن الثورة أعطته أقل بكثير مما كانت قد وعدت به . فن كلتا الوجهتين الجسمية والروحية لا يزال بعيداً عن التيارات الرئيسية للحياة الأمريكية ، وغير واثق من المولدين منتهزي الفرص السهل الانقياد الذين يحكمون الجمهورية .

وكان المناليون المكسيكيون مسئولين إلى حد كبير عن الحركة

« الهندية » (\*) التى تشمل كل « البلاد الهندية » فى نصف الكرة . ولهذا الحركة أيضا أتباع كثيرون فى دول الأنديز مثل لويس فالسكارسل فى بيرو . وقد أثبتت طقوس الأهلالي هذه أنها أصبحت موضوعا مشتركا تتجمع حوله مظاهر نشاط المعهد الهندى للدول الأمريكية .

وهذه الجمعية ، ومقرها الرئيسى فى مدينة المكسيك ، هى جزء من الجهاز الرسمى لجميع دول الأمريكيتين ، ولها برنامج متقن ، بعضه عملى جدا ، يستهدف تحسين مصير الهندى وتبجيل مكانته فى حياة الأمريكيتين . ومن بضع سنين مضت أصدر مؤتمر « للهنود » مسودة ميثاق للهندى ، واجتمع المؤتمر فى مكان لائق جداً على شواطئ بحيرة باتشكوارو فى الدائرة الأسقفية للطران المشهور فاسكو دى كيروجا الذى توقع أهم المواد التى جاءت فى البرنامج من أربعة قرون مضت ومن المرجح أن أكثر السياسات الهندية فطنة وإنسانية لأية حكومة وطنية هى سياسة البرازيل . فالإدارة الهندية البرازيلية (\*\*) ليست فقط مرآة تنعكس عليها إنسانية الشعب العميقة ، بل تعكس بوضوح أكثر شخصية جنرال كانديدو ماريانو دا سيلفا رندون الرجل العظيم الذى أسسها . الجنرال رندون ، يكاد يجرى فى جسمه جميعاً الدم الهندى ، وقد كشف الجهات التى تكسوها الأدغال فى ماتوجروسو والأراضى الواقعة إلى الشمال من نهر الأمزون حيث كسب ثقة القبائل الغاية المتناثرة . وتضمن برنامج حماية السكان الأصليين من الاستغلال وتحرش جماعى المطاط وتحسين الأحوال الصحية بينهم وإدماجهم إذا هم رغبوا ، لا لسبب آخر ، فى حياة الجمهورية . وقد عمل رندون ومن خلفوه فى الإدارة الهندية بصبر كثير وفهم للأمور ، وغالبا ما تعرضوا للاثارة القاسية من القبائل الأكثر ميلا إلى الحرب والريية .



ولقد عقدت قبائل الشافانت ، وهى آخر القبائل التى قبلت عروض الإدارة الهندية ، أخيراً الصلح مع الحكومة البرازيلية .

ومما تسكن الوسائل التى تتخذ لحماية الهنـدى ومجتمعه البالى فإن الأيام والسنين التى سيجيها محدودـة . لجميع القوى والتطورات التى تميز العالم الجديد تعمل ضد استمرار بقائه منعزلاً ، وإن اندثاره كوحدة اجتماعية فريدة سيؤجل إلى أقصى مدة حيث لا يزال فى منعة من التأثيرات المباشرة الحديثة ، كما بين القبائل التى تقطن غابات حوض الأمازون ، أو حيث تسكن أعداده نسبياً كما فى دول الأنديز . غير أن يد الحكومة تمتد إلى أعماق الغابة وتمنحه الخيار ، مهما يكن برفق ، إما قبوله نمط المدنية الغالبة وإما اندثاره النهائى . وسوف يتفكك آخر معقل للهنـدى ، وهو عالم الانكا الخيالى بين مرتفعات الأنديز ، كما هو حادث الآن فى المكسيك (٣٦) . والقوى التى تجعل مصيره النهائى محتوماً ، على الرغم من القصور الذاتى لآلاف السنين ، هى المضى بعناد فى سير عملية التهجين ، والتغيرات التى تطرأ على الاقتصاد المحلى سواء طبقت طوعاً من قبل الأهالى ، شعوراً منهم أن فى ذلك مصلحتهم مباشرة ، وإما إملاء من قبل سادتهم ، والتسرب الخفى للأراء عن طريق التعليم أو الاحتكاكات الشخصية أو مذباع الراديو فى ميادين القرى ، أو عن طريق زحف غواية العادات المنبثقة من المدن وتنتقل إلى الخارج ، إلى الجماعات الأكثر عزلة بشتى وسائل المواصلات الحديثة ، ويمضى الوقت واليأس بين شعوب فقدت الدافع العاطفى من أمد بعيد .

وهناك كثير من المشالية عند أولئك الذين يتزعمون قيادة العملية لسيلا تهدم أو تضار تلك القيم الهندية التى يجب الحفاظ عليها لزيادة ثروة المجتمع

الأكبر، ولكنهم قلبا يشغلون مراكز القوة وهناك رجال « عمليون أكثر » ،  
قد يملون شروط التحول في أنشاء ما نكتسب سرعة التطور من القوة  
الدافعة . وفي عالم قد يقبل الهندي على قدم المساواة بالآخرين ، على الهندي  
أن يبذل كثيرا من المهارة الكامنة والسكدة ، ومن الإخلاص ومن تعلقه  
الشديد بالأرض ، الأمر الذي يتطلب منه بالتأكيد اهتمامه القلبي .

## هوامش الفصل الثاني

(١) عن علاقات كولمبس بالهنود انظر

Samuel Eliot Morison, "Admiral of the Ocean Sea : A Life of Christopher Columbus". (2 vols., Boston 1942), passim.

والفقرات المقتبسة هي من :

"The Spanish Letter of Columbus to Luis de Sant'Angel Escribano de Racion of the Kingdom of Aragon Dated 15 February, 1493" (Eng. tr. published by Bernard Quartich, London, 1893).

وأيضاً

"Christopher Columbus : being the Journals of his First and Third, and the Letters concerning his First and Last Voyages, to which is added the Account of his Second Voyage Written by Andreas Bernaldes (tr. and ed. by Cecil Jane, London, 1930)".

(٢) أهم مؤلف عن هنود أمريكا الجنوبية هو المجموعة الضخمة والعلمية

"Handbook of South American Indians (edited by Julian H. Steward and published by the Smithsonian Institution, Washington, D. C., in 6 volumes, 1946—1950).

(٣) عن حضارات الإنكار في بيرو انظر

Philip Ainsworth Means, "Ancient Civilizations of the Andes" (New York, 1931).

ومع أن الدراسات الأركيولوجية الحديثة قد غيرت بعض النتائج التي توصل إليها Prescott في كتابه "Conquest of Peru" فلا تزال الفصول الأولى من هذا الكتاب ودراسته المرافقة للسكسيك تشير اهتماماً كبيراً بثقافة الأزاتقة والإنكا .

(٤) عن الأزاتقة انظر

George C. Vaillant, "Aztecs of Mexico" (Garden City, New York, 1941).

وقد كتب فيلانت عن الازدواج المتناقض فيما أسماه Alfonso Reyes المالم المكسيكي « ذلك الشعب الفنان والقاسي » .

“The Position of America and Other Essays”.

وترجم عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٥٠ ، ص ٥ :

« أصالة في التفكير ، حرية فردية ، ثروات شخصية ، هذه لا توجد ، ولكن الناس كانوا يعيشون وفق قانون سرى مفعوله بنجاح وعلى الدوام عبر القرون . ولو أن فردا من الازانقة شاهد العزلة الواضحة في حياة الفرد في عالمنا الغربي لاعتراه الفزع » ص ١٢٢ ، ولم يكن الأزانقة بأية حال متوحشين جبنا . برث لحالهم . فقد عاشوا على أطعمة مختلفة ألوانها وشهية ، وسكنوا بيوتا مريحة جيدة التهوية . وشجعهم لباسهم على ممارسة الارتضاءات الزوجية دون ارتباك مما يسببه الغرور من تعويض . ومكنتهم طريقة حياتهم من أن يفيدوا من استعداداتهم الشخصية واستبدال ما ينقصهم من أى شيء بما تلتهج أيديهم . فكانت الأدوات التي يستخدمونها في حياتهم اليومية وفي الحفلات يصنعونها بعناية الصانع الممتاز الذي يحب عمله . وفي الحقيقة فلما كانت هناك سلعة لم تكن تحمل طابع اللدسة التزيينية الصغيرة التي تجعل من الأدوات العادية أشياء يسر المرء اقتناؤها » . ص ١٣٨ .

(٥) عن حضارة المايا انظر

Sylvanus G. Morley “The Ancient Maya” (Stanford University, Colifornia, 1946).

وبناء على آراء مورلي ، من الخطوات الخمس الأساسية في ترقى الإنسان :

- ١ — السيطرة على النار .
- ٢ — كشف الزراعة .
- ٣ — استئناس الحيوانات .
- ٤ — الأدوات المعدنية .
- ٥ — كشف نظرية العجلة .

« كان المايا على علم بالخطوتين الأوليين فقط ونعموا باستخدامهما » . ص ٤٤٨ . « فعندما نحكم على إنجازاتهم الحضارية جملة في ضوء (حدودهم الثقافية المعروفة) التي كانت تعادل لإنجازات لسان العصر الحجري الحديث في العالم القديم ، فقد نظمت إذا نحن أشدنا بالمايا القدماء ، دون خوف من اعتراض لاحق ، فقلنا عنهم إنهم أذكى شعب بدائي عاش فوق هذا الكوكب » . المرجع نفسه ص ٤٥٤ . ومارس الإنسكا جميع الخطوات ما عدا الخامسة . ويقول خورجي باسادر العالم البيروفي عن الإنسكا : « لم تكن هناك حضارة في التاريخ القديم بن أيديهم مثل هذه الوسائل المحدودة » .

Jorge Basadre, “Peru . Problemas y Posibilidad (Lima, 1931), p. 16.

(٦) « توجد بالقرب من قرية كوبان بضعة أبنية كبيرة تاريخها موغل في القدم ... ومن بين هذه الأطلال أشياء غير عادية ونثير العجب ... وثبتت هذه الأطلال ... أنه في وقت من الأوقات كان يسكن هذه الأرجاء شعب على قدر عظيم من الذكاء والنشاط والقدرة . والمدن العظيمة التي عا معالمها مرور الزمن » .

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies (tr. from the Spanish, Washington, D. C., 1942).

وكان الأب فانسكيت في أمريكا لوسطى في أوائل القرن السابع عشر .  
(٧) انظر

Lesley Byrd Simpson, "Many Mexicos" (New York, 1941),  
Capter II, "The Tyrant الطاغية".

وأفاض هبولدت في الكلام على الذرة في المكسيك

"Political Essay on the Kingdom of New Spain" (tr. From the German, 4 vols., London, 1811), II, p. 307 ff.

وعن أهمية الذرة بين المايا : « من ٧٥ — ٨٥ ٪ من كل شيء يأكله الشخص من  
المايا مكون من الذرة في صورة أو في أخرى — Morley, op. cit., p. 142  
« أنا مقتنع بأن ٧٥ ٪ كاملة من جميع أفكارهم لا تزال تدور حول نفس هذا النوع الهام  
من الحبوب » . ص ٤٤١ .

وعن الذرة في بيرو : « وظلت لذرة على الدوام بهجة الهنود » —

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, "A Voyage to S. America (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1806),  
I, 465.

(٨) فيما يتعلق بالضحايا البشرية التي تقدم لإله الحرب عند الأزاقة وأكل لحوم البشر  
اللازم لها انظر

Bernardino de Sahagùn, "Historia General de las Cosas de Nueva Espana (reprint, 5 vols., Mexico, D. F., 1938), I, 136 ff.

ويكتب الأب ساهاجون أيضاً عن العبيد الذين كانوا يباعون في السوق في أنكابوتنالكو  
للأكل . قال لمنهم كانوا يطهون مع الذرة ، ولكن بدون أن يتقبلوا بأنواع الفلفل الأحمر —  
نفس المرجع ص ١٤١ . وعن الضحايا المقدمة لإله الحرب انظر

James George Frazer, "The Golden Bough" (abridged edition,  
New York, 1925), pp. 587—92. ( قتل الاله في المكسيك ) .

وعن دوافع أكل لحوم البشر عند الأزاقة : « قام تقدم الكسكس على نظام من اغتصاب  
المستمر من دافعي الجزية الذين لا يفهمون شيء ، وعلى نظام من الحرب المستمرة تشن بلا رحمة  
ضد الشعوب المجاورة ، وغرضها الظاهري هو الحصول على ضحايا يقدمون قربانا ، ولكن  
في الحقيقة لتقديمهم كطعام من الاحتمال للطبقة المتنازعة التي تخوض غمارها . وانتشرت هذه  
العادة الطقوسية لكي تضمن لهم ، بتصريح مقدس ودائم ، عيدا لا يكل لحوم البشر  
يكاد لا ينقطع » .

E. J. Payne, Blanco Villalta, "Antrofia Ritual Americana (Buenos Aires, 1948).

(٩) « وأشد أكلة لحوم البشر ضراوة أولئك الجدد الذين يعيشون على اللحم الآدمي ، قبائل الكاريب ، أو الكاينبال كما يسمون » :

Peter Martyr d'Anghiera, "De Orbe" (tr. from the Latin), I, 315.

« كانوا يقتلون كلا من الإسبانيين والهنود وجميع من يلتقون بهم في طرقهم المنتهية ، لا يبقون على مواطنهم إذا استطاعوا بسهولة اللحاق بهم » .

John Hawkins, in Hakluyt, "Voyages" (Everyman Edition), VII, 24.

وفي سنة ١٥٧٨ و ١٥٨٠ عبر اللانوس « حشد من أكلة لحوم البشر » من الكاريب وغزوا إقليم فالنشيا في مرتفعات فنشويلا الذي أجلاهم عنه نهائيا ضابط إسباني مشهور اسمه جارسى جنشاليت .

Humboldt, "Viaje a las Regiones Equinocciales del Nuevo Continente", II, 353.

(١) كان لدى هانزستادن الذي عد جزءا من احتياطي إمدادات اللجم عند الجماعة بوصفه أسيرا لإحدى قبائل التوبى البرازيل ، بطبيعة الحال ، شيء كثير يقوله عن ممارسة أكل لحوم الأدميين وقد شاهدها حوله في كل مكان . وقد أدهشه عدم الاكتراث الذي كان الضحايا يقابلون به مصيرهم كما لو كانوا يخسرون في لعبة من الألعاب . وكتب عن الاستعدادات التي كانت تتخذ لحرق أسير بالحبل يقول : وافق الرجل على أن كل شيء كان منظما إلا شيئا واحدا فقط وهو أن الحبل كان قصيرا أكثر من اللازم ، فقد كان يحتاج إلى ست قامات في الطول ، وأضاف أنه بين شعبه ربما كان تدير ذلك الأمر أفضل . وكان يتسكع ويتصرف كما لو كان ذاهبا إلى حفلة مرح .

"The True Story of the Captivity of Hans Straden 1557" (tr. from the German, New York, 1929), p. 92.

ويذكر كيف أنه في ليلة من الليالي كان اثنان من المولدين يشويان في المعسكر الذي كان ينزل فيه أسيرا وأطلق على أحد الضحيتين اسم « هيروليموس » وكتب يقول : « وقد قضى هذا الرجل بطوله يشوي هيروليموس في مكان لا يكاد يبعد خطوة واحدة عن المسكن الذي كنت أرقد فيه » — نفس المرحم ، ص ١٠٨ .

(١١) يخبرنا هيريرا عن قبيلة في نيوجرانادا عادت من لغارة يحملون أطرافا لمائتين من جيرانهم . كتب يقول : « ونظرا إلى أنهم لم يكن هناك واثم بين الأب وابنه أو الأخ وأخيه » .

“Historia General” (5 vols., Madrid, 1726—30), decada VI, libro 8, p. 172.

وإذا كان الأسرى نحافاً أكثر من اللازم فقد جرت العادة أن يوضعوا في أقفاص حيث يسمنون كما يقول أوفيدو « مثل الديكة المخصصة في أراندا دل دويرو » .

وعن فظاعة أكل لحوم الآدميين في العالم الجديد لم يكتب فصل أكثر مقنناً من قصة أوفيدو عن الإمبرانيين في حملة انيجو دي فاسكونيا في فنشويلا ، وقد عكفوا على أكل لحم الآدميين على طريقة الهنود الذين كانوا يقاتلونهم .

“Historia General y Natural” (4 vols., Madrid, 1851—55), II, 289, 291.

(١٢) « لقد شاعت رذيلة شرب الخمر في الهند الغربية » .

Herrera, op. cit., p. 172.

وعن هنود بيرو كتب الملازمان هيرندن وجين يقولان : « إن شرب الشيشا (خيز الذرة) كان جزءاً من العبادة الفطرية عند السكان الأصليين . ولا شك في أنهم كانوا يعتقدون مخلصين أنهم كلما جلبوا على أنفسهم سعادة أكثر وهم يبتهلون وقاراً إلى خالق كافة الأشياء تزايد رضاؤه » .

“Exploration of the Valley of the Amazon” (2 vols., Washington, D. C., 1854), I, 166.

وكتب أولرخ شميدت عن الجواراني يقول : « لا يعرفون من مظاهر البهجة سوى شن الحرب والسكر ليل نهار والرقص » .

“Viaje al Rio de la Plata” (tr. from the German, Buenos Aires, 1942), p. 97.

« اقترب المساء ونحن نهبط من الطرف الجاني للبركان ، وقابلنا بضع مئات من الهنود عائدين من احتفالات الأسبوع المقدس (كتسالنانجو ، جواتيالا ) ، وكانوا يفوقون في درجة السكر جيم الدرجات التي قابلناها حتى ذلك الوقت » .

John L. Stephens, “Incidents of Travel in Central America, Chiapas and Yucatan” (2 vols., New York, 1849), II, 219.

« يرى الهنود أنه لا توجد متعة تحت الشمس أنقى ولا أكثر تمجيداً من السكر والكسل » .

F. Depons, “A Voyage to the Eastern Part of Terra Firma, or the Spanish Main, in South America, during the years 1801, 1802, 1803 and 1804” (tr. from the French, 3 vols., New York, 1806), I, 202.

وقالت مدام كالديرون دي لا باركا عن الهنود المكسيكيين : « إن الهنود إذا لم يبتهوا

غالبا يبرك مهلك فليس هناك شيء أكثر تسلياً من مراقبتهم وهم مقبلون على درجة النشوة من تعاطى الخمر .

“Life in Mexico During a Residence of Two Years in that Country” (Everyman Edition) p. 261.

وقد أعطانا الكولونيل مانسيا صورة واضحة عن حفلات السكر الهائلة التي كانت تقيمها قبائل الرانكيلي والتي كان يجبر فيها على مشاركتهم : « طالما كان هناك شيء يشرب فقد كانوا يتناولونه ، في ساعة ، في يوم ، في يومين ، أو شهرين » .

“Excursion a los Indios Ranqueles” (Buenos Aires 1942,) pp. 120, 134.

(١٣) هناك معروضات كثيرة للنسيج البيروفي القديم في متحف مجدلينا في ليا .

(١٤) تختلف الملاحظات حول طول أعمار الهنود اختلافا كثيرا . فيكتب الأب فائسكيث عن قبائل المايا يقول : « إن هنود هذه البلاد ( يوكاتان ) . . . يعيشون حتى يمتد بهم العمر ، وفي الحقيقة ، عند ما كشفها الإسبان ، وجدوا هناك كثيرين من المسنين ، ومن بينهم رجل بلغ سن الثمانية ، كما ثبتت ذلك سجلات الهنود ، وآخر عمره ١٢٠ عاما وكان نشيطا جدا » - المرجع نفسه ص ١٢١ . وبناء على رواية صلفاس موري ، يموت ٧٠٪ من جميع أطفال المايا قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٩٠٪ من جميع شعب المايا يموتون قبل الأربعين . ومع ذلك فالراشد من المايا قوي وشديد ولا يستسلم للمرض .

“The Ancient Maya”, op. cit., pp. 23—24.

وكتب وليم ستيفلسن عن الأحوال في بيرو يقول : « إن طول العمر ظاهرة شائعة بين هنود بيرو ، ولقد شاهدت دفن اثنين في قرية صغيرة أحدهما امتد به العمر إلى ١٢٧ عاما والآخر إلى سن ١٠٩ أعوام . ومع ذلك فكلاهما كان ينعم بصحة لم يشها مرض حتى بضعة أيام قبل الوفاة . وعند فحص سجلات الأبروشية في برانكا وجدت أنه في سبع سنين دفن أحد عشر هنديا بلغ مجموع أعمارهم مجتمعين ١٢٠٧ أعوام » .

“A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years’ Residence in South America” (3 vols., London, 1825) I., 405.

وقال أولرخ شميدل الجندي الألماني إن من بين قبائل السوروسوسي في باراجواي لم ير هنديا زاد عمره على ٤٠ أو ٥٠ عاما — نفس المرجع ، ص ٦٦ .

وكتب خوان وأيووا عن هنود الأنديز يقولان « أما الذين ينجون من هذه الملل ( الجدري الخ ) أو يشفون منها فيمتد بهم العمر طويلا ، وكلا الجنسين يقدمان أدلة كثيرة على طول الاعمار الفائقة . وكنت أعرف شخصاً بضعة أناس في سن المائة كانوا لا يزالون يحتفظون بشدتهم ونشاطهم » . نفس المرجع ، الجزء الأول ، ص ٤٢١ .

(١٥) قال الأب فائسكيث دي إسبينوسا إن الطرق العمومية المشهورة التي شقها الانسكا



هواينا كاباتك ، الذي مات سنة ١٥٢٣ ، كانت أطلالا بعد قرن من وفاته . « وكانت هذه لإنجازات جديرة بملك حكيم هام ، وربما كان من الثقل والحكمة لو أن عاية بذلك لصيانة الطرق ، فلقد كان ذلك مما يفيد منه الاسبانيون ، ولكن لما لم يكن أحد ينظر إلى ما دون مصلحته الخاصة إلى الصالح العام ، فكل شيء سائر إلى خراب » — نفس المرجع ، ص ٥٨٦ . ويقوم فكتور و . فون هاجن الآن ( ١٩٥٣ ) بمسح على الطبيعة « الطرق الانكا العمومية » .

(١٦) « لا أعتقد أن هناك شعبا ما أو أمة ما في العالم تستطيع أن تحفر قنوات رى فوق أماكن وعرة وصلبة كما يفعل هؤلاء الهنود » .

Pedro de Cieza de Leon, "The Travels of Cieza de Leon, A. D. 1532—50" (tr. from the Spanish, London, 1864), pp 314, 319.

(١٧) طبقا لرواية جيوفانى جيميلى كاربرى الأقرباذنى الايطالى الذى طاف حول العالم والذى رأى أربعة من محاربى الشيشيمك عراة وموشمين فى قصر نائب الملك فى مدينة المكسيك «لأنهم يرغبون فوق كل شيء فى قتل الإسبانيين» .

Churchill, "A Collection of Voyages and Travels" (4 vols., London, 1704), IV, 545.

انظر :

Philip Wayne Powell, "Soldiers, Indians, and Silver : the Northward Advance of New Spain, 1550—1600" (Berkeley and Los Angeles, 1951).

(١٨) كان الأب أكوستا يسمى الأروكان « شعبا خشنا وصديقا للحرية » .

"The Natural and Moral History of the Indies (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1880), I, 170.

وكان المرشد البرتغالى لويس فاز ، وهو من بحارة فرانسيس دريك يقول لرتشارد هاسلوويت إن الأروكان « هم أشجع الشعوب وأشدّها ضراوة فى جميع أرجاء أمريكا الجنوبية » . "Voyages", VIII, 193 (Everyman Edition).

وقال فرانسيس برتى وكان واحدا من رجال كافندش فى رحلته حول العالم :

« هؤلاء الهنود يستقلون إلى درجة فائقة ، ولا يبالون إذا هم هلكوا فى سبيل استقلالهم وحرّيتهم » . نفس المرجع ص ٢١٧ . « وليست الحرب عائقا أو خسارة تنتابهم ، بل لأنهم يرونها فى الواقع حرفة محببة إليهم إلى درجة كبيرة » . خوان وأيوبوا ، المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨ .

وكتب كابتن ف . ب . هيد ، وهو مهندس مناجم بريطانى وكان فى أرجنتيننا وتشيلي فى

العقد الثالث من القرن التاسع عشر عن هنود اليبا ، أبناء عمومة الأروكان يقول : « كانت حرفة حياتهم هي الحرب ، وكانوا يعدونها الوظيفة النبيلة ، ولا يفوقها شيء في كونها طبيعية ووصفهم شعبا حرييا فقد كانوا مثارا للاعجاب ، وأسلوبهم في الحرب أبل وأساس وأكل في طبيعته من أسلوب الحرب التي يشنها أي شعب آخر في العالم » . F. B. Head .

“Rough Notes Taken During Some Rapid Journeys Across the Pampas and Among the Andes” (London, 1826), pp. 121—33.

(١٩) عن الأزانقة كتب الفاتح المجهول يقول : « منهم يتنازرون ببسالة حرية فائقة ، ويواجهون الموت بعزيمة لا تضارع » .

“Narrative of Some Things of New Spain and of the Great City of Temestitan, Mexico” (tr. from the Spanish, New York, 1917), p., 19.

(٢٠) طبقا لرواية جارسيلاسو دي لافيخا ، كانت القبائل التي يحاربها الإنسكا كاباتا يوبانكي « ترى أنه في مرات كثيرة كان يستطيع أن يدمرهم ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل إنه عندما كان في مقدوره أن يحاصرهم ويضيق عليهم ، تخينذاك قدم لهم الصلح في اعتدال وحلم فائقين » .

“Comentarios Reales de los Incas” II., 29.

(٢١) « إن الطريقة الحديثة التي ينتج بها المايا النثرة هي نفس الطريقة التي اتبعت من ٣٠٠ سنة أو أكثر » .

مورلي ، المرجع المذكور ، ص ١٤١ .

(٢٢) انظر جارسيلاسو عما ذكره خاصا بحيرة الإسبانين أمام النتائج التي توصل إليها الهنود بواسطة خيط العقد الحسابية .

“Historia General”, I., 199.

وفي أوائل القرن التاسع عشر وجد ولیم ستيفنسن عجوزا هنديا في ريويمباني ماكوادور « يستطيع أن ينظم العقد ويفسر معنى الخيط » . المرجع المذكور ، الجزء الثاني ، ص ٢٦٩ .  
أظهر وصف أنطونيو دي لا كالايا لخيط العقد الحسابية .

Antonio de la Calancha, “The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature” (New York, 1948), pp. 67—70.

(٢٣) يرتب مورلي الإنجازات الفنية والتكنولوجية التي كانت الشعوب الهندية يمارسونها على النحو الآتي : العمارة ، المايا — الخزف ، المايا أو الإسكا — التصوير ، المايا —

النصيحة ، بېروفي (الناسكا) — نقش الاحجار الثينة ، الأزاتقة — صناعة المعادن ، الأزاتقة وشعوب أخرى في المكسيك الوسطى — الطرق المعمومية للإنسكا — المرجع المذكور في مواضع كثيرة .

(٢٤) «في الخدمات التي يؤدونها وفي أحوال الناس، نجد أن طريقة حياتهم تكاد تكون هي نفسها السائدة في إسبانيا ، وب نفس درجة التنسيق والنظام ، ولو أننا أخذنا في الاعتبار أن هؤلاء الناس متبربرون وبعيدون عن معرفة الله والشعوب الأخرى المتقدمة فيما يثير العجب أن نذكر ما توصلوا إليه في جميع النواحي » .

“Letters of Cortes”, I., 263.

راجع النصيحة التي أسداها والد من الأزاتقة إلى ولده في :

Sahagun, op., cit., I., 529.

وكتب مايكز فيليبس وهو أحد رجال هوكنز عن الأزاتقة يقول : « وبين هؤلاء الهنود تعلمت لغتهم أو اللغة المكسيكية إلى درجة الكمال، وتعرفت على كثير منهم عن كثب فوجدت شعباً مؤدباً وودوداً وحاذقاً وعظيم الإدراك » .

Hakluyt, op., cit., VI., 323.

وكتب يدرو دي ماجاليس في القرن السادس عشر عن المجاملة التي كان الهنود البرازيليون يعاملون بها الأفراد من نفس القبيلة يقول : « يعيش الجميع في كل بيت في توافق دون ما خلافات بينهم ، بل على العكس ، هم على وئام الواحد مع الآخر لدرجة أن ما يملكه الفرد يعد ملكاً للجميع ، وإذا حصل المرء على شيء ليأكله مهما صغرت كميته فإن جميع جيرانه يشاركونه فيه » .

“The Histories of Brazil” (tr. from the Portuguese, New York, 1922), p. 87.

« يعامل الهنود بعضهم بعضاً بأدب فائق » .

Herbert Cerwin, “These are the Mexicans” (New York, 1947), p. 37.

(٢٥) قابل الأب كريستوبال دي أكونيا الذي هبط من إقليم كيتو إلى الأمازونيا في سنة ١٦٣٩ التوينامبا على الجزيرة الكبيرة في نهر مادير الأدنى والتي كانت ملجأهم الأخير .

“Descubrimiento del Amazonas” (reprint, Buenos Aires, 1942), p. 95.

(٢٦) كان الأب أكوستا يعتقد في استحالة فتح المكسيك ويروى أن الهنود كانوا متحدين ويكتب عن مقاومة الهنود فيقول « لا تزال تشيلي صامدة . . . حيث لا يستطيع جنودنا الإسبانئون الاستيلاء على قدم واحدة من الأرض على الرغم من أنهم شنوا الحرب هناك مدة

زيد على خمسة وعشرين عاما دون أن يدخروا وسعا ما . لأن هذا الشعب الهمجى بمجرد أن أصبح لا تفزع الحيل ولا الرصاص وبعد أن عرف أن الإسبانين يسقطون كما يسقط غيرهم من الناس برمية حجر أو مزرقات أصبحوا يخاطرون بأنفسهم . . . فكمن سنين جند الإسبانين الرجل في إسبانيا الجديدة وأرسلوهم ليقاتلوا الشيشيميكو وهم عدد قليل من هنود عراة مسلحين فقط بالأقواس والسهم ، ومع ذلك فحتى اليوم لم يستطيعوا قهرهم . . . بل بالعكس ، إنهم يزدادون استقتلا وعزما ثابتا يوما بعد يوم . ولكن ماذا نقول عن الشولشو أو الشيريجوانو أو البلكوسوفى وجميع شعوب الانديز الآخرين ؟ ألم تكن هناك كل خلاصة يرو وقد أحضروا معهم تلك المؤن الضخمة والأسلحة والرجال كما رأينا ؟ (وقد صعب الأب أكوستا نائب الملك توليدوى حملته النكباء ضد الشيريجوانو) . . . فلماذا فعلوا ؟ . . . لقد عادوا تغمرهم السعادة إذ ألقوا بأنفسهم من الهلاك بعد أن فقدوا أمتعتهم . ولا يظن أحد أنهم أناس تافهون ، فلو أن مونتسوما في المكسيك والإنكا في بيرو كانا ثابتين في مقاومة الإسبانين وصدهم عن التوغل في البلاد لتقدم كورتيس وبثارو قليلا بعد نزولهما إلى البر ، ولو أنهما كانا ضابطين فائقين . المرجع المذكور ، جزء ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٢٧) عن ثورة توباك أمارو انظر :

Vazquez de Espinosa, op. cit., p. 596.

(٢٨) انظر .

Arnold Toynbee, "The Study of History" (Abridged Edition), pp. 33, 271.

(٢٩) كتب سيثا دى ليون عن الإنكا يقول : « إنهم قاموا بإنجازات عظيمة وحكموا البلاد بحكمة بالغة حتى إن قليلا من الحكماء فاقوهم في ذلك المضمار . وكان ذكاؤهم مفردا وتعلموا دون أن تكون لهم أبجدية ، لأن الأبجدية لم تفخر من قبل في الهند الغربية . وأدخلوا عادات حسنة في جميع الأقاليم التي فتحوها . . . وشغل تفكيرهم كثيرا خلود الروح وأسرار أخرى من أسرار الطبيعة . وآمنوا بأن هناك خالفا لجميع الأشياء . . . وكانوا يتمتعون بفطنة زائدة ودهاء في تحويل أعدائهم إلى أصدقاء دون اللجوء إلى الحرب . » — «Travels», op. cit. p. 136 .  
«ويدوى أن لدى شعوب قليلة في العالم حكومة خيرا من حكومة الإنكا . Ibid., p. 220 .  
وقال الأب فاف . كيث دى إسبينوسا عن الإنكا : « إنهم كانوا ينظرون إلى شعوبهم بعين الاعتبار ، وكانت أوامرهم مطاعة ، ويحترمهم الناس ، بل إن أتباعهم جميعا كانوا يعبدونهم . » op. cit., pp. 557 .  
وطبقا لرواية روجر مريمان ، « ربما لم يحدث في أية جبهة في العالم أن عملت تجربة جماعية على نطاق واسع ، وأحرزت قسطا أكبر من النجاح . وإنه من المحقق إلى درجة كبيرة أن توجد تجربة تنال مثل هذا القسط مستقبلا . » وهو يمزو نجاحها إلى الظروف الآتية : (١) كانت الحكومة حكومة استبدادية مطلقة ، (٢) باستثناء رجال العلم الذين كانوا في خدمة الإنكا ، أى الدولة كان هناك مستوى وحيد للنسق من العلم والثقافة ، (٣) لم تكن هناك علاقات خارجية .

"The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New" (4 vols., New York, 1918—34), III., 551.

وعن حنين الهنود إلى الوطن كتب هيرندن وجين يقولان : « إن تذكر جنس الهنود الحالي ، والذي يجلب إلى نفوسهم الرضا ، للعطف والدمانة والإنسانية التي كان الحكام من الانسكا يولونها أسلافهم ، كثيراً ما كان يقارن بالاستياء بصنوف البؤس والحرمان التي يرون أنهم ذاقوها من الحكومات المتعاقبة . » op. cit., I, 77.

(٣٠) كان الإسبان ، بصفة عامة ، يتحرون في إيرادهم للإحصاءات ، كما فعل الأب لاس كاساس في كتابه Destruction of the Indies . وطبقاً لرواية أوفينديو اختفى أكثر من ٢٠٠٠.٠٠٠ هندي في إقليم كاستيلا دي أورو في البرزخ بين سنة ١٥١٤ ، وسنة ١٥٤٢ . op. cit., III, P. 125. وقال إنه بينما كان هناك على وجه الاحتمال مليون هندي في الجزر لإبان الكشف ، لم يزد الذين بقوا من السكان الأصليين في ساتو دومنجو على خمسين . Ibid., I, 71 . لاحظ تعليقات سيينا دي ليون عن تناقص السكان في أقاليم أمريكا الجنوبية : « هناك هنود قليلون في تخومها ، لأن جميعهم تقريباً قد أهلكتهم المعاملة السيئة التي لقوها من الإسبان والمرض » . op. cit., p. 17 , "Travels" ، « تخيم هذه المروج والسهول ( إقليم بويبايان ) كانت عامرة بالسكان من قبل ... والآن يوجد هنود قليلون بسبب الحرب مع الإسبان وعادتهم في أكل بعضهم بعضاً ، وأيضاً بسبب المجاعة الشديدة التي نجمت عن عدم زرعهم عصولاتهم مؤملين أنه بسبب عدم وجود الطعام فإن الإسبان ينزحون عن بلادهم » . Ibid., p. 109 . وعن ولاية شنشا في بيرو : « كان الوادى عامراً بالسكان إلى درجة أن كثيراً من الإسبان يقولون ، عندما فتحتها الماركيز ، لأنها كانت تستوعب ٢٠٠.٠٠٠ رجل . واعتقد الآن أن بها ٢٠٠٠ ره أو أقل » . Ibid., p. 261 . « واكتظ الهنود فيما مضى في ولاية أنداهوايلاس هذه ، ولكن الحروب قد أُنقصت من أعدادهم كما أُنقصت من عدد الهنود الآخرين في هذه المملكة » . Ibid., p. 317 . انظر أيضاً سيينا "The War of Chupas", p. 339 .

« وأنا أعرف من تجاربي التي اكتسبتها خلال إقامتي الطويلة في الهند الغربية أن كثيراً من أشد صنوف القسوة والإضرار قد لحق بالأهالي » . انظر ما قام به من دراسة .

Sherburne F. Cook and Lesley Byrd Simpson, "The Population of Central Mexico in the Sixteenth Century" (Berkeley and Los Angeles, 1948).

« وفي أقل من قرنين من الزمان نقص عدد السكان الهنود ( في إقليم الأنديز ) إلى أكثر من النصف .

George Kubler, "Handbook of the South American Indian", op. cit., II, 337.

(٣١) طبقاً لرواية هنري هوكس ، أحد رجال جون هوكنز الذين تخلفوا في فيراكروث ، « كان للهنود حظوة كبيرة لدى قضاة البلاد ، وكانوا يسمون اليتامى . وإذا حدث وألحق أي

لأسباني بأحد منهم أذى أو سبب له لإضراراً بأن يقتصب منه شيئاً... أو ضرب أحداً منهم... فإنه يعاقب بالمثل كما لو أن إسبانياً أساءت لى إسباني .

Hakluyt, op. cit., VI, 293.

(٣٢) انظر :

Vazquez de Espinosa op. cit., p. 624.

وطبقاً لرواية الأب فـاكـيـث كان لمناجم بوتوسي الحق في استخدام ١٣٣٠٠ هندي يجمعهم الحاكم المحلي من جميع أرجاء الكويابو ، « وبعد أن يتناول كل تعيينه ، فإنهم يصعدون التل ، كل إلى منجمه ، ويدخلون المناجم ويحسون فيها من تلك الساعة حتى مساء السبت دون أن يخرجوا منها . ويحضر لسائهم لهم الطعام .

(٣٣) اعتراف بأن ذوى السلطة قد « ارتكبوا صنوفاً من القسوة والإساءة نحو الهنود » في أثناء الفتح . قال سيثا دي ليون : « كما لا أقرر أن جميع المسيحيين قد أساءوا معاملة الهنود ، لأنني شاهدت كثيراً من الرجال المعتدين والذين يخافون الله يحسنون معاملتهم ويعالجونهم ويقصدونهم إذا مرضوا ويؤدون لهم خدمات خيرية .

“Travels” op. cit., p. 12.

ولاحظ سيثا تحسناً كبيراً بعد أن خفت حدة الغزوات العنيفة التي صجبت الحروب الأهلية بين الفاتحين ووضعت آثار « القوانين الجديدة » . أذكر أنني عند ما كنت في ولاية خوخا منذ بضع سنوات قال لي الهنود بامتنان كثير : « إنه لوقت سعيد كما كان أيام توباك إنسكا يوبانكي ، وهو ملك من ملوك الأزمنة القديمة يحملون لذكراه الإجلال والتبجيل » . Ibid., p. 13. « إن حكومة هذه المملكة في هذه الأيام صالحة إلى درجة أن الهنود السيادة الكاملة على سلعهم وأشخاصهم . وقد انتهى بمشيئة الله الظلم القديم والمعاملة السيئة اللذان كان يلقاهما الهنود » . Ibid., p. 425 . وعن الأحوال التي كانت سائدة في حياة فرانسيسكو بشارو انظر سيثا “The War of Las Salinas” p. 230 : « أنصف قليل من الكتاب الأجانب الحكومة الإسبانية بالدرجة التي تستأهلها على حسن معاملتها للهنود Op. cit., I, 22.

(٣٤) كتب جون ستيفنز عن الإجراء الذي اتخذته الجمعية التأسيسية في جواتيمالا يقول . « أقرت الجمعية وجوب تطبيق القاعدة ( ضد الهنود ) بالقوانين الإسبانية القديمة ، تلك القوانين الصارمة التي كانت أحد الأسباب القوية لثورة في جميع البلاد الإسبانية . فقد كان هناك شيء مروع في ذلك التشرع الرجعي » . op. cit., I, 302 . وطبقاً لرواية مدام كالدرون دي لباركا ، التي كانت زوجة أول سفير إسباني في المكسيك والتي كانت في تلك البلاد في العقد السادس من القرن التاسع عشر : « حقاً لم يطرأ تحسن ملحوظ في حالتها منذ الاستقلال . فهم لا يزالون كما كانوا تماماً فقراء وجهلة وعلى نفس درجة الانحطاط التي كانوا عليها سنة ١٨٠٨ ، وإذا زرعوا قدرأ صغيراً من الحبوب لحسابهم الخاص تفرس عليهم الضرائب بحيث تصبح الميزة كأنها لم تكن » . Op. cit., p. 368 . وقال خوان بوتستا ألبردى

الفيلسوف السياسي في الفترة الأولى من العهد الجمهوري : « نحن نهمهم (الإسبانيين) بأنهم كانوا قساة نحو المتوحشين الهنود . فهل نحن أكثر إنسانية من الإسبانيين في معاملتهم لمواطنينا الهنود الذين بقوا في البلاد ؟ »

Wililam Rex Crawford, "A Century of Latin American Thought" (Cambridge, Mass., 1944), p. 24.

(٣٥) « بلغت الحرب درجة من الفظاعة لا يمكنها معها الاستمرار ، يقتل المسيحيون كل هندي ويرد الهنود على ذلك بالمثل ، يقتلون المسيحيين » .

Charles Darwin, "The Voyage of the Beagle" (reprint, New York, 1906), p. 98

وكان دارون في أمريكا الجنوبية بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ قال إن الحرفة المفضلة لدى جنرال لوبيث في ولاية سانتافي كانت تصيد الهنود . ومن مدة قصيرة سبقت قتل ٤٨ منهم وبيع أطفالهم رقيقاً الواحد بثلاثة أو أربعة جنيهات . Ibid., p. 111 .

(٣٦) يقوم قسم الأنثروبولوجيا في جامعة كورنل بدراسة واسعة لهنود الكيشواي كاييخون دي هوايلاس في بيرو ، والهدف هو تجديد مدى استطاعتهم التقدم . وقد أبدى الملازمان هيرندن وجين ، اللذان أمضيا وقتاً طويلاً بين هنود أقطار الأنديز في منتصف القرن الماضي . ملاحظات دقيقة بخصوص الهنود في مختلف أرجاء اكوادور وبيرو وبوليفيا التي زارها . ففي بعض الجبهات علقا على سمادة الهنود الظاهرية واستطاعتهم جلب السرور لأنفسهم ، ولكن ذلك كان في الأماكن التي كانوا فيها أكثر تحرراً من الاعتماد على مشيئة « الأوروبيين » . ومع ذلك فقد توصلنا في النهاية إلى أن الحضارة الهندية قد توقفت تماماً ولا تتعلم إلا إلى قليل من التقدم . إلا أنهما أعجبا أيما إعجاب بالفضائل الفطرية التي تحلى بها الهنود . فهم يقولون الصدق ويتحلون بالأمانة ويحترمون بعضهم بعضاً ولا يداهنون . فهناك يوجد العطف والأدب المزدهان عن الأغراض في حالة نقية » . p. 83 و op cit . أما بيتس ، الذي سجل تأملات شائقة عن الهنود والسلالات المختلطة في وادي الأمزون ، فقال . « من المحتمل جداً أنه قبل إمكان إصلاح الهنود بأعدادجة يكونون قد انقرضوا كجنس » غير أن هناك صعوبة أقل بخصوص المولدين الذين يدون في بعض الأحيان قدراً من الإقدام والتحرر حتى ولو كانت نسبة الدم الأبيض فيهم صغيرة » .

"The Naturalist on the Amazons (Everyman Edition), p. 278.

انظر بصفة خاصة ص ٢٦٠ عن أخلاق الهنود .







## الفصل الثالث

# الاسبانيات

ثمان عشرة من الجمهوريات العشرين في أمريكا اللاتينية أمريكية — إسبانية . وهي جميعا تشغل ٥٧ ٪ تقريبا من مساحة أمريكا اللاتينية ، أو حوالى ٤,٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع من الأرض ، وحوالى ٦٤ ٪ من مجموع السكان — ويبلغون حوالى ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ (\*) — هم ورثة لمدنية يمكن القول عنها إنها إسبانية ، أو قل أقرب إلى الإسبانية لا أبعد ، إذا استثنينا الدول التي يغلب فيها الهنود . فقد تركت إسبانيا سميتها على خريطة العالم

الجديد من كوردوفا وفالديث في ألاسكا إلى تيرا دل فويجو . وتركت سميتها عميقا في عقول الناس وفي لغاتهم في البلاد التي استعمرتها فترة طويلة من الزمن .

وعلى الرغم من انتماء الإسبانيين إلى أصول جنسية معقدة — مركب من جنس « إيبيري » أصلي ، وإفريقي ، وفينيقي — قرطاجني ، وروماني ، وعربي ، وألماني ، وإفريقي شمالي ، وشوارد جنسية مثل الباسك (١) ، فقد بلغوا درجة فريدة في كونهم قوما غير معقدين . ومن المرجح أن أخلاق جنس شبه الجزيرة الأصلية كانت متصلة منذ أقدم العصور ، لدرجة أن موجات الفتاحين والمستعمرين لم تستطع أن تغيرها تغييرا جوهريا . لذلك ، فسكما وصف كتاب العصور القديمة الكلاسيكية أمثال اصطرابون الإسبانيين ، نجدهم اليوم كما وصفهم إلى حد كبير . ولم يضاف الوافدون بعد ذلك سوى تفاصيل ضئيلة إلى النمط العام الذي تبلور نهائيا منذ أمد بعيد . وإذا انتهى القتال وقبل الإسبانيون حكم روما لم يترتب على تكامل العناصر الإسبانية والرومانية أية مشكلات جدية . وبمرور الوقت أصبحت إسبانيا رومانية أكثر من إيطاليا، ذلك لأن الفريقيين اشتركوا في كثير من الأمور ، وعلى قدم المساواة عاشا متجانسين وباحترام متبادل . وفي وقت لاحق لقي التسرب الكثير من دم سكان شمال إفريقية في الجنس الإسباني الأصلي وسطا يرتاب في تقبله وبدا كأنه يقاومه باللجوء إلى تمسكه بأجداده الأولين بيولوجيا .

وهناك قدر كبير من قوة الاستمرار والمتانة تتصف بها إسبانيا . ففي مدريد وبرشلونة تسببت الاحتكاكات العالمية في تشذيب العادات المتبلورة القديمة قليلا ، وخضع الناس بعض الشيء خضوعا سطحيًا للأساليب الغريبة . ولكن في المدن القديمة التي هي روح إسبانيا — أمثال أريفالو

وكوينكا وروندا(\*) — استمرت الحياة من قرن إلى قرن بتغير قليل في أساسياتها ، وعندما غامر برو وجاب إسبانيا في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لاحظ أن الناس والأشياء لا بد أنها كانت مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه لتسعة قرون خلت من قبل .

وأسهل على المرء أن يفهم الإسبانين من أن يفهم ، على سبيل المثال ، الألمانين، أو في هذا الصدد ، أن يفهمنا نحن الأمريكيين . وهذا بالنسبة إلى الشخص الذي يرضى قبول آراء الإسبانى الغربية عن العقيدة ، أو الذى لا يحاول تطبيق معايير سلوكه على شعب له أسلوب نفسانى آخر وبمجموعة مختلفة من القيم . فمن الواضح أن الإسبانين قوم مخالفون لتعاليم الكنيسة وجانحون ، بحيث لا يتشجع الأجانب من أول وهلة أن يجهدوا أنفسهم في تحليل النفس الإسبانية بالأسلوب المألوف لديهم ، بل يسلمون فقط « كبدا عام ، بأنهم شعب غير منطقي وغير عادى . فليس هناك صفات مرضية ولا مقبولة في الطبع الإسبانى ، بل هناك صفة واحدة تسيطر على كل شىء — وهى الفردية — فالإسبانى لا يتصرف مع نفسه لتحقيق أغراض متعارضة ، كما نميل نحن أن نفعل فإذا وضع في مجموعة ظروف معلومة فن الميسور التنبؤ باتجاه مسلكه ، فهو إسبانى تماما في جوهره . ويستطيع المرء أن يتأكد أنه سوف تصدر عن ذلك « إسبانيات » — تلك الأشياء التى يمكن أن تحدث في إسبانيا فقط — أشياء ذات صفة مميزة ، إذا تكلمنا عن صفات الشعب ، كالصينية أو الأيرلندية ، وكثيرا ما تكون غير مفهومة للأجنبي .

ومع ذلك فهناك كثير من الأمور المتضاربة المتناقضة حوله<sup>(٢)</sup> . فهناك انقسام الشخصية الأبدى بين دون كيخوت وسانشوبانثا ، أو الجمع المتباين ظاهريا في نفس الشخصية ، الصفة العملية وغير العملية ، الواقعية

والخيالية ، الحقيقية والمثالية فإذا لبس ثوب الكينخوتية فإن أية محاولة لتجعل من أفعال وردود أفعال الإسباني ، شيئا معقولا ، يسلمها أن نفترض ، من أول وهلة أنها بالنسبة للأجنبي لا تحمل أى معنى مطلقا . فإذا سلمنا بهذا الافتراض الأساسى يتضح الباعث الذى يدفعه إلى سلوكه ، كما يتضح دائما الشيء غير المعقول . وهكذا بعد أن بدأ الجنشالوخينيث أنه حقق كل ما تمناه قلبه ، وبلغ من العمر ما يجعله يستقر ويستمتع بذلك ، غامر بكل شيء حققه بأن ذهب فى مطاردة طائشة إلى الفيافي بحثا عن مروج الذهب ( الدورادو )<sup>(٢)</sup> . وفى فتح تشيلي تأمر بعض رجال فالديا لإرسال الذهب إلى ييرو مخالفين بذلك أوامره . فلما سمع عن خططهم واستولى على الذهب فى أثناء شحنه فى إحدى السفن اندفع أحد الجنود ، وكان موسيقيا كما كان مقاتلا ، فى نزوة من الكبرياء الهائج وحطم قيثارته الثمينة على جدار السفينة ، وعندما غزت الجيوش الفرنسية إسبانيا فى حروب شبه الجزيرة أرسل قاضى(\*) أو عمدة مستوليس وهى قرية فى قشتالة، إلى نابليون بونابرت إعلان حرب خطيرا باسمه خاصة . وفى أثناء الثورات فى المكسيك لجأ أحد الجنود الصغار من فرقة مهزومة إلى إحدى الأشجار ، وكان الأعداء على وشك أن يرموه بالرصاص من محطه حين صاح قائلا : « أنا شاعر » ، وعند ذلك أمر ضابط الجماعة رجاله أن ينكسوا بنديقاتهم . هؤلاء بضعة من سلالة إسبانيا الخالدة الذين تملكهم الصورة الخيالية المحبوبة التى رسمها سرفانتيس . وينتهى بنا الحديث إلى أن نقرر أن الإسباني يدرك أوهامه كأوهام ، ولكنه مع ذلك يعتز بها لأنها توحى إليه رؤيا السكال التى لا يستطيع إدراكها . فهو يحلم وعيناه مفتوحتان ، فى حين تنشب قدماه ثابتتين على الأرض .

ويمتاز الإسبانيون بدرجة فائقة بفضيلة « الأخلاق » ، فهم شعب قوى جدا وحى إلى درجة زائدة ، وتملكهم حكمة عميقة بخصوص الحياة لم يستقوها من الكتب لأنهم شعب لا يقرأ ، ولكن استقوها من كونهم عاشوا زمنا مديدا للغاية ، وملينا للغاية ، وقريبا للغاية ، من حقائق الوجود المادية .

وتتجلى فلسفة حياتهم الدنيوية والمادية في مدخراتهم الزاخرة بالأمثال ، فسما تفوه سليمان الحكيم « بثلاثة آلاف مثل ، فكذلك تعود الإسبانيون أن يتحدثوا بالأمثال . فالعبارات البسيطة كثيرا ما ترتجل بلغة تيسر إلقاؤها موزونة ، وتعكس تجاربهم اليومية مع الأشياء والناس ، وهى الميزان الذى اكتسبوه بالخبرة عن هزائمهم وانتصاراتهم .

وفى الإسباني بقية من صفات بدائية أو وحشية . وهذه مرجعها فى الغالب إلى إيمانه بالقضاء والقدر واستخفافه بالموت ، وإحساسه بفواجع الحياة وعدم استقرارها . فهو متشائم منذ ولادته ، وفى دوام توقعه أسوأ الأمور كثيرا ما لا يخيب له رجاء . ويمتاز مظهره الخارجى كذلك بالبساطة والاستقامة وصرامة المتوحش . وطالما كانت الحياة صعبة بالنسبة إليه ، ولذلك لم يكن فى يوم من الأيام رقيقا أو مهذبا إلى حد زائد نتيجة يسر الحياة ونعيمها . ولم يعرف أبدا معنى « للأمان » فيما عدا ضمان كفاحه الذى لا يفتر ضد نوائب القدر المثقلة . وما هو فى حوزته إنما حصل عليه بكده وذكائه ، وحظ واتاه ، ومعروف أداه إليه أصدقاؤه وإذا استثنينا قلة من الناس ، لم يكن هذا شيئا كثيرا ، لأن هناك وفرة قليلة فى إسبانيا . ولكنها كانت كافية لتهيب البقاء لهذا الشعب الشاحب الوجه الصلب العود ، وبفائض كاف لتكسيبه عبقريته القومية . ومع ذلك فحوادث التاريخ تركت فرصة ضئيلة للغاية لاقتباس السلوك المذهب ودمائة الأخلاق الخارجية التى يتصف بها الفرنسيون والإيطاليون . وحقيقة الأمر

أن الإسبان يستطيع أن يرجع إلى الوراء في كهوف التاميرا ويشعر آنذاك أنه « في موطنه » دون أن يحس بصدمة شديدة عندما يوفق حياته معها من جديد .

ومبدأ المحافظة الأساسي عنده وعدم ثقته بالأجانب والدخلاء عموماً هما كذلك دليل على صفات الرجل الفطري . فالإسباني لا يغير بسهولة طرق حياته ويستبدل بها طرق غيره ، أو ينقل حيل المعيشة أو آليات الشعوب الأخرى دون تمحيص متناه في دقة وريبة غريزية في نفعا . فمن الصعب تحويله إلى أى شيء . كتب دوق ولنجتن في سنة ١٨٢٠ عن كراهية الإسبانين الشديدة للأجانب يقول : « ليس هناك بلد في أوروبا يستطيع الأجانب التدخل في شئونه بفائدة ضئيلة كما هي الحال في إسبانيا . وليس هناك بلد فيه يشتد بغض الأجانب مثلها ، بل يحتقرون ، وفيه يقل تلاؤم أحوال الناس وعاداتهم بنظائرهما في أمم أوروبا الأخرى ، (٤) ،

والإسباني شخص شوانى (٥) . وليس من الضروري أن يكون متظاهراً أوقوالاً أو عنيفاً بخصوص ذلك . فقد تتأجج النار في قلبه فلا تبدو لشخص آخر ، ولكنها تتأجج عنيفة مع ذلك . ولهذا فقد لا يسلك مسلكاً عليه العقل أو المنطق أو تقدير هادئ للأمور ، لأن عقله غير منتظم أو مرتب ، ولكن على هدى البديهة وبدافع الاحساس الشديد (٦) . وقد يفعل شيئاً بلا غرض معقول مطلقاً ، ولكن بدافع النزوة ليس إلا ، ثم تراه يتصرف تحت تأثير « تحرك الروح » (\*) ، وقد اقترح انجيل جانيفيه متمكماً أنه لكي تستوفي « المثالية الشرعية ، للأمة » يجب على كل إسباني أن يحمل في جيبه ميثاقاً للحقوق الخاصة (\*\*) ، بشرط واحد — أن هذا الإسباني له أن يفعل ما يشاء ، فإذا أراد أحد أن يؤثر في هذا الشخص فيجب عليه أن يلجأ

gana (\*)

fuero (\*\*)

إلى العاطفة أو الاقتناع ، لا إلى العقل ، أو حتى إلى المصلحة ، والإسباني لا يخضع للتفكير ، ولا يرتضى أن يفقد شخصيته في « قالب الفكر الشاحب » — التفكير غير الهادف الذي لا ينتهى أبداً إلى فعل — أو في الموازنة الحريصة بين لإجراء ما وبديل له .

والمثل الأعلى للإسباني كان ، ولا يزال ، السمو فوق تأثيرات الظروف الخارجية . فلقد تاق إلى أن روحه يجب أن تكون محصنة « ضد منقصات الحياة ونكباتها » ، أى جميع الأشياء التى تحطم صغار الناس وتدفعهم إلى المذلة . وفى هذا الصدد من المهم أن نذكر أن لوشوس سنكا ، وهو الرواقى(\*) المفظور على الإسبانية كان ، ولا يزال ، فيلسوف إسبانيا المفضل ، ويكاد يوضع فى منزلة قديسى الكنيسة . والرسالة القرطبية « حول ثبات الرجل العاقل »(\*\*) هى موعظة من فضائل البلادة إزاء حلول المصيبة ، وقد لاقت قبولا شديدا لدى أسلافه كبداً إسباني عجيب للسلوك والطريقة التى نفذ بها سنكا أمر نيرون له بالانتحار ساعدت كذلك على زيادة هيئته بين الإسبانين . فقد اعتقدوا أن واحداً فقط من بينهم قد استطاع ، بعد أن هوى من تلك المنزلة العالية ولقى ذلك المصير المفزع ، أن يموت بقدر كبير حقاً من عزة النفس ورباطة الجأش . ومع ذلك فقد كان عليهم أن يدركوا أن أهالى العالم الجديد كانوا يستطيعون أن يكونوا رواقين أمام الموت العنيف ، كما تظاهر أمامهم كوايو تمك وتوباك أمارو وآلاف غيرها فى ساعة الموت .

وعلى الرغم من أن الموت كان يعد الاختبار النهائى للأخلاق فقد كان لإجراء عقياً للغاية ، إذا أريد من ناحية عملية ، فيما عدا كونه مثلاً للغير

(\*) انظر القسم التالى .

(\*\*) «De Constantia Sapientis»

كيف يموت الإنسان في سبيل شيء جدير بالتضحية . ولكن الإسبانين اهتموا قليلا بالنواحي العملية للموت . فقد تملك مشاعرهم قرب حلوله ، وكانوا على يقين من أنه آت لا مناص منه ، ويتوقون إلى الحفاظ على شخصيتهم الانفرادية واسمهم خارج القبر . وكانت حقيقة الموت تشغل بالهم ، وفي بعض الأحيان يميلون إلى التعمق فيه بالحاح وبيل ، كما فعلوا بفنونهم الدينية . ولكنهم كانوا على استعداد لتقبله إذا حضر وبدون أن يبدو نوعا من البطولة أو الهوس ، لأن من واجب الإسبان أن يموت على ذلك النحو . فهم شعب شجاع جدا في حضرة الموت ، وقد اعتبرهم البعض شجعانا أكثر منهم عقلاء ، كما فعل براشيودا مونتوف زعيم مغامري بيروجيا الذي كان في خدمة ملك الأرجون في الحروب الإيطالية . فقد خاطب الجنود الإسبانين المهثرين قائلا : « إنكم تظنون أنه من الشرف أن يمزقكم عدوكم إربا ، فهذا أكرم من الهروب بحياتكم والاحتفاظ بأنفسكم ليوم الانتقام » . وقال الجنود الفرنسيون الذين رفضوا أن يقاتلوا قوات القائد العظيم كونسالفودى كوردوبا : « هؤلاء الإسبان يقدرون شرفا ضئيلا ينالهم أكثر من ألف حياة ، ولا يستطيعون أن يتمتعوا بهذه الحياة » . ولمصارعة التيران سحر لدى الإسبانين بوصف كونها عيداً للموت (\*) لأن الموت يتجسم في قرني الثور ، ويستطيع المصارع أن يحتال لكيلا يفترسه بالشجاعة والرشاقة والمهارة .

### الرواقية\*\*الاسبانية

بالنسبة إلى شعب يضرب به المثل في كونه لا يهتم كثيراً بظروف الحياة المادية، نجد أن المذهب الرواقي قد حصنه ضد ظروف الفاقة والالم والمعاملة

(\*) Fiesta de la muerte

(\*\*) الرواقية مذهب فلسفي أسسه زينو ( مات حوالي سنة ٢٦١ ق م ) و خلاصته عدم الاكتراف بالسروور أو الالم والرضاء والقناعة وتبذل الاحساس .



القاسية التي كان يلقاها من الغير ، تلك الأشياء التي كانت بصفة عامة تعد أمورا عادية وغير لافتة للأنظار ، ولكن قد يضطر المرء لأن يعيش بين أحضانها طول حياته . ولذلك عاش الإسبانيون عيشة متقشفة ومعتدلة . وقد جاء إليهم نكران الذات سهلا ، ويتحملون صنوف الحرمان أكثر بكثير من معظم الشعوب لأنهم تعودوا أن يقنعوا بالقليل . ومن المهم أن نلاحظ القدر الضئيل الذي أضافته ثروة جزر الهند في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى تيسير الحياة وبمبوحتها في إسبانيا . فعلى خلاف طبقة التجار بين والرأسماليين في مدن شمال أوروبا خلال نفس القرنين المذكورين كانت هناك فرصة قليلة للوصول إلى الرفاهية على الرغم من السكون التي تدفقت في إسبانيا من العالم الجديد . فقد استجذبت قصور خاصة قليلة العدد جدا . وبقيت حتى مساكن الطبقة الميسورة جرداء كما كانت دائما . وكانت كل الكنائس الكبيرة تقريبا قد بنيت من قبل أن يكتشف كولمبس أمريكا ، غير أن أموالا كثيرة صرفت على تزيينها داخليا زيادة في تمجيد العذراء . ومن المؤكد أن الإسبانيين لم يسرفوا في الأكل ، ومن المحتمل أن مقادير الطعام المتداولة في القرن السابع عشر كانت أقل منها في القرن الخامس عشر . ولكن شدة الأحزمة على البطون لم يتسبب أبدا في ثورات من أجل الطعام بين هذا الشعب المتزن العفوف الذي لم يعرف طوال تاريخه سوى القليل من الانغماس والترف . وفي مخاطبة الإسبانيين قلما يسمع المرء عبارات مثل « رخاء » أو « ربح » لأنها عبارات غير مألوفة لديهم . فإذا بدا « الرجل الصغير » في إسبانيا ، وكثيراً ما يبدو ، شرها وده مغلولاً إلى عنقه ، فمرجع ذلك فقط إلى أن قسوة شظف العيش كثيرا ما تكون ذات وقع شديد عليه ، ولذلك لا يستطيع أن يكون على استعداد لأي نوع من الإسراف . ومع ذلك فحتى في كفافه يبدى علائم الجود التي يتصف بها الأمراء أمام شخص آخر . وليس هناك سخاء في العطاء أو كرم الضيافة

فى شتى أرجاء العالم الغربى كما هو بين هذا الشعب الهزىل . فليس هناك أناس غيرهم يعطون للأشياء أقل قيمة ، ولغنى النفس أكبر قيمة .

وعدم الاكتراث الذى يبيده الإسبانىون خاصا بمصيرهم المادى مسئول الى حد كبير عن صفاء الروح أو سكينتها التى يقضون فيها معظم حياتهم . ولربما كانت هذه الفلسفة منعشة ومريحة فى عالم كدر يتقطب فيه الجبين وتعض فيه الأنامل . ومن الناحية الأخرى ربما تؤدى الى الاستسلام لظروف قد يكون من الممكن تغييرها بسهولة إذا مورست العزائم الهاجعة قليلا . ولكن تحسين الحال قد لا يستأهل من الإسبانى الاكتراث . أما الشكوى من أن عدم اكترائه هذا يضر بالأعمال، وقد يعنى القضاء على التطور ، فلا تحرك منه ساكنا بطبيعة الحال . وفى هذه الحالة يضع حدا للنناقشة بقوله : « لا يههم ا ، » (\*) وبعلائم مناسبة لإنهاء الحديث .

وبالنظرة الرواقية الى الحياة أصبح هناك تحكم فى المظهر الخارجى للشعور (٧) . فيجب على الرجل المهدب (\*\*) أن يكون متمالك شخصيته ، أى ثابت الجأش (\*\*\*) ما أمكن ومتحكما فى مسلكه ، ويجب عليه أن يحتفظ لنفسه ويحبس سر عواطفه الداخلية فلا يفشيها ، كما فعل فيليب الثانى عندما جاءته أخبار كارثة الأرمادا . وإن صفة التحفظ هذه هى التى تجعل وجوه الإسبانين فى لوحات العصر الكلاسيكى تبدو جامدة ومتحجرة للغاية . وإذا استثنينا قدرا معلوما من الخطرسة فقلبا نخبرنا هذه اللوحات عن أى شىء يجرى وراء القناع . فثلا لانجد شيئا مطلقا وراء وجوه الملوك الذين رسمهم فيلاسكيث ، ولكن قلما يقال هذا بالنسبة الى الصورة التى رسمها للأمير الدوق أو أمير البحر بوليدو بارينخا .

No importa (\*)

Caballero (\*\*) : كابايرو

Contenido (\*\*\*)

## الأنماط الإسبانية

كانت هناك، وتوجد الآن، بضعة أنماط لإسبانيا: قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة، أراجون، غاليسيا، أستورياس، الأندلس، كتالونيا، فنشكيا، وهكذا. وقليل منها، مثل الأندلس، لم تكن في يوم من الأيام وحدات سياسية، بل كان معظمها من قبل ممالك مستقلة (ويعادى بعضها بعضها). وكانت كل منهما، منفصلة عن الأخرى، تمثل انعطافا نحو التباعد وأنواع الولاء المحلي التي تعد انعكاسا للفردية الإسبانية. وعندما وصل دور توحيد البلاد الطويل إلى نهايته في أواخر القرن الخامس عشر، بقيت إحدى الولايات القديمة خارج الدولة الجديدة باسم البرتغال، وظلت أخرى مثل كتالونيا وولايات الباسك في حالة تبرم داخل بناء إسبانيا المركزي.

وشارك رجال الأنماط الإسبانية، ولو بدرجات متفاوتة، في فتح واستعمار العالم الجديد وفي تطويره من بعد ذلك، كما لا يزال يفعل القادمون المتأخرون من شبه الجزيرة. وفضل بعضهم أقاليم بالذات، فضلواها، بصفة عامة، لتشابه حقيقى أو وهمى للولايات المحلية التي جاءوا منها، في مستعمرة بيرو مثلاً بقي أهالى الأندلس وغاليسيا عادة على الساحل. أما الباسك ومواطنو استريمادورا ففضلوا الأراضى الجبلية وبعد أن أشار الكسندر فون همبولدت إلى نبوغ الأندلسيين وأهالى جزر كناريا في فنشويلا، وأهالى أستورياس والباسك في المكسيك، وأهالى كتالونيا في بونيس إيريس، أبدى — في أوائل القرن الماضى — الملاحظات الآتية على رسوخ الصفات الإقليمية الإسبانية في العالم الجديد قال: «إنهم يختلفون اختلافا أساسيا في استعدادهم للزراعة والفنون الآلية والتجارة ومجالات النشاط الأخرى التى تعتمد على نمو الذكاء. واحتفظ كل من هذه الشعوب بسحنته الخاصة ودمائه أو خشونة أخلاقه واهتمامه الزائد أو القليل بالبرج وبكرمه الحائى، أو قد يندفع إلى العزلة».

والاختلافات الإقليمية ذات مغزى أكثر خطورة من كونه لافتا للأنظار حتى بالنسبة إلى الباسك والكتالوني اللذين يختلفان ، ومعهما الأندلسي ، اختلافا كثيرا عن النموذج القومي (٨) . فهناك دائما وراء مظاهر الإقليمية — الملابس المميزة والعادات ، والصفات الغريبة في الكلام أو الأشياء الخارجية الأخرى ، كما تظهر في الفنون الحائطية لسوروييا في متحف نيويورك الإسباني — إسباني من نوع ما . وفوق كل شيء فهو سيد نفسه مهما يكن أصل موطنه .

وقد كانت قشتالة النواة المتوسطة التي اتحدت معها الأقاليم الأخرى تدريجيا لتكون إسبانيا ، وتعودت السيطرة والنزعة الامبريالية التي قدرت لها الزعامة في زمن مبكر . وكنموذج أصلي تجسم في أصل قشتالة « الإسبانية » (\*) أى اتحاد الصفات التي تميز الإسبانين بعضهم عن بعض إما نوعا وإما درجة . أما أشد منافسيهم في الزعامة فهم أهالي أراجون ، وهم قوم أشداء ، يتصفون بالخشونة ، كونوا لأنفسهم سيطرة على شعوب تختلف عنهم كثيرا كأهالي كتالونيا الواقعيين ، وأهالي بلنسية الذين يتصفون بالعنف والذين كونوا لأنفسهم امبراطورية في إيطاليا قبل أن يكشف كولبس جزر الهند بوقت طويل لحساب قشتالة وأهالي كتالونيا قريبو الصلة بالفرنسيين في مقاطعة لانجدوك ومن المرجح أنهم ، دون سائر الإسبانين ، على طرف نقيض من ناحية الطبع مع أهالي الأندلس في الركن الآخر من شبه الجزيرة ولما كانوا قوما بحريين ، وجوهم نحو البحر وظهورهم نحو بقية إسبانيا ، فإن اهتمامهم كانت أكثر صلة بالبحر المتوسط منها بالقارة . ونظرا إلى خضوعهم لأراجون يرجع إليهم ، إلى حد كبير ، الدافع الذي كان يكمن وراء بناء الامبراطورية التي أنشأتها تلك المملكة في إيطاليا . وعلى الرغم من

أنهم يتصفون بالمغامرة وبالعقلية التجارية، فقد كان لهم شأن ضئيل جدا بفتح العالم الجديد أو بالاستغلال المبكر لموارده .

ويمكن لغز الباسك جميعه في أصلهم الجنسى ، لأن هؤلاء القوم الذين يتصفون بالصراحة والاستقامة لا يستسلمون لإقليلا للخداع والاعوجاج . وإذا اتصفوا بكونهم قوما شجعانا أشداء وذوى أخلاق متينة جدا ويعتمد عليهم كل الاعتماد ، نراهم أشد الناس جميعا كبرياء ، ولكن كبرياءهم كانت أقرب لأن تعد تعبيراً عن إحساسهم العدواني العنيد بتفوقهم الجنسى والمساواة الفردية عن كونه موقفا مصطنعا وادعاء بسمو مركزهم . وقد جاءوا إلى العالم الجديد متأخرين ، ولكنهم ، مع أهالي استورياس كان عليهم أن يقوموا بدور الرائد في تنمية أقاليم التعدين الرئيسية في المكسيك وبيرو . وفى وقت لاحق وقع عليهم القيام بدور هام جداً فى حياة تشيلي ، وفى الركن الشمالى الغربى النائى من شبه الجزيرة تقع غالىسيا الإسبانية . وأهالى غالىسيا أكثر شبيها بالبرتغاليين فى عاداتهم وفى لهجة كلامهم ، وهم شعب مثابر ويعتمد عليه على الرغم من أن ملكة التخيل عندهم ضعيفة ، وقد أضاف جدهم قدرا قويا إلى كوبا وأرجنتين وألى البلاد الأخرى التى استقر فيها أعداد منهم .

### الاندلس

القبيلة الأندلسية من أعظم قبائل إسبانيا إثارة للاهتمام . وقد تسكف الأندلسى باتصالات طويلة وحكيمة — بما فى ذلك الاتصالات البيولوجية — بشعوب كثيرة ، وخصوصا ببنى عمومته المغاربة فيما وراء المضيق . وبضعة آلاف من السنين أقامها الأندلسى فى موطن جذاب طبعت مظاهر هذا الوطن التى لاتمحى فى نفسه العتيقة والافعالية . وفى مظهره وطرق معيشته ، كما فى الآثار المبعثرة فى أرضه المشمسمة — مناجم النحاس التى تسمى إلى عصر البرونز فى ريو تلتو ، أطلال إيتاليكا ، والحراء والقصر

وقادس نفسها — يقف المرء على أسلافه مختلق الجنس . وتردد على سواحله أبطال الخرافات أو التاريخ — أوديسيوس وربانة السفن الذين لا تعرف لهم أسماء ، والذين قدموا إلى تارشيش المذكورة في الإنجيل ، وهانيبال وقيصر ، والقديس جيمس وطارق بن زياد ، وكولمبس وماجلان ودل كانو ، والأبطال الذين فتحوا العالم الجديد . والأندلسيون ، كالصينيين ، متناهون في القدم ، ولذلك ، فكم لا حظ أورتيجا — ي — جاسيه ، أفنوا إمبراطوريات وسيطرات كثيرة ومخنا أخرى ، ومن ثم يكفيهم ما يقدم لهم في يومهم دون أن يقلق بالهم ما قد يأتي به الغد . فقد وقعت أبصارهم على أشياء كثيرة جدا لدرجة جعلتهم لا يسترون على خديعة ما . وليس هناك افتنانات أو ألغاز تحيرهم ، وأنعموا النظر في وجه أبي الهول وسبروا جميع أغواره . ولما كانوا شعبا مرنا فقد تعلموا كيف ينحنون للأعاصير البشرية التي كانت ترسل عليهم .

وهم يجمعون بين الوقاحة تارة والتعصب تارة أخرى ، كما لو كانوا لا يعتقدون في شيء اعتقادا راسخا . فأهالي أشييلية — لكونهم يمجدون التمثيل — يستطيعون أن يتحولوا من الجدية الطاغية التي يتصف بها أسبوع الآلام(\*) إلى مساحر الاحتفالات في الإجازات بتغيير بسيط في تعبير الوجه ، دليلا على تغير المزاج . ويشك الغريب أنهم في أعماق أنفسهم يحتفظون بهيكل وثني خاص بهم يشتمل على مذابح لجميع الآلهة التي عبدوها عبر العصور — عشروت(\*\*) وافروديدة وإيريس وباكوس(\*\*\*) ورع + وبان الإله الجدى ++ مما يرضى غرائزهم المتقلبة ، وربا

Semana Santa (\*)

. (\*\*\*) إله الحلقة .

. (\*\*\*\*) إله الحمر .

+ إله الشمس

++ إله الرعى .

يشتمل كذلك على حرم للإله بعل (\*) والإله ميثرا (\*\*) وإله مريح من  
آلهة الغجر (\*\*\*) الجوالين . وتأثير سحر القمر في منزلة الهلال قد يتجهون  
إلى قرطبة التي كانت مقر حكم الخلفاء ليؤدوا التحية للاتفة لمحمد عليه  
الصلاة والسلام .

وهم يتقبلون الحياة كما يتلقونها ، ويسخرون بلا اكتراث من كل  
شيء يمثل حولهم على مسرح الحياة . وعلى الرغم من أنهم يمتلكون النور  
لا شيء إلا ليحميهم من غوائل الزمن ، والشمس ، وقوة روحهم ، فإن  
لديهم مقدرة أيقورية + للتمتع والابتهاج . فبلادهم هي البلاد الكلاسيكية  
للمرقصات العظيمة بالنسبة للعالم ولأهالي قانس وأشبيلية الرشقاء الذين  
يؤدونها ، وللثيران المصارعة والرجال النور الذين ينزلونها ، ونواح  
أغاني الغجر على موسيقى القيثارة . وهناك في كاندراية أشبيلية الكبيرة  
وحدها دون سائر البلاد المسيحية يرقصون مرة في كل عام ، وعلى الرغم  
من أن الرقص متزن وله صفة الطقوس الدينية ، فهو رقص على كل حال ،  
ويعد ذلك إذعانا للوثنية الكامنة في الأندلس .

ونظراً إلى ما اتصف به الأندلسيون من الشهوانية وعدم البخل ،  
والروغان والهرب ، والتراخي والخبول ، وأصبحوا شعباً لا يبالى ، منحهم  
الله رؤية الحياة بوضوح ، وقد جردت من كثير من المظاهر التي يحتجب  
وراءها ذوو النفوس المزعزعة خوفاً من صدمات القدر . وبوصف كونهم  
أقل الإسبانين بداءة ، فقد اتصفوا بالتباهي الغريزي الذي تبديه قطط  
الطرق ، واتصفوا كذلك برقة القطط في حركاتهم .

(\*) إله فنيقي آفاق .

(\*\*) إله النور عند الفرس .

(\*\*\*) Romany

(+) نسبة إلى فلسفة أبيقور القائلة بأن السعادة تأتي براحة البال عن طريق العيشة  
الفاصلة .

وبينما تعد أشييلية كعبة كل إسباني يميل إلى الحرب من فشل وقصور في بلده أو في قرارة نفسه ، وبينما أصبحت أحب المدن في أرجاء إسبانيا ، فإن الإسبانيين العابسين وأقوياء العزيمة خارج الأندلس لا ينظرون إلى أهلها المرحين نظرة مفرطة الجدية ، بل يشاركونهم الأندلسيون أنفسهم فضلا عن ذلك ويسخر الغير من حديثهم المستهجن ، ومن سألوكهم المتكلف ، وثرثرهم ، واللامبالاة الظاهرية التي يبدونها في كل المناسبات ، وشقشقة اللسان التي تنزلق فيها مبالغتهم انزلاقاً طبيعياً ، ونفورهم من توضحية أنفسهم في سبيل أية معتقدات قد يستمسكون بها .

وكون الأندلسيون قسماً كبيراً من الجنند في فتح العالم الجديد (٩) . وقد امتازوا بذكائهم السريع ، وسعة الخيلة ، وقدر من شهامة يشوبها الخيلاء ، وأيضاً بأساليبهم غير المسئولة ، ورفضهم قبول الرواية الرسمية لأي شيء كحقيقة منزلة . وقد أظهروا دائماً ذكاء مشهوداً للتغلب على الخلافات ، ولطفاً في معالجة الأمور خفف من تأثير الغلظة التي اتصف بها بنو جلدتهم الإسبانيون في كل مكان التقوا فيه ، كما فعلوا في العالم الجديد ، في جوادا لاخارا وهافانا ولما .

### الاسبانيون في العالم الجديد

كان للأثر الإسباني في الأمريكيتين وقع مباشر لفترة تزيد على ثلاثة قرون ، ففي بادئ الأمر اتخذ ستار الفاتح والمستعمر ، وبعد مدة من الزمن كان على هيئة الحاكم والقس ومعلم الشعوب الرعايا ، ودائماً في صورة الجد الأول للأجناس المختلطة ، وأخيراً ، وبعد أن نالت البلاد استقلالها ، كهاجرين إلى أقطار لم تكن بعد ملكاً لهم ليحكموها . ففي الأرجنتين وكوبا كان تسرب الدم الإسباني الجديد هذا أكثر مما كان في عهود الاستعمار ، وأكسب أخلاق تلك الشعوب طابعاً خاصاً . وفي أثناء عبور الأطلنطي



طرأت على الأخلاق الإسبانية بعض تغيرات . ولم تنقص شدتها في أثناء عملية الفتح ، ولكنها توزعت على مساحة شاسعة وسكان عديدين ذوى عادات غريبة . وكانت عوامل التحويل إلى الإسبانية دائماً قليلة للغاية ، ولا مناص من ضياع شيء عند نقلها . وكان الجزء الضائع عادة هو درجة من القوة ، أكثر من أن صفة قديمة وذاتية من صفات إسبانيا استبدلت بها كلية قوة سلبية « لروح المسكان » الجديد . وربما لم تكن الخيرة مركزة بدرجة كافية لتعطي نسكة إسبانيا السكاملة للحضارة الوليدة الناشئة ، فقد طرأت عليها تأثيرات خففتها البيئة الطبيعية ، العناصر الجنسية الغريبة والمتنوعة التي أضيفت إلى الخليط ، أثر الثقافات الخارجية كثقافات فرنسا والولايات المتحدة ، وكذلك التجارب التاريخية .

واختلفت الحبوب التي أقيمت في المطحن إلى درجة لم ينتج معها عند طحنها نمط موحد لأمريكي إسباني . فقد أصبح هناك كوبيون ومكسيكيون وتشيليون وهكذا ، كل بصفاته المميزة . ولكن على الرغم من التشعبات ، فقد كان هناك « تشابه عائلي » قوى بينهم — نوع من التضامن الروحي له جذوره مغروسة في إسبانيا . لقد كان هناك نمط عام مشترك للتفكير والسلوك وراء كل التغيرات التي نمت في العالم الجديد . وفوق كل شيء بقي أثر الفردية الإسبانية العميق بتفرعاته في مجال تصرفاتهم . وكيفما كان ، فقد دبر « الرجل » طريقة للتغلب على جميع القوى التي تعمل على انقراضه كوحدة منفصلة في المجتمع القومي ، ولو أنه لم يكن مستقلاً في وقت ما أو مكان ما كما هو في إسبانيا ، حيث لا يزال يتحدى الدولة ، أو أي تمكث للناس لامتناس شخصيته ، أو ليجعله شخصاً عادياً كسائر الأشخاص .

ولم يصبح القشتالي في الفراغ المنعزل الذي تتصف به ربما الأرجنتيني أو الغابة المشبع جوها بالبخار في إقليم شوكو في كولومبيا ، بأية حال

من الأحوال ، هو نفس الشخص مرة ثانية . فقد قلت فيه صفة الإسبانية وزادت فيه صفة كونه رجل العالم الجديد ، لأن أخلاقه الصخرية لم تعد تمنع عنه قوة الطبيعة الناخرة أكثر من سفح تل معرض لنحت الأمطار المدارية وكذلك كان من العسير أن نتظر إمكان احتفاظ الحضارة الإسبانية بكل نقاوتها الأصلية مع وجود الثقافات الأصلية الهندية . وبعض هذه الثقافات ، كثقافة الإنكا ، كانت على درجة عالية من النظام ، حتى إن المواطنين الذين كانوا يمارسونها لم يجدوا سببا معقولا ليستبدلوا بها أساليب معيشة الإسباني ، فأخذوا من هذه الأشياء التي قدمت لهم مالا أم أهواءهم وارتاحوا إليه ، وكل هذا في الوقت المناسب بالنسبة إليهم ، كما استعار الإسباني بعض تركيبات الأدوية وطرق الطهي من الهندي ، وأحيانا لفظا مناسبا من اللغات الوطنية . وفي بعض الأحيان ، كما وضع جليا في المكسيك ، تشابه قلبا الهندي والإسباني في أمور كثيرة ، حتى إن غرس الحضارة الإسبانية كان عملا ميسرا . ويكفي هذا عن المستعمر الإسباني الذي لم يختلط دمه والذي يميل بطبيعته إلى الأصول والقيم في شبه الجزيرة .

ومع ذلك فقد نشأ عن كاثوليكية الإسباني الوراثة أن كان هناك — ولا يزال — في الهند الغربية مختلطون ومولدون أكثر من إسبانيين أنقياء من سلالة إسبانيا ، وأصبحوا تتنازعهم الثقافتان اللتان انحذروا منهما . ولم يكن الأمر كله مسألة اختيار عن طواعية ، أي الثقافتين تسود ، لأن المولد لا يستطيع الحرب بتاتا من « نداء الدم » . وبعد أول لقاء بين الإسباني والهندي تنتقل خلايا الوراثة الناتجة مناصفة مع كل جيل لاحق ، ولكن الميزان البيولوجي يتزايد ميله إلى الجانب الهندي خصوصا إذا تشبثت خط الوراثة بالطبقات السفلى في المجتمع . وليس هناك ، بطبيعة الحال ، قانون دقيق يبين القدر من الإسبانية الذي قد يكون عليه شعب أو شخص إذا هيئت له مجموعة معينة من ظروف موجودة من قبل . فالدرجات الممكنة للإسبانية مختلفة لاعدادها . وكثير من العوامل التي

تلايس المشكلة عوامل شخصية ولا يمكن تطبيقها ، أو قد تكون عرضية كلية عند حدوثها. ومع ذلك فبمرور الوقت يمكن للمرء أن يلاحظ في سكان قطر بالذات أن عملية الاختلاط في الزواج استمرت تعمل وقتاً طويلاً وانتهت بأن أدت إلى تقريب التشابه العام من ناحية المميزات الجسمية والأوضاع الثقافية . وقد تحققت هذه المرحلة من التطور ، على سبيل المثال ، في بلاد المولدين القديمة مثل تشيلي وباراجواي وكولومبيا وسلفادور ، أو في مراكز معلومة «مستقرة» اجتماعياً في جمهوريات أخرى كما في الانديز في فنزويلا واللانوس في شمال الأرجنتين . ومن جهة أخرى فإن الهنود من زمن بعيد كان قد استوعبهم البيض الأكثر عدداً كما في أوروجواي أو ، فيما عدا ذلك ، زحزحوا كعامل ثقافي منفصل كما حدث في ميا الأرجنتين : أما الأقاليم التي يغلب فيها التركيب الجنسي الهندي ، كما في المكسيك وجواتيمالا وبيرو وبوليفيا ، فالوقت الآن مبكراً جداً لكي نحصل على توازن محدود بين العناصر الجنسية الكبرى في عملية اختلاط الأجناس . فهناك نزوع في هذه البلاد إلى انسحاب السكان الأصليين المقصود ، ليعيشوا معاً بعيداً ، ولو أن الاختلاط مستمر في الطبقات الدنيا لمجتمعهم القومي ، لدرجة أن خلق جنس منفرد نهائياً قد امتد أجله كثيراً في المستقبل البعيد . وفي هذه الأثناء تعرضت تلك الثقافات ، وهي في طور نشأتها إلى تأثيرات غريبة نابعة بصفة خاصة من الولايات المتحدة وفرنسا ، — وعن طريق الهجرة على نطاق واسع — من إيطاليا . ومن تفاعل كل هذه القوى المعقدة ينشأ في النهاية شيء لا يقال عنه «إسباني» تماماً ، ولكن حوله شيء كثير من إسبانيا (١٠) . وفي أي مكان يتلاقى الناس في تلك الأرجاء لا يتقابلون كغرباء تماماً ، بل ينجذب بعضهم إلى بعض انجذاباً غريزياً بشد من ورائة مشتركة .

ولم تتمسك إسبانيا ، كأم ولود للشعوب ، بشيء من أبنائها فيما وراء

البحار<sup>(١١)</sup> . وهى وإن كانت لم تعطهم حرياتهم السياسية فذلك لأنها لم تكن لديها هذه الحريات لتعطيهم إياها ، وإذا كانت قد قيدت تنميتها الاقتصادية حيث كان من الممكن أن تتنافس معها ، فقد اتبعت هذه السياسة جميع الدول الاستعمارية الأخرى فى ذلك العصر . وفيما عدا ذلك فقد أعطتهم كل ممالك ، وبلا تذر ، أعطتهم لغتها القوية الجمهورية ، وتشريعات روما الإسبانية الصبغة وتقليد ونمط المدنية كطريق نهائى للحضارة ، وجميع ما تبقى من إطار النظام والمتع التى تنصف بها الحياة الإسبانية . فقد أعطتهم دون كيخوت ، ولاس كاساس ، وكالديرون ، وسانتا تريزا وأخذت منهم عوضاً عن ذلك الأخت يوانا إينيس ، والاركون ، وجارسيلاسو إلانكا ، وهيريدبا .

### الفردية الإسبانية

الفردية أو الشخصية هى مفتاح عبقرية إسبانيا . فالإنسان هو مركز الكون الإسباني . وليس هذا مبدأ فلسفياً للإنسان أو لبني البشر ، كأشخاص وهميين ، ولكن لشخص من لحم ودم ، لديه ما يحب وما يكره<sup>(١٢)</sup> . فأولا الشخص نفسه هو الذى يهم ، سواء أكان خوان جوميشه أم فرناندو الفاريت دى توليدو ، دوق ألبا . ومن هذه الذاتية المتمركزة حول نفسه قد يتحرك اهتمامه نحو الخارج ليضم أفراداً آخرين مرتبطين معه بروابط الحب أو القرابة أو الصداقة . ولا يخترق بصره الأجهر الحسكة المبهمة المجتمعة خارج دائرة اتصالاته العاطفية المحدودة ، لأن جيرانه وإخوانه المواطنين والغرباء — وكلهم شخصيات مجردة مجهولة — يسكنونها ، إلا إذا تصادف واعتدى أفرادها على شخصيته ، وقد يكون ذلك لبرهة أو قهراً . فطوال حياته نجده يتربص لأولئك المجهولين الذين يتدخلون من وراء دائرته المألوفة .

ومثل هذا الشخص يعاف أو يعجز عن إدماج شخصيته مع الآخرين مجرد أنهم يعيشون قريباً منه أو في نفس البلاد ، فما بالك بمن هم على سطح هذا الكوكب نفسه (١٣) ؟ فالشخص هو الذى يصنعه هو من نفسه بمساعدة قليلة من أسرته أو أصدقائه على الأكثر ، وهو ليس مدينا بشيء يؤديه للمجتمع ، ومن الصعب عليه أن يضحي بمصالح شخصيته للمطالب التي يستلزمها العمل أو المشروعات الجماعية . وهو مجرد من الفضائل المدنية أو مراعاة حق الجوار . ولا يريد أن يكون دعامة من دعائم المجتمع ، فإذا انغمس في الدعائم والعمد فهمته عمود من النوع الذى كان يجلس على قتمه سانت سميون ستايليتس في الصحراء السورية . ويفضل في ميدان الفكر الإنسانية — دراسة الإنسان — على الدراسات الاجتماعية . فليس لديه « عقلية اجتماعية » ، ويهتم قليلا بالتصالح في المنازعات والارتباكات التي تعترى المجتمع ، ولا يرغب في أن « يكمل » أو « ينسق » أى شيء أو أى شخص . والاتحادات والجمعيات ، والنوادي ، واللجان ، والاجتماعات ، والمؤتمرات ، وأى شكل قد يتخذه تجمع الناس بحرية لغرض جاد ، كل ذلك لا يروق له . أما أقوى نظامين في حياة إسبانيا وهما : الجيش والكنيسة فدينان بقوتهما إلى انهما يحسمان مبدأين — الشرف والدين — اللذين — يسيطران سيطرة غير عادية على الشعب الإسباني . غير أنه فوق كل النظم تأتي الأسرة ، التي إذا أهملت أو اصرها انحدرت إسبانيا إلى فوضى اجتماعية . والمشاركة في تنظيم ما تسلب من ذاتية الإسباني الشيء الكثير . ولكونه في قرارة نفسه ذنباً منفرداً نجده عند تصفية الأمور لا يستطيع الوثوق إلا بنفسه . فإذا تصادف وكان للجمعية أثر فعال ، فمن المرجح أن يزول عنها التحمس التلقائي الذي تسبب في تكوينها ، فيتركها جامدة لا روح فيها ، وإذا كانت عديمة الفاعلية ساد الاضطراب والاختلال لنقص التنظيم ، وما كان يجب عمله لا يعمل ، أو يؤدي أداء سيئاً . وهكذا ماتت

فى بدء تكوينها مشروعات كثيرة جميلة ومرجوة بدأت بآمال عراض وحماسة .

إن التنظيم والتعاون وهما الدافع الأساسى للتقدم الحديث ، يعنىان قليلا للإسبانى ، بل هما فى الحقيقة متنافران مع طبيعته .

فإذا انتقلنا إلى الميدان السياسى ، على الأقل إلى ما وراء حدود المدينة ، نجد أن ممارسة الديمقراطية قد برهنت حتى الآن على أنها غير ممكنة فى إسبانيا . وعلى الرغم من أن هناك مساواة اجتماعية عالمية — وهى التى تسير دون وعى الحياة فى إسبانيا — فإن التجارب التى اتبعت مع حكومة شعبية فى إسبانيا قد باءت بالفشل ، فلم يهيا بعد الجو الملائم لممارسة الديمقراطية السياسية . وقبل كل شئ ينظر الإسبانى نظرة ساخرة وبارتياب شديد نحو الحكومة ورجال السياسة . وإذا استثنينا فترات قصيرة جدا ، كان هو أفضل دائماً أولئك الذين تولوا حكمه ، ذلك لأن نظاماً سياسياً وحيداً — وهو حكم فرديناند وإيزابلا — كان جديراً بالشعب الذى يحكمه . ومن المرجح أن أسوأ انحرافات طباعه موجودة فى البيروقراطية التى يعدها جهازاً مكوناً من جماعة من الوصوليين أو النفعيين الذين لا يضمرون له أو للبلاد خيراً . فإذا أبعدنا الاضطراب أو الإكراه ، يود الإسبانى أن يتعامل مع الحكومة فى أقل الحدود الممكنة . يقول مادارياجا : « كل مجهودات رجال الدعاية السياسيين لإشعار الإسبانى بمواظنته قد باءت بالفشل ، فهو يشعر كرجل — ثم يقتبس من أونامونو — « لاشئ أقل من رجل برمته »<sup>(١٤)</sup>

وينزع كل إسبانى إلى أن يكون من نفسه حزبا سياسيا خاصا به ، وليس من رأيه أن تساس الحكومة بالحلول الموفقة أو الإذعان ، بل أن هذه تعد علامات ضعف . « فالنقاش » ليس إلا فرصة مهيأة له لنشر آرائه بين أولئك الذين ينصتون حتى يحىء دورهم للكلام . وتهبط القرارات السياسية ،

إن عاجلاً أو آجلاً ، إلى مسائل شخصية وتصبح مفهومة لدى جماهير الإسبانيين فبدأ الانفرادية هو القاعدة . أما الحكومة فهي مسألة أشخاص أكثر منها مسألة قوانين أو مبادئ . وهكذا فالرئيس ( \* ) أو الزعيم ( \*\* ) بالمعنى الأوسع — هو القلب الطبيعي للنظام السياسي الإسباني . وفي ظل هذا النظام نجد أن الزعيم أو الرئيس ( الرئيس السياسي في أمريكا الإسبانية ) هو المهيمن أو قائد الجماعة ، كالراعى فى العلاقات الأخرى . والصلة بينه وبين المواطنين فى دائرته صلة شخصية ، بمسئوليات واضحة بجلاء فى كلا الجانبين . وهى ليست ديمقراطية ، ولكنها تساعد فعلاً على إيجاد قدر من النظام لدستور السياسة الإسباني ، وهو عادة غير كامل . فإذا اعترضت العلاقات الرسمية أو السكهنوتية المقررة بالقانون طريق هذه العلاقة الشخصية المحببة كثيراً إلى طبيعة الأهل ، فإن ذلك يكون اعتراضاً عابراً أو جانبياً . ثم إن الأعمال قد تؤدي « على قاعدة شخصية » : الأعمال التى لا يمكن تأديتها بانواع القواعد اللاشخصية ، ذلك لأن الأشخاص ، فى نهاية الأمر ، أهم من القوانين — وهذه هى القاعدة التى تفسر لنا كيف أن المحاكم الإسبانية كثيراً ما تلجأ إلى الحكم بالقسطاس لى تخفف من قسوة العدالة القانونية .

وينفس الطريقة نجد أن فردية الشعب فى حرب مع إدارة المشروعات الاقتصادية ذات النطاق الواسع . فعلى الرغم من أن الإسباني يفضل مبدأ المشاركة فى الإدارة على التعاون اللاشخصي ( \*\*\* ) فقد يكون العمل ضخماً إلى حد لا يسمح بممارسة الفردية — أو نزواتها المحتملة — فيصبح التنظيم أهم

Caciquismo ( \* )

Caudilismo ( \*\* )

Sociedad anonima ( \*\*\* )

من أى شخص . وعند هذه الدرجة من التطور الصناعى قد يجد الإنسان نفسه غير مبال ليمضى مع حقائق الموقف ، بمعنى آخر ، متخلفا عما يعده ججيا اقتصاديا . ولم يعد المشروع لعبة أو ساحة يمارس فيها بسالته الشخصية . ويرى من المستحيل أن يشعر بأى ولاء نحو تعاون لا حياة فيه . وقد تنفصل ممارسة العمل عن إدارته ، فيترك لتقليب أوراق وحساب أرقام أكثر من سيطرته على العمال أو ضبطه للآلات . وفى الحقيقة قد تصبح الآلة هى السيد — وهذه مسألة تثير سخط الإنسان إلى الحد الأقصى .

وكما يكره اللاشخصية الإجبارية للمشروع الكبير ، فهو كذلك لا يميل إلى مسايرة الآلة التى تعمل فى مدنية الصناعة الحديثة . وهو ميثوس منه من قبل رجال الإعلان والعلاقات العامة وخبراء السكفايات . وبمعنى آخر هو لا يحتاج إلى طبيب نفسانى يتحسس فى خفايا عقله أكثر مما قد يرضى بمراسل ينشر القيل والقال عن أمور الناس وينشر على الغوغاء . أموره الخاصة .

فإذا تخلص من ضرورات الاقتصاد وقوة العادة ومستلزمات النظام ، فغريزة الإنسان هى أن يعمل وقتما يطيب له العمل . وقد ينزع إلى القلق من ناحية النتائج وتركه عملا دون إتمامه . ويعتريه السأم ، أو يخفت نشاط عزمته لفترة ما . وإذا لم يكن الدافع الأصيل قد تسبب فى قوة مستمرة فإن المهمة التى بدأها قد لا تكتمل أبدا . وقد يترقب إلهاما لا يتحقق ، أو يركن إلى ارتجال مخرج من ورطته . وهو يرفض أن يجد تلك الفضائل التى يتصف بها المجتمع الصناعى كالنشاط والمثابرة ، وهو ليس كادحا ، ولكنه يفضل العمل بالتحفيز وفقا لنغم ما ، وعندما يكون رائق المزاج ( \* ) . ولذلك كثيرا ما يصبح إيقاع مجهوده بعيدا جدا عن الانتظام ولا يمكن



لأحد أن يتنبأ به ، وبعيدا جدا عن الطريقة العملية . فهنا تتعاقب ذرى النشاط البركاني مع الوديان العميقة — من الخود . غير أنه في بعض الأحيان ينزع الخود إلى المظهرية أكثر من كونه حقيقة واقعة ، لأنه حتى إذا كان الفرد سليما وعديم الحركة من الناحية الجسمية ، ففي استطاعة العقل أن يكون في شغل استعدادا لدفعة نشاط جديدة.

وتعيش إسبانيا نفسها وفق إيقاع مشابه « بتأرجح بين أقواس متباعدة تفصل بين بعضها وبعض قرون ، في فترات متعاقبة من نشاط واسع ، وأخرى من سبات قوى وعدم اكتراث . وهكذا يرى تدهور القرن السابع عشر قد أعقب بهاء القرن السادس عشر . ولو أن حوية القرن السادس عشر لم تؤت أكلها في الفن والأدب كاملا حتى النصف الأول من القرن السابع عشر وتكررت معالم نهضة لم تدم طويلا في أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت مصطنعة إلى حد بعيد ، وسرعان ما انطفأ وميضها . ومنذ ذلك الوقت عاشت خاملة كما لو كانت تترقب شرارة تلهب نوعا من تممس جديد يحى كل القوة الكامنة المخزنة في خفايا روحها (١٥) وفي أثناء ذلك يمر العالم بأبوابها المغلقة وهي لا تهتم إلا قليلا بما يجري في الطرقات في الخارج وفي فترات اضمحلالها وتبلدها يتأثر مزاج المواطن كفرد وتضعف عنده ملكة الابتكار والحاسة عما تكون عليه بلاده في أوج عظمتها ونشطت في القرن الحاضر حركة مضمونها استرجاع السكان القومي بقيادة مجموعة يحتمل أن تعد من أعظم المفكرين التحليليين ، وتضم أوانامونو وجانيفيه ، وفرانسيسكو جينيه دى لوس ريوس وابن أخيه فرناندو دى لوس ريوس ، وأورتيجا إى جاسيه ، وميناند بيدال ، ومادارياجا .

وليس الإسباني كسولا ، إلا إذا أخذنا في الاعتبار معايير الشعوب الأكثر تنظيما ، بل إن مجموع ما ينجزه من أعمال قد يبلغ قدراً مساوياً

لثمرة مجهود أكثر انتظاما واستمرارا ويستطيع أن يؤدي أضخم الأعمال إنتاجية ولنضرب مثلا: لوني دي فيجا مؤلف الروايات التمثيلية في العصر الذهبي ، فقد ألف أكثر من ١٨٠٠ كوميديا و ٤٠٠ رواية « بوليسية » . (١٦) (\*) وفي ذات مرة أتم خمس روايات هزلية في خمسة عشر يوما . ويقال إن رواياته كانت تمثل في بعض الأحيان عل المسرح خلال أربع وعشرين ساعة بعد البدء في تأليفها . وتتراثر نفس الأنباء عن خوسيه توريبينو ميدينا المؤرخ التشيلي ، وأول مؤرخي أمريكا اللاتينية ، فقد كتب أكثر من ثلاثمائة كتاب في حياته الحلاقة إلى درجة غير عادية ، ولو أن كتاباته تختلف في نظام توقيتها .

فشعب شديد الازدراء للروتين التقليدي قلما يصبح أفراده عبيداً للساعات والدقائق . وليس هناك أناس حديثون تنقصهم الحاسة الزمنية مثلهم ، وليس هناك أناس عديمو الاكتراث بمعرفة كم الساعة أو الوقت المحدد لإنجاز عمل واجب الأداء . فالتدقيق في مراعاة الوقت لا يمت إلى فضيلة ما ، والبطء في إنجاز الأمور ليس رذيلة . فإذا كان للفظ معنى مزدوج فاهتمامهم بمعنى « الوقت » منحصر في الطقس أكثر منه في الزمن . فعبارة « غدا إن شاء الله » هي العبارة التي يلقونها من جعبتهم بسهولة إذا سئلوا عن التزامات اليوم أما الإسراع فهو فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يؤخروا عملهم أو لا يجرون على تأخيرهم . والنتيجة هي أن ممارسة الأعمال والحياة الاجتماعية في الدنيا الإسبانية مرتبكة بسبب عدم مراعاة الوقت بصفه عامة ومع ذلك ففي بعض جهات أمريكا اللاتينية تنجح النية جديا نحو محافظة الناس على المواعيد التي يرتبطون بها ، وقد يحدد الميعاد المنفق عليه بالضبط ، أو كما يقال « ميعاد إنجليزى » (\*\*) .

actos sacramentales (\*)

hora inglesa (\*\*)

وفي الحرب نجد أن كل جندي إسباني في صميمه جندي غير نظامي فدائي. ومن الألفاظ التي لها مغزى أن لفظة جيريللا (\*) (حرب عصابات) نفسها إسبانية الأصل، بل إن التاريخ الحربى الإسباني عبارة عن أسطورة لمآثر بطولية قام بها جنود فرديون. وحتى أعظم قواد إسبانيا كانوا يتولون قيادة مجموعات صغيرة جدا من الرجال يمكن إدارتها على المستويات الإسبانية، وفيها لم يفقد الجندي ذاته الفردية. ويعد تدوين رنال ديات بالاسم للذين شاركوه في فتح مكسيك الأزاتقة مثلا كلاسيكيا للفرع الإسباني من إغفال اسمه وتمسكه بحقه في الخلود. أما الجيوش الضخمة التي نعرفها في هذه الأيام والتي لا يعد الجندي فيها أكثر قليلا من رقم مكتوب على شريط فليس فيها مكان لهذا المحارب المستقل الذي كان ولا يزال يشعر بالزحام، وأنه في غير مكانه في أى جيش يزيد على فرقة. إن إسبانيا متخلفة عن فن الحرب الحديث، كما هي عن الاقتصاد الحديث.

وفي مجالات النشاط الأخرى نجد أنه من الصعب على المرء أن يحظى بعشرة موفقة ومرضية مع الآخرين على قدم المساواة ما لم تكن هناك أواصر صداقة سابقة. فمثلا أنتجت إسبانيا والأراضي الإسبانية في العالم الجديد رسامين ذوى مواهب عالية، ولكن قلة ضئيلة منهم أسسوا مدارس قد تداوم على نقل عبقريتهم أو أسلوبهم الخاص. وكذلك لم يخلف فلاسفتها العباقرة ولا علماءها الآخرون وراهم جماعة من الاتباع ليخلدوا طريقة للتفكير. والإسباني الوحيد الذى نجح مرة في تنظيم جماعة كبيرة وباقية من الاتباع هو اجناسيودى ليولا الباسك مؤسس جمعية يسوع. وفي الموسيقى يتفوق العالم الإسباني في العزف المنفرد، سواء في الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية، ولكنه ضعيف في الغناء الجماعى أو الاشتراك في

فرقة للعازفين (الأوركسترا) . وفي الألعاب والتمرينات الرياضية ليس من السهل على الأشخاص الذين يجرى في عروقهم الدم الإسباني أن يتقبلوا القيود التي يفرضها العمل الجماعي ، على ذاتياتهم الثائرة .

وتجتمع الإسبانين لا يتنافى مع مزاجهم الانفرادى كما قد يبدو . وعلى الرغم من أنه لا يوجد أناس أكثر تفانيا منهم فالإسباني بطبيعته «اجتماعي» ويستمتع بصحبة الآخرين . فهو يحب الحديث ، ويحب أن يتبارى في إظهار حصافته في المناقشة . وليس هناك شعب أكثر طلاقة أو تعبيراً عن مكنونات أنفسهم بطلاقة أو قوة مثلهم ففي حجرة مملوءة بإسبانين يتجاذبون الحديث يحس المرء في بعض الأحيان أنه في حضرة وميض برق صوتي ، إذ أن الأفكار والآراء تموج رائحة جائية حتى تصبح متوهجة وقابلة للانفجار . ومن الصعب أن يتخيل المرء إسبانيا معقود اللسان أو يحار من وجود الألفاظ لأية مناسبة . وموهبة ذلاقة اللسان هذه نقلت إلى العالم الجديد في قوتها الكاملة ، ولو أنه في بعض الأماكن كان عليها أن تتخذ الطابع المدارى الزاهي . ولكن حيثما ازدادت وطأة الإسبانين على السكان فإن نفس السهولة اللعوية والطلاقة تمسكتا من البقاء وازدهرتا وسببتا الخوف والارتباك بين السكان الأصليين الذين اتصفوا بقلّة الكلام وإينه

واللغة نفسها وسط ملامم للتعبير لمثل هذا الشعب الذي يتصف بالرجولة . فليس فيها أطراف لينّة ، كما أنها ملأى بالحروف الساكنة القوية الصلبة تفصلها بعضها عن بعض حروف متحركة موسيقية . ويبدو أن الأصوات تنبعث من سندان وأجراس برونية لها أنغام عميقة وطبول من الأواني والصنوج ، ولكن قلما تبدو متنافرة بصرف النظر عن عدد من يتجاذبون الحديث في نفس الوقت . وحتى في الجهات التي طغى عليها البرابرة كما في الأندلس وأرجنتين فقد استبقت قوتها الأصلية ووقارها وعظمتها . فهي لغة الرجولة ولغة الإمبراطورية ، وقال عنها شارل الملك الإمبراطور

وهو الذي ارتفع إلى طبقة الأصوات الحلقية الفلمنيكية : إنها اللغة الوحيدة التي يمكن أن يخاطب بها الملوك والرب .

والديمقراطية الاجتماعية الحققة هي إحدى النتائج المتفرعة من الفردية الإسبانية . فبصرف النظر عن التمييزات الطبقية أو غيرها من المسميات ، اعتاد الإسبان أن يعامل بعضهم بعضاً كأفراد (١٧) . وفي هذه العلاقة يتجلى سلوك الناس على سميتهم وإنكار ذواتهم دون اتخاذ موقف ، أنا كفاء مثلك ، أو خنوع من ناحية ، أو تنازل أو تعاظم من ناحية أخرى . والغريب حقاً أننا لا نجد لهذه العلاقة أى أثر في الديمقراطية « السياسية » . وهي تنبعث على الأرجح من إدراك الإسباني العميق أن الناس إخوة ، ويرجع هذا الإدراك في أصوله إلى العقيدة المسيحية . وبهذا المعنى أكسبت الشخص أهمية كبرى كحق ذاتي له ، كما أكسبت الفرد وقاراً طبيعياً . والقبول الضمني لهذا التنظيم المتعادل من كلا الجانبين يحد من الاحتكاكات الطبيعية التي تحدث بين الطبقات ، والتي تقوض المجتمع في معظم البلاد . وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن المظالم في إسبانيا اقتصادية أكثر منها اجتماعية . ويسرى تطبيق هذا البروتوكول بين المتخاصمين وجهالوجه ، من العلاقة العادية لرئيس الخدم في أسفل درجات السلم الاجتماعي إلى العلاقة القديمة لنبله قشتالة العظام .

### الزهو الإسباني

من المؤلف لدى جمهور الناس أن إسبانيا والزهو كانا ولا يزالان صنوين من زمن قديم (١٨) . وفي الإسبانية كلمة زهو ( \* ) نفسها يصحبها تعال ورنين ، عات . ولكون الإسباني واثقاً من نفسه ومتيقناً إلى الدرجة القصوى نجده متحرراً من مركب النقص الذي يتفشى بين سكان أمريكا

الإسبانية الذين يجرى في عروقهم الدم المختلط . ومهما يخامر قلبه من شكوك وخاوف أحياناً فهو يخفيها وراء جدار زهوه هذا . وشغفه بالأجماع واللقاب الشرف ، كعنوان وعلامة لتفوقه ، هو مجرد تثبيت لاعتداده بنفسه .

وإذا زاد زهو الإسباني على الحد فقد يتحول إلى عجرفة ، أو غرور ، أو حسد ، أو يصبح ستاراً يخفي وراءه نفاقه . وقد يكون الفارق ضئيلاً جداً بين أن ينظر الإنسان لنفسه نظرة صادقة وبين الخبلاء ، كما هو بين الاعتزاز المتواضع والغطرسة . وبطبيعة الحال كانت هناك مناسبات رسمية قام التكبر أو التعاطف ، أو موهبة ما تدعو إلى التباهي ، بخدمات جليلة للإسباني أو إسبانيا بين الشعوب السريعة الأفعال . ولكن إذا لم يكن هناك مناسبة لإظهار الفخفخة فإن الغرور قد لا يصبح سوى مباهاة يقصد منها ، كما تتبختر الديكة الرومية ، التأثير في أفراد المجموعة وتخويف الديكة الأخرى .

ومن نقائص الإسبانين وبالأخص الأمريكيين المنحدرين من أصل إسباني أن يحسدوا أولئك الذين يعملون في نفس ميدان العمل ، سواء في ميدان الأدب أم الفن أم إحدى المهن . والمنافسات لا ترحم ، ومن اليسير أن تنشأ العداوات الشخصية من المنافسة في المهنة . فإذا لم يكن للشخص خطوة فرماً كانت إنجازاته وانتصاراته باباً للسخرية والتشهير . أما إذا كان ذا خطوة فينزع أتباعه إلى الإسراف في مديحه . ويكتب ميننديث بيدال عن « الحسد » ، وهو عنصر ظاهر من عناصر الخلق الإسباني فيقول « ليس هناك شخص يود أن يشيد بعمل الآخرين ، لأنه يبدو أنك إذا أثبتت على شخص فذلك يعنى أنك تبخس نفسك . وقد أطلق بلنسا جراسيان ، فيلسوف القرن السابع عشر اليسوعي ، على النزوع إلى بخس

الناس أشياء هم «الحقد الإسباني» (٥) وقال كونتاريني سفير فينتسيا (\*\*) إلى بلاط فيليب الثالث : «ليس هناك أمة تقاسى من الحقد المتبادل مثل إسبانيا» .

وفي مثل هذا الميدان المليء بالشعور الحاد يصبح النقد الموضوعى أمراً مستحيلاً فليس للانفعالات التي تثار آثار حميدة . وجميعها فجّة وغير مهذبة . فإما أن يستحسن المرء أو يحب ، وإما أن يكره كما يكره المصارع الثيران التي تربص بها في ساحة المصارعة . فليس هناك فتور أو توسط في الأمور في هذا الشأن . فأنت في هذا الجانب أو في ذاك . وإسبانيا نفسها هي وحدها التي تتمتع بميزة الحياد .

وتؤكد الإسباني الزائد على مبدأ الشرف كان تعبيراً عن زهو واستقلاله . يقول كالديرون في روايته التيميلية : «قاضي ثالاميا» (\*\*\*): «إن ما يملكه المرء من متاع وحياة فللهلك ، ولكن الشرف وقف على الروح ، والروح من أمر ربى وحده» فهي الدرع الواقية التي تحيط بشخصيته وتحميها من الإساءة وقد تضمن الشرف وجود دستور متبادل وشخصي للسلوك — للأفعال التي قد لا يؤديها الآخرون نحو المرء ، والأفعال التي قد لا يؤديها المرء نحو الآخرين . وعلى هذا النحو كان بمثابة «قاعدة ذهنية» ذات تطبيق محدود . وترجع المأساة المريرة التي كثيرا ما تتكرر في الأدب الكلاسيكي في إسبانيا إلى الانتقام من جراء التعدي على قانون الشرف . فإذا أثرت «مسألة الشرف» (+) فقد يكون الانتقام سريعا ولا رحمة فيه . وحيثما كان الأمر مأسا بالشرف الشخصى لا مرىء ما خرجت العقوبة من يد الدولة ، وسرعان ما يتوارى الشخص المعتدى من تعداد سكان

malignided hispana (\*)

(\*\*) البندقية

« El Alcalde de Zalamea » (\*\*\*)

pundonor

( + )

إسبانيا بالقتل فوراً أو بإعطائه « فرصة للنزال » في مبارزة (١٩) . وفي مناسبات مماثلة كان « الرجل الضعيف » الذى لم يستطع تحمل عبء دستور الشرف يتخذ من الإجراء ما يراه لائقاً ومناسباً في تلك اللحظة ولا يكلف نفسه مؤونة إدراك ما فعل . فالضعفاء وقليلو الحيلة هم فقط الذين يلجأون إلى العدالة اللاشخصية التى تجرّيها السلطة ويستغيثون بها فى تصحيح الخطأ .

ومن مظاهر الحياة العادية الاهتمامات الحقلية وتقديم الهدايا للأشخاص من قبل فئات المعجبين والأصدقاء . وقد تحدثت هذه « التحيات » أو « التهجيلات » عند رحيل شخص إلى خارج البلاد أو عودته من بلاد أجنبية ، أو قد تكون احتفالاً لنجاح شخصى أو تشريف ، وقد تكون أموراً خطيرة تسكثر فيها الخطابة ويتبادل الناس فيها الإطراء وتشرب الانتخاب . وقد يضىفى الناس قيمة أكبر على مثل هذا التقدير المشرف للجهود العظيم أو النبوغ من أى جزاء وقضى قد يكون آتياً عن قريب . ففى شعب يتصف بكونه راضياً إلى درجة فريدة (٢٠) تعوض إلى حد كبير النقص فى إحراز جزاء أو فى . وهكذا الحال فى التشبث الذى يبدو زائداً على الحد ويتمسك به الناس بالدبلومات والألقاب والنياشين والرتب والاستدعاءات الرسمية والتشريفات وعلامات الأهمية أو دلائل الهيبة .

وكذلك تتصل بتمسك الإسباني بزهوه الأهمية التى يعلقها على مظهره الشخصى . فهو يرغب دائماً فى أن يظهر ويحوز أكبر قدر من القبول — وفوق كل شيء ، يلبس لباس الرجل الممّند حتى لو أدى ذلك إلى التضحيات المادية فى أشياء أخرى . وحتى فى يوم قائط فى مدريد أو فى الجهات الإدارية فى كولومبيا يفضل أن يكون فى ضيق من أن يخلف عنه معطفه ، لأن المعطف عنوان الطائفة التى ينتمى إليها . واقتصر فيما مضى على أن يكون معطفاً أسود كان يضىفى على مرتديه احتراماً قائماً فى جميع الأوقات والفصول .



زد على ذلك أنه كان يؤدي غرضه كاملا في فترات الحداد الطويلة التي تفرضها الرسميات الإسبانية والتي قد لا تنقطع في أسرة كثيرة العدد . ولم يبدأ الناس المنحدرون من أصل إسباني إلا حديثا في تحرير أنفسهم من ربة أسلوب أملت التقاليد الاجتماعية . وإلى حد ما جاء التغيير نتيجة للتأثيرات الأجنبية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة وعى جديد خصوصا بين الأجيال صغار السن الذين يرون أن الجسم أهم من الملابس التي تسكسوه ، أو حتى من مراعاة نظريات بحفنة قديمة . ويرجد في بعض جهات أمريكا اللاتينية نوع من الطقوس تمثل في رباط ربة يعد شعارا للتحرر من الوصمة الاجتماعية التي يقتضيها العمل اليدوي . والحقيقة هي أن ما ترمز إليه الملابس من الناحية الاجتماعية ، إذا فرقنا بينها وبين وظائفها التزيينية ، أو ما تخفيه تحتها ، أكثر وضوحا بين الشعوب الإسبانية منها في الولايات المتحدة .

وكان العمل باليد ينزل بقدر الشخص إلى مستوى الرقيق (٢١) ولا يزال التحيز ضد العمل اليدوي قويا في إسبانيا . ولقد أثر الإسراف في منح ألقاب النبالة في العصور الوسطى ، وهي الألقاب التي تعني مستحقها المنتفعين بها من عار العمل البدني ، تأثيرا عميقا في تعليم واقتصاديات شعب يتصف بالزهو . وفي التعليم الفني كان التوكيد الزائد على الكتب أكثر منه على المعمل . وفي الاقتصاد سبب تفرقة في العمال وقسمهم إلى أغنام يدفع لهم الرواتب وما عز يتناولون الأجور . وإذا كان الشخص في مركز ليصدر الأوامر فإنه يتمتع عن أن يلبس عدة أو يدير آلة ما لم تكن إنسانا آليا أو آلة كبيرة يهتم بها الناس . وهكذا لا يحب الإسباني ذو الياقة البيضاء أو الأمريكي الإسباني أن يحمل حتى ربطة صغيرة أمام الناس . وكل هذا ينزع إلى اعتبار إسبانيا أرض الخادم ذي الزي الخاص الذي لا يعلم ، والذي من واجبه أن يريح الأشخاص من ذوى الحثية من الأعباء التي تقلل من حيثتهم .

وفي هذه البيئة التي تمجد الشخص نجد أن أى بخس يصيب الشخصية يعد إهانة عظيمة . فقوانين القذف والتشهير لها من الصرامة ما ليس لها في معظم البلاد الأخرى . فالتشهير العلني بشخصية لها سمعة طيبة ، فيما عدا أفراد الطبقة المتواضعة من المجتمع ، مجلبة للعقاب ، إما بواسطة القضاء ، وإما بالعقاب الشخصى . وعندما تكون الذنوب التي يرتكبها الشخص أو الجرائم التي يقرها شائعة وردية السمعة — أو ليس للشخص أية مكانة اجتماعية — فلا أحد يبقها سرا مكنوما من أجل الصالح العام . فالتنقد قد يجد له مخرجا في القيل والقال الذي يمكن أن يكون فيه من السم ومن هدم الأخلاق ، ما لا يوجد في جهة أخرى في العالم . فإذا أراد شخص تجنب مناسبات الذم أو السخرية فإنه يأخذ الحيلة لكيلا يضع نفسه في مواضع الشبهات أو الارتباك أمام الجمهور . فلا يسمح لخبر خاطف يحط من قدره أن ينشر في الصحف ، ويحاول دائما أن يكون على حذر ، وإلا فقد عرض جانب ضعف مكشوف للعالم جميعا . وهو يصر على السرية فيما يتعلق بحياته الخاصة ، ويثور غضبا لئى اعتداء على حدودها . وهكذا يقلل من نطاق ذاتيته المعرضة للتحقير أو الفضيحة . فالاعتداءات على الشئون الخاصة والحريات الأخرى للفرد ، والتي يتقبلها الأمريكيون بلا اكتراث أو استسلام لا حيلة لهم فيه ، قد لا يحتملها شخص منحدر من أصل إسباني .

ولنضرب مثالا لوجهة نظر إسبانية فريدة في مضمار تدوين المذكرات الشخصية . فعندما يدون الإسباني مذكراته فهي «تبرير» (\*) مدروس لما قام به من أعمال . ويشتم منها قليل من نقط الضعف الإنسانية الكامنة فيه . فهذه لا تسجل إلا بعد وفاته بوقت طويل من مراسلاته مع أصدقائه الحميمين ، كما أخفى فيليب الثاني حتى محاسنه عن العالم إلى أن مرت قرون

وعثر على خطاباتہ التي كان يرسلها إلى بناتہ وقشرت . وعلى الرغم من أن التجربة الغرامية بصفة عامة تعد هدفوة بسيطة في قصص أمريكا اللاتينية، فإن الأوصياء الرسميين الذين عنوا بالشهرة العظيمة التي لحقت ببوليفر والمهرة الذين ألهوه ذهبوا بعيداً إلى الحد الذي أعدموا فيه مراسلاته مع عشيقته مانويلا ساينث (٢٢) وعلى كل حال فقليل جداً من الأشخاص المنحدرين من أصل إسباني هم الذين كتبوا تراجم حياتهم في وقت من الأوقات .

وأخيراً ، وليس آخراً بآية حال ، نجد أن التأداب مظهر آخر من مظاهر الفردية الإسبانية . فآداب السلوك واجب الفارس . وهي جزء من دستور الرجل المہذب . كما أنها تكسبه مركزاً أعلى في نظره وفي نظر الآخرين الذين يفترض فيهم أن ينطبع عليهم في نفس الوقت الاحترام الذي تقابل به أشخاصهم . وتنزع الملاحظة إلى أن تكون شكلية ورسمية بين الأصدقاء الخيمين ، ولكن مع ذلك فهي أكثر إخلاصاً من التأداب في أية بلاد أخرى . ففي إسبانيا أصبحت الملاحظة عامة لدرجة أنها خلقت شعراً من الأشخاص المہذبين . وعادة ما تلتطف واجبات الفروسية ( \* ) من حدة المثيرات السكامة التي يسببها الزهو الإسباني في علاقات الناس بعضهم ببعض . فتحترم المشاعر ، كما لو أن شعباً نشيطاً يتصف أفرادہ بالأمانة والاستقامة نحو أنفسهم ونحو الغير ، يرتابون فيما تنبئ به شفاههم من ألفاظ . وهكذا يهون التعامل الاجتماعي بين الناس ويتجنب الناس انفجار الانفعالات . ولما كان قدر ضئيل من خشونة الطبع في جميع مستويات السكان فهناك قدر أقل من الأذى الذي لا مبرر له ، وقدر أكبر من الطيبة في معاملات الناس العادية بعضهم مع بعض .

## هوامش الفصل الثالث

(١) « تجمعت في أراضي إسبانيا نزحات جنسية كثيرة حتى يكاد يكون من المستحيل تحديد التركيب الإثنولوجي للشعب الإسباني » .

Richard F. Pattee, «Introduccion a la Civilizacion Hispano --- Americana» (Boston, 1945) P. 32.

(٢) يقول سلفادر دى ما دارياجا عن الأخلاق الإسبانية : « إنها جافة وإنسانية ، مستسمة وثائرة ، نشيطة ومتبلدة » .

«English, Frenchmen, Spaniards: An Essay in Comparative Psychology» (London, 1928), P. 43.

(٣) يطلق ماريانو بيكون — سالاس الفنتويل على تيرم الفاتحين أو « حنين الخطر » الذي ساقهم إلى الإفراط المنفجع في المغامرات ، في حالة كورتيس نفسه وهير ناندو دى سوتو وپندرو دى ألفارادو و ديجو دى أوردات وجنثالو بثارو وكثيرين غيرهم .

«A lo sanchesco del disfrute, se mezcla el quijotismo de la aventura permanente.» De la Conquista a la Independencia (Mexico, 1944), P. 46.

(٤) اقتبسها ولستون لشرشل في كتابه

«The Second World War.»

(٥) يطلق ما دارياجا على الإنجليزي « رجل العمل » ، وعلى الفرنسي « رجل المنطق » ويرى رافائيل ألتميرا المؤرخ الإسباني المشهور أن يسمى « العنف والتعصب والبالغة ... ثمرات الشهوة ... وهي من الميزات المميزة لشعبه » .

«A History of Spain, from the beginning to the Present Day.» tr. from the Spanish by Muna Lee (New York, 1949), P. 358.

(٦) من صفات [ الشعب الإسباني ] ... التخيل والبصيرة والبداهة والسماحة والذكاء الفطري والسيطرة وإدراك الحقيقة والقدرة على التصرف السريع بنشاط يكاد لا يعرف حدودا — Madariaga, «The Genius of Spain» P. 32

« عاشت إسبانيا كشعب لا هو بالحزين ولا هو بالرح ، تسيطر عليها فكرة الوفاق الدائى وطموح إلى الأبدية » —

Fernando de los Rios, «Spain in the Epoch of American Colonisation» in Griffin, ed., Concerning Latin American Culture (New York, 1940), P. 47.

(٧) كتب برو عن « رجال إسبانيا الصامتين المتحفظين »

George Borrow, «The Bible in Spain» (London, 1943). P. 55.

وكتب كاتين بازل هول ، وهو ضابط في البحرية البريطانية قضى فترة طويلة على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية خلال حروب الاستقلال ، كتب عن سلبية تصرف الإسبانين يقول : « الإسبانيون شعب بصير بالعواقب في كل شيء ما عدا السياسة . ولما كان خلفاؤهم يشتركون في نفس هسذه .

الروح المنيرة فليس من السهل في أى وقت من الأوقات أن تثيرهم إلى الحد الذى يعبرون فيه عن انفعالهم الشديد ا

«Extracts from a Journal Written on the Coasts of Chili, Peru and Mexico, in the Years 1820, 1821, 1822» (2 vols. Edinburgh, 1824), II, 8.

(٨) يذكر ما داراجا من بين العناصر الإقليمية في مركب أخلاق إسبانيا : « الشدة والجدية ونقص السباحة العجيب في الباسك، والثقافة الذهنية والذكاء السريع في مواطن كتالونيا وإحساس مواطن بلنسية بفصاحة القول وصفة الأسلوب اللاتين يمتاز بهما سكان البحر المتوسط، والتلقائية السمة وذات المغزى العميق أحياناً التي يمتاز بها الأندلسي، والإلهام الجاف، ولكنة متحمس، لدى القشتالي، والقوة التي جبلت عليها أراجون، وعذوبة غاليسيا الموسيقية، وتلك الفتنة الكلاسيكية التي تجمل من أستورياس مملكة تقف وحدها متميزة عن باقي ممالك إسبانيا » .  
«The Genius of Spain» (London, 1923), P. 71.

ويوضح أوليفرا مارتنس ، المؤرخ البرتغالي ، الاختلافات الإقليمية في الأخلاق الإسبانية هكذا : « مواطن كتالونيا المجد ، مواطن بلنسية المكتئب والملازم الجلوس المرتبط بأرضه مواطن غاليسيا العبور المتأثر ، مواطن أراجون النبيل المتفطرس في أعماله ، الباسك الشكس والنشيط الذى يزهو بوثاقه التي تقرر حقوقه ، مواطن قشتالة الوقور الكسول ، الأندلسي العجاج الخفيف الروح

«Historia de la Civilizacion Iberica» (tr. from the Portuguese, Madrid, n.d.), P. 21.

ويذكر فرانيسكو جارسيا كالديرون، العالم البيروى ، عن الاختلافات في الأعاط الإقليمية : « صلابة أستورياس ... انظام الأندلس التوقيعى ... انفعال استريجادوا .... جذب كتالونيا تماسك الباسك .

Latin America, its Rise and progress (London, 1915). P. 31.

(٩) لما كان الأندلسيون قد تفوقوا في عددهم على الرجال الذين قدموا من أى جزء آخر في إسبانيا في الفتح ، « فقد بدت هناك مسحة أندلسية واضحة في الحضارة الإسبانية في الأمريكيتين » — .

Charles E. Chapman, «Colonial Hispanic America : A History» (New York, 1933), P. 32.

(١٠) « إن روحها [ الإنسانية روح إسبانيا ] وتأثيرها الاجتماعي راسخان بقوتها وضعفهما كقوى متحركة في حياة نحو خمسين مليون أمريكى إسباني اليوم » .

Herbert Ingram Priestley, «The Coming of the White Man 1492 - 1848» (New York, 1929), P. 117.

(١١) « أتت إسبانيا إلى أمريكا في نزاهة وأعطت أمريكا كل ما كان لئليها من نظم سياسية وتنظيمات اجتماعية واقتصادية ومؤسسات ثقافية وفنون ودين »

Fernando de los Rios, «The action of Spain in America», in Griffin ed ; «Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 52.

« ومع أن المستعمرات الأمريكية أعلنت وكسبت استقلالها السياسى فإن اللغة والثقافة اللتين

ورثتهما من البلد الأم باقية لها كحيازة دأمة . وإذا قيست الإمبراطورية بمقاييس أخرى غير المقاييس السياسية والاقتصادية ، فإن أراضي أمريكا اللاتينية لا تزال جزءاً من الصورة ، وإن المجد الذي كسبته في استقرارها وتحضرها سيظل مرجعه دائماً إلى إسبانيا .

Roger B. Merriman, «The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New» (4 vols., New York, 1918 - 34), IV, 676.

« وتبقى جميعها [ جمهوريات أمريكا الإسبانية ] إسبانية من ناحية ... فهي أكثر قرباً الواحدة من الأخرى عن قرب السكان في أمريكا الشمالية من الانجليز وهي تشترك في المظاهر العامة الأخلاق والطباع الإسبانية حسب العبارات الرنانة ، سرعة التأثير التي نبذوا تجاه المودة أو الإساءة ، الإحساس بالوقار الشخصي ، الشجاعة الثابتة في الحرب وقوة الاحتمال والصبر . وفي وسط رجال التربية والفكر يبدو أساس السلوك الفكري والشعور بالقيم المعنوية واحداً ومتيناً » .

James Bryce, «South America : Observations and Impressions» (New York 1916), P. 445.

(١٢) يقول ماداريجا عن أعظم أربع شخصيات في الأدب الأوربي إن هاملت « حلم إلى حد زائد » وفاوست « فكرة إلى حد زائد » ولكن دون كيخوتي ودون خوان ريجلان « سيعيشان وينموان ما دام الرجال يتأثرون بحب العدالة أو حب النساء »  
«The Genius of Spain,» P. 15.

ويقول أونامونو عن دون كيخوتي : « أنت تسأل .. وماذا ترك دون كيخوتي؟ . إنه ترك نفسه ، ترك رجلاً ، رجلاً حياً وأبدياً ، يعدل كل النظريات وكل الفلسفات . ولقد ترك أناس آخرون نظماً وكتباً ، ولكننا تركنا نفوساً ، فسانت تيريزا تعدل أي نظام ، أي « نقد منطقي خالص » .

«The Tragic Sense of Life in Men and in Peoples» (London, 1931), P. 323.

وفي مكان آخر يقول أونامونو عن دون كيخوتي : « ربما كان من واجبنا أن نبعث عن بطل الفسك الإسباني لا في فيلسوف حقيقي من دم ولحم ، ولكن في تصويره في قصة ، رجلاً يعمل ، وله وجود حقيقي أكثر من جيم الفلاسفة

Ibid., P. 313

(١٣) « في إسبانيا لا يتفق شخص مع آخر ..

Rufino Blanco - Fombona.

«El Conquistador Espanol del Siglo XVI» (Madrid, 1922), P. 27.

وقال جورج سانتايانا ، وهو إسباني ، : « الإسباني شخص فردي ، وقد يكون ورعاً متصوفاً ... ولكن ، أجمعياً وخارجياً ، لا يثق في شيء أو في أحد حتى ولا في نفسه ولموكة (١٤) ماداريجا

«Englishmen, Frenchmen, Spaniards,» P. 135.

الإسباني واقفي إلى حد زائد حتى إنه لا يولي اهتماماً كثيراً بصوته الانتخابي ، وفردعه إلى حد زائد حتى إنه لا يرى أهمية في ضم صوته ليتعاون مع أصوات الآخرين P.166

(١٥) « فترة السبات الطويلة من الانانية والبلاهة التي انتابت تاريخنا طيلة الثلاثة القرون الأخيرة »

Ortega Y Gasset, «Inverteliate Spain» (New York 1937, P. 39

قال مانويل جالفيث ، الروائي الارحنتيني « إسبانيا مزينة في العالم الحديث لأنها على طرق تقيض مع مثلها ، وهي تعلم أن أساليبها ليست أساليب هذا العالم الجديد والقوى » . انتبس هذه العبارة :

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 154.

١٦) كتب لوبي دى فيجا وحده عددا من الروايات التمثيلية تعدل كل ما كتبه المؤلفون في عصر الإيزابث وجيمس الاول مجتمعين .

Somerset Maugham, «Don Fernando,» P. 150.

١٧) « لا يسب أحد الفقر أبدا أو يزدرجه ... وليس هناك شعب في العالم يظهر أفراده في الصلاتهم الاجتماعية شعورا أحق مما يلزم لتبجيل الطبيعة الإنسانية أو أكثر تفهما للسلك الذي يليق بشخص اتباعه نحو زملائه »

Borrow, op. cit., P. 139

« للإسبانيين الحق في ان يعدوا أنفسهم أكثر الشعوب ديمقراطية »  
Ellery Sedgwick, «The Paradox of Spain,» The Atlantic, September, 1952.

لاتزال إسبانيا أكثر البلاد ديمقراطية

Havelock Ellis, op. cit., P. 12

ولا كانت الفردية الإسبانية لاتتق بسطة الكهنوت . فقد خلقت نظما اجتماعية وديوقراطية . فالنقايد والمذاهب والعادات والقوانين دلت على شعور صحيح بالمساواة الإنسانية .... فالملك يرأس ديمقراطية من الفرسان والمتصوفين والمغامرين والأوغاد  
Francisco Gareca Calderon, op. cit., P. 37.

١٨) الزهو هو شهوتنا القومية . وأعظم ذنب نقترفه . وليس الإسبانى شرها كالفرنسى ولا ثملا وغيبا كالإنجليزى ، ولا شهوانيا ومسر حيا كالإيطالى ، فهو يزهو ويزهو إلى حد لانهاية له  
Ortega Y Gasset op. cit., P. 146

١٩) « يقال إن بين العار وانتقام المرء لإساءة لحقه بعدا شاسعا ، بل إن عدم الانتقام هو العار ، لأن الناس يرون أن من تلحقه إساءة لا يجدر به أن يظهر بينهم حتى ينتقم لنفسه »

«The Diary of Samuel Pepys (for the year A.D. 1667)  
Whaately edition, 10 vols., New York, 1942), VIII, 396.

٢٠) الإسبان عاجز بفطرته عن قبول الخدعة القائلة إن أحسن الأشياء في الحياة قد تشتري بالمال ، أو إن نزوة الانسان هي كثرة ما يمتلكه »

Haveloch Ellis, op. cit., P. 5

(٢١) يقتبس التاميرا من تعليقات الأجانب المعاصرين على العادات الاسبانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر : هم يرون أنه لا يليق بوقار الإصباتي أن يعمل ويدخل المستقبل والاسبانيون فقراء لأنهم مهملون وكسالى

«Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola» (٤ vols., Barcelona, 1913, 3d ed.), III 493

(٢٢) انظر  
Vlotor Wolfgang Von Hagen. «The Four Seasons of Ma nuela : A Biography» (New York, 1952)





## الفصل الرابع

# الفاتح

كتب برنال دياث دل كاستيو : « أنا فاتح حقيقى ، وأقدم الفاتحين قاطبة ، . وكتب كثير من الفاتحين عن أعمالهم والأشياء التى رأوها كما فعل المحارب العتيق كورتيس ، كتبوا بأمانة ، كالتى اتصفوا هم بها ، وبالقدر من الإخلاص الذى سمحت به انفعالاتهم .

وإذا كان الغرور والتفاخر قد تملك الفاتحين فى بعض الأحيان كما تملك برنال دياث فقد كان ذلك سهل الفهم . كتب الفاتح الهرم يقول : « حضرت مائة وتسع عشرة معركة واشتبا كى ، وليس أمراً شاذاً أن أمدح نفسى لأن ما أقوله هو حق صرف ، . فلا بد أنهم كانوا يشعرون بأنهم ليسوا أشخاصاً عاديين . وإن الأشياء التى رأوها لم تكن أشياء عادية . ثم أردف دياث يقول : « ثم اتجهنا إلى طريق المكسيك الذى كان غاصاً

بمجموع الاهالى ووصلنا الى عمر لاثنا بالابا الذى يودى الى العاصمة . وعندما شاهدنا عدد المدين الآهله فوق الماء وعلى الأرض الصلبة وذلك الممر العريض الممتد باستقامة واستواء الى المدينة لم نستطع أن نقارنه بشيء سوى بالمناظر الخلابه التى قرأنا عنها فى قصة البطل أماديس (\*) من الأبراج والمعابد العظيمة ، والمباني الأخرى المشيدة من الجير والحجارة ، والتى تبدو قائمة فوق صفحة الماء . وكان كثير منا يبدون فى شك : أنحن نيام أم أيقاظ ؟ وكذلك الحالة التى أعبر فيها عما تسكنه نفسى من الإعجاب ، لأن « .. المرء حتى الآن لم يشاهد أو يسمع أو يحلم بشيء يشبه المنظر الذى بدا لنا فى هذا اليوم » . ومن ذكرياته عن شعب الأزاتقة فى يوم مقابلة مونتسوما كتب يقول : « كل ما شاهدته فى تلك المناسبة مطبوع فى ذاكرتى بوضوح شديد حتى لكانه حدث بالأمس فقط » . أما جون فسكى فقد اطلق على أول نظرة إلى مدينة المكسيك من الممرين التلال : « أعظم لحظة خيالية فى جميع عصور التاريخ ، تلك اللحظة التى وقعت فيها عبون الأوربيين لأول مرة على مدينة العجائب » . وأما كورتيس فقد كان يفكر مليا فيما سيجى به الغد ، ولذلك فقد مر مروراً عابراً على تلك اللحظة فى سرده للحوادث . كتب يقول : « تتبع الإسبانيون الطريق حتى وصلوا إلى قمة الجبال التى يمر بينها الطريق ، ومن هناك شاهدوا سهول كولوا ومدينة تمشتيتان والبحيرات الواقعة فى تلك المقاطعة » .

وكانت العجائب فى بيرو عظيمة كما هى فى المكسيك . ولقد مشى أحد جنود بثارو لابسا درعه بين الأشجار والأزهار الذهبية والفضية فى حدائق الإنكا فى تومبيس . وبعد مسيرة يمكن أن تعد أكثر سفرة فى التاريخ على ظهور الخيل حملق هرناندودى سوتو وبسرودل باركو إلى « الثروة

---

• Amadis of Goul (\*)

اسم بطل عشر روايات كتبت فى القرون الوسطى باللغات الإسبانية والفرنسية والإنجليزية

التي لا يمكن تصديقها ، في كشكو قبل أن يجردها زملاؤهما من كنوزها .  
ولابد من أن المنظر كان مذهلا ، كما ذكر أوفيدو (١) ، عندما جاءت  
عصابات الإسبانيين المتجولة بفدية الإنكا وبالأوعية الذهبية والفضية من  
خوخا وباشا كاماك وأما كن أخرى ، وجعلوا منها كومة في كاناماركا .  
غير أن أوفيدو استقى روايته عن غيره ، فلم يكن هناك برنال ديات  
أو سيشا حاضرا بين الفاتحين الشرهين ليحكي عن هذه العجائب قبل صهرها  
إلى قضبان من الذهب والفضة . ويقول أوفيدو إنه بين تلك القطع كان  
هناك مقعد ذهبي ، لابد أن صاحبه كان نبلا عظيما ، وكان الماء ينساب  
منه إلى بحيرة صغيرة تسبح فوق سطحها الطيور . وحول النهر كان الرجال  
يسكون الماء . وأضاف قائلا : « إن كل ذلك كان مصنوعا من الذهب ،  
وهو شيء جدير حقا بالمشاهدة . »

وفي بعض الأحيان ألف الفاتحون كتابا — أو كتبها ، كما فعل برنال  
دياث وسيشادي ليون وأوفيدو المؤرخون . وبعضهم مثل كورتيس  
وقالديا كتبوا رسائل مطولة للملك أو لإمبراطور ، إذا جمعت هذه تعد  
كتبها من ناحية المادة أو التنسيق . ثم إن هناك آخرين كتبوا تقارير مطولة  
ومتقنة عن أعمالهم وملاحظاتهم ووجدت هذه التقارير طريقها أخيرا في  
سجلات الهند الغربية في إشبيلية . أما بالنسبة إلى أولئك الذين لم يستطيعوا  
الكتابة أو لم يجدوا أبدا فرصة للكتابة ، مثل بثارو ومن شا كله ، فقد  
ملئت لجوات القصة بواسطة كتبة الكنيسة مثل بيترمارتر ، ولاس  
كاساس ، وجنتاليت مارموليخو ، والآب سيمون ، الذين إما شاهدوا  
ولما سمعوا من سواهم عن الأشياء التي كتبوا عنها مع المؤرخين الرسميين  
مثل هيريرا ، أو متفرجى الصف الأمامي ورواة الأخبار الأصليين مثل  
جارسيلاسو الإنكا ، وبيجافتا من أهالي البندقية ، والذي انضم إلى ماجلان  
في سياحته . وعلى ذلك فإننا نستطيع القول بأننا نعرف عن حملة الفتح

وعن الذين اشتركوا فيها أكثر من معرفتنا عن أية سلسلة من المغامرات الحربية التي حدثت حتى ذلك الوقت أو ، إذا أخذنا في الاعتبار هذه الناحية ، حتى حروب نابليون .

واستقى بيتر مارتر ، الذي أرخ الفترة الأولى من الفتح ، قصصه كما فعل هاكلويت في لندن أيام إليزابيث ، من شفاه الفاتحين والمستكشفين عند عودتهم . يقول : « لم يقصر أحد من جاءوا إلى البلاط في إرضائي بأن يقدم إلى شفاها أو كتابة تقريراً عن كل شيء عمله » . وقال برنال دياث : « أنا أروى ما شاهدته عياناً ، لا تقارير تافهة أو تقولات » ، وكتب سيينا يقول : « لقد اهتممت اهتماماً كبيراً بالدقة في تأريخي ، وفيما كان يخص الإسبانيين تخيرت رجالاً حكماء كانوا صادقين لكي يستقوا المعلومات ويحصلوا على التقارير التي تدون عن الحوادث التي لم أشاهدها أنا بنفسى عياناً » . وقال أوفيدو : « أنا أروى ما رأيته » ، ويحتر استمتاع الجمهور بكتابات فيقول : « أمل أن يرضى القارئ عما رأيته وما لاقيته من أخطار كثيرة ، في حين يتمتع بما قد كتبت ويفيد ، دون أن يلحقه خطر ما ، فهو يستطيع القراءة دون أن يتحمل الجوع والظما والحر أو البرد وغير ذلك من صنوف الحرمان التي لا عداد لها ، ودون أن يترك مسقط رأسه ، ودون أن يغامر وسط العواصف في البحار ، أو مخاطراً بالنسكبات التي تصيب الناس على الأرض اليابسة . لقد ولدت لتسليته والترويح عن نفسه ، وفي تجوالي شاهدت هذه الأشياء » . وكتب هذا المؤرخ العجوز يقول : « لقد رأيته كولمبس أمير البحر الأول ومستكشف هذه الأرجاء ومعظم المستعمرين الأول ، وعرفت زعماء الرجال الذين جاءوا إلى هنا في تلك الأيام ، وأيضاً أولئك الذين أتوا منذ ذلك الوقت بمناصبهم الرفيعة ومسؤولياتهم » . وكتب جارسيلاسو الإنكاسما بذلك من مجهود ليدون مذكراته موضوعياً يقول : « إن الالتزامات التي يرتبط بها شخص يكتب عن

الحوادث التي تقع في حياته وعليه أن يرويه للعالم جميعه تضطرنى وتجبرنى على ان أدون الحقيقة عما حدث دون هوى أو مصلحة<sup>(٢)</sup> .

إن الموضوع الذى كتبوا عنه هو أعظم مغامرة إنسانية ؛ لأن الفتح كان عملا من الأعمال ذات الشأن العظيم ، ولأن الرجال الذين اشتركوا فيه كانوا رجالا كاملين . فلم يحدث ألبتة أن قامت العزيمة الإنسانية المحضنة والمقدرة الشخصية بعمل جسيم قام به عدد قليل مثلهم على مسرح شاسع . ولم يصف الفاتحون عالما جديدا إلى قشتالة وليون فقط ، بل إن كشفهم وانتصاراتهم سببت ثورة اقتصادية واجتماعية عالمية ، غيرت نمط الحياة جميعاً تغيراً جذرياً في أوروبا وفي ممتلكاتها فيما وراء البحار .

#### الموت والفاتحون

كان معدل الوفاة في فتح أمريكا مرتفعاً جداً ، فقد مات الآلاف من الجوع والمرض أو في معارك مع الهنود<sup>(٣)</sup> ، وتبدو الخسائر أكبر بالنسبة إلى الأعداد الصغيرة التي كانت تتألف منها القوات التي قامت بالحملات . ومن المرجح أنه في ثلاث مرات فقط في أثناء الفتح تجمع أكثر من ألف إسباني في مناسبة واحدة تحت قيادة مندوثا على نهر بلات ، وعند دخول جنتالو بثاروليا في سنة ١٥٤٤ ، واحتلال كورتس مدينة المكسيك نهائياً . وكان معدل الوفاة في حملة أوخيدا المبكرة إلى دارين ثمانين في المائة ، بل أكثر من ذلك في حملة نيكيسا . كما أباد الهنود كثيراً من القوات الإسبانية الصغيرة العدد . وفي « الليلة السكينة » ، فقد كورتيس أكثر من مائة وخمسين من رجاله ، وفيهم ضابط من أقدر ضباطه هو فيلا سكيث دى ليون . وعندما وصل خينيث دى كيسادا إلى هضبة كولومبيا بقي حياً مائة وستة وستون من رجاله فقط ، وكان عددهم تسعمائة رجل تقريباً حين بدأوا مسيرتهم .

من الساحل . وعندما أخلى مكان مستعمرة مندوثا في بوينس آيريس وصل أقل من ربع العدد الأصلي إلى المستعمرة الجديدة في أسونثيون<sup>(٤)</sup> . وطبقا لرواية جيرولامى بنتونى : « من أولئك الذين ذهبوا إلى بيرو مات ثمانون من كل مائة » .

ومن المحتمل أن تكون نفس النسبة العامة للناجين من الموت منطبقة على قادة الفتح فمن بين الذين قتلهم الهنود بدرو دى فالديا فاتح تشيلي ، وفرانسيسكو دى فياجرا أحد ضباطه ، وخوان دى أيولاس ، ودييجودى سوليس ، وخوان دى جاراي رواد أراضى نهر بلات ، وخوان دى لا كوسا الملاح المشهور ، وخوان بونسي دى ليون مستكشف فلوريدا ، وشريفه يمينى ، وصانع السلام فى بورتوريكو ، وانيوفيو دى شافيس الذى فتح سهول شرقى بوليفيا باسم إسبانيا ، وفرانسيسكو هيرنانديث دى كوردوبا مستكشف يوكاتان وقبائل المايا ، وخوان أصغر آل بشارو . ومن بين الذين أعدمهم زملاؤهم الإسبانىون فاسكو نوئيث دى باليو ، وكريستوبال دى أوليد الذى فر من كورتيس فى أمريكا الوسطى ، ودييجودى الماجرو وابنه ، وبلاسكو نوئيث فيلا أول نائب للملك فى بيرو ، والثوار الذين شقوا عصا الطاعة على السلطة الملكية فى بيرو — جنثالو بشارو وفرانسيسكو كاربخال ورد ريجو أوجونيث وفرانسيسكو هرنانديث جيرون .

واغتيل فرانسيسكو بشارو وأخوه غير الشقيق بدرو السكاتارا ورد ريجو دى باستيداس من أوائل الفاتحين للجهات الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية (الأرض الصلبة)<sup>(٥)</sup> . وخورجى روبليدو أحد فاتحي كولومبيا ، ومن حكام بيرو ، ويظن أنهم ماتوا بسم من أعدائهم ، ودييجوسنتينو ، ودييجو دى الفارادو ، وكذلك ديجو دى أوردات ، وهو أحد ضباط

adelantado (\*)

Tierra Firme (\*\*)

كورتيس ، بعد عودته من الغارة المشتومة التي شنها في الاراضى الواقعة خلف نهر أورينوكو . ومن فقدوا في البحر في مياه العالم الجديد ، وغيرهما كثيرون ، ديبجونيكيسا والمنحوس بانفيلوا دى نارفايث . وصعق البرق هرنان بيريندى كيسادا أخا فاتح كولومبيا . أما بدرو دى ألفارادو ، الفاتح الخالد ، فقد ظل يقصعه حصان حتى مات . ومات البعض منهم منهوكى القوى من صنوف الإجهاد والحرقان مثل سبامتيان بنالكاثار فاتح إقليم كيتو ، وهرناندو دى سوتو وجنتالو ساند وقال ضابط كورتيس المحظوظ .

ومن العجيب أن يبقى حيا العدد الكبير الذى نجما مع المجازفات التي تعرضوا لها . ومنهم كورتيس العظيم ، ولو أنه مات قبل الأوان لشخص في نشاطه الجسمي . أما خمينيث دى كيسادا فقد مات من الجذام في البلاد التي فتحها بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاما . وقليل جدا نجوا من لعنة بيرو ، من بينهم ألونسو دى ألفارادو ولورنثو دى الدانا وجارسيلاسو دى لافيخا ، أبو مؤرخ الإنسكا . وأما هرناندو بنارو ، وهو أصغر خمسة إخوة فقد قضى فترة تقاعده مسجوناً في قلعة في إسبانيا حيث لم يستطع أعداؤه النيل منه . وعاش حتى بلغ سن نضج الشيخوخة ، أربعا ومائة سنة . ويحكى الأب فاسكيث دى أسينوثا عن أحد فاتحي فنشويلا ، وهو ديميغو دى هنارس لوثانا ، وقد مات في سن الخامسة عشرة بعد المائة تعلوه السنون وألقاب الشرف . ومن أعظم الفاتحين تحملا المحارب فرانسيسكو دى أجيرى الذى مات في سن تتراوح بين الثالثة والسبعين والحادية والثمانين بعد حياة طويلة هي في الواقع جيش فاتح يقوده رجل واحد . ومن مائة وعشرة ذهبوا إلى تشيلي مع فالديفا عمر واحد إلى ما بعد المائة ، وستة بين ثمانين وتسعين سنة ، وتسعة عشرين سبعين وثمانين ، وثلاثة وعشرين بين الستين والسبعين . وبعبارة أخرى عاش نصفهم تقريبا إلى سن الستين على الأقل ، وهو رقم قياسى غير عادى لاول العمر إذا أخذنا في الاعتبار الاخطار غير العادية

التي استلزمها الحرب مع التيبالي. وعاد بدرارياس دافيل، وهو العبقري الشرير الذي فتح منطقة البرزخ وكان قد تقدمت به السنون، إلى إسبانيا ليطول عمره عن أعمار ألف وخمسمائة كانوا رافقوه إلى دارين، وليموت في سن التسعين وعاش دومنجو مارتينيث دي إيرا، مؤسس باراجواي، ومن أكفأ الفاتحين في الإدارة في مستعمرته الإسبانية رئيساً بين شعبه المختلط وواحداً من آباء الشعب، بما في هذه العبارة من معنى حقيقي. وشخص آخر فاق معظم رفقاءه ومعاصريه في طول العمر هو الرواق والشجاع الطائش (\*) ألفارونو نيت كايثا دي فاكا أحد رجال الفتح غير العاديين، وكان منافساً لفترة ما لمارتينيث دي إيرا في السيطرة على مستعمرة باراجواي (٦)

ويروي أوفيدو عن أحد فاتحي فنشويلا الذي توقف عن الحروب اللانهائية مع السكاريب بريجة هنية من أرملة ثرية في هسبانيولا. يقول أوفيدو: «ولما أدرك مخزيات العالم، وأنهكه الكفاح والعمل بلا جدوى، وإذ رغب في أن يفيد مما بقي من عمره من سنين فقد صمم على الزواج»، ولذا «فقد وهب الرب هذا المحارب المصنئ صحبة امرأة طيبة توافق سنه». وأردف باعتبار آخر قال إنها كانت تملك «مقومات الأكل ومنزلاً مناسباً وستة آلاف رأس من الماشية وأرضاً واسعة». وهنا وجد «السلامة والأمن اللذين طالما افتقدتهما كجندي يبحث عن كنوز الميتا الأسطورية».

وكثير من جنود الفتح، وكانوا أسعد حظاً من معظم قادتهم، استقروا مع ذكرباتهم في الأرض الموثقة (\*\*) جزاء ما أدوا من خدمات، أو في بلد من البلاد الخاملة الذكر. وفي هذه الأماكن، كانوا يقصون على أحفادهم القصص اللانهائية عن الحروب التي خاضوا غمارها عندما يأتي المساء في صحن الدار أو الميدان، وكانت قصصهم تطول كلما تطاول بهم العمر.

(\*) نسبة إلى دون كيخوت المشهور.

(\*\*) encomienda



ومن هؤلاء برنال دياث الذى خلد اسمه فى الرابعة والثمانين بإصدار كتابه « القصة الحقيقية لفتح إسبانيا الجديدة » ، وهى أعظم قصة كتبها جندى فى تاريخ الحرب . وقد كان فى ذلك الوقت عضواً بمجلس شورى (\*) أو مستشاراً فى مدينة جوانيالا يعيش وسط مجموعة كبيرة من نسله يعنى بهم من أملاكه المتواضعة . وكان ينبغى حظه ، شأنه فى ذلك شأن كل محارب عظيم ، وكتب يقول : « بقى حيا من رفقاء كورتيس خمسة فقط ، ونحن الآن طاعنون فى السن ، واحددت ظهورنا من العاهات وأصبحنا فقراء جداً ، ولنا أبناء كثير ، علينا أن نعوّلمهم ، وبنات علينا أن نزوجهن ، وأحفاد نرعاهم ، ودخول صغيرة لنقوم بهذه الأعباء ، وهكذا نقضى بقية أيامنا فى ألم وكد وغم » .

ويروى برنال دياث مصير بعض من رفاقه فى الحرب : ثلاثة فقط أثروا فوق المستوى العادى ، منهم خوان دل اسبنار الذى أصبح « رجلاً غنياً جداً » ، و « عاد » كل من خوان جوميث وواحد من أسرة فيالوبوس « إلى قشالة بعد أن جمعا ثروة كبيرة » . ومن ناحية أخرى خمسة من أصابهم بعض الثراء تنازلوا عن ثرواتهم ليحيوا حياة دينية ، واثنان أدارا فندقين فى الطريق بين فيرا كروث ومدينة المكسيك ، وهو عمل كان لاشك مربحاً فى تلك الأيام . أما جيسبار دياث ، وهو واحد من المحاربين المحنكين ، فقد وهب ثروته وصار ناسكاً مشهوراً ومقدساً فى غابات جواشوسنجوالصنوبرية ، وواحد من أسرة إسكالانتى « وهو جندى كفء ذو مزاج مرح » انضم إلى المذهب اليسوعى ثم عاد جندياً ولكنه أمضى أيامه الأخيرة راهباً . ويذكر برنال دياث فى مجمل حديثه سبعة من بطائنه القديمة أصبحوا كهنة .

وفى إسبانيا الجديدة كان توفيق المحاربين القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لمطالب حياة السلم أسهل كثيراً عما كانت الحال عليه فى ييرو ، حيث كانت الحروب المدنية الطويلة بين الحكام تنزع إلى أن تكسب الجنود وحشية وأن

تجعل الكثيرين منهم غير صالحين للحياة المدنية . وعلى أحسن افتراض أصبحوا لا يتقنون شيئاً و « لاحيلة لهم » ، أو على أسوأ تقدير أصبحوا عرايب و مشاغبين مزمنين يزعمون باستمرار قواعد الأمن الذى كانت حكومة نائب الملك تحاول فرضه على البلاد المضطربة . هؤلاء كانوا الرجال الأشقياء ، الذين اتخذوا مقامهم على الحدود الجديدة والذين كانت السلطات المنزعجة تحاصرهم أحياناً وتنظمهم جماعات يرسلونهم فى مطلب محال إلى أعماق الغاية فيما وراء الجبال بحثاً عن مدينة ذهبية ما حتى يتخلصوا منهم نهائياً . وأشهر هؤلاء المهوورين لوبى دى أجيرى « ذو العينين الشبيهتين بعينى الحية المجلجلة » ، وحياته الإجرامية المخجلة فى الأرجاء الداخلية لأمريكا الجنوبية تعد إحدى أساطير القارة الخالدة .

#### الهندي الاسباني

أقلية فقط ممن اشتركوا فى الفتح كان لهم سابق تجربة باستخدام الأسلحة ، ولو أن قلة مثل فالديا وكارباخال كانوا محاربين قدامى فى حروب آل أراجون الإيطالية . ومن أقوام شكيمه فرانسيسكو بشارو ، وكان راعى خنازير ، وخميسيث دى كيسادا فاتح كولومبيا ، وكان رجل قوانين ومحاكم . وكان بالبوشابا خليعاً جذاباً فى بلاط أحد نبلاء الأرياف . وهكذا كان الجنود العاديون . ومن رفقاء برنال دياس كان يوجد « رجال أعمال » ، وكان فى الوقت نفسه مدرس كمان ورقص و « بهلوانا » . وكان للتاريخ الشخصى علاقة ضئيلة بمركزهم فى صفوف الفاتحين . وقليل جداً منهم انحدروا من أسر ذات تقاليد حربية مثل جارسيا دى باريدس ، وهو الابن الشرعى لقائد مشهور فى الحملات الإيطالية . وقليل كان لهم حتى صلة بعيدة بأسر العظماء (\*) إذا استثنينا بونسى دى ليون وبدر دى مندونا . ومعظمهم كانوا لاشئ ، بل كانوا أناساً لم يسجل لهم ماض . وعلى أحسن افتراض

كانوا نفرا بجهولين من سادة الأرياف ، لا يعرفون خارج المنطقة التي ولدوا فيها . ومعظمهم مثل فالديا وبدرودي الفارادو لم يعرفوا حتى محل ميلادهم . أما الماجرو وبنالكاثارفكانا بجهولي الاسم ، وكانا يعرفان بالاسم المحلى لبلديهما . وقال برنال دياث إن معظم رفقائه كانوا من أشراف إسبانيا (\*) ولكن الأشراف كانوا لا يساؤون شيئاً (\*\* ) فى إسبانيا فى أواخر القرون الوسطى .

والحقيقة الهامة أنهم كانوا إسباني القرن السادس عشر ، ولذلك فقد كانوا مادة محاربة فائقة . وإذا تركنا جانبا الصفات التي ميزتهم كإسبانيين ، فقد كانوا ، كإسبانيين ، الحصيلة النهائية لقرون قضوها استعداداً لمجهود جماعى عظيم أملتته الإرادة الإنسانية . وطوال عصور عدة قاتل أهالى قشتالة أهالى أراجون وحارب كل منهما الآخر أو حاربوا المسلمين . ولم تسكن فترات السلام طويلة ألينة لدرجة تكفى لتهدئة الأعصاب المتوترة التي كتب عليها القتال . ثم تآلفت الظروف فى أواخر القرن الخامس عشر وتنتج عن هذا التآلف أن تهباً الوضع وحلت المناسبة للبعامة الكبرى التي هيء لها من قبل كل شيء آخر . واتحدت قوى المملكتين بزواج فرديناند وإيزابلا وطرد العرب من آخر معقل لهم فى شبه الجزيرة . وأرهفت حروب فرديناند الإيطالية سيف إسبانيا وعبأت عقليتها للتحدى الذي كان قادماً ، وكشف ملاح من جنوفا فى خدمة قشتالة أرضاً بكرأ مهيأة للاستيلاء .

وعلى الرغم من أن كتالونيا قدر لها أن تقوم بدور صغير فى فتح العالم الجديد فإن الأعمال الأسطورية التي قامت بها «الجماعات الحرة» من كتالونيا

Hidalgos (\*)

(\*\*) ( maravides ) نسبة إلى عملة نحاسية قديمة ( القرنان الحادى عشر والثانى

عشر ) ذات قيمة تافهة .

(\*\*\*) جنوة .

في الشرق الأدنى كانت خيوطاً لامعة في قماش إسبانيا الحربى ، ورسمت مغامرات روجير دى فلور وبيرنجير وروكافور صورة خادعة للحقيقة في قصص الفروسية التي كانت القراءة المفضلة للفاحين . وبعد ذلك بفترة طويلة شنت أراجون الحرب على صقلية و نابولى وأكملتها في شمال إيطاليا بقيادة الإمبراطور شارل ، وهى حروب متصلة اتصالاً وثيقاً بمجرى الفتوحات في الأمريكتين ولقد كانت هذه الحملات، وخصوصاً الانتصار على الفرنسيين في رافينا ، هى التي جعلت لإسبانيا هيبة حربية عظيمة في غرب أوروبا . ومنها أيضاً بزغ نجم جنسالفو دى كوردوبا «الكابتن العظيم» الذى أحدث انقلاباً في فنون الحركات الحربية وتنظيمات الجيوش الإسبانية . ومن هذه الحروب نشأ جيش جديد كان يعد ليصبح الأداة التي ينفذ بها ملوك هابسبورج خططهم في القارة . وكان أساس هذا التنظيم الحربى الجديد هو «الوحدة الحربية» (\*) وهى الضم المحكم لمختلف الأسلحة في وحدة قتال فردية كان مفروضاً فيها أن تكون في مرتبة الفيلق المقدونى والفرقة الرومانية في تاريخ العمليات الحربية . وظلت «الوحدات» الجنديّة المخيفة مدة قرن من الزمان تجتاح غرب أوروبا حتى شنت الفرسان الفرنسيون شملهم في ركروا . وهؤلاء كانوا الرجال الذين يظهرون في «غابة الخراب» في اللوحة التي رسمها فيلاسكيث لاستسلام بريد ( ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ) وعندما شاهد الكاتب الفرنسى براننوم (\*\*) محاربى والوحدات الإيطالية وهى تتقدم نحو الشمال بدا له كأن أفرادها جميعاً من الضباط . كتب يقول : «كان يمكن للبرء أن يقول إنهم كانوا أمراء ، وكان سلوكهم في زهو وخيلاء وحركة رشيقة جداً» .

وكانت سلالة الفاتحين من نفس هذه السلالة المتعجرفة المتعازمة كذلك

tercio (\*)

Sieur de Brantome (\*\*)

التي تبعت ليفا والفا ، وبعضهم كان قد « اشترك في القتال في فلاندرز » - أو في إيطاليا ضمن تلك الفئة المختارة . ولكنهم حاربوا في عالم آخر وضد أعداء غرباء فاسدى العقيدة ، طريقة نزالهم أقرب إلى حرب العصابات الإسبانية الحقيقية منها إلى دقة « الوحدات » . وعلى ذلك فقد كانت معاركهم على الأرجح هي خلاصة الضربات والدفعات التي كان يقوم بها بضع مئات من « الأفراد » صمموا على إفناء أعدائهم .

ويجسم الفاتحون بدرجة فائقة عبقرية إسبانيا الخاصة . ففي فرديتهم الطافرة ربما استطاعوا أن يكونوا لا نظاميين إلى حد الفوضى ، كما كانوا في بيرو في معظم الأوقات ، حيث أدى تصادم العزائم الحديدية النائرة إلى حرب أهلية (٧) . ولم يستطع أحد سوى زعيم في مستوى كورتيس أن يروض لفترة طويلة نفوسهم المملوءة بالزهو والضاوة . وإنه لما يستحق الإشادة بمستوى الزعامة الفائق ، بصفة عامة ، بين حكام الأقاليم (\*) أن الفتح أنتج هذا العدد الكبير من الزعماء مثل بالبو ، والماجرو ، وفالديا ، ومارتينيث دى إيرالا ، وخمينيث دى كيسادا ، وسوتو الذين استطاعوا أن يلهموا إخلاص أتباعهم في تلك الظروف الشاقة . فعندما طلب رجال كيسادا منه أن يعود راجعاً إلى الساحل أخبرهم أن « مثل هذا الوهن لا يسمح به الإسبانئون » . وعلى الرغم من استقلال الفاتحين فإن جانباً من جوانب أخلاقهم المتناقضة كان إخلاصهم الذي لا شك فيه للحاكم ؛ إخلاص الإسبانين السكيخونى في العالم الجديد ، حتى لملك أبعدما يكون استحقاقاً له ، وجاحد إلى أقصى حد ، إخلاصاً استمر ثابتاً حتى النهاية المريرة التي آل إليها العهد الاستعماري .

ولا ترجع صفة الفتح البطولية إلى ضخامة المشهد والأخطار فقط ، بل إلى البسالة الأسطورية للجاعات الصغيرة من الأبطال الذين ثلوا عروش أمم عظيمة ومحاربة . وكانوا يحتقرون الأخطار احتقاراً كلياً ، كما حدث عند أوتما وكاخاماركا وفي المعارك ضد الأروكاريان . وأظهروا استهتاراً

طائشا للأخطار التي لم يستطيعوا رؤيتها ، وتوغلوا برعونة دون حساب للتبعات في الجبال والأدغال حيث يمكن بسهولة إيقاعهم في كمين أو إبادتهم وعندما أجبروا على الاستسلام تحت ضغط الكثرة العددية ، ليس إلا ، فإنهم لم يخضعوا مطلقاً للعلع . وكانت أجسامهم مهيأة تهيئة صالحة لتجارب الفتح وإجهاداته بأسلوب معيشتهم المتكشف الذي تعودوه جنسهم . وكان جلد الجندي الإسباني وتحمله يدهشان أعداءهم الهنود الذين تعودوا المعيشة في بيئتهم .

وكانوا متحمسين لعقيدتهم ، ويبتهجون عند تدمير الأصنام الوثنية التي تمثل الرموز المرئي للسلطان الذي يفرضه الشيطان على أعدائهم . وكان ينقصهم بطبيعة الحال شعور بالقيم الأركيولوجية المستقبلية . وفي حروبهم الصليبية ضد الكفرة لم يعودوا يحترمون المعابد المهيبة المخصصة للعبادة الرسمية في شولولا والمكسيك ، وفي كشكو وباشاكاماك ، كما لم يحترموا المزارات المتواضعة على جانبي الطرق والتي كان يقصدها العامة من الناس . وكان يشاركهم في حملاتهم قساوسة يماثلونهم في الشجاعة مثل الأب ألميدو الذي كان في جيش كورتيس ، يشاركونهم في مصاعبهم ويؤدون لهم احتياجاتهم الدينية وعندما كان أحد الجنود يأخذ امرأة هندية محظية له ، فسرعان ما كان القس يدخلها في المجتمع المسيحي ويطلق عليها اسماً مسيحياً مألوفاً .

وكان المؤرخون من الجنود يكشفون عن صفات السلالة التي انحدروا منها والظروف التي حاربوا وعاشوا فيها . كتب سيثا دي ليون يقول : « أما بالنسبة إلى المصاعب والجوع الذي واجهوه فلا تستطيع أمة أخرى في العالم أن تتحمله . وقد بلغت جرأة الإسبانين درجة عظيمة إلى حد أن لا شيء في العالم يخيفهم » . كتب سيثا ذلك دون تفاخر ثم أضاف : « لا يوجد شعب آخر يستطيع التوغل في مثل هذه الأراضي الوعرة ، ومثل هذه الغابات السكتة ، ومثل هذه الجبال العظيمة ، والصحراوات ، وفوق هذه الأنهار العريضة ،

كما فعل الإسبانيون دون مساعدة من الغير، بل بشجاعتهم الشخصية وبمراستهم الذى اتصفت به سالانهم ليس إلا . ففى فترة سبعين عاما غلبوا وفتحوا عالما آخر دون أن يأخذوا معهم عربات للهن أو مخزنا للحقائب أو خياما يستريحون فيها أو أى شىء ماعدا سيفا ودرعا وحقيبة صغيرة يحملون فيها الطعام . وكتب أوفيدو : « لقد منح الله إسبانيا فرسانا شجعانا كثيرين وأشرافا لامعين ، وجعل أهلها على مستوى عال من الشجاعة والعزم ومن الفطرة الحريية » .

وكانت الأخطار فى بعض الأحيان من الضخامة بحيث لا يستطيع الرجال تحملها . قال متكلم باسم إحدى الفرق التى توغلت فى الأراضى الخلفية فى فنزويلا مخاطبا قائده : « نحن لا نريد ذهبا ، بل نحن نموت هنا . خذنا بعيدا عن هذه الأرض الملعونة ، ولو أنك أردت أن تعود إلى هنا ثانية فاذهب بنا إلى كوروفقط حتى نسترجع صحتنا ونحضر ملابس جديدة وأسلحة ، لأننا مجردون من الملابس وفى حاجة إلى كل شىء . وياسيدى منعود معك بعتاد جديد وبفرصة أقرب إلى النجاح مما لو داومنا على المسير الآن ولذلك فعلى حالتنا هذه لسنا فى حاجة إلى ذهب أو أى شىء آخر ، اللهم إلا أرواحنا فقط ، ولا نريد أن نهلك أنفسنا دون هدف ، نحارب السماء ونتحدى المستحيل (٨) » .

#### القصة السوداء

لم ينقطع اتهام الإسبانيين منذ الفتح بال جرائم المروعة التى ارتكبوها فى حق سكان العالم الجديد الأصليين . وهذه « القصة السوداء » التى تحكى القسوة الإسبانية نشأت مبكرة جداً فى المبالغة الدعاية المنسوبة للاس كاساس المشهور الذى ناصر قضية الهنود ضد طغيان حكامهم . ولما كان كتابه « تدمير الهنود » (\*) قد أمد الأحقاد التى كان يضمها لإسبانيا جميع

حسادها بموضوع مناسب ، كان هناك تهافت على ترجمته إلى لغات أوروبية أخرى . وكانت النتيجة أن تلك الأمم ، التي لم يكن لديها هي هنود لتظلمهم ، استطاعت أن تشيد بما هي عليه من التهذيب والاستقامة على حساب الإسبانيين . وأصبح هذا التواتر اللعين مؤكداً كالأسطورة التي أوحى بها سوتون (\*) يقول فيها : إن الدعارة التي عمت الإمبراطورية الرومانية مسئولة عن سقوطها . وفي عصرنا هذا نجد باقية للأجيال القادمة في لوحات ديجور ريفيرا .

وليس هناك شعب احتكر لنفسه القسوة أو احتكر الرحمة في القرن السادس عشر . وعلى الرغم من نواهي المسيحية والكرامة الجديدة التي أكتسبتها النهضة لشخصية الإنسان الفرد ، فقد كان العصر عصراً خشناً عديم الرأفة . فتحت المسحة الجديدة التي جاءت بها المدنية الغربية كان لا يزال هناك كثير من القسوة والوحشية كاللتين ظهرتا فيما بعد في الحروب الدينية في أوروبا . وحدث أن الإسبانيين والبرتغاليين كانوا أول أوروبيين يلقى بهم للاتصال بالجناس الأدنى ، ومن المرجح أنهم عاملوهم بإنسانية كما يفعل أي شعب أوروبي آخر في نفس الظروف . وعلى ما كان بينهم من أحقاد متبادلة ربما كانوا قساة بعضهم نحو بعض ، كما كانوا في وقت ما نحو الهنود .

وفي أول موجة من موجات عصر الكشف اجتاحت الإسبانيون الجزر الكبرى في الأنтил . ولذا أضخوا واقعيين من ناحية الثروة التي ترقبوا العثور عليها ، ونظراً إلى غرائزهم في التلذذ بممارسة القسوة التي أثارها دماء الآلهة سلك كثير منهم مسلك رولدان القاسي . وعندما أخذ سكان هسبانيولا يتناقصون بسبب سوء المعاملة والمرض جىء بالعبيد من ساحل القارة لكي يسدوا الثغرات في القوة العاملة بالمستعمرة . وشاهد لاس كاساس — وهو نفسه مستعمر مدني — يستخدم العمال الهنود قبل أن ينقلب راهباً دومنيكانياً —



هذه المرحلة من الفتح ، واوحى إليه ماشاهده أن ينشر مقالاته الملتبهة ضد بنى وطنه من الإسبانين .

وعندما عمت هذه المرحلة من الفتح فوق القارة لاقى الإسبانىون مقاومة الأعداء الجمة من الهنود المحاربين الذين أجبروا الإسبانين على احترامهم بسبب صفاتهم المقاتلة . وفى عنف الحروب التى تلت غزو القارة لم يرحم أحد من الفريقين الفريق الآخر ، بل عامل أحدهما الآخر دون أدنى مراعاة لقواعد أو مبادئ الإنسانية أو العدل . وكانت وحشية الهنود تستلزم الرد بالمثل ، كما حدث فى كولومبيا ، أو عندما قُدم الأزانقة أسرى الحرب الإسبانين قربانا لإله الحرب أمام زملائهم . واختلف الفاتحون على ما بينهم من تباين اختلافا كثيرا بالنسبة إلى معاملتهم للهنود . فقد كان نونو دى جوثان الذى اجتاحت إقليم بانوكو فى شمال المكسيك سفاحا وصياد عبيد ، استدعاه الأسقف ثم مراجع ليحاسبه على ما اقترف من جرائم . أما كورتيس وقد أُلجأته الضرورة الحربية إلى القسوة فى أثناء اشتداد فترة الفتح ، فقد كسب بعد ذلك ثقة الشعوب الهندية فى المكسيك باعتداله .

وحدث مثل ذلك بالنسبة إلى بالبو . فبعد أن انتهت صرامة الأعمال العدائية الأولى حافظ على السلام فى جميع أرجاء إقليم دارين بمعاملته العادلة لمختلف زعماء القبائل فقط ليهدم بدرارياس دافيدا ما قام به من عمل . وعلى الرغم من أن الأرض الساحلية لأمريكا الجنوبية ظلت مدة طويلة وكراً فتاكاً لسهام السكايب المسمومة ، تصوب نحو أى إسباني يجرؤ على النزول إلى الساحل فإن بدرو دى هيريديا مؤسس كارتاخينا استطاع أن يوجد علاقات عمل مرضية مع الهنود المجاورين . وفى بيرو ، وبصفة خاصة فى الجهات الساحلية منها ، قامى الهنود كثيراً فى أثناء الفتح والحروب الأهلية التى صاحبها . وبعد كاخاماركا كانوا دائماً يتوقعون أسوأ معاملة من فرانسيسكو بثارو ، وقلبا خاب لهم رجاء . وكسب جنشالو شهرة

أكبر بكثير مع الهنود مما كسب أخوه ، أما الماجرو ، شريك بثارو ، فعرف كيف « يسلك طريقه » مع الهنود كما سلك مع رجاله (٩) .

وإذا كانت القسوة تغلب على الإسباني في وطيس الفتح فإنه ، بتوقف القتال ، وعندما يتحول الفاتح إلى مستعمر ، ينقلب مصير الهندي إلى تحسن بصفة عامة . فإذا استقر على أرض موثقة فإن الهنود الذين كانوا يعيشون على الأرض يصبحون « تبعاً » له . وكان يشعر ، بوصف كونه وليهم ، بأنه مسئول عن سعادتهم ، وكان يفضل أن يراهم سعداء في التغافهم حوله ، لأن سعادتهم كانت تزيده راحة بال وفي هذه العلاقة الجديدة كانت صفة العدالة والإنسانية المتأصلة لدى الإسباني تنزع إلى إثبات وجودها . وعلى الرغم من حدوث استثناءات فردية فإن دستور الوثيقة ، مع الضمانات التي وضعها القوانين الجديدة ، كانت على وجه الاحتمال إظهاراً مرضياً على قدر المستطاع للتوفيق بين مصالح الحاكم والمحكوم في ذلك العصر البعيد عن السكال (١٠) .

وعنما لحق بالهنود سوء معاملة كان الإسبانيون أول من يحتج ، سواء منهم رجال الدين والعلمانيون . ولأنه لما يذكر بالفخر لإسبانيا على الدوام أنه كان هناك قساوسة مثل موتسينوس ، ولاس كاساس ، والدومنيكان الأول ، والفرنسيسكان في المكسيك ، ورجال ضمن الفاتحين أنفسهم ، مثل سيليثا وأوفيدو وكابيثا دي فاكا يرفعون أصواتهم في جانب الهنود ، ولم تكن هناك أمة أخرى قد سنت دستوراً من القوانين لحماية رعاياها ، كما فعلت إسبانيا ومن بينها جميعاً لم يوجد شخص يحمل على عاتقه عبء المحافظة على القيم الخاصة بحضارة الأهل بالحكمة البالغة والإخلاص والإدراك في وجه أثر القوى الجديدة مثل : فاسكودي كيروجا أسقف ميشواكان ، وأحد تلامذة توماس مور . وتبقى الحقيقة الكبرى ، وهي أن معظم الناس في أكثر من نصف جمهوريات أمريكا اللاتينية لا يزال يجري في عروقهم الدم الهندي .

## البحث عن الذهب

كتب كثير عن لهفة الفاتحين الشديدة على الذهب ، كأن الشراهة رذيلة خاصة بالإسبانيين وحدهم . ولكن الغرض الأساسى للفتح لم يكن بهذه السهولة . وكان اقتصاد الفاتحين غير معقد . فإذا استثنينا بضعة من القواد ، نجد أن معظمهم كان لا يملك مالا ولا أرضاً . فإذا بدوا كأنهم يقدرّون لحيازة الذهب قيمة طاغية ، فلأن هذا المعدن كان يغطى كل مدرّكاتهم الأولية عن الثروة ، كما أن ثروة الهند الغربية كانت قد وعدتهم بالتخلص من الفقر الذى عانوه فترة طويلة . فلما رأوا الذهب يتدفق فى أيديهم — نصيباً لهم من غنائم الفتح — صرفوه بتمسّس مماثل للتمسّس الذى دفعهم من قبل إلى البحث عنه ، حتى إذا جاء الغد رأيتهم فى غالب الأحيان فقراء كما كانوا يوم أن غادروا إشبيلية (١١) . ولما آلت إليهم الثروة فجأة بسطوا أيديهم كل البسط ، وعندما قاموا بما نهبوه من كشكو قبل طلوع فجر اليوم التالى كانوا قد قاموا بالصور الذهبية من معبد الشمس ، كما لو كانوا يقامرون بريالات (\*) فى حانة على الطريق فى استريما دورا (١٢) . يقول سيثنا عن ازدياد الإسبانيين للنقود إذا حصلوا عليها : « إذا كانوا فى حاجة إلى أى شيء فإنهم لا يفكرون فيه ألبتة ، فقد اشترى الخنازير وهى فى بطن أمها قبل ولادتها بمائة بيسو وأكثر (\*\*) » .

وكثير من فاتحي بيرو أصبحوا أغنياء لفترة من الفترات ، غير أن قليلين عاشوا ليفيدوا من ثرائهم ، فالثروة كالحياة نفسها ، كانت ابنة يومها فى تلك البيئة . وقد مول الماسجرو حملته إلى تشيلي من نصيبه من غنيمة الإنكا الأصلية . وكان يعطى الذهب لكثير من أتباعه لئلا يستطيعوا تجهيز أنفسهم

(\*) real : عملة قديمة تساوى ربع بيسيتا .

(\*\*) peso : بيسيتا .

ثم لما وصلوا إلى وادى تشيلي ألغى كل التزام له عليهم في حركة غمطية خاصة به . وحمل سوتومعه الثروة التي نظم بها حملته الذهبية في الجزء الجنوبي مما هو الآن الولايات المتحدة . وحتى أولئك الذين كانوا من جشعهم يحسبون المكاسب مثل لويس دي لوجو ، من حكام نيو جرينادا (\*) الأوائل وقد كان قاطع طريق حقيقيا ، فلم يعمر ولا للتمتع بما جنوه من أموال في حياة طويلة . ولكن عندما قسمت غنيمة حملة فاديلو في كالي كان نصيب سيثيا الشاب خمسة بدسات ونصف يسو . « هكذا » ، قال سيثيا ، « كان الجزاء عن كشوف تمت بهذا العمل المظني » . وعلى طرف فقيض ، عندما قسمت فدية أتاها ليا أنصبة بين رجال بشارو في كاخاماركا تسلم كل جندي مترجل ٤٠ يسو من الذهب و ١٨١ ماركا من الفضة ، وضعف هذه المكافأة لكل من الفرسان . وقال برنال ديث إن جنود كورتيس العاديين كانوا غير قانعين بتوزيع كنز الأزاقة . وكتب عن « ذهب موتسو ما الذي وزع توزيعاً سيئاً واستخدم استخداماً أسوأ » ، « أخذ ضباطنا سلاسل من الذهب صاغها لهم صناع الملك . وصيغ لكورتيس مثل هذه الأشياء ، ومعها « طاقم » لأدوات المسائدة . وكثير من جنودنا الذين ملأوا جيوبهم جيداً فعلوا نفس الشيء ، واستمرت المقامرة نهاراً وليلاً . وهكذا أمضينا وقتنا في المكسيك ، وبعد الاستيلاء النهائي على عاصمة الأزاقة احتفل الجنود بالحادثة التاريخية في جمع كبير مشاغب في كويرسان . وكانت قد وصلت محاولة من النبيلدولم الخنزير من كوبا في الوقت المناسب للاحتفالات . وبينما اشتد المرح ، أقسم العامة من الجنود أنهم سوف يشترون خيلاً بطقوم ذهبية ، ورماة السهام ألا يستعملوا إلا السهام الذهبية ، وكان على الجميع أن يكونوا ذوى ثروات . وعندما أخلى المكان من النضد ، رقص الجنود وهم مرتدون الدروع مع السيدات ، مع العدد الموجود منهن ، ولكن التفاوت في العدد كان كبيراً

(\*) كولومبيا .

جداً ، . وقد خزى الأب الطيب القلب الميدو بما كان يحدث . وتبعته تقسيم الغنائم موجة من التضخم كما حدث في بيرو . وسرعان ما أصبح الجنود فقراء كما كانوا عند وصولهم إلى المكسيك من قبل . ولكي يخفف من حدة الموقف أعلن كورتيس تأجيل دفع الديون بين رجاله مدة سنتين (١٣) .

وكانت حاجة الفاتحين إلى القوة والتعبير عن شخصياتهم أكثر من حاجتهم إلى الذهب . فهما ميدان العمل المناسب لذواتهم الحمجية . وكانت إسبانيا جميعها في ثوران ، واجتاح البلاد من أقصاها إلى أقصاها تهرم شديد ، واحتاج الناس إلى ميدان أوسع لقائض نشاطهم من الميدان الذي كانوا يمارسون فيه أنواع النشاط المحلية البسيطة . وقد كان هناك ميل لأن يأتي اليوم شيئاً إلى درجة كبيرة بما كان عليه اليوم الآخر في باداخوس أو ميديين ، حيث كان الماضي يتحكم في الحاضر ، وحيث ضاع هنالك المستقبل ، وحيث كان الشباب يتوقون إلى المغامرة والتخلص من سأم الحياة ورتابتها في بلد ريفي كثيف ، ولذلك فقد نزحوا نحو الميناء في أشبيلية حيث كانوا يقلعون منها إلى الهند الغربية ، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم سيفهم ، متاعهم الوحيد ، فلربما حملتهم السفن إلى القوة والثراء ، ولكن دائماً إلى المغامرة والفروسية .

وكتب فرناندو دي لوس ريوس : « يمثل الفاتحون أروع نموذج معروف في عصر النهضة المضطرب للعزم على الوصول إلى القوة . ففي هذه الفترة تجسم في الفاتحين تمجيد الأفراد والثقة التي لاحد لها في قيمة كل ما يقوم به الإنسان من عمل والرغبة في الوصول إلى القوة والمجد . ولربما لم يحدث ألبتة في التاريخ من قبل أن كان هناك مشهد لقوة العزيمة ... الصلابة التي لاتصدق والتهور الذي به قاموا بأعظم الأعمال جرأة . وإذ وجدوا أنفسهم معزولين في وسط مجهول همجي ، ومعاد في أغلب الأحيان إلى درجة فظيعة ، نظروا بلا وجل إلى عيني أبي الهول ، إلى أفق المستقبل الصامت . وبدلاً من أن يشعروا بالخوف أحسوا بجاذبية السر الغامض ، ولذلك فقد مضوا في طريقهم ، فقد كان عندهم ثقة عمياء في قيمة قوة عزيمتهم في

والبطولة الطائشة، (٥) التي جسموها ، والمهمة السامية التي كانوا يشعرون أنهم يؤدونها ، غير واعين في بعض الأحيان (١٤) .

### مشروع الفتح

نظم الفتح ومول إلى حد كبير كما ينظم ويمول أى مشروع اقتصادى (١٥) وعلى الرغم من أن ملك إسبانيا كان شريكا فى الأرباح إلى مقدار الخمس من المشروع الكلى ، فقلما كان يسهم فى رأس المال الأساسى للمشروع . أما الاعتماد الأساسى فعادة ما كان يديره قائد الحملة الذى قد يودع كرهينة أية أموال يملكها أو يعطى الدائن حق الحجز أو السجن لأداء الدين . ولقد مون بدرو دى مندوثا حملته الكبيرة إلى نهر بلات بنصيبه فى سلب روما . وبتراكم روس الأموال فى كل خطوة لاحقة من خطوات الفتح ، أصبحت ، مصدرأ مستمرا للقيام بعمليات توسع أخرى وعلى ذلك أصبحت سانتودو منجو وكوبا والمكسيك فى الشمال ، وبنا وبيرو وتشيلي فى الجنوب على الترتيب ، مبادىن للتجنيد ومراكز لتوفير حملات إلى أراض جديدة . وسحب بدرو دى ألفارادو من أرباحه فى فتح المكسيك لتوفير فتح جواتيمالا ثم من أرباح هذا المشروع نظم جيشاً لينضم إلى فتح بيرو ، باعه بـ ١٠٠,٠٠٠ بيسو نقداً للقاتحين الذين كانوا فى الميدان . وكان فتح بيرو قد جمعت له الأموال المحلية فى منطقة البرزخ قام بتديرها القس لوكى وهو شريك موص للماجرو وبثارو . وفى وقت لاحق استغل هرناندو دى سوتو ، وكان مساهما كبيراً فى الشركة البيروفية ، فوائد رأسمالية ليدفع نفقات حملته على الأراضى القارية لأمريكا الشمالية ، كما فعل بترودى فالديا فى فتح تشيلي .

وكان من المقرر أن الظروف التى تتم فيها كل حملة من حملات الفتح تدون فى وثيقة رسمية أسما «معاهدة تسليم» (\*\*) وكانت هذه تصريحاً بالفتح

- 
- eroici furori (\*)
  - Capitulation (\*\*)

ولكن ليست ترخيصاً لاصطياد الهنود فقد كان الملك يؤكد دائماً لأصحاب التراخيص ضرورة معاملة السكان الأصليين بالروح المسيحية . وكان تجنيد وتجهيز القوة التي تتكون منها الحملة مسئولية يقع عبؤها على الحاكم وحده ، ويعين القائد عادة بالاسم في العقد . وبينما احتوى عقد التسليم ، على النص المألوف بتخلي الملك عن أية تبعات يستلزمها مشروع الفتح ، فقد أوضح أن الملك يتوقع الخس من أية أموال تأتي من جانب الإيرادات في المغامرة . وحددت كذلك ، بغموض شديد ، المساحة التي كان من المقرر أن تعمل الحملة في أرجائها . والغموض الذي حاق بهذه النقطة ، وكان لامر منه نظراً إلى الجمل بجغرافية القارة في ذلك الوقت ، كان السبب في السخط الذي نشأ وأدى إلى الانشقاق بين الماجرو وبثارو ، والذي عجل بمأساة الحروب الأهلية في ييرو . وكانت ألقاب الشرف تمنح بتقدير شديد ، وعادة ما كان منحها على سبيل المكافأة أكثر منه على سبيل الإغراء . وفي هذه الناحية ، على الأقل ، كان كولمبس أكثر المستكشفين والفتاحين الذين أصابهم منح الألقاب . فهو لم يرق إلى درجة أميرال البحر — المحيط فقط ، ولكن أيضاً إلى درجة دوق فيراجوا ، وهو لقب لا يزال يحمله خلفه من أشرف إسبانيا وكان ابنه ديجو أول نائب الملك في الهند الغربية . وأنعم على كل من كورتيس وفرانسيسكو بثارو بلقب الإمارة (\*) . أما خيبيث دي كيسادا فقد منح لقباً طنانا ، ولكنه فارغ ، لقب مارشال ملكة نيوجرانادا . وأشبع غرور الآخرين ببراءة الفروسية في نظام من النظم الحربية . ومنح البعض شعار النبالة ، وكان تمجيدها كافياً لإشباع زهو أى شخص في حالات بضعة رجال مثل سباستيان إلكانو ، أول من طاف حول الكرة الأرضية ، ودييجو منديث أحد ملاحى كولومبس الشجعان (١٦) .

وبعد أن وصلت إلى إسبانيا أول أخبار عن فتح المكسيك كانت هناك

• marquise (\*)

مشكلات قليلة بالنسبة إلى تجنيد المتطوعين . ذلك لأن حانات إشييلية كانت تغص عادة بالشباب المختالين ، يتوق كل منهم إلى رتبة من صفوف كورتيس ما جديد . ولقد جند كورتيس قوته هو في كوبا من أولئك الذين كانوا قد عادوا مثله إلى الحياة المدنية في المستعمرة الجديدة . وكان من المقرر أن كثيرين ممن تبعوه إلى المكسيك يشتركون فيما بعد في فتح بيرو ، وحتى في أراض أبعد مسافة . غير أنه في ذلك الوقت كان يفد إلى الهند الغربية من شبه الجزيرة سيل من المتطوعين الجدد .

ولقد كان فتح العالم الجديد من عمل قشتالة . أما الام ذات الخطوة التي أنجبت الفاتحين فهي مقاطعة إستريمدورا في قشتالة ، وهي تقع على جانب المملكة متاخمة للبرتغال (١٧) . ومن بين الفاتحين العظام كان كورتيس ، وبثارو ، وفالديا . والمحاربون ألفارادو ، وبالبو ، وسوتو ، من مواطني إستريمدورا . وكذلك كان ساندوفال وأوريانا ، وأيضاً من الضباط الآخرين في فتح بيرو سنتينو ، وهينوخوسا ، وجارسيلاسودى لافيغا ، وجوميث دى تورديا ، وبيرالفاريث هولجين . وأخيراً ، وليس بأية حال آخر ، من بينهم كان برنال دياث من مدينا دل كامبو ، مصدر كثير من الفاتحين . ومن جهات أخرى في قشتالة جاء أوكيدا ، وموتنخينو ، ونارفايث وفاسكيس دى كورونادو ، وفيلاسكيث دى ليون ، وجيل جنثاليث دافيلا . أما خميفيث دى كيسادا فكان من جرينادا ، وأما كايثادى فاكافن خيريث دى لا فريتيرا . وكان مارتينيث دى ايرالا وخوان دى جاراى من الباسك . واشترك بضعة من الباسك والبرتغاليين في معظم الحملات . فقد كان هناك بضعة من البرتغاليين بين الفاتحين الحقيقيين للمكسيك رجال شجعان ، كما وصفهم برنال دياث . وكما كان مرتقبا كان العنصر الغالب بين الجنود العاديين أندلسيين من إشييلية ومن بلاد أخرى في وادى الوادى الكبير .



وبالإضافة إلى « رئيس المعسكر » و« الضباط » والجنود المسلحين العاديين الذين كانوا عماد كل جماعة ، كانت الجهود تبذل عادة لتجنيد بضعة أشخاص من الأخصائيين الذين كانت خدماتهم ذات منفعة خاصة للحملة . فلا تكتمل أية قوة مالم يكن بها صانع الأسلحة ، الذى كان كذلك يؤدي عمل الحداد للفرسان الملحقين بالجيش . وربما كان صانع سفن من الياسك سبباً في تجميع بقية سلاح المهندسين وكانت الخدمة التي يؤديها القسم الطبي ، كما كانت الحال في معظم جيوش ذلك الوقت ، رديئة جداً . ففي بعض الأحيان كان الجندي الذى يقص الحى زملائه عندما يزيد طول الشعر على حدوده يقوم بدور الحجام (\*) أو الفصّاد على الطريقة العلاجية المتوارثة من العصور الوسطى . وعلى كل حال فقد كان معظم عمل الطبيب هو تضميد الجروح وترك شفائها للزمن وسلامة البنية . ويخبرنا برنال دياث عن اسكوبار الأعزب « صيدلى وجراح وطبيب » ، لجيش كورتيس الصغير . ويضيف أنه « أصيب بالجنون » ، ولا يجب في ذلك نظراً إلى المرضى الذين كان عليه أن يعنى بهم .

وكان هناك دائماً محرر لتسجيل أعمال شعب يتصف بالشكليات والوسوسة . وكان يناط به الحفاظ على طويتهم القانونية كما يناط بالقس الذى يصحب كل حملة الحفاظ على طويتهم الأخلاقية . وهؤلاء القساوسة كانوا عادة يأخذون مسؤولياتهم مأخذ الجدية الصارمة ، وكثيراً ما كانوا قوة رادعة للرجبات الطائشة التي كانت تصدر من أتباع أبروشياتهم الاتقياء . ويشيد برنال دياث كثيراً بفراى بارتولومى دى ألميدو ، الذى رافق كورتيس في فتح المكسيك ، ويبدو أنه سلم من مواجهة جميع أخطار الحملة ضد الأزاقة . وعلى رواية برنال دياث : « لم يكن من رجال اللاهوت العظام فحسب » ، ورجلاً مقدساً ، بل كان يجيد الغناء ، وكان رفيقاً طيباً .

• sangrador (\*)

وكانت الحاجة إلى المترجمين ماسة جداً في التعامل مع الهنود . ففي بعض الأحيان كان الهندي يختطف مقدما ويعطى منهاجاً سريعاً في اللغة الإسبانية لا شيء . إلا أنه غالباً مايتبين أنه تسكلم اللغة الخطأ وأن معلميه قد أضاعوا وقتهم معه . وأجدى من هؤلاء جميعاً كان المترجمون أمثال دونيا مارينا ، التي قامت بخدمات لا تقدر في فتح المكسيك ، والإسبانيون الذين عاشوا سنين بين الهنود مثل خيرونيمو أجيلا الذي عثر عليه كورتيس في يوكاتان وكذلك ، بتقديم الفتح واستطالة طرق المواصلات أصبح للرسول والكشفة أهمية خاصة في تحركات وإمدادات جنود الفتح القليلة . واشتهر بضعة رسل في فتح بيرو وفي فترة القلاقل التي حدثت إثر الفتح قال سيثنا عن أحدهم ، وهو بيروكاييجو : « كان مشاء سريعاً ، وعرف البلاد معرفة جيدة » . ورسول آخر هو ألونسو جارسيا ، الذي كان يتخفى في زى الهنود . وكان يحمل الرسائل من فاكادى كاسترو إلى الماجرو . وبعد فترة تعقبه خوان ديلتي ، وهو أشهر من عرف من الجواسيس الرسل وقبض عليه .

#### العدالة في الفتح

من مظاهر أية حملة فتح(\*) جديدة جيدة التنظيم قراءة «الإعلام»(\*\*) على أول جماعة يقابلونهم من الهنود . فإذا ترك الهنود المسكان قبل بدء الحفل أو سئموا الإجراءات ورحلوا والحفل مستمر ، فإن تلاوة «الإعلام» لا تنقطع على أية حال وكانت هذه الوثيقة غير العادية وذات الصفة الإسبانية النموذجية جزءاً من البروتوكول أو الشكليات الرسمية للفتح ، وكان الغرض منها تعريف المستمعين إليها بحقائق الحياة الجديدة ممثلة في الفاتحين وهكذا ليبيّنوهم لما كان مقرراً حدوثه على الأرض إن لم يكن في السماء . وابتدأ الأسلوب الكيخوتي في المجادلات بنبهة عن الخليفة ، ومن هذه

• entrada (\*)

• requerimiento (\*\*)

النقطة دخل في العهد القديم ثم رأساً إلى العهد الجديد وفي أثناء هذا السرد يشار إلى مبدأ الثالوث المقدس الذي لا يفهمه حتى الإسباني العلواني ، ثم يتلى ملخص لتاريخ البابوية بشيء من التفصيل ، ثم أفهم الناس بوضوح أن البابا وجب العالم الجديد رسمياً إلى ملك إسبانيا ونائبه المعتمد، وأن الإسبانين الموجودين قد حضروا للاستيلاء على الممتلكات وحق الانتفاع بريعتها البشرية والمادى ، وبجانب هذا ليجعلوا من السكان الضالين مسيحيين صالحين . وهذا الخليط المسهب من اللاهوت والفقه كان يلقي بالإسبانية بما كان يدخل الحيرة والفرع في نفوس المستمعين. وكان الجنود الإسبانيون يقفون ووجوههم مشدودة في أثناء إلقاء المسجل « الإعلام » ، ولكن بعد انقضاء الاجتماع يعطون الفرجة لينفجروا في الضحك الهوميدي (\*) كما يروى أوفيندو عن تجربته الخاصة . فإذا لم يظهر الهندي أنه قد استجاب لتوه لهذا « الإعلام » الرنان ، رغم أنه لا يفهم ، كما كان حاصلًا في أغلب الأحيان . أحس الإسبانيون وقتئذ أنهم في حل من ممارسة العمل الذي جاءوا من أجله .

وعلى الرغم مما قد يبدو لشعب آخر أن هذا مجرد استعراض للكينخوتية الإسبانية ، فإن « الإعلام » كان دليلاً على اهتمام الأمة الإسبانية العميق والمخلص بعدالة الفتح الأصولية . وكانت مسألة العدالة والفضيلة المتعلقة بالفتح تثقل كثيراً ضمير إسبانيا ، كما كان هناك بحث كثير لاسترضاء القلب والعقل عن الناحية الأخلاقية للمشروع العظيم الذي بدأه الإسبانيون بحماسة شديدة وآمال عراض . أما أنهم توقفوا لكي يأخذوا في الاعتبار بكل جدية هل لهم حق ، أم أنهم مخطئون في العمل الذي كانوا على وشك القيام به قلما يعلمو بعظمة إسبانيا الخالدة ، كما كان إنجاز المغامرة البطولية نفسها . فلم تكن الكنيسة وحدها هي التي أسمعت صوتها القوي في صالح الهنود ،

(\*) بصوت عال ومخلط .

ولكن رجال الفقه والسياسة درسوا العاقبة يهدوء وموضوعياً ، وبذلوا جهداً زاهياً لإيجاد حل للتوفيق بين مصالح الشعبين . ولم يكن كافياً أن «بابا» إسبانياً قد قسم من قبل العالم الجديد بين إسبانيا والبرتغال دون أخذ رأى سكانه ، والإسبانيون في منأى ، في حين كان فرانسيسكو دى فيتوريا الذى كان ، على الأرجح ، أكفأ سياسى ومفكر فى عصره ، وأميرال البحر ديجو فلورس دى فالديس يتحديان حق البابا فى إصدار قراره . وكان الناس يسألون أنفسهم بصراحة : أى حق لهم فى حرمان الهنود مما كان لهم أو فرض قانون وعقيدة إسبانيا عليهم ؟ فهذه الجماعات الهندية كما كانوا يفترضون ، قد تكون حقوقهم فى أراضيهم قانونية كحقوق قشتالة فى مملكتها غرناطة . وأمر نائب الملك توليدو ، لكى يرتاح من شكوكه ، أن تجرى بحوث شاملة عن الطريقة التى سيطر بها الإنسكا على رعاياهم من الشعوب . ومن الأمور التى لها مغزى فى القوة الرادعة للتشريع الإشباني أن الذين يبررون الفتح حاولوا أن يلصقوا بجميع أشراف الإنسكا والأزاتقة وصمة المغتصب والظالم .

ولقد كان هناك إسبانيون مفكرون يرفضون أن يقبلوا الرأى المريح الذى يقول إن الهنود كانوا همجيين ، ولذلك لم يكن لهم حق يلتزمون باحترامه ولقد عرف الفاتحون والرهبان الذين صحبهم من وقت مبكر أن هناك هنوداً وهنوداً ، وأنهم لم يكونوا جميعاً أكلة لحوم البشر أو إخوة للوحوش ، بل إن كثيرين منهم كانوا يبدوون أناساً معقولين(\*) فعلاً، منحوا ، كما منحوا هم العقل والمروءة . وكانت لهم حكومات فائقة التنظيم كالإنجليز والفرنسيين . وكانت حضارتهم فى بعض النواحي تبدو كأنها تفوق حضارة أوروبا ، كما لاحظ برنال دياث فى تيفوشنتلان .

وبعض هؤلاء الشعوب الذين التقوا بهم كان لهم مجتمع منظم ، وآداب

• gente de razòn (\*)

رقيقة ، وحاسة جمالية عميقة ، ومبادئ عالية تميز بين الحق والضلال. ومثل هؤلاء الشعوب كانوا يستحقون مصيراً أفضل مما كان مقدراً لهم مع المعاملة الوحشية التي جاء بها الفتح (١٨) . فقد كان للفتاحين كلية الفصل في المساجلة ، وفي طريق العنف الذي سلكه الفتح تناثرت أطلال حضارة بتراء في أرجاء العالم الجديد .

### الفتح بوصفه حرباً

كانت مشكلة الفتح الحربية مختلفة جداً عن النمط التقليدي لمشكلات الحروب التي تعودها الإسبان في أوروبا. وإنه بفضل مرونتهم وبراعتهم وكذلك قوتهم وتصميمهم الغاضب ، قد لاءموا أساليبهم التي تعودوها في القتال للظروف الجديدة بنجاح كبير ، بل إنهم كانوا أحياناً يظهرن تفوقاً على الهنود في أسلوب قتالهم وكان الجندي الإسباني قد أعدته فرديته وسعة حياته واكتفاؤه الذاتي إعداداً عجيباً لأسلوب «ساعد نفسك في القتال» ، الذي كان قاعدة متبعة في العالم الجديد ، حيث انقلبت المعارك في وقت مبكر إلى ملاحم وحشية عادة ، ليس لها خطة ، ويختلط فيها الحابل بالنابل . أما أهم مقومات الإسبانين الأخرى فقد كانت : الأسلحة الصلبة ، والبارود والخيول ، والسكالب .

واختلف نمط العمليات الحربية في العالم الجديد باختلاف الأراضي واختلاف العادات الحربية والبسالة التي كانت تبديها الشعوب الوطنية . وعلى الرغم من الصورة التي رسمها لاس كاساس فقد كانت الحرب متوطنة في دنيا الأمريكتين قبل الفتح السكولومبي . ومهما يكن الدافع إلى الحرب — نشوة القتال ، السلب ، النساء ، التنافس على أرض الصيد ، المجد المتزايد لطبقة المحاربين ، الأسرى الذين يقدمون قرباناً لآلهة نهمه ، كما بين الأزانقة ، اللحم الآدمي اللازم لقائمة الطعام ، أو تحريض إمبراطوري ،

كما بين الإنكا — فإن شعوب القارة كانوا دائماً يحاربون بعضهم بعضاً . وجاء الإسباني فلم يعطل أية قاعدة بريثة للسلام . وبوصف كونه عدواً غريباً لا يعرف أصول الحرب ، فإنه لم يضيف سوى نوع جديد من الأسلحة والخطط في ميدان قتالهم ومشاغباتهم .

ولم يكن الفتح معجزة صنعتها وساطة سائتياجو راعى الأسلحة الإسبانية كما قد يحاول بعض المؤرخين من السكهنوت أن يقنعونا ، ولا حتى نتيجة جنود لا يقهرون . فإذا كان الأمر قد انتهى بأن القادمين الجدد قد انتصروا على معظم الشعوب الهندية فلم يكن السبب الأكبر في ذلك أى تفاوت في الصفات المقاتلة للفرد ، بل تجمع ظروف كثيرة كانت في جانب المعتدين . فإذا أخذنا رجلاً نداءً لرجل — لرجل من الأزاتقة والشيشيمك في المكسيك أو الكاريب على سواحل القارة ، أو الكالشاكي في شمال أرجنتين ، أو الجواراني في أراضي نهر بلات ، أو الأروكازيان في تشيلي وأقربائهم في البريا — فقد كان خصماً أهلاً للإسباني المقدم . ولكن قلبها كانت المعركة تدار بهذه البساطة ، بل كان هناك عوامل خارجة عن الشجاعة البشرية لتحسم النتيجة .

وفي فتح المكسيك تعرضت أهمية القوة الحربية النسبية لاضطراب خطير من عوامل نفسية ذات صفة خارقة للطبيعة . فقد لاءمت أسطورة عودة الإله الأبيض ، كشتا لكوئل من وراء الأفق الشرقى ، برعاية من الله ، خطط كورتيس الذى كان لا يفوت فرصة مواتية يقتنصها لنجاح مشروعه الجرمي . والمزعزع . فبينما كان مونتسوما ، وقد أوهنت عزيمته المخاوف ، يستشير العرافين الرسميين ، وملاً النطير والإشاعات جو عاصمة الأزاتقة المضطرب ، أصاب الشلل العزيمة والقوة اللتين يتصف بهما شعب مقاتل فلم ينتهوا إلى قرار . وفي الوقت الذى أيقن فيه الأزاتقة أن الإسبان ليسوا آلهة

زمرة آلهتهم ، بل بشر بموتون وقد سعوا إلى حتفهم ، كانوا قد ضيعوا على أنفسهم فرصة المبادأة ووقتاً ثميناً وفي بيرو كان هواينا كاباتك المعجوز ، آخر أباطرة الإنكا العظام ، تسارره ملححة نذر الشؤم بالأخطار التي سوف تحيق بأمته ، وكان يمكن أن يعجل بمعرفتها بالتقارير التي ترد عن الغرباء الغامضين الذين بدأوا يظهرين في أرجاء أخرى من القارة .

وفي فترات الفتح العصبية قامت سلسلة من الحوادث العرضية لمساعدة الإسبانين . فمثلاً وصلوا إلى بيرو في ويطيس حرب أهلية كانوا هم وحدهم المنتصرين فيها . وكان هواينا كاباتك قد جزأ إمبراطوريته ومهد الطريق لتدميرها بتقسيمها بين اثنين من أبنائه ، هواسكار واناهاوالبا (١٩) . وفي هذا الجو من الوحدة المنفصمة والولاءات الموزعة لعب الغزاة نغمة معبرة عن عزيمة صارمة لبلوغ هدف موحد ، وكانت حاسمة . وفي المكسيك أيضاً كان الحظ مواتياً للفاحين . فعندما علم كورتيس أن كل شيء لم يكن على مايرام في أناهاوك ، وأن استقلال قبائل تلاسكالا المتحاربين كان جرحاً لا يندمل في جسم الأزاتقة ، فقد استغل ضغينة تلاسكالا ضد مضطهديهم لمصلحته . وبهذا كسب حليفاً كانت مساعدته ضرورية لازمة للصراع اللاحق المرير وغير مضمون العاقبة . وفي كل مكان وجدهم الإسبانين في العالم الجديد أفادوا بما بين أعدائهم من شقاق ، كما في المنافسة بين أشراف الشيبشا في كولومبيا . فقد كان هناك عادة جانب واحد في الحروب المحلية راغب في الحصول على المساعدة الفعالة من الإسبانين ثمناً لتعاونهم ضد أعدائهم . وقد لاحظ أحد الفاتحين ذات مرة أن المساعدات الأهلية أصبحت ذات أهمية في متابعة الفتح كاهمية الكلاب لفريق الصيد .

واكتشف الإسبانين لفورهم نقطة الضعف في تركيب المجتمع السكهنوتي وكيف كان يؤثر في القوة الحربية في الدول الهندية المتقدمة ، وكانت هذه هي المجموعة الكبرى من الجند والرعية الذين لا يصبح لهم حول ولا قوة

إذا ما أسر أو قتل قائدهم المعظم ، كما شوهد ذلك في أوتومبا وكاياماركا ومناسبات أخرى . وفي نفس الظروف استمر الجندي الإسباني ، وهو الذي يتصف بالفردية الصارمة ، في القتال على مسئوليته الشخصية .

وميزة أخرى للإسبانين كانت تسكن في قيادتهم الفائقة . فأمم العبقورية الحربية التي اتصف بها كورتيس ، وقيادة بالبو المتقنة والخسة بنارو(\*) والماجرو وبالكاثار ، وحتى ضابطهاو مثل خمينيث دي كيسادا ، كان أحسن قادة الحرب من الأهلالي عادة لا يزيدون إلا قليلا على شجاعتهم وتفانيهم . وحتى كوابوتمك ومانسكوكاكاك اللذان أحييت ذكراهما بنصب أقيمت لهما في المكسيك ولما كانت تنقصهما لمسة العظمة الإضافية اللازمة في المحك النهائي على « الممر » وفي حصار كئسكو . ولهذا فهم يدخلون باب التاريخ كقواد عظام لقضايا خاسرة مثل فرسنجيتوركس (\*\* ) ، ولوبنيجولا الزولو ، وهندي آخر هو بونتياك ، والإسباني الصميم سيد (\*\*\*) ولعل زعيمى الأروكانيان الجبارين : لوتارو وكوبوليكان ، كانا أصلب عودا ، رغم أن الحظ جانبا في اللقاء النهائي مع الإسبانين .

وقد كان للمهارة الفائقة وسعة الخيلة اللتين اتصف بهما الجندي الإسباني وزن كبير في ترجيح كفته ، وعلى الرغم من أن المحاربين القدامى في الجزر كانوا ينظرون إلى الشبان الصغار الجاهلين تواء من إسبانيا نظرة ازدراء ، فإنهم سرعان ما تعلموا من تجاربهم ، بل إن تعلم أساليب الحرب الجديدة كان هو الفرصة الوحيدة للبقاء . يقول أوفيدو إن معارك بالبو في الأدغال كانت مدرسة حقيقية لتخريج الفاتحين . وسيطر

(\*) فرانسكو وجنسالو وهراناند ووخوان وبيدور .

(\*\*) قاوم يوليوس قيصر عند فتحه بلاد الغال وأسر وسبق إلى روما حيث أعدم .

(\*\*\*) Cid Campeador Rodrigue Dioz de Binar فارس إسباني

لعب في حربه ضد العرب ومات سنة ١٠٩٩



الإسباني على فن الهنود في القتال في الغابات ، وتعلم كيف يحافظ على حياته في ساحات القتال المضنية هذه ، كما في القتال الخطير بصفة خاصة على طول السواحل الشمالية للقارة . فهنا كان الفتح سلسلة لا تنتهي من مناوشات العصابات ، تنوسيت فيها جميع فنون الحرب التقليدية ، ولم يكن هناك مجد ينال ، بل تقدير ضئيل لهذا النوع من القتال حيث مات مئات من الإسبانين بالكراز(\*) الذي سببته الأسهم المسممة التي كان يصوبها الكاريب ، وقلبا كانوا يرونهم ، أو نتيجة الأشواك المسممة السمان التي كان ينصبها لهم الهنود في كمائن طرقهم الغاية العفنة فتقعدهم ، وبالفظاعة (٢٠) . وكان الجندي الإسباني يدثر جسمه بلحاف سميك من القطن حماية له من أفلاك سلاح لدى الهندي ، لأن قوسه يمكن أن يكون سلاحا مروعا ، سواء رمى د خمر الساحرات ، التي كان يستخدمها الكاريب في أوردة الإسباني ، أم أسهم أجنكورت التي كان هنود « فلوريدا » يحاصرون بها الرجال والخيل في حملة سوتو . وعلى النقيض من ذلك لم يجد الهندي مطلقا الحماية الكافية من الأسلحة الصليبية التي كان يستخدمها الإسبان . وعندما اقتبس أسلحة عدوه قلبا تعلم كيف يستخدمها بنجاح ملحوظ . وعندما وقعت في يده القرينة (\*\*) أفاد منها قليلا فيما عدا فرقة مدوية ، ولم يصبح أبدا رجل سيف ، ولو أنه كان يستطيع تطويح هراوته الحربية في القتال المتلاحم فيدمر عدوه . واستخدم الأروكانيان وبعض هنود السهول في أرجنتينا الرمح الإسباني وزادوه طولا . واستخدم الأروكانيان ، الذين أظهروا مهارة كبيرة في تحويل أسلحة وخطط الإسبانين لمصلحتهم ، الرمح في صفوف متراصة كدفاع ضد سلاح الفرسان الإسباني . أما قبائل النيبا ، الذين إذا ما استأنسوا وامتطوا الخيول البرية في أرضهم ، فقد استخدموا الرمح

\* التنوس .

(\*\*) harquebus سلاح ناري من طراز قديم .

كسلاح يهاجون به في إغاراتهم . واعتمدوا في دفاعهم على القوس والسهم الموجودة في كل مكان ، وعلى المقلع (\*) الذى كانوا يعرقلون به أرجل خيول الإسبانين ، أو يصطادوا بالحبل راكبيها وهم يمتطونها .

وكان الإسبانى سريعا في تغيير أسلحته كلما استدعت الحال ذلك ففي قتال الأدغال كان ينزع إلى ترك السيف التقليدى والحربة ، ويستخدم المدينة الثقيلة المكونية التى تشبه سيف البحارة القصير ، والى لانزال السلاح الذى لاغنى عنه في غابات أمريكا اللاتيفية المطيرة . وفي مثل تلك الأوقات كان يحمل على الدوام خنجرآ في نطاقه يستخدمه في العراك المتلاحم أو حمايته من الأعداء في الظلام . ولم تكن عنده ثقة ألبتة بالأسلحة النارية المربكة التى كانت تستخدم يوم ذاك ، رغم أنه كان يقدرها نظراً إلى تأثيرها السيكولوجى على الهنـدى . كما استخدمها ضد بنى قومه في المعارك المكشوفة في الحروب الأهلية في بيرو .

ولم تقيم الحيوانات بدور هام في العمليات الحربية منذ استخدام فيلة هانتيال أو خيول المغول الصغيرة الجسم ، كما فعل الحصان في فتح العالم الجديد . وبينما كانت ألوان الإسبانين هى وحدها الشئ الجديد ، كان الحصان غريبا ووحشا مروعا كالحصان المقرن إذا شوهد في إسبانيا في ذلك الوقت . وفزع الهنود لمجرد رؤيتهم حجمه وقوته ، وعندما كان يصل أو ينفخ بمنخره كانوا يختبئون حماية منه . واجتهدوا أن يلاطفوه عند الغضب بتقديم الهدايا والطعام الذى لم يستطع تناوله (٢١) . وكانت الصدمة الأولى التى سببها الحصان في المعركة سيكولوجية كما كانت مادية:

(\*) bolas وينتهى عادة بحجرين .

الفرع المروع الذى أثاره وحتى بعد زوال أثر القنطور(\*) وحقبة الحصان وراكبه ، ظل الحصان مدى طويلاً شيئاً مفزعاً ، يتجنبونه أو يخطبون وده .

واستغل الإسبانى سلوك الهنـدى نحو الحصان إلى أقصى حد . ففي حمى وطيس المعركة ينطلق فرسانه يهاجمون الهنود عديمى الحيلة دون رحمة . وفى أوقات كان ينمى عقيدة الهنـدى الخرافية عن الحصان كمكان خارق للطبيعة منحه الله العقل وقدراً كبيراً من العاطفة . شجع الهنـدى على أن يقف على مسافة حتى لا يمكنه من معرفة حدود تصرفاته ويتعلم سر سيطرته ، ولكنه لم يستطع منع القبائل الجوالـة فى الجزء الجنوبى من القارة من السيطرة على القطعان البرية وتوجيهها ضد أعدائهم الإسبانين .

وعلم دراسة الخيل الخاص بالفتح من أكثر الأمور أهمية فى التاريخ المبكر للإسبانى فى العالم الجديد . فى تاريخ الخيل ربما لم يكن هناك بيان بالخيل الممتازة كما فى قائمة برنال دياث عن مطايا ضباطه ورفقائه . فقد كان الجنـدى العجوز يتذكر أسماءها ولونها وأمزجتها بوضوح ، كما يتذكر طبائع زملائه الجنود . فلم يقدر الإسبانى لخصانه قيمته كوسيلة للواصلات وكقوة إضافية لسلاحه المتين لحسب ، بل كان يعزه كرفيق ملازم له فى تجواله ومغامراته وكقائد ، كان يميل إلى الإفراط فى العناية والاهتمام بخصانه أكثر من عنايته واهتمامه بالجنود الذين تحت إمرته والذين كان مفروضاً فيهم ، بحق كإسبانين ، أن يثقوا بأنفسهم وأن يكون فى مقدورهم أن يهتموا بحاجاتهم .

ولما كان الإسبانى ولعا ولوع العربى بخصانه فقد كان يشاركه كذلك

(\*) فى الحرافات الاغريقية نصفه الأعلى لإنسان والأسفل لخصان.

في احتقاره للكلب. وقد كانت السكلاب قوة مساعدة في الفتح ، كالحلفاء من الهنود وكتائب العمل ، وعندما كان البعض ينال نصيبه من الغنائم ، كما كان ييسريو ، كلب بالبو ، فقد كان ذلك وفاء للخدمات التي أنجزت ، وقد كان التعلق العاطفي بهذه السكلاب الضخمة و كلاب الصيد ضئيلاً . وكانت تدرب للهجوم على الأعداء من الهنود وتمن يقهم لإربأ ، وافتقاء اثر الأسرى الهاربين ، وحراسة المعسكر ليلاً . وعندما انتهى القتال انقلبت أسراب من هذه السكلاب التي لا عمل لها متوحشة وأصبحت تقمة لقطعان الماشية والأغنام التي يمتلكها المزارعون الإسبانيون . وبعد ذلك ، وبالتهكم الغريب ، نظراً إلى ولع الهندي بحيوانات التديل نجهده قد اغتتم الجراء(\*) ورباهما مصاحبة ومتابعته في رحلات الصيد. وقد عبر آباء كثير من السكلاب المهجنة التي نراها تحوم اليوم حول المستعمرات الهندية المحيط مع الفاتحين .

ويبدو أن مشكلة الغذاء (\*\*) كانت دائماً تشغل بال الفاتحين الإسبانيين؛ فقد كانت دهياء يتكرر حدوثها في تاريخ أوفيدو . وكان قد سبقته له نجارب كثيرة في هذا الصدد . وفي بعض الأحيان كانت الحاجة إلى الطعام شديدة لدرجة أن الطعام كان أكثر أهمية من الذهب . كتب بالبو إلى الملك يقول : « نحن مهتمون حتى الآن بالطعام أكثر مما نحن مهتمون بالذهب ، لأن لدينا ذهباً أكثر مما لدينا من صحة ، وكثيراً ما كان يسعدنا أن نعثر على سلة من الذرة من أن نعثر على سلة من الذهب » . وفي الحملات التي كانت تنظم بشيء من الإهمال إلى البلاد الوعرة كان كل جندي يكلم بأن يصبح هو مصلحة التعيينات التي ترعى شئونه من هذه الناحية ، وسرعان ما أصبحوا ماهرين جداً في جلب الطعام بالذهب وسرقة الماشية .

(\*) جمع جرو : الكلب الصغير.

(\*\*) rancheria

وعاشوا نظام حياتهم ما بين شعب الولايم وحرمان الفاقة ، ولكن أيام الرخاء كانت أقل من أيام الشدة . وفي أكثر الأحيان لم يكن لديهم ألبنة قدر كاف من الطعام لشهور متتالية ، وكثيرون ماتوا جوعا . وكانوا يأملون في بادية الأمر أن يجدوا حلا لمشكلتهم الغذائية على حساب الهنود ، وفي بعض الأحيان ، عندما بدت من الهنود علامات الصداقة وكرم الضيافة كان الجنود يسلكون مسلكا كريما ما بقي لدى مضيفهم ما يوفونهم به من الطعام . ولكن بينما لا يبقى لهم ضيوفهم شيئا فعلا يبدأ الهنود في إخفاء مالههم ويحشون هذا الجراد البشري على الإغارة على مخازن جيرانهم . ومن العادات التي نبذها الإسباني ، أشد ما يكون ، مسألة الأكل . فقد تعلم أن يأكل ما يمكن أكله ، واقتبس من وقت مبكر كثيرا من طهو الأهل . وعندما كان هناك لحم أو سمك فقد كان يستعيز بهما عن طعامه . وسأقت بعض الجيوش معها قطعانا من الخزائر لكي يحصلوا منها على اللحم « الطازج » . وكان بنالكاتار في مسيرته الطويلة شمالا من بيرو في إقليم كوكا في كولومبيا يربي أكثر من ثلاثمائة خنزير عشار ، وأصبحت مخازن الدهن المتجولة هذه ظاهرة عادية للإغارات الأحسن تنظيما والأكثر احتياطا .

وقد كانت هناك أربعة أقاليم مستقلة للفتح : المكسيك ، وبيرو ، والجنات الساحلية الشمالية للقارة ، ونهر بلات . وأهم اثنين في الأقاليم الثانوية للفتح هما : تشيلي وأمريكا الوسطى . وقد كانت هناك مناطق هامشية مثل أراضي الكالشاكي في شمال أرجنتين حيث تدخلت حركات الفتح ، بل والتحمت في بعض الأحيان . والواقع أن فتح أمريكا الوسطى تدهور لفترة ما إلى حرب أهلية ثلاثية الجوانب بين عصابات من الماتشين ، من الشمال ، ومن الجزر ، ومن البرزخ ، أو أتباع كريستوبال دى أوليد ، وجيل جنثاليث دافيللا ، وبدرارياس على الترتيب .

## فتح المكسيك

كان لفتح المكسيك صفة تمثيلية فريدة إلى حد بعيد في تاريخ الفتح البطولي جميعه . وكان في جملته ملحمة واحدة كما قد يدونه الإغريق ، بخلاف فتح بيرو المتناظر معه . وكان موضوع الخطة هو الاستيلاء على دولة غنية وقوية ، وكانت المساجلة واضحة وموحدة ، وكان الممثلون جديرين بأسخيلوس (٥) فقد كان تسلسل الحوادث المثير عملاً عبقرياً - إحراق السفن ، الضربة المحكمة في تلاسكالا ، دخول تينوشنتلان ، القبض على مونتنسوما ، خداع قوة نارفايث النأديبية ، الفرار من فوق الممر في الليلة الكئيبة ، ، الصعود إلى المستحيل في أوتومبا ، العودة ، والمعارك الهوميرية من أجل المدينة المحاصرة والتي كتب عليها سوء الطالع .

وسيطرت على فتح المكسيك شخصية كورتيس التي فاقت النصور . فلقد أصبح واحداً من الضباط العظام في التاريخ بجيش قوامه خمسمائة رجل ، لما اتصف به من الشجاعة وحسن الإدراك وسعة الحيلة فوق مستوى الآخرين . وكان ضباطه - الفارادو وأوردات وساندوفال - جنوداً لامعين ، ولكنهم انصاعوا لقيادته في ثقة ، وماداموا في متناوله كان يسيطر على ضباطه المنهورين أمثال أوليد وألونسودي أفيللا . وبقيادته صدرت سلسلة من القرارات السديدة حددت مجرى الفتح ، وكانت هذه القرارات تصدر أحياناً بسرعة زائدة لدرجة أنها كانت تبدو حكمة لو أنها صدرت لرجال أصغر (٢٢) . فقد كان يجمله شيء من المهابة حتى في طريقة زهوه وانغماساته (٢٣) . وفي وقت لاحق استطاع أن يخاطب إمبراطوره بزهو كند له وقد كان الوحيد بين الفاتحين الذي كان شارل يشعر وهو

(٥) شاعر لإغريق ٥٢٥ - ٤٢٦ ق. م.

في حضرته بشىء من القلق . ومن المؤكد أنه كان أكفأ رجل أنجبه إسبانيا الحديثة — بل قد يكون أكفأ من عرفهم العالم الجديد . فهو أكثر من أن يكون أول الفاتحين . ونظراً إلى ما كان عليه من البراعة في نواح كثيرة فقد كانت له مواهب السياسى ، وأرسى النقط الذى حكم المكسيك حتى الاستقلال ، كما فعل طيف نائب الملك السكفاء توليدو في بيرو حتى اياكشو . ولم يتسام فاتح آخر إلى منزلته . ويأتى فالديا أقرب الفاتحين إليه ولو أن بين الاثنين أمداً بعيداً، وربما سما بالبو إلى هذا المستوى لولا أنه اجتث من الميدان مبكراً .

وعلى الرغم من أن برنال دياث كان يستنكر عبادة جومارا (\*) لبطولة كورتيس فإنه لم يحمل له ضغينة ، كما لا يحمل المؤرخ الرسمى عندما يؤدى دينه نحو رؤسائه . قال : « كانت سعة حيلته لا تنفذ ، وكان له قلب وعقل هما أهم مافى الأمر » . وعلى الرغم من أنه « كان محبوباً من جميع ضباطه وجنوده ... فقد كان نظامياً صارماً » ، و « عندما كان يأمر كورتيس لا تفيد مع أوامره اعتراضات » ، ولذلك « لا يوجد قائد فى العالم يطيعه مرءوسوه أكثر منه » . ويضيف برنال دياث : « عندما كان علينا أن نقيم حصناً كان كورتيس أنشط العمال فى الخنادق . وعندما كنا نخوض المعركة كان يتقدم الصفوف كأي فرد منا » ، وفى الواقع كان كورتيس رجلاً يقود الناس فى كل مكان ، بل إنهم تبعوه حتى إلى نهاية حملته الفاشلة إلى هندوراس التى كانت أعظم محك لقيادته . وحتى عندما هدد ساندوفال لفترة بالعودة إلى المكسيك ، أجاب كورتيس أنه إذا رفض رجاله أن يتبعوه « فلا يزال هناك جنود فى قشتالة » . وكما كتب هو بنفسه إلى الإمبراطور : « الحظ دائماً موات للشجعان » .

---

(\*) مؤرخ فتح المكسيك .

## فتح بيرو

كان فتح بيرو أقل إحكاماً وأقرب إلى كونه إسبانيا في الصميم عند إنجازه . فقد توافرت فيه نفس الجراءة والشجاعة اللتين فاقتا مستوى البشر . وازدادت الأرض وعورة وتكاثرت أرجاؤها الوعرة ، وطالت المسافات ، كما زاد مدى الارتفاعات مما أجهد أجسام الناس . وبدأت جميعاً كأن لها أربعة أبعاد ، ولا بد أن مرت أوقات ظن الإسبان في فيها كما لو كانوا يحولون فوق كوكب آخر . فقد كان منظر العالم حولهم يبدو غير مألوف وغير حقيقي إلى حد بعيد . وأضحت بيرو للفتاحين شيئاً أكثر فائدة وأشد فتكاً في وقت معاً . وكان فتح بيرو كذلك أكثر ربكة وأقل تنظيماً من فتح المكسيك ، لأنه بمجرد أن حقق هدفه الرئيسي وهو سقوط كيثكو فقد انتهت ما كان فيه من وحدة وهوى إلى جرف التنافس على السلطة . بل إن وحدة المشروع في الحقيقة كان مقضياً عليها بسبب قيادتها المنقسمة .

وبعد الهزيمة الجريئة على كاخاماركا والزحف صاعداً إلى قلب إمبراطورية الإنكا الخائفة انتشر الإسبان - وكان عددهم جميعاً بضعة مئات - فوق الأراضي البراقة بحثاً عن مزيد من الكنوز . وانتهى الفتح فيما عدا حصار مانكو كاپاك الطويل لكيثكو . وثل الفتاحون عرش دولة شاسعة وقضوا بضربة مميتة على حضارة من أعظم الحضارات التي شاهدها العالم تديراً للكائد ، ولكن لم يستطيعوا أن يلبوا شعبها ثانية أو يقدرها قيمة لما دمروه تدميراً فعلياً .

وظلت بيرو فترة طويلة بئر نشاط شاسعة كثيراً ما كان ينبثق منها في كل اتجاه . فبدت كما لو لم يكن فيها ما يكفي للعمل في بيرو وأنها مكتظة ببضعة آلاف من الرجال . ولذلك أصبحت مركزاً ثانوياً للفتح ، كما كانت الجزر والمكسيك والبرزخ . فمن تاهنتسويو القديمة في بلاد الإنكا تحرك الناس



شمالا سح بنا السكناار وخنازيره مارأ ياقليم كيتو حتى وادى نهر كوكا وعبر  
السلاسل الجبلية إلى إقليم شيشا ، حيث كان هناك إسبانيون غيرهم ، وانتشروا  
في جنوب البحيرة فوق إقليم كياو المرتفع حيث أصبح حاكم شاركاس بمرور  
الوقت مكلفا بحكم بيرو العليا ، وحيث أسسوا مدنا مثل (لاباز) وشوكيساكا  
أو سوكرى ، وكوشامبا ، وفوق الجميع ، بوتوسى . وتدفقت فرق منهم  
في الخوانق ( \* ) المنحدرة من الهضبة نحو الپيا وممتدة نحو فروع نهر بلات  
حيث تلاقوا مع رجال پاراجواى . وإلى الغرب من توكومان وسفوح  
تلال كويو ، وفيما وراء حائط الكورديليرا الشاهق قام الماجرو بإغاراته  
البطولية إلى وادى الشيللى النائى ، ومن بعده عبر فالدفيا إقليم آتاكاما ليرسى  
قواعد مقاطعة متماظمة الشأن جديدة لإسبانيا . وبدت الفيا فى المتلبدة  
الخضراء إلى الشرق من الجبال كأنها تثقل نفوس الفاتحين بسحرها السقيم .  
وامتسلم عدد منهم لسحر الغابة ، كما فعل خمينيث دى كيسادا بعيدا فى  
الشمال ، وجميعهم لاقى نفس المصير المفجع ، إذ رفضوا أن يتعلبوا من  
التجارب كإرفض الإنكا . ولم يظهر أحد حكمة وسلامة رأى سوى  
الونسودى ألفارادو ، وهو رجل كفء ويعتمد عليه ، عندما غامر ونزع  
من الجبال العالية فى اتجاه الأمزون . فقد التزم الجبهات الجبلية ( \*\* ) شبه  
المدارية التى تحتفظ فيها الطبيعة ببعض القواعد التى يفهمها الإسبانى . ولم  
يسمح لنفسه أن يضل فى الأرض المنخفضة فيما دون الجبال ، وخلف  
وراءه مدنا مثل شاشاپوياس ومويومبا اللتين بقيتا حتى هذا اليوم ، واللتين  
لا يزال سكانهما إسبانيين أكثر من معظم المدن فى بيرو . أما الآخرون  
بما فيهم جنشالو بشار وبيراتوريس وپدرو دى كانديا ، وكان الأخير  
إغريقيا فى المدفعية واتصف بالعناد وبطء الفهم ، فلم يتركوا وراءهم سوى  
أوهامهم وعظام معظم أتباعهم . فقد اندفعوا فى الغابة بحمالهم الهنود —

Quebradas ( \* ) الأودية العميقة .

montana ( \* )

وبعضهم مع نساء الإنكا الظريقات(\*) — وبالحيل والكلاب — وعندما بلغ بهم الجوع نهايته أكلوا خيلهم . وتسرب الهنود في الغابة بعيداً بسبب الجوع ، ولأن أجسامهم لم تهيأ للجوالثقل الذي تتميز به السهول المنخفضة أو أنهم اختفوا وانقلبوا إلى حياة الوحشية . أما أولئك الذين عادوا إلى الجبال فكانوا أطياف رجال بالية ، ومن الذين لم يعودوا فرائسكو دى أوربانا، ضابط جنثالو ، وحوالى خمسين آخرين كشفوا الأمزون وعبروا القارة فوق مياهها .

وبانتهاء الفتح لم يحل السلام على الأرض التي فتحت . وبدلاً من ذلك تدهورت مغامرة الفتح الكبرى إلى فوضى حرب أهلية ، حرب وحشية حرة يخوضها من شاء من رجال ينتمون إلى أصل واحد . فقد غرست بذور الشر والشقاق، ولم يحن الناس منها سوى الحقد والخيانة والموت . ففي بادئ الأمر كان الصدام بين أتباع الماجرو (\*\*) «رجال تشيلي» ضد أتباع بثارو أو ضد فا كادى كاسترو ، رجل الملك ، ثم حدث تمرد جنثالو بثارو ضد السلطة الملكية التي كان يمثلها نائب الملك نونيث فيلا، ثم پدرودى لاجاسكا وأخيراً ثورة الغاضبين تحت قيادة هرنانديث جيرون مع عصيته المسلحة من العبيد السود وفرقة «ملعبه» من العرافين ، والراجهين بالغيب ، والمنجمين ، وقارئ الكف ، ومحضرى الأرواح(٢٤) . فقد انتهى الفتح إلى نهاية مؤسفة ، وكان الوقت مواتياً لنائب الملك توليدو لإصلاح الأمور ولو أن روح الشعب التي انبثقت من الحروب الأهلية قدر لها أن تبقى وتقاوم قمع جاسكا وتوليدو ولتجد متنفساً مستمراً في الحياة المضطربة في بوتوسى .

وقد روى سيثا دى ليون قصة الفوضى وفساد الآداب قال : « بدأت

من ذلك الوقت فترة فيها أطيح بالثقة والعقيدة . ونظر الرجال إلى الحرب الأهلية القاسية كحرفة مربحة ، ، وقال إن الجنود في بيرو انضموا إلى ثورة جنثا لوبشارو « لأنهم كانوا يتهجون بالحرب ويمقتون السلام » . وصاح المكشوب نونيث فيلا : « هذه الأرض هي الشيطان . لقد تكاثرت الشرور حولها ، ولا يعيش الناس الذين يقطنونها أبدا في سلام أحدهما مع الآخر » . ثم تساءل يائسا : « بمن أثق ؟ » وكرهت الأحزاب بعضها بعضا ، وامتلات قلوبهم ضغينة وحشية . وبعد كارثة لاس ساليناس قال الماجرو لسجانه ألونسو دى تورو : أخيرا سوف تشرب من دمي ، فرد عليه عدوه قائلا : « وهذه أعظم نعمة من الله بها علي » . وكتب سيشا عن معركة تشوباس الوحشية حيث أسودت قلوب الناس حقدا : « كانت السيوف تهوى على الخوذات فتذهل أصحابها وتقطع سترات الزرد ثم يتوقف الرجال فترة قصيرة يحملقون بعضهم في وجوه بعض كالثيران في فصل التيج (٢٥) » . وفي أثناء الليل قد يأتي قطاع الطرق الهنود فيجردون الجرحى من ملابسهم في ميدان القتال وينركونهم لموتوا من البرد وشيئا فشيئا ، بمرور السنين قدم قادة الفتح كلهم تقريبا قربانا لحية شہواتهم وعنقهم أنفسهم — أعدموها أو اغتيلوا أو سقطوا قتلى في المعركة . واتجه سوتو شمالا وقالديا جنوبا وكلاهما مات قبل الأوان . وبالمصادفة الغربية — أو برحمة الله ؟ — كان الضباط الثلاثة الذين بقوا أحياء وسط أخطار بيرو الكثيرة — وهم لورنثو دى الدانا والونسو دى ألفارادو ووالد جارسيلاسو الانكا — من بين أنبل الفاتحين .

وكان فرانسيسكو بشارو شخصية ثقل مقاما عن كورتيس ، فيما عدا عزيمته الحديدية . فبمجرد أن خفت وطأة الخطر المشترك لم يستطع السيطرة على قوات الطرد المركزية التي كان لابد من فرض أنفسهم تحت إمرته ، ولا أن يكسب هذه الإرادات الوحشية إليه بسحر شخصيته كما كان في

مقدور كورتيس أن يفعل، أو كما كان في مقدور بالبوا إذا لم يقبض عليه بثارو تلك الليلة في دارين منذ فترة طويلة سبقت فلم يكن له سياسة يدير بها الأراضي التي فتحها وعرف معاصروه عنه قليلا من الفضائل ليرووها، فعلى سبيل المثال قال أوفيدو عنه ، دون أن يتشكك في شجاعته الشخصية : إنه لم يصلح لحكم الآخرين ، وكانت تنقصه الحنكة والاستعداد العقلي اللازم لمركزه الرفيع في بيرو . وكما يقول هيريرا ، كانت أفسكاره غريبة على وعوده .

ومن إخوة بثارو كان هرناندو أكفأهم ، وقد منع من التنقل في دور مبكر من أدوار الفتح ، وسجن في أمتع قلاع إسبانيا . ومع ذلك فقد مكث في بيرو وقتاً كافياً ليصبح نابتها النحاس . ولما كان رجلا متعاطفا وحاسما ضخم الجسم ، متغطرسا ، قاسى القلب ، عديم الثقة ، ساطع اللسان ، ساطع النسكته ، فقد أقصى عنه رفقاءه ، وكان ينظر من تحت أنفه الأحمر المنتفخ باحتقار إلى أخيه الأكبر غير الشقيق ، سائق الخنازير النغل (\*) ، الذي أصبح أميراً إسبانيا .

وطبقا لرواية أوفيدو ، خرج الإخوة بثارو من إسبانيا وهم في زهو كاهم في فقر . وإذا استثنيناخوان الصغير الذي كان قائداً محبوباً من رفقاءه وقتل في حصار كشكو ، كان جنثالو أكثر إخوته جاذبية . وكان يتصف بقدر من الشهامة ، وفي شخصه تبدو نفخخة الفروسية ، كما كان يتحلى بها بديرو دي ألفارادو . وكان الجنود متحمسين له ، وهذا مديح عظيم لأي من حكام بيرو . وقد حير البلاد بتمرداته ، وربما كان ذلك يؤدي إلى نتيجة أفضل لو أنه أنشأ مملكته المستقلة على أساس أن يكون نصفها إسبانيا ونصفها من الإنكا . ولقد كانت فكرة جريئة سواء منه أم من كارباغال . وعلى الرغم من أن النسبة كانت تسكون عرضة للتغير فيما بعد ، فربما كانت تبقى

---

( \* ) غير الشرعي .

على ما كان يجدر الإبقاء عليه من الحضارة الأهلية . ولكن نظراً إلى ما كان ينقصه من الشجاعة الأدبية والإدراك الذى يمكنه من اتخاذ الخطوة النهائية ، ولأنه هو أيضاً بعد اعتياد كل الأمور بمجرد جندى ، وأوأنه جندى عظيم ، فقد فشل ، وأصبحت ييرو بدلا من ذلك ولاية إسبانية لفترة تقرب من ثلاثة قرون .

وكان ديجو دى ألماجرو حاكم نيوتوليدو ، وشريك الأمير فى الأصل قائداً للرجال بفطرتة وجندياً أصيلاً ، وأولئك (\*) دما ولما . غير أن كل هذا لم يكن كافياً ، لا لإنقاذه ولا لصالح ييرو . وكان يثق فى أواصر الزمالة القديمة التى لم تدم طويلاً . وكان يفتقر إلى الخداع ليقابل الإخوة بثأرو على أرضهم أنفسهم . وأمر هرناندو بإعدامه شنقاً بعد موقعة لاس ساليناس . وأشعل موته شرارة بدء المعارك الدموية بين الفاتحين مما ستم جو ييرو لسنوات عدة .

ومات كذلك فى لاس ساليناس رودريجو أوجونيك ضابط الماجرو الوفى المخلص ، والمحارب العظيم الشأن ، الذى حث قائده على التخلص من هرناندو وجنثالو عند ما كانا فى قبضته ، سلم نفسه للجنود فى الميدان فضربوا عنقه . يقول هيريرا : « أحاط به كثيرون وحاربهم جميعاً وجرح منهم عدداً كبيراً » .

وكان فرانسيسكو كارباخال جندياً من قبل أن يولد معظم زملائه الفاتحين بزمان طويل ، وأصبح حكيماً إلى درجة لا حد لها فيما يتعلق بفنون الحرب . ولم يكن له ، كضابط ، ند من أولئك الذين حاربوا فى ييرو سوى فالديا . ولكن على الرغم من أن القائد الشجاع (\*\*) كان خصماً يجبر الناس على

(\*) بطل حرب طروادة وكان يقصف بالحكمة

(\*\*) قائد لمجموعة من مائة جندي فى العصر الرومانى والعصور الوسطى

احترامه فلم يكن أبدا كفتا للمحارب المخيف العجوز . ولما كان معروفا بين معاصريه الشياطين « بمارد الإنديز » و « عدو الجنس البشري » ، فقد كان كارباخال الحقود قاسيا عديم الشفقة بجميع من هم في الجانب الآخر ، سواء أكان هذا الجانب في وقت ما جانب الملك أم جانب الثورة . وكان الرجال الأشداء يرهبون حضرته المسيطرة ، وكان يظهر حصافته فيبدون كأنهم مدر أصم ، كما أن لسانه اللاذع كان يترك الرجال وقد جردوا بشكل غريب من زهوهم وثقتهم بأنفسهم (٢٦) . أما الشخص الوحيد على السكرة الأرضية الذي كان يهتم دائما باعتراضاته فكان زوجته البرتغالية . واستسلم الزاح المتجههم حتى في أكثر المناسبات المفجعة ، بما في ذلك المناسبة التي أعدم فيها هو نفسه . وفي سن الرابعة والثمانين ، حينما جاء أجله ، كان لا يزال رجلا فيه نشاط ، لا يمل ، وجلد هائل ، ينام حينما كان يضطر إلى النوم ، في كرسي جامد أو محينيا رأسه على السرج وهو يقود رجاله في الجبال ليلا كشخص يتخططه الشيطان من المعس . وكان مظهره الغريب يجعله في منأى عن زملائه . لم يضع فوق رأسه خوذة لامعة ، ولا على جسمه درعا ، بل قبعة متهدلة برياش من الديكة بدلا من حزمة الريش المألوفة ، ودثارا للسكتفين قديما أسود اللون . ولم يركب جوادا عربيا كما كان يصر على ذلك الفاتحون ، بل بغلا كان ، كسيده ، لا يبالي بنفخ الأبواق والهرجة ، بل الوصول سليما إلى حيث وجهت مسيرته .

## الأنظار النائية

بدأ فتح الأرض الصلبة ، أو السواحل الشمالية للقارة (\*) من البرزخ المجاور حتى شبه جزيرة باريبا وما خلفها من الأراضي بمحملات أوخيدا وفيكيسا في سنة ١٥٠٩ . واستمرت كسلسلة من المغامرات المنقطعة حتى أيدت القبائل الهندية المختلفة أو أخذت ثورتها ، أو ، فيما عدا هذين الإجرامين ، قبلت الدخول في الحكم الإسباني . وإذا أخذنا في الاعتبار ترامي أطرافها وطبيعة الأرض والحاجة إلى دولة وطنية قوية تحكم تلك الأراضي الشاسعة ، فلا يمكن أن تكون هناك وحدة في فتح هذا الإقليم الكبير . وتتابعت سلسلة الحملات المنقطعة نحو الداخل من أمكنة على الساحل الطويل مثل دارين ، أو أورابا ، أو كارتاخينا ، أو سانتا مارتا ، أو كورو ، أو كوماننا . وكانت أشدها إثارة ، وأكثرها نجاحا بصفة عامة ، حملة خمينيث دي كيسادا إلى المرتفعات الكولومبية . وكثير من هذا الطور من الفتح كان قتال أدغال وتلال في أسوأ الظروف . وكان الهنود عادة متوحشين ومحاربين إلى أقصى حد ، وكانت الحرب كذلك قاسية ولا تعرف الرحمة من كلا الجانبين . ولأنه في هذه الجهة وما خلفها من الأراضي كان مسرح عمليات بالبو ، وانداجويا ، وباستيداس ، وهيرديا ، وسينار ، وفاديو ، وروبليدو .

ويأتي بالبو الأول بجدارة بين هذه المجموعة المشتقة . قال أوفيدو الذي كان يعرفه حق المعرفة إن ، فاسكونوليت كان كل شيء ، في البرزخ . . . وكان يتهوق كثيرا جداً على الآخرين ، وكان طموحا ووجه أفكاره نحو السلطة ، فلم يخلق ليضيع وقته في خمول . وبقراءة رسالة بالبو المطولة

للبلك ، المدونة في ٢٠ من يناير سنة ١٥١٣ ، يستطيع المرء أن يتبين كم فقدت إسبانيا وإمبراطوريتها في العالم الجديد بموت هذا القائد الذي امتاز بالحسنة والقوة الفائقين في وقت مبكر .

وتشمل أراضي هر بلات مساحة شاسعة في أرجنتين وأوروغواي وباراجواي وبوليفيا وتقدم الإسبانيون نحو هذا الفراغ جاء من اتجاهات مختلفة — من الشمال عن طريق النهر الأصلي نفسه ، أو عن الطريق البري من الساحل البرازيلي ، أو منحدرين من أراضي شاركاس المرتفعة في بيرو العليا أو بوليفيا ، ومن فوق الأنديز في تشيلي . وبعد الفشل الأول في بوينس آيريس أصبحت أسونثيون المركز الذي تتشعب منه الجماعات بعيداً وعلى نطاق واسع لكي يؤسسوا مدناً جديدة مثل سانتافي وسانتا كروث دي لاسييرا ، أو يؤسسوا من جديد مدناً مندثرة مثل بوينس آيريس .

ولم تكن هناك أمم هندية كبيرة وجيدة التنظيم ليقاتلوها . وتعلم الإسبانيون أحياناً كيف يعيشون جنباً إلى جنب مع الهنود بعد العداوات الأولى كما فعلوا في باراجواي . وكان الإسبانيون من زمن مبكر جداً مستعمرين بقدر ما هم فاتحون في أراضي الحدود المكشوفة هذه . وتبين أن الذهب والفضة اللذين كانا السبب الأساسي في نزوحهم ليس إلا وهما . ولذلك نزعوا إلى الاستقرار في بقعة بهجة يتعون أنفسهم بقناعة الريف في حياة غير محدودة : وحيث وجدوا أنفسهم أحراراً يجوبون البلاد بلا هدف عندما كان يعاودهم مزاجهم القديم ، فقد كانت الأرض مفتوحة أمامهم ، وتدفقت الأنهار تستضيفهم عبر الأراضي ، وقد توافرت لديهم الخيول .

وكان فتح تشيلي امتداداً لفتح بيرو . ولم تكن حملة الماجرو - منحدرًا برجاله من خلف الجانب الشرقي للجبال ، ثم فوق الممرات في أرض الماپوشو ثم مرتداً إلى صحراء كشكو القاسية — إلا مجرد إغارة ، غزوة استطلاعية ،



لكنها كانت من أعظم ما في الفتح جميعا . فقد أنجز بدرودى فالدنيا وضباطه ومن خلفهم - أجيرى ، وفياجرا ، ومونروى ذو الركابين الذهبيين ، وهورتادودى مندونا - العملية الأساسية في الفتح ، أو قل بدوها على الأقل . فلم تكن قد أنجزت تماما .

وكان هذا آخر حد للفتح . وهنا على حافة العالم القاصية كان وادى تشيلي في الحقيقة جزيرة مغرية تحيط بها من أربعة جوانب الصحراء والجبال والغابة والمحيط . وكانت الغابة موطن الأروكاريان ، ولكنهم ما كانوا ليرغبوا حتى في الذهاب إلى إلفيم الأرخيل الذى تسكنه العواصف . فقد استمر فترة طويلة لا يقدم لمن يرتاده إلا قليلا فيما عدا الأخطار والصعاب . وكان الجزاء قليلا إلا للشخصيات القوية ، وهذه قد أتى بها الفاتحون معهم ، وانتهت بهم الحال إلى حيازة شيء أكثر قيمة من الذهب والفضة ، ألا وهو هذه الأرض المفضلة ذاتها . ولكن ثمن البقاء لسنوات عدة كان هو اليقظة والحذر الدائبين . ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص من الإسبانيين في أى وقت من الأوقات ، غير أن مركزهم اليأس كان يتطلب منهم شجاعة تفوق القدر الذى يحتاج إليه جنسهم . فقد كان أعداؤهم غلاظ القلوب ، يدمرون مستعمراتهم ، وكانت مواقع حامياتهم المنعزلة تسكنسح ، ومع ذلك فبمعجزة ما من الصلابة الإسبانية ، بقى المجتمع الصغير صامدا لم تسحقه يوما ما الأعداد التى كانت تهدد بالإطباق عليه بين آونة وأخرى . وأخيراً فإن جذور هذا المجتمع كانت عميقة في الأرض بحيث لم تقتلع في وقت من الأوقات .

وكان هناك مائة وخمسون رجلا في الفرقة الأصلية ، وامرأة واحدة هى إينيس سواريث ، محظية فالدنيا . واتسمت بالشجاعة كالآخرين . ومن بين أربعة عشر مخلدا من فاتحى تشيلي: خوان فالينتى الزنجى ، وهو عبد آبق من المكسيك ، وأحد أفراد جيش الماجرو . ومات تلك الحملة في المعركة

مع الهنود ، وسبعة شنقوا ، واثنان ضربت عنقهما ، وأربعة آخرون ماتوا مينة نكراء ، وأربعة عشر تركوا تشيلي ، معظمهم إلى بيرو ، ولم يعودوا . وعاش الباقون في المستعمرة التي أسسوها . وجاء فالديا إلى تشيلي سنة ١٥٤٠ بعد خمس سنوات من حملة المايجو . وبعد مضي ربع قرن ، أى فى سنة ١٥٦٥ ، لم يكن هناك أكثر من ١٥٠٠ إسباني فى تشيلي وبقيت نسبة من مانوا فى الحرب كما هى ، وفى ذلك طبعا لرواية كاتب من تشيلي ، كان هناك على الأرجح ٢٠٠٠٠ مولد فى الإقليم . وكتب شخص مقيم فى سانتياجو فى تلك السنة أنه كان يوجد من اثنين إلى ثمانية من المولدين فى كل بيت فى المدينة .

وكان نموذج فاتحى تشيلي فرانسيسكو دى أجيرى . وهذه الشخصية الجبارة كان شريفا من أشراف استريما دورا ، ولما ترك البلاد إلى الهند الغربية كان قد عد محاربا قديما ، فقد اشترك فى الحروب الإيطالية ، وكان ممثلا للملك (٥) فى بلدته الأصلية تالافيرا دى لاريننا . وأخذ ابنه البالغ من العمر ست سنوات معه إلى العالم الجديد حيث وافته هناك بعد ثلاث وعشرين سنة زوجته وأربعة آخرون من أبنائه . وفى هذه الأثناء ، وكأب لخسين طفلا مولداً على الأقل ، قام بعمل كبير لصنع جنس تشيلي جديد . ووصل إلى بيرو واشترك بكل قلبه فى عملية الفتح . وعندما قام فالديا بمحلمته على تشيلي قابله أجيرى فى أناكاما بخمسة وعشرين من الفرسان واشتركوا معه فى المسيرة . وكان أحد المؤسسين وأول قاض (٥) لسانتياجو ، والحاكم للعسكرى للمستعمرة ، ومؤسس لاسيرينا ، ومحافظ توكومان على الجانب الآخر من الجبال . وكان أكثر أدبا من معظم زملائه . وفضلا عن ذلك فقد كان مقاتلا لا يقهر . وعاش وحارب بابتهاج عظيم . لقد كانت الحرب لعبة بالنسبة إليه . وكانت تشيلي وكثير من أنحاء أرجنتينا ملعبه . وجعل

من بينه حصنا ، فى أية جهة كان له فيها يدت ، بمدفع فوق السقف ، ولكنه كان شخصا لا يخلد إلى الراحة ، وكان يفضل أن يقضى وقته فى الطريق إلى الحرب مع جماعة صغيرة من ضباطه يرهبون قلوب أعدائهم سواء من الهنود أم الإسبانيين . وكان آخر عمل حربى له يهدف إلى هزيمة جماعة من رجال دريك الذين نهبوا فلبارايسو وردمهم إلى سفينةهم . وبعد ثلاث سنوات توفى فى مدينة لاسيرينا الجميلة بكل ما يليق به من وقار . وكان هذا فى سنة ١٥٨١ أى بعد أكثر من أربعين سنة من قدومه إلى تشيلي مع فالديا ، وقد جاوز سن السبعين بسنين . وكان جهورى الصوت وسبابا . وقد جلبت له أيمانه الخليطة مشكلات طويلة مع محكمة التفتيش التى كان يخرج من برائتها فى كل مرة أقل وقاراً من ذى قبل . وقبل وفاته كان قد فقد من أبنائه الأربعة الإسبانيين ثلاثة فى خدمة الملك ، وصهرا ، وثلاثة من أبناء الأخ - وثروة أمير .

#### مهمة الاستعمار

انطفاً طيب الفتح وقضى معه الرجال الذين صنعوه . بذلوا مالديهم من نشاط فى ألف معركة ومسيرة مضنية خلال الصحراء والجبال والأدغال . ولقد ظفروا بالهدوء ، وكان من حسن حظ مستقبل الإمبراطورية الإسبانية الجديدة أنهم كانوا على استعداد للتقاعد . فبذ البداية الأولى ، حينما كانت الحروب تهدأ لمدة طويلة ، وحيث لم يكن هناك أمل فى الحصول على ذهب ما ، كانوا يمارسون الزراعة أو تربية الحيوانات أو التجارة ، وكثرت أعداد الحيوانات كثيراً فى الجزر . وعندما أوقدت النار لحملة جديدة ، كانت هناك خيول متوافرة ولحم خنزير وشرائح اللحم البقرى المجففة (\*) لإطعام

القوة في المراحل الأولى من الحملة . وقد انتهى كل هذا في ذلك الوقت ، واستقروا إلى الأبد ، ورجع بعضهم إلى الأرض التي كانوا دائماً يشعرون بحنين شديد نحوها . فإذا كان قد نالهم أرض موثقة مكافأة لهم على خدماتهم فقد عاشوا فيها وسط أتباعهم الهنود والمستأجرين . وفي بعض الأحيان كانوا يمارسون التجارة من جديد كما كانوا يفعلون في الفترة التي سبقت الحروب . وعلى أية حال كان الفاتحون هم أول المستعمرين(\*) . وانقلبوا شيئاً فشيئاً إلى أساليب نظام الحياة المدنية الجديد وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه . وعندما سأل خوان خوفرى أحد ضباط فالديا الملك في سنة ١٥٥٣ عن قطعة على سفوح ثرودى سان كريستوبال لبنى فوقها مصنعاً كتب له يقول : « أنا فاتح ومستعمر ، وأعول أسرة — من أوائل الذين خدموا جلالته في هذه المقاطعة — وتزوجت هنا ، وأرجو أن أعيش هنا على الدوام » . ومع ذلك فبقدر ما كان يملأهم الزهو والشراسة كالمحاربين القدامى ، استمروا بلا انقطاع ينددون بالسكيفية التي كانت الرسميات الجديدة الواردة من إسبانيا تدار بها الأمور .

وربما جاءت أوقات رضى الفاتحون فيها كثيراً عن حياتهم في الزراعة وتربية الحيوانات ، الحرفيين اللتين أدخلوهما في البلاد ، رضاهم عن أبحادهم الحربية<sup>(٢٧)</sup> . ولقد كان برنال دياث نخوراً جداً بأنه أول من غرس أشجار البرتقال في المكسيك . وكان اهتمامه بمثل هذه الأشياء تعوض عن شيء من أعمال بنارو . ويروى لنا سميثا زيارة الشخص الذى يغتال الفاتح فيما بعد لحديقة منزل بنارو في ليا : « ثم اقتطف الأمير بيده نفسه ست برتقالات من الشجرة بوصف كونها أول شجرة أثمرت في تلك البلاد ، وأعطائها إلى خوان هيرادا ، وترمز هذه الحادثة إلى التغير الذى طرأ على بيرو منذ

الشقاق الذى شجر بين أتباع بثارو وأتباع الماجرو «رجال تشيلي» ، ولفترة قصيرة كان هناك وعد بالسلام فى ييرو ، وفى تاريخ هيريرا : «بدأ هناك جنى القمح والشعير ومحصولات كثيرة أخرى من محاصيل قشتالة - وكان هناك نظام حسن وهدوء فى مدن القشتاليين ، . وأول قمح وصل إلى ييرو هو الذى جاءت به دونيا ماربادى اسكوبار زوجة أحد الفاتحين (٢٨) . وقد والت تكثيره لبضع سنوات من الجيوب القليلة التى أحضرتها إلى أن أصبح عندها ما يكفى لتوزيعه على المزارعين فى الجبلات المجاورة . وأول أعناب غرس فى ييرو غرسها فرانسيسكو دى كارافانتيس . وفى وقت لاحق غرس كابتن بارتولومى دى تراثاس الكروم بالقرب من كمشكو ، وعندما بلغت حجمها كبيرا أرسل ثلاثين هنديا يحملين بالأعناب إلى والدجار سيلا سوا الإنكا .

ومن فترة مبكرة فى الفتح جاء الناس إلى العالم الجديد ، لا كجنود ، بل كمدينين . ولقد حاول كولمبس أن يحضر مزارعين يكرسون كل وقتهم فى العمل على الأرض ، كما حاول لاس كاساس أن يؤسس مستعمرة زراعية من الإسبانيين . وتبين سجلات الأشخاص المرخص لهم بالذهاب إلى الهند الغربية أسماء وحرف كثير من أصحاب الحرف والصناع المهرة ، وتوضح الأحوال المعقدة التى كانت تزايد فى المجتمعات المدنية التى كانت قد تطورت فى المستعمرات . ومن الذين رخص لهم بعبور الأطلنطى فى سنة ١٥٠٩ جورجى فيتوريا ، مزارع ، ودييجو بيريث ، مزارع ومكارى (\*) ، ويروسيد تاجر ، وأنطونيوريث ، محترف فلاحية بساتين . ويتضمن كشف السنة التالية صيدليا ، وأربعة من صانعى الأحذية ، وصانع آلات قاطعة ، وسباك . وفاحص معادن من فلاندرز . وبعد ذلك يصبح كشف المهنيين أكثر تنوعا بانتظام . وفى سنة ١٥١١ منح نجار ، وحلاق ، وحفار ، وحائك .

ملابس، ونقاش، وحداد، وصانع أحذية تصريحات للهجرة إلى المستعمرات وفي السنة التالية أضيف صانع جوارب، وصانع عربات. وفي سنة ١٥١٣ تظهر الحرف الآتية في السجلات لأول مرة: صانع فضيات، صيرفي، صانع شموع، معدن، ملاط، خياط. ومن المهاجرين الآخرين السيد خيرونيمو، جراح خلع الأسنان، وابنه ومساعد وخادم. وفي نفس السنة هاجر ديجو جارسيا من أشبيلية بجماعة مكونة من أخته إينيس، وإينيس فرنانديث كقهرمانة(\*)، وسبامتيان دي مندوثا، وربما كان هذا الشخص هو أول راعي ماشية محترف(\*\*) يذهب إلى العالم الجديد، وألونسو مارتين، راعي غنم، وألونسو دي اندوخار، زارع فاكهة، وفرانسيسكو، سائق بغال، واثنان آخران. وفي سنة ١٥١٤ عبر ميغيل ريث، حلاق أشبيلية، مع حلاق آخر وثلاثة نجارين. وكانت هناك حاجة إلى كثير من البنائين لبناء المدن الجديدة الرصينة. وفي سنة ١٥١٠ هاجر ثمانية بنائين لبناء وإقامة الكنائس الجديدة في هسبانيولا. وتظهر في الكشوف حرف أخرى هي الخراطون والمطرزون وحدادو الأقفال والخبازون والخزفيون وصانعو الصباريج والدروع والسيوف. وفي سنة ١٥٣٥ عبر السيد هرناندو، وهو معلم مبارزة بالسيف إلى الإقليم الساحلي للقارة. وفي نفس السنة صرح للسيد أمتيان، وربما يعد أول طباع في أمريكا الجنوبية، بالاشتراك في حملة مندوثا إلى نهر بلات. وذهب أيضا دكتور هرناندو دي ثامورا كطبيب خاص لمندوسا. وعندما عين جارسيا دي ليرما حاكما لسانتا مارتا في سنة ١٥٢٨، ضمت مجموعته خمسة بنائين، ونجاراً، وملاطين، وصانع سيوف، وصيدليا. وحلاقا، وخياطاً، ورئيس خدم، وخباز فطائر<sup>(٢٩)</sup>.

duenna (\*)

vaquero (\*\*)

ويوضح التطور الذى طرأ على المجتمع المستقر فى پاراجواى مثلاً شائعاً للانتقال من الفتح إلى الاستعمار . فقد أسست اسونثيون بواسطة الرجال الأشداء الذين بقوا من مشروع مندوثا الطموح . والذين صعدوا على طول مجرى النهر حتى وجدوا موقعا يلائم هواهم . ولفترة خاضوا حرباً لا هدف لها فى الغالب ضد قبائل الجوارانى المختلفة صعوداً ونزولاً على طول مجرى النهر وفى داخل وخارج الأراضى التى تقع خلفه . ومع ذلك فلم يكن لدى الهنود شئ يطمع فيه الإسبانيون فى الواقع فيما عدا النساء ولما كن متوافرات للتثقل هنا وهناك ، ونظراً إلى وجود فضاء كاف للعيشة ، فقد جاء كلا الجانبين إلى قبول وجود أحدهما مع الآخر دون ماجة جديدة . وكان المستعمرون الجدد فيما بينهم بعضهم وبعض زمرة تحب الشجار والشكوى ولكن البلاد التى أتوا إليها كانت غنية وجذابة . وأخيراً روض التقدم فى السن ، ونسوتهم الرقيقات ، وسحر البلاد ، وحشيتهم القديمة . كتب هيريرا يقول : « إنها بلاد بهيجة جداً ، مياهها وغاباتها كثيرة ، وهى خصبة وجميلة . وعاشوا سنين طويلة فى دوامة الفتح السارة هذه منعزلين عن العالم الذى تركوه وراءهم ، ونسوا جميع أحلامهم فى الوصول إلى المجد والثراء . وتلاشت ذكرياتهم عن إسبانيا شيئاً فشيئاً بمرور السنين . فقد كان هذا هو موطنهم ، وقد أفادوا منه إلى أقصى حد . ولم تكن هناك كاليات ، ولكن كانت هناك وفرة محشوشة ، وكانت كل الحاجات البسيطة التى تستلزمها الحياة فى المتناول . أما الزخرف الذى جاءوا به فى الأصل فقد بلى ، وارتدوا سراويل من القطن وقبعات ذات حافات عريضة مصنوعة من القش أما الأحذية فقد صنعت من الجلد المدبوغ من قبل . عادوا إلى ممارسة الحرف القديمة التى تركوها من مدة بعيدة وتعلموا مهارات جديدة استلزمها اقتصاد المستعمرة البدائى . فمنهم التجارون وصانعو البراميل ، والنشارون ، وصانعو السفن ، وصانعو الحبال والسلال ، والخدادون ، وصانعو الأحذية . وكان رتشارد لىسكولن من بليموث فى

انجلترا من أنفع مواطني أسونثيون ، وكان واحدا من ثلاثة حدادين ، وفي دكانه كان يوجد مسبك وسندان وثلاث مطارق وملقاطان . وكان هو وزملاؤه يصنعون المسامير والصنابير وأدوات أخرى خفيفة من الحديد لاحتياجات المستعمرين اليومية ، كما صنعوا الحدوات ، لخيولهم ، والمهامين لركاباتهم . وعندما ولى كابيثادى فاكا كما قدم طلبا بالآلا يسمح للمحامين بالمجيء إلى المستعمرة ، لأنهم في الأراضي المستعمرة حديثا يبذرون بذور الشقاق والتقاضى بين الناس . وكان بالبو يصصر كذلك على إقصاء المحامين عن دارين ، ولنفس السبب . ويقول برنال دياث أيضاً إن تقريراً رسمياً من حكام المكسيك طلب من الملك أن «جلالته قد يسره ألا يكلف أى طالب علم أو أدباء ليحضروا إلى هذه البلاد لكي يلقوا بنا في خضم من الاضطراب بما تعلموه وبالمغالطات والكتب» .

وبمرور الوقت اتخذت المستعمرة الصفة الخاصة التي لاتزال تتصف بها حتى الآن وترعرع الأطفال المولودون الذين أنجبهم الفاتحون في مثل ذلك الفيض حولهم ، وتسلوا منهم في حيوية جديدة وإقدام مازكة لهم آباؤهم . وأخيراً لم يصبح هناك إسباني أو جواراني ولكن پاراجواني ، واستكملت العملية .

وكانت تجرى عمليات مشابهة في أرجاء أخرى من العالم الجديد على الرغم من أنها قلما استكملت نفس النهاية ، بل باختلافات كثيرة أخرى وفقاً للعوامل المحلية الخاصة . وكقاعدة عامة احتفظت الأقلية الإسبانية بشخصيتها كطبقة حاكمة بسبب الهجرة من شبه الجزيرة والتي كانت تحددها بانتظام . أما كستاريكا ، حيث كان الإسبان يوتونون الأغلبية ، فقد عاشت خاملة لقرون ، أركاديامنسية ، ومزورة عن الطريق الذي يسلكه المستعمرون . وباستمرار عملية التهجين ، مع التوتر الذي لاحد له مع الأروكاريان ، اتخذت تشيلي كذلك الشكل الذي قدر لها أن تحتفظ به .



وفي المكسيك ويبرو بقى تركيب مجتمع المستعمرين أكثر تعقيداً أكثر كيهم الاجتماعى وتنظيمهم الاقتصادى . ومهما تكن العناصر الإثنوجرافية والثقافية فى الموضوع ، فقد كان ضغط إسبانيا على عادات الناس أقوى دائماً فى مرا كز السلطة مثل مدينة المكسيك وليما منه فى البلاد التى كانت كربولية (\*) أو هندية صريحة فى الجو والمزاج مثل أسونثيون أو كيثكو . ولكن الضغط لم يكن ألبتة شديداً أو ملحا بدرجة تكفى لتحويل هذه المجتمعات المختلطة فى صورة إسبانيا حتى لو أن إسبانيا قد سلكت الطريق الأحق لفرض إرادتها . ولهذا فقد احتفظنا باختلاف كاف يميز الواحدة عن الأخرى على الرغم من أن قانونهما ودينهما واللغة الغالبة أصبحت إسبانية ، ورغم أن عميقة إسبانيا الخاصة قد تعمقت جذورها فى تفكير الناس وفى طرق معيشتهم .

#### البرتغاليون فى البرازيل

كان أخذ البرتغاليين للبرازيل مسألة احتلال واستعمار أكثر منه فتحاً صريحاً . فلم يكن فتحاً فى الواقع أكثر من فتح الأمريكين للغرب ، ولنفس الغرض فى أكثر الأحيان . وكانت هناك مساحات شاسعة من الأراضى لا يقطنها إلا سكان قليلو العدد من الهنود البدائيين . فلم تسكن هناك ضرورة لعمليات حربية على نطاق واسع . وكان هدف البرتغاليين الوحيد أن يمهضوا فى العمل الذى قاموا به بسرعة - وبفائدة - بقدر الإمكان . وكان عددهم قليلاً . ولم يشاءوا أن يعلنوا للعالم عما يقومون به ، كما فعل الإسبانيون فى عدم أكثراتهم المتعالى بالشعوب الأخرى جميعاً ، وكان لديهم ما يكفى من المتاعب وهم يحاولون إبعاد الفرنسيين عن الميدان . وكذلك لم يثقوا فى أبناء عمومهم الإسبانيين فى مراعاة د خط للتقسيم ، (\*\*).

(\*) Creole : مولود من أبوين أوروبين خارج أوروبا ( فى أمريكا وإفريقية ) .

(\*\*) Line of Demarcation : فى سنة ١٤٩٣ عين البابا خطاً هيميا يمتد من القطب الشمالى إلى الجنوبى ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غرب جزر ازورس بحيث تكون الأرض فى غربه مجالا لكشوف إسبانيا والأرض فى شرقه مجالا لكشوف البرتغال ثم زحزح هذا الخط فى السنة التالية نحو الغرب لصالح البرتغال .

ولذلك فقد انطلقوا عبر الفيافي، وعينوا حدودهم بحصون حجرية متباينة أقاموها في الغابة . وكانوا قد اكتسبوا تجارب في بلاد الشرق ، ولذلك لم ينتظروا حينذاك أن يعودوا بكنوز نفخاخة أو مغامرة من هذه الأرض التي توجد فيها غابات الصباغة والبيغاوات والنساء العاريات اللاتي قدمن لهم الترحيب على الشواطئ المترامية . فقد كانوا شعباً عملياً ولم يعبروا الأطلنطي للنسائية ، وانكبوا ليجعلوا من مستعمرتهم البكر العظيمة مورداً للاستثمار المجزى بالسكر والبضائع العادية التي كانت لها سوق منتظمة ومربحة في أوروبا . وفي أثناء هذه العملية أقاموا مجتمعاً ريفياً أسسوه على استخدام الرقيق الزنوج بعد أن فشلوا في استخدام العمال الهنود . وقد نجح هذا المجتمع نجاحاً فريداً في خدمة الغرض الذي أسس من أجله . أما أولئك الذين نزعوا إلى المغامرة فقد اندفعوا إلى الفيافي المجهولة يستكشفون الجهات الداخلية في البلاد ، (هـ) هؤلاء هم رجال الحدود الأشداء الذين آمنوا مستقبل البرازيل كدولة واحدة .

## هوامش الفصل الرابع

Gonzalo Fernandez de Oviedo y Valdés, «Historia (1) General y Natural de las Indias, Islas y Tierra Firme del Mar Océano» (4 vols., Madrid, 1851-55), IV, 185.

من الأبحاث الفرعية الشائقة عن اقتصاديات الفتح ما رواه أوفيدو . وقد قدرت القيمة الكلية لفدية أتاهاوبا بـ ١٣٢٦٥٣٩ بيسو قيمة الذهب مضافا إليها ٥١٦١٠ ماركو من الفضة . ومن الأمثلة على تضخم الائتمان الناجمة عن قوة الفاتحين الشرائية التي ازدادت فجأة : حصان بيع بمبلغ يتراوح بين ٢٥٠٠ ، ٣٥٠٠٠ بيسو ذهبا ، دن من النبيذ ٦٠ بيسو ، لفاع فلمنكى من ١٠٠ - ١٢٠ بيسو ، سيف من ٤٠ - ٥٠ بيسو ، قص من الثوم بنصف بيسو

Ibid., pp. 200-01.

(٢) من المرجح أن أحسن تاريخ من جزء واحد كتب عن الفتح هو :

F. A. Kirkpatrick, «The Spanish Conquistadores» (London, 1934).

وعن التحليل الشائق لأخلاق ودوافع الفاتحين انظر :

Rufino Blanco Fombona, «El Conquistador Español del Siglo XVI» (Madrid, 1922) especially pp. 15, 201, 241-44, 263-64.

(٣) يخبرنا أوفيدو عن مصير الجماعة الكبيرة التي خرجت الى البرزخ مع بدرارياس . كثير منهم مات في الاغارات ضد الهنود . « هذا القنص وهذه المطاردة الشيطانية » وفي مدينة سانتا ماريا دل أنتجوا دى دارين التي تطل على البحر والتي أنشأها بالبو سقط كثير منهم في الشوارع جوعا . ومات من خمسة عشر الى عشرين يوميا في المدينة التعسة حتى هلك أكثر من ٥٠٠ في فترة وجيزة .

Op. cit., III, 37.

(٤) طبقا لرواية أولروخ شميدل الجندي الألماني الذي كان واحدا ممن بقوا أحياء ، حينما أخذ خوان دى أيولاس الباقيين من قوة مندوثا في الرحلة نحو منابع النهر .

«Viaje al Rio de la Plata» (tr. from the German, Buenos Aires, 1942), pp. 22, 23.

في وقت لاحق ضرب أيولاس حتى الموت في حملة طويلة الى السرب من نهر باراجواي ، ومعه ٨٠ اسبانيا ، قتله هنود كانوا قد أكدوا له صداقتهم .

(٥) من الجنود المتمردين الذين قتلوا باستيداس ابن للعالم في اللغة والانسانيات انطونيو دى لبريخا . وقد أطلق أوفبيدو على الخزي الذى لحق بأبيه « الشيء الفظيع الذى ينم عن العار » .  
Op. Cit., II, 343.

(٦) ( لقد كان رجلا لا مثيل له مطلقا في جميع تأريخات المفتح . ولكن لولا نكسة من سوء الحظ والعداوة التى جلبها على نفسه بحمايته الهنود لسجل التاريخ اسمه في مقدمة الشخصيات من بين جميع الفاتحين » .

Robert Bontine Cunningham Graham. «The Conquest of the River Plate» (New York, 1924), P. 5.  
See also ibid., P. 158.

وعن مسيرته البرية من الساحل البرازيلى الى نهر باراجواى كتب أوفبيدو : « في هذه الرحلة الطويلة لم يفقد رجلا واحدا ولم يحارب هنود هذه الأرجاء ، ولذلك فقد وصل بقوته سنالين الى أسونثيون » .  
Op. Cit., II, 189.

وطبقا لرواية هيريرا ، « اهتم الثارنونييث اهتماما خاصا بالاحتفاظ برضاء الهنود ٠٠٠ فقد كان على معرفة جيدة بطبيعة المتوحشين » .  
(٧) « وهؤلاء الرواد الذين كشفوا بلادا جديدة انهكوا أنفسهم بطيشهم وحروبهم الاهلية » .

Peter Martyr (Pietro Martire d'Anghiera), «De Orbe Novo» (tr. from the Latin, 2 vols., New York, 1912), I. P. 217.

« ولولا تحاسد الاسبانيين الذين لا يستطيعون الاتفاق فيما بينهم ٠٠ لكانت كل هذه الأرجاء قد خضعت للمفتح ٠٠٠ فكل منهم عدو علنى لرفاقه في هذا العراك العكر من أجل الطموح ، والذى يغشى أبصارهم » .  
Ibid., P. 340.

في أمريكا الوسطى بين كريستوبال دى أوليد وجيل جنثاليث دافيلا وضباط بدرارياس فيقول : « ان الاسبانيين الذين لا يستطيعون تحمل العمل متعاونين يقتل بعضهم بعضا بمجرد أن يلنقوا ٠٠ 413 II

(٨) كتب سير والتر رالى الذى لقي صعابا كثيرة في الأورينوكو يقول : « ولا أنا مغرم كثيرا بحب هذا المسكن ، والترقب ، والهم ، والخطر ، والأمراض ، والروائح الكريهة ، والطعام الرديء ، وكثير من الشرور الأخرى التى تلازم هذه الرحلات ، لكى أقدم على واحدة منها بعد ذلك ، لو لم أتأكد من أن الشمس لا تضيء على ثروة ضخمة تعدها في أية جهة أخرى فوق سطح الأرض » .

In Habluyt, «Voyages» (Everyman's Library). VII, 327.

(٩) بعد اعدامه ، « حزن جميع الهنود قائلين ان الملاجرو كان ضابطا كفئا وكانوا يلقون منه دائما معاملة حسنة »  
Cieza de Leon, «The War of Las Salinas», op. cit., P. 222.

وقال سينيثا عن جنثالو بثارو : « كان دائما عادلا وميالا الى الرحمة ، فلم يأمر باعدام أى شخص دون محاكمة . وعند ما عاد الى ليما سن بعض قوانين عظيمة لحماية الهنود . واعترف جاسكا ( الذى أعدمه ) أن جنثالو بثارو كان حاكما عظيما »  
«The War of Quito», op. cit., P. 158.

(١٠) عندما مات لورنثر دى الدانا ، وهو من الفاتحين المفضلين الذين فتحوا بيرو في ١٥٧١ ترك كل ثروته لكي تستثمر لدفع الجزية أو ضريبة الرأس التي فرضها الملك على الهنود الذين كانوا يعيشون في ضياعه .

Ibid., P. 74

(١١) قال دون كيخوتي : « ان الحرب مدرسة فيها يصبح الجشعون أحرارا والأحرار سفهاء ، وان وجدت جنديا يده مغلوله الى عنقه فذلك احدى الأعاجيب التي لا تحدث الا نادرا » .

(١٢) « تلك الصورة والتمثال الذى يمثل الشمس ( وهو مصنوع من لوح من الذهب ) وقع عند أخذ الاسبانيين لتلك المدينة الامبراطورية من نصيب رائد شجاع اسمه مانسيو سييرا ليجيسامو . ويقولون انه كان مقامرا كبيرا ، فقامر بها وخسرها ذات ليلة مما أدى الى القول المأثور : يقامر بالشمس قبل شروقها » .

Vazquez de Espinosa, op. cit., P. 561.

(١٣) كتب برنال دياث عن مصاعب الفاتحين المالية يقول : « كثرت بين جنود جيشنا عقود ديون ثقيلة ، فقد بيع قوس باثنى عشر جنيها ونصف ، وكانت البندقية تقدر بخمسة وعشرين جنيها ، والحصان بمائتى جنيه بل أكثر ، واحتفظت جميع الأشياء الأخرى بارتفاع مماثل في الأسعار . ثم ان جراحا اسمه ميستر خوان رفع أجره ، كما فعل طبيب اسمه مورسيا وكان صيدليا وحلاقا . ويجانب هذا فتحت أبواب أخرى لابتزاز النقود كان يلزم الانفاق فيها من أنصبتنا » .

Ibid., P. 365.

In Charles C. Griffin, «Concerning Latin American Cul- (١٤) ture» (New York, 1940), P. 53.

كانت روح الفاتح تجمع بين الجراءة والجشع ، وبين الاعتقاد في الخرافات والقسوة ، وبين زهو الشريف الاسباني وتكشف الناسك ،

وبين الفردية الشديدة والتلف على المجد بايمان ثابت في عظمة مصيره  
الشخصي » .

Francisco Garcia Calderon : «Latin America;  
Its Rise and Progress» (tr. from the French, London, 1915).  
P. 45.

(١٥) « كان لزاما على قائد الفاتحين أن يكون ، فوق كل شيء ،  
رجل أعمال له رأس مال وائتمان ومشروعات » .

Carlos Pereyra, «Las Huellas de los Conquistadores»  
(Madrid, n. d.), P. 89.

وقد أطلق سير آرثر هلبس على كورتيس «رجل أعمال بلغ حد الكمال»  
«The Spanish Conquest in America» (4 vols. London,  
1855), III, 10.

ويدون جرمان أرسنييجاس كشفا « بأصحاب رءوس الأموال » الآتي  
نكرمهم بين المستكشفين والفاتحين الأوائل : ديجو فيلا سكيث الذي  
تركه كورتيس في مازق في كوبا ، وباستيداس وفيرنانديث دي لوجو في  
شمال القارة ، وبدرو دي مندوثا في نهر بلات ، والاخوة بنثون ظهراء  
وزملاء كولبس ، وصاحب التزام شارل الخامس الألماني .  
«El Estudiante de la Mesa Redonda» (Santiago, Chile,  
1936), P. 93.

وبعد أن صرف خوان دي فاديو ٥٠.٠٠٠ بيسو ذهباً في تجهيز  
حملته الى داخل كولومبيا تركه رجاله عند كالي لينضموا الى  
بنالكاثار ، واستمر هو متجها الى بيرو ليحرب حظه من جديد .  
Op. Cit., II, 462.

(١٦) كانت درع الكانو تتكون من كرة منقوش عليها عبارة « أنت  
أول من أتم رحلة حولي » . وقد عبر ديجو منديث ، بعد أن تحطمت  
سفينة كولبس على ساحل جاميكا الى هسبانيولا في زورق من زوارق  
الهنود ، ثم سار من ساحلها الغربي الى مدينة سانتو دومنجو يطالب  
النجدة للأميرال . « ومكافأة له على ولائه أعطاه الملك درعا منقوشا  
عليها نفس الزورق » .

Op. Cit., IV, 384 - 5.

(١٧) انظر جارسيلاسو دي لا فيجا .

«Historia General» op. cit., II, 378. Pereyra op. cit., pp.  
266 - 7 — Charles Edward Chapman, «Hispanic America :  
Colonial and Republican (New York, 1937) P. 32.

يدون أوفبيدو كشفا بأسماء وموطن ٥٤ رجلا هم أول من نزل الى  
الأمزون • فمن استريما دورا جاء أوريانا وثلاثة غيره من تروخيو  
وهى مسقط رأس الاخوة بثارو ، وجاء اثنان من باراخوث ، واثنان من  
جهة ميديين وكان هناك ثمانية من الركن الجنوبي الغربى للأندلس ،  
منهم ثلاثة من بالوس وأربعة من موجير • وجاء ثلاثة من الباسك  
وثلاثة من أستورياس واثنان من غاليسيا واثنان من البرتغال •

Op., cit., IV, 384-5.

(١٨) كتب كورتيس عن حصاره لعاصمة الأزانقة يقول : « ولما  
رأيت الناس في المدينة تغمرهم روح الثورة ، وبدوا مصممين على الموت  
كما لم يفعل شعب من قبل ، لم أعرف أى طريقة أسلك ••• لأتجنب  
تدمير مدينتهم كلية وهى التى كانت أجمل شيء في الوجود » •  
Ibid., II, 107.

(١٩) فلو أن جواينكا ( هواينا كاباك ) هذا كان على قيد الحياة  
عندما دخلنا نحن الاسبانيين البلاد ، لكان من المستحيل علينا أن نأخذها  
لأنه كان محبوبا جدا من جميع أتباعه • «

Pedro Pizarro, «Relation of the Discovery and Conquest  
of the Kingdom of Peru» (tr. from the Spanish, 2 vols., New  
York, 1921), I, 199.

(٢٠) قتل خوان دى لا كوسا وسبعون أو ثمانون من رجاله بالأسهم  
المسممة عند تورباكو على خليج أورابا • وأصيب أيضا ألونسو أوخيدا  
وهو من أشجع الفاتحين الأوائل بسهم مسمم ، واستخدمت قطع الحديد  
المتوهج على الجرح لكيه •

Pereyra, op. cit., P. 170.

وأخيرا مات أوخيدا ، وهو المشهور ببسالته الجسمية ، في هسبانيولا  
من جروحه ومتاعبه والشدائد التى انتابته • « وعندما عرف أنه  
سيموت ، تدثر في عباءة راهب فرانسيسكانى منهكا ومريضا وحائقا على  
كل المحن والحظ العائر الذى أصابه » •

Oviedo, op. cit., II, 423.

(٢١) ترك كورتيس في رحلته الى هسبانيولا حصانا أخرج بين  
هنود شمال جواتيمالا • « وعامل الاتشا الحصان كأنه اله ، وقدموا  
له اللدجاج واللحم وأكاليل الزهور مما أدى الى موت الحصان على هذا  
اللون من الطعام • وانتاب الذعر الاتشا عند موت الاله على أيديهم ،  
ففتحوا صنما من الحجر على شكل الحصان وعبدوه لكى يبرهنوا على  
أنهم كانوا غير مسئولين عن موته » • وعثر قسيس على التمثال في  
١٦١٨ فحطمه لأنه عبده دنسا •

Sylvanus G. Morley «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), P. 123.

(٢٢) « ربما كان أعظم عمل جرىء يسجله التاريخ هو القبض على مونتنسوما في وسط بلاطه وحمله الى المعسكرات الأسبانية ، وهو أجراء مذهل في تصوره ، ولا يمكن تصديقه في تنفيذه بحيث لا شيء ينقله من مجال الخرافة الى مجال التاريخ سوى الجرم الغفير من المشاهدين الذين تتفق روايتهم عن هذه الحادثة » .

F. A. Mc. Nutt, introduction, Letters of Cortés, op. cit., I, 34.

وكتب برنال دياث يقول : « الآن فلندع الفضوليين يتأملون فيما تمنا به من أعمال بطولية : أولا في تدمير سفننا وبذلك فقدنا كل أمل في التقهر ، وثانيا في دخولنا مدينة المكسيك بعد التحذيرات المرجفة التي جاءتنا ، وثالثا في جراتنا في أخذ مونتنسوما العظيم أسيرا ، ملك كل تلك البلاد ، وفي وسط قصره يحيط به حرسه الكثير العدد ، ورابعا في اعدام ضباطه حرقا علنا أمام قصره وتكبيل الملك بالحديد أثناء الاعدام »  
Op. cit pp. 191 - 2.

وانتشرت شهرة المهارة التي أبداهها كورتيس في سائر أنحاء العالم الجديد . وفي رأى سيثادى ليون في بيرو : « أنه كان مرآة للحكام والضباط في الهند الغربية » .

«The War of Chupas», op., P. 370.

(٢٣) في حملته الجريئة في أدغال جنوب المكسيك والمجزء الشمالى من أمريكا الوسطى كانت حاشيته الخاصة مكونة من « خادم ، وصراف وأمين للأدوات المنزلية ، ورئيس إدارة المنزل ، وكبير الخدم ، وصانع الحلوى ، وحاجب ، وطبيب ، وجراح ، وعدد من الأتباع ، واثنين من حملة الدروع ، وثمانية من ساسة الخيل ، واثنين من مربى البزاة ، وخمسة موسيقيين ، وراقص على المسرح ، ومشعوذ ، ولاعب عرائس ، ومعلم خيل ، وثلاثة بغالين اسبانيين » .

Bernal Diaz, op. cit., P. 439.

ومات الراقص تعباً وقد أنهكه المشى . وكتب برنال دياث يقول : « أما بالنسبة الى موسيقيينا المساكين بالآتهم ، الأبواق والسناطير ، فقد شعروا أنهم افتقدوا ولائم أفراح وحفلات قشتالة ، فعند ذاك توقف عزفهم الا واحدا فقط تعود الجنود أن يسبوه كلما أخذ في الأداء قائلين أنها الذرة لا الموسيقى تلك التي يريدونها » .

Ibid., P. 444.



(٢٤) جارسيلاسودى لا فيجا

«Historia General», op. cit., III, 103, 157.

ادعى هيرنانديث جيرون أنه كان يملك قوى خارقة للطبيعة لكي تشتد سيطرته على الرجال الذين يعتقدون في الخرافات . وكان من بين حاشيته شخص اسمه فياداريس زعم أنه يقرأ « نزوع » الناس بالنظر الى وجوههم وسيماهم ، وأوركيثو وكان يحمل معه « عجلة فيثاغورس مصورة على قطعة من الورق ، وكان يسخر بها على الناس ، ولوسيا المغربية ساحرة كبيرة ادعت أن الوحي ينزل عليها » وبيسرا الكاهنة التي كانت تجيب عن كل سؤال ، وفاسكيث القس الذي كان منجما وعرافا ، وكان أيضا قارئاً للكف وادعى أنه يتنبأ بالمستقبل « بعلامات في اليد » .

«The War of Chupas», op. cit., P. 280.

(٢٥)

كتب سبيثا عن الليلة السابقة لموقعة لاس ساليناس يقول :  
« عندما حل الليل بقى الجميع تحت السلاح تساورهم الآمال والخاوف التي قد يتخيلها القارئ » ، ولكن لم يحدث أبدا أن بدا من أحد الجانبين أى اقتراح لمشروع صلح . وهكذا كان الحقد الذى يدفع سلوكهم » .  
«The War of Las Salinas», op. cit., P. 196.  
ويقتبس سبيثا ملاحظة شبشيريون أنه « لم يعرف أبدا سلاما سيثا ، بل ان سلاما سيثا أفضل من حرب جيدة » .

«The War of Chupas», op. Cit., P. 254.

ويضيف أن للسلام قوة فائقة وفريدة لدرجة أن العالم يتوقف عن الوجود بدون سلام » .

«The War of Las Salinas», op. cit., P. 1.

وفى مكان آخر يقول : « لا يجب أن يقضى الفاتحون والمستعمرون لهذه الأرجاء وقتهم في خوض المعارك والحملات يصيد فيها بعضهم بعضا ، ولكن في الغرس والزرع ، فهما أكثر فائدة » .

«Travels», op. cit., P. 402.

(٢٦) لقد امتاز وانتصر على الذين ظنوا أنهم يستطيعون السيطرة عليه ، فلم يحدث أبدا حتى في الأيام التي بلغت قوته فيها الذروة ، أن أظهر مثل تلك السيطرة والوقار والحضرة المهيبة كما بدا يوم سجنه » .

Garcilaso de la Vega, «Historia General» op. cit. II. 261.  
See ibid, pp. 88, 98. 133, 200, 268.

(٢٧) « لقد شرحت لجلالتكم انقيصرية الحاجة الى النباتات من كل صنف ، ذلك لأن كل نوع من الزراعة قد يزدهر هنا ، ولكن شيئا لم تمدونا به بعد » . وكرر رجائي الى جلالتكم أن تأمروا بالمؤن من بيت

التجارة في اشبيلية فلا يسمح لسفينة أن تغلق دون أن تجيء بعدد معين من النباتات التي تؤدي فضلا للسكان وتسبب رفاهية للبلاد .  
Cortés, «Letters», op. cit., II, 218.

(٢٨)

Garcilaso de la Vega, «Comentarios de los Incas (2 vols., Buenos Aires, 1943), II, 267.

نشرت « المذكرات » لأول مرة في لشبونة في ١٦٠٩ . وأدخلت أشجار الزيتون في بيرو في ١٥٦٠ ، أدخلها أنطونيو دي ريفيرا أحد مؤسسي ليما . أحضر ثلاث أشجار بذرية من إسبانيا وغرسها في حدائقه التي كان يبيع منها العنب والتين والقواون والرماني والبرتقال والليمون وفواكه وخضراوات أخرى إسبانية في سوق ليما بما قيمته ٢٠٠.٠٠٠ بيسو سنويا . وكان يستخدم العبيد الزوج ورتلا من الكلاب لحراسة أشجار الزيتون ، ولكن على الرغم من كل احتياطاته سرقت إحدى الأشجار ونقلت إلى تشيلي ، وهناك أخذت منها براعم للغرس . وبعد ثلاث سنوات أعيدت إلى ليما وغرست سرا في حدائق ريفيرا . ويقول جارسيلاسو انه في الأيام الأولى كان يحرق بكل ضيف يحل في منزل ريفيرا وتقدم له ثلاث زيتونات . Ibid., P. 271. ويروي جارسيلاسو كيف أن جارسيلاسو ميلو أمين الخزانة الملكي في كثكو أرسل ذات مرة ثلاثة جذوع من كشك الماز هدية لوالده . كتب يقول : « أمر أبي امعانا في تبجيل هذا الصنف من الخضراوات الاسبانية بأن يطهى على موقده في مسكنه أمام سبعة أو ثمانية من السادة الذين كانوا يتناولون معه الغذاء . وعندما تم طهى كشك الماز جىء بالزيت والخل ، وصار جارسيلاسو أبي يمرر الجذعين الكبيرين يعطى كل ضيف منهما قطعة ، واحتفظ لنفسه بالثالث مستسما اياهم أن يكون له نصيب الأسد هذه المرة لأن الجذوع كانت شيئا أتى من اسبانيا ، وهكذا أكلوا كشك الماز بتلهل وابتهاج أكثر من تناولهم طائر العنقاء . ومع أنى كنت أخدم على المائدة وأحضرت عناصر الصلصة فأنى لم أتناوق شيئا منه» . Ibid., P. 277.

(٢٩) كان جارسيلاسو دي ليما واحدا من أسوأ الحكام الأوائل ، وقد ألصق به أوفيدو صفة « الظالم ذى السمعة السيئة والذى لا يطاق » ، وقد كان يضيف على شخصه أبهة الأمير العظيم . وقد حوكم أمام

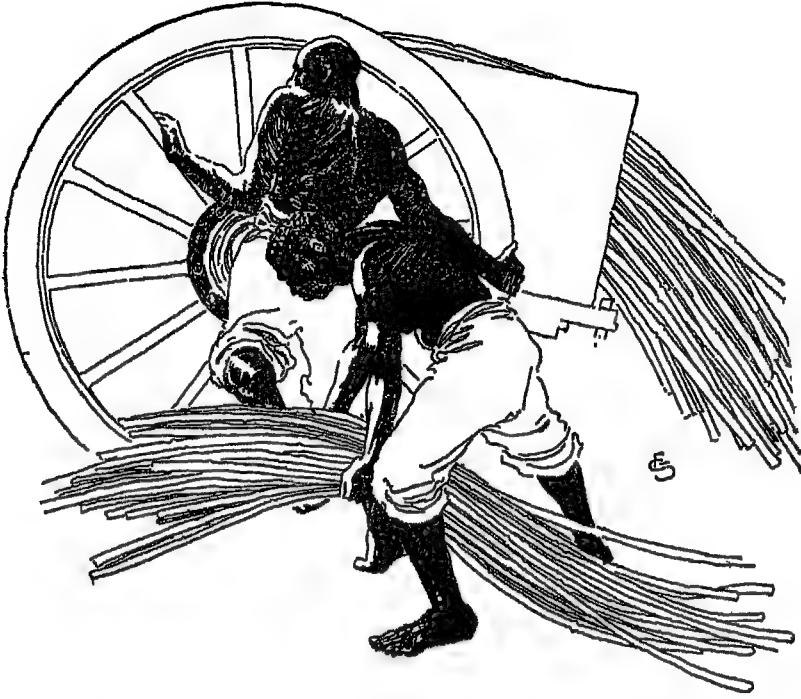
محكمة العدل في سانتو دومينجو على الجرائم التي ارتكبتها في أثناء إدارته ، ومات قبل انتهاء « التمهيد ، أو بحث فترة حكمه • وكان جيانا ، كما كان محبا للمال ، فلم يحترمه الهنود الذين كانوا يسمونه « جالينا » أى فرخة •

op. cit., II, 351.



## الفصل الخامس

# الزنجب



جاء الزنوج فرادى إلى العالم الجديد، كعبيد أو خدم ، مع أول فوج من الفاتحين ، وقد صحب زنجي ، هو انيوفو دي أولافو ، بالبو عند ما كشف المحيط الهادى . ويقال إن زنجياً آخر كان في فريق نارفايث هو الذى أدخل الجدرى إلى المكسيك . ويحكى برنال دياث عن زنجي فيقول عنه : « إنه شخص مضحك ، رقص وصاح فرحاً بعد أن هزم كورتيس نارفايث : ابن هم الرومان الذين أحرزوا مثل هذا النصر المجيد بمثل هذه الأعداد ؟ » وعندما قام فرانسسكو بشارو يستطلع شمال بيرو ترك زنجياً مع الهنود في تومبيس ، ومعه جندي إسباني وخزيرة وديك وفرخة . وفي وقت لاحق ، عندما قطع رأس ديجو دي الماجرو ، زميل بشارو ، في أثناء الحروب الأهلية في بيرو ، كان زنجي هو الذى أخذ جثته إلى الكنيسة للدفن . وكان يصحب الفار نوئيث كايثا دي فاكا في رحلته الطويلة فيما هو الآن الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة زنجي اسمه استيفانيكو أو « ستيف الصغير » ، الذى

خدم فيما بعد كترجمان للراهب ماركوس دى نيشا رسول حملة كورونادو إلى الجنوب الغربي .

وكان الزوج في أثناء الفتح يستخدمون كجلادين(\*) ، وكان يصحب كارباخال « شيطان الأنديز » ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الجنود الإنويبيين ، واستخدمهم لذلك الغرض ، وشغل دو منجو ، وهو زنجي ، وظيفة مزدوجة : جلاداً ومنادياً لمدينة سانتياجو في أيام فالديا . وبعد ذلك بـ من طويل ، عند ما كان همبولدت في فنشويلا كان السياف العمومي في كومانانا زنجياً(١) . وفي الدور الأخير للحروب بين الفاتحين في الأنديز كون فرانيسكو هيرنانديث جيرون جماعة والية للحكومة يزيد عدد أفرادها على ثلاثمائة جندي جمعهم من بيوت ومزارع سادتهم .

#### تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق أهم بكثير من هذه الحالات المتفرقة ، وكان الرقيق يجلبون إلى الهند الغربية كعمال في المناجم وفي المزارع وقد بدأت هذه الحركة حوالي سنة ١٥٠٢ ، أي بعد عشر سنوات فقط من الكشف . وكان الإسبانيون قد زال وهمهم بالنسبة إلى قيمة السكان الأصليين كبقوة عاملة ، وأوصى الرهبان الدومنيكان . تحت ستار حماية الهنود ، باستيراد العبيد الزوج كأخف الآمن . ومنح تصريح في بادىء الأمر باستيراد العبيد المولودين في أوروبا إلى الأنتيل في سنة ١٥٠١ في حكم أوباندو وفي سنة ١٥١١ أحضر خمسون عبداً من إفريقية مباشرة ، وبعد شيء من التردد من جانب السلطات في إسبانيا بخصوص لياقة الإجراء ، فتحت الأبواب على مصاريعها لاستغلال الزنوج في سنة ١٥١٧ . وفي ذلك الوقت منحت اتفاقية احتكار(\*\*) لفليبي لاغراض الإنجاب . ٤٠٠ من الرقيق سنوياً ، على أن يكون ثلثهم من النساء وفي فترة ما كان احتكار جاب الرقيق إلى المستعمرات الإسبانية في

(\*) Verdugos : عشاوى .

(\*\*) Asiento

أيدى أمالى جنوة وفلاندرز والبرتغال وهولندا وإنجلترا ، وكان هناك في كل الأوقات تهريب جسيم للعبيد ، وكثيرا ما كان الموظفون الإسبانيون يتغاضون عنه . يقول هاكويث عن رحلة هوكنز سنة ١٥٦٢ : « ولما تأكد ، ضمن تفصيلات أخرى ، أن الزوج تجارة رابحة في هسبانيولا ، وأن ذلك المورد من الزوج يمكن أخذه بسهولة على ساحل غينيا ، فقد صمم ( هو ) أن يحاول هناك ، . وتبين من المغامرة أنها مربحة جدا ، وفي رحلته الثالثة باع هوكنز مائتي زنجى في ليلة واحدة في ريودي لاهاشا على السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية ، وقال : « كان السكان الإسبانيون في كل الأماكن الأخرى التي تاجرنا فيها مسرورين منا ، وتاجروا معنا عن طيب خاطر ، وفي سنة ١٥٩١ استولى كريستوفر نيوبورت ، وهو قرصان آخر من قراصنة البحار في عصر الازباث ، على سفينة نخاسة برتغالية أبحرت من غينيا لكارتاخينا وفوقها ثلاثمائة زنجى ، باعهم فيما بعد بنقود إسبانية من فئة الثمانية الريالات ( \* ) . وعند مارسا وليم دامبير ، القرصان الأديب ، في ميناء جواياكيل رأى ثلاث سفن إسبانية في النهر وعالها ألف عبد « جميعهم شبان وشابات أشداء » ، ولم يندم إلا لأن طاقمه من الملاحين ليس بالقوة السكانية ليأخذهم عنوة إلى دارين للعمل من أجل الذهب .

وفي الوقت الذي كشفت فيه أمريكا ، كانت تجارة الرقيق الزوج موجودة في البرتغال منذ نصف قرن ، فقد أحضر أنطونيو جنسالفيس أول فوج من العبيد إلى لشبونة في سنة ١٤٤١ أو سنة ١٤٤٢ ، وتكونت شركة بعد ذلك بمدة قصيرة لتضئ في هذه التجارة مع الساحل الغربى لإفريقية . وفي مقاطعة الجارفيس إلى الجنوب من نهر تاخو ( \*\* ) ، حيث كان يغلب لفترة طويلة الدم المغربى ، أدى تدفق الزوج في وقت لاحق إلى تغير في المظهر الثقافي واللونى للسكان . وتأثرت لشبونة نفسها بطابع لم تفقده حتى الآن ، وهوانها المدينة الأوروبية الوحيدة التي نرى بين سكانها عنصرا زنجيا ضخما .

pieces of eight ( \* )

( \*\* ) التاجية .

ووجد البرتغاليون سوقاً مشترية للعبيد في جنوب إسبانيا ، وكانت أشبيلية لفترة مركزاً لهذه التجارة . ولأنه لم يكن هذا المورد من العبيد أن الزفج الأول نقلوا إلى العالم الجديد . ومع ذلك فلم يتأصل الرق أبداً في إسبانيا رغم أن الإسبانيين تعودوا أن يسترقوا الشعوب البيضاء . وكان فك الرقاب تطوعاً أمراً شائعاً ، وبدأ تحرر الزوج المولدين من وقت مبكر يظهر في كشوف الأشخاص المرخص لهم من «بيت التجارة» (٥) ، الذي كان يشرف على التجارة والسفر إلى العالم الجديد ، بالذهاب إلى المستعمرات . ومن أمثلة هؤلاء فرانسيسكو الذي استقل سفينة إلى سانتو دومينجو في سنة ١٥١٠ . وفي سنة ١٥١٢ حصلت المولدة خوانا ، التي أعلنت أنها ابنة فرانسيسكو مارتين دي كاثلا ، وأنها امرأة حرة ، واسمها كريستينا ، مع ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ، على تراخيص بالسفر إلى الجزر . ويتضمن سجل المسافرين في السنة التالية أسماء ستة حرروا من ربقة اللون . وفي سنة ١٥٢٧ عبر الأطلنطي عبد كبير أساقفة تاراغونا مع زوجته فرانسيسكا . وفي سنة ١٥٣٦ تسلم السيد خورجي ، مع زوجته ماريالويث وابنتها خيرونيمو تصريحاً بالعودة إلى سانتو دومينجو حيث كان عبداً للأسقف .

وكان البرتغاليون أكثر تراخياً من الإسبانيين في كتابة التقارير وتدوين الوثائق عن مشروعاتهم فيما وراء البحار ، حتى إن تآريخ قليلة عرفت عن جلب الرقيق إلى البرازيل في أول الأمر . أضف إلى ذلك أنه في فترة تحرير العبيد في سنة ١٨٨٨ دمر أنصار تحرير العبيد جميع السجلات الموجودة عن تجارة الرقيق التي أمكنهم العثور عليها في باثيا وريو . وأول عبيد جلدوا من إفريقية رأساً وصلوا إلى البرازيل في سنة ١٥٣٨ ، حيث أثار ذلك احتجاجات الأب نوبريجا المشهور . وطبقاً لرواية زميله اليسوعي الأب أنشيتا كان هناك أكثر من ١٤٠٠٠ عبد في البرازيل عند حلول سنة ١٥٨٥ ، وهي السنة التي بلغ فيها عدد السكان غير الهنود في المستعمرة حوالي



٥٧٠٠٠ . ومنذ ذلك الوقت نمت التجارة بانتظام حتى توقفت بالأسر  
العالي الإمبراطورى فى سنة ١٨٥٠ . وفى الأربعين السنة بين ١٧٥٩  
و ١٨٠٣ جلب ٦٤٢٠٠٠ زنجى من أنجولا وحدها : وفى ذلك الوقت  
كان سكان البرازيل الملونون يعدون بالملايين ، وكانوا يكونون أكبر تجمع  
للسود فى نصف الكرة الغربى .

وجاء العبيد من المراكز التجارية البرتغالية التى امتدت من فورقى دى  
إل مينا وساوجاوى أجودا ( هوaida ) على ساحل غينيا ، ثم حول الرأس  
( كيب ) إلى موزمبيق . وإذا أخذنا الناحية العددية فى الاعتبار كان المورد  
الأساسى للعبيد هو سلالة البانتو الشاسعة الانتشار فى وسط وجنوب إفريقيا  
— فى السكندرو وأنجولا وموزمبيق حيث كانوا يسمون بأسماء الأقاليم التى  
كانت مسقط رأسهم (٥) ونظراً إلى ما تحلوا به من الوداعة والأمانة كانوا  
يطلبون بصفة خاصة للعمل فى الحقول . وكان عليهم طلب شديد فى  
پرنامبوكو (\*\*) ومارانيا ووريو . وكانت بائعيا تفضل دائماً الزوج الجائين من  
السودان الغربى ، إلا إذا كان المطلوب أن يؤدى العبد خدمات عادية ،  
أو من للقبائل فى الأراضى الداخلية لساحل غينيا . وكان زوج هذه  
المساحة الشاملة أكثر ملاحاة وذكاء من هبيد البانتو . ومع ذلك فقد  
كانوا عادة أصعب انقياداً ، وبعضهم كقبائل الهوسا والفولاني (\*\*\*) المتعاليين  
لا يمكن أن يؤخذوا أبداً قضية مسلمة ، ومن باب أولى تساء معاملتهم .  
وكان البرتغاليون فى بائعيا يفضلون بصفة خاصة قبائل اليوروبا السودانيين  
الذين اشتهروا بالعمل الجـدى وكانوا أحسن مزاجاً من معظم الشعوب

( \* ) Congos; Angolas; Mozambiques.

(\*\*) الآن رسيفى .

(\*\*\*) يلاحظ أن الفولاني قبائل حامية بيضاء . ولعل المؤلف قد التبس عليه الأمر فضمهم

إلى الهوسا زوج نيجيريا المشهورين .

الأخرى في ذلك الجزء من القارة الذي كان يشمل الأشتات والداهومي وكذلك الماندنجو المسلمين .

وبحلول سنة ١٦٠٠ كان العبيد الزوج العامل الأساسي في الاقتصاد الاستعماري في مساحات كبيرة<sup>(٢)</sup> . وكانت هذه حقيقة تتجلى بصفة خاصة في الأقاليم التي تغلب عليها الأحوال الإدارية . فحيث كان ينمو قصب السكر ، كما في شمال البرازيل ، وفي أودية الساحل البيروفي التي ترونها الأنهار ، وفي أرضي المكسيك الحارة(\*) ، وفي سانتودومنجو ، كانوا هم الأيدي العاملة التي لا يمكن الاستغناء عنها . وفي كوبا كان الزنجي عاملاً جنسياً على درجة بالغة الأهمية . ولما كانت كوبا آخر مستعمرة إسبانية نالت استقلالها فقد تحصنت لفترة طويلة ضد المؤثرات التحررية التي أفاد منها الرجل الملون في الجمهوريات . ولما كان أساس اقتصادياتها هو السكر فقد كان اعتماده غير العادي على الأيدي العاملة الزنجية . وفي وقت لاحق عندما ثبت أن الأيدي العاملة التي يمكن الحصول عليها محلياً لا تكافئ حاجة الصناعة العظيمة ، فقد استلزم ذلك جلب السكان من هايتي إلى البلاد أثناء فصل جنس محصول القصب(\*\*) .

ولا يميل الهندي ، وينطبق ذلك على الإسباني بدرجة أكبر ، إلى الركون إلى العمل المضني في حقول القصب . وفي السهل الساحلي لشمال بيرو ، ومنه صعوداً في الأودية التي تتخلل سفوح الأنديز ، حل الزنجي من قديم محل السكان الهنود الأصليين ، كما فعل ذلك لفترة طويلة سابقة في الجزر . وعلى الرغم من أن الزنجي كان خارج عنصره الطبيعي في المناخ

---

(\*) Tierra Caliente أي الأراضي المنخفضة التي تزداد حرارتها تبعاً لذلك . وتسمى أيضاً الأراضي ذات المحصولات الإدارية .  
(\*\*) Zafra

البارد الذى يميز الجبال العالية ، فإن كثيراً منهم استخدموا فى المناجم ، وخصوصاً فى كولومبيا .

وبينما كان للزنجى فى كل الأوقات أنصار من بين رجال الدين ، وحتى من بين العلمانيين ، كانت الفرق الدينية مؤلفة من بين كبار سادة العبيد . وفى القرن السابع عشر قام توماس جيدج ، الدومنيكانى الإنجليزى ، بزيارة ممتلكات كبيرة تابعة لإحدى الفرق فى إقليم شيپاس فى جنوب المكسيك حيث كان يعمل « ما يقرب من مائتى زنجى » فى حقول القصب وطواحين الغلال . وبالقرب من بويلا رأى عدداً مماثلاً من الزنوج فى ضيعة تنتمى إلى فرقته . وتلاقت سفينة إنجليزية باثنتين برتغاليتين تبجران من مصب نهر بلات فى سنة ١٥٨٧ ، وتحملان معاً ثمانين عبداً زنجياً يساؤون فى ذلك الوقت ٤٠٠ دوكات (\*) للواحد فى ييرو ، وحمولة كبيرة من كتب دينية وأدوات أخرى وأربعة أو خمسة رهبان ، منهم راهب أيرلندى وأربع نساء برتغاليات . وكانت السفينتان والحمولة قد اشتراها عميل لأسقف توكومان فى البرازيل ، وكان فى ذلك الوقت يبنى ديرا . وكتب الأب جرقاسونى اليسوعى تقريراً فخواه أنه فى سنة ١٧٢٩ كانت السكينة التابعة لفرقته فى بوينس آيريس بها أكثر من ٣٠٠ عبد . وقدر أنه فى ذلك الوقت كان ثلث سكان المدينة البالغ عددهم ٢٤٠٠٠ من العبيد الزنوج . وفى السنوات الأخيرة من نفس القرن كتب كشكولوركورثو ، الإنسكا ، المتجول أنه شاهد فى كوردوبا مزاداً لآلئى شخص أسود من ضيعتين تابعتين لسكيتين دينيتين ، وكانوا يباعون أسراً أسراً . ومنهم كان يوجد كثير من الموسيقيين وآخرون ذوو مهارات خاصة . وكان لراهبات سانتا تيريزا مزرعة مجاورة فيها ٣٠٠ عبد . وكانت بعض الأسر تمتلك ثلاثين أو أربعين عبداً يخدمون

(\*) Ducat عملة أوروبية قديمة ذهبية تعادل ما يقرب من نصف جنيه . وكانت فى إيطاليا دوكات فضية ذات قيمة أقل .

في داخل المنازل . ويضيف الهندي اللوذعي تلميحا إلى أن النساء العبيد  
اشتهرن بغسل الملابس . وكتب سارمينتو ، وكان ضد الكهنوت ، بعد  
ذلك بفترة طويلة يقول عن نفس المحلة : دكان لكل دير ومنسك للعبادة  
ملك ملاصق ، فيه يربي ثمانمائة عبد تابعين للفرقة من الزوج والنامبو(٥)  
والمولدين . . وقد وصف الرئيس الأرجنتيني الوقح النساء المولدرات  
الصغيرات السن قائلا : « عيون زرق ، وشعر أشقر ، وحركة مثاقلة ،  
وأرجل ملمعة كالرخام ، شركسيات(\*\*) » والله ، وهن كل المحاسن التي تلهب  
العواطف البشرية ، كل ذلك للشرف العظيم والفائدة التي يجنيها الدير الذي  
تنتمي إليه هؤلاء الحوريات .

وفي العقود الأخيرة للعصر الاستعماري قام بعض المراقبين الأجانب  
والأوروبيين بعمل إحصاء للتركيب الجنسي للسكان ، ويظهر أنهم انتهوا إلى  
تقديرات موثوق بها عن العناصر التي يتألفون منها . وفي بدء القرن التاسع  
عشر كانت غالبية سكان البرازيل وكوبا وسانتو دومينجو ونوجا أو مولدين .  
وفي ذلك الوقت قدر العبيد في فنشويلا بـ ٧٢٠٠٠ والمولدون بـ ٤٠٠٠٠٠  
أو حوالي ٧٤٪ من سكان منطقة الحاكم العام . وكان في البرازيل في سنة  
١٧٩٨ ، ٣٢٥٠٠٠ منهم ٤٠٦٠٠٠ محررين ، ١٥٨٢٠٠٠ عبيداً ،  
ومن هؤلاء ٢١١٠٠٠ مولدين ومن تقرير رسمي عمل بعد ذلك بعشرين  
سنة تبين أن مجموع السكان بلغ ٣٨١٧٠٠٠ ، وعدد المحررين ٥٨٥٠٠٠  
والعبيد ١٩٣٠٠٠ ، ويشمل هؤلاء ٢٠٢٠٠٠ مولدين . وتناقص عدد  
الأشخاص المقيدين تحت بند «مولدين» يمثل نزع المولدين الذين في دمهم  
ثمن الصفات الزنجية،(\*\*\*) والمولدين الأكثر بياضا الذين في دمهم ربع

(\*) Zambo : مولد من أب زنجي وأم هندية أو العكس .

(\*\*) اسية إلى بلاد المركس ( المركس ) غرب القوقاز .

(\*\*\*) Octoroons (octaroons)

الصفات الزنجية(\*) إلى الاختفاء تحت بند البيض . وهذه عملية تزايد باستمرار بالسيولة الإثنوجرافية التي يتصف بها سكان البرازيل . وقد قدر السكندر فون همبولدت ، الذى أمضى بضع سنوات في أمريكا الإسبانية في هذه الفترة ، السكان السود في جزر الهند الغربية : ١٣٠.٠٠٠ شخص منهم ٢٣٠.٠٠٠ كانوا عبيداً في كوبا . وعلى أساس البيانات التي قدمت إلى برلمان قادنس يقدر همبولدت عدد ١١٤.٠٠٠ للسكان الأحرار « الملونين » في تلك الجزيرة . ومع ذلك فلم تكن نسب الدم الزنجى ذات بال في تشيلي وكستاريكا وباراجواي ، ولا في المدن الجبلية مثل بوجوتا وكيثو وكشكو وبوتوسي . أما في المدن الساحلية من فيرا كروث ، تم بتقوس ماركابارنا خينا وبامبيا وريو دي جانيرو وبوينس آيريس وليما وجواياكيل إلى هنا ، فكان السكان الزوج والمولودون أغلبية في كل مكان فيما عدا فالبارايسو .

### الزنجى في البرازيل

ليس هناك مكان ما ، اللهم إلا الطرف الغربى لهسبانيولا ، أثر فيه الزنجى على شكل الحضارة تأثيراً عميقاً كما حدث في شمال البرازيل . ولم يكن هذا بسبب ضغط أعداده فقط ، بل أيضاً إلى قوة التقبل التي يتصف بها ساداته البرتغاليون . فالبرتغاليون ، بخلاف الإسبانين كانوا من أكثر الشعوب مرونة تشكيل .

وفي الوقت الذى تكفلت فيه البرتغال باستعمار البرازيل كانت قد نشرت القسم الأنشط من سكانها القليلين ، بكثافة قليلة ، فوق مساحة شاسعة في مغامراتها في آسيا . وكان معدل الوفيات في التوسع الاستعماري البحري

---

(\*) Quadroons . وإلى القارئ طبيعة عملية التهجين : أبيض + زنجى = مولد / أبيض + مولد = كوادرون / أبيض + كوادرون = أوكترون .

عاليا جداً . وشعر البرتغاليون وقتئذ بالحاجة إلى الحفاظ على قوتهم البشرية المتداعية . وبعبارة موجزة كان هدفهم التقليل من الظروف التي تعرضهم للأخطار الختمية التي تستلزمها الريادة المدارية . وبوصف كونهم متعهدي أعمال في نظام إنتاج المزارع المدارية الكبير ، كان عليهم أن يبحثوا عن أيد عاملة رخيصة ومتوافرة . وقد تأكدوا من قبل من عدم لياقة هنود الغابة لغرضهم هذا ، وعلى ذلك فقد اتجهوا إلى العبد الزنجي الذي كان مألوفاً عندهم في البرتغال .

وعمل الزنجي في حقول القصب ومعامل السكر . وعمل حداداً ونجاراً ، وميكانيكياً عاماً في جماعة المنزل الكبير ، المكتفية ذاتياً . وكان مجال أعماله في المدن التي نمت على طوال الساحل يشمل جميع الحرف اليدوية تقريباً ، الحقيبة والحاذقة ، من حمال ومتعهد شحن وتفرغ سفن ، إلى خياط وحلاق . وكان يرتدى الملابس المزركشة وبذلك كان يكون جزءاً من حاشية سيده في حياته وروحاته حول باليها وأولندا . وتكاثر في بيوت الوسية جماعة صاحبة ثروة من النسوة السود العبيد في ترتيب هرمي مفكك من ناحية الأعمار والمهارات والمستويات ، مع الطباخة والخادمة الخصوصية « لسيدة البيت » (\*) في أعلى مراتب النفوذ والهيبة . وكان أطفالهن العراة ، والذين لا رادع لهم ، يتسللون باستمرار دخولا وخروجاً ليزيدوا من الطنين والفوضى — والسرور — التي كانت تصدر من خدم المنزل العاجزين والمتزايدين العدد باستمرار .

ويرى البعض أن من أكثر أطوار الرق إفساداً للآداب الطور الذي كان يمثله في البرازيل « العبد المتكسب » ، والذي كان له أيضاً نظير في مدن المستعمرات الإسبانية . وهذا العبد كان يؤدي شتات الأعمال في المدينة .

ففي بعض الأحيان إذا كان العبد عاملاً غير حاذق فلربما عمل حملاً أو عمل في تحميل وتفريغ السفن أو حتى في أعمال الخدم الحقيرة . وفي بعض الأحيان قد يكون على قدر مطلوب من المهارة ، وبذلك تزداد مكاسبه بالتالي . وفي كلتا الحالتين كان يطلب منه أن يسلم سيده مبلغاً ثابتاً في نهاية كل يوم ، فإذا جاء بفائض فوق هذه « الحصة » فقد كان هذا الفائض من نصيبه هو عادة . وكثير من مواطني باينيا وبرنامبوكو (\*) بمن كان في مقدورهم تديير رأس مال كاف لشراء عبد أو أكثر عاشوا في بطالة على دخلهم من هذا المورد . ومن بين هذه الطبقة من سادة العبيد الصغار زنوج كانوا عبيداً من قبل .

وعلى الرغم من أن كثيراً من مظاهر مجتمع الرقيق هذا يشبه النظام الذي كان سائداً في جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية فإن الاختلافات كانت كثيرة وعظيمة الأثر . ومن المؤكد أن حظ الزنجي في البرازيل كان أحسن بكثير . فلم توجد جهة في العالم ، حيث كان السود يعملون كعبيد، فيها كانوا يعاملون بقدر أكبر من الشفقة أو تفتك الروابط فيها بأقل قدر (٣) فقد كان المزارع البرتغالي بصفة عامة متراحياً لدرجة لا يمكنه معها أن يكون قاسياً . وكانت العلاقة الشخصية بين السيد والعبد وثيقة جداً ، لا يشوبها زهو الجندس ولا التعصب اللوني . لأن البرتغالي كان قد هيا نفسه ضد التعصب الجنسي لمدة قرون من التجارب بمعيشته مع الشعوب الذكناء . وكان البرتغاليون الجنوبيون وبصفة خاصة سكان الجارفيس والميتيجو مولدين بدرجة واضحة من ممارسة التزاوج المختلط مع المغاربة في العصور الوسطى . وفي القرن السابق لاستعمار البرازيل أضاف العبيد الزوج عنصرًا إثنوجرافياً آخر إلى التهجين الموجود ليمتصه مجرى الدم ومجتمع البرتغال الزائد الترحيب . وفي غضون تلك الأثناء كانت

مغامرات البرتغاليين في الشرق قد وسعت اتصالاتهم بالشعوب الملونة الذين أظهروا نحوهم نفس سعة الصدر وسماحة الكاؤوليسكية ، سواء أكانوا من التاميل الغنشي الذين يقطنون ساحل ملبار ، أم الملايو السمر الذين يقطنون الجزر .

واستمرت عملية التهجين في البرازيل لا تعوقها تحاريم أخلاقية أو تقاليد اجتماعية لانبثاق جنس جديد<sup>(٤)</sup> . وساعد على هذه العملية مجموعة من الظروف : شدة العاطمة عند الذكران البرتغاليين ، الإثارة التي يسببها المناخ المداري ، حرية المجتمع الجديد الذي صاغ هو له قواعد السلوك ، النقص في عدد النساء من بني قومه بين المستعمرين الأول ، المتور النسبي الذي انصفت به المرأة البرتغالية المكبوتة والمحجوبة إلى درجة زائدة ، الامتثال السهل - أو الاستسلام - من جانب الزوج ، الإغراء العاطفي للكوادرون والأكوترون الذين تميل بشرتهم إلى البياض كلما توالى مراحل التهجين للإسراع من فورة خلق جنس شيئاً فشيئاً . وكانت الأداة المفضلة في عملية التهجين هي المرأة والزرزور ، (\*) الجائئة من السودان ، بسننهما وفكاتها وكفايتها وتوددها ، في دورها المزدوج الذي كانت تقوم به كسيدة ومدبرة شئون المنزل لكثير من رجال وشبان المستعمرة العزاب<sup>(٥)</sup> وكذلك النساء الأدنى مرتبة الجائيات من الكنغو وأنجولا ، فقد ساهمن كثيراً في ظهور « التورلي » (\*\*) الذي كان يشكل منه الشعب للبرازيل .

وقد أدى الاختلاط الكبير خدمة غير مقصودة لفن السياسة ، لأنه خلق شعباً حيث لم يكن هناك شعب<sup>(٦)</sup> وبدأت الحاجة ماسة إلى عدد من السكان أكبر من طاقة البرتغال أن تورد له لماء الفراغ السكاني

(\*) Mina (minah, myna) طائر

(\*\*) Olla podrida



في الفياثى البرازيلية . وكان خصب المرأة الزنجية ، وساعد الرجل الزنجى القوى ، وقوة احتماله وصبره ، هى التى ساعدت البرتغال على البقاء والنهوض بشمال البرازيل والسهل الساحلى الذى منع الاتصال بالمرتفعات الداخلية من البحر فى جنوب المستعمرة الشاسعة . فلولاها ربما تمكن الفرنسيون والهولنديون من أخذ البرازيل من البرتغاليين .

ووام الزنجى نفسه بسرعة لمطالب حياته فى البرازيل . فقد كان فى وطنه فى وهج الشمس<sup>(٧)</sup> وكان طعامه بسيطاً ، وعلى الرغم مما كان ينقصه من تنوع ، فقد كان غذاء أفضل مما كان يتناوله سيده . ومن وجهة النظر الفيزيائية نجده قد ترعرع فى بيئته الجديدة . فقد تخلص من ربة أصوله الثقافية فى إفريقيا ولقد باعه بنو قومه أنفسهم كعبد رقيق ، وكم قاسى من محنة عبوره المحيط فى عنابر سفن العبيد المكتظة . فلا عجب إذا بدا فى بعض الأحيان مفكراً مكتئباً . ولكن روحه كانت بطبيعتها مرنة إلى درجة أنه فور شفائه من آثار « المعبر الوسيط » (\*) وفور مضيه فى نغم وروتين وجوده الجديد ، كان على استعداد للانتفاع إلى أقصى حد من بلاد بعيدة عن كونها أردأ ما يمكن من بلاد . وحيثما كان ، فقد أشعر روحاً مريحة للحياة على حافة الغابة العظيمة<sup>(٨)</sup> . واستسلم البرتغالى للكتابة العاطفية ، فجاء الزنجى وأخرجه من كآبته العابسة بضحكه وأغانيه . ولا يزال تأثيره ينفذ من موسيقى البرازيل التى تختلف اختلافاً كبيراً عن الأنغام الحزينة التى تتميز بها الموسيقى الشعبية البرتغالية ووضع نمط الاحتفالات للبرازيل ، وعلى الرغم من المهرجين<sup>(\*\*)</sup> والراقصات<sup>(\*\*\*)</sup> بين الطبقة الارستقراطية من المحتفلين ، فإن مهرجان ريو ، وهو أعظم مهرجانات العالم ، من صنع خلاعته المبهجة .

---

Central Passage (\*)

Pierrots (\*\*)

Columbines (\*\*\*)

ومع أنه جاء إلى العالم الجديد وليس عليه سوى سروال من قماش ، فقد أحضر معه في رأسه الأسود جميع المدخر من أساطيره الشعبية ومجموعة من الخرافات وأحاديث الجبن وطقوس الغابة الدينية . وكما فعلت الثقافات المتماثلة في الشمال : الفودون أو الفودور في هايتي والنانيسجو في كوبا ، أعطت الما كومبا أو السكاندومبلي في البرازيل شكلا ومعنى مألوفين لارتباطاته بالقوى الخارقة للطبيعة التي ملأت زوايا عقله البدائي . واختلط «بحرفاته» الخاصة به ما اقتبس من عبادة الهندي للطبيعة وأساطيره الزاخرة . وأحضر الهوسا وقبائل أخرى من السودان الجنوبي معهم عقيدتهم الإسلامية ومعرفتهم بالقرآن الكريم .

وقبل الزنجي الدخول في المسيحية رضا كما فعل الهندي . وتقبل منها ، كما تقبل الهندي ، ما كان في مقدوره فهمه وما كان يلائم روحه البسيطة — المسيح ( \* ) ، السيدة مريم ( \*\* ) ، القديسين ، الطقوس الدينية البهيجة التي تنصف بها الكنيسة الكاثوليكية وتعلم أصول الدين بالأسئلة والإجابة عنها ، ولم يكن لم يكن في وسعه فهم علم اللاهوت . وكانت الكنيسة تهتم كثيرا بإقباله على الدين ، وشجعه سادته البرتغاليون على تعلم مبادئ العقيدة الأولية . ولم يتوقع أي إنسان منه سواء أكان قسيسا أم سيدا أكثر من ذلك . وكان معظم اهتمام الجزويت ، وهم قوة كبيرة في المستعمرة ، ينحصر في تخليص الهندي . أما الخدمات التي كانت تؤدي للزنجي فقد تركت للقسيس الذي كان يرعى «البيت الكبير» ، والذي لم يكن قابلا لأن يصبح عالما متضلعا أو مستمسكا بالثاليم . وفي هذا المجتمع الذي اتخذ دينة بالسهولة التي قبل بها حقائق الاختلاف الجنسي أضاف الزنجي إلى مسيحية البرتغال الوديعة دفئا وحسية خاصين به . وفي وقت لاحق أخذ يلفظ من مراعاة

---

(\*) the Bom Jesus

(\*\*) المادونا : The Madonna

العقيدة و يقربها من الوثنية ، وقد اتصفت من قبل باللين والتسامح اللذين فاقتا كل المذاهب الأخرى في البلاد المسيحية .

وكان تحرير العبيد في البرازيل في تزايد (٩) . ولم يحدث وسط شعب ولم تصحبه حرب أهلية وما يتبعها من عقاب وتأديب كما حدث في الولايات المتحدة . ففك الرقاب كان صفة أصيلة في طبيعة الرق البرازيلي ، وكانت عملية التحرير في الواقع معاصرة لتاريخ النظام نفسه . فقد كان الباب إلى الحرية نصف مفتوح دائماً أمام العبد ، وكانت هناك مناسبات وحجج كثيرة أساسها العرف والقانون الإنسانيان ، لفتحه على مصراعيه .

وكان السيد عادة يحرق أطفاله المولدين إذا لم يكن في أبوتهم أى شك . وقد جرت العادة كذلك أن يحرق عبداً محبوباً لديه في احتفالات عالمية خاصة ، كاحتفال بميلاد ، أو تعميد ، أو عقد قران ، أو عيد ميلاد السيد أو إجازة دينية (١٠) . وكان في استطاعة العبد شراء حريته بأن يقدم لسيده الثمن الذى اشترى به فى الأصل ، أو يسترجع حريته فى بعض الأحيان بدفعه على أقساط . وكان الأطفال الذين يولدون من عبد زنجى وامرأة محررة يولدون أحراراً ، وأى عبد ذكر كان أم أنثى له عشرة أطفال ، أو حتى أقل من عشرة أطفال ، يمكن أن يكون حراً . ولم يكن من العسير على عبد يعيش فى المدينة ويكون مجداً ولديه قدر من المهارة أن يدخر ما يساوى الثمن الأصلى الذى اشترى به . وبجانب أيام الأحاد كان هناك من الأيام ما يقدر بأربعة وثمانين يوماً لإجازة ، دينية ورسمية ، كان وقته فيها ملكاً له . وإلى هذا الحد ، ربما كان لارق فى البرازيل نظام العبودية بالاتفاق الذى كان سائداً فى المستعمرات الإنجليزية ، وبمقتضاه كان الخادم الأبيض يعمل بما يساوى أجرة سفره إلى العالم الجديد . وأخيراً كان هناك دائماً من سادة العبيد من كانوا يعارضون حق الاسترقاق بالضمان ، والذى كان الضامن فيه يهبط فى حل من التزاماته مراعاة للضمير .

ولأنه لمن هذه الفئة أن جاء بعض الدافع لحركة إلغاء الرقيق في القرن التاسع عشر ، ولو أن كثيرين من أعضاء جمعيات الإلغاء لم يكونوا مالكيين لعبيد ، كما كانت الحال في الولايات المتحدة . وانطبق هذا بصفة خاصة على فريق أنصار الإلغاء في الولايات الجنوبية للإمبراطورية ، حيث كان اقتصادها يزداد اعتمادا على الأيدي العاملة الحرة . فلم يول أنصار الإلغاء في القرن الماضي عتق العبيد لحسب ، بل إنهم عملوا على تحرير العبيد في البرلمان الإمبراطوري وفي بلاط الأسرة الإمبراطورية التي كانت سريعة التأثر بالدوافع الإنسانية .

ولقد كانت هذه المجموعة القوية والدافعة بإلحاح هي التي مهدت الطريق ، بسلسلة من الإجراءات السياسية ، إلى تحرير العبيد النهائي لجميع من بقي في الرق منهم في سنة ١٨٨٨ . وبناء على التحرير الإلزامي لجميع الأطفال الذين يولدون من أمهات إماء ، فإن تحرير كل العبيد تلقائيا عند بلوغهم سن الستين ، وإلغاء تجارة الرقيق ، قد قضى على الرق على أية حال قبل أن تصدر نائبة الملك ، الأميرة ليوبولدينا ، المرسوم النهائي بتحرير العبيد .

وعلى الرغم من أن مركز الزنجى لم يكن ميؤوسا منه في وقت ما ، فقد كان عبدا ، والعبودية في أحسن حال لها ، كما كانت في البرازيل لم تزل عبودية . وكان وقع الاستعباد ثقيلًا على نفس العبيد الذين طبعوا على الزهو وعلى الشعور المرهف . وهرب كثير منهم متوغلين في الأراضى الخلفية حيث كانوا يعيدون عن متناول الصيادين العاديين للعبيد الفارين ، وقد كان هؤلاء أنفسهم عبيداً محروين أحيانا ، ولستكنهم كانوا حادة من الهنود . وفي القرن السابع عشر كون عدد كبير من العبيد الآبقين ما يسمى بـ « جمهورية بالماديس » بجميع أجزائها ذات السيادة ، السياسية والدينية . وكان قرب هذا المجتمع من اللاجنين زائداً

لدرجة كانت تغرى العبيد الاقمن ، مما جعل الناس يستغيثون بجميع رجال السلطة الحربية في الشمال ضدها . ولم تدمر إلا بعد مقاومة طويلة حين جرى برجال الحدود (هـ) من مقاطعة بوليسيتا في الجنوب واندفعوا أمام المتاريس . وفي العقود الأولى من القرن الماضي حدثت سلسلة من ثورات العبيد في الأقاليم الساحلية خصوصا في سهل باييا (\*\*) . وكانت القيادة عادة في أيدي الهوسا المتغترسين أو زنوج « المينا » الآخرين ، ولكن ثوراتهم جميعا أخذت بقسوة . وبينما كانت ثورات العبيد هذه بلا نتيجة ، فقد ساعدت على تقوية سواعد أنصار الإلغاء في الإمبراطورية بالتوكيد على المظاهر القاسية والظلم المتأصل في نظام الرق .

وجاء استكمال دور التحرير ضربة ثقيلة للنظام الاقتصادي والاجتماعي الذي كان سائدا في شمال البرازيل وعلى الرغم من أن بعض المحررين الجدد ، خصوصا من كبار السن ، قد فضلوا البقاء في أراضي سادتهم الأولى كأجراء ، فإن العلاقات القديمة قد انقضت عراها كثيرا ، إلا حيث كانت قوة الاستمرار والعادة قد أكدتا سيطرتهم فلم تدعنا للانقسام . ونزع كثير من الزنوج فور تحريرهم إلى المدن ليضخموا أحياءهم الفقيرة وليخلقوا مشكلات اجتماعية جديدة ، أو أخذوا في التجوال دون هدف في البلاد ليضيفوا إلى مشكلة البرازيل المزمنة ، ألا وهي مشكلة السكان الرحل .

وبدافع الحرية الجديدة وما شجعت من حرية التحرك ، ازداد التهجين سرعة وكان الاتجاه إلى الامتصاص النهائي لشتى العناصر الإثنوجرافية في جنس واحد من القوة بحيث لا يمكن مقاومته من جانب الارستقراطية البيضاء القديمة ، وأيضا بحيث لا يمكن لبعض أفرادها أن يتباهوا بأنهم من

نسب غير منقطع من سلالة البرتغال . وتقبل البرتغاليون على كره منهم أن يسلبوا بوجود « مشكلة جنسية » متوترة في البلاد ، بل لأنهم حاولوا جاهدين أن يجدوا سبباً معقولاً لوضع لم يستطيعوا تلافيه إذا هم أرادوا . وإذا أخذنا بنظرية أن الاختلاط الذي لا قيود له قد يمحو في النهاية الصفات الجسمية الخاصة للأجناس الثلاثة التي يتكون منها السكان ، فقد كانوا ينزعون إلى اعتبار « تبييض » (\*) لون البشرة بين السكان مثلاً قومياً أعلى (١١) . وقد تؤدي بنا ملاحظة تفتح سحنة البرازيلي في القرن الأخير شيئاً فشيئاً إلى إثبات هذا الافتراض . وبعبارة أخرى يدافع البرازيليون بأنهم يربون الزنجى بوصماته الخاصة تربية تخرجه عن جنسه . فهم لا يريدون أقلية جنسية في بلادهم لتعكر صفو سلامهم الداخلي .

وفي هذه الأثناء يشعر الدخلاء في البرازيل بعدم وجود التوترات التي توجد في البلاد الأخرى حيث يعيش الزنجى والأبيض جنباً إلى جنب . فلا يوجد تمييز « جنسى » بالنسبة إلى الرجل الملون (١٢) . وينزع البرازيليون إلى تجنب ذكر كلمة « زنجى » أو حتى كلمة مولد ، ويلجأون إلى اصطلاحات أحب إذا تحدثوا عن أناس من أصل إفريقي .

وإذا كان هناك قدر ضئيل من التعصب الجنسي فهناك تمييز لوني في البرازيل . وأساسه اقتصادى أو اجتماعى ، لأن الزنجى أو المولد الداكن اللون قابل لأن يكون في مستوى معيشى أقل من البرازيلي الأبيض أو السليل النمائى لعملية التهجين ذى السحنة الفاتحة . فقد تكون بينه وبين البيض جفوة كالحد الذى يعين الفقر عند البيض . فإذا راعى أصول التربية الجيدة التي يقدرها البرازيليون كثيراً ، وإذا نجح فى التغلب على الصعاب التي

أحاطت بجماعته ، و نال قسطا من التعليم و مركزا محترما فى إحدى الوظائف  
فإن معظم أبواب المجتمع تنفتح أمامه .

وقد نال كثير من المولدين حظاً من الشهرة و مراكز مرموقة فى  
البرازيل . فما شادو دوى أسيس ، روائى البرازيل الكلاسيكى العظيم ،  
ولد من أب برتغالى و أم زنجية فى أحياء ريو الفقيرة .

ومن الشعراء جنسالفيس دياس وكاسترو ألفيس ، وأولافو بيلاك  
والصحفى ، ومن أنصار الإلغاء جوسيه دى پاتروسنيو ، والمهندس أندريه  
ريبوساس ، ورئيس الجمهورية نيلوبيسانيا ، والعيناتور وفايكوت  
الإمبراطورية فرانسيكو جى أكابايا دى مونتسوما . ومن أشهر المولدين  
البرازيليين المهندس المعمارى والمثال اللامع أنطونيو فرانسيكو لاسبوا واسمه  
الأشهر اليجادينو . وعلى الرغم من أن الجذام أقعده فقد صمم وزخرف  
كثيرا من كنائس ميناس جيرائس ، وأنشأ مدرسة للفن الاستعمارى تشهد  
أحسن نماذجها فى العاصمة القديمة المشهورة أوروبريتو .

وليس البرازيل جنة للملونين . ويحتمل أن يكون التعصب فى تزايد  
فى الجنوب المكثظ بالسكان الذى يمر بمرحلة تطور وتنمية . ففى ساوپاولو  
التي تنمو بسرعة فائقة يرى الناس أن العامل الملون النازح من الشمال على  
درجة من البطء لا تتمشى وسرعة خطاها . ثم إن بعض الأوساط ذوى النفوذ  
لديهم حساسية للرأى الصواب الذى يأتى به الأجانب الذين يجيئون إلى البلاد  
ومعهم تعصبهم الجنسى . فالفنادق الفخمة التي تهتم بالحركة السياحية تميل  
إلى وضع حدود عند اللزوم ، كما لا يزال سلاح الضباط فى البحرية يجندون  
من طبقة البرازيليين البيض .

## الزنجى فى المستعمرات الاسبانية

كان استرقاق الزوج فى المستعمرات الإسبانية فى حاجة إلى قدر من صفة الرفق التى كانت القاعدة فى البرازيل ، حيث كان ينزع إلى التسكفير عن الظلم الذى استلزمه النظام . ولم ينجح الإسبانى ، بصفة عامة ، فى إقامة علاقة حميمة كالتى كانت توجد بين السيد البرتغالى وعبده . وكان مجتمع العبيد دائماً أقل أماناً وأقرب إلى الانفجار . فلم يكن الإسبانى قد وطد نفسه من قبل على العيش مع الزنجى ، كما كان البرتغالى باتصالاته الطويلة مع شعوب السواحل الإفريقية . وعلى الرغم من تسامحه الجذى فقد كان يهضم نحوه استعلاء فى الأصـل كان قابلاً لإثبات وجوده إذا تحدى احد سيادته . وكانت هناك إشارات أخرى خاصة بالمجتمع الإسبانى . فقد خلق استخدام العبيد الزوج فى عمل المناجم الشاق وضعاً قابلاً للاشتعال كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى الترد أو الفرار الجماعى . وكثيراً ما كان قطاع الطرق الأغراب يفيدون من تبرم العبيد الزوج ، وحولوا حفيظتهم ليستخدوها ضد ساداتهم الإسبانين ، فقلما كان فى مقدور الإسبانين أن يتأكدوا من إخلاص هذا العنصر العديد فى السكان . أضف إلى ذلك وجود مجموعات كبيرة من الهنود الوديعين بجانب الزنجى فى إسبانيا الجديدة وبيرو ، مما عقد العلاقات بين بعض الأجناس الثلاثة وبعضها . فقد كان الهنود مورداً بديلاً ومنافساً من الأيدى العاملة يستطيع الإسبانى أن يلجأ إليه عند الضرورة . ووجد الزنجى العنيف فى الهنود منفذاً يصب فيه جام آماله الخائبة ، وادعى الإسبانىون أن الزنجى إما تحرش بالهندي وإما أفسده . وكانت هناك قوانين صارمة ، ولو أنها لم تكن ذات أثر ، أقرت لفصل الجنسين بعضهم عن بعض .

وكان الثامبو ، وهو المولد من الهندي والزنجى يعد من وقت مبكر



أنه هو العنصر الوحيد المشكل - وذير المرغوب فيه بتاتا - في بوتقة المستعمرات . وإذا وجد نفسه مذلولاً شرساً بمتنها من الشعبين المسؤولين عن نفسه المختلطة فقد أصبح منبوذا لا رجاء منه ، وعدوا طبيعياً للمجتمع الذي لا يريده . و بمرور الوقت ، وعندما تلاقي العنصران المتضاربان في شخصيته وجد الثامبو وذريته من حين إلى آخر مكاناً ما - وفي بعض الأوقات مكاناً هاماً - في نظام الطبقات الهرمي الذي كان سائداً في بلده . ومن المرجح أن أعداده كانت أكثر مما يكون في الجهات الساحلية لبيرو ومنخفضات إكوادور والسواحل الشمالية للقارة وفي وادي الأمزون (١٣) .

وقبل حلول القرن التاسع عشر على الأقل ، كانت ثورات العبيد أكثر شوباً في المستعمرات الإسبانية منها في البرازيل ، وقد شكوا المؤرخون والمراقبون الإسبان مراراً من الاضطراب واختلال النظام بين السكان الزنوج . فقد كانت المدن في بعض الأحيان يسودها الذعر من إشاعات عن قيام ثورة الزنوج لم تتحقق . كتب توماس جيدج عن زنوج جواتيمالا فقال إن « اليأس قد باغ بهم درجة جعلت مدينة جواتيمالا كثيراً ما يملأها الخوف منهم . كما يملأ السادة الخوف من عبيدهم وخدمهم » . وبحلول منتصف القرن السادس عشر كان هناك ٢٠٠٠٠ عبد إفريقي في الإقليم الحار حول كيرنافاكا وفيراكروث . وسبوا للإسبانين قلائد أكثر مما سببه الهنود ، مع أن هؤلاء كانوا يفوقونهم كثيراً من الناحية العددية . وقد شق نائب الملك مندوثا عدداً منهم ليكونوا عبدة ، ولكن الإسبانين لم يثقوا مطلقاً بالزنوج . ففي السنوات الأولى من القرن التالي انتشرت إشاعة في مدينة المكسيك فخواها أن الزنوج قد عزموا على القيام بثورة وسيذبحون الإسبانين في يوم معلوم . وفي ذات ليلة أخطأ الإسبانين ، وقد علام الاضطراب ، فحسبوا صوت قطيع من الخنازير الشاردة في الشوارع صوت الشؤم الصادر من الزنوج الحفاة وعقدوا العزم على إبادتهم .

وفي اليوم التالى أعدموا أكثر من ثلاثين من السود وهم فى ذعر مطبق .

ومن المرجح أن أول ثورة للعبيد فى المستعمرات الإسبانية حدثت فى سنة ١٥٢٢ . وبدأها زنوج تابعون لـ ديبجو كولبس ابن المستكشف ، وقد كان عامئذ حاكما لسانتو دومينجو . وانضم إلى الثورة زنوج آخرون ، وقد أخذت بقسوة زائدة ، ومن بعدها كانت الفرق الإسبانية المسلحة تطوف بالجزيرة لمنع تكرار هذا الاضطراب . وفى سنة ١٥٥٠ أحرقت الزنوج بلدة سانتا مارتا على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية وارتكبوا اعتداءات كثيرة . وكان لـ « جمهورية » بالمباريس الزنجية فى الأراضى الخلفية لشمال البرازيل نظير فى فنشويلا فى منتصف القرن السادس عشر ، فقد فر زنجى اسمه ميجيل كان يعمل فى المناجم إلى النلال ، حيث جمع حوله عددا كبيرا من الزنوج . ووضع نظاما لدولة ، وتوج نفسه ملكا . وفى وقت لاحق هاجم بلدة نيفاسيجوفيا أو باركيسستيميتو مع عصابة من أتباعه ، ولسكنه صد وقتل ، وأعيد الباقيون من زمراته إلى عبودية جعلها سادتهم الإسبانيون عبثا لا يطاق كما لم يحدث من قبل .

ومن ثم سنت قوانين تأديبية تتصف بالقسوة الوحشية ، أصدرها مجلس الهند الغربية ( \* ) لعدم تشجيع قيام العبيد بثورات بعد ذلك . وحددت سلسلة من العقوبات المتدرجة للعبيد الأبقين ، مبتدئة من خمسين جلدة والحناك ( \*\* ) إذا تغيب العبد أربعة أيام ، إلى الشنق للذين يتغيبون ستة أشهر فى زمرة « زنوج متمردين » . وبعد أن لجأ الإسبانيون إلى عقاب المشويه القاسى صدر قانون ينص على أنه « لا يجوز بأية حال من الأحوال

تطبيق عقوبة بتر أطراف الزوج الأبقين التى لا يمكن أن تعطى مصطلحا من باب اللياقة ، . وبعد فترة الاضطرابات التى تلت الحروب الأهلية بين حكام بيرو خرج الزوج عن حدود النظام ولم يذعنوا إلا بعد مجيء نائب الملك المنتجهم توليدو . وبحلول هذا الوقت كان الناقوس الذى يؤذن بإجلاء الطرقات فى المدن من الزوج عند حلول الليل قد عم انتشاره . وفى سنة ١٥٩٨ ثار بضعة آلاف من الزوج كانوا يعملون فى مناجم الذهب الغنية بالقرب من ساراجوثا فى نيفاجرانادا ( الآن كولومبيا ) فجأة وفى قوة اندفاع ، ودمروا المناجم وقتلوا مديرى وعمال المناجم الإسبانيين ثم تحدىوا السلطات الإسبانية من وراء سياج أقاموه سريعا ، ولكن كما حدث بجميع هذه التمردات اليائسة والمخذولة أتمدت حكومة المستعمرات الثورة بعد أن خططت لها درجات من عقاب لا تعرف الرحمة إليه سيليا . وعندما قام العبيد الزوج بثورتهم الناجحة ضد سادتهم الفرنسيين فى سانتو دومنجو فى أواخر القرن الثامن عشر انتظر الإسبانيون فى كوبا أن يحذو عبيدهم حذو زملائهم . ووطد بعض المزارعين الفرنسيين الذين نجوا من غضبة الزفوج المتمردين أنفسهم على الحرب إلى شرق كوبا حيث أذاعوا قصة التمرد الدموية فى الجزيرة المجاورة . فالتخذ الحاكم العام أودويل إجراءات مروعة منعت السود السكويين من تقليد زملائهم العبيد على الجانب الآخر من مضيق وندوارد . ومن الأهمية أن نلاحظ أنه عندما أفاق الإسبانيون من ذعرهم أصبح المزارعون الفرنسيون الذين هربوا إلى كوبا عاملا ملطفا فى معالجة العبيد .

وكان العبيد الأبقون مصدر قلق دائم للإسبانيين ، لا بسبب الخسارة الاقتصادية التى يسببونها لسادتهم ، بل بقدر التهديد السكمن الذى يعطونه للسلام وأمن المجتمع . وكان العبيد الأبق ( \* ) بصفة عامة يرضى بالحروب

من عبوديته وبأن يحد له ملجأ آمناً في « الغابة » أو فوق التلال ، وربما يعيش آمناً من أن تمتد إليه ذراع إسبانيا الطويلة . وذهبت السلطات الإسبانية في بعض الأحيان إلى عمل ترتيبات مع جماعات من الهاربين القدامى بأن يمسكوا ويرجعوا بالعبيد الأبقين من المدن والمزارع القريبة . وسرجيميلى كاريري ، الصيدلى الإيطالى الذى جاب الأرض عدوا ، بقرية من الأبقين الودعاء (سان لورنثو دى لوس نجروس) على الطريق بين مدينة المكسيك وفيرا كروث في سنة ١٦٩٨ . كتب يقول : « يبدو هذا المكان كأنه جزء من غينيا لأنه لا يقطنه جميعا سوى السود ، ولكنهم وجهاء ، ويعملون في فلاح الأرض ، وكانت هناك بضعة مستعمرات من العبيد الأبقين في منطقة بنا .

وتذبذب الإسبان بين المراعاة الصارمة للقوانين التى تمنع تجنيد الزنجرى والسياسة الاستغلالية للانتفاع به ليقوى من وسائل الدفاع الضعيفة في المستعمرات وكان الزوج في بعض الأحيان يقاومون نزول أفواج من الأجانب على مسئوليتهم في بعض الأحيان ، وبخاصة على سواحل القارة الشمالية حيث كانت جماعات مرابطة من الميليشيا الزوج مندجة مع القوات الملكية . وفي القرن السابع عشر كان هناك جماعة من المدفعية السود قوامها ٦٠٠ رجل في كارتاخينا . واستمتع الزنجرى بالنفخ في الأبواق والبزة التى تستلزمها الخدمة العسكرية . وكان مقاتلا كفئا في طريقة الحرب الانتحامية غير المنظمة التى كانت سائدة على طول السواحل في أمريكا الإسبانية . ولقد أصبح مستعمر زنجرى يعيش منفردا يعرف بكابتن خوان بلتران شخصية أسطورية في جنوب تشيلي بحربه منفردا ضد هنود الأوركاريان الجبارين . وقام الزوج البرازيليون بدور هام في حرب التحرير ضد الهولنديين في القرن السابع عشر . وفي وقت لاحق خدم كثير من السود في جيوش بوليفر في أثناء حروب الاستقلال . وقد عمل رماح

ضخم من الزنوج حارسا خاصا لبايث زعيم اللانير و، الفرسان المتوحشين غير النظاميين ، فى سمبول فنثويلا . واستخدم البرازيليون جموعاً كبيرة من الجنود الزنوج فى حرب باراجواى . ولقد كان رماح زنجى هو الذى قتل اويث دكتاتور پاراجواى ، لينهى بقتله تلك الحرب الطويلة الدموية . وفى ثورات كوبا ضد إسبانيا فى القرن الماضى كان الزنوج يشغلون الصفوف الأمامية فى القتال . ويعد جنرال أنطونيو ماسيو ، وهو رئيس مغامر لفرقة من الفرسان واحداً من أبطال كوبا القرميين .

وكان الإسبانى يفضل الزنجى على الهندى للخدمة الشخصية . فلقد وجد صاحبته خفيفة الظل . وكان الزنجى نفسه فى أسعد حال عندما يكون فى المدينة، فى حين كان الهندى قرويا فى الصميم . وبينما كان الهندى ينزع إلى السكوت والانطوائية كان الزنجى يضاف روحاً خفيفة على جو الحياة الاستعمارية الذى كان يميل إلى الجدية بقدرته على الضحك ومحاكاة الخير وثرثرة ذاتها . وكان الإسبانى يتجاوز عن وقاحة عبيده أحياناً وعن حريات أخرى قد يمارسونها معهم لأنهم كانوا يروحون عنه ، وفى بعض الأحيان يواسونه فى شدته (١٤) . وكما حدث فى جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كان الخدم فى المنازل ذوى تأثير عظيم فى شئون المنزل وحياة أفراد الأسرة . وتعود الأوروبيون الصغار أن يقضوا وقتاً طويلاً من طفولتهم فى صحبة زنوج صغار كانت أمهاتهم يعملن فى منزل آبائهم —م . وقد لاحظ الإنجليزى ستيفنسن الذى مكث بعض الوقت فى ليبيا فى الجزء الأول من القرن الماضى أن «الزنوج الإفريقيين ، نظراً إلى المعاملة الرقيقة التى يعاملون بها ، يبدون سعداء إلى أقصى حد» . وأضاف : «وعندما يعاملون بالعطف والرحمة فهم أمناء ومخلصون ، وكثيراً ما تصبح لهم صلة شخصية بسيدهم . وعلى الرغم من أنهم فى بعض الأحيان يظهرون شيئاً من الامتناع إذا كلفوا واجبات شاقة لخدمته ، فإنهم مع ذلك يضحون بأرواحهم فى سبيله

في ساعات الخطر . وعلى العكس من ذلك إذا ساءت معاملتهم وظلموا ، يركبهم ألعناد إلى درجة قصوى : ولا يصبح السيد في مأمن من عنفهم شخصيا إلا بما اتصف به العبد من عريكة لا تستقر على رأى وخوفه من العقاب .

### الزنجى فى المجتمع الاستعماري

حيثما عاش الزنجى وجدت الموسيقى . وكان يغنى فى بعض الأحيان ليخفف عن كاهله عبء الخدمة، ولسكنه كان يغنى عادة لأنه ملء بالأغانى . وعلى كل حال فقد كان يترك نفسه للغناء كيفما كان مزاجه (١٥) . وربما كان يغنى موسيقى الطقوس الكنسية ، أو قصصا شعبية من قصص إسبانيا أو البرتغال ، أو أناشيد من البلاد التى عاش فيها ، أو الألحان الفطرية التى كان قد أحضرها بنو قومه معهم من إفريقيا ، أو ما يرتجله بنفسه . كان الزوج الذين يعملون فى الحقول ، أو كحمالين ، أو عمال سفن فى المدن ، أو ملاحين على الأنهار ، يغنون أو يترنمون إلى إيقاع حركات أجسامهم . وقد استمع كدر إلى الزوج فى شمال البرازيل عندما كانوا يغنون «أوه سوزانا» . وسمع كابتن بازل هول الضابط بالبحرية البريطانية عبيدا فى بنما يغنون أغنية وطنية من أغانى حروب الاستقلال التى فيها يتكرر لفظ «الحرية» مراراً وتكراراً . ولاحظ أنه «كان هناك شيء منفر للشاعر فى كل هذا» . ولقد كان مؤلما أن يسمع المرء هؤلاء الناس المساكين وهم يتغنون بمدح الحرية التى فاز بها سادتهم الذين لم يستبعد تفكيرهم بالتأكيد شيئا استبعادهم شمول عبدهم بنفس النعمة .

وكما كانوا يغنون فكذلك أيضا كانوا يعزفون على آلة موسيقية تصل إلى أيديهم ، أو أى شيء يستطيعون ضرب نغمة عليه . وكان المسافرين تتناوبهم البهجة عندما كان غناؤهم متوافقا ، أو الاشمئزاز عندما كان غناؤهم متنافرا . ولقد افتتحت مسن أجاسيس ، زوجة العالم المشهور ، عندما سمعت

موسيقى فرقة مكونة من أولاد صغار من الزوج كانوا يرحبون بالأسرة في غذاء في مزرعة برازيلية كبيرة . وروى تيودور هينكى عن موسيقى فرقة زنجية في ليا وقال إنها « صاحبة ومتنافرة » . أما همبولدت، وكان في فنشويلا في نفس الفترة ، فقد شكك من أن « الهجة المتوحشة » التي يبرح فيها العبيد الزوج في الفناء خارجا طيرت من عينيه النوم . ووجد عقيد مانسلا بين قبائل الرانكيلى المتخطرسين الذين يقطنون في سهول الپيا الخارجية زنجيا يعزف على موسيقية اليد (الأكورديون) ، يتنقل بين الهنود وهو يغنى ويرقص قفزاً كالماعز ، ويسود كل ذلك اللعب المستمر بالأكورديون ، والنسكات يطلقها على حساب كل شخص . أما كنيكولور كورفو ، الطواف الهندى الذى لاحظ ما كان يجرى بين الزوج في الأراضى الواقعة بين توكومان وپوتوسى ، فقد كان يقارن بين طنين تنافراتهم الممجية والموسيقى الناعمة الحزينة التى يمارسها قومه . وقال إن العريضة الجهنمية التى كانوا يصدرونها بواسطة عظمة فك اللحم ، وطولهم الكبيرة ، تجعل حتى الخير تولى فرار مع كونها « أبلد الحيوانات وأقلها تهيبا . فغناؤهم ليس إلا عواء » أما بالنسبة إلى رقصاتهم فحركاتهم « ماهى إلا تلويحات للبطن والارداف فى شىء كثير من الفسوق » ومع ذلك فهو ينهى حديثه بقوله : « إن انحرافات كل من الزوج والهنود تبدأ وتنتهى بلهو خليع مخمور » .

والزنجى فى المستعمرات الإسبانية ، كما فى البرازيل ، مدين إلى الكنيسة إلى حد بعيد . فقد حاولت بدافع من ضمير أن تحميه من أشد الإساءات التى تلحق به نتيجة حالة العبودية التى كان فيها . ومن أنبل الشخصيات فى المستعمرات القس اليسوعى الآب بيدرو كلافير ، وهو من كتالونيا ، ويعرف بـ « الرسول المبعوث إلى الزوج » ، فقد عمل الآب كلافير جاهدا أربعين سنة فى كاتارخينا ، أهم ميناء دخول السفن عبيد المزارع (\*) على التخفيف من

(\*) asiento : مزرعة تستغل بالتعاقد على استغلال العبيد .

فظائع تجارة الرقيق في أسوأ أحوالها . وعندما مات في سنة ١٦٥٤ ولول السود المنكوبون والذين كانوا موضع إخلاصه في الشوارع يصيحون « مات القديس » . ومع أن العرق الدينية نفسها كانت تمتلك عبيدا فقد اشتهروا بإنسانيتهم التي كانوا يعاملون بها أماناتهم . فشلا كانوا يرفضون تشتيت أسر العبيد ، ولذلك كان الزوج يعدون أنفسهم محظوظين إذا كانوا يتبعون الرهبان .

وأخذت الكنيسة كذلك فانون سنة ١٥٣٨ ، مأخذا جديا للغاية ، وهو الذي ينص على ان « العبيد الزوج الأحرار والمولدين يلقون العقيدة المقدسة الكاثوليكية » . وكما أن نظرها إلى الهنود لم تكن أبدا وأهمية بخصوص مقدرة الزنجى على استيعاب لاهوت المسيحية الرومانية ، فإنها قصرت تعاليمها على طريقة الأسئلة والإجابة والمبادئ البسيطة للعقيدة الكاثوليكية . فكانت تعامله كإنسان فتحت له أبواب السماء واسعة ، كما فتحت للرجل الأبيض . فالقداس المؤثر ، وأداء الشعائر ، وأعياد القديسين ، ونفخة وأبهة الطقوس راقى كل هذه طبيعته العاطفية والدينية . فإذا ما أكثر من خلط ما تبقى لديه من عبادة الجن ومن أساطيره الشعبية بعقيدة إسبانيا وروما ، فقد تعلمت الكنيسة كيف تكون متساهلة إزاء أوهامه الروحية . ومع ذلك ففي بعض الأحيان إذا أصبحت أية تعاليم مسيحية في عبادته غير مفهومة ، في الوقت الذي تأخذ فيه مخالفته لتعاليم الدين شكل السحر الوثني ، فإنه يصبح متعصبا للأنواع المتعددة لديانة الفودو الإقليمية .

وسبب ميل الزنجى للمظهرية مضايقة كبيرة لسادته ، وأدى إلى تعديل كبير في تنظيم المصروفات وفي التشريع . وكان ولع المرأة الزنجية بالاستعراض كرها بصفة خاصة لسيدات الطبقة الحاكمة اللاتي كن يرفضن تحمل أية منافسة في التظاهر من طبقة يعتبرونها أقل منهن اجتماعيا . فقد كانت ، إذا سمح لها دخلها ، تلبس ملابس زاهية الألوان ، وتزين نفسها



بالمجوهرات الراقية، وتعطر نفسها بأقوى العطور نفوذاً، وفي هذا الزخرف تعودت الظهور في الأماكن العامة التي كانت تزدحم عليها سيدات المستعمرات العظيمات ونتج عن الاحتجاجات الغاضبة التي قدمت إلى مجلس الهند الغربية قوانين كانت في بعض الأحيان قاطعة في موادها. فمثلاً قانون سنة ١٥٧١ ينص على أنه «لا يجوز لزنجية، سواء حرة أم أمة، أم مولدة، أن تتزين بالذهب أو اللآلئ، أو تلبس الحرير، ومع ذلك إذا تزوجت زنجية حرة أو مولدة من إسبان فتستطيع أن تلبس قرطاً من الذهب مرصعاً بالآلئ، وعقدًا صغيراً وقيصاً بشريط. من القطيفة، ولا يجوز لواحدة منهن أن تلبس جلباباً فضفاضاً (\*) من الصوف الخفيف (\*\*) أو من أية ألياف أخرى، سوى لفاف (\*\*\*) يمكن أن يصل قليلاً إلى مادن الخضر، وإلا عرضت نفسها لعقوبة المصادرة، وكذلك أية مجوهرات أو ألبسة حريرية تضبط بها، فإنها تؤخذ منها. وأصدر ملك البرتغال قانوناً مشابهاً، بل أكثر صرامة، في سنة ١٧٤٩، ليحدد نوع الجلباب الذي يلبسه السكان الملونون في البرازيل. وعلى الرغم من أن المخالفين كانوا يضربون أو تنتزع بهرجتهم، فقد كان يدعو على هذه القوانين التهاون في التنفيذ ليس إلا إذ استمر الزوج يلبسون قدر استطاعتهم. وفي منتصف القرن الثامن عشر ذكر خوان وايوا أن سكان كارتاخينا السود كانوا يلبسون فقط «قطعة صغيرة من القطن حول الخضر»، ومع ذلك أضافاً أن «بعض المولدين والزوج كانوا يلبسون كالإسبانيين وعظماء الناس في البلاد (١٦)».

وعلى الرغم من التوترات والإجهاذات التي اتصف بها استعباد الزوج في المستعمرات الإسبانية، فقد كانت الظروف مواتية لتحريرهم (١٧).

manto, manteau (\*)

burato (\*\*)

حرمة (\*\*\*)

فالتطورات والمناسبات المختلفة التي هيئت لعتق العبيد كانت مشابهة لنظائرها في البرازيل . وإن ارتفاع نسبة الحرية التي منحت للضامين في السنوات الأخيرة للنظام الاستعماري دليل على فعاليتها . وكان التشريع الإسباني لفترة طويلة غير راض عن هذا النظام . ولقد عبر القانون التشريعي القديم (٥) ، وهو القانون المشهور الذي أصدره الفونسو التاسع ملك قشتالة ، بوضوح ، عن الكراهية الإسبانية الأصلية للرق

وعلى الرغم من أن حربية القوانين المنظمة للإشراف على استعباد الزوج في المستعمرات تبدو قاسية أحيانا ، فقد كان التهديد السكمن لتكررات العبيد على نطاق كبير ضد السلطة الإسبانية وعند مجتمع المستعمرين الإسباني الصغير ماثلا على الدوام . وفي هذه الظروف لم يكن ينتظر سوى قدر ضئيل من الرحمة في أى مكان في العالم في ذلك العصر . فلقد كان النظام نفسه شرا ، ولم يعتذر المسئولون عن الرق . وإن روح التسامح التي غالبا ما كانت تطبق بها القوانين القاسية (٥٥) وزوع الإسباني إلى تجاهلها إذا ما انتهت فترة الأمانة ، دليل على نفور الإسباني من اتخاذ الإجراءات الصارمة . وكانت غرائزه الإنسانية وحاسة العدالة التي كانت تخفف دائما من حدة القانون الإسباني تثبت وجودها في الأوقات العادية . وكما كانت الحال مع البرتغاليين ، كان الرأي الإسباني ينظر إلى العبد ، لا كمتاع مؤجر يملكه الشخص على الدوام ، ولكن كإنسان اتباه سوء الحظ لفترة محدودة . وبناء على فلسفة كهذه كانت النهاية المنطقية للرق هي الحرية ، ولذلك سهل ضمير إسبانيا على العبد أن يصبح شتصاحرا ، وفور استعادة حرية لا تلصق بماضيه أية وصمة . وإذا حدث أن كانت هناك عراقيل مقصودة في سبيل مستقبله ، فقد كانت من صنع جماعات أو أشخاص ، فضل زهوهم أو مصالحهم الشخصية نظام

(\*) Siete Partidas : الأبواب أو الفصول السبعة .

(\*\*) Draconian : نسبة إلى دراكو من حكام أثينا في القرن السابع قبل الميلاد .

الأمور على ما هي عليه . ولكن الحكومة كانت قلقة على مصلحته ، ولقد نص أحد « قوانين الهند الغربية » على أن « المحاكم (\*) الإسبانية عليها أن تستمع وتقيم العدالة لأولئك الذين أعلنت حريتهم » .

أما أولئك الذين بقوا في ربة الرق فقد كانت هناك قوانين تحميهم من سوء المعاملة . وأعظم هذه القوانين شمولاً قانون العبيد الذي أصدره الملك في سنة ١٧٨٩ . فبينما أقر الأمر الملكي لتلك السنة بعض التشريعات القديمة ، كانت هناك نواح جديدة ومتطورة عكست روح ذلك « العصر المستنير » . في أوروبا . فقد نص على الاهتمام بصحة العبيد ومعنوياتهم ، وبالحفاظ على روابط الأسرة ، ورعاية العبيد الذين تقدمت بهم السن ، بحيث لا يستطيعون العمل ، واللجوء إلى المحاكم ضد العقوبات التي تلحقهم تحكما أو بضراوة . ومع أن العبيد قد نالهم كثير من الخير دون شك وخصوصاً بتدخل « محامي الفقراء » (هـ) ، فقد جاءت الإصلاحات متأخرة لدرجة تؤثر تأثيراً جدياً في المساواة المتأصلة الكامنة في النظام نفسه .

### المولد

أصبح المولد عنصراً هاماً في حياة المستعمرات الإسبانية . وزادت أعداده بانتظام ، كما ازداد تأثيره في المجتمع خلال عصر الاستعمار وفي عهد الجمهوريات . وزادت عملية التهجير قوة رغبة المولد المتزايدة ، بعد الزواج الأول بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء ، في الزواج من الأكتوريون ذات البشرة المائلة إلى البياض ، وهي خطوة ليس بعدها اعتراض من ناحية التطور اللوني (١٨) . وتعاونت المرأة الملونة ، إن لم تكن دائماً بتحمس ، وعلى الأقل سلباً ، كزوجة أو كمحظية أو كعامل في زواج اتفاق طويل .

Audiencias (\*)

hogado de los pobres (\*\*)

الأجل ، في خلق جنس جديد لم يعرف فروقا مميزة في لون البشرة (١٩) ففي مدن مثل ليا وبوينس أيريس ومكسيكو ، التي كانت ذات يوم تعج بالسكان العبيد ، كاد الزنجي يختفي تماما كعامل منفصل وظاهر عند بداية القرن الحالى . أما في كوبا فالرجل الملون كان ولا يزال ظاهرة أكثر وضوحا . وفي الجهات الحارة ، في كل مكان ، كما حول سواحل الكاريبي ، حيث كان البيض أقلية باستمرار ، فإن الغالبية العامة قد أنتجت أخيرا شعبا له صفات وخصائص زنجية واضحة . فهم يكونون قسما كبيرا من السكان في مدن مثل لاجوايرا وسانتا مارتا على سواحل القارة ، وفي مدن أمريكا الوسطى الساحلية ، وفي أكاپولسكون (٢٠) وفيراكروت في المكسيك ، وسانتودومينجو في هسبانيولا ، وجواياكيل في إكوادور . وقد أثروا في أسلوب المعيشة في المنخفضات المدارية تأثيرا كبيرا فأضافوا قدرا معلوما من عدم المبالاة والمراوغة والحسية إلى محيط المجتمع العام (٢١) . ويلاحظ المرء كيف أن مدى تأثيرهم محدود بالارتفاع إذا سار صاعداً في وادى نهر مجدلينا إلى مرتفعات كولومبيا ذات المناخ المعتدل البارد حيث يحل محله مزاج الهندى الجدى . وكذلك يلاحظ المرء التغير بالمعكوس إذا عبر من بوجوتا إلى كالى ذات المزاج الألف ، التي تقع في وادى كوكا الدافئ المشمس . وهناك وجد الزنجي من قديم وطنا ملائما لا شيء إلا ليمتص نهائيا في مجموعة السكان ، ولكنه يترك أثره على الروح السائدة في المكان . وليس هناك مدينة كبيرة مثل هافانا تعكس تأثير الزنجي باستعداد سكانها للضحك ، والتساح والإيقاع الغنائى الذى يميز كلامهم ، وعدم مبالاهم لما يحدث من أمور ، ومن ذلاقة لسانهم . وظاهرة الشوتيو (\*) ، وهى ظاهرة لا تنسى في الحياة الكوبية — هبة السخرية والهجو القورى في مناقشات المحادثة العادية — لها أصولها في وقاحة الزنجي المرحه .

وتبوأ المولد مكانه فى المجتمع كعنصر مستقل فى خلال القرن التالى لسنة ١٧٥٠ . ومهما يكن من تحيز ضده فى تاريخ المستعمرات المبكر ، فقد خف منذئذ . ومع أن عظماء الرجال (\*) فى المستعمرات ، هم ونساؤهم ، كانوا على كره من مجالسهم فى بادىء الأمر ، فقد جاء الوقت الذى تعودوا فيه قبول حضرتهم بوصفهم جزءاً من الترتيب المحلى للأمر . وتحسنت أحوالهم الاقتصادية كثيراً . وسيطروا على بعض المهن التى تحتاج إلى مهارة فى المدن ، وقدر لبعضهم أن يكتسبوا ثروات عظيمة من أعمالهم . وابتهزوا كل فرصة سنحت لهم لياخذوا نصيبهم من التعليم الذى فتح لهم الأبواب للوظائف ولرركز الهيبة الذى تضيفه الوظيفة على صاحبها . وارتقوا بمظاهر السكينة الاجتماعية بما فى ذلك نوع من الاستعلاء المصطنع نحو أولئك الذين كانت بعثتهم أدكن من بشرتهم . واقتبسوا فن المحادثة ، وكثيراً ما كانت صحبتهم أفضل من صحة الطبقة الممتازة أصلاً فى المدن (٢٣) . وبرهنوا على مهارتهم فى استرضاء أولئك الذين عرفوا أنهم أصحاب النفوذ والمراكز فى المجتمع لينالوا حظوة عندهم . وأخيراً استقبلهم فى حظيرته ، أولاً فأولاً ، مجتمع كان قد فقد كثيراً من جموده وأنانيته المانعين ، استقبلهم كما هم — أفراداً كثيراً ما كانوا جذابين وموهوبين وعاملهم بما هم أهل له . وقدمت لهم حياة الجمهوريات السياسية ميداناً فسيحاً ومرحياً لطموحهم ومواهبهم . وجاءت فطنتهم اللماحة وفصاحتهم المتأهبة وميلهم إلى الخطابة الفياضة ، والمرونة التى مكنتهم من الإذعان بسهولة لتيارات السياسة المفاجئة — كل ذلك جاء دليلاً على ما لديهم من إمكانات فى هذا الميدان الجديد — وقد أودوا من فرصهم المتاحة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً

## الزنجى فى هايتى

زنجى هايتى مسألة خاصة للغاية . لجمهورية هايتى هى وطنه ، بالذات . رغم أن الأقلية المولدة تقوم بمهمة الطبقة الحاكمة فقد أنشأها الزنوج نتيجة لثورة العبيد الوحيدة الناجحة فى نصف الكرة الغرب . وليس البيض بذوى بال من الناحية العددية ، وقد جاءوا متأخرين ، وأصولهم ضحلة — او قد لا توجد أصول ما — فى أرضها . أما العنصر الأجنبى فى الثقافة القومية فهو العنصر الفرنسى الذى حل محل الإسباني .

وقد اتبع مجتمع هايتى الزنجى فى معظم تفاصيله النمط التقليدى لنظام المزارع فى المدارين . وكما هو الشأن فى البرازيل وكوبا أسس على الإنتاج الكبير للسكر . وفى الجزء الأخير من القرن السابع عشر عبر القراصنة الفرنسيون إلى الطرف الغربى لمسبانيولا من قاعدتهم فى جزيرة تور توجا القريبة واستقروا هناك . وتأكد حق فرنسا على تلك الجهة بأن احتلها هؤلاء البحارة المتقاعدون ، كما فعلت إنجلترا تماما وادعت حقها لها فى بلير عندما وجد قراصنتها هى أن قطع خشب الموجنى عمل أحسن - وآمن - من القرصنة . وفور الاعتراف بحقيهما بالطريقة الساخرة ، طريقة خذوها ، فى صلح رزوبك سنة ١٦٩٧ بدأ الفرنسيون جديا فى تنمية سانتودومنجو مستعمراتهم الجديدة . وكسدت المستعمرة ثروة واعتبارا بتدفق رأس المال من فرنسا والعبيد من أفريقية .

وعلى الرغم من الرفاهة والسحر اللذين يميزان الحياة الاجتماعية كانت الحالة فى أغنى مستعمرات فرنسا تهدد بطبيعتها بالانفجار . فقد جاءت المستعمرة متأخرة ، لأن «تنوير الأذهان» فى أوروبا كان يضع الأساس الفلسفى للنظر فى الحقوق الإنسانية التى تعارض مبدأ الرق ذاته . أضيف إلى ذلك أن الفرنسيين ، وكانوا حديثين لتحمل مسئوليات ممارسة الرق ، كان عليهم

أن يتعلموا كثير آكالإسبانيين ، وبصفة أخص كالبرتغاليين ، الذين مارسوه بالتجربة مدة قرنين من الزمان وكان التفاوت بين العبيد والبيض كبيراً إلى حد الخطورة - أكبر من عشرة إلى واحد قبل نهاية النظام فى سنة ١٧٩٠ ولـكى تخفف التوترات التى لابد من وجودها كامنة فى مثل هذا النظام ، لم يتعلم الفرنسى أبداً كيف يملأ فجوة العاطفة المتضاربة التى خلقت صمام أمان فى العلاقة بين السبد والعبيد فى البرازيل . وبعبارة أخرى لم يتعلم مطلقاً كيف يعيش مع زوجه كمجموعة كبيرة من الرجال والنساء . أما الطبقة المشكل من المحررين (\*) ومعظمهم كانوا من المولدين ، وكثير منهم كانوا أفراداً مثقفين ، فكان يتناوبها التذليل تارة والقمع تارة أخرى . ونتيجة لعدم اطمئنانهم اجتماعياً والحبية التى لحقت بمجتمعهم الوسيط لم يستطع الفرنسيون المنتفعون من هذا النظام أن يعتمدوا على ولائهم ، وعندما جاءت الأزمة انضم كثير منهم إلى العبيد .

وجاءت الثورة الفرنسية فدفعتم بالمسائل الرئيسية إلى ذروتها بسياساتها المتأرجحة ، إذ بعد أن فقد الفرنسيون مناصرة المولدين ، انتهز عبيد المزارع فرصة الجو المشحون فى المستعمرة ليقوموا بثورة صريحة فى سنة ١٧٩١ . وتلا ذلك عشر سنوات من الاضطراب والعنف زادها خطورة غزوة للبريطانيين استغرقت وقتاً طويلاً . وفى أثناء هذه الفترة المضطربة تنازلت إسبانيا لفرنسا عن الجزء الشرقى للجزيرة ، ولكن الحوادث توالى بسرعة زائدة لدرجة لم تمكن للفرنسيين الإفادة من مستعمرتهم الجديدة . وبدأ من ثورة توسان اوفرتور (\*\* ) ، وهو زنجى ذو مقدرة خارقة على الزعامة (٢٣) أنها قدمت أملاً فى السلم فى سنة ١٨٠١ ، ولكن نقض

affranchis (\*)

Toussaint L'Ouverture (\*\*)

بونابارت الاتفاقات التي أبرمتها حكومة الإدارة مع الزعيم الزنجي أعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وضعت فرنسا آخر فرصة لها في استعادة مستعمراتها الغنية بفشل مجهودات جنرال ليكليرك (٢٤) التي كانت ترمي إلى إخماد الثوار بالسلاح ، وأيضا الغدر الذي لاقاه توسان لوفرتور من معاملة الفرنسيين . واتخذت الثورة ضراوة جديدة تحت زعامة جان جاك دسالين . وفي وقت لاحق في سنة ١٨٠٣ ترك آخر جنود فرنسيين الجزيرة وفي وقت مبكر من السنة التالية ولدت جمهورية هايتي لتعيش حياتها المضطربة ، وبسط دسالين ، وقد عين نفسه حاكما مدى الحياة ، من وقت مبكر ، مشكلاته الإدارية باستئصال البيض الذين لم يتدبروا الأمر في الرحيل عن الجزيرة في الوقت المناسب .

وأعد الميدان لدولة حرة وبجتمع زنجي حر . ونظر العالم الخارجى إلى الجمهورية الجديدة نظرة هلع أو اشمئزاز لقيامها على هذا الدم الكثير المراق (٢٥) . ولم يقدم أحد لها يد المعونة . ومضت فترة طويلة قبل أن تتنازل فرنسا ، وهى الأم الروحية لثقافتها الرقيقة الرفيعة ، وتقبل صحتها . ولإذ نظرت الحكومات الأجنبية إليها نظرة امتهان ، فقد استغل رؤساؤها الزنوج الطبقة الأرستقراطية الطبيعية من المولدين كجبهة احترام مع معاملاتهم من الحكومات الأخرى . وفيما عدا ذلك تركوا المواردهم ، مع قصور في جميع تجاربهم السياسية ، فلم يكن لدى مؤسسى الجمهورية شئ كثير يعضون به سوى ما جبلوا عليه من غرائزهم الفطرية وذكائهم الذاتي .

وفي هذه الخلفية لم يكن غريبا أنه لفترة قرن كان تاريخ هايتي عاصفا ، وتطورها عملية مؤلمة إلى حد كبير (٢٦) وجاءت أوقات من الفوضى كانت مدينتها فيها على حافة من التكوّص إلى حياة الأدغال . ومع ذلك فقد كان الاضطراب الذى يسيبه الحكم الاستبدادى نصف المتبربر مثل حكم كريستوف (٢٧) وسولوكي يخففه ، في فترات ، حكم خير لشخصية عالية .



تبصر الناس بأمل لمستقبل اسعد للأمة . ولم يتحقق هذا الأمل إلا في هذا القرن .

والتركيب الطبقي للمجتمع الهائى بسيط جداً . فحوالى سبعة وتسعين فى المائة من السكان فلاحون زنوج . والباقيون ، وهم قلة ، يشملون الطبقة المختارة ، وأغلبهم مولدون (٢٨) ويتجنب أهالى هايتى فيما بينهم أية إشارة إلى اللون كحد اجتماعى يميز طبقة عن أخرى . فالزنجى لا يبالى إلا قليلاً بلونه ، ولكن لدى المولد حساسية زائدة لما يديه العالم « الأبيض » الخارجى من تعصب . وذوو البشرة المائلة إلى البياض مغرمون سرا بلون بشرتهم الفاتح ، ولاسكنهم يدركون أن تأثير البياض فى هايتى ، بعكس الحال فى البرازيل ، ضئيل لدرجة لا يمكن معها مطلقاً أن يحدث تغييراً مادياً فى السحنة العامة للسكان . وعند ما يسافر أفراد الطبقة المختارة خارج بلادهم يفضلون زيارة البلاد التى فيها لا يعبأ الناس اجتماعياً بلون البشرة . فهناك فقط يمكنهم أن يفقدوا حساسيتهم ، وأن يشعروا فى ارتياح بأنهم أناس محبوبون كما هم عادة .

وتعيش الكتلة الكبيرة من شعب هايتى فى تلاصق مع الأرض . ولم تعد الأرض بعد أرضاً طيبة رغم جمال المناظر الطبيعية . ويحصل الفلاح على كفاف من العيش من التربة الشحيحة التى أثرت فيها التعرية قروناً ، وكذلك من جراء استغلالها بلا اكتراث . وهناك أناس زائدون من بنى قومه للأرض التى يمكن استغلالها . وقطعة الأرض التى يستغلها لا تمده إلا بضروريات الحياة العادية . وهم قوم يتصفون باللطف والرقّة (٢٩) ، طوروا فلسفة بسيطة للحياة مع ظروف حياتهم المحدودة . وهمهم الشاغل هو تجنب حوادث الاضطراب ، أى إلهم يجتهدون أن يكونوا على علاقات طيبة مع جيرانهم ، ومع الأرواح الخفية التى لديها القوة للتأثير فى حياتهم ، ومع ذوى النفوذ وهم يحرسون على مراعاة قواعد المجتمع الخاصة

باحترام الكبار بحسب تقدمهم في السن وحيثما وجدوهم . ويسترضون  
الآرواح بإقامة شعائر الفودو ، أو الفودون ، التي بالغوا كثيراً في مظاهرها  
المثيرة . وفي نفس الوقت يبدون الاحترام اللائق لأي قسيس ينتمى إلى  
الكنيسة الكاثوليكية قد يقيم بجوارهم . أما من ناحية موظفي الحكومة  
فهم يتجنبونهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويحاولون تجنب وقوعهم في  
شباك مع من يمثلون السلطة . وهم محافظون ، ويرتابون في التغيير واقتباس  
الآفكار الغربية عن محيط معرفتهم المحدودة . وباختصار فهم لا يرغبون  
إلا في الحفاظ على القليل الذي يملكونه . أما من حيث اللغة ، فهم  
لا يتكلمون « الكريول » وهو خليط من كلمات فرنسية وإسبانية  
وكاريبية وبضع لغات أفريقية ، وليس لها قواعد نحوية . ولما كانت  
الكريول لغة لا آداب لها في الواقع . فهم يعيشون خارج نطاق الكلمة  
المكتوبة ، وفي داخل حدود ثقافة مغلقة .

وفي بلاد قليلة جداً لا تزال هناك أرستقراطية حقيقية بالدرجة  
الموجودة بين الطبقة المختارة من سكان هايتي . فهم يمثلون الأمة أمام  
بقية بلاد العالم وهم وحدهم مستودع القوة السياسية والاقتصادية ، وهم  
« المجتمع » كما تعرفهم مدن هايتي . ويحتكرون كل شيء فيما عدا أخط  
مستوى في التعليم الأولى . ويتكلمون الفرنسية ويفصلهم هذا الحاجز  
اللغوي فكرياً عن عالم الفلاحين البدائي . ولهم ثقافة مكانها فراغ وظيفي  
بعيد إلى درجة كبيرة عن المشكلات المادية لحياة سكان هايتي . وهم يجيدون  
القرأة والكتابة ويعكفون على الحديث المفيد كتمرين عقلي . ويميلون  
ميلاً شديداً إلى ما هو فرنسي في اتجاهاتهم الثقافية ، ويناقشون إلى ما لا نهاية  
الأساليب السائدة للتفكير الفلسفي كما ترد من باريس . ويعيش الميسرون  
منهم عيشة راضية ، إن لم تكن مترفة ، في قصورهم المطلة على بورت  
أوبراس . وأخلاقهم حميدة ، ويلبسون ثياباً حسنة ولكن في احتشام .

ويعتقدون العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، ويتزوجون وفق طقوس الكنيسة ، بخلاف الفلاحين الذين يستغنون عادة عن الزواج الرسمي لأنه يكلف مصروفات لا طائل منها ، ولأنه تنازل خطير للحكومة ، وعقبة في سبيل حرية التصرف .

هذه هي الكفة سباب  
مبدأ الإنسانية المذمومة  
وهي التي لا تترك

ومع ذلك ، فتح كل المميزات التي تحيط بمركزهم في النظام الاجتماعي المرمي للبلاد ، ومع مبشرات حياتهم اليومية ، فإن هذه الجماعة الجذابة المثقفة مفعمة بالسخط العميق والقلق . فعلى الرغم من مواظبتهم العالمية المدروسة ، فإن نظرتهم الإقليمية لا تخفى وراءها سوى القلق حول مكانة بلادهم الضئيلة في العالم . فإن القيم التي يعولون عليها كثيراً تصبح طرازاً قديماً أو تهمل في عصر تسود فيه سياسة القوة والإنجازات المادية العظيمة . فهم يشعرون بأن لا مكان لهم في عالم تسيطر عليه القوى الاجتماعية الماردة ( \* ) ، وفيه تبدو مظاهر الفن والثقافة التي أنتجتها الروح الإنسانية وكأنها قد ألقى بها جانبا . وفي هذه الأثناء يمضون في طريق حياتهم متلائمين ، فيقرأون بروسست وموراس ، ويناقشون جدارة سارتر كما لو كان الحامل الجديد ، للرسالة ، ، ويقيمون معرضاً دولياً لا يستطيعون إقامته على التمام ، ومؤتمراً عالمياً للفلسفة يختالون فيه فترة قصيرة . وبينما يبدون قلقاً حزينا لتقبله سائر بلاد العالم المتعددة وفق تقديرهم ، ويصغون بأذانهم إلى الطبول تدق في التلال ليلاً . فهناك تمضي حياة هايتي الصميمة في طريقها البدائي .

( \* ) Cyclopean : من سيكلويس ، مارد خرافي له عين واحدة في وسط جبهته ( صقلى الأصل غالباً ) .

### الزنجرى فى حضارة امريكا اللاتينية

البلاد التى يتبوا العنصر الزنجى فيها اليوم أهم مركز هى هايتى والبرازيل وكوبا . وهو عامل هام كذلك فى سكان جمهورية الدمشيكان وبنما وفثويلا، وإلى درجة أقل قليلا كولومبيا وهندورس ونيكاراجوا . وفى سهول أمريكا الوسطى تزايد العنصر الزنجى الأصلى كثيراً بنزوح الزوج من الجزر التابعة لبريطانيا فى الكاريبي الذين احضروا إليها كعمال فى منطقة القناة ، أو فى مشروعات المزارع فى الجهة الساحلية إلى الشمال من بنما . وتوغل زوج من نفس الأصل فى وقت سابق بكثير إلى نطاق الغابة المطيرة على طول سواحل هندورس ونيكاراجوا فيما عرف بأراضى البعوض . وهنا اختلطوا بالسكان الهنود القليلين على طول مجارى الأنهار ليخلقوا جنسا جديدا من الثامبو ذا ثقافة مهجنة .

وقد كان له تأثير كبير فى ثقافة هذه الاقطار ، بدرجات متفاوتة بحسب أعداده النسبية ، وطول إقامته ، والمواقف السائدة للجنس الأوروبى . وقد ترك أثرا فى الحياة لايمحى ، كان مقصورا فى بعض الأحيان على المحلات التى كثرت فيها أعداده ، وفى بعض الأحيان اقتصر على ميادين معينة حيث كانت خدماته المناصلة عظيمة بطبيعتها كما فى الموسيقى والرقص وتعبيرات أخرى عن حاسته العميقة للإيقاع . وأضاف للخبرة الإسبانية والبرتغالية ، وإلى درجة مزاج الهندى الأدنى ، طبيعة عاطفية مظهرية وغير مقيدة . واعطى لمشاعره القوية دائما حرية أكبر للتعبير . فحيث أمكن للهندي أن يتسم على أكثر تقدير ، أمكن للزنجرى أن يقيمته عاليا . وحيث كان الهندى قليل الكلام ، أو يتكلم برفق ، كان هو ذلق اللسان ثرثارا . ونظراً إلى ما اتصف به من الود والمحبة ، فقد استطاع أن يكون على درجة عظيمة من الولاء والإخلاص . وعلى الرغم من اندفاعه فى التفاخر والتباهى ففى وسعه

أن يكون وقورا كالإسباني أو الهندى الغبين (٥) وهو مكتئب ومتقلب ،  
ولذلك تمضى أهواؤه أسرع من الهندى الأقل تقلبا . فهو مخلوق لاندفاعاته  
أكثر منه للقواعد والمبادئ ، وعبوديته جعلت منه شخصا نهازا للفرص  
بالسابقة . ونمى إلى درجة عالية مشاعر حسية ، وأصبح بصفة عامة كائنا  
بشريا رقيقاً ، عالما إلى حد كبير جدا بطبيعة جسمه وما يستطيع أن يعينه  
به ليستمتع بالحياة . ولما كونه حساساً بعصبية وسريع التهييج فإن ميله إلى  
عدم النظام كان يسبب للإسبانيين قلقا ملحوظا . وقد تأصلت هذه الصفات  
والقيم التى يتصف بها الزنجى فى الأخلاق والحضارة الإقليمية لأمريكا  
اللاتينية . وإذا استثنينا أولئك الذين تأثروا بالفلسفة « العنصرية ،  
للحكومت دى جوينو ، فإن قليلا من سكان أمريكا اللاتينية فى وقتنا هذا  
قد يرتابون فى القيمة النهائية للزنجى فى مجتمع بلادهم القومى .

## هوامش الفصل الخامس

Vernon, «Pedro de Valdivia : Conquistador of Chile»  
(Austin, Texas, 1946), P. 63.

طبقا لرواية أوجستين ادواردز وصل أول زنجى الى تشيلى من سفينة جانحة سنة ١٥٤٤ . وقبض عليه الهنود وغسلوه بماء فى درجة الغليان ثم فركوا جلده بقشور الذرة وبقروا بطنه ليروا ما بداخله \*

«My Native Land» (London, 1928), P. 129.

(٢) قال جيرولامو بنزوني الايطالى الذى كان فى الهند الغربية فى منتصف القرن السادس عشر أن عددا كبيرا من الاسبانين فى سانتو دومنجو تنبأوا بأن الزوج سوف يستولون على الجزيرة  
«Istoria del mondo nuovo» P. 158.

« لما كان الاسبانيون فى حاجة الى رجال يعملون لهم وليعنوا بماشيئهم ، فقد اضطروا الى استجلاب الزوج من غينيا ، وهناك اكتظوا الى درجة أن الجزيرة امتلأت بهم الآن كما كانت ملاء بالسكان الأصليين ، والى درجة أن الاسبانين ينقلون الزوج من هذه الجزيرة الى القارة حيث يبيعونهم » \*

Lopes Vas, in Hakluyt, op. cit., VIII, 164.

(٣) كتب جوهان بابتيست فون سبكس العالم الألمانى الذى زار البرازيل فى عصر الامبراطورية يقول : « ان حالة هؤلاء العبيد أقل تعاسة بكثير عما يعتقدده الناس فى أوروبا ، فهم لا يقاسون من نقص فى الطعام ، ويلبسون ثيابا مناسبة لمقتضيات المناخ ، وقلما يرهقون بالعمل »

Spix and Martius, «Viagem pelo Brasil» (tr. from the German, 3 vols., Rio de Janeiro, 1938), II, 301.

قارن بملاحظات كتاب ومراقبين آخرين : « ليس هناك مكان ما ، حتى فى البلاد الشرقية ، حيث يشوب الشراب أقل ما يمكن من المارة » \*

Richard F Burton, «Explorations of the Highlands of the Brazil» (2 vols., London, 1869), I, 270.

« وكانت العلاقة الانسانية والودودة بين السيد والعبيد ٠٠٠ فى كل الاحتمالات ٠٠٠ هى القاعدة العامة » .

Donald Pierson, «Negroes in Brazil» (Chicago, 1942), P 50.

« ويبدو الزنوج ، سواء أكانوا سودا أحرارا أم عبيدا ، مرحين سعداء فى أعمالهم » .

Maria Graham, «Journal of a Voyage to Brazil» (London. 1824), P. 170.

(٤) « كانت القوى المحركة للاختلاط الجنى والمصلحة الشخصية أقوى من التعصب أو النظريات أو القانون أو العقيدة . وكان الاختلاف محصورا فى أن الناس فى البرازيل أقبلوا عليه كاجراء عادى ، وأصبح الى حد ما ، بمرور الوقت مسألة اعتزاز بالنفس » .

Farnk Tannenbaum, «Slave and Citizen : The Negro in the Americas» (New York, 1929), P. 121

(٥) نسل هؤلاء النسوة ، الذين يصفهم فريرى « بالطول الفارع ومظهر الفرسان ووجاهة الأرستقراط »

«The Masters and the Slaves» P. 318

منتشرون اليوم فى باثيا . وتصف مسن أجاسيس التى زارت البرازيل فى العقد السابع مع زوجها العالم المشهور « الزراير » ( المينا ) الذين رأتهم فى باثيا بأنهم « زنوج ذوو أشكال جميلة ، أقوياء ، وينتمون الى جنس أنبل ، على الأقل جسميا ، من أى جنس نشاهده فى الولايات المتحدة . فهم جنس له مظهر قوى جدا ، والنساء بصفة خاصة ممشوقات القد ولهن حضرة مهيبة » .

«A Journey in Brazil» (Boston. 1869), P. 82.

(٦) « منذ أول لقاء لهم بالنساء الملونات اختلطوا بهن وأنسلوا أبناء مولدين ، وكانت النتيجة أن بضعة آلاف من الذكور الجريئين أفلحوا فى تثبيت انفسهم بقوة بامتلاك أراض شاسعة ، واستطاعوا أن ينافسوا شعوبا كبيرة وكثيرة العدد فى توسيع رقعة مستعمرتهم وفى كفاءة نشاطهم الاستعمارى » .

Freyre, op. cit., P. 11.

(٧) كتب الضابطان هيرندن وجين بالبحرية الأمريكية ، اللذان قاما بسح وادى الأمزون من الغرب ، يقولان : « أن تجارينا مع فريق الزنوج قدمت لنا دليلا على أن نعتقد في أن المناخ أكثر ملاءمة لهم عما هو للأجناس الحمراء أو البيضاء ٠٠٠ فالهندي يلذ له ظل الأشجار في الغابة بينما يتهلل زنوجنا فرحا في حرارة الشمس » . وقد لاحظنا أنه بينما يعيش قليل من الهنود الى ما بعد الأربعين فقد وجد كثيرين من الزنوج المسنين في البرازيل ، وكانوا لا يزالون محتفظين بنشاطهم وحيويتهم .

«Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols., Washington, D. C., 1854), 1, 302.

قارن تعليقات فريرى : « كان لدى الزنوج شيء من الاستعداد الطبيعي البيولوجى والنفسى للمعيشة في المدارين . وخصوصيتهم أكثر في الأقاليم الحارة ، يحبون الشمس ، والنشاط ، ودائما تبدو عليهم النضارة والمجدة عندما يجدون أنفسهم في الغابة المدارية » .  
Herndon and Gibbon, op. cit., 1, 337.

(٨) « كان العبد الزنجى يبدو سعيدا جدا في البرازيل . وهذا ما كان يلاحظه جميع الأجانب » .  
Herndon and Gibbon, op. cit., 1, 337.

(٩) ساعد على ارتقاء المولدين ، كما ساعد على ارتقاء العبيد ، عملية التحرير التي كانت تتم بالتدريب أكثر منها طفرة ، وهذه العملية حررت في البرازيل معظم الطبقة الدنيا للمجتمع من المركز الحقيق ، تدريجيا وكأفراد ، في ظروف ملائمة لاستمرار تلك الروابط الشخصية الودية التي ساعدت على خلق « شخص محرر جديد » .  
Pierson, «Negroes in Brazil.» (Chicago, 1942), P. 171.

(١٠) كان تحرير الشخص لعبيده تقليدا فخريا ، وكان الناس يوفون به في مناسبات عدة » .  
Tannenbaum, op. cit., P. 58.

(١١) « الزنوج آخذون الآن في الاختفاء سريعا في البرازيل ، يمتصهم الجنس الأبيض ، وفي بعض الجهات يبدو أن الاتجاه هو نحو تثبيت السماء المختلطة في سلالة اتنوجرافية شبيهة بالبولينيزيين » .  
Freyre, «Brazil : An Interpretation», P 96



(١٢) يقول فرانك تاننبوم عن التسلح التقليدى البرازيلى ازاء اختلافات اللون : « للزنجى فى البرازيل ، وخصوصا المولد ، طريق مفتوح للثقافة ودور يقوم به فى الحياة الاجتماعية غير معروفين فى الولايات المتحدة . وقد وجد المولد فى مجالات السياسة وفى الفنون وفى المجتمع الباب مفتوحا قليلا ، حتى ولو لم يكن مفتوحا على مصراعيه وبدأت تنشأ بيئة اجتماعية مختلفة اختلافا واضحا . وحتى فى ظل الامبراطورية كان الزنجى والمولد - ومن الناحية الاجتماعية المرأة المولدة الجذابة - يحظون بقبول لا يمكن تصوره على مسرح الحياة فى أمريكا » .

op. cit., P. 4.

(١٣) « المولدون من هنود وزنوج (السامبو) اشد من المولدين من بيض وزنوج ، فهم يتصفون بالشراسة والعناد ، وفيهم كثير من أخلاق الزنجى الافريقى ، ولكنهم على استعداد لاقتراف رذائل أكثر . وترتكب هذه الطبقة من السرقات والاعتداءات عددا أكبر من جميع الطبقات الأخرى ما عدا المولدين من زنوج وصينيين (Chinos) فهؤلاء أسوأ طبقة مولدة فى الوجود : أفرادها قساة القلوب ، يدفعهم الانتقام ، لا يتسامحون ، دميرو الخلقة كما لو أن مظهرهم يعبر عن دخيلة نفوسهم ، كسالى ، أغبياء ، ويثيرون فى المرء الغيظ » .

W. B. Stevenson, «A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years Residence in South America» (3 vols., London, 1825), I, 309.

ويصف فرأى فاثكيث دى اسبينوسا المستعمرة التى زارها فأثارت اهتمامه والتى كان يقطنها السامبو فى اقليم اسميرالداس . فقد كان الناس يعتقدون أنهم انحدروا من عبيد جنحت بهم سفينة فنزلوا الى البر وقتلوا الرجال من الهنود فى ذلك المكان واعتصبوا نساءهم . ويكتب عن هؤلاء فيقول : « ان لهم شكلا جميلا ، وجميعهم يضعون فى فتحة الأنف وتدا ذهبيا ويضعون على صدورهم لوحات ذهبية مصورة فى أذانهم أقراط ذهبية على شكل حلقات » .

«Compendium and Description of the West Indies» (tr. from the Spanish, Washington, D. C., 1942), P. 375

وكتب عنهم ستيفنسن : « طوال الاجسام ويميلون الى النحافة ، ويميل لونهم الى الحلكة الخفيفة ، ولهم شعر ناعم مجعد ، وعيونهم

واسعة ، وأنوفهم قطساء قليلا ، وشفاههم غليظة ، وتغلب فيهم صفات الزنوج على صفات الهنود » .

op. cit., II, 387.

(١٤) كتبت مدام كالديرون دى لا باركا تصف غذاء راقصا حضرته في هافانا تقول : « بعد العشاء بدأنا نسلى أنفسنا بمشاهدة الزنوج والزنوجيات يقدم بعضهم الى البعض المسكرات ويفتحون زجاجات الشمبانيا الطازجة ويشربون ويسيفون كل شيء على موائد العشاء دون أقل اهتمام نحو سيدهم أو سيدتهم » .

«Life in Mexico During a Residence of Two Years In that Country» (Everyman Edition), P. 16.

(١٥) « كان الزنوج مغنيا ، مغنيا متأصلا ولا يمكن تقويمه » .

Lins Alberto Sánchez, «Vida y Pasion de la Cultura en América» (Santiago, 1935), P. 53.

Juan and Ulloa, op. cit., I. 1, 31-32.

(١٦)

كتب توماس جيدج يصف بعض تأثيرات الأنماط السائدة في الملبس بين الطبقة الدنيا من النساء الملونات في مدينة المكسيك يقول : « ان زى هذا النوع المنحط من شعب المغاربة السود والمولدين خفيف جدا وقاماتهم مغرية الى حد أن كثيرا من الاسبانيين ، حتى من الصنف الأفضل ( الذين كانوا على استعداد لمباشرتهم ) يتصلون من زوجاتهم من أجلهن » . وكما كانت القاعدة المتبعة يضيف تذييلا فيقول : « كانت ظهورهن العارية ونهذهن السمراء مغطاة بمدييات معلقة من سلاسل من اللؤلؤ » .

Gage, «A New Survey of the West Indies, 1648» (New York, 1929), pp. 85-6.

(١٧) ان عدد الرجال المحررين كبير جدا : فالقوانين والعادات الاسبانية تحبذ تحرير العبيد فلا يستطيع السيد أن يرفض حرية عبد يعرض عليه مبلغ ٣٠٠ بيسو حتى ولو كان العبد قد كلفه ضعف هذا المبلغ . وان عدد الأشخاص الذين يتركون في وصاياهم تحرير عدد معين من العبيد يزيد في ولاية فنثويلا عنه في أى مكان آخر » .

Humboldt, op. cit., IV, 161.

(١٨) فى الحالة التى يكون فيها المولد نتاجا من امرأة بيضاء ورجل أسود فإن الدافع الذى يساور المرأة هو عادة الانتقام من مغازلات زوجها للنساء المتعددات الأجناس • وعن وجهات النظر المختلفة فى هذه المشكلة أنظر

Depons, «A Voyage to the Eastern Part of Tierra Firme» (tr. from the French, 3 vols., New York, 1806), I, 160.

(١٩) كانت القيمة الاجتماعية الكبيرة التى تضيفى على البشرة العاتجة مشجعا على هذه الاتصالات • ويعد تصنيف التدرجات المتعاقبة للسكان المولدين فى كارتا خينا كتب خوان وأيووا يقولان : « أن كل شخص غيور على رتبة قبيلته أو طبقتة الى درجة أنك اذا الصقت بهم دون انتباه رتبة أقل من رتبتهم الحقيقية فانهم يشعرون باهانة بالغة لأنهم لا يتركون أنفسهم أبدا يقاسون من حرمانهم من هذه المنة العظيمة التى واتاهم بها الحظ » •

Juan and Ulloa, op. cit., I, 29-30.

وقد لاحظ كابتن وودز روجرز القرصان الانجليزى بعد نهب جواياكيل أن « ملك اسبانيا قادر على أن يبارى بجلود رعاياه الأمريكانيين أى لون بتنوع ودقة أكثر من استطاعة تاجر الأجواخ بقماشه وزركشته » •

«A Cruising Voyage Round the World» (London. 1928)

P. 150.

وكانت السلطات الملكية لاعتبارات معينة تعطى شهادات رسمية ببياض بشرة المولدين • كتب مسيو ديبون يقول : « فى أثناء اقامتى فى كاراكس حصل جميع أفراد عائلة ملونة من الملك على كل المزايا التى تختص بالبيض » • ومن أكثر هذه المزايا تقديرا كان الحق فى الركوع على سجادة الكنيسة » •

Dupons, op. cit., I. 168.

(٢٠) « المناخ حار وضار ، ولو أنه صحى بالنسبة الى الزنجى المولد • ولهذا السبب ، ولكونه مينا غنيا يعيش كثير منهم هناك » •

Vazquez, op. cit., P. 169.

(٢١) ربما كان المولد الذي ينتمى الى الطبقة الدنيا ، كالزنجى الحر ، قد ساهم أيضا بأكثر من نصيبه في القوضى والجريمة في كل من وعصرى الاستعمار والجمهورية • كتب هيرندن وجين يقولان : « السفاحون الزنوج في طرق بيرو العامة أكثر تهورا وقسوة من كل من الاسبانين أو المولدين من هنود وذنوج » ثم يقولان عن طاقم السفينة على الأمزون : « كنا نأمل أن نتخلص من أولئك الزنوج الأحرار الوقحاء أنصاف المتوحشين الذين رفضوا باصرار اطاعة سلطات المدينة (بوريا) • Herndon and Gibbon, op. cit., I. 285, 312.

(٢٢) عقب المسافرون الفرنسيون الذين زاروا كوبا في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر فقالوا ان النساء الوحيدات في الجزيرة اللائى يستطعن مداومة التحدث كن المولدات • وعن مركز المولد مجتمع ليما في أوائل القرن التاسع عشر أنظر • Stevenson, op. cit., I, 307.

(٢٣) كان المحور لتقريظ من وندل فيلبس الأمريكى المشهور لتصير حركة اللغاء •

(٢٤) كان جنرال ليكليرك ، بزواجه من بولين بونابرت ، صهرا لنابليون الذى كان في ذلك الوقت قنصلا أول للجمهورية الفرنسية •

(٢٥) انظر

Richard Pattee, in Charles C. Griffin, ed., «Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 23.

وبعد باتى من أحسن الثقافات الأمريكيين معرفة وتفهما لهايتى •

(٢٦) انظر

H. P. Davis, «Black Democracy : The Story of Haiti» (New York, 1928),

Spencer st. John; «Haïti» (London, 1889) وأيضا

أيضا

Dante Bellegarde; «La Nation Haitienne» (Paris, 1938).

(٢٧) نودى بثلاثة من حكام هايتى - دسسالين وكريستوف وسولوكى - ملوكا أو أباطرة •

(٢٨) أكثر المؤلفات استيفاء لهذا الموضوع هو

James G. Leyburn, «The Haïtan People» (New Haven, 1941).

(٢٩) معرفتك بمواطن هايتى العادى تشعرك بمحبة شديدة نحوه  
وليس حياته سهلة فى أى وقت من الأوقات ، ومع ذلك فهو يتحملها  
بروح جميلة حقا »

Leyburn, op. cit., 295.

(٣٠) دبلوماسى فرنسى وعالم ، مؤلف

«Essai sur l'inégalité des race humaines,»

واذا أردت نمونجا لتأثير « نظريته الآرية » على الحركة الفكرية  
فى أمريكا اللاتينية أنظر .

Francisco Garcia Calderon, «Latin America : Its Rise  
and Progress» (tr. from the French, London, 1915) pp.  
355 - 62.





## الفصل السادس

# الاجنبي

نص أحد قوانين الهند الغربية على أنه « لا يجوز لأى أجنبي أو شخص محظور عليه أن يتاجر في الهند الغربية أو يذهب إليها ، ما لم يمنح مسبقا الجنسية ويصرح له من بيت التجارة (٥) وكان هذا في سنة ١٥٩٢ ، أى بعد قرن من الكشف . وكانت القوانين التي تمنع أو تراقب الأجانب منفذة من أوقات مبكرة ، ولكن مجموعة التشريعات التي سنت ضد الأجانب والتي صيغت في وقت لاحق في « المجموعة » (٥٥) لم تبدأ في الظهور كمراسيم ملكية (٥٥٥) حتى بعد منتصف القرن السادس عشر . وتمشيا مع أغراض

Casade Contratación (\*)

“Recopilación de Leyes de los Reinos de las Indias” 1680 (\*\*)

Cédulas (\*\*\*)

القوانين المقيدة يمكن للأجنبي أن يكتسب الجنسية إذا كان قد عاش في إسبانيا أو الهند الغربية عشرين سنة على شريطة أن يكون قد امتلك في بحر هذه المدة منزلاً أو متاعاً تصل قيمته إلى ٤٠٠٠ دوكات ، وأن يكون متزوجاً امرأة إسبانية أو ابنة لأجنبي مولودة في إسبانيا .

وأشد قوانين المنع صرامة قانون سنة ١٦١٤ الذى ينص على تحريم التجارة مع الأجانب في الهند الغربية تحت طائلة الإعدام ومصادرة الممتلكات . وليس هناك سجل ما يستدل به على تطبيق هذه العقوبة المتناهية الشدة ولو مرة واحدة . ونص قانون سنة ١٦٠٣ على أن الموظفين الرسميين في المستعمرات عليهم أن « يطهروا الأرض من الأجانب والأشخاص المشبوهين في الأمور المتعلقة بالعقيدة » . لجميع هؤلاء الضالين وجب أن « يطردوا إلى خارج الهند الغربية » ، لأنهم يهددون العقيدة الأرثوذكسية التي يعتنقها السكان الأصليون والناس الجيلة الآخرون . وكإجراء وقائي كان على سلطات نائب الملك أيضاً أن يبذلوا جهدهم لمنع الأجانب الذين استقروا في الهند الغربية من إخطار حكوماتهم الوطنية عن أحوال الدفاع التي كانت عليها المستعمرات الإسبانية . أما الأجانب الذين يسمح لهم بالذهاب إلى الهند الغربية فقد كان عظوراً عليهم أن يبقوا في المدن الساحلية ، وأما الأجانب غير المتزوجين الذين وجدوا يقطنون على سواحل أمريكا الإسبانية فقد وجب أن يطردوا فوراً من الهند الغربية ما لم يكن لديهم تراخيص من الحكومة بالإقامة .

ولم تطبق القوانين التي سنت ضد الأجانب على أصحاب الحرف التي كان يعلن عن مهارتهم بأنها « ذات قيمة للجمهورية » ، غير أن المقصودين منها في أغلب الأحيان كانوا هم التجار . وقد نص على أن الغرض الأساسي هو « تطهير الجمهورية من الأشخاص غير اللاحقين والإبقاء على أولئك الذين



هم نافعون وضروريون ، بينما تحمى سلامة عقيدتنا المقدسة الكاثوليكية . .  
 وكان على الموظفين أن يكونوا متساهلين عند تطبيقها على الأجانب الذين طالت  
 مدة إقامتهم ، أو أولئك الذين أدوا خدمات نافعة في فترة الكشف أو  
 الحروب الأهلية أو « تعديلات » في الفتح ، أو المتزوجين الذين أنجبوا  
 أبناء وأحفاداً . وكانت هناك دائماً تنازلات خاصة بالنسبة إلى أولئك الذين  
 أرسوا قواعد ( \* ) في المستعمرات . فقد يسر لمثل هؤلاء أن يحصلوا على  
 الترخيص الضروري أو « اتفاق » للبقاء في الهند الغربية ، ولو أنه نص على  
 شرط أن يعيشوا في الداخل وأن يمتنعوا عن التنقل من منطقة نائب ملك  
 إلى أخرى . بل كان في استطاعتهم أيضاً أن يحصلوا على هنود لمزارعهم .  
 وأعفى البرتغاليون مدة طويلة من تطبيق النصوص القانونية ضد الأجانب  
 ولسكنهم بعد سنة ١٦١٤ كانوا يعاملون معاملة الدخلاء .

تلك كانت سياسة إسبانيا الرسمية . وكانت دوافعها مكونة من ثلاثة  
 اعتبارات ، سياسية واقتصادية ودينية : أمن الامبراطورية الاستعمارية ،  
 واحتكار إسبانيا التجارة مع المستعمرات ، والحفاظ على الأوروذوكسية  
 الكاثوليكية ضد طغيان الضلالة . ويبدو أن القوانين التي تضمنت هذه  
 السياسات نفذت بعدم اكتراث من قبل الموظفين الذين كلّفوا بتنفيذها .  
 وكانت بعض المستعمرات مثل باراجواى ترحب بالأجانب على الدوام (١) .  
 وكانت السلطات الاستعمارية قابلة للتأثر بمصالحها الشخصية ومتحفظة في  
 تفهم التشريع نفسه ، وأربوا بط الصداقة ، وهى الدافع القوي الذى يسمو  
 بسهولة فوق الالتزامات الرسمية بين الشعوب الإسبانية . وأدركت  
 الحكومة فى إسبانيا أخيراً عدم جدوى مجهوداتها لضبط دخول الأجانب  
 إلى العالم الجديد ، وفى سنة ١٦٦٧ أصدرت قانوناً آخر تأمر فيه نواب الملك

---

(\*) فى الأصل : جذور

والمحاكم والمحافظين بحصر جميع الأجانب غير المرخصين ، في دوائرهم وترسلهم « طردا » إلى « بيت التجارة » في إشبيلية وينصر القانون على أنه « ليس هناك حظر تكرر مرارا أكثر من الحظر المقروض على الأجانب غير المرخصين الذاهبين إلى الهند الغربية كما يقرر دائما بالقوانين والمراسيم الكثيرة » ، ثم يضيف : « وليس هناك ما هو أهم من تنفيذها » . وفيما عدا دفعة وقتية في التنفيذ ، ليس هناك ما يدل على أن قوانين الحظر كانت تراعى بعد ذلك أكثر من ذي قبل ، ولو أن بعض كبار موظفي نواب الملك استمروا بين آونة وأخرى يأخذون على عاتقهم تنفيذها مآخذها جديا في معاملتهم للأجانب . وفي ذلك الوقت كان الخوف من محكمة التفتيش أعظم رادع يخيف للأجانب غير المرخصين في الهند الغربية الإنسانية . وكانت حماسة محكمة التفتيش على الأقل ثابتة ، كما لم تتعود أن تسبب صداقات .

وكان الإسبانيون في العصور الوسطى ، شأنهم شأن معظم الأوروبيين ، ينزعون إلى أخذ الحذر من الدخلاء . وكانت أوروبا ، في تنظيمها ومظهرها وعلى ما كانت عليه من تقسيمات سياسية كثيرة ، مؤسسة على نظام الأبروشيات . ولم يكن هناك شعب كسكان شبه جزيرة أيبيريا ، مع انزعاجهم عن الكتلة الأوروبية بحاجز جبال البرانس ، أكثر عقلية أبروشية منهم . فلم تكن الشعوب الإسبانية سيئة الظن بالشعوب الأخرى فقط ، ولكن أهالي البلاد التي تنتقل من سيطرة ملك إلى سيطرة ملك آخر يرتاب بعضهم في بعض ، وكان أهالي قشتالة يعاملون الباسك ومواطني كتالونيا وناغار بعد بدء عصر الإمبراطورية الإسبانية بوقت طويل معاملة الغرباء .

وكان بغض الأجانب الشديد الذي شارك فيه الإسبانيون الفرنسيين والألمانيين هو النتيجة الطبيعية لظروف تلك الأوقات . ففي عصر ساد فيه الاضطراب كالعصور الوسطى ، حينما كانت الجيوش المتجولة ، سواء

أكانوا من الفايكنج ، أم خرجوا من اسكنديناوة . أم جيوش المغول  
الجرارة النازحة من آسيا ، أم الفرق المغيرة عبر النهر ، تسبب على الدوام  
الإزعاج للناس الصغار وهم ماضون في حياتهم ، كان طبيعياً أن يقرن الناس  
الغريب بالعدو . وبالنسبة إلى الطبقات الدنيا - ومعظم أوروبا كانت  
طبقة دنيا - كانت مبادئ العالمية وأخوة الإنسان للإنسان مبادئ  
لا يستطيعون إدراكها - أو تدخل في دائرته حسب استطلاعهم . وكذلك كان  
غير مألوف لديهم شعور القومية أو روح الوطنية التي يكون الولاء فيها لدولة  
مبهمه ، ويكرهون من يعيشون خارج حدودها .

ووافق كشف وفتح العالم الجديد في التوقيت سلسلة من التغيرات  
الخطيرة الشأن في حياة إسبانيا قدر لها أن تصبح ذات أثر عميق في مزاج  
شعوبها . ففي أوائل القرن السادس عشر انقلب ماجيل عليه الإسباني من  
الزهو الغريزي إلى بغض الأجانب . وفي سنة ١٥١٣ قال فرانسيسكو  
جيشيا رديي سفير البندقية في البلاط الإسباني ، وملاحظ أريب لعادات  
الإسبانيين : « في قلوبهم الأجانب حب قليل ويظهرون لهم وقاحة زائدة » .  
وفي ذلك الوقت كانوا قد أجلوا قبل فترة قصيرة فقط البقية الباقية من المغاربة  
في شبه الجزيرة ، وساقوا الفريق المعارض من السكان اليهود إلى المنفى للأبد .  
وأسسوا موطىء قدم حصين لهم في إيطاليا ، وفتحوا عالماً جديداً فياورا  
الأطلنطي . وأخيراً اتحدت الممالك الإسبانية في شبه الجزيرة تحت حكم  
أقوياء وعقلاء ، استطاعوا أن يثيروا الإخلاص الحماسي الذي يكنه لهم  
رعاياهم . فلا عجب أن تأصل في ذلك الوقت ما اشتهر به الجنس من زهو  
وانقلب إلى كبرياء جديدة واحتقار للأجانب ازداد باتساع دائرة الفتح .  
وعندما شاهد السنبور برانتوم الجند الذين لا يغلبون في مسيرتهم قال  
لهم كانوا في استعراضهم يمشون منتصبين كالأمراء ، ذلك أن الإسبانين

قد دخلوا في دقرهم الذهبي . رافعى رموسهم عالية، وتعلو وجوههم أنفة  
ضد الشعوب الأخرى .

واتخذ الارتياح في الأجانب من جانب البرتغاليين شكلا أخف كثيرا  
منه من جانب القشتاليين . فلقد رفعتهم علاقاتهم مع شعوب آسيا القديمة،  
والتي كانت على درجة عالية من الحضارة في أوائل القرن السادس عشر،  
مكانا مشهودا من ناحية التسامح قبل الأجناس الأخرى خلال فترة توسعهم  
في العالم الجديد (٢)، وكانوا ، كالإسبانيين ، شعباً معقداً من الناحية  
الإنثوجرافية . وكانوا قد تأثروا كثيراً بالاختلاط مع الشعوب الأوروبية  
النازحة من الشمال في أيام الحروب الصليبية . ومع ذلك يبدو أنهم مثلوا  
مختلف العناصر الغربية في تركيبهم الجنسى — المغربية ، واليهودية ،  
والجرمانية ، وفي عصر أحدث بكثير ، الزنجية — مثلوها بدرجة أكبر من  
النجاح ، وبتوترات أقل من حيث النتائج المترتبة عما فعل الإسبانيون . أضف  
إلى ذلك أن زهوهم لم يكن يسانده أى شعور عن قوة بلادهم التي كانوا على  
علم بها دون ما أبهام . ولذلك فقد كانوا ينزعون ، في كل من أوروبا  
والبرازيل ، إلى أن يظهروا هداء أقل بكثير نحو الشعوب الأخرى الذين  
اتصلوا بهم . وكان المقياس الوحيد الذى طبق للسماح للأجانب مقياسا  
دينيا (٣) .

ونتج عن حركة الإصلاح البروتستانتي والانشقاق الذى صاحب ذلك  
في العالم المسيحي أن تشدد الإسبانيون في عنادهم القومى كحماء للعقيدة  
الكاثوليكية . فلم يكن الغريب حينذاك محل ثقة لأنه ضال أو مشتبه في  
دينه ، كما أنه أجنبي . وبتضاعف عدد الخوارج في أوروبا وظهور الهرطقة (\*)

(\*) الخروج عن الدين والعقيدة السائدة .

حتى في شبه الجزيرة تحت ستارات مختلفة ، نزع الإسباني ، الذي لم يستسلم لقبول فروق مراوغة ، إلى إدماج جميع الغرباء مع مخالفى تعاليم الدين ، وزاد نزوعه هذا قوة . فقلما كان يرسم خطا للتمييز بين الاثنين ، كما فعل يدرو مبنينديث دى أفيل عندما أباد مستعمرة لليهوجينوت في فلوريدا وأعلن أنه حامل ضحاياه « لا كفرنسيين، ولكن كأتباع للوثر » وفي هذه الأثناء قوت جهود الكنيسة ، وبصفة خاصة جهود محكمة التفتيش ، في محاربة الضلالة في الممتلكات الإسبانية، روح عدم التسامح بين أفراد الأمة فلقد تقرر أن تصبح محكمة التفتيش في ذلك الوقت الأداة الرئيسية في معركة الحكومة ضد الأجانب ، لأن الخروج عن الدين والخيانة كانا في عقلية الإسباني واحداً ونفس الشيء .

ولقد خففت الفردية الإسبانية في الواقع من روح العنصرية العدوانية للأمة . فبينما نزعت إلى أن تكون عدوانية نحو الأجانب في مجموعها فقد تعود الإسباني أن يحكم على الأجنبي منفردا بجدارته كشخص أكثر منه كغريب ، ويعامله وفق ذلك . أضف إلى هذا أن إنسانيته الأصلية جعلته يكون منصفاً للأجانب الذين كانت تلتابهم الشدائد ، وكانت هذه ظاهرة شائعة في المكسيك من جراء المعاملة الكريهة التي كان يلقاها رجال هوكنز الإنجليز من المدينين الإسبانين في المنطقة . فلم يقاسوا من الإهانات أو المعاملة القاسية على أيدي الإسبانين إلا إذا وقعوا في أيدي الموظفين الملكيين أو ، بصفة خاصة ، رجال محكمة التفتيش .

فإذا كانت محكمة التفتيش ، وهي جزء من أداة الإشراف السياسي الملكية معادية للأجانب معاداة لاتلين قناتها ، فقد كانت الأوامر الدينية تميل إلى أن تكون عالمية في صياغتها ووجهتها . فقد كان هذا أمراً واقعاً لصفة خاصة بالنسبة إلى جمعية يسوع التي كانت صفتها الدولية أحد العوامل

التي أدت بالحكومة الإسبانية إلى حلها نهائيا . ويجد المرء من بين الإرساليات اليسوعية البارزة في العالم الجديد كثيرا من الأسماء غير الإسبانية مثل فرتز ، وسوناج ، وكينو ، وفيلدز ، وجرفاسوتى .

### الايطاليون في القتح

أشترك كثير من الإيطاليين ، بجانب الإخوة كولبس : كريستوف وبارثولوميو ودييجو ، في كشف وفتح العالم الجديد . وكما لو كان منتظرا كانت أغليبيتهم من أهالى جنوة أو رجالا من أما كن أخرى على الساحل الليجورى . وكما لاحظ المؤرخ بيتر مارتز ، كان تأثير الأميرال ، وفي وقت لاحق تأثير ابنه ديجو ، كبيرا لدرجة مكنت زملاءهما الجنوبيين من الحصول على التراخيص اللازمة . فقد قاد ميشيل دى كونيو من سافونا ، وصديق للأميرال ، السفينة نينيا في رحلتها الثانية عبر الأطلنطى وكان بارثولوميو فيسكى ، من جنوة ، قائداً للسفينة فسكاينا في رحلة كولبس الثالثة . وكان كل منهما ملاحاً قديراً وعلى خلق وشجاعة . ومن جنوة أيضا ، ومن نفس النمط ، جيوفانى باتستادى پاستبى ، وهو « مرشد وفريق ثان للبحر الجنوبى » . وقد أدى خدمة لا تقدر لفالديفا في فتح تشيلي بحماية الاتصال البحرى مع بيرو . ومن رجال البر ربما كان جوسيبى دلا دوريا أشهر أهالى جنوة ، وكان من أوائل المستعمرين فى ساوفيسنتى فى جنوب البرازيل . وقد كان أحد أفراد بيت لامع فى الجمهورية ، وأثرى من مزارع قصب السكر . وفى سن معرضة للخطر عاش حتى بلغ المائة من السنين . وتزوجت ابنته من جون هوتمول ، وهو شاب إنجليزى مغامر قدمت له بائنة مصنعا للسكر وعددا كبيرا من العبيد ، وكان كرم الضيافة الذى اشتهر به دوريا نحو الأجانب الشرد أسطوريا ، كما كانت أعماله الخيرية . ومن بين أعماله هذه

تأسيس فرقة السكرمل في المجتمع (\*) . وعمل شخص آخر من أهالي جنوة يعرفه الإسبانيون باسم بلاس تستانوفا كطبيب لمستعمرة أسونثيون الناشئة في پاراجواي ، كما فعل طبيب إيطالي آخر هو لورنسو مينانليوتي بعد ذلك بنصف قرن .

ومن الإيطاليين الآخرين ، أشهرهم تاريخيا أمريكو فسبوتشي وسباستيان كابوتو أو كابوت . أما فسبوتشي الذي سمي على اسمه العالم الجديد ، فقد كان من أهالي فلورنسة (\*\*) وأول ما ظهر كان في إسبانيا في سنة ١٤٩٢ ككندوب بيت مالى لآل ميديتسى . وترجع شهرته كملاح إلى الرحلات الأربع التي ادعى أنه قام بها لإسبانيا والبرتغال . وعلى الرغم من أن تقاريره نفسها عن تلك الرحلات مضطربة وغامضة في بعض الأحيان لدرجة تبعث الشك لدى المؤرخين الجادين ، فمن الواضح أنه أمضى وقتا كافيا في البحر حتى اكتسب قدرا عظيما من الشهرة كملاح وعالم في جغرافية المحيطات ، كان من جرائها أن عين مرشداً أكبر (\*\*\*) لإسبانيا . وكان ابن أخيه جيوفاني فسبوتشي مرشداً لسفينة أمير البحر في أسطول پدرارياس دافيللا التي قصدت البرزخ في سنة ١٥١٣ . ووفقا لرواية بيتر مارتير كان جيوفاني قد ورث مقدرة عمه العظيمة في فن الملاحة وجمع الإحصاءات ، .

وكان سباستيان كابوت بندقى الجنسية تبعاً للجنسية التي اكتسبها أبوه المولود في جنوة وكان بحاراً ذا حظ عظيم ، وكأبيه ، ملاحا بلغ درجه السكال . وتناوب الخدمة البحرية بين إنجلترا وإسبانيا . وفي خدمة إسبانيا

(\*) جماعة الرهبان البيض ، أو جماعة سيدة جبل السكرمل في فلسطين ، وقد أسست هناك في سنة ١١٥٦ .

(\*\*) فيرتسى .

(\*\*\*) Pilot Major of Spain

قاد حملة في سنة ١٥٢٥ كان القصد منها اتباع الطريق الذي سلكه ماجلان حول أمريكا الجنوبية ولكنه تحول إلى نهر بلات ، وصعد المجرى حتى نهر بارانا بعد أن جاءته تقارير عن ثروات عظيمة في داخل القارة . وبعد عودته إلى إسبانيا من رحلة عديمة الجدوى إلى حد ما ، فقد حظوته لفترة ، ولكنه أعيد إلى وظيفة مرشد أكبر التي كان قد شغلها فسبوتشي الأكبر من قبل .

ومرت سنوات كثيرة بعد أن سار كابوت شمالا في نهر بارانا . ثم جاء تاجر من جنوة اسمه ليو بانكالدو ، وكانت وجهته بيرو ، ومعه حمولة من البضائع وبدلا من أن يذهب إلى بيرو سار صاعدا في النهر إلى أسوتيون . وهناك باع بضائعه إلى المستعمرين الإسبان المتهلفين ، وفتح باب التجارة الخارجية بين باراجواي والعالم الخارجي ومن بين الإيطاليين الآخرين الذين ينتمون إلى أنماط مختلفة ووجدوا في العالم الجديد في وقت الفتح فرانسيسكو دي لنتن الذي زامل باليو في دارين ، وبترودي أومبريا وهو قائد لسكونية (\*) تابعة لنيكيسا في الكاريبي ، وفرانسيسكو كيتا الذي اشترك في رحلة بدرادياس دافيلا ، ونيكولاس الفلورنسي ، حلاق الجنود الإسبان الملتحقين في باراجواي ، وشخص اسمه د كوردوس ، وهو عالم طبيعي درس الحياة النباتية في الهند الغربية . أما انطونيو بيجافتا ، وهو نبيل من البندقية فقد صاحب ماجلان وأصبح مؤرخ تلك الرحلة البطولية ( ٤ ) . وهاجر إلى شمال البرازيل أحد أفراد أسرة كافالكاتي اللامعين في عصر الاستعمار .

وتبين سجلات « بيت التجارة » عبور عدد أكبر من الإيطاليين إلى الأمريكتين في أثناء فترة الفتح . ففي سنة ١٥١٦ منح شخصان من نابولي

(\*) brigantine : سفينة من نوع الأبرق .



ترخيصين للذهاب إلى الهند الغربية وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ صرح لثلاثة من جنوة بعبور الأطلنطى فى سفن إسبانية - واحد منهم سمح له بالبقاء فى المستعمرات مدة أقصاها عشر سنوات . وفى سنة ١٥٢٤ رخص لاثنين من جنوة وواحد من نابولى بالقيام بالرحلة . وفى السنة التالية حصلت جماعة من جنوة مكونة من سبعة أشخاص على تراخيص خاصة بالذهاب إلى إسبانيا الجديدة ، ورخص لاثنين آخرين من جنوة وميلانو بالاشتراك فى رحلة مندوثا إلى نهر بلات . وفى سنة ١٥٣٦ سمح لمواطن من فلورنسة بالدخول إلى سانتودومنجو .

وسجل فاسكيث دى اسبنوسا أحد عشر شخصا من جنوة وسبعة من كورسيكا قاطنين فى مركز كاستروفرينا التعدينى فى منطقة الأنديز فى بيرو فى سنة ١٦١٠ ، وبضعة تجار من نفس الموطن فى مدينة شوكيساكا ( الآن سوكرى ) . وفى سنة ١٨٠٨ ، بالقرب من نهاية النظام الاستعمارى ، كان ثلاثة عشر إيطاليا يعيشون فى سانتياجو أكبر مستعمرة أجنبية فى عاصمة تشيلى الإقليمية (٥) . وإن إصرار الإيطاليين على الهجرة إلى العالم الجديد رغم الحظر الإسباني المستمر على السماح للأجانب لدليل على الخطوة العامة التى كان يوليها لهم الإسبانيون كمستعمرين نافعين وقادرين على تهية أنفسهم ، ولأن وجودهم كمواطنين لدول إيطاليا المدن ، وهى دول ضعيفة نسبيا ، لم يمثل أى تهديد سياسى لآمن الإمبراطورية الإسبانية .

### الفرنسيون

أما بالنسبة إلى الفرنسيين فكان الأمر مختلفا وليس من المدهش أن الفرنسيين الوحيدين الذين عرف أنهم حصلوا على تراخيص من ديلت التجارة للعبور إلى المستعمرات الإسبانية كانوا خمسة خبازى فطائر ، رخص لهم بالمضى إلى إسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٣٨ . والاقتصار على تدوين أسمائهم

جيوم، ويبيرو، وهنري، وريموند، ويبيرو، دليل واضح على أنهم اعتبروا غير ضارين إلى درجة أن لا خوف من جهتهم لتهديد أمن منطقة نائب الملك. وقبولهم في المكسيك كمعلمين لعمل الفطائر، (\*) دليل على التغير الذي سبق أن حدث في نمط المعيشة بين الإسبان والمحليين. فقد كان الفرنسيون مواطني أمة قوية وعدوانية لها خططها الإمبراطورية الخاصة، وكانت تنظر بقدر طفيف من الاحترام نحو حق الأبوة الذي ادعته إسبانيا لنفسها على ممتلكات في العالم الجديد. وحارب الإسبان والفرنسيون على سيادة إيطاليا، كما كان فرنسوا الأول ملك الفالوا وشارل الخامس يتنافسان على سيادة القارة. وكان قبول فريق كبير من الفرنسيين لمذهب كالفن سببا في أن الحكومتين البرتغالية والإسبانية اشتبهتا أكثر من أي وقت مضى في الشعب الفرنسي، وهما الحكومتان الأورثوذكسيتان إلى درجة فائقة، خصوصا بعد محاولات الطيوجينوت المرتدين لتأسيس مستعمرات في البرازيل وفلوريدا. ولم يبدأ الفرنسيون القيام بمشروعاتهم على نطاق واسع إلا بعد انهيار إسبانيا الذي تلا حكم فيليب الثاني. ولكن بحلول ذلك الوقت كانوا مشغولين بصالحهم في كندا والهند، كما كان يهمهم أولا وبالذات أن تتاح لهم فرص التجارة مع المستعمرات الإسبانية. وبعد أن اعتلى أمير من أمراء البوربون العرش الإسباني باسم فيليب الخامس في سنة ١٧٠٠، أصبحت سياسة إسبانيا في جانب المصالح الفرنسية أكثر من ذي قبل. وقام تجار بريثاني ونورماندي الشجعان المغامرون في فترة من التاريخ برحلات تجارية كما شاءوا إلى الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية وأرجاء أخرى من الإمبراطورية الإسبانية. ومع أنهم، بصفة عامة، قصروا مغامراتهم على السواحل فقد توغل بعضهم إلى المدن الداخلية، كما فعل أكاريت دويسكي في سنة ١٦٥٨. ولكن أكاريت كان في أمريكا الجنوبية قبل التقريب (\*) بين المملكتين،

maes tros de hacer pastel (\*)

"rapprochement" (\*\*)

وكان عليه أن يقاوم الاشتباه التقليدى للإسبانيين فى الأجانب . فقد عبر إلى نهر بلات على سفينة إسبانية تحت اسم مستعار ، ولأنه فى إسبانيا ، لا يسمح إلا للإسبانيين المولودين فيها بالسفر فى سفنهم إلى الهند الغربية . وفى ميناء بونيس أريس وجد سفينة هولندية وسفینتين انجليزيتين يحملتين بالجلود والفضة وصوف الفيكونيا ، وسمع فى وقت لاحق أن الهولنديين وهم مقلعون إلى المحيط من النهر استولوا على فرقاطة (\*) فرنسية وأعملوا السيف فى كل من فوقها من البحارة كنوع من ملذات المنافسة التجارية التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وكتب تقريراً يقول فيه إنه عاش فى بونيس ايريس بضعة من الفرنسيين والهولنديين والجنوبيين ، ولكنهم جميعاً عدوا إسبانيين ، وإلا ما استطاعوا أن يقيموا هناك خصوصاً أولئك الذين يختلف دينهم عن الكاثوليكية الرومانية ، لأن لمحكمة التفتيش قواعد راسخة هنا . ووجد قليلاً من الأجانب فى بوتوسى فى بيرو العليا . وبالإضافة إلى الهولنديين كان هناك بعض الفرنسيين من سان مالو وبايون وپروفانس ، وقد تخفوا تحت ستار نافارين وباسك .

وعلى الرغم من الفترات الطويلة التى ساد فيها العداء الصريح بين المملكتين ، فإن مكاسب الفرنسيين الإقليمية على حساب إسبانيا كانت قليلة جداً . واهم هذه المكاسب كان الطرف الغربى لهسبانيولا الذى أسماه الفرنسيون سانت دومنج . ولكن هذا الاستيلاء كان من صنع القراصنة الفرنسيين الذين يحتمل أنهم كانوا يعملون مستقلين عن السلطة الملكية . وكان القراصنة الفرنسيون فى بعض الأحيان ينهبون السفن الإسبانية ومدن الكاريبي الساحلية فى أواخر القرن السابع عشر ، ويشركون معهم الإنجليز

---

(\*) frigate بارجة

أو الهولنديين ، وفي بعض الأحيان كانوا يعملون لحسابهم وحدهم . وفي سنة ١٦٩٧ استولى أسطول فرنسي ، عليه أكثر من ٤٠٠٠ ، على كارتاخينا وبقي فيها حتى تدفع الفدية . ولما تناقصت قوته كثيرا بسبب المرض أقطع الأميرال الفرنسي حينذاك ولم يبذل مجهودا ما للاحتفاظ بالمدينة الهامة . وبعد إقلاعه أغار ألف ومائتان من القراصنة الفرنسيين كانوا يخدمون في الحملة كمساعدين بلا رحمة على المدينة المنسكوبة .

وكانت الخطط الفرنسية بالنسبة إلى البرازيل أكثر جدية وتصميما من محاولاتهم ضد المستعمرات الإسبانية . وعلى الرغم من أن سفنا من ديب وسان مالو يعتقد أنها زارت البرازيل فور كشف البرتغاليين لهذه البلاد ، فإن أول رحلة مسجلة هي التي قام بها بينوبوليميه دي جوفيل أوف هونفليير في سنة ١٥٠٣ . وكان هذا لسنوات عدة قبل أن بدأ البرتغاليون جديا تنمية مستعمراتهم الشاسعة التي أهملت لحساب تجارتهم المربحة مع الشرق . وفي هذه الأثناء كان الفرنسيون يقومون برحلات تجارية إلى الساحل البرازيلي ، ولما حان الوقت لمسكى بولى البرتغاليون اهتماما للبرازيل وجدوا أن التجار الفرنسيين قد وطدوا أقدامهم في أنحاء البلاد . وربما ضم ملاحوهم أنصاف القراصنة خليطا من البرتغاليين ومن بلاد الباسك وجنوة وكنالونيا وأيضا من بريتاني ونورماندى . وبالإضافة إلى خشب الصباغة الذي اشتقت منه البلاد اسمها ، والذي كان أهم سلعة في التجارة ، فإن هذه السفن كانت تحمل معها إلى فرنسا القردة والبيغاوات للتسلية السيدات في البلاط الملكي ، وأنواعا مغايرة من الفلفل والزنجبيل وخشب الورد وقطن الأشجار ورياش الأرايا وغيره من الطيور ذات الريش الجميل وغير ذلك من السلع التي جلبتها، وكانت في ذلك الوقت غريبة على شعوب أوروبا .

وعلى الرغم من أن البرتغاليين حاولوا إجلاء الفرنسيين الدخلاء

فى سنة ١٥١٦ فقد استمر الفرنسيون فى نشاطهم على طول الساحل بعد أن أسس مارتى أفونسودى سوساقواعد المستعمرة فى سنة ١٥٣١ . وفى ذلك الوقت كان للفرنسيين مركز تجارى بالقرب من الموقع الحالى لمدينة رسيبي ، ثم مضت سنوات كثيرة استمروا فى أنائها يقاومون فى مارانياو التى تبعد كثيرا نحو الشمال ، وكذلك عند مصب الأمزون الذى كان لويس الرابع عشر يطمح أن يستولى على واديه لفرنسا . وفى منتصف القرن السادس عشر أسس الفرنسيون مستعمرة فى خليج ريو ظلت تقاوم هجمات البرتغاليين ، كما سلبت من الخلافات الداخلى بين البروتستانت والكاثوليك فى المستعمرة مدة اثنتى عشرة سنة . وكان الفرنسيون فى وطنهم يولون اهتماما زائدا فى إمكانات إنشاء « فرنسا القطبية الجنوبية » . وقد نجحت البرازيل بصعوبة من أن تصبح نظيراً جنوبياً لـ « فرنسا القطبية الشمالية » . ولكن العوامل الحاسمة فى تقرير مصير البرازيل كانت عدم الاكتراث الذى تعودته الحكومة الفرنسية لإزاء القرص العظيمة التى كانت تسنح لها ، ومقدرة البرتغاليين على مقابلة الأخطار فى أى وقت كانت المستعمرة فيه تهدد تهديداً خطيراً . على أن الفرنسيين فى النهاية قد تركوا آثاراً قليلة بشكل ملحوظ فى كيان وحياة البرازيل وقدر لفرصتهم العظيمة فى أمريكا اللاتينية أن تأنى فى ظل الجمهوريات ، وعند ذلك لم تأت فى شكل ميزة سياسية أو تجارية ، بل فى التأثيرات الثقافية .

### الانجليز

لم يكن بد من أن تتحدى إنجلترا التبودورية مركز إسبانيا فى الهند الغربية وفى كل الطرق البحرية التى كانت تؤدى إليها بوصف كونها قوة بحرية وتجارية لها أطماها الإمبراطورية الخاصة . وزاد اعتناق هنرى الثامن للمذهب اللوثرى الضال من المنافسة الطبيعية التى انقلبت شخصية ولا تقبل مصالحة فى حكمى إليزابيث وفيليب الثانى الطويلين . وقد عقب

رتشارد هاكليت على محاولة دريك الاستيلاء على كارتاخينا ، وهو صاحب التقارير التي لا تبلى عن قصة الرحلات الإنجليزية ، فيسمى «الإسباني ألد وأخطر أعدائنا» . وكانت المناسبة التي جعلت إسبانيا أسبق من إنجلترا إلى كشف العالم الجديد جرحا بالغا في كبرياء إنجلترا ، وأثار غضبها لإارة كبيرة سياسة إسبانيا الممانعة التي حجبت أبواب الهند الغربية عن جميع الأجانب . قال هاكليت «إن من يطلع على مادونه الكتاب البرتغاليون عن الهند الشرقية والغربية سوف يرى بصفة عامة أنهم يعدون سائر الأمم الأخرى قراصنة وجوالين ولصوص بحار . من منهم يزور أى ساحل يقطنه وثنيون يكون قد سبق لهم ذات مرة أن مروا به أو توقفوا ينظرون إليه» . وينعى لورنس كيمس الملازم المخلص لراى فى رحلته الأخيرة إلى جيانا على هنرى الثامن رفضه تقديم كولمبس «يوتوبيا جديدة» ، ويضيف قوله : «إن كفارة تلك الريبة تثقل كواهلنا حتى اليوم» . ومع ذلك فربما كان يعبر عن رأى معظم الإنجليز فى عصر إيزابيث عن الإسبانين عندما كتب يقول «ومهما يكن الأمر فقد كان العالم يعرف سبب إعجابه بثباتهم وأعمالهم العظيمة . وقد يحق لنا أن نخجل من طباعنا الخاملة اليائسة المتراخية التي يسكنها أن تجد مجالا فى أمة أخرى عقيمة جائعة لا تستطيع أن تمتلك مثل ما امتلكنه إسبانيا من العالم» ، لأن إسبانيا كما يضيف «بدون الهند الغربية ليست سوى كيس بلا نقود ، أو غمد منقوش بلا خنجر» .

وفى ثلاثة أرباع القرن السادس عشر الأخير كان نشاط الإنجليز موجهها ضد المؤسسات الإسبانية فى العالم الجديد . وفى بعض الأحيان ، خصوصا فى السنوات المبكرة ، كان نشاطهم علانية للغاية ، كتجار أو مجرد مهربين ، كما فعل جون هوكنز فى رحلاته لجلب الرقيق . وأغلب رحلاتهم كانت لمهاجمة ونهب السفن ، أو كانوا يعملون كقراصنة صرحاء ، لأن قانونية المشروعات البحرية كانت غامضة فى ذلك العصر . وحيثما كانت هناك

حالة حرب رسمية بين البلدين كان الإنجليز صرحاء لا يردعهم رادع في أعمالهم العدائية ضد الإسبانين .

وفي سنة ١٥٢٦ كان توماس تايسون ، ولا يعرف عنه ماعدا هذا إلا القليل ، يعيش في أمريكا اللاتينية كعميل لتجار إنجليز كانوا على ما يبدو مهتمين بالإمكانات التجارية للمستعمرات الإسبانية الجديدة، وكان الإنجليز أحيانا يذهبون إلى العالم الجديد على سفن فرنسية بل وسفن إسبانية، وصحب بضعة منهم سباستيان كابوت إلى نهر يلات في سنة ١٥٢٦ ، وكان مع مندوثا ثلاثة في أول تأسيس لبويس ايريس في سنة ١٥٣٥ . ونظرا إلى مهارتهم الخاصة برهنوا في وقت لاحق على أنهم نافعون جدا إذا ضموا إلى المستعمرة المسكافة في پاراجواي ، وهم : ريتشارد لنكولن من بليموث ، حداد ، وجون روت (\*) من لندن ، صانع بارود ، ونيكولاس كولمان من هامبتن .

وأول إنجليزى يقلع في سفينة إلى أمريكا الجنوبية هو وليم هوكنز ، والد سيرجون بطل الأرمادا وبطولات أخرى . وإذا اقتبسنا عبارة هاكلويت : « العجوز مستر وليم هوكنز من بليموث ، وهو رجل ، نظرا إلى حكمته وشجاعته وتجاربه ومهارته في البحر ، جعل الملك هنري الثامن يقدره حق التقدير ويحبه . ونظراً إلى كونه أحد قادة البحر العظام في أرجاء إنجلترا الغربية في زمانه ، ولم يقنع بالرحلات القصيرة التي كان يقوم بها الملاحون في سواحل أوروبا المعلومة لهم فقط ، فقد تزود بسفينة طويلة وجنبلة المنظر حولتها ٢٥٠ طنا واسمها پول أوف بليموث ، وبها قام بثلاث رحلات طويلة ومشهورة إلى ساحل البرازيل . وكان هذا عملاً نادراً جداً في تلك الأيام وخصوصاً بالنسبة إلى أمتنا ، وقام هوكنز برحلته الأولى

إلى البرازيل في سنة ١٥٣٠. وبعد حوالي عشر سنوات دخل رورت رينجر وبضعة «تجار كبار وأغنياء من سوثامبتن» مضمار التجارة «الهام والمريح». وكان بين البرتغاليين والإنجليز صداقة تقليدية، وكانت سفن ديفون وهامشير تأتي وتغزو كيف شاءت على طول السواحل البرازيلية حتى ضمت إسبانيا إليها البرتغال في سنة ١٥٨٠. وحتى في أثناء «الأسر» الإسباني استمر البرتغاليون في معاملة التجار والبحار الإنجليز معاملة طيبة كلما كانت لديهم حرية التصرف.

وتوضح تجارب وليم ويتهول في سوفيسنتي العلاقات الطيبة التي كانت سائدة بصفة عامة بين الشعبين في البرازيل خلال نصف القرن الذي بدأ بأول رحلة قام بها وليم هوكنز. وكان ويتهول، وقد تزوج من وريثة محلية، شخصا ذا أهمية في المجتمع حول سانتوس. كتب إلى صديق له في إنجلترا في سنة ١٥٧٨ يقول: «أشكر الله الحى على أن بوانى هذا الشرف ومنحنى هذه الوفرة من كل شيء». وقد أصبح برازيليا صميا. وأضاف بزهو: «وأنا الآن أجنبي حر في هذه البلاد». ونتيجة لنداء ويتهول نظمت في لندن جماعة «المغامرين إلى البرازيل» وفي سنة ١٥٨٠ أرسلت سفينة محملة بالسلع إلى سانتوس ليستبدل بها السكر وسلع أخرى تنفجها البلاد، وكتب وهو يسجل السلع التي قد يشتد عليها الطلب في البرازيل: «إن هذه الرحلة عظيمة القيمة كأية رحلة أخرى إلى بيرو». ومن بين الأصناف التي يقترحها للحمولة بضعة آلاف ياردة من القماش - أقطان مانشستر، صوف، تيل، حرير، قطيفة، أدوات صلبة - مسامير، مقصات، سكاكين، ٦٠٠٠ صنارة لصيد السمك، أقفال، أطباق من الصفيح، بلطات، بلطات قصيرة اليد، وحديد الزهر، وخليط من أدوات أخرى كان يشمل: «أوتار القيثارة»، «صابونا أبيض»، «توابل نبيذا، قصانا، صديريات، قبعات، أربعة وعشرين حزاما من الجلد،



أواني زجاجية من البندقية ، ثمان وأربعين رزمة ورق للكسابة ، وستة وثلاثين « جلبا با مجعدا » . وبعد أن حدد أن أية مراسلة تكون باسم جون ليتون ( ليتاو ) ، وهو الاسم الذي كان يعرف به محليا ، أضاف أنه يرغب في أن يحصل لنفسه على اثني عشر قميصا . وبصفة عاجلة ، « ست أو ثمان قطع من صوف لأوشحة السيدات ، وهو ألوم شيء يمكن إرساله » . وبعد الرد الذي وقعه خمسة أعضاء من الجماعة من لندن ضمن أحسن تقاليد التاريخ التجاري الإنجليزي . فقد كتبوا : « إننا نعد من جانبنا على عهدتنا وإخلاصنا ألا نركب أى اعتداء في البحر أو في البر ، وألا نسمح لشخص بخداع شخص في جماعتنا نستطيع الغلبة عليه ، ولكن يجدر بنا أن نحمل جميع التجار المسلمين مثلنا بسفهم وبضائعهم » ، ويطلبون من ويت هول أن يخبر البرتغاليين « أن السبب الحقيقي لحضورنا هو أن نتبادل السلع كتجار مسلمين لا كقراصنة يلحقون الأذى بهذا أو ذاك » . وعندما وصلت السفينة « منيون أوف لندن » بعد ثلاثة أشهر من إقلاعها من هارتس إلى نهر سانتوس ساد الإبتهاج والرضا بدرجة زائدة بين السكان المحليين ، وكانت فوقها هدية لويت هول وزوجته عبارة عن سرر جميل من خشب الجوز « بظلة ودائر وستائمه ونمواته الموشاة بالذهب » .

وهذه ملاحو سفن إدوارد فنتون غير النظاميين لفترة قصيرة ، وهي السفن التي كان قد أفرعها وأجلاها عن المياه الجنوبية الأسطول الكبير الذي كان يقوده ديبجو فلورس دي فالديث ، يافساد العمل الجليل الذي كان يقوم به ويت هول والتجار اللندنيون . وبعد ذلك في سنة ١٥٩٤ دام جيمس لانكاستر في « رحلة محكمة وموفقة » برنامجكو ( \* ) وأغار على السفن البرتغالية في الميناء ، وكل هذا بمعاونة السفن الهولندية والفرنسية التي

تصادف وجودها راسية في المرفأ . وكإهانة أخيرة من جانب لانكاستر أجبر أربعين أسيراً برتغاليا على جر العربات محملة بالغنائم إلى الميناء ، وقد أراحتنا هذه العملية كثيراً ، لأن الجو في هذه البلاد حار جداً وردى لشعبنا لكي يبذل مجهوداً شاقاً فيه . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت وقتئذ ولاية لإسبانيا ، فقد استمر البرتغاليون زمناً طويلاً يذكرون عنف إغارة لانكاستر . وبعد أن استرجعت البرتغال استقلالها في سنة ١٦٤٠ مضى بعض الوقت قبل أن يرحبوا ثانية بالتجار الانجليز . ومع ذلك فعندما رسا ولیم دامبير ، الملاح المشهور والقرصان الذي هذب سلوكه ، في بائيا (٥) في سنة ١٦٩٩ في طريقه إلى استراليا لقي معاملة طيبة من جانب البرتغاليين . كتب يقول : « لقد قوبلت باحترام زائد ، ليس فقط من قبل هذا السيد ( المشرف على الميناء ) ، ولكن من جميع أفراد تلك الأمة هنا وفي الأماكن الأخرى ، والذين كانوا على استعداد ليقدموا لنا خدمات في كل الظروف . ووجد في بائيا « شخصاً اسمه مستر كوك ، وهو تاجر إنجليزى ، وكان سيداً متمدناً وله شهرة طيبة ، وقد حصل على ترخيص ليكون قنصلنا الإنجليزى . وكان في بائيا في ذلك الوقت دانمركى واثنان من الفرنسيين . وكان التجار الإنجليز يتاجرون علانية في الموانئ البرازيلية في القرن الثامن عشر . فثلاً في خلال خمسة عشر شهراً في ١٧٩٣ — ٩٤ دخلت سبع وثلاثون سفينة معظمها بريطانية ميناء ريودى جانير و .

وبدأ بضعة تجار إنجليز في تجارة مرجوة مع أمريكا الإسبانية خصوصاً المكسيك في أواسط العقد الأول من القرن السادس عشر . وفي ذلك الوقت كان يبدو أنهم قد تعودوا أن يتاجروا بحرية كاملة مع إسبانيا . وهناك أقام بعضهم في إشبيلية وقادس . وبدأ أن اعتلاء مارى ، وهى نصف إسبانية ونصف كاثوليكية ، عرش إنجلترا في سنة ١٥٥٣ ، ثم زواجها من فيليب

الثانى فى السنة التالية ، قد يخلق جوا مناسباً للتجارة فى سلام . غير أن اعتلاء إليزابث العرش فى سنة ١٥٥٨ كان من شأنه أن يقوض هذه المزايا شيئاً فشيئاً . وفى أثناء حكمها أصبحت العلاقة بين الإسبانين والإنجليز ، فى أحسن صورة لها ، تعد علاقة سوء النية ، وفى أردأ ما وصلت إليه ، عداوة مريرة إلى أقصى حد . فمن ناحية كان هناك الشعور ضد الأجانب الذى كان يتزايد فى السياسة الإسبانية الاستعمارية ، والاضطهاد الذى كان يصيب الإنجليز من محكمة التفتيش ، ومن ناحية أخرى كان هناك تحول إنجلترا إلى البروتستانتية والاستعداد الذى كان يتزايد من الضباط البحريين لاستخدام وسائل العنف ضد الإسبانين .

وحدث فى خلال الفترة قبل أن تنقلب التوترات المتزايدة إلى عداوة صريحة أن كان الإنجليز يتاجرون مع المكسيك . ويحكى هاكليت عن تجارب أربعة من هؤلاء التجار الإنجليز . فروبرت تومسون ذهب إلى إسبانيا سنة ١٥٥٣ ، وهناك قابل مواطناً إنجليزياً اسمه جون فيلد ، عاش من قبل فى إشبيلية سنوات عدة . يقول هاكليت : « وفى بيته بقى تومسون المذكور مدة سنة كاملة ، أو نحو ذلك ، لسببين : الأول لتعلم لغة قشتالة ، والآخر ليعرف فرق البلاد وعادات الشعب » . وبعد سنتين فى إسبانيا عبر تومسون إلى المكسيك مع فيلد وأسرته الإسبانية . وتحطمت بهم السفينة تجاه الساحل المكسيكى ، فجاء أحد الإسبانين الأثرياء واهتم بهم وجهم بجهازهم من جديد فى فيراكروث . وبعد سنة من النشاط فى البلاد قبض على تومسون وقدم إلى محكمة التفتيش ، فسكث فى السجن سبعة أشهر قبل أن يعاد إلى إسبانيا للاستجواب مرة ثانية . وأخيراً أطلق سراحه وتزوج من ابنة أحد الإسبانين الأغنياء الذين كونوا لهم ثروة من قبل فى المكسيك .

أما روجر بودنهام ، فبعد أن لبث فى إشبيلية بضع سنين حيث تزوج ،

أخذ سفينته الخاصة وأقلع إلى إسبانيا الجديدة في سنة ١٥٦٤ في صحبة أسطول بدرو مينينديث دى أفيل مؤسس سانت أوجستين ، وعاد بعد سنة بحمولة مريحة لحسابه الخاص . وشاهد جون تشلتون من العالم الجديد أكثر مما شاهد أى إنجليزى آخر فى ذلك العصر . ونظراً إلى ما اكتسبه من معرفة قيمة بإقامته الطويلة فى إسبانيا ، ولأنه « راغب فى رؤية العالم ، فقد قصد المكسيك . وعندما عاد أخيراً إلى لندن فى سنة ١٥٨٦ كان قد غاب عن إنجلترا مدة خمس وعشرين سنة . وفى هذه الفترة كان قد سافر من أقصى ولاية فى شمال إسبانيا الجديدة « نحو مقاطعات كاليفورنيا » ثم إلى الجنوب مارا بكوبا وأمريكا الوسطى إلى كسكو وبوتوسى فى بيرو . وكان يتاجر فى كل مكان بلا عائق ظاهر . وعاد جون هوكس ، وهو آخر الأربعة التجار الذين كان مقروضا أن يقابلهم هاكوبت فى سنة ١٥٧٢ بعد خمس سنوات قضاهما فى المكسيك . وعلى الرغم من أنه لم يذكر شيئاً عن تجاربه الخاصة فقد كتب ليعرف معاصريه وصفاً رائعاً عن حكومة نائب الملك فى إسبانيا الجديدة .

وفى غضون تلك الأثناء تصادم هوكنز ودريك مع الإسبانين فى فيراكروث ، وانتهت الفترة القصيرة التى سادت فيها المتاجرة السلمية . ومن ذلك الوقت ، ولربح قرن ، كان التجار الإنجليز يسطون على الطرق البحرية الإسبانية ويغيرون على سواحل أمريكا الإسبانية وعلى إسبانيا نفسها . وعندما دخل جون هوكنز الميناء فى بوربوراتا فى رحلته الثانية من رحلات جلب العبيد فى سنة ١٥٦٥ بنية المتاجرة فى سلام مع الإسبانين « أجابوا بأنهم ممنوعون من قبل الملك أن يتعاملوا مع أية أمة أجنبية » . وبعد ذلك بسنتين فى أثناء مغامرة مماثلة مع فرانسيس دريك بعد أن تصادم مع الإسبانين فى ريودى لاهاشا على الساحل الفنتويلى ، التجأ إلى فيراكروث فى المكسيك حيث كان يأمل أن يعيدتموين سفنه . وبدلاً

من ذلك هاجمته سفن إسبانية في الميناء، وأيضاً حصن سان خوان دى أولوا وعمول معاملة سيئة جداً . وترك عدداً كبيراً من رجاله على الساحل في أيدي الإسبانين ثم عاد مع دريك « من رحلته المؤسفة هذه ، على ألا يعود إلى ميدان عملياته التجارية ثانية مدة ربع قرن من الزمان .

وفي سنة ١٥٧٢ قام دريك برحلة مربحة إلى البرزخ لحسابه الخاص . وبعد خمس سنوات أقبل للسياحة حول الكرة الأرضية ، وفي أثناءها كان يغير على السواحل والسفن في الساحل الغربي لأمريكا الإسبانية لإرضاء لنفسه وللمسكة . وفي سنة ١٥٨٥ أغار على مدينة سانتو دومنجو سلها ونهبها ، واستولى على كارتاخينا واحتفظ بها حتى تدفع الفدية . وبعد ذلك بعشر سنوات أعد أسطول مشترك تحت قيادة دريك وهو كنز ، وقدمات كل منهما في هذه الرحلة ، وقام بنشر عمليات السلب والنهب في جزر الهند الغربية وعلى السواحل الشمالية للقارة ، وتنفس الإسبانىون الصعداء في الأرجاء الأمريكية عند موت « الدراكى »

وفي هذه الأثناء قام كثير من ضباط البحر الأقل شهرة « بالتجوال » إلى العالم الجديد ، ومن بينهم ريتشارد ، بن جون هوكنز ، والذي وقع في قبضة الإسبانين ، وجون أوكسنهام ، وهو أول إنجليزى يبحر في المحيط الهادى . وقد أعدهم الإسبانىون في ليما ، وكريستوفر نيوبورت الذى كان يعيش على السلب والنهب والذي طاف بجزر الأنقىل يشعل النار في المدن ويسلب الإسبانين نقودهم النحاسية وأجراس الكنائس والدجاج والماعز والخنائز والسكر والطباق ، والجرىء الذى لا يرحم سير توماس كافندش ، نعمة الشواطىء الإسبانية المطلة على المحيط الهادى ، والذي كان ثالث ملاح يطوف حول الكرة الأرضية .

ومن بينهم أيضاً سير والتر الى الظريف والواسع الخيال ، والذي

كان في صميمه إيطاليا من إيطالي القرن الخامس عشر . ولكنه كان قائدا غير كفء للرجال عند القيام بمشروعات تكون فيها الجرأة والمثابرة أكثر لزوما من أية فضيلة أخرى ونظراً إلى مكانته العظيمة في إنجلترا ، فقد كان يستنكف السلب والنهب الذي يصيب الأشخاص والذي انغمس فيه زملاؤه في عصر إيزابيث بتلذذ كثير . وكتب إلى لورد هوارد وسير روبرت سيسل أنه لا يليق به « أن يسرع من رأس إلى رأس ، ومن مكان إلى مكان ، من أجل سلب غنائم عادية . » وهو يفضل بدلاً من ذلك أن يضع تحت أقدام الملكة « إمبراطورية جيانا ، تلك الإمبراطورية العظيمة الغنية الجميلة ، وتلك المدينة العظيمة والذهبية التي يسميها الإسبانيون الدورادو ، ويسميها السنج مانوا ، - إنها هند غربية أفضل لجلالتها من أية هند غربية لملك إسبانيا . » وفي ذهوله برهن على أنه أسلم نية من أكثر الإسبانين كيخوتية ، وسلم بما يفقه له الهنود والإسبانيون من خيالات كأنها حقائق ، وكان غرضهم من هذا هو التخلص منه . فلقد كان الشرير في المسرحية التي انتهت باستخدام بلطة قاطع الرؤوس في البرج إسبانياً غامضاً اسمه أنطونيو دي بريو ، وكان دائماً يبدو أنه يعرف أكثر مما كان يتفوه به . وبعد إرسال سفينة في السنة السابقة لاستطلاع الإقليم دخل رالي أولاً في وادي الأورينوكو من ترانداد في سنة ١٥٩٥ . وقابل في رحلته « ملوكا » من الهنود ، وكان يرهم صورة الملكة إيزابيث حتى وصل إلى نقطة تبعد ٤٠٠ ميل من البحر قبل أن يعود راجعاً وكان الإسبانيون يتشاءمون من الأورينوكو ، وكانوا يطلقون عليه في ذلك مثلاً يقول « إن من يذهب إلى الأورينوكو إما أن يموت وإما أن يعود مجنوناً (٥) . » ويبدل في الحقيقة أن جنونا خفياً أصاب هذا الإنجليزي ، ومهما يكن قد اعتراه من شعور عميق بزوال الأمل المكاذب

فقد استمر فى ادعاءاته المفرطة عن الأرض الأسطورية الواقعة إلى مادون الأفق الجنوبى . ولبضع سنوات بعد عودة رالى إلى إنجلترا استكمل رجال آخرون كشف سواحل وأنهار جيانا وفى هذه الأثناء زاد طالع رالى التعتيس سوءاً ، فانت الملسكة التى غمرته من قبل بصنائع المعروف . وسجنه جيمس الأول ثم أطلق سراحه شريطة أن يذهب إلى الدورادر ويرجع بمادتها الذهبية إلى إنجلترا التى أصبحت كثيرة التشكك فى ذلك الوقت . وكان قد مضى على ذهابه إلى الأورينوكو عشرون عاماً ، ومن المحتمل أن الإسبانيين وحدهم هم الذين كانوا يزكرون رحلته إلى فنشويلا . وكان السفير الإسبانى فى لندن ، جندومار ، على الأقل يذكرها . وبعد أن عاد رالى من رحلته المنكوبة ، كانت نتيجة إصرار جندومار أن أرسل آخر المغامرين العظام فى عصر إليزابيث إلى السجن .

وكثير من الإنجليز الذين كانت سفنهم تفرق على مسافة من الساحل يستطيعون السباحة فيها ، أو عادت بدونهم ، أصبحوا مقيمين فى الإمبراطورية الإسبانية . وكانت لديهم فرصة كبيرة للبقاء إذا تجنبوا الهنود المتوحشين الذين قد يقيمون بجوارهم ، ويكونون بمنأى عن طريق محكمة التفتيش ، حتى يستطيعوا أن يرتبوا أنفسهم للتحويل إلى الكاثوليكية . وكانت الجماعات الإسبانية على استعداد لقبول أى أجنبى شارد عثر به حظه شريطة أن يترك ظهرياً أية اتصالات أجنبية ويدخل قلباً وقالبا فى حياة المستعمرة ، وأحسن مثل لهذا بصفة خاصة كانت بيئة بارجواى المتساحة فى عهدا الأول . وبالإضافة إلى الشرط الأساسى ، وهو قبول المذهب الكاثولى ، كان الزواج بامرأة من البلاد - ولا يزال هذا سارياً فى أمريكا اللاتينية - هو مصداق إتمام اندماج الأجنبى فى المجتمع . فثلاً عندما تحطمت السفينة التى كان يقودها جون دريك ، ابن عم سير فرانسيس ، فى

نهر بلات في رحلة إدوارد فنتون ، استقر هو وبضعة آخرون من رجاله بين الإسبانيين . وبعد ذلك بخمس سنوات عندما ذهب كابتن وذرنيجتون وكابتن استر صاعدين في النهر سمعا أن دريك كان في توكومان وأن رتشارد فيروذو أحد رفقاءه قد تزوج في بلدة من البلاد الداخلية ، وقيل إن جون دريك كان قد انتقل إلى ليما، وإنه ، على وجه الاحتمال ، قد تزوج بامرأة منها (\*) (٦) .

ولاقى الرجال السبعة والسيعمون الذين أنزلهم جون هوكنز إلى البر عند الساحل المكسيكي لتخفيف حمولة سفنه ، وهم الذين بقوا أحياء من الهجوم الإسباني في فيراكروث ، معاملة سيئة على أيدي الموظفين المكسيكين ومحكمة التفتيش . وقصة محتتم الطويلة مدونة في صفحات هاكلويت على لسان اثنين منهم هما مايلز فيلبس وجوب هورتوب . واختفى ثلاثة وعشرون منهم في أثناء تجوالهم في أراضي البانوكو . وقبض على الباقين وسيقوا إلى مدينة المكسيك . وهناك أدخلوا المستشفى وبقوا فيه مدة ستة أشهر ، وكان أهالي المدينة يغدقون عليهم الطعام ويلونهم بالرعاية الزائدة . وفي ذلك الوقت كانت حكومة نائب الملك المعادية على علم تام بوجودهم ، وأرسلتهم إلى دار للصناعة في تشكوكو في وادي المكسيك . ولما هربوا من السجن استأجرهم الإسبان لآية خدمات يستطيعون تأديتها . وأرسل فيلبس وبضعة آخرون إلى الشمال كرؤساء عمال في مناجم الفضة حيث أصبحوا . وعند هذه المرحلة من مصائرهم قبض عليهم جميعا من قبل محكمة التفتيش المكونة خديثا واعتقلوا مدة عام ونصف عام في العاصمة يحقق معهم في معتقداتهم الدينية . وبعد استجوابهم المديد أصبحوا هدفا للإعلان المنمق الأحكام (\*\*) التي قضى عليهم بها وفق ما أعده قضاة المحكمة مناسبة لدرجة

limena (\*)

Auto — da — fé (\*\*)



كفرهم . فأعدم ثلاثة حرقاً علناً ومن بينهم شخص يدعى د كورنيليوس الايرلندي . وحكم على بضعة نفر منهم بالجلد من مائة إلى ثلاثمائة جلدة وبالعمل كعبيد سفن في إسبانيا لمدة تتراوح بين ست سنين وعشر . وسلم فيلبس إلى الرهبان الدومنيكان (\*) ليقضى بينهم خمس سنين للتكفير ، وكان يلبس جلباب المرتدين المذنبين . غير أن الرهبان كانوا يعاملونه معاملة حسنة ، وأمضى مدة عقوبته في مراقبة ما يقدمه الهنود من مساعدة في أرض الدير . وكان يقول عن الهنود : « إنهم صنف لطيف من الناس ، ودود ، وحاذق ، وعلى درجة عظيمة من الإدراك » . وعندما أطلق سراحه نهائياً وسمح له بالعمل لشخصه تعلم حرفة نسج الحرير . وتزوج ثلاثة من رفيقاته الإيجليز زنجيات ، وتزوج واحد مولدة (\*\*) وآخر أرملة من الباسك ذات يسار ، وسمح لأخر بالذهاب إلى إسبانيا ، وهناك تزوج بإسبانية . أما فيلبس فكان هو الوحيد تجنب ذوى السلطة ومحكمة التفتيش (\*\*\*) والبحث عن طريقة يهرب بها من المكسيك . وعندما نجح أخيراً ووصل إلى إنجلترا كان قد مضى عليه ست عشرة سنة بعيداً عن البلاد . ومع ذلك فعلى الرغم مما كابده فإن سحر الهند الغربية لا بد قد تملكه ، ذلك لأنه بعد خمس سنوات من هذا الوقت كتب جون سارا كل ، وهو تاجر اشترك في رحلة وذرنجتون ولستر في نهر بلات ، في مفكرته اليومية : « أخذنا في سفينتنا شخصاً اسمه مايلز فيلبس كان قد تركه هوكنز في جزر الهند الغربية » . وأما فيما يختص بجوب هورتوب ، صانع البارود من لنسكولنشير ، « وقد ناء بالبؤس والشقاء » ، فقد أمضى ما مجموعه ثلاثاً وعشرين سنة سجيناً للإسبانيين بما في ذلك خمس سنوات قضائها في جب تابع لمحاكمة التفتيش في أشبيلية ، واثنى عشرة سنة في التجديف في السفن المالكية ، وثلاث سنوات تعاقبها

Blackfriars (\*)

mestiza (\*\*) مولدة من أوروبي وهندية .

( Inquisition ) : Holy Office (\*\*\*)

ليعمل «خادما يؤدي الأعمال الشاقة» (\*) في بيت كان قد أقرضه خمسين دوكات  
ليشتري بها تخفيف العقوبة التي قضت بها محكمة التفتيش . وبعد ذلك لم يذهب  
الإنجليز إلى المكسيك .

وبعد القرن السابع عشر عصر القراصنة . وتجنب ملوك أسرة ستيوارت  
العداء السافر مع إسبانيا ، ولو أن جمهورية كرومويل التي خلا فيها كرسي  
العرش غاضت حربا بحرية حامية مع الإسبانين ( ١٦٥٥ - ٥٧ ) . ومع  
ذلك ففي خلال الفترات الطويلة التي كان يسود فيها السلام رسميا استمر  
القراصنة في حروبهم الشخصية ضد إسبانيا وجميع منشأتها . ومن المحتمل  
أن القراصنة بدأوا نشاطهم كمهربين مغامرين ، وكانت عملياتهم الممنوعة  
هذه يحبطها الإسبانئون . وفي بعض الأحيان ، حينما كان الإسبانئون  
يعرضون حرقهم المفضلة والطبيعية للخطر أكثر من اللازم كانوا ينقلبون  
سائقى قطعان وجزارين يذبحون القطعان البرية في سانتو دومينجو ، أو حتى  
مستعمرين غير متحمسين ، أو خطابين أيا كانوا . وبدأوا تجربة في التعايش  
الدولى فريدة في ذلك الوقت بتكوين جمعيات تعاونية مثل الإنجليز  
والفرنسيين والهولنديين . وكانت الرابطة بين هذه العناصر المختلطة هي  
روح المغامرة المشتركة والجشع ، وفوق كل شيء كراهيتهن لإسبانيا . وقد  
جعلوا من القرصنة مشروعا مربحا بصفة عامة ، حتى ولو أنه كان مع ذلك  
مجالا كبيرا للمضاربة . وكان ميدان نشاطهم في بادئ الأمر في البحر الكاريبي ،  
ولكنهم ، فيما بعد ، اقتحموا طريقهم إلى المحيط الهادى ، ووسعوا مجال  
عملياتهم من الساحل الغربى للمكسيك نحو الجنوب إلى تشيلي . وكان سلب  
وتدمير هنرى مورجان لمدينة بنما بدون شفقة في سنة ١٦٧١ حدا بعيدا في  
تاريخهم ، ولكن الخمسة عشرة السنة التي تلت ذلك كانت هي نهاية اعتداء

القراصنة وقوتهم خصوصا على طول السواحل والطرق البحرية التي تملكها السفن في البحار الجنوبية .

وكان القراصنة ، مع القسوة وعدم الرحمة التي كانوا يعاملون بها الإسبانيين ينزعون بعد فترة من الوقت إلى الانحدار إلى مصاف «الفتوات» ورجال العصابات . وقد أثبتت عناصر تفككهم الكامنة أنها كانت أقوى كثيرا من أن يبقى هذا التآخي من أجل السلب والنهب في عصر ساد فيه النظام عن ذي قبل . وكانت أوامر قادتهم لا يؤمن تنفيذها إلى درجة زائدة من قبل أتباعهم الأوغاد . وازداد ضيق حكومة إنجلترا والحكومات الأخرى التي كانوا ينتمون إليها ذرعا بأعوجاجهم ، وأبعدتهم وحشيتهم خارج نطاق التحمل حتى في عصر لم تبلغ فيه رقة الشعور حدا زائدا . ومع ذلك فهم مسئولون ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، عن الاستيلاء على المكاسب الاستعمارية التي أخذت من إسبانيا في منطقة الكاريبي : بليز وكوراساو وجمايكا وسانتو دومينجو .

وكان لابد من أن كلا من إنجلترا وإسبانيا تساق إلى حروب القرن الثامن عشر التي كان همها الأول الاحتفاظ بتوازن القوى في أوروبا . وكذلك كان لابد من امتداد هذه المصادمات إلى الهند الغربية الإسبانية . وفي خلال حرب الوراثة الإسبانية استولى أو دمر أمير البحر ويدجر أسطول السفن النظامي بالقرب من كارتاخينا في سنة ١٧٠٨ . وفي نفس السنة ذهب كابتن وودز روجرز في رحلة تجارية مريحة حول أمريكا الجنوبية . وصفها في وقت لاحق بترديد نفمي لجلبرت وسليفان . وعندما عقد الصلح انتزعت إنجلترا من إسبانيا احتكار (\*) جلب العبيد إلى المستعمرات الإسبانية ، بالإضافة إلى مزايا تجارية أخرى .

ونال الإنجليز مجدا ضئيلا أو ربما من الدور الذي قاموا به في حرب الوراثة النمساوية. وقد لقي أمير البحر فرنون استحسانا من الشعب الإنجليزي بعد استيلائه على الحصن الإسباني المتداعى في بورتو ريو في البرزخ سنة ١٧٣٩. غير أنه في السنة التالية فشل فشلا ذريعا في محاولاته أخذ المعقل الإسباني العظيم في كارتاخينا لا شيء إلا ليكرر التجربة في سنة ١٧٤١ أمام سانتياجو دي كوبا واستعادت البحرية البريطانية بعض شهرتها فقط بما قام به كوهودور جورج آنسن في إغاراته المشهورة في المياه الإسبانية في المحيط الهادى. وانضمت إسبانيا إلى فرنسا في وقت متأخر في حرب السنين السبع. وفي سنة ١٧٦٢ استولت قوة انجليزية على هافانا لتعيدها ثانية إلى إسبانيا بمعاودة الصلح في السنة التالية. وتفتحت شبة إنجلترا للمستعمرات بما كسبته في أمريكا الشمالية والهند في أثناء الحرب. وعندما تيقنت من ضعف وسائل الدفاع في الإمبراطورية الإسبانية وتبرم المستعمرات ضد حكم إسبانيا صممت على أن تعوض فقدانها مستعمراتها الأمريكية بفتوحات على حساب إسبانيا. وقدمت سلسلة الحروب التي خاضها نابليون لها الفرصة التي كانت تحتاج إليها. ففي سنة ١٧٩٧ استولى الإنجليز على جزيرة ترينداد القيمة قبالة ساحل فنشويلا.

وفي سنة ١٨٠٦ عبرت قوة بريطانية، كانت قد استولت على كيب تون في طرف أفريقية، المحيط الأطلنطى، واستولت على بوينس آيريس فقط لتعجز على الخضوع أمام ثورة من الأوروبيين الأرجنتينيين. وفي السنة التالية حاولت حملة أكبر كثيرا من التي سبقتها أن تستعيد بوينس آيريس بعد الاستيلاء على مونتفيديو في طريقها إلى نهر بلات، ولكنها لقيت نفس المصير على أيدي الأرجنتينيين.

## الايرلنديون

لم يتسبب الايرلنديون فى خلق مشكلة سياسية لسلطات إسبانيا لأنهم كانوا رجلا بلا وطن . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يلقون ترحيبا خاصاً فى إسبانيا والمستعمرات لأنهم كانوا كاثوليكاً تابقى الإيمان وأعداء لإنجلترا . وفى فترات من التاريخ مثل حكم إليزابث وجمهورية كروموويل ، ونقض نصوص معاهدة ليرك فى حكم وليم الثالث وآن ، ذهب كثير من الأيرلنديين إلى إسبانيا . وهناك تطوعوا للخدمة فى الجيوش الإسبانية فى الحروب الأوروبية وأصبحوا أعضاء فى الفرق الدينية العادية ، أو برزوا ، فى غير هذين المجالين ، فى حياة البلاد التى تبنتهم . وعبر البعض من أكثرهم حبا للمغامرة المحيط الأطلنطى إلى مستعمرات إسبانيا ، وهناك توجد أسماؤهم فى حرف متباينة خلال الفترة الاستعمارية ، ويتزايد تبوؤهم المراكز التى كانوا يشغلونها مسئولية فى خدمة إسبانيا الإدارية . وأكثر منهم دخلوا أمريكا الإسبانية وكونوا دفرقة ، اشتركت مع القوات الوطنية فى حرب الاستقلال . ومن أشهر هؤلاء المتطوعين كولونل أوليرى مساعد بوليفر ، وجنرال أوبراين مساعد سان مارتين ، وأمير البحر وليم براون فى البحرية الأرجنتينية الجديدة للعهد . وأكثر من هؤلاء وهؤلاء عدد الأيرلنديين الذين هاجروا إلى الجمهوريات خصوصاً إلى أرجنتين خلال المجاعة الشديدة فى عام ١٨٤٦ — ١٨٤٧ .

ووصل بعض الأيرلنديين أو الإسبانين الذين انحدروا من أصل أيرلندى إلى مراكز بارزة فى الخدمة الاستعمارية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فقد كان كارلوس مورفى أو تشارلز ميرفى ، وهو ضابط فى الجيش الإبانى ، حاكماً من قبل الملك لمقاطعة بارجواى من سنة ١٧٦٦ — سنة ١٧٧٢ . وكان جوان أودونوجو ، وهو قائد جيش سابق فى الأندلس

آخر نائب ملك لإسبانيا الجديدة . أما جنرال ليوبولد وأودونل ، دوق  
نطوان ورئيس وزراء لإسبانيا مرتين ، فقد عين حاكماً عاماً لكوبا في  
سنة ١٨٤٣ .

وأبرز الأمثلة للترقي في الخدمة الاستعمارية في الهند الغربية (\*) كانت  
خدمة أمبروزيو أو أمبروز أو هجنز . وقد ولد في ظروف غامضة في  
فالنباري في مقاطعة ميث في سنة ١٧٢٠ ، وذهب إلى إسبانيا حيث كان يقيم  
عمه ، وهو يسوعى ، في قادس ، فأخذ عمه على عاتقه تعليمه . وكان في  
برينس أيريس في سنة ١٧٥٧ ، وفي وقت لاحق اكتسب معرفة بولايين  
تشيلي وبيرو اللتين كانتا الميدان المقبل لحياته غير العادية . وعندما كان في  
لما يقال إنه كان يعول نفسه لفترة من الوقت بأن عمل بائعاً متجولاً  
أو متنبلاً . ولما عاد إلى إسبانيا أصبح مواطناً لإسبانيا . وفي سنة ١٧١٣  
يظهر ثابته في تشيلي كمساح في خدمة الملك بحمولة من البضائع لبيعها لحسابه  
الخاص . ثم التحق بالجيش وأصبح عقيداً بحلول سنة ١٧٧٢ ، واشترك في  
الحملات التي لم تنقطع ضد قبائل الأروكاريان الهندية . وبحلول سنة ١٧٨٦  
كان حاكماً ومديراً للولاية كونسبسيون ، وبعد سنتين أصبح حاكماً عاماً  
لتشيلي ورئيساً للحكمة الملكية ومديراً لسانتياجو . ورقى إلى رتبة مشير  
في الجيش الإسباني وبارون فالينباري وماركيز أوسورنو في قائمة النبلاء  
الإسبانيين ، وأخيراً رقى هذا المهاجر الإيرلندي في سنة ١٧٩٦ إلى أعلى  
مركز في خدمة إسبانيا الاستعمارية ، وهو مركز نائب الملك في بيرو . أما  
ابنه غير الشرعي ، برناردو ، وقد أهمله أبوه الذي كان يسعى وراء المجد ،  
إلا من ناحية تعليمه وإعانتته ، فقد ترقى بمواهبه الخاصة وأخلاقه حتى أصبح  
قائداً للقوات الوطنية في حرب الاستقلال وأول رئيس للجمهورية تشيلي  
الجديدة .

ومن أكثر الأيرلنديين إثارة للاهتمام ، الذين يظهرون في تاريخ أمريكا اللاتينية كان المغامر ولیم لامبورت الذى يعرفه الإسبانىون باسم جيمین دى لامبورت ، أو الاسم المنتحل جيمین لومباردو دى جوثمان . وحتى إذا استبعد المرء بعض التفاصيل الخاصة التى كتبها عن حياته وهو فى السجن ، فإن البقية المفصلة والمثبتة من قصته الخيالية تعد أسطورية فى حد ذاتها إلى درجة تكفى لىكى تضمن له مكانة خاصة فى أساطير العالم الجديد . فقد ادعى أنه ابن لفيليب الثالث من امرأة أيرلندية كانت تعيش فى إسبانيا وفر ، كما يروى هو ، من لندن تحت التهديد بالقتل من جانب شارل الأول ، فقط ليقع أسيراً فى أيدي القراصنة وهو فى طريقه إلى فرنسا . ومرت الأيام ، ووطئت قدماء أرض إسبانيا ، فقدم ماركيز مانسيرا له منحة لتلقى العلم فى غالىسيا . وبينما كان هناك رسا زملاؤه القراصنة فى ميناء قريب . وعند ذلك توجه لامبورت وبعض الرهبان الفرنسيسكان وانتقلوا إلى ظهر السفينة وحولوا معظمهم إلى العقيدة الكاثوليكية ، وساقوا أمامهم من تشبث بعناده وكفره إلى محكمة التفتيش المحلية . وسمع الملك بهذا العمل فدعاهم إلى البلاط . فقدم أولاً إلى النيبيل دوق اليفارس صاحب السطوة عن طريق الشريف دوق مدينا سيلي . ولما نال الحظوة الملكية تلقى العلم لفترة فى سلامانكا ثم أرسل إلى فلاندرز فى بعثة رسمية . وفى طريقه شمالاً فى سنة ١٦٣٤ يقال إنه وضع نموذج الخطة الحربية لموقعة نوردينجن ، وهى آخر انتصار لوحدات المشاة الإسبانية للكاردينال الأميردون فرديناند . وبعد أن اشترك فى معارك مختلفة أخرى فى البحر والبر نى إلى المكسيك لحادث مع امرأة فى البلاط . وحمل النفى معه معاشاً قدره ١٠,٠٠٠ بيسو سنوياً ، لذلك فقد استطاع أن يستمر فى أسلوب معيشته الزاهى حين كان يعمل مدرساً لللاتينية . وسرعان ما فطن إلى الضعف الذى انتاب الولاية ، فوضع خططه لتحريرها من ملك إسبانيا الذى ادعى أخوته من أبيه والذى لم يصبح حقه فى حكم الولاية شرعياً . وبمراسم ملكية زورت بمهارة

تنادى به نائب ملك عزم على طرد كونت سالفاتيرا من قصر نائب الملك، ثم ينادى بنفسه حاكما للمكسيك وهنا عند هذا الحد من مؤامراته الجريئة قبض عليه من قبل نواب محكمة التفتيش ، وقضى السنوات من ١٦٤٢ إلى ١٦٥٩ في سجن محكمة التفتيش فيما عدا فترة قصيرة فر فيها هارباً في سنة ١٦٥٠ . وعلى الرغم من أن جريمته واضحة فإن قدرأ كبيراً من الغموض يحيط بسبب سجنه مدة طويلة دون محاكمة وباللقاء الذي كان ينتاب البلاط الملكي من أجل سعادته في السجن . وأخيراً حوكم وأعلن أنه مذنب ارتكب عدداً من الجرائم ، ثم كان هدفاً ماثلاً لإعلان منمق لمحكمة التفتيش يقضى بإعدامه حرقاً . وهكذا أنهى دون جوان الهند الغربية اللامع والعالم حياته القلقة جثة متفحمة في ألاميدا المكسيك وملفاً في سجلات محكمة التفتيش .

وفي غضون القرن الماضي استمر الأيرلنديون في القيام بدور هام ، وفي بعض الأحيان تمثيل ، في حياة الجمهوريات . ففي أرجنتين أصبح بعضهم أصحاب أراضي ناجحين مثل أسرة دجان . خرج واحد منهم واسمه ادوارد كاسي في سنة ١٨٨٥ وأسس بلدة فينادو تورنو في سهول البها . فقد منح أرضاً واسعة شريطة أن يستعمرها مع زملائه من المواطنين في حدود وقت معلوم . فأحضر معه سفينتين محملتين بالمهاجرين من أيرلندا ، غير أنه عندما انتهى الأجل المضروب لاستعمار الأرض الممنوحة ، لم يكن قد وفى بجميع التزامات العقد . ولذلك فعندما جاء مفتشو الحكومة من العاصمة للتحقيق أسكرهم وصر بهم على نفس المزارع ثلاث أو أربع مرات . وفى بىرو كان هناك شخص اسمه كارلوس فيرمن فتزجيرالد ، ابن مغامر أيرلندى اسمه فتزجيرالد وامرأة بروفية ، كون لنفسه امبراطورية في بقعة اجتث منها الأشجار فى فيافى الغابة إلى الشرق من الأنديز . وبقوة شخصيته وبنيته المهيبة وذكائه العظيم أصبح القوة الحاكمة فى حوض نهر أوكايالى ،



وامتدت ملكيته من هنالك عبر الأراضى المجاورة فى البرازيل وفى وادى نهر مادرى دى ديوس عن طريق نهر مانو . وكان الوف من الهنود و قرة كبيرة من البيض وجماعو المطاط والمولدون يخضعون لمشيتته . ومنهم أيرلندى من نوع آخر هو مستر كونروى المثقف والمهذب ، الذى أنشأ حديقة نباتية شاسعة على ضفاف نهر ريماك فى ضواحي لىما ، وهى التى أصبحت مكانا محببا فى العاصمة البيروفية يجذب الناس إليه . وفى المكسيك هجر جماعة من الآي. لنديين الجيش الأمريكى فى غزوة سنة ١٨٤٨ لىكى يشنوا حربا مقدسة ضد الحزب الممارض لرجال الدين فى البلاد . وبعد ذلك بسنوات حارب أفراد من نسلهم ، وكانوا يعرفون باسم « البطارقة » بورفيريو دياث فى بلاد التهوانتلياك .

### الالمان

ذهب ألمان واحد فى جماعة بدردى فالديا الشجعان ، اسمه بارثولوميس بلومنتال . وصيغ اسمه فلورس بالإسبانية . ولم يكن بلومنتال — أو فلورس — جنديا عظيماً فحسب ، ولكنه كذلك كان بناء ماهرا ، شيد أحسن المنازل فى سانتياجو . وفى سنة ١٥٥٧ وصل ألمان آخر عرفه الإسبانيون باسم « لسبرجر » مع الحاكم جارسيا هورتاد ودى مندوتا . وبعد قرن من هذا التاريخ جاءت دونيا كاتالينا دى لوس ريوس دى لسبرجر ، وهى من نسل كلا هذين الألمانين وشهرتها السكتترا لا ، (\*) ابنة الفيرا دى تالاجاتى وبارتولومى ، زعيم من زعماء قبائل الموبوشو ، وأصبحت رمزا لأعظم الجرائم شهرة (\*\*) فى تاريخ أمريكا اللاتينية . وكانت مزارعة (\*\*\*) ثرية ، واتهمت بأنها قتلت والدها الهندى سما ، كما

(\*) الزهرة الحمراء .

crime célèbre (\*\*)

encomendera (\*\*\*)

قتلت عشيقها ، وتخلصت بطريقة ما من أكثر من اثني عشر شخصا آخرين ونظراً إلى اتصالات أسرتها القوية ، وربما نظراً إلى ظروف أخرى لاتذاع في سجلات المحكمة في ذلك الوقت ، نجت هذه المرأة المصاصة الدماء ، والتي سيطرت على وادي تشيلي ، من العقاب ، وماتت في جو من القداسة في سنة ١٦٦٥ لتدفن في كنيسة سان أوجستين في سانتياجو (٧). وعلى الرغم من أن خدمات الألمان الفنية ، كجنود مدفعية وصناع مهرة ، كانت مقبولة لدى الإسبانيين ، فإن قليلين منهم نزحوا إلى العالم الجديد كمتطوعين فرادى في جيوش الفتح . وأكثر منهم ذهبوا إلى الأقطار الأمريكية كعملاء أو موظفين للبيوت المضرفية والتجارية الكبرى التي امتاز بها القرن السادس عشر .

وأشهر تلك المشروعات كانت مؤسسات فوجر وفلمر كونها نواب مقاطعة أو جزر برج ، وانتشرت فروع هذه المنظمات العالمية القوية في غرب أوروبا . ومول رجال البنوك الألمان هؤلاء حكام القارة الذين كانوا يقاسون دائماً من الإفلاس بسبب تقصير مكتب الإيراد الداخلي في اغتصاب الأموال من رعاياهم . وبعبارة أخرى كانت تكاليف الإدارة الحكومية تفوق الطرق العتيقة في جباية الضرائب والتي كانت سائدة في العصور الوسطى . فجاء الألمان - والطيالان - وسدوا هذه الثغرة المالية . وكذلك أداروا المناجم وتاجروا في أية سلعة قد تدر عليهم أرباحاً طائلة . ومن أشهر عملاء بيت فوجر التجارى كان أفراد أسرة هابسبورج ، وكانت لهم سمعة سيئة ، إذ كانوا مغامرين ومفلسين . وكانت الروابط بينهم وبين الامبراطور ما كسمليان تسمح لهم بالتدخل في شئون إسبانيا عندما تزوج فيليب حاكم برجندي خوانا الابنة الحبيبة لفرديناند وايزابلا وأم شارل أمير جنيت ولي عهد إسبانيا . وعندما أصبح أمير هابسبورج الصغير ملكاً لإسبانيا باسم شارل الأول ، وتطلع إلى التاج الامبراطورى أقرضه إخوان فوجر

المال الذى وزعه رشوة للمنتخبين الذين جعلوه الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وما إن ثبتت أقدامهم كصيافة للإمبراطور الجديد الذى تقاسموا أرباح وخسائر حساباته مع شركة فلسر الأصغر ، حتى أصبح إخوان فوجرمهتمين بإمكانات اشتراكهم فى مشروعات إسبانيا المختلفة فيما وراء البحار .

وأقلع مع ماجلان عدد من الألمان ، من بينهم اثنان أو ثلاثة كانوا ضمن الباقين الثمانية عشر الذين عادوا على السفينة « فيكتوريا » التى كان يقودها سباستيان السكاو . وقد روى مواطنيهم الأعاجيب التى شاهدوها فى جزر الهند الشرقية . ولذلك فعندما كانت رحلتا سباستيان كابوت وفراى جارسيا خورفى دى لويسا تهجزان فى إسبانيا كشوف ماجلان فى الشرق ، وظف الصيافة قراطينهم المالية فى هذه المغامرات ، وصحب عدد من الألمان الأساطيل . وباءت الرحلتان كلتاهما بالفشل ، فرحلة لويسا انتهت بكارثة فى البحار المائجة فى الطرف الجنوبي للقارة . أما كابوت فقد سمح لنفسه أن ينحرف عن هدفه ، تغريه متابعة السراب الفضى للملك الأبيض حتى المنابع المقفلة الأنهار الأرجنتينية . وأخرج إخوان فوجرم حساباتهم الخسائر ووضعوا خططهم وانتظروا ، وقد تأمروا مع الإمبراطور وذوى النفوذ فى البلاط الإسباني . وعندما منحوا أخيراً امتيازاً لفتح وتنمية الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية من البرزخ شمالاً إلى مسافة كبيرة فى بيرو ، اعترافهم الذعر ورفضوا الامتياز لأن عوامل المصادفة كانت فوق مقدور رجال المال العقلاء والمحافظين . وبعد ذلك كانوا يرضون بجمع ريع الاستثمارات التى يعمل فيها الرجال الأشداء ، على حين كانوا يجلسون فى أمان على مكاتبهم فى أشبيلية ويزسمون علامتهم على قضبان الذهب والفضة لشحنها إلى ألمانيا وفاء لديون الإمبراطور — الملك .

ومنحت شركة فلسر ، وهى أقل قوة وأقل حرصاً من شركة فوجرم

المقتدرين ، امتيازاً لحكم وكشف فنشويلا كضمان للقراطيس المسالية التي قدموها إلى سيد ثروة الهند الغربية الذي كان يعوزه المال إلى حد زائد . وهناك يستمتع أغرب أدوار الفتح . فلفترة عشرين سنة تقريباً كان عملاء مصرف ألماني سادة الجهات الشمالية للقارة — هم السادة العظماء والحكام والفاثون (\*). وكان جنودهم إسبانيين خدموا الألمان ، لأن هذه كانت مشيئة الملك . وتوالى مجموعة من الرجال يخرج الكلام من حلقهم ، وأسماءهم صعبة النطق على قرية كورو الصغيرة ذات المساكن الموضونة والتي تقع على ساحل الكاريبي الذي تلفحه الرياح والتي كانت عاصمة لهم . ومن هنا خرج جميعهم فيما عدا هاز سايسهوفر السكتي الظريف المرح (\*\*). والقمع ، قادوا حملات في الفيا في التي لا حدود لها في الأراضي الخلفية لفنشويلا بحثاً عن الذهب . ولسنوات تجول كل منهم بلا هدف في تلك الأراضي الخلفية عبر سهول اللانوس الشاسعة التي كانت تتوالى عليها فيضانات الأنهار ، أو يسفحها الجذب ، وخلال المستنقعات والغابة المدارية المطيرة وبين الجبال الوعرة . ولم يحرزوا أية فتوحات دائمة كما فعل الإسبان ، والبلدة الوحيدة التي أسسوها — مارا كيبو — تركوها فيما بعد ، ومع تكالبهم وجدوا ذهباً قليلاً لسادتهم الجشعين في ألمانيا إذا استثنينا ما وجدوه في إقليم سانتا مارتا في كولومبيا . وإذا كانوا قساة غلاظ القلوب فقد كانت سياستهم الوحيدة تجاه الهنود سياسة استعباد أو إبادة . وحيثما مروا تركوا وراءهم الدمار وذكرى الكراهية . وفي أثناء غزواتهم المديدة في الفيا في كان لبطولة ومهارة بضعة ضباط إسبانيين ذوى خبرة مثل استبان مارتين وبيدرو دي لمبياس أن تمكنت الجماعات المغيرة أن يتحدوا ضد عداء الطبيعة والآهالي .

---

Herren Adelantados and Gobernadores and Conquistadores(\*)

Gemultich (\*\*)

ومن قادة تلك الإغارات المروعة في قفار الأرجاء الداخلية الماحلة  
لأمريكا الجنوبية مات أمبروز أهنجر بسهم هندي أصابه في حلقه . ونجا  
جورج هوهرموث من اختراقه نهر أبوري وأروكا وميتا ذات الذكريات  
المؤلمة ، وتحت السفوح الشرقية للأنديز ساءت صحته شيئاً فشيئاً حتى مات  
في سانتو دومينجو . أما فيليب فون هوتن ، وهو في صميمه (\*) « درتر »  
العصور الوسطى وأنبيل شخصية في المجموعة ، فقد عاد بعد تجوال خمس  
سنوات بحثاً عن الدورادو لي طرح رأسه على خشبة القصف تحت إرادة  
موظف إسباني خلا قلبه من الإيمان ، ومات معه بارتولوميو فلرسليل  
مغامر من أسرة رجال البنو ك .

أما نيكولاس فدرمان من أولم ، وهو شخص يتصف بالشدة وقوة  
التحمل والمسكر والعناد ، فقد توصل أخيراً إلى هدفه بعد طول بحث في  
الهضبة السكولومبية مع جماعة من النواطير يلبسون جلود الحيوانات  
ليجدوا ، وبالسخرية القدر النهائية ، الجماعة الإسبانية التي كان يقودها  
خمينيث دي كيسادا ، وكان قد استولى على ثروة الشهباشا المشتهة . ولما اعتزل  
الميدان ليواجه الحساب من قبل موظفيه في أوروبا وضع بيت فلرسليل  
الهند الغربية حداً للمغامرة المنحوسة التي قام بها الألمان في عملية الفتح .

وعندما قاد بدرودي مندوثا حملته المثيرة إلى نهر بلات في سنة ١٥٣٥  
كانت إحدى قطع أسطوله سفينة تجارية تابعة لاسباستيان نايد هارديت  
وجا كوب فلر من نورمبرج . وكان على السفينة حوالي ثمانين ألمانيا من  
الأراضي المنخفضة عاد معظمهم إلى ألمانيا بالإيراد الذي حصلوا عليه من  
تجارهم . ومن الذين بقوا ليشتروا قلباً وقالباً في فتح الإقليم ، أولرخ شميدل

---

(\*) كارل رترلم في أوائل القرن التاسع عشر كجغرافي ومؤرخ مشهور ومسيحي  
مخلص واعترف له العلماء والمفكرون بالصدارة في علم الجغرافيا .

مدفعى بافارى وفي وقت لاحق سار في النهر نحو منبعه مع بقايا القوة التي كان يقودها مندونا وأمضى ما مجموعه عشرين سنة بين مستعمرة بوينس أيريس المنكودة والمستعمرات في باراجواى . ومع أنه كان جنديا جريئا ومحبا للزراع فقد كانت لديه قدرة عظيمة على النجاة من الأخطار . فقد عاش ليعود إلى مسقط رأسه في مدينة ستراوبنجر بسرب من البيغوات ورأسه البليد مليء بالذكريات . وهناك كتب القصة العرجاء التي تحسكى عن إقامته المليئة بالمغامرة ، والبهجة في بعض الأحيان ، بين قبائل الجوارانى .

وكان هانز ستادن شابا من هسن من بلدة هومبرج التي تصنع القبعات . ودارتأى ، بمشيئة الله ، أن يرى الهند الغربية ، . وكان يختلف عن شميدل المحارب رغم أنه عمل في مدفعية البرتغاليين فترة ، ويختلف عن هذا البافارى الكاثوليكي في كونه معتنقا مذهب لوثر مما جعله محط شكوك البرتغاليين في البرازيل . وكان معه على ظهر السفينة التي حملته لأول مرة من لشبونة إلى ساوفيسنتى ألمانيان آخران هما هانز فون بروخهاوزن وهنريخ براندت من برين . وفي ساوفيسنتى لقي مواطنا آخر هو هليدورس هاسوس مدير مصنع من مصانع السكر التي يملكها جيوسب دلادوريا العجوز . وفي وقت لاحق كان على هاسوس أن يقود جماعة مختلطة من المولدين ( \* ) والهنود إلى ريو لمساعدة استاسيو دى سا في محاربة الفرنسيين . وأمضى ستادن جزءا كبيرا من زيارتين للبرازيل سيجينا بين قبائل التوينامبا حيث كانوا يسمونه لوليمة يأكلونه فيها ، ولكن الوليمة لم تتحقق ألبتة . فقد فر من معتقله في سنة ١٥٥٤ وعاد إلى ألمانيا حيث كتب كزميله شميدل كتابا مسليا للغاية عن تجاربه بين السكان الأصليين .

ومرت قرون بعد ذلك ، أى قرب نهاية العصر الاستعمارى ، حين جاء

لى العالم الجديد ألماني يفوق كثيراً كل الألمان الذين سبقوا . وكان هذا  
إلماني ألكسندر فون همبولدت ، وهو عالم طبيعي ومستكشف علمي  
وأول شخصية مفكرة في عصره ، وأول مواطن في أوروبا . ففي سنة ١٧٩٩  
زل في كوما في فنشويلا في صحبة عالم النبات الفرنسي بونبلان . وكان هذا  
التاريخ بدء رحلات ومشاهدات استغرقت خمس سنوات على وجه  
التقريب في أمريكا الإسبانية ، في خلالها زار وادي الأورينوكو وكولومبيا  
واكوادور وكوبا والمكسيك .

### الفلمنكيون والهولنديون

في أثناء حكم الإمبراطور شارل الخامس لقي الفلمنكيون السكاوليك  
الذين نشأ بينهم الإمبراطور مزايا خاصة في الهند الإسبانية . فأسس بيتر ،  
من جنّت ، وهو راهب فرانسيسكاني ، مدرسة مشهورة في مدينة المكسيك  
بعد الفتح بقليل . وفي السنوات ١٥٣٤ - ٣٧ صرح لسكثير من الفلمنكيين  
من بروكسل وأنتورب وبروج ومدن أخرى في الأراضي المنخفضة ،  
وفيهم بضعة أشخاص من ليل في فلاندرز الفرنسية ، بالذهاب إلى المستعمرات  
الإسبانية . وفي سنة ١٥٢٨ أخذ جارسيا دي إيرما ، حاكم مقاطعة سانتا  
مارتا ، ستة من الفلمنكيين في صحبته ، وخرج أيضا نحو أربعة عشر إلى  
نهر بلات في سنة ١٥٣٥ . وفي وقت لاحق عمل واحد منهم يعرف باسم  
«ليونارد الفلمنكي» ، خياطا في مستعمرة اسونثيون الإسبانية . ووجد  
هانز ستادن عميلا لتاجر من أنتورب يقيم في ساو فيسنتي في جنوب البرازيل  
في منتصف القرن نفسه ، ويبدو أن البرتغاليين ، بصفتهم عامة ، كانوا يضعون  
عراقيل قليلة في طريق التجار الفلمنكيين . غير أن المراكز الممتازة التي حصل  
عليها الفلمنكيون في المستعمرات الإسبانية كان قصير الأجل ، وبعد تنازل  
الإمبراطور عن العرش كان يسمح لقليل منهم بالدخول في أقاليم نواب  
الملك في العالم الجديد .

ومن جهة أخرى ، وجد الهولنديون من وقت مبكر جدا الأبواب موصودة أمامهم إلى ممتلكات إسبانيا فيما وراء البحار ، بوصف كونهم بروتستانت ومتمردين . وبعد أن كلل كفاحهم من أجل الاستقلال بالنجاح ، أصبحت السبع الولايات الشمالية في الأراضي المنخفضة الإسبانية أعداء ألداء للإسبانيين حيث النقوا بهم . وكعمل تجارى كانت شركة الهند الغربية الهولندية تغير على السفن الإسبانية وتقوم بهريب السلع على طول سواحل أمريكا الإسبانية تدر منه الأرباح . وفي سنة ١٦٢٨ قام أمير البحر بيت هين الذى خدم فى السفن الإسبانية مدة أربع سنوات بعملية من أكبر عمليات السحب المربحة فى تاريخ البحار عندما ساق أسطولا محملا بالسكنوز بعيدا عن ساحل كوبا الشمالى .

ولما كانت البرتغال فى هذا الوقت تحت سيادة إسبانيا ، كانت البرازيل معرضة لهجمات من جانب الهولنديين . ورسمت شركة الهند الغربية الهولندية خططاً طموحة للحصول على أرض شاسعة تثبت فيها أقدامها أبدياً . وبعد الاستيلاء على باييا فى أول الأمر فى سنة ١٦٢٤ أعيد الاستيلاء عليها مرة ثانية فى السنة التالية ، وبعد ست سنوات من هذا التاريخ أخذت أولندا وحصنها فى رسيفى ، ولم يتخذ الهولنديون خطوات جديدة لدعم مركزهم فى شمال البرازيل حتى وصول موريس ، كونت ناسو ، كحاكم فى سنة ١٦٣٦ . ووضع هذا الأمير من آل أورانج للمستعمرة الجديدة إدارة حكيمة وفعالة ، ولكن طموحه فى تأسيس دولة هولندية كبيرة فى العالم الجديد لم يلق قبولا من مديرى الشركة الذين كانت تشغل بالهم الأرباح . وشن البرازيليون بمساعدة قليلة من البرتغال حرباً مديدة وعنيدة ضد خلفائه حتى اضطر الهولنديون لمغادرة البلاد فى سنة ١٦٥٤ . وترك مشروع موريس أمير ناسو وأسالييه السياسية السلمية أثراً لا يمحي فى تاريخ شمال البرازيل . فغنيت البلاد ثقافياً بالفنانين والبنائين الذين أحضرهم من الأراضي المنخفضة ،



في حين امتزج بعض المستعمرين الهولنديين في حياة الإقليم إلى درجة أنهم بقوا ليسكونوا أسراً ، مثل أسرة فاندركلي ورولبنبرج ولنس ، والتي قدر لها أن تبرز في حياة البلاد الشمالية .

### البرتغاليون في المستعمرات الإسبانية

كان البرتغاليون عادة يعاملون الإسبانين عملاً بقوانين الحظر ضد الأجانب . كتب إسباني غير معروف له اسم من كيتو سنة ١٥٧٣ يقول : « يوجد في المدينة بعض البرتغاليين والأجانب » . وبالإضافة إلى ماجلان العظيم خدم كثيرون دون الرجوع إلى جنسيتهم في الرحلات الاستكشافية الرسمية أو في القوات الحربية التي قامت بالفتح ، كما تظهر مراراً أسماء برتغالية في جميع المستعمرات كتجار ومستعمرين وأيضاً كجنود (٨) . وتفوقت فرقة كبيرة من الفرسان البرتغاليين في حملة دي سوتو المنكودة إلى داخل قارة أمريكا الشمالية . وفي حوالى سنة ١٥٢٦ عبر اليكسو جارسيا وهو أول أوروبي يصل إلى إمبراطورية الإنكا ، أمريكا الجنوبية من الساحل البرازيلي إلى بيرو عبر طريق باراجواي حيث جمع جيشاً قوامه ألفان من محاربي الجواراني . وفي أثناء الفترة المبكرة من الاستعمار الإسباني في باراجواي يبدو أن البرتغاليين في البرازيل كانوا يروحون ويغدون بحرية بين المستعمرتين .

ولفترة طويلة بعد خط التقسيم البابوي بين منطقتي فتح إسبانيا والبرتغال ، كل فيما يخصه ، والذي عدل بمعاهدة تورديسياس ، كانت هناك فرصة ضئيلة للنزاع على الحدود بين القوتين في العالم الجديد . وإذا استثنينا الجماعات التي كانت تجوب الداخل ، مثل أولئك الذين كانوا يبحثون عن الدورادو ، فقد كان مستعمرو كلتا الأمتين يلتزمون السواحل أو المراكز السكانية الإسبانية في الاندلس . وأخيراً أقيمت مراكز تماس على الأمزون

وعلى نهر بلات حيث أقام البرتغاليون مركزاً أمامياً في كولونيا قبالة بوينس آيريس . وفي هذه الأثناء اندفع البانديراتي عبر تلال البرازيل من مرتفعات ساو باولو وميناس إلى وادي ماديرا الذي وصل إليه الإسبانيون من الغرب عن طريق سهول ال بني . وكان الجزء الأكبر من المنطقة الشاسعة الواقعة في الوسط أرضاً لا يملكها أحد (٥) ، وتركت للبشرين اليسوعيين في عزلة لهم وقلل الأسر الإسباني للبرتغال من ١٨٥٠ - ١٦٤٠ فرص الاحتكاك التي كانت موجودة على طول الحدود بإخضاعه المستعمرات البرتغالية لسلطة إسبانيا . وكانت هناك في معظم العصر الاستعماري تجارة متقطعة وسفر بالبحر بين ساحل البرازيل ونهر بلات . وبهذا كان البرتغاليون يجلبون العبيد الزوج والمواد الغذائية ، إما بغير ترخيص وإما بترخيص ، إلى الإسبانيين في بوينس آيريس ، الذين كانوا معزولين عن الاتصال المباشر بأوروبا من جراء السياسة الإسبانية غير الحكيمة ، وعن الأرجاء الداخلية لإقليم نائب الملك في بيرو بطريق برى طويل معرض للأخطار .

ومن وقت إلى آخر اقتحم أناس من جنسيات أخرى النظم الإسبانية والبرتغالية المقيدة لدخول المستعمرات كجنود أو تجار أو مستعمرين . فمن جنود الجيش الأصلي الذي كان يقوده بثارو في فتح بيرو اشترك الإغريق بدرو دي كانديا ، وانضم هذا البكريتي الكبير في وقت لاحق إلى جانب ديجو الماجرو في الحروب الأهلية وأدى خدمات نافعة كرئيس للدفعية في سبائك المدافع وصناعة البنادق . ويقال إن بضعة رجال آخرين كانوا يساعدونه في ذلك ، جاءوا من الأقطار المطلة على بحر إيجة . وعمل إغريقي آخر يعرفه الإسبانيون باسم « السيد فرانسيسكو » جراحاً في الجيوش الإسبانية في بيرو . وقد هدهد كارباخال الفظيع بالشنق بضعة مرات . وكان

هناك عامل منجم تركي يسمى اميرسيجالا ، ويعرفه الإسبان بـ «كابتن ثابانا» . وقد عاش في بلاد التعدين في الأندلس في خلال القرن التاسع عشر . وفي تاريخ مبكر يرجع إلى سنة ١٦١٠ لقي فائكيث اسبينوسا شخصا من بلاد شرق البحر المتوسط يعيش في كاستروفرينا . وفي وقت لاحق في نفس القرن كان هناك بضعة تجار سوريين يعيشون في بحيرة من العيش في ليا . وقد هددوا في وقت من الأوقات سيطرة التجار الإسبان في المدينة . وتزوج واحد منهم دونيا برنادا مورالس نيجريتي التي تبرعت لكنيسة «المعوزين» (٥) في ليا . وفي سنة ١٦٩٨ أسست مستعمرة للاسكتلنديين في برنخ دارين في اتحاد للإسبانين وبدون مساعدة من الحكومة البريطانية أو عملائها في الهند الغربية . ولم يكن من الممكن اختيار موقع أسوأ ملائمة من ذلك ، وسرعان ما صرف النظر عن المشروع الذي صممه «الساحر» ، ولیم باترسن رجل المال المشهور .

وبالقرب من انتهاء العصر الاستعماري ضعفت حدة قوانين الحظر كثيرا . وكانت السياسة الإسبانية عديمة التسامح تجاه الأجانب كما كانت دائما ، وفي مناسبات كان كبار موظفي حكومات نواب الملك يطبقون قوانين الحظر بشدتها القديمة . ومع ذلك فإن السماح للعلماء الأجانب مثل لاكوندامين في منتصف القرن ، وهبولدت وبونبلان في نهايته ، لدليل على الضعف الذي طرأ على التعصب التقليدي ضد الأجانب حتى بين الأوساط العالية في أسرة البوربون المالكة . ولأول مرة منذ عصر النهضة تعبر الآراء المشتركة الحدود الدولية وتجدر روح العصر الحديث في أوروبا طريقها إلى العالم الجديد . وجاءت في كتب الفلاسفة الفرنسيين ، وكان يتألف على قرائنها الشباب المفكرون في المستعمرات ، وفي قصص الجمهورية



لو تركت خاوية . ولقد عبر الفيلسوف السياسي ألبردى عن الدعوة الحديثة لاستخدام أناس أكثر ممن تهيئهم الزيادة الطبيعية للسكان المحليين بقوله المأثور : التعمير هو الحكم ، (\*)

وكانت النتيجة هي السياسات التي رسمتها الجهات الرسمية لاستخدام الأوروبيين . فنشطت البرامج الحكومية للاستعمار المنسق قبل منتصف القرن ، ولكن حركة الهجرة لم تصل إلى ذروتها إلا بعد سنة ١٨٩٠ . فبينما لم يحضر سوى مئات في عهود الاستعمار فقد قدر للبلايين أن يحضروا . وفي بعض الأحيان كانت المبادأة تأتي من جانب المروجين أو جمعيات الاستعمار ، وفي بعض الأحيان من أجل مصالح خاصة كزراع البن في ساو باولو .

وكانت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية مفضلة لنفس الظروف التي من أجلها نشطت حركة الشعوب الأوروبية في الهجرة إلى الولايات المتحدة في نفس الفترة : الفرص التي يتيحها العالم الجديد للمهاجرين لتحسين مصيرهم ، واستيائهم من الأحوال السياسية السائدة في أوروبا كرد الفعل الرجمي الذي تلا فشل ثورة ١٨٤٨ الألمانية وحرية ممارسة تجارب اجتماعية ودينية في بيئة جديدة ومنعزلة ، كبتلك التي أوعزت بتأسيس المستعمرة الاسترالية - الأمريكية الاشتراكية في پاراجواي ومستعمرة المنونين(\*\*) في جران شاكو في نفس البلاد ، وكذلك لمجرد حب المغامرة والتبرم بالظروف . وفشلت بعض المستعمرات أو تفككت بسبب سوء الإدارة ، أو لطبيعة المهاجرين ، أو عجزهم عن مواجهة ظروف الزيادة أو لنقص

(\*) Poblare es gobernar

(\*\*) مذهب بروتستانتى ، نسبة إلى مؤسسة منو سيمونز Menno Simons مات

سنة ١٥٥٩ .

الأموال التي تجعلهم يتغلبون على المشاق التي قد يواجهونها في أول سنة عجزاء ، أو اختيار مكان ذي موقع غير ملائم كالموقع الذي اختاره الاسكتلنديون على جزيرة شيلووي ، والجنوبيون في نهر تاجاجوس الأدنى في وادي الأمزون ، وفريق كاليفورنيا في حوض ياشيتيا في بيرو ، وفريق اوكلاهوما في وادي بلسكومياو الأعلى . ومن المرجح أن أكثر المغامرات نجاحا والتي قام بها المستعمرون على نطاق واسع كانت مغامرات الألمان في جنوب البرازيل ، والمستعمرات المختلطة في إقليم « المستعمرات » في ولاية سانتافي الغنية في أرجنتينا ، ويرجع الفضل إلى المهاجرين في فتح أرض جديدة في أرجاء كثيرة ، ومن بين هؤلاء كان الألمان في جنوب تشيلي وفي إقليم مسيونييس في أرجنتينا ، والولش (\*) في وادي شوبوت في بتاجونيا ، والاسكتلنديون والصقالية في تيرادل فويجو ، والمزارعون البولنديون في ولاية پارانا البرازيلية ، والمستعمرون ذوو الجنسيات المختلفة الذين اجتثوا الغابات من إقليم شاكو الأرجنتيني وهبأوا الرقعة لزراعة القطن . وقد كانت المهارات الخاصة التي أنصفت بها بعض الجماعات دافعا لنشأة عدة صناعات ، كما فعل القادمون من مقاطعة كورنوال في التعدين ، والغزالون من مانشستر في صناعة الأقمشة القطنية ، والإيطاليون في صناعة النبيذ في ولاية مندوئا الأرجنتينية ، والسويسريون في الألبان ، والبريطانيون في النهوض بترية الماشية ، والصينيون في منتجات الحدائق ، ولو أن الفائدة في هذه الحالة لم تكن خالصة . وقد بذل الأمريكيون جهداً كبيراً في وضع أسس صناعة التعدين في البرازيل الجمهورية ، كما أدت مجموعة المدرسين الأمريكيين الذين أحضرهم الرئيس سارمينتو إلى أرجنتينا خدمة لا تقدر للتعليم الابتدائي في تلك البلاد .

وكانت إيطاليا أكبر مورد منفرد للمهاجرين . فقد استقرت جموع

(\*) القادمون من ويلز في بريطانيا — بلاد الغال .

كثيرة من الإيطاليين ، عادة كأفراد أو وحدات أسرية ، في ولايات ساو باولو وريو جراند دى دل سول في أرجنتين وأوروغواي . وارتقى كثير منهم إلى مرا كز جلبت لهم ثراء عظيماً ونفوذاً في تلك البلاد . ومن بين رؤساء جمهوريات أمريكا الجنوبية من أصل إيطالى كارلوس باجريني في أرجنتين وأرتورو أساندرى في تشيلي . وفي بيرو يشغلون مركزاً في مجتمع رجال الأعمال يفوق كثيراً نسبتهم العددية . وهم يندمجون بسهولة في حياة الجمهوريات ، وحتى في أثناء النظام الفاشستى في إيطاليا كانوا يتسببون في مشكلات قليلة نسبياً لحكومات أمريكا اللاتينية .

وما إن تلاشت أحقاد حروب الاستقلال مع الجيل الذى خاضها وثو ثقت العلاقات السياسية مع إسبانيا حتى هاجر كثير من الإسبانيين إلى المستعمرات السابقة ، وكذلك إلى البرازيل حيث برهتوا على أنهم عنصر نافع جداً في السكان . وكان تدفق الإسبانيين إلى كوبا بعد الحرب الإسبانية الأمريكية كافياً لجعلهم عاملاً رئيسياً في تركيب سكان الجزيرة وفي حياتها الاقتصادية والاجتماعية . وكذلك فتحت البرازيل أبوابها بالترحاب للهاجرين من الدولة الأم إلى حد إعفاء البرتغاليين من مجموعة القيود التى يفرضها قانون الهجرة وأدى بهم نشاطهم وكدهم وازدهارهم إلى أن يصبحوا دافعاً مقبولاً جداً في كيان البرازيل الاجتماعى .

وإلى وقت حديث أبدت حكومات أمريكا اللاتينية اهتماماً قليلاً بدمج العناصر الأجنبية المختلفة في الإطار السياسى والاجتماعى للأمم . ونزعت الشعوب القادمة من جنوب أوروبا ، نظراً إلى قرباتهم الثقافية لشعوب أمريكا اللاتينية إلى ملاءمة أنفسهم بسهولة تامة لظروف بيئتهم الجديدة حتى ينسوا ولأهاتهم القديمة ، ولم تكن الحال هكذا مع الألمان واليابانيين . فقد تركت جماعات منعزلة من المستعمرين الذين يعملون في الزراعة يمارسونها بأساليبهم الخاصة ، كالمركر اليابانى في منطقة سكك الحديد سوروكابانا

في ولاية ساو باولو والمستعمرات الألمانية في سانتا كاتارينا وريو جراندى دوسول وفي منطقة البحيرات في تشيلي . ففي هذه الجهات أسسوا نظاما مطابقة لنظم أوطانهم ، بالكائنات والمدارس والزراعي والصحف . وبقي الجو في المدن الكبيرة مثل بلومينو في سانتا كاتارينا ألمانيا أكثر منه برازيليا . ومع ذلك فعلى الرغم من الإصرار على التمسك بالصلوات القديمة كان من الممكن للمهاجرين الألمان وخلفائهم من بعدهم أن يتلقوا حقائق القومية البرازيلية بقبول أكبر إذا لم يرتبوا أنفسهم بمنطقية زائدة لخطط الإمبراطورية والنازية فيما وراء البحار . فقد جهد عملاء حكومة برلين المتعصبون لإحياء ولاءاتهم النائمة للوطن الأصلي فقط ليشعروا في وجود انقسام نصفي في عواطف الجماعات الألمانية . وقد كان اليابانيون ، الذين جاءوا متأخرين ، أكثرهم عنادا في تعلقهم بوطنهم الأصلي (١١) . فقد كانوا عادة يعيشون في أوطان يابانية متماسكة صغيرة تسكن في كيان البرازيل الاجتماعي ، وهناك كانت الحكومة اليابانية تغرس فيهم وفق خطة مدروسة حب الوطن الأصلي . وتمشيا مع هذه السياسة شاهدنا ضباط وجنود بمجموعة من السفن الحربية اليابانية في زيارة للبرازيل تقوم بعرض مشير أمام مئات العمال اليابانيين الذين يعملون في مزرعة بن كبيرة في ولاية ساو باولو . وقد خلق توارث هذه الولاءات القديمة من جانب كل من الألمان واليابانيين مشكلات خطيرة متعلقة بالأمن للسلطات البرازيلية في أثناء الحرب العالمية الثانية واستلزمت التخلي عن سياسات الهجرة المتهاونة .

ومنذ الحرب العالمية الثانية كان هناك ميل إلى الاهتمام بالاختيار أكثر من ذي قبل في انتقاء المهاجرين المنتظرين وأهم القواعد التي ستطبق هي :  
( ١ ) الفائدة الذاتية التي تجنيها التنمية الاقتصادية للبلاد خصوصا الزراعة والصناعة ، ( ٢ ) إمكانية الاندماج بسهولة في السكان الوطنيين ،



( ٣ ) التخلي عن الانتماء إلى مذاهب سياسية أو اجتماعية لا تتمشى مع أيديولوجيات وولاءات الأمة . وأثرت الروح القومية الجديدة المتفشية في كثير من أرجاء أمريكا اللاتينية في مسلك الحكومات نحو الأجانب ، بل قد عكرت في بعض الأماكن صفو المودة التي كان يكنها الشعب نحو أولئك الأجانب الذين قد يعيشون بين ظهرانيهم ، وهذه الروح نجدها منعكسة في القوانين وفي مواد الدساتير الجديدة ، وبعضها صريح بالعداء ، وبعضها متحيز ، وكثيراً ما تكون تحت تصرف الموظفين العاميين مثل مفتشى الجمارك والهجرة ورجال البوليس الوطنى . ويثير هذا الشعور ضد الأجانب المنافسة الاقتصادية خصوصاً عندما توظف أعداد ضخمة من الأجانب في البلاد في المؤسسات الأمريكية أو الأوروبية ، ويستغل هذا الشعور زعماء العمال ومثيرو الفتن المتطرفون .

وكرهية الأجانب ، مع زعة خاصة ضد الأمريكيين عادة ، منتشرة في المكسيك ( ١٢ ) ، وأوأن ذلك بعيد عن الشمول ، لأن أهالى المكسيك بطبيعتهم شعب محبوب وودود . وهذه العاطفة هي نتيجة عدد من الظروف تشمل عدم الثقة بالولايات المتحدة ، وقد دامت قرناً من الزمان ، والتي أحيائها لسوء الحظ الاستيلاء على فيرا كروث في سنة ١٩١٤ ، والغارة العقيمة التي شنها الجنرال بير شنج إلى شواوا بعد سنتين من هذا التاريخ ، والتي لم تهدأ حدتها تماماً في وقت لاحق بانباع سياسة السكبح والاحترام الذي تظهره الولايات المتحدة في معاملاتها مع المكسيك . وتتبع أرجنتيناً تقليداً قديماً في قبول الأجانب ، ولكن استمرار نظام سياسى وطنى له صبغة عسكرية قد يؤثر في النهاية حتى على الرأى العام في العاصمة بوينس آيريس . ويذنبنا نجد أن التعصب ضد الأجانب غريب كلية على جو البرازيل المرحب ، فإن هناك دلائل على أنه في بعض الأوساط لم يعد للأجانب ذلك الترحيب الذي يناله عن جدارة كما كانت الحال من قبل .

وكان للاضطراب العميق الذى انتاب الثقة بين الدول بعضها وبعض والذى جاء على أثر انهيار نظام العالم القديم خلال الأربعين السنة الماضية الأثر فى تحويل العقيدة الشاملة التى يعتنقها سكان أمريكا اللاتينية تجاه الإنسانية إلى داخلهم أنفسهم . وبينما تحصنت ذاتياتهم القومية ، نزعوا إلى تضيق وجهة نظرهم ومشاعرهم إلى مجموعة إقليمية من العلاقات والمصالح . واتباعهم نموذج إسبانية إسبانيا فى ظل فرانكو هناك تأكيد يتزايد بين عناصر السكان الذين قويت عندهم روح القومية على الالتزامات الضيقة ، إما الإقليمية وإما القومية فى مداها ، بفكرة التشبث باللاتينية أو الأرجنتينية أو البيروفية ( \* ) . والجزء الأكبر من هذا الشعور هو غلو فى الوطنية ( \*\* ) ومبدأ انعزالي - أو قل مصورة من « التهرب » ( \*\*\* ) الدولى ، وهو مفهوم طالما كان تعبيراً عن النفور من التحول الذى طرأ على الشؤون العالمية منذ سنة ١٩١٤ . فإذا كان كذلك فهو يمثل رغبة الجماهريات لتعيش حياتها وفق نمط محلى من صنعها هى ، ولا علاقة له بتوترات العالم الخارجى . فالمفروض هو أن الأجنبى قد خدم أى غرض برر دخوله فيما مضى فى المجتمع والاقتصاد القومى . والرأى عند القوميين المتطرفين أنه الآن يجسم القوى المقلقة فى العالم ، وبانصالاته بوطنه قد يصبح تهديداً كافياً للأمن القومى والاستقلال الاقتصادى إن لم يكن لسلامة السكان الثقافى للأمة . والأجنبى فى الواقع مكلف بالوقوف موقف الدفاع وحوله نطاق من القيود . وفى هذه الظروف عليه أن يثابر على الاعتماد على صفاته كفرد ، وقبوله على هذا الأساس من جانب الأفراد الذين يكونون الأمة التى يعيش فيها . ولذلك يصبح مركزه مركزاً شخصياً وتصبح

(\*) على التوالى Hispanidad, Latinidad, Argentinidad, Peruanidad.

(\*\*) شوفينية Chauvinism نسبة إلى شوفان Chauvin من محاربى نابليون زائدى

الإخلاص .

(\*\*\*) escapism

لقرابطاته الأجنبية أثر ضئيل في نجاحه لمواصلة حياته لحياة البلاد . وقد كان هذا هو الشأن في العصور الاستعمارية ، وهو كذلك اليوم . فلا مناص من أن يتنحى عن شخصيته كأجنبي ، فإذا تجنس بجنسية البلاد يقبل أن يكون مواطناً فيها . وتيسر بعض الجمهوريات كثير أعمالية التبني خصوصاً أوروغواي وأرجنتين . فدستور أوروغواي في الواقع يجعل التجنس فعلاً خطوة آلية للأجانب ذوي المسؤولية بعد إقامة في البلاد تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات (١٣) . أما بالنسبة إلى أولئك الذين قدموا «خدمات تستحق الذكر» أو يكونون «ذوي جدارة فائقة» فقد تقصر المدة عن ذلك . وللأجانب الذين أقاموا في الجمهورية الشرقية (أوروغواي) مدة خمس عشرة سنة الحق في التصويت حتى لو رأوا الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية . وفي أرجنتين وفقاً لدستور سنة ١٩٥٠ ، للأجانب الذين أقاموا مدة سنتين في البلاد الحق في طلب المواطنة الأرجنتينية . وهم يحصلون على الجنسية الأرجنتينية آلياً بعد خمس سنوات من إقامة مستمرة ما لم يعلنوا تفضيلهم لعكس ذلك .

وقد قام الأجانب بدور أهم بكثير في حياة أمريكا اللاتينية في ظل الجمهوريات من الدور الذي قاموا به في عصر الاستعمار . وازدادوا كثيراً من ناحية الأعداد الفعلية ومن ناحية نسبتهم بين سكان الجمهوريات في وقت معاً . ولهم نفوذ عظيم بصفة خاصة في أرجنتين والبرازيل وتشيلي وباراجواي وأوروغواي . ونفوذهم أقل بكثير من ذلك في المكسيك وكولومبيا وفنزويلا . وتعد أرجنتين اليوم الحصيلة التي لم تستكمل للعناصر المختلفة التي دخلت البلاد منذ الاستقلال أكثر مما تعد وريثة لإقليم نائب الملك أيام الاستعمار . فإذا أمكن إحصاء المورثات الحيوية في مجموعة أفراد الشعب الأرجنتيني المختلط فقد نجد أن غالبيتهم من أصل أوروبي حديث أكثر من كونهم من أصل إسباني أو هندي . ولم يطل العمر بالرئيس سارمينتو الذي كان يلتقد معنفاً «بربرية» الأمة ليرى التغيرات العميقة

التي قدر لها أن تنتاب طرق شعبه بتأثير الأجنبي . ونظرة فاحصة في دليل  
 الهاتف والتليفون ، في أية مدينة كبرى مثل ساو باولو وبورتو أليجري في  
 البرازيل ، ومنتفديو في أوروغواي ، وبوينس أيريس وروساريو في  
 أرجنتيننا ، وكونسبسيون وفالديا في تشيلي ، قد تكشف لنا عن مدى  
 « تأثرها بالعنصر الأجنبي (هـ) في هذه البلاد . وينعكس أثر المهاجرين  
 ونسلهم في حضارة أمريكا اللاتينية ، أولاً وقبل كل شيء ، في حياة  
 الجمهوريات الاقتصادية ، ولكن أيضاً في العادات السياسية والاجتماعية ،  
 وفي صياغة القوانين في الجماعات المنظمة ، وفي المجالات الثقافية للتعليم  
 والصحافة وفن العمارة والموسيقى واللغة ، والطعام والشراب وقواعد  
 اللعب والرياضة . ولقد غنيت حياة أمريكا اللاتينية كثيراً مما أحضره  
 وأضافوه إلى مدخرها الأصلي من القيم والتجارب .

## هوامش الفصل السادس

(١) « تمتع الأجانب في باراجواي بالحقوق كاملة تقريبا كما تمتع الإسبانيون أنفسهم • فبمجرد أن يظفروا بدخول البلاد تصبح قوانين شبه الجزيرة التي سنت لتقييد نشاطهم مهمة • ومنذ بدء الفتح يشترك كثير من الأجانب في أحداث العصر ••• ذلك لأن الميل إلى كرم الضيافة وعدم التعصب ضد الأجانب من أهم الصفات البارزة في المجتمع الاستعماري في باراجواي » •

J. Natalicio Gonzalez, «Proceso y Formación de la Cultura Paraguaya» (Asunción, 1938), P. 233.

(٢) « ان السخاء الذي كان يعامل به الأجنبي في أمريكا البرتغالية في القرن السادس عشر واضح لنا • وهذا سخاء يرجع إلى الوراثة ، إلى جذور الأمة البرتغالية نفسها • فهو ليس مسألة فضيلة ما نزلت من السماء على البرتغاليين ، بل انه نتيجة شبه كيميائية للخلفية العالية وغير المتجانسة لهذه الأمة البحرية » •

Gilberto Freyre, «The Masters and the Slaves» (tr. from the Portuguese, New York, 1946), P. 199.

وعلق سيرجيو بواركي دي هولاندا على استعداد البرتغاليين لقبول الأجانب في البرازيل بقوله : « أتت إلى هنا أعداد جمّة من الانجليز والاييرلنديين والألمان ليفيدوا من هذا التسامح » •  
«Raízes do Brasil» (2nd ed., São Paulo, 1948), P. 153.

وكان في استطاعة التجار الأجانب أن يتاجروا على طول الساحل شريطة دفع ضريبة على بضائعهم مقدارها ١٠ في المائة ولا يتاجروا مباشرة مع الهنود •

Freyre, op. cit., P. 40.

أنظر أيضا :

(٣) « في القرنين الأولين للمستعمرة كانت سياسة الملكة الخاصة بالسماح للأجانب في البرازيل سخية جدا • وكانت القاعدة التي اتخذها البرتغاليون أساسا في اختيار المستعمرين أقرب إلى الدين شيئا ما أكثر من قربها للقومية ، أي حالة كون المستعمر مسيحيا • ومع ذلك فالكاثوليك فقط هم الذين كانوا يعدون مسيحيين » •

Caio Prado, «Formação do Brasil Contemporâneo»  
(São Paulo, 1942). P. 228.

(٤) أنظر :

Pigafetta, «Magellan's Voyage around the World» (tr. from the Italian, 2 vols., Cleveland, 1902), originally published at Venice in 1534 (or 1536), as «Il viaggio fatto dagli Spagnuoli attorno al mondo.»

Augustin Edwards, «My Native Land» (London, 1928), P. 89.

(٥) كان هناك في ذلك الوقت ثلاثة وعشرون أجنبيا غيرهم يقيمون في سانتياجو وتوزيعهم كالآتي : ثمانية فرنسيين ، وستة برتغاليين ، وخمسة أمريكيين ، ونمسوي وألماني ودانمركي وسويدي . وفي ذلك الوقت أيضا كان هناك بضعة انجليز يعيشون في فالبارايسو . ووصل دكتور جورج ادواردز مؤسس الأسرة التشيلية المشهورة من انجلترا في سنة ١٨٠٥ وبدأ ادواردز وانجليز آخرون في تنمية صناعة تعدين النحاس في شمال تشيلي . واستقر كثير من الأجانب في ليما حوالي نفس هذا الوقت خصوصا بعد سنة ١٨٠٨ ، ولم تتدخل السلطات الاسبانية في شئونهم .

«A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years, Residence in South America» (3 vols., London, 1825). I, 353

(٦) على الرغم من أن هذا كان أضمن طريقة يجب أن ينهى بها رحلاته ، طبقا لسجلات محكمة التفتيش في كارتاخينا ، ففي سنة ١٦٥٠ حذر شخص اسمه جون دريك من شروده عن طريق الأورثوذكسية الكاثوليكية المستقيم : وحدث هذا بعد ٦٨ سنة من تحطيم السفينة في نهر بلات . وعلى ذلك فلو كان هذا هو القبطان الأصلي في أسطول هنتون فلا بد أنه كان في ذلك الوقت قد تقدمت به السن كثيرا .

Zelia Nuttall, «New Light on Drake» (Habluyt Society Publications, London, 1916).

وفي سنة ١٧٣٧ كان يعيش في ليما صانع قبعات انجليزي ، وهناك كان يصنع قبعات جميلة من صوف الفيكونيا . وقضى بذلك على سوق القبعات المستوردة من أوروبا ، وعندما عاد الى انجلترا بعد خمس سنوات لقن سره الى مولد ( مستيسو ) كان يستخدمه ، واستمر المولد بممارسة صناعة القبعات في ليما .

Jorge Juan and Antonio, de Ulloa, «Noticiàs Secretas», II, 267.

(٧) أنظر :

Luis Galdames, «A History of Chile» (tr. from the Spanish, Chapel Hill, North Carolina, 1941) P. 115 ;

وأيضا :

Augustin Edwards, «My Native Land» (London, 1928) P. 62.

(٨) « صدر أمر في سنة ١٥٣٦ فحواه أن أى برتغالى متزوج تصحبه زوجته يسمح له بالذهاب في حرية الى الهند الغربية »  
Irene A. Wright, «The Early History of Cuba, 1492 — 1586» (New York, 1916), P. 194.

(٩) عن موضوع المتطوعين الأمريكان والبرتغاليين في جيوش  
وأساطيل حركات الاستقلال أنظر :

Charles Lyon Chandler, «Inter - American Acquaintances» (Sewanee, Tennessee, 1917).

وأيضا :

William H. Koebel, «British Exploits In South America» (New York, 1917).

وأيضا :

Alfred Hasbrouck, «Foreign Legionaries in the Liberation of Spanish South America» (New York, 1928).

Basil Hall, op. cit., I, 62.

وأيضا :

(١٠) « منذ ثلاثين عاما كان التشيليون يرحبون بجميع الأجانب  
بسواء فياض وبحرارة فطرية وبساطة كانت تدخل البهجة في النفوس »  
وقلما يبدو منهم مثل هذا الترحيب الآن الا في الأماكن النائية من  
البلاد »

Mrs. C. B. Merwin, «Three Years in Chile» (New York, 1863), P. 72.

اقتبست في

Tom B. Jones, «South America Rediscovered» (Minneapolis, 1949) P. 84.

وقد كان زوج مسز ميرون قنصل الولايات المتحدة في فالبارايسو  
في ١٨٥٣ .

(١١) أنظر :

João Frederico Normano, «The Japanese in South America» (New York, 1943).

(١٢) « لقد فعلت المكسيك ... كل شيء لتمدح الأجانب من أن  
يستقروا هناك . أما الذين يعيشون فعلا في المكسيك والذين انحدروا  
من أصل لا هو مكسيكي ولا هو إسباني فيبقون دائما أجانب في أعين  
المكسيكيين » .

Herbert Cerwin, «These are the Mexicans» (New York, 1947), P. 339.

(١٣) أنظر :

Russell H. Fitzgibbon, ed., «Constitutions of the Americans» (Chicago, 1948), P. 721.



## الفصل السابع الكثيصة



من المعروف في اللغة والبروتوكول الدوليين أن ملك إسبانيا كان الملك  
الأكثر كاثوليكية ، ، كما كان نظيره الفرنسي « الملك المسيحي » . وكان  
اللقب في الحقيقة هو الجزية التي تؤدى للأورثوذكسية ( \* ) الراسخة التي  
تنصف بها الأمة الإسبانية . وكانت كاثوليكية الأوطان الإسبانية عقيدة  
مبياة للقتال ، ذات صفة حربية ومتعصبة . وكانت دين الجندي ، كما أن  
الصليب الإسباني كان سيفاً مصقولاً من طليطة ، مطروقا على سندان الحرب  
الديوية ضد الكفار . وكان نظام القديس جيمس ( \*\* ) ، إله الحرب  
الإسباني ( \*\*\* ) ، التعبير الطبيعي لهذا التحمس الحربي بين الجنود . وكان

(\*) الديانة السلمية أو الصحيحة [orthos : straight, upright—doxa : opinion]

Santiaguismo (\*\*)

Spanish mars : المرغ الإسباني . (\*\*\*)

من المرتقب أن الفرق العسكرية يجب أن تفلح في مثل هذا الجو وعندما تولى فرديناند أمر الفرق الأربع : الستارا ، المانسا ، وكالاترافا . وسانتياجو ( \* ) ، تطوع بضعة آلاف فارس لتسجيل أسمائهم تحت ألويتها .

وسارت الأمور هكذا على الأقل بين الكتلة الكبيرة من الإسبانيين ، وبصفة أخص في اللحظة الدقيقة التي فيها كشف العالم الجديد . وقد كان لبعض الأمور التي استمرت تجرى من قبل في العصور الوسطى بين مسيحي ومسلم شأن آخر (١) . ولكن من المهم أنه عندما قابل كولبس الملكة قبل رحلته الأولى كان اللقاء في المعسكر المسلح عند سانتا في ، خارج غرناطة . وكانت إعادة فتح المملكة المغربية في تلك السنة قد أتمت الطور الذي اكتمل فيه التوحيد السياسي والروحي الذي كان قد بدأ منذ قرون . وكان تحمس ليزابلا هو الذي رفع إلى الذروة إثارة الروح الأوروذكسية التي لا تعرف تهادنا ، والتي أصبحت رمزاً لإسبانيا في القرن السادس عشر . وهنا في الحقيقة يوجد لب حرب صليبية كبرى ، وكان على « الإيطالي المتجول » وفي رأسه رؤيا بعيدة الآفاق ، أن يمهّد لها الطريق .

ولم يكن للكنيسة الإسبانية مثيل في أوروبا ، كما أنه ليس لها الآن مثيل . وعلى الرغم من وجود حركة علمية جديدة في إسبانيا تمثلها شخصيات لامعة مثل فرانسيسكو سواريث ولويس مولينا وفيتوريا ، فقد كان أكثر اهتمامها منصبا على السلوك الإنساني الذي كان يليق بعقيدة إسبانية أكثر من انصباها على نواحي الميتافيزيقا . لأن الإسبانيين كانوا لا ينساقون لإقليل وراء فلسفة الإلهيات ، لكونها لا صلة لها بمشكلات الناس العملية . أما الإيمان الذي يعتنقه الناس فيغذيه نوع من الحماسة الداخلية ، ولم يكن

(\*) مذاهب دينية حربية ظهرت في القرن الثاني عشر في إسبانيا .

هناك لزوم لتحصيله بأى نوع من التفكير المنطقي . فقد كان ديننا انفعاليا يدين به شعب سليم النية ، ولم يكن هناك شيء فاطر أو غير مكترث بشأنه . وقبل الإسباني العادى الترجمة الرسمية للعقيدة ولم يلق أية أسئلة حولها ، كما لم تشجع الكنيسة أى تساؤل حول الأشياء المقدسة . فإذا لم يدرك مذهب الثالث أنفض كتفيه وطواه فى مدركات عقله ضمن الأشياء الأخرى . وفوق كل شيء كان همه منصبا على خلاصه الشخصى ، لأن الدين الإسباني يتملكه مبدأ العقاب مستقبلا . ولما كانت آراء رجال الدين الإسبانين التأديبية مانعة بصفة خاصة كان هناك دافع قوى لمتناول العشاء الربانى أن يتبع الصيغة المقررة للخلاص .

وللطريق إلى الخلاص علاقة ضئيلة بمستوى الأخلاق . وإذا استثنينا عظة ومثلا لسكان ذى قدسية، وهم كثيرون فى إسبانيا، اعتمد الإسباني عادة على حاسته القوية فى معرفة الحق والباطل ، وهذه الصفة جذور عميقة فى عادات الشعب . وقد تطورت بطريقة عملية — ونفعية إلى حد ما — من التجارب الطويلة التى اكتسبوها من معيشتهم بعضهم مع بعض . وربما اشتملت على فلسفة رواقية كثيرة وحكمة شعبية مثل عبارة سانشو والأمانة هى خير سياسة ، (هـ) قدر ما اشتملت عليه المسيحية . فالأخلاق فى إسبانيا ربما انصرفت بنفس العلاقة بالدين ، كالعلاقة بالنسبة إلى القانون الرسمى . وكثيرا ما علق المراقبون الأجانب على التوكيد الطقوسى الموجود فى الدين الإسباني بأنه ترضية شكلية لإهمال الروح . فكان الاهتمام فى أثناء العبادة بمظاهر الطقوس الدينى — قصة القديس والأسرار المقدسة ، واللجوء الحسى إلى الفخفخة والمظاهرة ، وإلى الموسيقى العظيمة ، والمواكب المهيبة، وجلال الكاتيدرائيات ، مثل كاتيدرايمتى أشبيلية وطليلة اللتين تعتبران جديرتين بأن تكون كل منهما بيتا للرب .

ولاقى صلب المسيح هوى خاصاً من خيال الإسبانيين الدينى ، وحتى فى بعض الأحيان من جانب من اتصفوا بالبشاعة والتفكير السقيم . وربما كانت عبادة المسيح المتعذب فوق الصليب بالنسبة إلى الإسبانيين فى مثل تلك النشوة من الإخلاص تعذيباً روحياً للنفس . فى المظهر المتجهم من المسيحية الذى ينعكس فى لوحات ريفيرا وثورباران ، تماماً كما كانت صور المادونا التى رسمها موريو تمثل الانعكاف الشعبى المتزايد على عبادة مريم العذراء .

ويكفى هذا القدر من العقيدة الدينية التى تعتنقها الغالبية العظمى من الشعب الإسباني . وكانت الاختلافات شائعة جداً بين الطبقة الممتازة فكرياً وروحياً فى إسبانيا على نمط المذهب الدينى الذى يتقبله الناس عادة . وكان قدر المخالفة لتعاليم الدين فى الواقع كبيراً وفاق الأهمية فى تفهم للتاريخ الثقافى للأمة لدرجة أن السنيور مينينديث أى بيلايو ألف فعلاً مكتبة عن الموضوع . وربما كان من المستغرب حقاً إذا كان هناك شعب مستقل كالشعب الإسباني لم يخير فى تلقى عقيدته الدينية الشخصية وفق ما يقنعه به تفكيره وبوحى من روحه . ولقد كان هناك كثيرون من ذوى الحساسية الذين استياسوا عندما بحثوا عن النفس الغيورة التى تتصف بها العقيدة المسيحية من بين جميع آليات الكنيسة المثيرة والثقيلة — الطقوس والشعائر التى طمست الحضرة المقدسة التى يتلمسون يدها الرحيمة وهديها . وعارض كثيرون التدخل الشكلى للقساوسة فى علاقتهم بالإله . وكاسبانيين كانوا يرغبون فى أن يكون تقربهم إلى الله العظيم من شأنهم الخاص بأنفسهم .

## التصوف الاسباني

إن تفشى هذا الدافع للتعبير الشخصي وانتشار التحمس الديني هما السبب في النمو غير العادى للتصوف فى إسبانيا . ولم يقيم الصوفيون فى أى بلد أوروبى يمثل هذا الدور الهام فى حياة الأمة الدينية . ويضم عددهم أسماء لامعة مثل رامون لول المبشر السكاتالونى وفيلسوف القرن الثالث عشر ، وسانتا تيريزا دى أفيللا المؤسسة التى لم يفقر لها نشاط لأديرة كثيرة والكتابة الخصيبة للنثر المتألق وراعية إسبانيا ، وبالنأ كيد لإحدى نساها العظيمات ، وصديقتها الراهب الكرملى خوان دى لا كروث ، وهو من أرق شعراء عصره ، واجناسيودى ليولا مؤسس المذهب اليسوعى ، وفراى لويس دى ليون . ونظراً إلى عقليتهم المتحررة فقد كانوا دائماً موضع اشتباه من جانب السلطات الكنسية يضطهدون فى بعض الأحيان لأنهم ضالون مستترون ، إن لم يكونوا ضالين بالفعل . ومع ذلك فقد جاهدوا كثيراً لإحياء الدين القومى بحماستهم وآرائهم الجديدة وبأعمالهم الخيرة الكثيرة .

وغالبا ما كان المتصوفون فى سلوكهم وشخصيتهم أناسا عاديين تماما وعمليين للغاية . غير أنه على هامش عالم التصوف كانت تعيش سلاله أدنى رتبة من رجال ونساء « ملهين » . وتبع بعضهم النفس الداخلية إلى زوايا مظلمة وخطرة ، وهناك بمرور الوقت ، لفترة أسفهم وانزهاجهم ، دخلوا فى صدام مع محكمة التفتيش . وعرف بعضهم باسم « المستنيرين » (\*) أو « المتألهين » (\*\*) ١ . وإذا استثنينا الأشخاص الذين وهبوا فقط البدهة أو البصيرة بدرجة غير عادية وقرتب على ذلك انهامهم بالعرفاة أو السحر ، فقد كانت هذه الحالات الهامشية تلعب على نغمة الانحراف العقلى من النزوات العسريجة

Alumbrados (\*)

Iulmina dos (\*\*)

بواسطة تخيلات ذات درجات مختلفة، من سلامة العقل أو اللوضوح إلى المستيريا واضطراب الأعصاب ، بل إلى الهذيان الصريح والتخبط من المس . وفي هذه الروايات المريضة للنفس الإسبانية كان على محكمة للتفتيش أن تنصيد كثيرين من ضحاياها .

ومن الأشكال الأخرى المنحرفة عن العقيدة الدينية وجد مذهب أرازموس قبولاً كبيراً بصفة خاصة بين الإسبانين ذوى العقلية الفاتكة . ومن بين هؤلاء الذين كانوا يشغلون مراكز عالية وذات نفوذ ، والذين كانوا مشايخين علناً أو سرّاً لرجل الإنسانية الهولندى ، لأقل من الإمبراطور شارل نفسه، ورئيس الأساقفة كارثا رئيس وزراء المملكة . وانتقل تأثيره في العالم الجديد إلى فاسكو دى كبروجا أسقف ميثسواسان عن طريق كتابات سير توماس مور .

ولم تكن الأرازامية طريقة فلسفية أو مجموعة معينة من التعاليم ، لكنها كانت فقط تمثل الآراء المتعمدة الرفيعة التي كانت تصدر من أبرز رجل مفكر في أوروبا . فقد كان المدافع عن العقل في جو كانت الماراة فيه تتزايد من جراء الانشقاق الدينى في البلاد المسيحية الغربية . وقدمت حكمته واعتداله وإنسانيته العالية البديل الوحيد للحروب الدينية ، كما أدركت القارة مؤخراً لأسفها الذى لاحد له . وفي هذه الأثناء تمتسك شارل الخامس بطل المدنية الإغريقية — المسيحية — هو وزعماء سياسيون وأخلاقيون آخرون ، بحماسة ، برأى أرازموس كحل لمومهم العميقة . وعلى الرغم من أنه رفض بحزم أن يميل بمكاته الفكرية والمعنوية إلى جانب الثورة الدينية التي بدأها لوثر وكالفن فإنه انتقد بشجاعة مساوىء وأخطاء الكنيسة التي كان يذمها الغير في قلوبهم أيضاً ، ولكن كانت تنقصهم الشجاعة للتشهير بها . وبعبارة أخرى فقد قام هو نيابة عنهم باستهجان كثير من العادات الدينية والأحوال السائدة في ذلك العصر . ولربما كان يمثل حنين

الطبقة الراقية في كل مكان إلى العصر الذهبي الذي بدت النهضة تعد به بإحيائها العلوم الكلاسيكية والرجوع إلى مسيحية بابوات الكنيسة النقية وكانت آراؤه بالنسبة إلى الإسبانيين بصفة خاصة تفريحا إلى حد ما من وقر مبادئ العصور الوسطى التي قد تعرضها الكنيسة ضمناً أكثر لسلامتها ، ولحمة من لمحات النهضة التي كانت الكنيسة تخشى تحريرها للفكر . وكان الناس في خشيتهم أن يتحدثوا عن رؤاهم في دنيا كانت الأحلام تعد فيها لعنة ، يرغبون مع ذلك أن تنضم إلى جماعته الروحية المختارة كتوكيد صامت ومجد لملهم الخاصة التي يعلنون عنها . وفي إسبانيا كان مجرد إدراك الناس لوجوده في أوروبا وإدراكهم لقوته المعنوية أثر لا بد أن يكون قد لطف من حدة التعصب الذي كان يتزايد ضد الحركة المضادة للإصلاح الديني .

#### الدولة والكنيسة في إسبانيا

لا يعد أي تفهم للكنيسة الإسبانية كاملاً دون تسليم بمركزها الفريد كملحق للدولة . وعندما عكف فرديناند وإيزابلا على تأسيس ملكية مركزية قوية ، كانت إحدى العقبات السكّاء التي وقفت في سبيل تحقيق عرضهما هي الاستقلال والسلطة اللذين كانا في أيدي كبار رجال الدين . وغالبا كان الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون في الأمور الدينية سلوك سادة الأراضي حتى في قيادة أتباعهم إلى الحرب . وعندما تضاعف نفوذهم نهائيا هم وطبقة الأشراف(\*) ، وقدموا فروض الطاعة للتاج ، أدخلت السلطة المركزية للربان ، بطريقة مرتبة ، التنظيم الكنسي ضمن جهاز الدولة . وامتد الدور الذي بدأه الملوك الكاثوليك إلى حكم شارل الخامس ، ثم بلغ اكتماله في حكم فيليب الثاني . وبينما يعد فيليب شخصيا من أكثر الملوك

الإسبانيين صلاحاً لم تجرؤ الكنيسة أن تأخذ في يدها أية حريات مع الحق الملكي في القدرة على كل شيء خلال حكمه الطويل . وعند ذلك الوقت كانت ممارسة هذه « الرعاية الملكية » ( \* ) قد أعطت الملك قوة كبيرة في السيطرة على الكنيسة . وكانت هذه ميزة « الرعاية » التي منحها البابا مغلولاً للملك إسبانيا في سنة ١٢٨٤ والتي بها تقرر وجوب تصديق ملك إسبانيا على جميع تعيينات الكهنوتية في الكنيسة الإسبانية . وامتدت السلطة أيضاً إلى اختيار كبار رجال الدين لمناصبهم في المستعمرات . وهناك ورث هذا الإجراء للحكومات في عهد الجمهوريات مما سبب في وقت لاحق عنتاً في العلاقات بين الكنيسة والدولة .

ولم يهتم الملوك بمسائل العقيدة اللاهوتية كعقيدة لاهوتية — فهذه مهمة الأساقفة وقضاة محكمة التفتيش — ولكنهم اهتموا بوحدة الأمة الداخلية . وكان يرجى من الكنيسة أن تتخلى عن معارضة إرادة أو مصالح الملك ، كما فعلت ذات مرة برفق زائد الحد . ليس هذا فقط ، ولكن أيضاً لتدرك أن للإسبانيين جميعاً ، رأياً واحداً في الأمور الدينية . وكما حدث ، فقد كانت هناك مصادر كافية للاحتكاك وخلاف بين الشعوب الإسبانية لإزعاج السلطة المركزية لإزعاجاً لا ينتهي . ولكنها في معظم الأحيان كانت عبارة عن المظالم القديمة المألوفة التي كانت تعالجها الحكومة الجديدة في وقتها المناسب وبطريقتها الخاصة .

### السفر ومحكمة التفتيش

كان انتشار الضلال الديني في المملكة هو الذي يخشاه حكام إسبانيا فوق كل شيء آخر . ولما لم تزل العقيدة محتفظة بحماسها من العصور الوسطى ، شغل الدين أذهان الناس أكثر مما يشغلها في هذه الأيام ، حيث توجد الآن



أشياء كثيرة يختلفون عليها ، فكان أى زيف جماعى عن الأورثوذوكسية  
يؤدى إلى إمكان تفجير فى المجتمع والدولة . فكانت أية انحرافات عن  
المعتقد التقليدى خطيرة كذلك ، خصوصا إذا اعتنقها عدد كبير من المنشقين .  
ولم يحدث فى وقت ما أن وجد فى إسبانيا عدد كبير من الخوارج على إدارة  
واحدة مثل أتباع كالفن ، مثلين فى فرنسا . فإذا كانت هناك ضلالة أو مخالفة  
للدين أيا كانت ، فهى لم تسبب أية جبهة معادية للحكومة ، ولكنها تبعثرت  
بين مذاهب كثيرة أو عقائد أو ظلال من الفكر ، لدرجة أنه كان من  
الأسر علاجها فرادى حسب خطورتها النسبية أو وجوب الإسراع بعلاجها ،  
وإذا استثنينا بعض البروتستانت الصرحاء ، وقد ضم هؤلاء كبير مفكرى  
تلميذ الألقانيم ، والكافر مرتين ، وشهيد مذهب كالفن ، ميجل سيرفيتو ،  
فإن المشكلة الأساسية هى التى كان يمثلها أولئك الذين تحولوا عن دينهم  
فى وقت لاحق . وأطلق على هؤلاء اسم « المسيحيين الجدد » .  
وكان هناك اشتباه ذائع ، وربما بنى على أساس ، فى أن عددا كبيرا من  
هذه الطوائف التى تمت فى الساعة الحادية عشرة لم تكن حقيقية ، لأن  
البديل كان هو الطرد من البلاد . وكان الدخول فى الدين أفواجا من هذه  
العناصر المشتبه فيهم ، والذى بدأ فى سنة ١٤٩٢ ، واستمر عدة سنوات ،  
هو العمل الأساسى لمحكمة التفتيش . وبدون هذا التحدى من جانب هذه  
الجماعات المتباينة المخالفة لتعاليم الدين أو الجماعات الحرة التفكير فإن طبيعة  
المزاج الإسباني المتقلب والذى لا يمكن التسكّن به قد تبدو أنها تخلق مبررا  
لتكوين جهاز مهمته عدم تشجيع التفكير المستقل وضبطه . ذلك لأن  
فى إسبانيا الامتثال لأى شيء لا يؤخذ قضية مسلمة ، وهذا ما كان يدركه  
ملوكها ، سواء أكانوا علمانيين أم من رجال الدين .

وكانت محكمة التفتيش هى ذلك الجهاز . واختلفت محكمة التفتيش  
الإسبانية كثيرا عن محكمة التفتيش البابوية فى العصور الوسطى التى أخذت

حركة الضلال الألبيجية (\*) في جنوب فرنسا وانحرافات أخرى عن العقيدة المقررة (٢) . فقد كانت أكثر خاتصاصا في قاعليتها . وفي أوجها كانت أكفأ تنظيم في إسبانيا وأكثر التنظيمات أثرا في أوروبا في تنفيذ أغراضها . وكانت من صنع توماس توركيادا ، راهب دومينيكي ، استغل مركزه ككاتب اعتراف لفرديناند وايزابلا لتعصيد خطته العظيمة والمروعة . وعندما تأسست في سنة ١٤٨٠ كانت هي ما أراده توركيادا .

وبدأت محكمة التفتيش حياتها بميزة ضخمة هي تعصيد التاج . وكانت في الحقيقة أداة للسلطة الملكية في الأساس ، وليست للبابوية . وكثيراً ما كانت على طرفي نقيض مع البابوات ، وكانت تتجاهل الاحتجاجات والحجج التي تقدمها روما كما لو كانت تخدم عقائد مخالفة تماماً . ولم تكن هناك أية سلطة عليا يلجأ إليها الضحايا للتخفيف من سلطتها غير المستثناة والتي لا ترحم . وكسكير للقضاة أدار الراهب الحقود محكمة التفتيش بالنار والعصب في سنوات نشأتها ، واستمر خلفاؤه من بعده في سياساته وأساليبه حتى عم الضلال الديني إسبانيا . وعمرت محكمة التفتيش طويلاً بعد الدور الذي أدت فيه خدماتها . وأخيراً ، قضى عليها نابليون بعد أكثر من ثلاثة قرون من إنشائها (٣) وأخلاها من كل الأغراض العملية .

وخدمت المحكمة في بادئ الأمر أغراض الدولة بإخمادها حركة الارتداد التي كانت تهديداً للسلامة القومية ، وأكدت للكنيسة الرسمية احتكاراً واقعياً في ميدان الدين . وكانت احتفالاتها تقدم للرعاع ترحيباً وطعاماً لأهوائهم وحبهم للشذوذ . وكانت مهامها ، إذا أردنا أن نعبر عنها بالنظم الأمريكية في هذه الأيام ، هي الجمع بين مهام مكتب المباحث الفيدرالي

(\*) في القرن الثالث عشر ... نسبة إلى إقليم Albigeois أو مدينة Albi في جنوب

فرنسا .

من الشواذ ومحتلى العقل كان طعامها المفضل يشمل اليهود والبرتغاليين و المسيحيين الجدد ، كأسرة كارفاخال المشهورة في المكسيك ، والقسيسين الذين كانوا يستقصون الأمور أو يذتمكون قدسية الاعتراف ، والمزوجين بائنتين ، والملاحين الانجليز أو الهولنديين الذين يحدث أحيانا أن يبطئوا أكثر من اللازم في العودة إلى سفنهم .

وفي سنة ١٥٤٨ ، قبل إنشاء محكمة التفتيش الملكية ، حكم بيرونيمو دى لوانا ، أسقف ليا على مواطن فلينكي بالإعدام حرقا بوصفه كافرا . وفي سنة ١٦٢١ ، بإعلان عام (\*) مثل في ليا ، جلس رواقى إنجليزى حكم عليه بالموت في تاريخ سابق لاعتناقه اللوثرية على كومة من الحطب ، وبقي ثابتا لا يتحرك ولا يتفوه ، بينما اشتعلت السكومة وحق به اللهب من كل جانب . وفي بعض الأحيان كان الأجانب المخالفون لتعاليم الدين ينجون من مخالب محكمة التفتيش باعتناق الكاثوليكية كبديل للإعدام حرقا أو السجن المديد ، وجميع صنوف العقاب هذه أوضحتها المصائر المتباينة التي أصابت البحارة الإنجليز الذين تركهم جون هوكنز عند فيرا كروث في سنة ١٥٦٧ .

وكانت محكمة التفتيش أكثر رافة في العالم الجديد منها في الوطن الأصلي . فقد كان هناك نشاط فكري أقل كثيرا ، وما وجد منه كان ينزع إلى الأوروذكسية . وكما قال فريزييه الفرنسي عن فرع محكمة التفتيش في بيرو : « أما بالنسبة إلى الكفار فأنا واثق أن أحدا منهم لا يقع في أيديهم ، لأنهم هناك يدرسون قليلا جدا لدرجة أنهم لا يعرضون أنفسهم إلى السير في طريق الضلالة بسبب فضولهم . » . ففي القرون الثلاثة التي قضاهما الحكم الإسباني في المكسيك حكمت محكمة التفتيش على ثلاثة وأربعين شخصا فقط بالإعدام . وفي نفس هذه الفترة في بيرو مثل أمام المحكمة حوالي ٣٠٠٠

ولجان الكونجرس للتحقيق في جرائم التخريب التي تقوم بها الجمعيات والمراقبة، والإصلاحات الاتحادية وكانت أساليبها في الإجراء تتضمن انتهاك وتخويف الشهود، والشهير بالآخلاق بطريقة منظمة، واستخدام عامل الاستفزاز لإدانة المشتبه فيهم، واللجوء إلى التعذيب البدني لاستنطاقهم الاعتراف أو الإفاضة، وإذلال المشكوك في أمرهم أو المجرمين علانية، ومصادرة أموال الخارجين عن الدين — وهذه الأموال في حد ذاتها دوافع لكشف الجريمة، وحجز وتدمير الكتب السكرية، وإعدام الخارجين العاصين حرقاً.

وبمرور الوقت أخذ الإسبانون معهم محكمة التفتيش إلى العالم الجديد، كما أخذوا جميع أمتعة الحياة الإسبانية الأخرى وأقاموها في كارتاخينا وليما ومدينة المكسيك (٤). وكان هذا حوالي سنة ١٥٧٠، ومن قبل هذا كانت أمور مخالفة للتعاليم الدينية تعالج بين أيدي الأساقفة. وصحبت تأسيسها البركة الملكية والنفخ في الأبواق، وأمر المستعمرون أن يحبوا القضاة بإطلاق المدافع دفعة واحدة وغير ذلك من «التظاهرات غير العادية».

وفي بادئ الأمر كان هناك شيء من الاهتمام خاص بإنقاذ الهنود من خطأ طرقهم في التعرف على الله، ولكن، بريغة من الزيغات السكيخوتية الخاصة بالعقلية الإسبانية أعفى الأهالي في وقت مبكر، وبرحمة، من السلطة القضائية التي كانت تمارسها محكمة التفتيش. إذ لما كان الهنود أناساً غير «منطقيين» (\*) فقد كانوا لا يستطيعون إدراك العمليات العقلية التي تستوجبها محاكمة مخالفين تعاليم الدين. وإذا لم يكن من الهنود ضحايا تقدم للإله مولوك (\*\*) الإسباني فقد أشبع نهمه بقوت آخر. فبجانب الحصيد العادي

(\*) gente de razon

(\*\*) Moloch ; Molech إله تقدم له الأطفال قربانا عند الساميين.

شخص ، منهم ثلاثون فقط أعدموا . ومن هؤلاء الكفار العنيدون أحرق نصفهم أحياء . وأطلق سراح كثير من الباقين ، وربما احتجز المشتبه فيهم شهوراً في انتظار المحاكمة ثم لا يحدث إلا أن يطلق سراحهم بتوبيخ وتحذير من المحكمة العليا المحلية . وحتى إذا برئوا من التهم الموجهة ضدهم فإن المحنة السيكلوجية التي تلازم الوقوف أمام المحكمة المشنومة كانت عادة كافية لمنع المتحررين من التقاليد والضالين من الارتداد . وآخرون كانت تفرض عليهم الغرامات ، أو تفرض عليهم عقوبات مختلفة تتراوح بين الإذلال العلني بأن يلبسوا جلباب الاتهام عند إعلانه عياناً ، إلى عقوبة السجن مدى الحياة في غياب محكمة التفتيش ، وكان هذا نادراً . ويقارن هذا السجل مقارنة مفضلة جداً بالمجازر التي حدثت في إسبانيا حيث يقال إن أكثر من ألفي شخص لاقوا حتفهم حرقاً في زمن توريكيهادا وحده .

وتغيرت وجهة نظر السكان تجاه محكمة التفتيش كثيراً بمرور الوقت . ويقول الأب فاسكيث دى إسبينوسا ، الذي كان في بيرو في أوائل القرن السابع عشر ، إن الناس في ذلك الوقت « كانوا يقدرونها ويوقرونها » في تلك البلاد . ولما كانت في مأمن بسبب مساندة التاج فقد عملت محكمة التفتيش لفترة طويلة كجهاز مستقل — وفي غالب الأحيان كجهاز أرفع منزلة — من جميع أجهزة الحكومة في العالم الجديد . وأمر كل فرد في ليما ، بما فيهم نائب الملك وزوجته ، وجميع الموظفين المملكيين ، والمسؤولون في الجامعة ، بالتوجه للحضور في حفل إعلان علني بدرجة خاصة في ليما سنة ١٥٩٢ يمثل فيه أربعة قرصنة إنجليز وحوالي أربعين ممثلاً مختلفين يمثلون أدواراً أدنى كوسائل تشويق وإن كانت منفردة فهي أقل من الأخرى . وكانت محكمة التفتيش في أثناء هذه المرحلة من تاريخها في المستعمرات قد وصلت إلى ذروة شهرتها . وكان الإعلان العلني يجذب الناس بشدة إلى تنوع من إظهار الغرائز الشائعة . فقد قويت الحماسة الدينية أو تعصب العامة ،

وأبطل أى إغراء للاندفاع فى التأمل العقائدى الذى قد يكون كامناً فى تفكيرهم وقدم تعويضاً عن التلذذ بالقسوة السامنة الذى يجد متنفساً فى عصور التاريخ فى التأمل فى قتال المصارعين ، وحفلات الاضطهاد الجماعى أو المنظر السقيم للمعلقين فى حبال المشانق علانية . وكمظهر للترحيب بالمتفرجين قدم العرض كذلك كل تشويق مظهرى ليوم من أيام «السيرك» فضلاً عن اجتماع عتيق «دبت فيه الروح من جديد» . فإذا كان هناك أجانف بين الضحايا فقد هيا ذلك فرصة للعكوف على كراهيتهم التى كانت عامة بصفة خاصة بين الإسبانين فى تلك الفترة .

وكان التلصص والتحرش والتجسس الدائم فى حياة الناس الخاصة ، واضطهاد الأشخاص ذوى السمعة الطيبة فى المجتمع ، وسلوك القضاة المشرب بالوشاية والذين انسقوا وراء المغريات وحصانة سلطتهم ، والجو السريه النحس الذى كانت تعمل فيه محكمة التفتيش — كل ذلك كان سبباً فى تحول سلام العامة نهائياً إلى ازدياد عميق وفقر . ولما كانت المحكمة رقيباً عاماً وجهازاً دأب العمل ، فقد تعمقت فى تدخلها فى كثير من الكتب والخزائن . وأصبحت فى القرن الثامن عشر «المستنير» والمتشكك ، فى غير مكانها التاريخى . وقد عاشت مدة أطول مما قد أدت من نفع وأصبحت فى ذلك الوقت ذات قيمة مقلقة ليس إلا ، بل أصبحت شيئاً خيفاً بلا جوهر وهدفاً للسخريات الوقحة . وعندما أزيلت السلطة الملكية التى كانت تستند إليها نهائياً فى أثناء حروب الاستقلال انقلب عليها الناس يصبون جام غضبهم كما فعلوا فى ليا . وبصف ولیم ستيفنسن الذى شاهد المنظر فرحة سكان ليا وهم ينهبون مراكز محكمة التفتيش ويدمرون أدوات التعذيب التى كانت تستعملها . وكتب كابتن بازل الذى كان فى يرو فى هذه الفترة يقول : «كان ينظر إلى كل شيء يتصل بمحكمة التفتيش التى ألغيت حديثاً بدرجة من الاحتقار والكرهية تسترعى الاهتمام فى مدينة مزدحمة بالمؤسسات

الاكليركية ، وحيث تحتل رعاية الكنائس مكانة عالية فى اهتمام الناس .  
ولكن مهما يكن سبب هذا المصير الغامض فلم يكن هناك شىء قد عقد الناس  
العزم عليه أكثر منه .

### الكنيسة فى العالم الجديد

كان الفتح الدينى للعالم الجديد مسيرا فى توقيته للفتح الحربى ، وكان  
من جميع الأغراض العملية على نفس درجة الإتقان . ولم تكن هناك  
مغامرة تبشيرية على نطاق شاسع ، على الأقل من حيث نتائجها العددية ،  
أكثر نجاحا منذ أدخلت الشعوب الوثنية فى شمال أوروبا فى الديانة  
المسيحية فى أوائل العصور الوسطى . ومهما تكن نقط الضعف ، فهى  
حرب صليبية حقيقية شنت بحمية وإخلاص وشجاعة وتضحية شخصية .  
وإذا كان ذوو النفوذ فيها لم يعرفوا التسامح بالنسبة إلى الديانات التى عزموا  
على إقتلاعها ، فإن القرن السادس عشر لم يكن فى أى مكان عصر تسامح ،  
وفوق كل شىء فإن عدم التسامح كان هو جوهر أية حرب صليبية .  
وتفاوتت العقائد التى تهاوت أمام هجوم الصليب ، من أكثر عبادة للأوثان  
فطرة إلى نظم منمقة من الديانة ، بل إلى ديانة التوحيد التى اعتنقها  
الإنكا ( ه ) ، وفى موجة من تحطيم الصور والتماثيل دمرت الموارد  
المقدسة على جوانب الطرق ، وسويت بالأرض معابد كانت لها قدسية  
سانت صوفيا والسكبة مثل معبد باشا كاماك على ساحل بيرو أو معبد  
تيوكاى فى بلاد الأزاقة حتى لا تبقى آثار تذكرهم بالأديان القديمة . أما فى  
الجهات التى كانت فيها طبقة ذات نفوذ من القساوسة كما فى أرجاء المكسيك  
التي كانت تشغلها قبائل الناهواتل فقد صفت . وهكذا وجد فراغ روحى  
وعاطفى كان على الكنيسة أن تملأه بتمثيلية ولون مظهرتها الطقوسية ،  
وسحر علومها الإنجيلية ، وجلال الأماكن التى تقام فيها العبادة والفروض  
والتعازى المعنوية التى تصاحب العقيدة .

اما بالنسبة إلى الهنود فقد بدا كما لو أن آلهتهم الخاصة بهم خيبت آمالهم في الأزيمة الكبرى التي انتابت شعبهم ، ولذلك ففي حالة الاستسلام المشوب بالانتهازية كانوا أكثر قابلية لتلبية نداء المبشرين . وسرعان ما تمت عملية التحول الديني فعلا ، فيما عدا الأرجاء التي تحف بالأراضي التي استولى عليها الفاتحون ، وهناك استمرت عدة قرون . وغالبا ما كانت الأفواج تدخل في الدين جماعات ، تصدر لهم الأوامر من رؤسائهم حينما كان يمكن للآلاف أن يعمدوا في حفل واحد . وطبيعى في هذه الظروف ألا يوجد وقت للتفقه الكامل في أمور العقيدة المسيحية . وقد أصاب المبشرون الإسبانيون ، إذ أدركوا الحدود الفكرية لدى الداخلين في الدين ونبتوا من وقت مبكر أية مناقشة في مبدأ فلسفة الإلهيات بوصفها دون مقدرة أتباعهم على التفكير فيها . وقد كان الدين الذي قدم للهنود بصفة عامة بسيطا وغير معقد ومقبولا (٦) ، وكان القساوسة في بعض الأحيان يتغاضون عن الآثار الباقية من عقيدتهم الأصلية التي ألح الهنود أن يضمونها في العبادة المسيحية ، خصوصا إذا أمكن شرحها بنظائرها الإنجيلية (٧) . فإذا لم يكن الشيء الذي قدمته المسيحية لشعوب العالم الجديد مقنعا وأساسيا فلربما لم تثار هذه الشعوب في ولائها حتى يومنا هذا .

ولكى تؤدي الكنيسة أغراضها المتعددة — الخدمة الدينية ، التعليم ، الصدقات ، رعاية المرضى — أنشأت جهازاً تنظيميا ضخما في العالم الجديد فضاعت التنظيم المطراني للعاصمة ، وأضافت إلى ذلك النمط الأساسي نظاما تبشيريا شاملا وشاسعا تحت إدارة الفرق الرسمية . وكان التنظيم الكنسي أدق من تنظيم الحكومة المدنية ، وربما كان موظفوه وقساوسته أكثر عدداً . وكان من بين رؤساء أسقفية المستعمرات كثير من المطارنة المشهورين ، وكانوا رجالا ذوي شخصيات قوية وجبارة ، شنوا معارك حامية ضد نواب الملك وقادة الجيش حول قضايا الأولوية والرأى ،



وكانت المنافسة الأبدية بين الكنيسة والدولة معقدة من جراء عادة السماح للأساقفة بأن يقوموا أحيانا بعمل نواب ملك مؤقتين ، وبذلك أعطوا مركزاً في حكم المستعمرات .

أما الفرق الرسمية — الدومنيكان والفرنسيسكان والأوجسطينيان الخ — فقد دخلوا في ميدان التبشير في وقت مبكر جداً في أثناء فترة الفتح . وفي وقت لاحق قدر لجمعية يسوع القوية أن تقدم الميدان الاستعماري عنصراً خاصاً يتصف بالمعرفة الرفيعة ، وهيئة إدارية دولية ، ومهارة إدارية ، وسياسة قوية وجريئة . وبظهور كل فرقة من هذه الفرق في العالم الجديد خصصت لها مساحات محدودة تكون بمثابة « مناطق » خاصة بها . وكانت هناك منافسات حادة بين الفرق على الأراضي المجزية من ناحيتين معاً ، النفوس التي تنضوي تحت لوائها ، والفوائد المادية التي تجنيها . وفي بعض الأحيان كانت تحدث في المدن مشاغبات غير لائقة في الطرقات بين الرهبان والأخبار الذين يتبعون الفرق المتنافسة وكثيراً ما كان المبشرون في مناطق الحدود الممثلين الوحيدين للسلطة والحضارة الإسبانيين ، كما وجد ذلك همبولدت في السنوات الأخيرة لنظام الاستعمار عندما سافر من كاراكس متوغلاً في الأراضي الخلفية في فنشويلا .

### الجهاز التنظيمي

بحلول سنة ١٦١٠ كان للندن الكبرى في المستعمرات مجموعة منمنقة من السكانس والمؤسسات التقليدية . وتبارت الفرق في أحجام ونفخامة المباني ، وكثير من الأموال التي كانت تغلها المناجم والزراعة كانت تصرف على بنائها وزخرفها . وبعد الدير الأوجسطيني القديم في أ كولمان بالقرب من مدينة المكسيك نموذجاً لهذه الإنشاءات الباهرة . وإن من يتمتعن النفخامة الدارسة لمدينة أنتجوا في جواتيمالا يتصور بوضوح القوة والثروة

الذين كانت تحظى بهما الكنيسة في ذلك الماضي البعيد . وكانت هناك مدن كنائسية احتفظت بمسحة دينية ومحافظة إلى الوقت الحاضر . وهي تضم أما كن مثل پويلا في المكسيك وكوردوبا في أرجنتينيا وسوكري في بوليفيا وأريكيبا في بيرو ( ٨ ) وبائيا في البرازيل وكوينكا في إكوادور . وكان في كوينكا ، وهي بلدة يقيم بها حوالي ٥٠٠ إسباني أربعة أديرة للرهبان ودير للراهبات ومستشفى وبضع كنائس أبروشية ومزارات . ودخل كثير من السكان المحليين في خدمة الكنيسة لدرجة أنها أصبحت تعرف باسم كوينكا الاكبروس ( \* ) . وفي نفس الوقت كان لمدينة كيتو عاصمة الولاية كاتيدراية وسبع كنائس أبروشية وثمانية أديرة للرهبان وثلاثة للراهبات بما فيها دير لمائتي راهبة لسكان من ٣٠٠٠ إسباني ومولد . ومن المدن الصغرى التي كانت مشهورة بجوها الكنسي : أولندا في شمال البرازيل ، وشولولا في المكسيك ، وقد كانت الأخيرة المركز الديني لقبائل التولك .

ووصف أنطونيو فاسكيش دي أسبنوسا ، الراهب الكرمل المتجول في دائرة معارفه الملحصة ( \*\* ) بتفاخر وتلذذ الأديرة ومناسك الرهبان الموجودة في المدن المختلفة والتي كانت محطات كثيرة للتوقف عندها في أسفاره المتواصلة . فيقول عن ليما ، وكانت وقتئذ عاصمة أمريكا الجنوبية : « في هذه المدينة المشهورة أديرة دومنيكية وفرنسيسكانية وأوجستينية ومرسيدية ويسوعية . وفي ذلك الوقت — العقد الثاني من القرن السابع عشر — بلغ سكان ليما حوالي ٢٥,٠٠٠ شخص . وكان في المدينة في ذلك الوقت ستة أديرة وخمسة مناسك بجانب عدد من خلوات التأمل التابعة

Cuenca de los Clérigos ( \* )

“Compendium” ( \*\* )

للمذاهب المختلفة والتي كرس أعضاؤها أنفسهم للتأمل الديني والعمل من أجل إسعاد الفقراء الذين كانوا يعيشون في ضواحي المدينة . وفي الأديرة المركزية لفرقهم آوى الدومنيكان أكثر من ٢٥٠ راهباً . والفرنسيسكان أكثر من ٢٠٠ راهب ، واليسوعيون حوالي نفس العدد ، وجماعة سانس أوجستين أكثر من ١٥٠ . وكانت لكل فرقة كنيستها الخاصة بها ، وبعض هذه الكنائس مثل لاميرسيد لا تزال أما كن العبادة المفضلة لأهلها ليا . وكذلك كانت لكل فئة كليتها التي تخصصت بتوسع في تعليم المناهج التقليدية السائدة في ذلك الوقت والتي شملت اللاتينية والفلسفة واللاهوت والقانون الكنسي . وكانت أحسن الكليات الإكليريكية سان مارتن التي أسسها نائب الملك إنريكيث والتي أدارها الجزويت في وقت لاحق ، وسانت توريو التي أسسها موجروفيو رئيس الأساقفة المشهور لتدريب القساوسة . وأدار اليسوعيون أيضاً مدرسة ملكية في ضواحي ليا لتعليم أبناء الرؤساء الهنود وزعماء آخرين من السكان الأصليين . ويقول الأب فاسكيث . د هم يربونهم ويعلمونهم آداب السلوك والعقيدة المسيحية والقراءة والكتابة والموسيقى ، وهذه وسيلة هامة جداً تتبع للظفر باستئصال الوثنية في هذه الأمة ، ولتلقينهم قدراً أكبر من معرفة وحب الآراء التي تتضمنها عقيدتنا المقدسة . وكانت جامعة سان ماركوس الملكية والبابوية التي كانت علاقتها العامة بالكليات العليا (\*) التابعة للفرق هي كنفس العلاقة بين الكنيسة الملكية (\*\*) وكنائس الفرق ، تعلم منهاجاً للدراسة يتضمن الطب والقانون المدني .

وفي ذلك الوقت كان هناك ستة أديرة لراهبيات في ليا . وأكبرها

---

Calegios mayores (\*)

basilica (\*\*)

« لا إنكارناسيون » (\*) وفيه أقام أكثر من ٧٠٠ شخص ، وفيهم راهبات يتبعن خدمن الشخصى من نساء ورجال . وكان يبتا أرسقراطيا للغاية ، ومن دخلته من الراهبات كان يطلب منها جمع بائنة قدرها ٢٠٠٠ بيسو عملة ذهبية وقد أنشأته دونيا منسيا دى المارات أى سوسا ، أرملة الثامر المشهور فرانسيسكو هيرنانديث جيرون ، وزيدت هبته فيما بعد كثيرا بوصايا الخلف الصالح . وقد عنى بالموسيقى عناية كبيرة وكذلك بالأعياد الدينية خصوصا عيد القديسين الذى يمتك ثلاثة أيام يحتفل فى أثناءها بصعود العذراء ، وفيها تغير الراهبات ملابسهن ذات الخمر البيضاء ، ويلبسن « الجلابيب الرسمية الجديدة المزركشة » . وكما يقول الأب فاسكيث : « تبدو كل راهبة كما لو أن الوصف يعجز عن تصوير كمال زينتها وشذى عطرها الحلو » .

وبلى دير لا إنكارناسيون مباشرة دير لا كونفيسييون (\*\*) وكان يضم ٥٠٠ راهبة مقيمة وهيئة من الخدم . وكان يقبع الفرع النسوى لفرقة الفرانسيسكان . وأسعته دونيا اينيس مونيوت دى ريبرا ، من أشهر النساء فى تاريخ بيرو المبكر . وبعد اغتيال زوجها الأول فرانسيسكو مارتى دى ألكانتارا ، وهو أخ غير شقيق لفرانسيسكو بشارو ، تزوجت من أنطونيو دى ريبرا أحد مؤسسى مدينة ليا ، وكان ذا ثراء واسع . وأكثر تواضعا من هاتين المؤسستين الفاخرتين . كان دير سانتسيما ترنداد التابع لفرقة سانت برنارد ، والذى أنشأته دونيا لوكريشيا دى سانسويس ، ويصفها الأب فاسكيث فيقول : إنها امرأة ذات قوة عظيمة ونظام أخلاقى صارم ، ولكنها قاسية وشديدة التعصب إلى حد ما . أما الأديرة الثلاثة الأخرى - سانتا كلارا ، والدير الفرانسيسكانى للراهبات الخافيات (\*\*\*) فى سان خوسيه ،

(\*) التجسيد

(\*\*) الجل

(\*\*\*) Barefoot nuns

وسانتا كاتالينا دي سانا ، وهو تابع للجناح النسائي لفرقة سانت دومنيك - فقد كانت أديرة من الدرجة الثانية . وفي منتصف القرن الثامن عشر ذكر خوان وايووا كشفا آخر بعدد من أديرة الراهبات في ليميا بما فيها تسعة بيوت للتأمل . وفي أيامهما كان يوجد كذلك أربعة أديرة أخرى لم تكن بعض الراهبات فيها معتزلات لعهد قطعته على أنفسهن ، وخصص أحد هذه الأديرة كملجأ للزوجات اللاتي كن يرغبن في الفرار من بعولهن .

وبالإضافة إلى المدارس التي كانت في بعض الأحيان ملحقة بدير الرهبان كانت الفرق الرسمية تحتفظ بعدد من معاهد الرعاية التي عُنيت بحاجات السكان في ليميا . ولم تكن هناك مدينة في أوروبا في ذلك الوقت ذات نظام أكثر ترتيباً . وربما كان من أهم هذه المؤسسات الخيرية دار الإخوة « لا كاريداد » (\*) التابع للراهبات الكرمليات . وفي اندفاع من الزهو أطلق عليها الأب فاسكيث « الدار العديمة النظير في العالم » . وكانت دار الرهبنة المشهورة هذه تعمل مستشفى للنساء المريضات من الطبقات الفقيرة في ليميا . و « ملجأ ومدرسة عليا لا مثيل لها للشابات والبنات المعدمات » . وكانت بعض النزيلات يختزن ليصبحن راهبات . أما اللاتي يتركن كاريداد فكن يمنحن بائناً للزواج . وكانت دار الإخوة كذلك توزع الطعام والصدقات على الأمر الفقيرة وتقوم بالزيارة وتعنى بالمرضى الملازمين للفراش فلا يستطيعون الحركة . وشاركت مع دار إخوة السجون أو دار سان پدرواي سان پابلو مهمة نقل جثث من نفق فيهم حكم الإعدام من المشاتق على قارعة الطرق العامة وتوريها التراب في احتشام . وكان غرض هذه المنظمة القوية هو « الإعانة بلا حدود لمقدارها لجميع

الفقراء من إسبانيين وهنود وزنوج ومولدين في سجون المدينة والعاصمة سواء ، مع تقديم الوجبات السكافية ، . ويضيف الأب أنطونيو : « وليس هذا فقط ، فقد كن يستقصين عن أحوالهم وإمكان إطلاق سراحهم ، كما كن يعالجن مرضى الأجسام ومرضى النفوس ، . وتضمنت هيئة المديرين الذين كانوا يتولون شئون دار إخوة السجون طبيباً وجراحاً وأقرباً (بازينيا\*) للخدمة السجناء الذين يحتاجون إلى رعاية طبية ، ومحامين للدفاع عن المتهمين أمام المحاكم . ويختم الأب فاسكيث بيانه بهذه الملاحظة : « ولذا يساعد الأشراف في هذه المدينة دار الإخوة هذه » .

وكانت هناك جمعية إخاء أو دار إخوة أخرى تدير المستشفى الملكي في سان أندريس الذى أقامه هورتادو دى مندوثا ، ماركيز دى كانيتى من نواب الملك الأوائل . وكان يديرها لفترة موظفون من قبل حكومة نائب الملك ولكن فشل هذه التجربة المبكرة في « الطب الحكومى » كان واضحاً ، لأنه ، كما يقول الأب فاسكيث : « لوحظ أن المديرين الذين عينتهم الحكومة لم يقوموا بالرعاية والإخلاص اللذين كانا المستشفى في حاجة إليهما » . وبعد ذلك ، بناء على مبادرة من قس يسوعى ، تألفت جماعة من أفراد بارزين وأثرياء وتسلبوا إدارة تشغيل المستشفى كـ مجلس للإدارة . وانتخبوا مديراً عاماً يعمل طول الوقت بمرتب ، وعينوا ثمانية مندوبين من بين المدنيين ليعمل كل اثنين منهم معاً بالتناوب لمدة أسبوع . ومن ذلك الحين أدير المستشفى بكفاءة متزايدة . فقد كان كل مدير يهدف إلى التفوق على أحسن ما وصل إليه سلفه . وبحلول سنة ١٦١٥ كان بالمستشفى ٥٠٠ سرير موزعة على بضعة أجنحة فوق مساحة من الأرض . وكان يقبل الأشخاص « الذين يصيهم أى مرض » ، وبالإضافة إلى تسهيلات العلاج الطبى كان يدير ملجأ للأمراض العقلية .

أما مستشفى سانتا أنا الذى أسسه أول كبير للأساقفة فى ليا فقد اتبع نفس المخطط العام الذى كان متبعاً فى مستشفى سان أندريس ، ولكنه كان أكبر، وكذلك كان يشتمل على جناح للنساء. وكتب الأب فاسكيث عن الملاجئ الأخرى التى تضمنتها مجموعة المستشفى يقول :

« السرائر مرتبة ونظيفة ، وصوان الملابس واسع إلى درجة يستطيع فيها أن يخدم متطلبات ١٠٠٠ سرير ، ولما كان الهنود قد اعتادوا تناول وجباتهم المكونة من الذرة والأعشاب المتبلّة بالفلفل الأحمر ( \* ) ، فإنهم يحضرونها لهم على طريقتهم . . . فهم يعنون بكل فرد بقلق واهتمام كبيرين ، ويحضر المندوبون عند معالجتهم، وعند تقديم وجبتى الغذاء والعشاء ويراقبون الطعام المقدم لهم وتحضير الأدوية المقررة لهم . »

وكان مستشفى اسبيريتو سانتو ( \*\* ) مخصصاً للبحارة . وكانت إعائته تأتي من الضريبة الخاصة التى فرضت على السفن والبضائع فى ميناء كايو ، أما مستشفى سان ديجو ، فقد خصص للناقمين من المرضى وكبار السن . وكان يديره رهبان سان خوان دى ديوس المتواضعون . . . ولم يستطع الأب فاسكيث أن يذكر أسماء مؤسسيه ولكنه أضاف : « إن أسماءهم مكتوبة فى كتاب الحياة . »

وعلى الرغم من أن سكان مدينة المكسيك لم ينالوا شهرة سكان ليا فى الورع فقد كانت مزودة أكثر منها بجهاز المؤسسات الدينية . وكذلك كانت الكنائس بصفة عامة فى مدن إسبانيا الجديدة الإقليمية تفوق من ناحية العمارة كنائس ييرو . يقول الأب فاسكيث : « توجد فى مدينة المكسيك أديرة نخمة ومشهورة ذات معابد فاخرة ، معداتها وافرة وكاملة ،

( \* ) chili pepper : الشطة .

( \*\* ) Espirito Santo

ولها دخل كبير وتبرعات خيرية تعينها . وجميعها تشتمل على مدارس للفن واللاهوت وأهمها سانتو دومينجو من أحسن وأغنى المدارس الموجودة في الهند الغربية ، وإلى لأشك فيما إذا كان لها مثيل في إسبانيا . وتضم أكثر من ٢٠٠ راهب ، كثير منهم على درجة عالية من التعليم ، ووعاظ عظام ... وقد أصبحت الكنيسة كتلة لحم متوهجة من الذهب ، وعلى طول جوانبها سلسلة من المعابد يكسوها الجلال ، . وفي جميع هذه المنشآت يدون كشف يحتوى على عشرين ديراً للرهبان ومنسك بنديكتى واحد وستة عشر ديراً للراهبات . ويرجع تاريخ بضعة منها إلى عصر الفتح مثل مدرسة ومعبد سانتياجو دى تلاتيلولكو التى أسسها الراهب العلبانى الشهير پدرو دى جاتى ، الابن غير الشرعى للإمبراطور شارل ، للتعليم بطريقة الأسئلة والأجوبة وللتعليم الأولاد الهنود . وفى أوائل القرن السابع عشر كانت تقوم بسد حاجات أكثر من ٣٠.٠٠٠ هندى من الناحيتين الروحية والتعليمية . وينقلب الأب فاسكيث فصيحاً بصفة خاصة عند ما يصف الدير الذى كان يتبعه والذى كان قابعا فى المكان الذى كان يعرف باسم ال ديسيرتو (\*) فى الجبال التى تسكسوها أشجار الصنوبر فوق مدينة المكسيك . فقد كتب يقول : « بقعة تبدو كأنها الفردوس » . وكتبت مدام كالديرون دى لا باركا فى منتصف القرن الماضى عن الانكارسيون ، وهو دير من أديرة الراهبات . تقول : إن هذا الدير فى الحقيقة عبارة عن قصر . ونصف أشجار الفاكهة وحدائق الزهور والنافورات المتناثرة فى أفنيته ومطبخه السكامل النظافة . واسكل راهبة خادم أو اثنان لشخصهما تحت إمرتها ، « لأنه ليس من الفرق القاسية الصرامة ... والدير غنى ،



وكل مستجدة تدفع عند دخولها ٥٠٠٠ دولار لصندوق رأس المال العام. وهناك ثلاثون راهبة وعشر مستجدات .

وفي أوائل القرن السابع عشر كان هناك تسعة مستشفيات في مدينة المكسيك . وكان مستشفى الهنود العام مؤسسة علمانية ، أسسه نائب الملك مونترى الذى خصص له ، بجانب أعمال خيرية أخرى لصالحه ، الدخل المتحصل من مسرح كوميدى أنشأه . ولوس ديسامبارادوس ، (\*) وهو مستشفى دغنى ونغم ، ، وكان مخصصاً للمعدي ، المدينة ، وكانت تديره فرقة سان خوان دى ديوس . وكان مشهوراً بصفة خاصة ببابه الدوار ، وعنده كانت الأمهات يتركن أطفالهن . ثم يأتي الرهبان ويهيتون لهم المساكن والآباء الذين يتبنونهم . وأسس الفاتح هرنان كورتيس مستشفى لاكوفسبسيون لرعاية المرضى من فقراء المدينة ، وكان يصرف عليه بسخاء من دخل مزارعه الشاسعة . وسان هيوليتو ، وكان مستشفى وملجأ لمعالجة الأمراض العقلية ، وقد اهتم اهتماماً خاصاً بتلبية مطالب المسافرين الذين جاءوا إلى فيراكروث على أسطول السفن الذى كان يصل سنوياً من إسبانيا . ولهذا الغرض كان يرسل قطاراً خاصاً تجره البغال بحملاً بالطعام والحاجات الضرورية الأخرى . وخصص أمور دى ديوس لمعالجة مرض الزهري وحده بين الفقراء ، وسار لاثارو للعناية بالأشخاص الذين أصيبوا بأمراض مستعصية كالبرص ، بينما اقتصر مستشفى يسوع ماريا دى أندىوس على علاج الهنود المرضى .

وانتشر نمط مشابه من الاكليركية في معظم المدن الاستعمارية الأخرى، وكان المانع الوحيد من تعميمه راجعاً إلى الموارد المحدودة أكثر منه إلى الحماسة . فمثلاً بوينس أيريس ، وهى مدينة ظلت فقيرة حتى القرن

الماضى ، لم تكن بها كنائس ولا أديرة ضخمة . وعلى الرغم من جميع الاعمال الطيبة التى أداها الرهبان والراهبات فان النمو المفرط فى نظام الأديرة فى العالم الجديد كان نموا سقيما ، فقد كان هناك تطفل على التقوى زائد على الحد ، وأشخاص عالة على العمال زائدون على الحد . وكانت الطاقات والمواهب التى نمت خاملة فى أروقة الدير مطلوبة للعمل من أجل عالم الاستعمار الثقافى والاقتصادى سواء . ولا بد أنه كان يبدو فى بعض الأحيان كأن الامبراطورية الإسبانية ملحق شاسع للكنيسة . وكانت حياة الأديرة مريحة جسميا ، ومهدئة عقليا ومرضية خلقيا . وهيات الأمان فى عالم لم تكن فيه معاشات أو تأمين اجتماعى أو مزايا المحاربين القدامى . وهيات الفرصة للتقاعد فى سن مبكرة للجيل الرقيق الذى جاء بعد الفتح . ولعل ندرة الأبواب المفتوحة للعمل فى ميادين أخرى ، وقد حددها عذوف الجيل الجديد عن مهن بالذات ، وكذلك بسبب قيود النظام الإسباني ، هى التى حببت الناس فى الحياة المغلقة التى سادت فى تلك الأيام . ومن الجدير بالذكر أنه فى القرن الثامن عشر ، حينما تراخت الحكومة الإسبانية فى صرامة إدارتها السياسية والاقتصادية الاحتكارية ، اختارت قلة من الناس فى المستعمرات الحياة المغلقة .

وكانت النساء كذلك تغريهن الأديرة بصغير أنشودة الأمان ، ويدفعهن أيضا النحس الدينى . ذلك لأن اللائى اتخذن الخطوة النهائية بعد قضاء فترة التحضير للرهبنة كن يلقين تعويضا عن العهود التى لاتنقض والتى قطعنها على أنفسهن ، بجانب الاطمئنان الذى يقدمه لهن الدير . وإذا كانت رئيسة الدير متساهلة فى إدارته ، فقد يصبح للنظام متراخيا . وكانت هناك موسيقى وطعام طيب وصحية خفيفة الظل . وإذا كانت ملابسهن قد بدت ذات شكل رتيب ، فقد كان هذا ، بالنسبة إلى الراهبات البرازيليات على الأقل ، يشبه اللباس الخارجى للنساء المقصوات كالحریم فى البيوت

الكبيرة ، . وأقيمت أعياد مريم العذراء وأعياد القديسين الأولياء . وإذا جاء القس يوميا ليؤم صلاة الجماعة في كنيسة الدير فقد كان هذا شيئا لطيفا يذكرهن بأنهن لسن كثرة من نساء مترجلات محبوسات في قفص خال من الرجال . فإذا كن جائيات من الريف فقد كان يرضيهن أن تخلصن من أخطار الحياة على الحدود وارتباكاتها وعزلتها ووحشتها . واختارت كثيرات من بنات طبقة المزارعين الأرستقراطية في شمال البرازيل الحياة الآمنة والبهيجة التي تحياها الراهبة ، لدرجة أنه كان هناك قحط فعلي في البنات اللائي يمكن اتخاذهن عرائس لسلالة الأمر الحاكمة . وحقا أن العقم الذي أصاب عرضاً كثيراً من الأشخاص ، خصوصاً الشريحة الرفيعة المنزلة من المجتمع ، نتيجة عزوبة رجال الدين الرسميين ، ذكوراً وإناثاً ، كان بالتأكيد عاملاً مساعداً له أهميته في نمو السكان البطيء بين العنصر الأوربي في المستعمرات .

### رجال الدين

توقف نجاح الكنيسة في تحقيق أغراضها الأساسية كثيراً على صفة رجال الدين . وإذا استثنينا القلة الإسبانية ، لم يكن هناك أساس متين لعقيدة عميقة يركن إليها . وحتى بين الإسبانيين والأوروبيين نزع الدين إلى أن يصبح في نهاية الأمر مسألة عادة تقبل وتراعى بلا جدال . وكان شيئاً محبوباً جداً بين نساء الأسرة ، وكانت أعياده الفخمة تفرج عنهن رثالة الحياة اليومية . ولكن ، فيما عدا أزمة تعرض في شتون المرء ، لم يكن شيئاً يشير ثأمرته زيادة على الحد . لأن لدى المرء أشياء أخرى يفكر فيها ، وعلى كل حال كان فاتراً إلى درجة زائدة في بوتوسي أو بوجوتا لدرجة تستدعي كثيراً من التفكير العميق ، وحماسياً جداً في بليم وبيورا ، وهذا كله يعني أنه كان على القسس أن يحفظوا جذوة الإيمان من أن تتطنى خصوصاً في المدن والقرى المنعزلة حيث كان تحذير الأسقف أو القس الإقليمي وهو

يوميء يا صبيعه لا يصل إليها بسهولة . ولم يكن هذا بالأمر الهين ، لأن الجسد كان ضعيفا ، والشيطان يسرح في كل مكان متخفيا يغرى بالفسوق حيا أو عديم الحياة .

وكان معظم المبشرين الأوائل الذين قدموا إلى العالم الجديد أناسا صالحين ، نماذج لجميع الفضائل الرسولية — الإيمان الثابت برسالتهم ، الشجاعة ، نكران الذات ، إذلال النفس ، وطيبة القلب . فقد كانوا رجالا وبانيين مخلصين بارين . وكانوا يروحون ويغدون بين السكان الأصليين دون تردد أو خوف ، لا يبالون إن كانت رعيتهم من الأغنام أو من الذئاب ، من التاينو أو من الكاريب . وعاشوا في أكثر الظروف بداءة ، وكثيرون استشهدوا . ومن هؤلاء موتولينيا ، ولاس كاساس ، وفرانسيسكو سولانو ، وبيدرو كلافيير « رسول الزوج » ومئات آخرون (٩) .

وبمرور الوقت ، وبإتمام الجزء الأكبر من المهمة الأساسية في تحويل الهنود إلى المسيحية ، فترت مظاهر الإيجاب والمضغظ — والإلهام — التي امتاز بها عصر الكنيسة البطولي ، وأصبحت الكنيسة ، بل أصبحت معها الفرق المستجدية غنية من تدفق صدقات الصالحين ، ومنح الدولة ، وريع ممتلكاتها ، والعائد من استثمار الرهون والمناجم ، وبيع المحصولات والحيوانات من أراضيها فأصبحت الكنيسة غنية أكثر من اللازم لصالحها نفسها . وبحلول سنة ١٨٠٠ كانت أكبر مشروع في المستعمرات . وهلك أفراد واندثرت أسر من القحل أو نتيجة لكسبة . ولكن الكنيسة قد اكتسبت نعمة الاستمرار ، وما وصل إلى يدها بقى بالاصطلاح المضلل ، الا وهو الوقف ، أي ممتلكاتها غير القابلة للتحويل . ومثل هذا الجو غير مناسب لنمو التحمس الروحي .

ومع ذلك فكلما كانت هناك دعوة لمغامرة تبشيرية جديدة هبت الفرق الرسمية لتلبية التحدى . ولنضرب مثلاً يوضح ذلك ، الزحف ، الكبير الذى قام به الفرنسيون إلى كاليفورنيا العليا فى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت هناك ميادين للتبشير فى مناطق حدود المستعمرات - أو فيما دونها - فى شمالى المكسيك ومقاطعة أروكو فى تشيلى وفى إقليم مايناس فى أمزونيا وفى الأراضى الخلفية لفنشويلا حيث كانت الحياة عبارة عن مغامرة روحية وجسمية معا . وكان هناك على الدوام رجال شجعان ومخلصون مثل يوسيفو كينويو ونيدرو سرا ، وقد كانا على استعداد لفتح هذه الأراضى لإسبانيا والكنيسة .

ولربما كان أكبر إغراء لرجل الدين شخصياً هو الفرصة التى أتحت له بلع المال الذى كان متوافراً حوله . وفى هجاء فرنانديث دى ليفاردى الخادع الببغاء المتلفف (٥) يتغوه أحد الشخصيات بهذه النصيحة: وتعلم لتكون قسيساً كما أفعل أنا ، لأنها أحسن الحرف على الإطلاق ، وتستطيع أن تغمض عينيك ولا تبالي ... والقس يقابل بالترحاب أينما ذهب ، والجميع يوقرونه ويحترمونه حتى لو كان مغفلاً ويتغاضون عن نقائصه ، ولا يستطيع أحد أن يلومه أو يعارضه فى أى شيء . وله مكان فى أحسن حفلات الرقص وأحسن الألعاب ، وحتى فى حجرة استقبال السيدات لا ينكره أحد . وأخيراً فإنه لا ينقصه اليدوى إطلاقاً ، ولو اضطر إلى جمعه من صلاة أساء أدائها ، وبأقصى سرعة . فإذا سمعت الكنيسة جرياً وراء الساعة فكذلك فعل الكثيرون من قساوستها . فقد شارك بعضهم فى أرباح الفتح . إما من الكنوز التى سلبت من الهنود كما فى بيرو ، وإما من عملية تموين الجيوش .

ومن الواضح جداً أن الأب لوى ، الشريك الصامت لشارو والماجرو في فتح بيرو لم يحصل على رأس المال الذى استغله لهذه المغامرة المربحة، وهو يعمل ناظراً لمدرسة الأبروشية فى بنبا . وقد أطلق أوفيدو المؤرخ على الفردى ، وكان قسيس حملة بشارو عبارة: «قس قلقى الببال متبيج وفاسق» . ومن المشكوك فيه أن كاهناً تافهاً مثله قد يرفض نصيباً من فدية الانسكا كاخاماركا . ويخبرنا أوفيدو عن كاهن آخر ، خوان دى سوسا ، الذى مول وقاد حملة لإقرار النظام فى إقليم فيراجوا فى البرزخ ، إطاعة لأوامر أرملة ديجو كولون التى كشف حوها ذلك الإقليم . وقد عرفه المؤرخ لسنوات عدة من قبل قسا فقيراً فى شمال القارة ، بينما كان هو نفسه قد ذهب فاتحاً فى الأرجاء المجاورة . وقد جمع فى وقت لاحق ثمانية آلاف أو عشرة آلاف يسو عملة ذهبية فى فتح بيرو ، وهى بيضة عش كبيرة الحجم يقتنصها أى شخص فى تلك الأوقات . ويلقى أوفيدو ذات مرة ، ولم يكن أبداً خارجاً على الدين : «أنا لا أود أن أرجع الفضل أو أنكره لأرازهوس أو كتاباته ، ولكن فى الهند الغربية هذه حدثت أشياء بين رجال الدين تجعلنى أفضل السكوت عنها على أن أثيرها» . ويخبرنا برنال ديات عن فرانسيسكانى جشع ، هو فراى پدرو ماجاريغو دى أوربا ، وقد قدم إلى المكسيك فى أثناء حصار عاصمة الأزاتقة ، يقول : «لقد جمع الأب المحترم ثروة فى بضعة شهور ، وعاد إلى قشتالة» .

وقد وجد رجال الدين المستهترون والمتسكالبون على الدنيا طرقاً مربحة كثيرة لتجنب العهود التى قطعوها على أنفسهم للحياة فقراء . ففى بعض الأحيان كانوا يستغلون العهود الذين فى عهدتهم بلا حياء كما كان يفعل حكام المدن أو رجال الملك فى المدن . ومن أقصى الإدانات التى وجهت إلى الأخلاق السكهنوتية ما وجهه الضابطان البحريان الإسبانيان جورجى خوان وأنطونيو دى أيووا اللذان أمضيا بضع سنين فى العالم الجديد فى أربعينيات القرن

الثامن عشر وعلى الرغم من دوام الاستغلال طول أيام السنة فقد كانت أيام القديسين تبدو كما لو كانت تهيء الفرصة المربحة لرجال الدين لفرض الجزية على أتباعهم في الأروشيات في صورة أو في أخرى . وقد أبلغ قسيس قرية في مقاطعة كيتو خوان وأيووا أنه في كل سنة كان يتسلم أكثر من ٢٠٠ رأس غنم و ٦٠٠٠ دجاجة و ٤٠٠٠ أرنب رومى (٤) و ٥٠٠٠٠ بيضة من رعيته . وفي أيام الأحاد كانت كل امرأة هندية تحضر للأب بيضة ، فإذا انقطع الدجاج عن وضع البيض فتعطيه قيمة البيضة نقداً . ويساعد كل رجل بحزمة من الحطب ، وبحضر الأطفال حزماً من العلف لحيوافاته . ويبيع القس هذا المحصول في المدينة . وبمربط قدره ٧٠٠ أو ٨٠٠ يسو استطاع أن يحصل على دخل سنوى يتراوح بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ يسو . وعرف المرافبان الإسبانيان كذلك أن محظية نائب الخورى كانت تجبر النساء الهنديات في المنطقة على أن يصنعن قماشاً من القطن أو الصوف ينتفع به عشيقها ، وبهذا حولت البلدة كلها إلى مصنع نسيج . وكان هذا الاستغلال السيء موضوع قانون صدر في سنة ١٦٣١ .

ولا بد من أن الحكومة المركزية في إسبانيا كانت قلقة بخصوص السلوك الشاذ الذى كان يصدر من بعض رجال الدين ، ذلك لأن هناك مجموعة ضخمة من التشريعات خاصة بالموضوع . فلا يجوز أن يكون القس قاضياً أو عمدة للبلدة ، أو يمارس مهنة المحامى أو الموثق . ومنعوا من المتاجرة في أية صورة من صورها ، ومن تشغيل المناجم كلية . فإذا استخدموا الهنود في عمل ما فلا بد أن يدفعوا لهم أجورهم . وهدفت بعض هذه المراسيم إلى صور أخرى من التصرفات السيئة التى كان يقوم بها رجال الدين . ومنها قانون يأمر الأساقفة بأن يوقفوا الميسر بين القسس في أبرشياتهم . ومن فوق منبر الوعظ عليهم أن يلتزموا بالمبدأ والمثل ،

وآلا يثيروا الشهوات والاضطراب بين طوائفهم يلقون عليهم « الألفاظ الشائنة » . وأمر الأساقفة أن يطردوا من البلاد جميع القسس « المشاغبين » والذين يحبون حياة شريرة . . وقد وجه قانون صدر في وقت مبكر (١٥٤١) الرهبان الذين اعتادوا التشرّد إلى وجوب إعادتهم إلى أديرتهم .

وكانت هناك مشكلة أخرى تسببت فيما كان يعرف بين المتقشفين والمكتمنين (\*) من رجال الدين الإسبانيين بالشهوانية . فمن بين الذنوب السبعة الكبرى كان اللفظ يعنى الشهوة والنهم . ولما كان الإسبانيون بالضرورة شعبا معتدلا ينقصه الغذاء الكامل فقد نزعوا إلى اعتبار التخمّة هفوة بسيطة جدا ، وإن كانت على الإطلاق صورة من صور الفساد . ومن حيث الذنب الذى ارتكبه الجسد فقد أصبح العسكوف عليه شائعا بين رجال الكنيسة فى العالم الجديد . وكانت فرصة الوقوع فى الخطيئة مهيأة فى كل مكان . وعلى خلاف من الناس الجبليين فى قصة الرجل الذى قد يصبح ملكا ، التى كتبها كبلنج كان هناك شعور طفيف نحو ذلك الأمر . فلم يصبح نظام المحظيات عاما فحسب ، ولكن يمكن القول بأنه كان القاعدة عند بعض الجماعات . ولا بد أن الدعارة بين القسس قد بدأت فى وقت مبكر جدا من الفتح . ويذكر برنال دياث فرار الأب بنيتو مارتينيث الذى كان قسا لفيلا سكيس حاكم كوبا . فعند ما قدم إلى المكسيك سجنه الأسقف لأنه أنى معه بامرأة من إسبانيا اسمها ماريا ردريجيث . ويروى أوفيدو قصة شائنة بوجه خاص عن سلوك قسيس كان فى قوة جنثالو دى باداخوث فى فتح البرزخ .

ويكتب كابتن وودز روجرز القبطان البريطانى ، والذى كان شخصية فى « قراصنة بنزانس » مبتهجا عن حادثة وقعت « فى طريق تيكامس » على

---

(\*) aging من تثيرت أجسامهم مع الزمن .



الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية فى سنة ١٧٠٩ : « أزلنا الأب الصغير على الساحل وأعطيناه - بناء على رغبته - أجل شابة زنجية أخذناها فى الغنيمة ، وبعض أعناب وأقمشة وأشياء أخرى نظير خدماته الجليلة فى المساعدة على ترويج تجارتنا للحصول على المؤن هنا . وأرسلنا كذلك زنجيا وكية من الأعناب لقس تيكامس عرفانا بعطفه . وفارقنا الأب الصغير فى سرور تام . وبينما كان يخفى نظرة من تحت قلنسوته إلى الملاك السوداء كنا نشك فيما إذا كان سيعصى معنا إحدى الوصايا العشر ، ثم يغسل المعصية بصك من صكوك الغفران التى تبيعها الكنيسة » .

أما خوان وأيووا فيرسمان صورة قائمة لفجور رجال الدين فى منطقة نائب الملك الجنوبية فى زمنهما . فقد كتبنا فى تقريرهما السرى للملك : « يعيش رجال الدين ، الرسميون منهم والعلمانيون ، عيشة خلية وشائنة وكما يروق لهم » . وقالوا إن القسس يقيمون خارج الأديرة فى بيوتهم الخاصة حتى يستطيعوا أن يعيشوا مع عشيقاتهم دون إزعاج ، بل إن بعضهم كان يحتفظ بعشيقاتهم (\*) فى صوامعهم فى الدير . ووفقا لرواية الرحالة الإسبانيين فقد كانت الأديرة فى الأماكن الصغيرة عرضة لأن تصبح « مواخير عامة » فقد انساق القسس إلى المعيشة الصاخبة . وكثيراً ما كانوا ينظمون حفلات الرقص وشرب الخمر (\*\*) التى كانت تنقلب إلى حفلات للعردة . وكل هذا كان ، كما يقولون ، « مقبولا كعادة مرعية » . وما يشرف القسس أنهم كانوا يعترفون بأبنائهم ويحسبون حسابهم . وكتب فريزيه ، المهندس الفرنسى الذى كان فى الجهات الساحلية لبيروتشيلي فى أوائل القرن الثامن عشر يقول : « لا يزال رجال الدين ( الرهبان ) ، باستثناء اليسوعيين ، أكثر تقيدا من خدمة الدين ( قسس الأبرشيات ) ، وينغمسون فى

---

(\*) barraganas محظيات

(\*\*) fandangos

الفجور الذى يسلمه كثيراً جداً احترام الناس الزائد كعادتهم ، ويبدو أن البرتغاليين فى البرازيل كانوا متهاونين بصفة خاصة نحو دناسة قسسمهم ذات السمعة السيئة . وكان هناك لفترة طويلة رأى عام للعلمانيين ورجال الدين يفضل زواج رجال الدين كاعتراف صحيح لحقيقة واقعة .

وترك المراقبون الأجانب صوراً كثيرة — وغالبا ما كانت مقسمة بالعطف — عن رجال الدين فى أمريكا اللاتينية فى غضون القرن التاسع عشر . وكان بعض من قابلوهم من القساوسة ابيقوريين (\*) ومترفين (\*\*\*) وبعضهم كانوا كسالى ، والبعض جهلة ، وقلة منهم كانوا شريين ، ولكن معظمهم كانوا طيبي القلوب . ومن الذين عرفوهم وأحبوهم كثيراً جون لويد ستيفنز ، محام ، وسائح حول العالم ، وعالم آثار عصامى ، وقنصل متجول للولايات المتحدة فى حكومة ، أمريكا الوسطى . ولما كانت واجباته الرسمية مهمة ، فقد قام برحلات شاسعة فى دائرة اختصاصه . وشمالا إلى الولايات الجنوبية من المكسيك . وفى بالنسكى فى ولاية شياباس اشترك فى رحلة مع أربعة آباء مريحين من القرى المجاورة . وبينما كان ثلاثة منهم يلعبون الورق (\*\*\*\*) كان الرابع يلعب على قيثارته لتسليتهم . وكتب ستيفنز عن قسيس الناحية يقول : « ركبنا حتى وصلنا إلى منزله ، وانتظرنا إذ كان يثبت بعناية على ظهر جواد طويل ولداً صغيراً كان يشبهه إلى درجة عجيبة ، لدرجة أن الناس ، احتراماً لالتزاماته أن يعيش أعزب ، كانوا يستحيون أن يسألوا : ابن من هذا الولد ؟ وبعد أن انتهى من عمله هذا ربط زوجا إضافيا من الأحذية خلف برذعته ثم انصرفنا يودعنا كل

(\*) نسبة إلى أبيقور ، صفة تطلق على الشخص الأكل الذى يتأق فى طعامه وشرايه .  
 (\*\*\*) Sybarites نسبة إلى Sybaris ، مدينة إغريقية فى جنوب إيطاليا كان يعيش أهلها فى ترف مرذول .  
 (\*\*\*\*) مونتي Monte لعبة مقامرة تالعب فى أمريكا الإسبانية .

سكان القرية». وعندما زار ستيفنز أطلال المايا معهم أحضروا طابورا كبيرا من الحمالين الهنود يحملون لوازم الفراش والمؤن و «أدوات متنوعة» . ويضيف أنه «بجانب ذلك قد امتازوا علينا بأن كان عندهم أربع أو خمس نساء» . رمن رفقاته الذين اتصفوا بالبهجة كتب ستيفنز : «كانوا جميعا رجالا أذكيا وطيبين ، أميل إلى فعل الخير وتجنب الأضرار ، وفي المسائل المتعلقة بالدين كانوا على درجة عليا من الاحترام ، وعملوا بنشاط في دعوتهم ، ولم يلصق بهم أحد من أتباعهم أية ملامة» . وفي أوتاتلان في نيكاراغوا لقي ستيفنز قسيس قرية كان يقهقه عاليا لأى شيء فجا عدا دينه . ويضيف ستيفنز : «وبزيادة معرفتنا به وجدنا فيه ذلك الميل إلى الفهم المتين والمعرفة . ولما كان متقاعدا بعد السن كان على معرفة تامة بالبلاد وبالرجال المشهورين . وكانت آراؤه سديدة من نظرة مجردة ، وهجوه لاذعا . ولو أنه خلا من الحقد لدرجة أننا طورنا لقبه فأطلقنا عليه اسم الفيلسوف الضاحك» وفي كشتالتانجو في جواتيمالا لعب خورى نغما من روسيني أمام ستيفنز وكاثروود زميله ، في حين كان ٣,٠٠٠ هندي يتعبدون في الكنيسة . وكتب عن قسيس آخر التقي به يقول : «منحت لى فرصة أرى فيها ما لاحظته بعد ذلك في شتى أرجاء أمريكا الوسطى : تقاضى الخورى في قرية هندية عن حياة الجد والمسؤولية ، وقد كرس نفسه للناس الذين تحت رعايته . فبجانب قيامه بجميع الخدمات الدينية يقوم بعود المرضى ، ودفن الموتى . وكان كل هندي في القرية ينظر إلى مضيقي الفاضل كاستشار وصديق وأب . وكان باب الدير دائما مفتوحا ، وكان الهنود يلجأون إليه باستمرار» . ووجد كابتن بازل هول في وقت سابق قسيسا ممائلا في تشيلي . قال : «ظل لمدة تزيد على خمسين سنة راعى قرية هندية نائية ، وهناك حصل بمواهبه وفضائله على قوة تأثير هامة وشاسعة في الأهالى الذين حسن ظروفهم المعيشية كثيرا بتحويلهم إلى المسيحية وبإدخال التعليم جنبا إلى إلى جنب مع فنون الحياة المدنية» .

### الكنيسة والدولة في ظل الجمهوريات

سبب الاستقلال تصدعا جوهريا في حياة الكنيسة في أمريكا اللاتينية فقد بقيت الكنيسة في عصر الاستعمار إسبانية صميمة ، وكانت الطبقات العليا في النظام الكهنوتي يغلب فيها العنصر الإسباني . وكانت تركز كثيراً على فضل ومساعدة التاج ، والآن وقد ذهبت سلطة إسبانيا برزت مجموعة خطيرة من الترتيبات الجديدة للقسوة . ولما كانت الكنيسة جهازاً غير مرن ، ولم تقف في وجهها أية معارضة منظمة خلال ثلاثة قرون من وجودها في العالم الجديد ، لم يظراً عليها التغيير بسهولة . فلم تجرب أبداً على التنازل لأي شخص ، وبصفة خاصة للسلطة العلمانية

وفي ظل الجمهوريات ووجهت بموقف جديد لم يكن كثير من عناصره موافقاً لها . وبصفة خاصة للملحقات الدنيوية . لأن ثرواتها كانت لإغراء للحكام الجدد الذين كانوا في مأزق من ناحية المال لإدارة الدول الجديدة ، والذين قد ضحوا بثرواتهم الشخصية في الحروب ضد إسبانيا . وظهرت الضغائن والذكريات المريرة لمضايقة الكنيسة ، لأنه بينما انضم قسم كبير من رجال الدين في الأبرشيات إلى القضية الوطنية ، واستشهد أسقفان ، هيدالجو وموريلوس كزعيمين للثورة ، فإن عدداً كبيراً جداً من الأساقفة لم يخفوا عطفهم على الملكيين . وهكذا بدأت الكنيسة من جديد وفي طريقها عقبة ثبوت شخصيتها مع إسبانيا . فلم تقبل السلطة الكهنوتية النظام الجديد بكياسة ، ولذا جلبت على نفسها كثيراً من المضايقة .

وأصبحت الكنيسة مصدراً كبيراً ومقلقاً في السياسة . فما أريد منه أن يصبح التقسيم التقليدي بين حزبي المحافظين والأحرار أثار الكفاح المرير بين الكنيسة والدولة ، والذي أعنت الحياة القومية في بعض جمهوريات وعلى رأسها المكسيك . فالأحرار اعتنقوا عادة سياسة معنادة للكليروس ،

في حين ناصر المحافظون الكنيسة وحقوقها التي مجدها الأيام . وتبلورت النتيجة عادة في مسألة التعليم العام : هل يصبح تحت نفوذ المدنيين أو نفوذ رجال الدين ؟ ومسألة الخروج على الكنيسة القائمة ، ومشكلة الزواج المدني . وغالبا ما كانت المشادة ممثلة في أشخاص حكام مستبدين . ففي السنوات الأولى المضطربة من تكوين اتحاد دول أمريكا الوسطى (\*) كان الأبطال الكبار هم فرانسيسكو موراثان في جانب الأحرار ، ورافايل كاريرا في جانب المحافظين . وفي أكوادور حيث كانت المعركة بين المحافظين والأحرار تستخدم بمرارة نادرة لم يعوز جابريل جارسيا مورينو إلا أن يحول البلاد بحماسة للكنيسة إلى كهنوتية . وفي فنشويلا كاد أنطونيو جوشان بلانكو يصل إلى الحد المقابل في الاتجاه الآخر في حربه ضد رجال الدين . وفي كولومبيا استمرت المشادة إلى وقت قريب . وفي أوروغواي تهادى جوسيه باتي إى أوردنيث المصلح الاجتماعي المشهور الذي كان رئيسا للجمهورية مرتين ، إلى أقصى الحدود بأن منع صحيفته أن تكتب أول حرف من حروف لفظ الجلالة بالحجم الكبير .

وجاء السلام الديني في بعض البلاد مبكرا عنه في أخرى . ففي ييرو استطاعت الكنيسة أن تمضى محتفظة بمعظم قوتها في الأمة . ولم يحدث أبدا في بعض الأحيان أن وصلت المشاعر في أي من الجانبين إلى درجة العنف . فكان من الممكن في مثل هذا الجو الوصول إلى تسوية معقولة ، كما حدث في تشيلي ، حيث انتهى أسقف امتاز باعتداله مع حكومة ودية إلى أساس حكيم لتعايش سلمى .

ووصل النضال بين الكنيسة والدولة إلى أقصى درجة وبيلة في المكسيك . فقد كانت ثروة الكنيسة إغراء قويا للزعماء الأحرار إلى درجة لا يمكن

(\*) Central American Union .

معها تجاهلها . والنهب الراى على الطريقة المكسيكية ، وكانت من بادی الامر معركة لا تلین من كلا الجانبین . وبلغ الطور الأول للمعركة ذروته فيما يسمى « حرب الإصلاح » ، ( ٥ ) وفى أثناءها استطاع بنيتو خواريث وانصار ليردو أن یجردوا الكنيسة من كثير من ممتلكاتها . وفى نظام حكم بورفيريو دياث الطویل استعادت الكنيسة ماديا مركزها القديم فى البلاد ، حتى إنه عندما ترك دياس المكسيك فى سنة ١٩١١ أعد الميدان لاستئناف المعركة القديمة . وكان من الأغراض الأساسية للثورة المكسيكية ضعفة قوة وتأثير الكنيسة مرة واحدة وإلى الأبد . ولهذا الغرض حولت كل ممتلكاتها إلى الأغراض الدنيوية . وحول كثير من الكنائس والأديرة إلى مؤسسات للخدمات العلمانية . وحرم الاحتفال العلنى بالصلوات الدينية . ولم یسمح لرجال الدين بلبس أثواب مهنتهم التقليدية . واتخذ كل إجراء لإذلال رجال الكنيسة . ووجه التعليم فى المدارس الحكومية بإحكام توجيهها مضادا لانجازات الكنيسة ، و « اشتراكيا » ، بما أدى فى وقت لاحق إلى إثارة العداء ، لا مع الكنيسة فحسب ، بل أيضا مع أنصارها المحافظین من طبقة الحکام السابقین وطبقة الفلاحین بمن یعبدون السيدة جوادا لوبى ( ٥٥ ) . ولفترة قام الهنود بثورات مسلحة سببت ارتباكا خطيرا فى مجرى الحياة العادية فى بعض ولايات الجمهورية .

وتجسم الشعور العنيف فى الثورة ضد الكنيسة فى دستور سنة ١٩١٧ المشهور . وفى أسلوب ملء بالازدراء تشير هذه الوثيقة العاطفية إلى « المجموعات الدينية المسماة بالكنائس » ، وتنص على أن « حرية العقيدة سوف تراعى بالتحرر الكامل من أى مبدأ دينى ، وتكون مبنية على ما وصل إليه

#### (\*) "War of the Reform"

(\*\*) أهان ظهور السيدة مريم الهندية فأصبحت لها قدسية ، وأيضاً المكان الذى ظهرت فيه السيدة جوادا لوبى . والمكان خارج مدينة المكسيك ويحج الناس إليه .

التطور العلمى من نتائج ، وستكافح الجهل وعواقبه ، ومظاهر العبودية والتعصب الدينى والتحزب ، .

وبلغت محنة الكنيسة ذروتها فى أثناء حكم كايس وكارديناس ، ولـكن فى رئاسة أفلا كاماشو تراخى الاضطهاد واستجيب لطلب الجمهور العام بأن تفتح الكنائس أبوابها من جديد للعبادة العامة . وبينما لا تزال الكنيسة المهشمة نجحاً حياة مقيدة جداً بما تتكبد من الدولة ، فمناك أخيراً قدر من الأمان الدينى فى أرضه مضطربة .

وترالكنيسة فى أمريكا اللاتينية بمرحلة انتقال ، أى فترة الاهتمام بأمير نفسها (١١) . وحدثت أمور كثيرة فى أمريكا اللاتينية وفى العالم ، ويشعر زعمائها من ذوى التفكير الحر بالحاجة إلى تلاؤمها مع الظروف الجديدة . وقد أبدت البابوية اهتماماً متزايداً بمستقبل الكنيسة فى أمريكا اللاتينية ، واعترفت بأهميتها فى العالم الكاثولىكى بتعيينها عدداً من الكاردينالات (\*) من سكان أمريكا اللاتينية . ولسنوات عدة كان الكاردينال الوحيد فى أمريكا اللاتينية هو كبير أساقفة ريودى جانيرو . والآن يوجد عشرة كاردينالات ثلاثة منهم برازيليون ؛ ذلك لأن الكنيسة البرازيلية — مع هدوتها واحتشامها واعتدالها وتعلقها فى معاملتها مع الناس والحكومات — هى ابنة روما المفضلة . أما الكنيسة المكسيكية ، وليس فيها شيء من هذه الصفات ، لكنها قامت كثيراً من أجل العقيدة ، فلم تشرف أبداً بأن وضع أحد من رجالها على رأسه قبعة الكاردينال .

وعلى الكنيسة إذا أرادت أن تنبؤ المركز الذى يلقى بها أن تبدأ أولاً فى حل مشكلات كثيرة . وإحدى هذه المشكلات اعتداء الدولة

---

(\*) فى الكنيسة الكاثوليكية ٧٠ كاردينالا ، وأول ، يكونون مجلس الكرادلة الأعلى sacred College at Rome ينتخبون البابا الجديد .

المستمر على ميادين نشاطها الروحية والخيرية . كما انقص وحدد مجال التعليم العام الذى تشرف عليه شيئا فشيئا . وتتسع مناسط الدولة المزايدة فى الأعمار فتعتمد على ميدان الكنيسة التقليدى . وتسيطر وسائل الإعلام المجمع للصحافة والراديو كأجهزة للدعاية الرسمية على الرأى العام أكثر من أى وقت مضى، وقد كان يتطلع إلى الكنيسة يسألها التوجيه . وتستميل روح التطرف فى الوطنية ، التى تتمثل فى القومية المتغالية فى كثير من الجمهوريات ، العواطف الكامنة لدى المواطن إلى درجة كبيرة حتى إن قدراً ضئيلاً من الولاء يمكن أن يترك لتعلقات أخرى شخصية .

وليس هناك نمط واحد يحكم العلاقات بين الكنيسة والدولة فى العالم الجديد . وبينما قد لا يكون التوحيد السكامل فى هذا الصدد مرغوباً فيه ، فهناك فكرة الوقتية حول التنظيمات الموجودة بين السلطات العلمانية والدينية مما أدى إلى توترات لا لزوم لها فى علاقاتها . « أما الكنيسة فى بيرو فقرع من الحكومة القومية، ورجال الدين، كسائر موظفى الدولة من الكاردينال — كبير أساقفة ليما — نزولاً إلى أقل قسيس رتبة فى الجبال ، يتناولون مرتباتهم من خزانة الدولة . وفى المكسيك تعيش الكنيسة كسجين فعلى للدولة ، يركن إليها حقيقة ، لكنها سجيننة مع ذلك . وفى البرازيل وأوروغواي تنعم الكنيسة بمطلق الحرية والخروج على الكاثوليكية ، وتمتع بحق الانفعا غير المقيد بربع ممتلكاتها . ونجاح النسوية التى توصلوا إليها فى هاتين الدولتين يوضح كيف أن الكنيسة تزدهر إلى أقصى حد، حيث تنفصل عن الدولة ولا تعتمد على الميزانية القومية فى إعانتها .

ولم يعد للكنيسة الكاثوليكية احتكار للدين فى أمريكا اللاتينية . فمن وقت إلى آخر فتحت حكومات الأحرار فى الجمهوريات الباب للطوائف الإنجيلية ، كما نص هلى مبدأ التسامح الدينى فى معظم الدساتير . وعلى الرغم من أن سلطات الكنيسة الكاثوليكية تستنكر المنافسة من قبل المذاهب



الأخرى كما لو كانت تعتمد على ملكياتها ، فقد أصبح المنافسة على امتلاك النفوس دافعا قويا للكنيسة على تنظيم نفسها إلى أحسن . وقد أحسنت المنظمات البروتستانتية صنعا في توزيع الإنجيل مكتوبا باللغات القومية (٥) ، وتحملت بعض الكنائس الإنجيلية مسئولية إنشاء المدارس الممتازة ، وكذلك المستشفيات ، ومراكز التجارب الزراعية . أما كبار القساوسة في الطوائف البروتستانتية القديمة ، والأكثر مسئولية ، فقد تعلموا من ذلك الوقت أن يدروا أمورهم بالوقار واللباقة لكي يتجنبوا الاحتكاك بأية عداوات كامنّة قد توجد في البلاد ضد المشروعات التبشيرية الأجنبية . وليس من المحتمل أن تصبح البروتستانتية عقيدة لأكثر من أقلية السكان في أى قطر من أقطار أمريكا اللاتينية . فهي تعمل في ظروف غير مواتية لأنها قدمت متأخرة في الميدان ، وليس هذا فقط ، بل أيضا لأنها دين « أجنبي » ، تمثله في أكثر الأحيان الشعوب الجرمانية القادمة من شمال أوروبا والمنتمون إليهم فيما وراء البحار . ولذلك فهي تعد شيئا تنقصه القرابة الطبيعية للزواج اللاتيني على الرغم من تجربة الهيوغينوت في فرنسا . وقد انتشرت البروتستانتية في أغلب الأحيان لعوامل مختلفة في البرازيل والمكسيك ، وهي ظاهرة لا علاقة لها بتاتا بكون أول صلاة بروتستانتية أقيمت في العالم الجديد احتفل بها في خليج ريو . فالبرازيليون غير مستمسين في مسائل الدين ويستسلمون للتجارب في العقيدة ، كما في الأقاليم الثقافية التي يزداد فيها التسلك بالدينيويات . فتخيرهم للأحسن ، من بين عوامل أخرى ، هو سبب مركزهم القريب بالنسبة إلى الفلسفة الوضعية ، فلسفة أوجست كونت ، التي تعتنقها أقلية ممتازة ، وشعبية الروحانية في مستوى اجتماعي آخر ، وجاذبية الحضارات الهندوكية بالنسبة إلى كثير جدا من البرازيليين . وقد

ساعدت الطوائف الإنجيلية في المكسيك على ملء فراغ ديني جاء نتيجة كره نحو الكنيسة القديمة في أثناء الثورة .

والكنيسة في حاجة إلى رفع مستويات رجال الدين . وهذا يستدعي إصلاحات في إدارة ومنهاج مدارس اللاهوت وتحييب الكهنوتية للشبان ذوى الكفاية والأخلاق الذين يتخبرون منها أخرى لحياتهم العملية . وعلى الرغم من أنه من المرغوب فيه أن يكون هناك دائما مدخر من القسس الأجانب لكي تصان الكنائس القومية من الانحدار إلى أخطاء الإقليمية ، فمن صالح الكنيسة أن تقوى العنصر المحلي من الكهنوت وتقدم للقيادة والمسئولية أكبر . وكان استدعاء جماعة من الآباء مارينول من الولايات المتحدة قوة كبيرة لتحسين نوع الأداء الديني ، وخصوصا في الجهات النائية التي تهملها أحيانا السلطات الدينية ، ويتجنبها القساوسة الكبار بصفة عامة .

ويمثل عدم كثرات الذكور من السكان بالدين مشكلة خطيرة للكنيسة . وهذه بصفة خاصة حقيقة بين ما يسمى طبقات المجتمع الوسطى والعليا ، أى بين القادة الطبيعيين للمجتمع . وقد يرجع بعض هذه الظاهرة إلى الدعوة العسكرية للمادية ومهاجمها العقيمة أو إلى موقف هيباب من التشكك والتلبلل . والجزء الأكبر منها عبارة عن مجرد قوة استمرار ، أو عدم وجود لذة في الأشياء الروحية . وفي بعض الأرجاء قد تنتشر فكرة أن الكنيسة موجودة فقط للنساء وتعمل لمتنعهن أن يقلتن من يدها . وعلى الكنيسة أن تكون مرنة إلى درجة كافية في ادعائها رعاية المطالب الدينية لجميع مستويات السكان — الطلبة الذين قد يعدون أنفسهم فوق حاجة الدين ، والعمال الذين هم عرضة للدعاية العكسية اللادينية للمنظمات اليسارية ، والهنود الذين لم يعتنقوا المسيحية حقيقة ويعيشون في دنيا متوسطة بين العقيدة والخيال . وهناك مجموعة آراء علمانية لها أثرها ولها دراية حاذقة بهذه المشكلة ، وتعمل من الخارج لإحياء الكنيسة من جديد . وفي هذه الأثناء يوجد فراغ روحي ضخم لا يستطيع ملأه سوى كنيسة متقطعة .

## هوامش الفصل السابع

(١) في فترات كثيرة من العصور الوسطى كان الاسبانيون متسامحين الى درجة فريدة ، ولفترات طويلة بين الحروب عاشوا في وفاق مع المسلمين في شبه الجزيرة . وفي أثناء حكم الفونسو التاسع ملك قشتالة كان المسيحيون والمسلمون واليهود يستخدمون نفس الكنيسة في طليطلة للاحتفال بطقوسهم الدينية وطبقا لروايه روجر مريمان ، « من المؤكد أن التعصب لم يكن صفة طبيعية متوطنة » ، وقال ان الملوك الكاثوليك وخاصة الملكة ، هم الذين كانوا يحرضون على التعصب بين أفراد الأمة » .

«The Rise of the Spanish Empire In the Old world and In the New» (4 vols., New York, 1918-34), I, 87-88. 90: III. 402-3.

(٢) أشهر حجة عن محكمة التفتيش كان تشارلز هنري لى وأشهر مؤلفاته هي :

«History of the Inquisition in the Middle Ages» (3 vols. New York and London, 1888).

«History of the Inquisition of Spain» (4 vols., New York, 1906-7).

«The Inquisition in the Spanish Dependencies» (New York, 1908).

وكتب خوسيه توربيو ميدينا أيضا عددا من الدراسات العلمية الخاصة بمحكمة التفتيش في أرجاء مختلفة من العالم الجديد .

(٣) القصة القصيرة التي كتبها ادجار ألن بو بعنوان « الحفرة والبندول » «The Pit and the Pendulum» تحكى عن اللحظات الأخيرة لمحكمة التفتيش الاسبانية .

(٤) كتب كدر عن محكمة التفتيش البرتغالية يقول: « على الرغم من أن البرتغاليين أكثر تسامحا من الاسبانيين ، فان حكومة البرتغال تمسكت بذلك الجهاز الملعون الذي استخدمه التعصب الرومانى حتى سنة ١٨٢١ » .

James C. Fletcher and D. P. Kidder, «Brazil and the Brazilians Portrayed in Historical and Descriptive Sketches» (Boston. 1857). P 52

(٥) عن الحصيلة النهائية للأديان الأصلية أنظر بيانا عن عبادة الملك نيثاهو الكويونل : « الله العظيم خالق كل شيء خاف ومجهول » كما يرويها فرناندو دي ألفا اختلخوشتل من الأراتقة الذين تحولوا الى الاسبانية في

Harriet de Onis ed., «The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature» (New York, 1948), pp. 54 - 59.

وعر ديانة التوحيد عند الانكا كتب جارسيلاسو يقول : « وصل الانكا ملوك بيرو في النور الطبيعي الذي وهبهم الله الى ادراك صانع لجميع الأشياء أسموه باشاكا ماك ومعناه خالق الكون وحافظه » .

Garcilaso Inca de la Vega, «Comentarios Reales de los Incas», II, 67.

وايضا رد آتاهوالبا على خطاب الأب فالفيردي بخصوص الثالوث في كاخاماركا : « الاول هو الله ، ثلاثة وواحد ، وينتج عن هذا أربعة ، وتسميها خالق الكون ، ويطريق المصادفة هو نفس ما نسميه باشا كاماك - فيراكوشا ٠٠٠ نحن نعبد باشا كاماك فقط كاله أعظم ، والشمس كاله أصغر ، والقمر كأخت لها وزوجة » .

Garcilaso, «Historia General del Peru», I, 71.

أنظر أيضا

Phillip Ainsworth Means, in «The Maya and their Neighbors», P. 439.

(٦) قال خوان وأيووا ان الهنود لم يذهبوا الى الكنيسة الا خوفا من العقاب . وقد صرحا بأنهم لم يتعلموا القواعد الأساسية للدين . ومع ذلك فقد عرفا بعض استثناءات : « هناك كثير من الناس الذين يستوون بثقا تهم العقلية وطهارة أحوالهم ورقة ضميرهم مع أكثر الناس حكمة وحرصا » .

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, «Noticias Secretas de América» (2 vols., Madrid, 1918), I, 410.

« لم يحدث أبدا أن مثل الهنود في الواقع السروح والجمال اللذين تمتاز بهما الديانة المسيحية » .

Herbert Ingram Priestley, «The Coming of the White Man 1492 - 1848» (New York, 1929), P. 106.

ويقول العالم البيروني لويس فالسكارسل : « على الرغم من أن الهندى عمد ، وبالتالي أدمج شكليا فى الكنيسة ، فإنه لم يكن أبدا كاثوليكيا صميما ، فهو لم يعرف أبدا أسرار العقيدة ، كما لم يستطع أبدا أن يتعدى حدود الشكليات الصرفة للعبادة » .  
«Ruta Cultural del Perú (Mexico, D. F., 1945), P. ١01.

أنظر أيضا تعليقات جورج كوبلر على عملية تحويل شعب الكيتشوا الى المسيحية فى

«Handbook of South American Indians» (5 vols., Washington D. C., 1946 seq.), II, 400 - 3.

(٧) « كان للهنود عدد لا يحصى من الاحتفالات والعبادات الأخرى التى كانت تشبه شريعة موسى ، وبعضها كان يشبه ما يمارسه العرب ، والبعض كان أقرب سبها بما نزل به الانجيل » .

José de Acosta, «The Natural and Moral History of the Indies» (2 vols., tr. from the Spanish, London, 1880; originally published in 1590), II, 369.

ومن بين هذه العادات والاحتفالات المتناظرة ذبح الحيوانات قربانا ، وإطلاق البخور ، والاعتراف ، والطهارة بالماء لمحو الذنب ، وقيام القسيس بمراسيم الزواج ، وأديرة الراهبات .

(٨) كتب جيمس برايس عن أريكيبا يقول : « هناك عشرات من كنائس وأديرة أخرى أكثر بكثير مما يكفى مدينة سكانها ٣٥٠٠٠ نسمة وكان رنين أجراسها يسمع طيلة اليوم ورجال الدين بملابسهم يملأون الشوارع وفى كل مكان . وما هو أجدر بالملاحظة أن الرجال ، وكذلك النساء ، كاثوليك محترفون ، فهم يحضرون الكنيسة بانتظام ، وهذه ظاهرة نادرة فى معظم أرجاء أمريكا الجنوبية . وكانت المدينة قلعة اكليركية ٠٠٠ ومنذ قرنين ٠٠٠ كان ثلث مجموع السكان ، على الأرجح ، قسيسين ورهبانا وراهبات ، وكانت سيطرة الكنيسة لا تنازع »

(٩) قال برنال دياث عن الأب موتولينيا : « كل ما ناله من الصدقات كان يوزعه بنفس الطريقة وكثيرا ما كان يفتقر الى اللقمة يقوم بها أوده ، وكان دائما يمشى حافى القدمين فى ثياب بالية ، يعظ الأهالى دواما ، شديد الألفة بينهم » .

«The True History of the Conquest of Mexico». P 430

وبرجع الى طبعة سنة ١٩٢٧ ترجمة كيتنج نشرها

Mc Bride and Company.

وعن رهبان الارساليات أنظر

Fernando de los Rios, op. cit., P. 57.

(١٠) كتب رتشارد بيرتن المستشرق المشهور الذى عمل لفترة ضابطا بالقنصلية البريطانية في البرازيل يقول : « كثير ممن نالوا قسما وافرا من التعليم ، أن لم يكونوا من العاميين ، يحبذون زواج رجال الدين ٠٠٠ ولا يعترض أتباع الأبروشية كثيرا على قسيس يتخذ له زوجة فيجعل من نفسه رجلا محصنا . فالمناخ لا يساعد كثيرا على العفة »

«The Highlands of the Brazil» (2 vols., London, 1869). : 406.

أنظر أيضا

Fletcher and Kidder, op. cit., P. 381,

وكتب وليم ستيفنسن عن قسيس قرية قابلة في إحدى قرى الأنديز يقول : « شكنا الخورى بمرارة من حاجته الى حياة اجتماعية في منفاه ٠٠٠ وقال لو أن البابا نفسه كان خورى قرية أوكروس لرغب في أن تكون له زوجة تلاطفه وتجعله هاشا باشا »

Op. cit., II, 27.

(١١) عن الأحوال الدينية المعاصرة والمشكلات في جمهوريات أمريكا اللاتينية أنظر

Philip Guedalla and others, «The Republics of South America» (a report by the Royal Institute of International Affairs. London, New York, and Toronto, 1937), pp. 244-264.

وعن انطباعات علمانى كاثوليكي عن حاجات الكنيسة في أمريكا اللاتينية أنظر

Joseph F. Privitera, «The Latin American Front» (Milwaukee, 1945), pp. 33 ff.

## الفصل الثامن المرأة



لا يعرف أحد من هي أول امرأة أوروبية قدمت إلى العالم الجديد، ولكن طيفها كان يتجول على الساحل المداري في جزر الكاريبي حتى ولا السيد موديث بلاتا(\*) كان يعرف من هي. ومن المرجح أنها كانت أندلسية، ويبدو أنها قدمت مع أسطول الإمدادات الذي كان يقوده انطونيودي فلورس سنة ١٤٩٤ أي بعد سنتين من وصول الأميرال إلى الجزر. ولربما لم تكن من الأهمية بقدر كاف يسمح للمؤرخين بأن يولوها اهتماما. وربما كان الإسبانيون ينتظرون من نسايتهم هذا القدر، ولم يؤمنوا بأن قدوم زوجة فلان(\*\*) هذه إلى الهند الغربية أخبار تستحق التمجيل للأجيال القادمة. وعلى كل حال فإن

(\*) مصنف الملفات الخاصة بالهند الغربية أخيراً .

(\*\*) "Fulana de Taj"

إيزابيلا، المستعمرة التي خرجت منها من السفينة السكرية إلى عذوبة «بحر مورداشروق» في هسبانيولا قد حملت اسم امرأة مشهورة جداً . ومهما قيل عن شخصيتها ، ومهما تكن منزلتها ، فقد كانت امرأة تستحق الذكر وسامية الأخلاق ، وتستحق من إسبانيا والتاريخ أكثر مما كان لها من نصيب .

### المرأة الهندية

وقبل أن تقدم إلى العالم الجديد كان هناك نساء أخريات ، ملايين ممنهن وكن جميعاً هنديات — من مايا ، والسكريب . والجواراني ، والكيشوا ، وهسكذا ، من عالم الشعوب البرونزية ، وكن عذراوات وثيبات ، أمهات وزوجات ، عاهرات وراهبات ، إماء وزعيمات وإمبراطورات ، كل الأعمال التي كانت النسوة يقمن بها في أي مكان . وربما كان من بينهن المحاربات اللاتي ذكرهن رجال أوريانا واللاتي كان استقلاهن الذي كن يحمينه بالقتال (مما يروق في عين الوجودية الأنسة سيمون دي بوفوار) كن لطيفات أو مفترسات «رحيمات أو قاسيات القلب ، متواضعات أو متكبرات ، محبات أو بملاً الحقد قلوبهن — كأية امرأة أو كلهن . وكان هناك تنوع كبير في مظهرهن وعاداتهن ، في مركزهن في مجتمعهن الأصلي ، وفي علاقاتهن برجال جنسهن . وكان التجانس في الحقيقة أقل بكثير بينهم منه بين نساء إسبانيا .

وفي بعض الأحيان كن أحسن قليلاً من الحيوانات المستأنسة — حيوانات الحمل التي انقلبت متوحشة من جراء العمل الذي لا ينتهي ومتطلبات عيشة حرجة في مجتمع تهدده المجاعة أو الحرب على الدوام .



ولذا فإن كل ما كانت تأمل فيه المرأة هو أن تحفظ أفراد الأسرة أحياء ومتناسكين بشكل من الأشكال . فإذا كانت تحس بعاطفة ما فلا بد أن يكون هذا الإحساس نوعا من القرابة العنصرية إلى أمومة مشتركة من الحيوانات الأثني التي تحوم حولها في الغابة . وقد يكون لقبيلة ما قدر محدود من الطعام والأمان في بعض الأحيان . ولذلك تشارك في الفائض ويكون نصيبها أكبر من أنصبة أخواتها اللاتي أخنى عليها الدهر . وكانت هناك شعوب يبدو أن نساءها قد وجدن من الحياة أكثر من الكفاح والبؤس كاللاني يروى عنهن هيريرا قوله إن الفاتحين قابلوهم في كولومبيا . فقد كن ذوات ملاح فاتحة ، ، ويقول : «ولسن ذوات سحنة زائدة الدكنة، ولهن رشافة تفوق رشافة النساء الأخريات في العالم الجديد .... ويضعن أكاليل الورد في شعرهن وزهرات صناعية مصنوعة من القطن يصبغنها بشتى الألوان » . ولكن هذا الإسباني يلاحظ : «أنهن شعب منحل لأنهن يغنين ويرقصن ويكفذن كأي شخص آخر في الهند الغربية » . وكتب الفاتح الذي لم يعرف اسمه عن الأزاتقة : « ليس هناك شعب في العالم ينظر إلى النساء نظرة أقل احتراماً منهم . لأنهم لا يخبرون أبداً بما يعملون حتى ولو عرفوا أنهم قد يفيدون من ذلك بأخبارهن » . ومع ذلك ففي كولومبيا يقال إن هناك قبيلة كانت نساؤها يتكلمن لغة خاصة بهن ، وكن يخفينها عن رجالهن . وكانت هناك قبائل فيها الأعمال التقليدية المخصصة لكل جنس معكوسة ، فيما عدا الناحية البيولوجية . وكانت النساء شخصيات هامة بحقوقهن الذاتية ، وفي بعض الأحيان أكثر أهمية من رجالهن الذين كانوا يمارسون الأعمال الشاقة التي تتطلبها القبيلة وسادت نظم الأمومة الحقيقية حيث كانت النساء يمارسن السيادة والرجال هم الخاضعين ، كما كانت الحال حول بحيرة نيكاراغوا . فمناك كانت النساء يذلن أزواجهن وكثيراً ما بضربتهم .

ولما برزت رؤيا الدورادو من مادة الفتح الغنية ، ظهرت أصول خرافة

المحاربات اللأئي حارين الإسبانيين مع رجالهن جنباً إلى جنب في بعض الأحيان ، وربما وحدهن في أحيان أخرى . وقبل أن ينزل أوربانا بتانا في نهر مارانيون واشتبك مع بعض نسوة شكسات كن يصوبن السهام نحو رجاله ، كان الإسبانيون قد قابلوا مثلهن بين الكاريب وشعوب أخرى حول الكاريب . وبعضهن كن ثابتات العزم وماهرات في استخدام القوس كأي من الرجال . و يروى هيريرا قصة البنت الكاريبية في المنطقة المجاورة لكارتاخينا التي قتلت ثمانية من الإسبانيين في جماعة نزلت إلى الساحل قبل أن يتغلبوا عليها ، ومعركة أخرى في نيوجرافاد حيث خرجت شابة هندية من كرخ وجرحت أربعة إسبانيين بالسهم . وكتب أوفيدو عن هتود إقليم أورابا يقول : « إن النساء يذهبن إلى المعارك مع رجالهن ، وأيضاً عند ما يكن سيدات البلاد ويحكمن ويقدن شعبهن » . وقال أيضاً إن نقطة النساء (٥) وجزيرة المحاربات (٥\*) أمام ساحل يوكاتان أسماهما المستكشفون الأوائل باسميهما « لأنهم لاحظوا أن نساء تلك الجزر كن راميات بالسهم وحارن بالاقواس كالرجال » . ويتكلم أوفيدو عن زعيمة هندية شابة اعتقلها مع عشرين امرأة أخرى ورجل بالقرب من ساتنمارتا . وماتت سجيناً ، ويقول : « وفي رأي أنها ماتت من الغضب الذي ساورها بسبب القبض عليها ، على الرغم من أنها كانت تلقى معاملة طيبة » وكانت هذه الزعيمة (٥\*\*) وسيمة وبشرتها فاتحة لدرجة أنها بدت كما لو كانت امرأة من قشتالة .

واختلفت الشعوب الهندية في العالم الجديد كثيراً في مستويات سلوكهم الجنسي . وكما كان طبيعياً ، نظر الإسبانيون إلى عادات الهنود بالإنظار

Punta de las mujeres (\*)  
Isia de Las Amazonas (\*\*)  
Cacica (\*\*\*)

الذى كانوا يرون به سلوكهم هم ووفقا للمبادئ المسيحية ، كما فعل بالبو ، وقد كان شخصا رحيما بوجه عام ، عندما أعدم بعض الهنود لممارستهم الشذوذ الجنسي(\*) . واتسمت بعض القبائل بالصرامة ، يدققون في سلوكهم وعاداتهم . فثلاثا شعب كوماننا في الجهات الساحلية الشمالية للقارة قيل إنهم كانوا يقدرون البكارة عند البنت تقديرا ضئيلا . وقد يكون الزنا إساءة كبرى للمجتمع ، أو فقط مناسبة لمزاح العصور الوسطى . وفي أحد أرجاء المكسيك ، في رواية لهيريرا ، كانت مرتكبات الخطيئة يقدمن على المائدة ويؤكلن . وفي أواسكا وميشتيكا كانت عقوبة الموت في بعض الأحيان تخفف إلى قطع الأذنين أو الأنف . وكانت بعض الشعوب تمارس الزواج بامرأة واحدة كبدا ، وبين شعوب أخرى كان إشباع الغرائز بالزواج لأكثر من زوجة واحدة محذودا فقط باعتبارها اقتصادية أو اعتبارات لا أخلاقية أخرى مثل السن ، والقصور الذاتي ، وقانون العرض والطلب ، والحب . فثلاثا في أحد أرجاء شمال القارة(\*\*) وفقا لرواية أوفيدو ، كان الهندي يمتلك كم يشاء من الزوجات ، وكن يعشن جميعهن في نفس المنزل دون منازعات أو غيره . وبين قبائل الأورابا الهندية كانت العادة أن تستبدل الزوجات بوسائل إغراء خاصة في بعض الأحيان . ويقول أوفيدو إن الشخص الذى يأخذ المرأة الأكبر في السن في العملية كان يعد الأرباح في المساومة ، فقد كانت أرجح عقلا ، وستقدم له خدمة أحسن ، وأيضا لأن الغيرة حولها ستكون أقل ، .

واختلفت المرأة الهندية كفرد اختلافا كثيرا في درجة جاذبيتها في كل قبيلة ، ومن شعب إلى شعب . وكان مدى الانعطاف نحوها عرضة لأن يصبح عاما ، وبصفة خاصة في أراضى الإنكا والناهاوتل ، ففي كل منهما

(\*) Sodomy . نسبة إلى سدوم بلدة لوط.

(\*\*) Tierra Firme .

كان هناك أرسقراطية نسائية امتاز أفرادها بالجمال والمقام عن سائر النساء العاديات في البلاد . وفي ييرو كانت العضوية تغني جزئيا على أن يكون الميلاد بين أهل بيت من بيوت الإنكا وجزئيا على الاختيار من بين شعب التاهنتنسويو . وكان الإسبانيون يسمون نساء الطبقة الممتازة من الإنكا « الأميرات » (هـ) وباللق الذي اكتسبته بالقرية والآداب الممتازة كن « سيدات فضليات » ، فإذا عمدت إحداهن فإنها تصبح « دونيا » كأي شريف من أشرف قشتالة ، وكانت تقبل في المجتمع على هذا الوضع . ويطور من الانتخاب الطبيعي على فترة طويلة من الزمن ظهرت طبقة ميزها الإسبانيون على سائر الطبقات لأنها أطول قامة ، وأبيض بشرة ، وأجمل شكلا في الجملة ، وأكثر جاذبية عن سائر نساء الكيشوا .

وقال بدرو بشارو الذي كان سكرتيرا للفتح — دون ما قرابة له — عن نساء الإنكا : « كانت بنات ملوك هذه الأرض ، وكن يسمين « المختارات » ، يطلبن كثيرا للزواج . وكن يحملن على الأكتاف ( أكتاف الرجال ) ، البعض في محفات والبعض في أراجيح . . . وكانت هذه النساء يعتنى بخدمن كثيرين ويخشن ، كما كن رقيقات الحاشية . وكن ينلن ما يرغبن فيه ويحتجن إليه . . . وكان بين السيدات فئة طويلات القامة ، لا من بنات الملوك ، بل من بين بنات الأورينخوني أقربائهن . . . وهؤلاء السيدات نظيفات جدا وأنيفات ، ويرسلن شعرهن الأسود طويلا على أكتافهن . وكن يعددن جميلات ، وتكاد جميع بنات الأمراء الأورينخوني يكن هكذا . أما نساء الهنود من قبائل الجوانكا والشاشاپويا والكانياري فكان النساء العاديات ، ومعظمهن كن مليحات . أما الباقي من نساء هذه المملكة فكان بدينات ، لا جميلات ولا دميات ، ولكن متوسطات في مظهرهن .

أما الأهالي في مملكة بيرو فكانوا سمر اللون ، وكان النبلاء منهم والسيدات الفضليات أبيض لونا من «الإسبانيين» .

ولم يتردد الإسبانئون ، بسبب عدم وجود نساء من نفس جنسهم ، في أن يتزوجوا من السيدات الفضليات ، إما كزوجات وإما برابطة أكثر تحوراً من الرسميات وأقل التزامات ، وإن كانت في بعض الأحيان باقية كالزواج . وفي كلتا الحالتين وجدوا في هؤلاء الطريقات رفيقات دربن على الفضائل العائلية ، وكن ، خلاف ذلك ، قد اكتسبن المواهب نتيجة الظروف التي ولدن وتعلمن فيها . وتجهمت الكنيسة لإزاء هذا التعايش غير المقدس ، وشجعت وسهلت زواج الإسبانين بالهنديات وفقاً لطقوسها . وبمرور الوقت اختفت «الفضليات» كطبقة منفصلة . وقدمت نساء أكثر من إسبانيا . وكانت النتيجة أن أصبح الزواج بين الإسبانين والهنديات أندر ، ولو أن نظام المحظيات المختلط قد استمر طوال عصر الاستعمار .

وفي الطرف الآخر من عالم النساء في المكسيك يروى ساهاجون تخزين الأبوين من طبقة النبلاء لابنتهما عند بلوغها «سن الرشد» ، فيتناوب كل منهما بدوره يحذرانها «بكلمات رقيقة جانبية» ، ويبينان لها ما قد تنتظره في هذه الحياة وما تنتظره الحياة من مثل حسنها ومركزها وما تدين به من الواجبات نحو أسلافها وأسررتها . فهي ليست صورة وردية تلك التي أخذها أبوها وأمها من العالم الذي سوف تقدم إليه . يقول أبوها : «إن هذا العالم مملوء بالشور والفواجع . . لا يجد المرء فيه مسرة حقيقية أو راحة من عناء ، ولكن فيه مصاعب ومصائب وعناء إلى حد الإرهاق ، فيه بكاء وأحزان وشقاء . . ، وايس طريق الحياة صعباً إلى حد قليل ، ولكنه صعب إلى حد رهيب» . وعليها كآبة امرأة أخرى من الشعب أن تتعلم فن النقش على القماش . وتجبرها أمها أن من واجبها أن تتحلّى بالمظهر ، والأخلاق ،

والسلوك والكلام ، ووقار التصرف ، مما يليق بسيدة أصيلة . وواجب ان يكون ملابسها عنوانا على الذوق السليم والحشمة ، وثيابها لا «غريب الشكل» ولا خاليا من الجمال ، ولكن لا نقا بسيدة من مقامها ، وألا تحمل شفتيها بالأحمر ولا تدهن وجهها بطلاء ، لأن هذا عنوان « المرأة الآئمة » ، وفوق كل شيء عليها أن ترعى مبدأ العفة والولاء لزوجها .

وفي وقارهما وعزة نفسيهما شيء من الصفات الرومانية القديمة في هذه التحذيرات الصادرة من أب وأم يساورهما القلق حول « ابنتهما البكرية المحبوبة » . فهي تعبير عن روح الشعب الذي نزح بعيداً على طول الطريق إلى ما قد يسميه فاتحو بلادهم من الأوروبيين حضارة . وهي أيضا تعبير عن الأثقال العنيفة التي توجد في مجتمع حربي لا يزال يعيش بالحرب ولا يعرف سلاما . ولذلك فهناك أسي عميق وتشاؤم حولها . قال المؤرخ هيريرا : « أسدى السيدات الفضليات نصائح كثيرة إلى بناتهن يذكرنهن أنهن حملن وريدينهن لكي يخدمن الآلهة خدمة جيدة . وواجب عليهن أن يكن نظيفات ونشيطات ويدرن أمورهن بحذرو وترتيب وحسن وأشياء أخرى بديعة لا تمت إلى المتوحشين » .

### المرأة الإسبانية في الفتح

كانت نساء إسبانيا لاثقات جدا ليصـبحن أمهات وزوجات للفاتحين . ومن « الصفات المميزة » التي تحلين بها كما يرويها هافيلوك إليس ، الشجاعة ومثانة الخلق و ثبات عواطفهن . فلا هن مغريات كما كانت كارمن ولا هن يوطأن بالأقدام « متعلقات بأزواجهن » كما يراهن من هم خارج البلاد .

ولا هن حادات المزاج ولا طائشات ، بل بالعكس يدفعن المرء إلى أن

يرى فيهن رباطة الجأش ورصانة الخلق وهدوء تعبيرات الوجه والاقتصاد في الحركات التي لا داعي لها ، والكبح المظهرى الذى يخفى العاطفة الشديدة الملتهبة في أعماقهن . فإذا تصادف وبدت كما لو كانت تعيش في حياة الحریم المنعزلة فليس مرجع ذلك أساسا بسبب غيرة زوجها المغربية بقدر ما هي نتيجة للاضطراب الطويل الذى طرأ على التاريخ الإسباني والذى جعل من الخطر عليها أن تعيش خارج البيوت التي تشبه القلاع . وفي العصور الوسطى قلما أدت منجاتها من الأخطار التي كانت تحدث خارج الأسوار في تلك الأوقات إلى أن تكسبها صفة النعومة ، لأن تركيبها الجسمي كان شديدا ، وقد بقيت العادة بعد زوال نفعها ، خصوصا بالنسبة إلى نساء الطبقة الوسطى ، ومع ذلك فإن الجماعات الغفيرة من النساء الإسبانيات عشن دائما من غير الأسوار ونجين الجراءة والاستقلال والاعتماد على النفس بما ميزهن منذ أيام روما .

ويضع هافيلوك إليس النساء الإسبانيات في مركز أرقى من الرجال ، لأن الحرب والهجرة إلى العالم الجديد أزالا الجزء الأكبر من العنصر الرجولى من بين السكان الذكور . ويقول المثل القديم : « إن قشتالة تصنع الرجال وتفقدهم » ، ولكن الحوادث لم تأخذ مكوسها من أعدادها وقوتها بقدر ما فعلت برجال إسبانيا . ولذلك فعندما انتهت الحروب كانت أكثر استعداداً لتحمل مسئولياتها عن الرجال الذين تخلفوا . بل في الحقيقة إنها تحملت بعض أعبائهم . وقد بلغت ذروتها في فترة الفتح ، إذ لم يسبق لها من قبل ، ولا منذ ذلك التاريخ ، أن قامت بدورها بنجاح وعلى مسرح بطولى كما فعلت آنذاك . فقد ارتفعت إلى التحدى السامى مع الزمن كقرين ورفيق لجيل من الرجال المثاليين (\*) .

ولم تكن المرأة الإسبانية بالعشيقة السهلة أو المتقلبة ، فقد تفرقت  
كأمر ورثة بيت أكثر منها عاشقة . فالحب لديها له متطلبات لا تستطيعها ،  
ويستهلكها فوق طاقتها ليكون مجرد مغامرة خيالية أو بيولوجية ،  
ياحساسات عاطفية أو جسمية كمكافأة له ليس إلا . فلم تكن سهلة المنال إلا  
بعد فترة طويلة من الخطبة ، فلا يحرك لها ساكنا ، خاطب مندفع الشعور  
ولكنها تظل سيدة لأى موقف غرامى . وعلى سبيل المقارنة فإن كازانوفا  
بما له من تاريخ دولى كزبر للفساد كان من المحتمل أن يصرف من الوقت  
فى خطبة دونيا اجناسيا المدريدية ( \* ) المخلصة فترة أطول من أى من  
انتصاراته .

وتتخذ المرأة الإسبانية حبها مسألة جديدة ، والويل للرجل الذى قد  
يتخذها باستخفاف أو استهتار . وعلى الرغم من أن لها اليد العليا فى فترة  
الخطبة فليس هذا مقدمة لسيطرتها مدى الحياة على شريك حياتها . ووفقا  
للقول الإسباني الصميم الذى تفوه به سلفادور دى مادارياجا : « إن كلا من  
الجنسين يلتزم بالأعمال الأصلية والطبيعية ... ومع أن النساء الإسبانيات  
عنيدات ومقتدرات وفشيطات — وغالبا ما يتصفن بالصفات الثلاث  
جميعا — فإنهن يلقبن بحكم العادة ، بل بحكم الطبيعة ، سيطرة الرجال . وليس  
فى هذا كله إلا الأمانة الغريزية للقوانين الطبيعية » . ولاهى ترغب فى أن تقضى  
حياتها تعمل الأشياء التى تعارف الناس على أن تكون من اختصاصات  
الرجال . فى « حياة عملية » لاصلة لها بالرجل — الرجل المحبوب ( \*\* ) —  
تشعر بأنها خارج عنصرها وغير سعيدة ( ٢ ) وفى ذخيرة الأمثال الإسبانية الغنية  
أقوال مأثورة تعبر فى اصطلاحات دنيوية عن التقسيم التقليدى لمسئولية  
كل من الرجل والمرأة فى الحياة الإسبانية .

---

Madrilena ( \*\* )

hombre querido ( \*\* )



وقد تمت النساء الإسبانيات في أعداد ضخمة قبل أن يتم الفتح بوقت طويل . وجاء بعضهم مع أزواجهن أو كن يلحقن بهم ، وبعضهن جئن ليجدن أزواجهن أو عشاقا لمن ليس لهم نساء ، والبعض الآخر جئن لمجرد المغامرة كما جاء الرجال . ومهما يكن الغرض أو الملابس التي من أجلها قدمن فقد كن يتصفن بالشجاعة لأن الأخطار التي واجهنها كانت عظيمة وكانت هناك صنوف من الحرمان يتحملنها .

وأحيانا لم يكن لديهن الكثير ليقلنّه خاصا بذلك ، لأن أزواجهن أرسلوهن زرافات إلى الهند الغربية طوعا أو كرها لأنهم اضطروا إلى ذلك . فبحافز من الكنيسة ، وقد كان لها يد عليا في إسبانيا ، كان موقف الدولة الإسبانية حازما تجاه الزواج . فقد كان يقلق بالها ما كان يحدث من الإسبانين مع النساء الوطنيات في العالم الجديد . فمثلا عند ما تسلم الحاكم أوباندو المستعمرة الجديدة في سانتو دومينجو وجد أن الثلاثمائة رجل الذين تركهم كوليبرس كانوا يعيشون جهارا مع بنات التايانو . وانتشرت العادة مع الفتح وتواصلت تماما قبل أن يحل دولاب البيروقراطية الإمبراطورية ليضع القوانين اللازمة لضبطها .

واعتقد التاج الإسباني ، أو بعبارة أخرى مجلس الهند الغربية ، أن حضور الزوجات من شبه الجزيرة في العالم الجديد قد يكون ذا تأثير مقيد لمشاعر الفاتحين المنطلقة والثائرة . وكذلك تشكك في ولاء المولدين الذين قد يولدون من إسباني وهندي ، وفضل أن يكون هناك أطفال جميعهم نتاج أب وأم إسبانيين بقدر الإمكان . وبعد حكم الملكة إيزابلا ، وهى نفسها أنموذج لفضائل ربة البيت ، وربما كان لديها أسباب وجيبة في عدم وثوقها بإخلاص زوجها ، ولذا فبارتباط ذهنى ارتأبت في ثبات كل الرجال ، أثار رجال الكنيسة وحدهم مسألة المستوى الأخلاقى للتهجين بلا تمييز . وفى سنة ١٥٣٩ أعلن قانون تحت عنوان : " لا يسمح للنساء غير المتزوجات بالسفر

( إلى الهند الغربية ) بدون ترخيص من الملك ، وعلى المتزوجات ان يصبحن أزواجهن . . ولا بد أن كان هناك تهرب من القانون لأنه أعلن مرة أخرى بعد ست وثلاثين سنة . فإذا أرسل زوج في المستعمرات في طلب زوجته فإنها تحتاج فقط إلى إذن بسيط من « بيت التجارة » أو بيت الهند . وإذا عاد هو إلى إسبانيا ليرجع بها فعليه أن يحصل على ترخيص ملكي . وكان يطلب من نواب الملك والموظفين الآخرين أن يأخذوا زوجاتهم معهم عندما يخرجون لتسلم مناصبهم للمرة الأولى . وكان بعض الفاتحين الذين بدوا في غير عجلة لتصبحهم زوجاتهم يؤنبون بعنف من الموظفين المملوكين . وفي هذه الظروف كثيرا ما كانت الانفصالات الزوجية تستمر وقتاً طويلاً جداً . وهكذا رجع فرانسيسكو دي أجيري فاتح تشيلي الباحث عن المشاغب إلى زوجته وبعض أطفاله الراشدين بعد مضي ثلاث وعشرين سنة . وفي هذه الفترة أنجب وأقر بمسؤوليته عن خمسين طفلاً مولداً على الأقل ، وعندما زار فالديا ، ضابطه الأعلى رتبة ، يبرو في أثناء الحروب الأهلية أمره بدرو دي لا جاسكا ، الذي كان يمثل الملك في تلك البلاد ، أن يضع حداً لاتصاله بإينيس سواريث وأن يستدعى زوجته لتعيش معه من جديد في تشيلي . وقد نفذ فالديا ما كلف به من الاتفاقية . غير أن الأروكاريان قتلوه في كمين في توكابل بينما كانت زوجته في طريقها بعد خروجها من إسبانيا .

وكانت إينيس سواريث ، مثل كثير من الفاتحين ، من استريمادورا (\*) وفي سنة ١٥٣٧ خرجت إلى شمال القارة ، أو الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية ، بحثاً عن زوجها ، وسافرت مع ابنة أخ لها ، شابة يختلف اسمها من التاريخ في هذا الوقت « ومن فنشويلا مضت إينيس في طريقها إلى يبرو

وهذا في حد ذاته عمل ضخم لامرأة منفردة في تلك الاوقات . وفي بيرو علمت أن زوجها قد مات ، ولكن بدلا من أن تعود إلى إسبانيا استقرت في بقعة من الأرض بالقرب من كاشكو تنظر التطورات ، وجاءت التطورات في صورة يدودي فالديا ، وكان قد اشترك مؤخراً في انتصار الإخوة بفارو على حزب الماجرو . وأهم من ذلك فقد قدر له أن يكون فاتح تشيلي . وكانت له زوجة في إسبانيا ، ولكن إسبانيا كانت على منأى ، فإذا كان في تشيلي فهي أكثر بعداً . ولذلك سار فالديا تصحبه الأرملة الشابة من استريمادورا بينما كان يرسم خطة لإغاراته الطويلة على أروكو . وعندما ترك كاشكو متوجها إلى وادي تشيلي مع فرقته الصغيرة كانت اينيس سواريث تمتطي جوادها إلى جانبه .

اخترقت الجبال العالية ، وقطعت مسافات طويلة في أرجاء صحراوية مع المائة والخمسين الحالدين حتى وصلوا إلى التل الذي قدر لساتياجو أن تنشأ فوقه . وظلت عشر سنوات رفيقة لفالديا . واشتركت في جميع المصاعب التي انتابت المستعمرة المحاصرة . وفي الحروب ضد الأروكاريان المتوحشين كانت تهتم بالجرحى وتطيب نفوس الجنود في محنتهم . وجاءت أوقات كانت تأخذ مكان الرجال في القتال . كتب مؤرخ من تشيلي عنها يقول إنها كانت « امرأة ذات نشاط وولاء عظيمين ، حسيصة ومتزنة ورحيمة ، ولذلك نعمت باحترام جميع الفاتحين » . وعندما وصل خبر أمر جاسكا من ليما قبل وصول فالديا صممت على ألا تغتم شهور المهلة القانونية الستة المسموح بها قبل الانفصال ، فقد كانت تعرف أن الانفصال النهائي سوف يكون أصعب فتوجهت إلى قس كان صديقا لها فنصحها بأن تزوج فاتحا آخر في المدينة . وعندما عاد فالديا من بيرو وجدها قد تزوجت رديجودي كيروجا ، وهو رجل طيب فيما بعد حاكما للمستعمرة .

وفي وقت مبكر نفذت الحكومة الإسبانية نظاما ترخص به لجميع

الأشخاص الذين كانوا يرغبون في الذهاب إلى الأمريكتين ويمكن أن يحتاجوا اختبار ضمائرهم ، أساسه استيفاء معايير دينية وخلقية معلومة . وتمثل جهاز الإدارة اللازم في « بيت التجارة » ، أو بيت الهند في أشيلية وخول منح تراخيص السفر . وقد استبعدت فئات من المسافرين من دائرة اختصاص بيت التجارة ، وطلب منهم أن يحصلوا على إذن من الملك لكي يتركوا البلاد . وواقع الأمر أن مثل هذه الحالات كان يعالجها مباشرة مجلس الهند الغربية أو سكرتيرية المجلس . وقد تعمد رئيس ملقات الهند الغربية بئشراً قائمة مبوبة للمسافرين إلى الهند الغربية ، ومقره في المبنى القديم لبيت التجارة . وبناء على ذلك فمن الممكن الآن تتبع هجرة النساء الإسبانيات إلى العالم الجديد من التاريخ الذي افتتح فيه السجل لأول مرة .

و أول قيد في سجل المسافرين كان في سنة ١٥٠٩ عندما رخص لشخص اسمه ديجو ترنيرو و « زوجته » ، إلى الذهاب إلى جزر الهند ، وفي نفس السنة تسلمت إيزابل ردريجيث زوجة بيدرو لوبيس ماروكين من بيتا في مقاطعة خاين ترخيصة بعبور الأطلنطي . وبحلول العام التالي خرجت زوجتان بأطفالهما للحاق بزوجهما اللذين كانا على الأرجح في سانتو دمنجو وإحدهما ، وهي تيريسا ساتشيث زوجة بيدرو جاريدو ، أخذت معها ثلاث بنات صغيرات لها . وحصلت كاتالينا هيرنانديث من ميريدا في استريمادورا على إذن للذهاب إلى الهند الغربية لمدة خمسة أشهر لتجمع ديونا (\*) معلومة مستحقة لها ، وربما كان ذلك عقارا صغيراً خلفها لها زوجها المتوفى ، ولأول مرة ظهر اسم امرأة غير متزوجة — إيزابل جالندا من فيالبا — في سجل المسافرين .

وبعد سنة ١٥١٠ ازداد عدد النساء والأطفال الذين عبروا المحيط سنة

فأخرى . وكثر عدد النساء اللاتي كن يسافرن وحدهن كما فعلت انا ديات ،  
ارملة ديجو سالشيت ، صانع براميل ، وبينريس الفاريس ، زوجة حلاق  
برتغالي في سنة ١٥١١ . وعبرت في نفس السنة خمس عشرة زوجة وأرملة  
أخرى اصطحبت أربع منهن أطفالهن . واحدة منهن كانت أنطونيا جارسيا  
(الطاووس) (\*) زوجة ديجو دي دينيا . وكذلك كان المسافرون الاغنياء  
يصحبهم خدمهم في كثير من الأحيان . وفي سنة ١٥١٣ تذهب ايزابل دي  
كارديناس إلى الهند الغربية مع زوجها ومع خدم لها ، زوج وهنود . وفي  
نفس السنة تستقل ماريا هيرنانديث سفينة مع زوجها پدرو دي ليون  
وأطفالهما الخمسة جيومار وهيرناندو ودييجو وييليتا وفرانسكو الصغير .

وتفوقت السنوات الخمس من ١٥١٣ - ١٧ بالأعداد الجمة من النساء  
غير المتزوجات اللاتي حصلن على تراخيص الذهاب إلى الهند الغربية . وكان  
معظمهن من إسبيلية أو قمن من بلاد مجاورة مثل ألكالا ونزلن في الجزر  
في الفترة الهادئة التي تلت أول اندفاع للإسبانيين في الأنتيل والتي سبقت  
فتح المكسيك . ولا بد من أن المستعمرة الجديدة في كوبا قد أنعشت بقدم  
هؤلاء الشابات الأندلسيات (\*\*) البهيجات ، واللاتي كن منهن ينوين الزواج  
لم يكن يجدن ميدانا أرحب لمحاولاتهن . وكان على بعضهن فيما بعد أن يلحقن  
بأزواجهن الجدد إلى المكسيك قبل أن ينتهي القتال بوقت طويل . ومنهن  
من شاركن في الأخطار الكثيرة التي تضمنتها تلك المغامرة العظيمة . فقد  
كن نساء الشعب ، نساء كاتالونيا (\*\*\*) وليون (†) من أحياء كنيستي  
ماكارينا وتريانا ، وبدون تمييز لفئة ، مثل اينيس ريث ، وكان أبوها حلاقا

(\*) "la Pavona"

(\*\*) Andaluces

(\*\*\*) Catalinas

†) Leonors

في أشبيلية ، وماريا جوتيريث وهى ائنة صياد . غير أن عدداً كبيراً من الرجال في الأراضي الجديدة كانوا سعداء بقدمهم .

ويرى المؤرخان سوفاتيس سالانار وهيريرا عن الزوجات البطلات اللامى رددن على كورتيس عند ماحاول أن يتركهن متخلفات في تلاسكالا أثناء حصار تينوشنتلان قائلات : « إنه ليس من الصواب أن تترك نساء قشتالة أزواجهن إذا ذهبوا للحرب ، وإنه حيث كتب عليهم الموت فعليهن أن يمتن معهم » . وكانت من يمتن بيتريس دى بلاسيوس وماريا دى استرادا وجوانا مارتى وايزابل ردريجيث وزوجة الونسوفاليتى . وكانت ايزابل ردريجيث ولورنس نايتنجيل حقهقه ، عاشت في القرن السادس عشر . كتب هيريرا يقول : « استمرت المناوشات والمعارك الفردية والمواقع المرسومة التي أريقت فيها دماء كثيرة ، وبسبب ما كان لدى الجرحى من الإسبانين من إمدادات ( طبية ) قليلة ، وفي كل يوم كان هناك على الأقل مائة جريح ، منهم ومن حلفائهم الهنود ، أرسل الله امرأة من قشتالة تسمى ايزابل ردريجيث لتضميد جراحهم ولترسم علامة الصليب عليهم » . وبذلك شفي الكثيرون من جراحهم وعادوا إلى القتال حتى أدى ذلك إلى « مساجلة عنيفة بشأن أن الله كان في جانب القشتاليين لأنه أعاد ذلك العدد الغفير إلى صحتهم على يدى تلك المرأة » . وأحياناً كان الرجال الذين أصابهم جروح قاتلة مثل ماجالانس الجندى البرتغالى الشجاع يترنحون بجوارها ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة بين ذراعيها ولتواسيهم كما تواسى الأم أبناءها في سكرات الموت . وكانت بيتريس دى بلاسيوس الزوجة المولدة لبدرو دى دى اسكوبار . وكانت تورد الطعام له ولأصدقائه ، وتعد لهم وجبة الطعام بعد انتهاء قتال اليوم . وعندما ازداد ضغط الأتاتقة إلى ذروته انضمت إلى زوجها بين المحاربين . وعندما كان يجرح واحد منهم كانت تضمد جراحه ، وكانت تشد السرج على الخيل للرجال ، وتقوم بكل الأشياء الأخرى التي يفوم بها الجندى » .

وخصص برنال دياث مكاناً كبيراً للخيل التي كان وفقاؤه يمتطونها من المكان الذي خصصه لزوجاتهم . ومن الجدير بالذكر أن من الفرقة الصغيرة الذين فتحوا المكسيك اثنين قتلا من قبل زوجتيهما . ومن هذين المذنبين بقتل الزوجة ضرب الأكبر سناً منهما وهو سواريث زوجته على رأسها بطاحونة يد ، فكانت عاقبة ذلك مهلكة بالنسبة إليها . ورجل آخر قتل زوجته هو خوان بيريث . وأيضا شخص اسمه اسكوبار ، « رجل شجاع ولكنه كثير التهييج ، وقدم أعدم شقيا لارتكابه جريمة مزدوجة : تمرد واغتصاب امرأة متزوجة ، وهذا خلل في العدالة ربما أمكن حدوثه بين الإسبانين فقط . ويروي برنال دياث عن ثلاثة جنود تزوجوا ثلاث نساء هنديات : ألونسو دي جرادو الذي أخذ زوجة له ابنة من بنات موتسوما الكشيرات ، وخوان دي كيلار ، وقد تزوج دونيا أناه ابنة لورد تشكوكو الجميلة ، وألونسو بيريث ، « وهو جندي شجاع تزوج امرأة هندية مليحة من الجزر » . ويروي أيضا عن خوانا دي مانسيا ، بلونجي (\*) الفتح ، وهي التي حاول المندوب المالكي في مدينة المكسيك أن يجبرها على الزواج من رجل آخر ، رغم أنها كانت تعتقد أن زوجها ما زال حيا مع كورتيس في هندورس . وعندما رفضت ضربت كما كانت تضرب الساحرات ، وعند ما عاد الجنود من هندورس احتفلوا بها في شوارع مدينة المكسيك وهي تمتطي جواداً « كريمة رومانية » مكافأة لها على ثباتها .

وفي نفس تلك السنين المشهورة أخذ خوان جيين صفا « طابورا » من إحدى عشرة أثني إلى العالم الجديد مكونا من زوجته ماريادى مالافير وبناتها الثماني وامرأتين لا تعرف شخصيتهما . وعندما خرج ودرجوا ثامبرانو إلى جزر الهند صحبته امرأته اينس وبناته الأربع وابنه . وكانت

---

(\*) زوجة أوليس ، في حرب طروادة ، وكانت تهدم ليلا ما بنته نهارا لكسب الوقت

الأسرة ، وهى المجتمع الاساسى لاسبانيا تنقل بكليتها إلى العالم الجديد . فقد كان هناك لاسبانيون محتاجون إلى وجود نسائهم وأطفالهم حولهم ، ولحققت بهم نساؤهم لأنهن كن أيضا لاسبانيات ، وكانت الأسره أمرتهن يرعيتها ويحافظن عليها . وفى نوفمبر سنة ١٥٣٣ دخل فرانسيسكو بفارو كشكو عاصمة امبراطورية الإنكا . وفى السنة التالية تظهر أسماء القادمين الآن ذكرهم فى بيت الهند فى اشبيلية : «لورنشا سانشيث مع زوجها جاسبار بيريث ، إلى بيرو ، و «منسيا دل كامبو ، مع زوجها ، وديي جودى ثامورا وثلاثة أبناء — لويس ١٠ سنوات ، وهرناندو ٤ سنوات ، وديي جوعلى صدر أمه — إلى بيرو » .

وهذه على وجه الاحتمال هى دونيا منسيا التى بعد أن تزلزلت فى أثناء الحروب ، تزوجت فرانسيسكو هيرنانديث جيرون ، آخر المتمردين ضد النفوذ الملكى فى بيرو . وبناء على رواية جارسيلاسو كانت «شابة نيرة جميلة وتتحلى بالفضائل » . وقد صحبت زوجها من ليا إلى كشكو حيث نظم تمرده . وفى وقت لاحق استسدها لتلحق به فى المعركة فى الجبال حيث شاركته فى جميع المصاعب وصنوف الحرمان التى كان يقاسى منها الجنود . وعندما دخل هيرنانديث جيرون كشكو مرة ثانية بعد انتصاره المبدئى حياها أنصاره «كملك لبيرو » . ومرة أخرى تبعته فى الأراضى المنخفضة حيث هزمته القوات الملكية عند بوكارا . وهنا هجرها وتركها تحت رحمة المنتصرين وفر إلى الجبال ليقبض عليه ويدق عنقه ليس إلا . وكان كل شخص فى بيرو يكن لدونيا منسيا احتراماً زائداً لدرجة أنه بعد هزيمة زوجها وفراره رجعت إلى كشكو تقودها فرقة خاصة من ضباط الحرس الملكى ذوى الرتب العالية . وبعد ذلك بقليل دخلت ديرا فى ليا وأغلقت الباب على حياة من المغامرة والمأساة .

وفى الجانب الآخر من هذا التمرد أظهرت امرأة لاسبانية أخرى نفس



الجلد ونبل الخلق . وهذه كانت دونيا فرانسسكا دى ثونيجيا روجة پدرو لويث دى كاثايا . وذهبت أيضاً إلى الأنديز ، وكما يقول جارسيلاسو : « لا لتخدم جلالة الملك ، بل زوجها . وعلى الرغم من أنها كانت امرأة رقيقة وعليلة ، فقد كانت تجبر نفسها على أن تقعد في كرسى فوق بغل مسرج متحركة في أماكن وعرة وممرات رديئة في هذه الطرق يئس وتوفيق كأي فرد من الجماعة ، وفي المساء ربما جمعهم جميعاً في وليمة للعشاء ، ثم مرة أخرى للغداء في وسط النهار تعدهما مما تطلبه من تموين من الهنود ، ثم تعلم النساء الهنديات كيف يعددن الوجبة . »

وهناك نساء إسبانيات أخريات لا تظهر أسماءهن في سجلات « بيت التجارة » ، قدمن إلى بيرو خلال السنوات التي انقلب فيها الإسبان من قهر الهنود إلى الحرب يشنها بعضهم على بعض . ومن يذعن دونيا كاتالينا ليتون ، أو ليتياو ، وهي الزوجة البرتغالية لفرانسيسكو دى كارباخال المحارب العجوز الذي لا يقهر ، والذي كان أهم ضابط في حاشية جنثالو بثارو في حربه مع الحزب الملكي . ونظراً إلى وحشيته « كشيطان الأنديز » ، كان كل شخص تقريباً في بيرو ، ما عدا زوجته ، يفسح له الطريق . وكانت هي وابنتها المتبناة خوانا الشخصين الوحيدين في البلاد اللذين يجرؤان على إخباله . واللذين يكثر لهما . ويروى جارسيلاسو عن وليمة كبيرة أقامها كارباخال في بيته في كشكو احتفالاً بانتصاره على ديجو سوتينو . وبحلول المساء امتلأ المكان بالسكارى والكلام الفضفاض حول المملكة الجديدة التي ينوى جنثالو إقامتها بمساعدة كارباخال . وعند ما اشتد الكلام ، وارتفع الصخب إلى الذروة ، دخلت دونيا كاتالينا الحجرة ونظرت نظرة استهزاء إلى الأشخاص السكارى حول المائدة وعلى الأرض وقالت : « ماشاء الله : يا لكم من جماعة من المغفلين الحقراء (\*) لتحكموا بيرو ! » فأجاب زوجها

(\*) "Haziendo escarnio"

قائلا : ، اسكتى أيتها البنت العجوز ، إنك إذا أعطيتهم ساعتين ينامون فيهما يستطيع أى واحد منهم أن يحكم نصف عالم .

ولنعد إلى قائمة المسافرين التى دونها بيت الهند : استمرت أسر أعدت نفسها للسفر فى الهجرة إلى الأراضى التى استقرت فيها الأمور من إسبانيا الجديدة التى أقر فيها النظام قبل بيرو بزمان طويل فيما عدا أراضى الشيشيمك . وفى سنة ١٥٣٥ ، وهى السنة التى أفشئت فيها ليا ، سافر خوان دى موثيناس ، وهو صانع أحذية ، إلى المكسيك تصحبه زوجته . وفى السنة التالية قادت دنيا خوانا دى سوما جماعة مكونة من سبع نساء وثمانية رجال وخادم إلى نفس الجهة ، وفى سنة ١٥٣٧ أقلع من إشبيلية إلى فيرا كروت بارتولوى فالديس وزوجته الفيرا وأربعة أبناء وعدد عمائل من البنات ، مضافا إليهم ألونسو ، خادم . وفى السنة التالية سافر شخص يدعى الدكتور روبليس ، وكان بلا شك موظفا ملكيا ، إلى الساحل الشمالى للقارة بأسرة حقيقية ، شملت زوجته خوانا خوفرى دى جيفارا ، وأمه ماريا دى هيريرا ، وابنتين : ماريا وخوانا ، وثلاث أخوات : كانالينا وفرانسيسكا وماريا ، واثني عشر من أبناء الأخ والأخت .

ولقد حدثت فى هذه السنة ، ١٥٣٨ ، أن أحضر دون بدرو دى أنفاردو ، ولا يسبقه فى فتح المكسيك سوى كورتيس ، وكان فى ذلك الوقت قائد جيش جواتيمالا وأحد الرجال العظام فى الهند الغربية ، أحضر زوجته الثانية إلى عاصمته الجديدة ، وهى دونيا بيتريس دى لا كيفا ابنة أخو دوق ألبوكيرك ، وسيدة عظيمة بما لها من حق ذاتى . ولأحدى عشرة سنة خلت من قبل ذلك التاريخ كان قد تزوج أختها دونيا فرانسيسكا ، وقد ماتت بالحمى أمام ساحل المكسيك ، قبل أن تصل إلى جواتيمالا . أما العروس الجديدة فقد قدر لها أن تموت فى النهاية فى قصر الحاكم فى

ليلة مفزعة عندما أطلقت جائحة طبيعية المساء المختزن في فوهة بركان على المدينة . ولكنها في ذلك الوقت قد قدمت في أبهة عظيمة تليق بسليلة العظماء (\*) وزوجة سيد مملكة المايا كيشي الجديدة . ومع الحاكم وزوجته جاءت جماعة لطيفة من الخدم والأتباع ومن رجال مهمين تصحبهم زوجانهم وأطفالهم ، بما فيهم رجل اسمه هيرنان الفاريت ، أرمل ، يصحبه تسعة أطفال ليجد لهم أمكنة في العالم الجديد . وفي حاشية الحاكم كان هناك ثلاث وصيفات للمنزل واثنا عشر خادما آخرون ذكورا وإناثا .

كما قدمت دونيا أنا فادريكي وثمانى شابات أخريات من أسر كريمة وفي سن الزواج . واحتفل بعودة ألفارادو وحاشيته إلى جواتيمالا بمجموعة من الأعياد استمرت بضعة أيام . وفي أحد هذه الإبتهاجات كانت الفرقة المحلية من الفاتحين القدامى بكليتهم حاضرين . ولما كانوا يجلسون على كراسي ذات ظهور صلبة على امتداد جدران الردهة في قصر الحاكم كما جلس ملايين من سكان أمريكا الإسبانية منذ ذلك الوقت ، فلا بد أن المحاربين القدامى كانوا يشعرون بالقلق في حضرة كل هذا الزخرف الجديد القادم من إسبانيا . فقد شوهاوا ، وقد تركت المعارك آثارا في أجسامهم ، ولم تكن مظاهر سلوكهم الجماعية مرضية جداً على أية حال . ولعل برنال دياث الشجاع ومؤرخ الفتح ، والذي كان قد استقر في جواتيمالا ، كان واحداً من الضيوف ، غير أن أحد المتفرجين الذين لا تعرف لهم أسماء هو الذي عمل مسجلاً لحوادث المجتمع في تلك الحفلة المسائية .

وبينما سيق المحاربون الذين اكتسبوا العمر إلى الردهة الكبيرة لاحظتهم الحسان اللاتي قد أتين من إسبانيا من قبل من خلال باب في ركن من أركان الغرفة . وصاحت إحداهن تبدي ملاحظة الأخرى : « يقولون إننا جئنا لنزوج هؤلاء الفاتحين ، ، وأضافت أخرى : هل يقصدون

بذلك ان علينا أن نتزوج من هؤلاء الرجال الذين ضعضعهم العمر؟ إنسكن فيما عداى فستطعن أن تفعلن ما شئتن أما أنا فلست أنوى الزواج من أى منهم . فليلقوا فى جهنم . ولا بدأنهم من جهنم . فهم يبدون كأنهم مقعدون، وبعضهم أعرج وآخرون منهم بذراع واحدة . وبعضهم قد فقد أذنا وآخرون عينا ، والبعض منهم له نصف وجه فقط ، وأحسبهم له آثار جروح طويلة فى وجهه ، اثم أجابت الأولى : « نحن سننتزوجهم ، لا لرشاقتهم بل من أجل حروبهم مع الهنود ، ونظر إلى أنهم كبار السن ومنهم وكو القوى فسيموتون سريعا ، ثم فستطيع أن نحصل على الأزواج الشباب الذين نزيدهم . والمسألة شبيهة باستبدال قارورة قوية جديدة بأخرى مكسورة قديمة » .

وسمع أحد الفاتحين المستنين الحديث ، وكان يجلس ملاصقا للباب ، ثم التفت إلى الشباب وصب عليهم جام احتقاره . ثم أخبر زملاءه بما قد سمعه وقال لهم : « تزوجوا من هؤلاء السيدات وسوف ترون كيف يرددن الجميل الذى صنعتموه من أجلهن ، . ويقول جارسيلاسو : « عند ذاك ذهب إلى منزله واستدعى قسيسا وتزوج من نبيلة هندية ، وكان قد أنجب منها طفلين غير شرعيين ، . وكان يريد أن يصيرهما شرعيين حتى يرثا الهنود الذين يملكهم ، لا سيدة (\*) أيا كانت ، تنعم بما قد جناه من كد وقد تعامل أطفاله كخدم وعبيد .

وعلى الرغم من وفرة المغريات وحفلات العريضة والفجور فى أماكن معلومة ، لم تكن هناك أعياد للمتعة الجسدية فى سنوات الفتح الأولى . وربما استجابت أميرات الأزانقة والإنكا أحيانا إلى ما يتوق إليه الفاتحون من كل ما تستطيع النساء أن يعطينه ، لأن السيدات الأرستقراطيات عرفن

مستوى شائعا من رقة الأفئدة ربما جعلهن لا يشعرن بكلفة في مدريد أو باريس أو روما ، وقد جعلهن كذلك أحيانا . وحتى كاتارينا ياراجواسو ، وهى ابنة لشريف من التوب ، التى تزوجت ألفاريس كارامورو الراءد البرتغالى المبعجل الذى ارتاد شمال البرازيل ، يبدو انها فتنت الطبقات الاجتماعية الراقية من غرب أوروبا . وكانت أنا كوانا ، وهى كليبورة التاينو ذات القصة المفجعة ، سيئة الحظ لاشئ ، إلا بسبب أن الإسبانيين الذين اعترضوا طريقها فى الأنتيل كانوا رجال جماعة رولدان - الحثالة البهيمية فى موجة الفاتحين الأولى - والذين وجدوا فيها اثنى حيوان تشتهى . ولكن الهندية (هـ) فى نظر كثير من الإسبانيين اشتهرت بكونها باردة ، وأحيانا كانت دمايتها تثبط من حماسة القادمين الجدد . وبظهور الزوجات والعشيقات الإسبانيات فى العالم الجديد هبط إغراء الهنديات نسبيا مع ظهورهن . ولم يستطع أوفيدو الذى ذهب فاتحا فى شمال القارة قبل أن يستقر فى سانتو دومينجو ليكتسب قصته عن الفترة الأولى للفتح أن يكون فريدا فى حبه للعميق لزوجته . فعندما ماتت فى الهند الغربية كتب عنها يقول : وكانت قد شيدت منزلنا فى دارين وفقا لأذواقها . وكان يحتوى على مساكن جميلة فى أسفل وفى أعلى ، وكانت هناك حديقة جميلة غرس فيها كثير من أشجار البرتقال ونباتات أخرى على ضفاف مجرى ماء بهيج يتدفق بالقرب من المدينة . وعندما شاهدتها وهى ميتة كدت أفقد وعي ، ليس فقط لأنها كانت رفيقا عزيزا لى ، ولكننى كنت أود دائما أن أحيى حياة زوجية كمسيحي . ولم أعود معيشة العشيقات كما كان يفعل جيرانى ، وأحيانا كان لسلك منهم اثنتان .

وعندما وصلت أول فساء إسبانيات إلى الهند الغربية سرعان ما أضفين روحا من الاستمرار على المجتمع الجديد ، حتى على الرغم من أن رجالهن

كانوا لا يزالون يقاثلون الهنود من حولهم . وبدأت هذه العملية عند ما أحضر ديجوكولبس ابن الأميرال وأول نائب ملك في الهند الغربية دونيا ماريادى توليدو ، من أسرة ألفا المجيدة وابنة أخى الملوك الكاثوليك ، إلى هسبانيولا . ومعها قدمت سيداتها ، وأضاف بلاط نائب الملك الذى أنشئ فى سانتود ومنجولسة مألوفة لإسبانيا فى القفار المدارية وتأثيراً مهنياً انتشر فى شتى أرجاء السكاريبى . يقول أوفييندو : « قدم مع نائب الملك عدد من السيدات والعذارى من أسر كريمة وتزوجت فى هذه المدينة كل من كانت منهن شابة ، وفى هذه الجزيرة ، من رجال أغنياء ومهمين عاشوا هناك ، فى ذلك الوقت كان هناك نقص فى نساء قشتالة ... ولذلك فإن مع هؤلاء النساء الإسبانيات اللاتي قدمن حينذاك ، قويت هذه المدينة كثيراً ، واليوم يوجد أطفال وأحفاد كثيرون من تلك الزيجات ، والذين يكونون الثروة الرئيسية لهذه المدينة .

وهناك سيدة أخرى كان لها نصيب فى نقل بعض قيم الحضارة الإسبانية إلى المستعمرات الجديدة هى دونيا إيزابل دى بوباديا . وقد انحدرت من نبلاء قشتالة العظام ، وكانت زوجة لبدرا رياس دافيللا حاكم منطقة البرزخ . ولابد من أن يكون الطاغية العجوز الخفيف قد أوحى إلى زوجته نوعاً من التعلق الشديد به ، لأنه عندما ألح عليها بالبقاء فى إسبانيا نظراً إلى أخطار الحياة فى دارين كتبت إليه هذه الرسالة الرقيقة : « زوجى العزيز ، نحن اقترنا فى شبابنا ، كما أظن ، وهدفنا أن نعيش معاً ولا ينفصل أحدهما عن الآخر أبداً . فحيثما قادك القدر ... فعلى أن أكون رفيقتك . وليس هناك شئ أخشاه ، بل أى صنف من صنوف الموت قد يهددنى ، لا يمكن أن أحتمله أكثر من أن أعيش بدونك وتفصل بينى وبينك مسافة شاسعة . إن أفضل الموت ، بل ياكفى المتوحشون عن أن أفنى نفسى فى حزن دائم واسى مقلق أترقب ، لا قدوم زوجى ، بل رسائله . وليس تصميمى وليد الساعة

أو بدون تفكير ، ولا هي نزوة امرأة تلك التي تحركني إلى قرار موزون وله أحقية . والأطفال الذين وهبنا الله لن يمنعوني لحظة واحدة . سوف تقرك لهم ميراثهم ومهورهم بالقدر الذي يكفيهم ان يعيشوا عيشة مناسبة لمركزهم . وبجانب هذا ليس عندي ما يشغل بالي . وتزوجت واحدة من أطفالهما هيرناندو دي سوتو حاكم كوبا ومستكشف الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة . وفي أثناء غيابها الذي قدر له ألا ينتهي عملت نائبة له في الجزيرة . وكتب عنها أوفيدو الذي كان يعرفها : « إنها امرأة تشع حضرتها الظرف ، طيبة القلب ولها رأي ممتاز » . وقدر لابنة أخرى أن تتزوج من فاسكو نو نيت دي بالبو ، وقد قدم أبوها إلى بنما ليحل محله بالخدمة وبعد عدة لاغتياه وإجاز الاغتيا . وعلى الرغم من أنام مراسم الزواج فإن الزوجة المأمولة بقيت في دير في إسبانيا في حين كان الحاكم يعيش في هناك مع عشيقته الهندية ، ولم يكن الزواج قد تم بعد عندما دق عنق فاسكو نو نيت في غسق شهر يناير في أ كلا .

وعرف أوفيدو ، وكانت له شهرة كونه موظفا ملسيا كفتا وذا ضمير ، جمع المشتركين السكار في الحوادث النافذة التي تتابعت بعد إعدام بالبو . فهو يشرح الأسباب التي من أجلها ترك الجو الملعون في البرزخ إلى سلام سائق دو منجوف في هذه الكلمات : « بعد أن قمت بعمل ترتيباتي مع بدرارياس ولكي استرد راحة ضميري ، وأضع حداً للمنازعات ، ولأني رغبت في أن آتي إلى هذه المدينة لأسنريح مع زوجتي وأطفالي على العدة الضئيلة الموجودة في شمال القارة » .

وهناك امرأة لم تمشأ أن تترك البرزخ هي زوجة بدرو دي لوس ريبوس الذي كان حاكما في كاستيا دل أورو في أثناء الفترة التي كان فيها تيار الفتح يتحرك عبر منطقة دارين في طريقه جنوبا إلى بيرو . وعلى الرغم من أنه كان « سيداً مهذباً » كما يروي أوفيدو ، « فقد كان غير كفء لحكم بلاده استقرت

حديثا . فقد كان شرها ، كانت زوجته التي كان يحكم في ظلمها ، لا يشبع لها جشع . . وعندما ذهب إلى إسبانيا ليتقاعد في مدينة قرطبة مسقط رأسه رفضت زوجته اصطحابه . ويضيف أوفيدو قوله : « بسبب بيرو كان هناك ذهب كثير في بنما ، وباشيتها وأموالها الأخرى التي كانت تملكها ، جمعت لنفسها ثروة كبيرة لأنها كانت مغرمة جدا بجمع المال » .

ونزل بنارو في تومبيس في سنة ١٥٣٢ . وبعد ذلك بسنتين كان بيت التجارة يصدر بالفعل تراخيص للنساء الإسبانيات بأن يخرجن إلى بيرو . وهناك نساء أخريات قدمن مبكرات جدا ولا تظهر أسمائهن في سجلات بيت الهند مثل إينيس مونيوت ، المعلمة ، والتي تزوجت في وقت لاحق من بدرو مارتينيث دي السكانتارا ، وهو أخ غير شقيق للحاكم . وعلى الرغم من أن بيرو لم تكن مكانا صالحا لسيدة فضلى سنوات كثيرة فقد كن يقمن مع ذلك . وسواء أكن سيدات فضليات أم غير فضليات فقد قبلن الأخطار وصنوف الحرمان مع ارتضاتهن أن يكن بجوار رجال يعزونهن وأول فرقة كبيرة من النساء الإسبانيات المصنفات وصلن إلى بيرو في سنة ١٥٤٤ مع نائب الملك المنسكوب بلاسكو نونيث فيلا . وشمل الفريق ستا وثلاثين امرأة متزوجة وسبعًا وثمانين بنتا سافرن مع آبائهن ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك سلام حقيقي في البلاد الممزقة لعشر سنوات أخرى ، فإن هؤلاء النسوة وبناتهن هن اللاتي أسسن المجتمع الإسباني في بيرو في عهد الاستعمار .

وهناك امرأة إسبانية لم تلق راحة في بيرو هي إينيس دي أتينثا ، وكانت أرملة بدرو دي أركوس ، وكانت صغيرة السن وجميلة إلى درجة لم تكن لتجلب لها خيرا ، وعاجزة عن أن تحمي نفسها بين الجنود المميج والمثيرة للشغب الذين كانوا زملاء لزوجها . ووقعت في دوامة من النزوات الجاحذة ، واكتسحت معهم كمشيقة لبدرو دي أورسوا الذي كان نائب الملك قد



اختاره ليقود المحاربين الخطرين الذين أوقدوا نار الحروب الأهلية في مطاردة بلهاء إلى وادى الأمزون بحثاً عن الدورادو وعندما اغتيل أورسوا على يد لوبى دى أجيرى المرعب حولت حبها إلى لوزنثودى سالدندو ضابط أجيرى وزميله فى الجريمة . وعندما زحزح سالدندو أبضا عن الطريق طعنوها حتى ماتت فى ليلة فى القفار بجوار النهر العظيم على يد اثنين من رجال أجيرى القتلّة . مسمى لم يعقد لها قران جديد بعد ترملها ، وتقصت إحدى قواعد هذا العصر المضطرب ، فلم تصبح بعد امرأة لرجل واحد .

وجرت العادة فى العالم الجديد أن الزمل ينتهى بزواج جديد مبكر بعد فترة معقولة من الحداد ليس إلا . ولم يكن هناك نساء متوافرات يسرحن ، وكان الزواج بعد الحياة الطبيعية لأية امرأة . وحتى إذا أرادت أرملة أن ترجع إلى العزوبة . وهذا بديل قلبا يروق للنساء ذوات مزاج إسباني مهما بلغت أعمارهن فإن مستلزمات المجتمع كانت تتضافر على أن تتخذ زوجا آخر . أما البديل الآخر الذى يتسم بالوقار فهو اللجوء إلى الرهينة ، وإلا فليس هناك مكان آمن لامرأة تعيش وحدها فى ذلك العصر المضطرب . وهىئت لهؤلاء الأراامل فرصة لأن يكن « ميسورات » ، ويزداد يسارهن مع كل زوج يقترن به حتى إن إحداهن قدمت للفاتح المعدم ، مع مزايا الزواج الأخرى ، لغراء جديداً هو معاش التقاعد . وكم من فاتح وجد فى الحب الدافئ الحريفي الذمى كانوا يلقونه من هؤلاء الأراامل الممتلئات صحة ملجأ صامداً من سنوات الحرب والعنف ، ومكافأة أغنى من ذهب الإنكا أو الوظيفة الكبيرة .

وربما تكررت قصة دونيا أنطوليا هيرنانديث فى جوهرها مرات عدة . فى أول الأمر تزوجت من ميغيل دى جوميس ، واحد من فاتحي المكسك الأصليين . وعندما استسلم أزواجها الواحد تلو الآخر لآخطار

الفتح تزوجت على التوالي من بلتاسار ردرميث ، وبارتولومي دى بيرليس ، وخوان موسكوسو . وكان الزواج الذى يتكرر كثيراً يكفر عن العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة التى شاعت فى عالم تفككت عرى أوصاله التقليدية وهكذا قدمت اينيس مونيوت إلى بيرو كما رأينا كعشيقة لفرانسيسكو مارتينيث ، وهو أخ غير شقيق لبارتولومي تزوجته فى وقت لاحق . وبعد اغتياله تزوجت من أنطونيو دى ريفيرا وهو أحد أفراد ألمع الأسر فى ليما فى تاريخها المبكر . وفى سنة ١٥٧٣ أسست دير لكونسيبسيون بهبة كبيرة قدمتها . وبما ينسب إليها من ألقاب الشرف الأخرى أنها أحضرت القطة الأولى إلى بيرو ، وأنها غرست هى زوجها أول أشجار للزيتون على ضفاف نهر ريماك فى أمريكا الجنوبية .

وقد حدث مثل ذلك مع دونيا كاتالينا الكوشل التى كانت عشيقة للقاضى ( \* ) الونسو جوتييريث دى ايوبوا وأنجب منها طفلين . ثم تزوجت فى وقت لاحق من بابلودى مونتيايور ، وبعد موته بخوسيبى دى ريفيرا أى دافالوس ، وهو شخص بارز كان قاضياً أو عمدة لليا وابن فيكولاس دى ريفيرا الأكبر .

وأول نساء إسبانيات وصلن إلى منطقة بوجوتا قدمن مع الحاكم لويس دى لوجو ، وهو واحد من أكبر الشخصيات المنفردة فى الفتح . ويدوأنه كان فى جماعته أربع زوجات وامرأتان أخريان غير متزوجتين . وأحضر كل من حكام ليوجرانادا الأوائل فى بطائنه هدايا من أبناء بلده ، وكان هناك ثلاث زوجات بصحبة أزواجهن فى حاشية دكتور ميغيل ديث دى ارمانداريث الكبيرة وأرملتان قبحتان عن زوجين لكل واحدة منهما ابنة . ويدوأن دكتور ميغيل استنفذ الإمكانيات المحدودة لمداعبة النساء فى الأوساط الإسبانية المحلية لأنه ، بناء على رواية جرمان ارسميجاس ، كان يتودد إلى دونيا آنا زوجة سبامتيان دى هيريديا وإلى لا ييمنتالا وإلى

(\*) قاضى محكمة التفتيش .

لوسيا دى الفاريث وإلى لا سوتومايور دى الكوسير . وكانت تنتمى لا إلى الكوسير فقط بل إلى بدرو دى اورسوا أيضا فى بعض الأحيان .

وفى هذه الأثناء حدثت فى جهة أخرى من كولومبيا إحدى المآسى التى كثيرا ما تتسلل إلى عشرة الإسباني مع زوجته ، تلك العشرة التى لا تنفصم عراها بينهما . فى سنة ١٥٤٥ وصل إلى سانتودومنجو من إسبانيا خورجى دى روبليدرو وزوجته دونيا ماريا كارفاخال . وكانا يوعيان فى طريقهما إلى الجزيرة خمس عشرة أوست عشرة من الشابات « المهنديات » بعضهن كن قريبات لدونيا ماريا نفسها ، وكان البعض ينتمين إلى أسرة المارشال خمينيث دى كيسادا فاتح كولومبيا . وترك روبليدرو ، وكان شخصا ذا جاذبية فريدة ، زوجته فى أمان هسبانيولا ، فى حين سار إلى شمال القارة ليشارك فى فتح أراضى الكوكا السفلى فى نيوجرانادا . وفى وقت لاحق طلب منها أن تلحق به فى كارتاخينا ، ولكن سرعان ما ترك الساحل فى حملة إلى الداخل كانت إلى غير رجعة . وذلك لأنه فى الأراضى الخلفية وقع فى صدام مع سباستيان بنالكاثار ، وكان قد جاء إلى مرتفعات كوندينا ماركا من بدرو عن طريق إقليم كيتو ، وأصبح روبليدرو ضحية لغيرة الفاتح العجوز . ولاحقت زوجة روبليدرو بنالكاثار ، وهى كسيرة الخاطر ، حاقدة عليه بلا هوادة ، حتى استجاب الملك لعرائضها واستدعاه للمحاكمة على القتل . وعندما مات فى كارتاخينا فى سنة ١٥٥١ ، وكان ينتظر سفينة تقلع به إلى إسبانيا ، كتبت دونيا ماريا قصة أخذها الثأر بالتفصيل .

ولم يكن بدرو دى اسكيفل فاتحا كبيرا ، بل كان واحدا من الأشبيليين الذين رافقوا بدرو دى مندوثا فى حملته المشؤمة إلى نهريلات فى سنة ١٥٣٥ وذهبت زوجته معه ، ابزابل دى جيفارا ، التى كتبت بعد إحدى وعشرين سنة رسالة إلى الأميرة خوانا كامرأة إسبانية تكتب إلى أخرى<sup>(٣)</sup> . غير أن أشياء كثيرة كانت قد حدثت فى هذه الأثناء فى إسبانيا لم تسمع عنها دونيا ابزابل .

وكانت الأميرة خوانا قد اعتلت عرش قشتالة وأصابها مس من الجنون، وتوهمت، بل قد ماتت. وخرج بعض نساء أخريات مع إيزابل دى جيفارا: ماري سانشيث أوف كوريا زوجة خوان سالميرون، وأنا مونيوت وربما لم نحصل على رجل لها شخصيا في ذلك الوقت، وأخريات لم يتركن أسماء في سجلات بيت التجارة.

وساءت الأحوال في مستعمرة بوينس أيريس من بادىء الأمر. فقد كان هنود البمبا لا يرحمون، وضيقوا خناق الموت شيئا فشيئا حول المستعمرة على ضفة النهر. وفي داخل المدينة المحاصرة جاع الناس وماتوا جوعا. وتحتوى السجلات على إشارات غامضة عن أكل لحوم البشر. وكتبت دونيا إيزابل بعد ذلك بوقت طويل: «لولا شرف الرجال لاستطعت أن أفيض لمعاليك في الحديث بصدق». فقد أضعف الحرمان الرجال إلى درجة أن فئة النساء القليلة كان عليهن أن يتناوين العمل الذي كانوا يقومون به حتى تصويب البنادق نحو الأسوار الخشبية حين كان الهنود يهاجمون. وقالت زوجة اسكيفل: «ولولا عنايتنا بهم وقلقنا عليهم لماتوا جميعا». وبعد أن هلك معظم المستعمرين ترك الباقون المسكن وبدأوا يتجهون نحو منابع الهر إلى أراضي الجواراني في سكوفتين (\*). وفي أثناء الرحلة الطويلة كان النساء يعنين بالرجال الذين كانوا مرضى، وكن يواسينهم ويطهين لهم السمك الذي لا ينفد والذي كان طعامهم، وليس هذا فقط، بل إنهن كن يهجنهم دائما، وعندما كان يبدو منهم الإجهاد إلى درجة تمنعهم من الاستمرار كن يدرن السفينتين الثقيلتين عندما ينهار الرجال وهم ممسكون بالمجاديف. «فإن حياة الرجال كانت في أيديهن». و«كان الحب وحده يحبرهن» على القيام بكل شيء قن به من أجلهن. وأخيرا عندما وصل الباقون منهم إلى موقع اسونثيون كان هناك على الأقل أمل في وفرة التربة الغنية، على الرغم من أن النساء كن هن اللاتي يفلحن الحقول الجديدة

(\*) السكونة، Brigantine، سفينة من نوع الإبريق.

حتى وقفت المستعمرة النائية ، على قدميها وشنى الرجال من تناوب الاستكافة والعنف اللذين لقوهما فى الطرق التى سلكوها . وفى خطابها إلى الملكة خوانا لا لوكا تطلب ايزابل دى جيفارا لنفسها منحة دائمة من أرض وهنود ، ولزوجها — الذى تسببت خدماته للتاج « تناسى خدماتها هي » وظيفة ما وفقا لمؤهله ، فهو يستحقها من جانبها . وتضيف تعليقا له دلالاته على اضطراب الحياة فى المستعمرة الجديدة على نهر باراجواى : « لقد أُنقذت حياته ثلاث مرات والمدية مسلطة على حلقه » ولو أن أرجنتيننا أرادت أن تقيم تماثيل لذوى الفضل فيجب أن تنصب تكريما لهؤلاء النساء المخلصات والبطلات .

#### الفاتح والمرأة الهندية

وعندما تلاقى الإسبانيون والبرتغاليون مع النساء الهنديات كانت العلاقة للمنطية بينهم بسيطة جدا عادة ، إذ لم يكن فيها تعقيد من أية محاولات لتهديب أخلاقى أو تفكير منطقى من أى من الجانبين . فمن جهة كانت عناصر الموقف تتلخص فى رجال قد تركوا خلفهم فى أوروبا نساءهم مع أية قواعد تهديهن فى علاقتهن المتبادلة ، ومن جهة أخرى كانت هناك نساء ينتمين إلى جنس آخر بأجسامهن القوية يستعرضنها باستمرار فى تلك الأراضى الحارة ، وليس لنزواتهن رادع من عادة أودين ، وكما يوحى جلبرتو فريرى ربما تثيرهن اعتبارات جنسية ( \* ) وكن يبدن قبولا للإطراء من اهتمام فاتحى بلادهم ، ويزداد اهتمامهن بازدياد رتبة الاسبانى . ومع ذلك فى الشعوب المتحضرة فى المكسيك وبيرو كان الرجال والنساء يتزعون إلى البحث عن فى مستواهم الاجتماعى من الجنس الآخر . فالجندى الإسبانى العادى الذى يأخذ « هندية » ( \*\* ) من طبقته كشريكة لحياة طويلة كان غالبا مايوليها من الحب والاهتمام أكثر مما لو كان سيذا وهى من طبقة أدنى . فى جو يسود فيه الامتثال والتعاون لا ينتظر أن يكون

( ) Priapic : من Priapus إله القوة الرجولية .

Caballero ( \*\* )

هناك داع للجوء إلى القوة في كثير من الأحيان . وأوضح دليل على هذا الخلط التناسلي هو في المجال القارى للتهجين الذى نتج عن وجود مثل هذه الظروف المواتية . وذلك لأن عالما جديدا من المولدين قد تكون لإسبانيا ، وعالما آخر ، في البرازيل ، للبرتغال .

ومن العوامل المساعدة في العملية صعوبة إرضاء الفاتحين وجدية مقاصدهم . ولقد صنف بعض الذين جابوا أرجاء شاسعة في تلك البلاد نساء القبائل المختلفة اللاتى دخلن محيط معرفتهم وتجاربهم . وهناك اثنان من المعلقين ذوى الخبرة في هذا الشأن هما پدرو دى سيثادى ليون وأولرخ شميدل : وكلاهما جنديان صغيران تنقلا كثيرا في الهند الغربية . ولا بد أنهما قابلا كثيرا من البنات المحليات حيثما ذهبا ، واحد من شمال القارة إلى ييرو ، والآخر في إقليم نهر بلات . وقال سيثادى ليون عن الهنود في إقليم دارين الذى تقطنه الأورابا حيث بدأ جولاته الطويلة : « نساؤهن أجهل وأحب من أية نساء شاهدتهن في الهند الغربية . وهن نظيفات في ما كلهن ، وليس عندهن شيء من العادات القذرة الموجودة في الشعوب الأخرى » . وكان صغير السن جدا وشديد التأثير في ذلك الوقت ، لأنه بعد أن مضت سنوات قال مثل هذا عن قبائل الشاشابويا الذين كانوا يعيشون في المنطقة الجبلية من ييرو . ويضيف عن هذه القبائل قوله : « نساؤهن جميلات إلى درجة أن كثيرات منهن جديرات بأن يكن زوجات للانكا أو نزيلات في معبد الشمس . والنساء الهنديات اللاتى ينتمين إلى هذا الجنس إلى وقتنا هذا جميلات إلى درجة فائقة ، لأنهن شقراوات (فى هيئتهن) وذوات أجسام ممشوقة » ، وكتب عن إقليم ارما في كولومبيا يقول : « إن نساء هؤلاء الهنود أكثر النساء اللاتى شاهدتهن في جميع هذه الأرجاء دمامة وقذارة » . وكانت نظرته أحسن إلى نساء إقليم السكارابا في كولومبيا ، واللاتى أسماهن « ذوات طبع حسن ومحيا مليح وغرام ملتهب » . وهذا

هو رأيهم في نساء لاتا كونجا في أكوادور وكافاماركا في بيرو . وتذكر قبيلة الكانياري في نفس إقليم كيتو فيقول : « النساء جميلات جدا ومغرمات بالإسبانيين وصديقات لهم ، وهن عاملات عظيمات لأنهن هن اللاتي يحرثن الأرض ويزرعن المحصولات ويقمن بالحصاد ، على حين يبقى أزواجهن في المنازل ويحكون وينسجون ويزركشون الملابس ويقومون بأعمال نسائية أخرى . وعندما يمر أي جيش إسباني في منطقتهم ، ولأن الهنود في ذلك الوقت كانوا مجبرين على أن يهبطوا الأشخاص لحمل أمتعة الإسبانيين على ظهورهم ، فإن الكثيرين من رجال الكانياري كانوا يرسلون زوجاتهم وبناتهم في حين يبقون هم في المنازل . ومع ذلك كان محاربو هذه القبيلة هم الذين يكونون الحرس الامبراطوري لملوك الإنكا .

بل إن أولرخ شميدل يصنف باصطلاحات معينة نساء القبائل المختلفة على طول مجرى نهري بارانا وباراجواي . فقد كان الرجال والنساء في قبيلة الأجاجسي على حد سواء يتصفون « بالسامة وطول القامة » ، وكانت النساء يطيلن وجوههن . وكانت قبائل الكاريو يمشون عرايا ، وفيهم كان الأب يبيع ابنته والرجل زوجته إذا لم تعجبه ، والأخ أخته . وكان في وسع المرأة أن يشتري امرأة بقميص ، أو سكين ، أو بلطة ، أو باية سلع تجارية أخرى . وقد قدم نفس هؤلاء الهنود ست بنات وسبع أيائل (\*) إلى خوان دي ايولاس القائد الإسباني . وفي نفس الوقت أعطوا لكل جندي بنتين « لتعتنيا بنا كما يقول شميدل ، « وتطهرا وغسلا لنا ولتقوموا بأداء أي شيء آخر نحتاج إليه » . وكما لو أن اثنتين لكل فرد لم تكونا كافيتين فقد استولى الجنود على عدد أكبر من هؤلاء النساء ، « وقد ساعدنا هذا الإجراء كثيرا » . وقال إن قبيلة السورو كورسي كانوا يحيون حياة عائلية كريمة بنسائهم الوسيات وأطفالهم . وقد أعجب هذا الألماني بالعادة التي كانت نساء الجيرو يمارسها

(\*) جم ايل النزال .

في طلاء أجسامهن باللون الأزرق . وقد علق على هذا بقوله : « هذا الطلاء جميل جدا . وإن أى نقاش في أوروبا عليه أن يعمل جاهدا ليصل إلى هذا المستوى . وللنساء منظر جميل على طريقتهن ، ويأمنن إذا وجدن الفرصة . ومع ذلك فأنا لا أريد أن أتكلم كثيرا عن هذا الآن » . ويضيف إلى هذه الصورة : « إن النساء يعشقن بحرارة وحنان وحاسة ، وعلى الأقل ، فأنا » أرى هذا .

ويقول عن قبيلة المبايا إن نساءهم وسيات ، ويلزمن بيوتهن ولا يعملن في الحقول ، لأن الرجل هو الذى يبحث عن الطعام . ويقوم النساء بغزل ونسج القطن وبطهو الطعام وإدخال السرور على أزواجهن وعلى أى من أصدقائهن الذين يطلبون ذلك . وبخصوص هذا الموضوع فلن أقول أكثر من ذلك حاليا . فإذا لم يصدقنى أحد في هذا أو يجب أن يرى بنفسه فعليه أن يقوم بالرحلة ، .

ولقد كان زعيم هذه القبيلة هو الذى أنعم على قائد جماعة شميدل بثلاث شابات وسيات ، . ولقد طفق معسكرا بشرا وتسلية لأنه « عندما انتصف الليل ، وخيم السكون ، افتقد القائد بناته الثلاث ، فلربما لم يكن ندا هؤلاء الثلاث ، لأنه كان في الستينيات من عمره ، وقد اكتهل . ولكن لو أنه وزعهن على الجنود فأنا على يقين أنهن ما كن يلجأن إلى الفرار ، .

وما لاحظته هذا الألمان الفضولي على قبيلة الكوروكوتوكي أن نساءهم يلبسن قيصافضفاضا بلا أكمام (\*) . وهذا هو بالمصادفة القميص للفضفاض (\*) الذى سوف يصبح الثوب المميز للمرأة في إقليم باراجواى . ويضيف إن هؤلاء النساء يلزمن البيوت و « يحكن أشياء للنزل ، وكان الرجال يعملون في الحقول ويحضرون الطعام .



وكانت هناك قبيلة اليوكاهوتتا من الباسكا الذين أنقذوا حياة لاثارو فوتي ، أحد ضباط خيئت دي كيسادا في فتح كولومبيا . فقد اتهم فوتي بأنه حاول خديعة الملك بأخذه « الزمردة الملكية الخامسة » ، من مجموعة الزمرد التي كانت جزءا من غنيمة الشبكا . وعندما كان يحاكم للإعدام شنقا احتج زملاؤه وخفف الحكم إلى النفي بين الباسكا المتوحشين . فاقبض وشد وثاقه إلى شجرة حيث يمكن للهنود أن يحدوه فينأكدوا من موته السريع . غير أن البنت الهندية التي مالت إليه تبعته « وعندما وصل الشجعان إلى الشجرة في الصباح وجدوا البنت بجواره في حالة دفاع عنه ، ثم أخبرتهم أن أعداءهم الإسبان قد أبعده لأنه عارض خططهم في إحراق القرية . وهكذا كسب الإسبان حياتهم ، وكسبت البنت عاشقها ، وكسبت القبيلة فردا له قيمته .

وكان هيرنان كورتيس ، وهو عمارب عظيم ، عظيما أيضا في عشقه . وبدأت حياته كدون خوان عندما كان طالبا في سالامانكا ، واستمرت مدة إقامته في جزر الهند . وعن هذه الفترة في حياته كتب برنال دياث يقول : « لقد سمعت أنه عندما كان قتي هسبانيولا ، كان عنيفا في حبه للنساء . وبينما كان في المكسيك لم يفتر مطلقا « مزاجه البدائي في تعدد الزوجات » ، كما كان يسمى ذلك أحد مؤرخي حياته . وفي كوبا ، وهي لم تكن مجتمعا يتصنع الحياء تماما ، حدثت سلسلة من المغامرات بدت كما لو هزت بشدة كل فرد في المستعمرة ، فيما عدا بضع نساء يهمن الأمر . ومن لا كنهم الألسنة بصفة خاصة الحاكم البدين ديبجو فيلاسكيث « وهو نفسه لم يكن « زير نساء » وكان يزجر الفاتح اللاحق على تكثيره صفوف السلام العالمي في الجزيرة . وعندما تزوج من زوجته الأولى كاتالينا خواريث في ظروف توحى بنوع من الإرغام من طرف ثالث . وعندما أصبح فيما بعد سيد إسبانيا الجديدة العظيم تباطأ في استدعاء دونيا كاتالينا لتلحق به « وقد كانت وقتها بعد فترة قصيرة من وصولها من كوبا مدعاة للهمز واللمز الخبيثين .

وأعظم الفساة أهمية في تاريخ الفاتح كانت دونيا مارينا المشهورة التي

كان هنود أنا هواك يعرفونها باسم مالنشى . وقد قدمها شريف محلى لكورتيس مع تسع عشرة امرأة أخرى عندما توقف عند شاطئ تهاواتيك في طريقه إلى المكسيك . ونظرا إلى نشأتها الأصلية من اعيان كامبيشى ، وذكائها الممتاز ، وتربيتها ، وشرف مقامها ، وجمالها ، فمن الواضح أنها كانت تتقدم على نساء أى جنس . وصارت الرفيق المخلص الوفى لكورتيس ، وأجبت له أكفا أبنائه . وعندما كتب عنها للإمبراطور شارل سماها ، المترجمة ، التى لقبها فى بوتونشان . وقد كانت هكذا وأكتر ، وقامت بدورها فى نجاح الفتح فيما يخصها مثلما فعل ألفاراد وأوساندوفال . وكانت طليقة اللسان . بلغة المايا والأزاتقة ولغة سيدها ، وكانت تحس بالبداية مسلك الأهالى حيثما حل الإسبانىون وكانت خدماتها لا تقدر وهى تقوم بدور الوساطة فى التعامل معهم . وفى وقت لاحق تزوجت من خوان خاراميو وهو ضابط ذو جدارة ، كما يقول برنال دياث ، وصاحب مزرعة (\*) خوشيميلكو . وكان زواجا موفقا ، ولقد كانت كزوجة لقائد إسباني عندما اشتركت فى الحملة الفظيعة إلى هندورس . وكانت قد أصبحت سيدة عظيمة بحقها الذاتى ، الأولى فى المكسيك الحديثة ، ولما كان ملوك إسبانيا أحيانا يطلقون على أشجع مدنيهم صفة « البطلة دائما » . فكذلك أطلق على دونيا مارينا « البطلة دائما » (\*\*) وأسمائها برنال دياث « دونيا مارينا الممتازة » فقد كان لها بحق ميلادها تأثير شامل واعتبار فى هذه الأقطار ، وكانت ذات شكل جميل ، وطباع صريحة ، وذكاء حاضر ، وروح مقدامة ، كما امتازت فى معرفتها لغات كثيرة ، وخدمت كورتيس أعظم خدمة ، وكانت ترافقه دائما .

وأعطى موتسوما كورتيس إحدى بناته ، عمدت باسم دونيا أنا ، وعاشت معه فى منزله فى تينوشنتلان — مع اثنتين من أخواتها وأميرة أخرى من أميرات الأزاتقة . ولقد لاقت دونيا أنا حتفها وكانت ذات

---

encoméndero (\*)

la siempre heroica (\*\*)

حل ، في الممر عند « الليلة السكببة » . ويقال إن اثنتين من بنات موتسو ما أنجبته له أبناء ، وابنة ثالثة أنجبت بنتا . ويذكر في وصيته ابنة أخرى غير شرعية من ليونور بنارو ، وقد تزوجت في وقت لاحق من خوان دى . سالسيدو .

وفي أوج شهرته تزوج كورتيس في إسبانيا من دونيا خوانا دى سونسيجا من طبقة الأشراف العليا في قشتالة . ويقول مؤرخ حياته : « لقد كانت زوجة صالحة ، وأحبته كما أحبته تماما كاتالينا خواريث وجميع عشيقاته ، وكانت غرائزه التوددية تيسر شعوره بالسعادة معهن جميعاً على قدم المساواة ، وكان ودوداً ورفيقاً ومكرماً نفسه لجميع أطفاله لا يفرق ، إلا بقدر ضئيل ، بين الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، بطريقة أبوية حقيقية . وقد ضمن لغير الشرعيين نشرات بشرعيتهم من البابا ، وورثهم بسخاء في وصيته » . وعلى الرغم من أن آلافاً كثيرين من رجال أمريكا اللاتينية لم يتسع مجال تودداتهم بهذه الدرجة العالية فلنهم قد اتبعوا مثل الفاتح في كل هذه النواحي . وكما حدث في بيرو حدثت أيضاً اتصالات كثيرة أخرى بين الإسبانيين . والنساء الهنديات العريقات المحتد ، فلقد أمهرت المحالفة بين كورتيس و « جمهورية » تلاسكا لا بهدية مكونة من خمس من بنات الحكام المحليين . وبناء على رواية برنال دياث : « كن وسميات إذا قورن بنساء البلاد الأخرى ، يلبسن أفخر الثياب ، وترعى شئون كل منهن خادمة من الرقيق » . ولم تقم حفلة تقديم إلا بعد أن « حوّلن » إلى المسيحية وعمدن بأسماء أعلام إسبانية . أما كورتيس ، وقد أظهر كبحاً غير عادي في هذه المناسبة ، فقد تنازل عن دونيا لويسا ابنة الوعيم الأكبر هيكونتنجا إلى ألفارادو . وتسلم فيلاسكيت دى ليون دونيا الفينا . أنجل البنات الخمس . ونسى برنال دياث أسماء الأخريات ، ولكنه قال : « كن جميعاً سيدات فضليات (\*) » ، ( و ) كن من نصيب أوليد وساندوفال وأفيلا . أما دونيا لويسا — وكانت على

ما يبدو تتحلى بأخلاق سامية ، كما كانت شخصية ذات أثر كبير في دولة تلاسكالا — فقد أنجبت لآلفارادو ابناً سمى بدرو أيضاً ، وابنة سميت دونياليونور . وتزوجت دونياليونور ، وهي سيدة ممتازة ، من دون فرنسيسكو دى لا كيفا ابن عم دوق ألبوكيرك ، وبذا يكون قريباً لزوجتي آلفارادو كليهما . وبعبارة أخرى فقد تزوجت من طبقة العظماء ، وهي أعلى طبقة للأشراف في إسبانيا . وأنجبت أربعة أو خمسة أبناء جميعهم فرسان وجهاً . وربما كانت أكثر أميرات الأزاتقة تأهلاً لدونيا إيزابل ، أرملة كوايو تيموك بطل المقاومة المكسيكية ضد الإسبانين . وكانت ابنة أخرى لمولتسوما ، وقد تزوجت من قبل من كتلاهواتن ، وهو أيضاً زعيم من زعماء الأزاتقة ، وبعد أن أعدم كورتيس كوايو تيموك تزوجت على التوالي من ثلاثة من الفاتحين الإسبانين . أما زوجها الرابع ، خوان كانو . فقد قال عنها إنها تستطيع أن تثبت في ذكائها وفننتها مع أنبل سيدات إسبانيا .

وعلى الرغم من أن فرانسيسكو بثارو ، فاتح بيرو كان في مركز يمكنه من الانتقاء من أميرات الإنسكا ، فلم يكن هناك شيء في علاقته مع النساء ليفتدى به أخلاقه الشخصية من العار الذي كانت تستحقه . فقد كان لشريكه ومنافسه ديجو الماجرو ابن مولد لطيف ، وكان يحترم والده ، وقاسى لكي ينتقم من أعداء والده على يد بثارو . ولكن من الأرجح أنه لم توجد أبداً امرأة أو طفل أحب ماركينز بثارو وكانت دونيا إينيس ، وهي أخت للإنسكا أتاهاوالبا ، عشيقته ، وأنجبت منه ابنة سميت فرانسيسكا أما السيدة الفاضلة إثارباي ، وكانت أيضاً أختاً — وزوجة — لآناهاوالبا وواحدة من عظيمات سيدات المملكة ، فقد لقيت حتفها مخنوقة تنفيذا لأوامر بثارو ، بعد أن غدرت بها عشيقته الحاكم

وعلى حسب رواية بدرو بثارو ، الذي كان يعمل سكرتيراً للماركيز ، أمر بثارو بأن تشد زوجة الثائر مانسكوكاباك إلى قائم وتضرب وتصوب

إليها السهام لقتلها ، لأن الإنكا كان قد أرسل هنودا لاختطافه ، ولأنه سرق حصانا وعبيدا زنجيا كان يمتلكهما . ومن إخوة بنارو الآخرين تزوج هيرناندو سيدة فضلى ، وقد شاركته شبه سجنه الطويل فى إسبانيا ، واستطاعت ، كما يبدو ، أن تحتفظ بحب واحترام زوجها العنيف العاقى .

وإذا أخذنا النتائج فى الاعتبار فإن أهم المسائل بين الفاتحين الإسبانين . والنساء الهنديات فى بيرو كان زواج جارسيلاسودى لافييجا من السيدة الفضلى دونيا ليزيل شمو أوكيو وهى ابنة أخت لاناهواليا . وكان واحداً من أكبر قادة الفتح أهلية للاحترام ، وسليل أسرة من أعرق الأسر فى إسبانيا وواحداً من الفضلاء القليلين فى رجال القوات الإسبانية فى بيرو . وعاشت دونيا ليزابل معه سنوات عدة فى المنزل الجميل الذى لا يزال قائماً فى كاشكو ، وكانت ربة بيت عرفت بالكرم . وهناك أنجبت لسيدها الإسباني الابن الذى أصبح فيما بعد جارسيلاسو الإنكا المشهور . وهناك ترعرع الصبي مع أبناء آخرين للفاتحين ، وبعضهم كانوا مولدين مثله . وقد قدر أن يكون مؤرخ حوادث الشعب الذى تنتمى إليه أمه ومؤرخ الأعمال التى قام بها شعب والده فى بيرو — والجزء الجنوبي من الولايات المتحدة . وعندما تزوج والده تم ذلك فى رحاب الأرضتقراطية الإسبانية حيث تمتد أصوله إلى أعماق بعيدة . وكان يحز فى قلب الابن اللامع والحماس ألم ، لم يبرأ منه أبدا . شخصية منقسمة لم يستطع أن يوفق بين جانبيها ، ومركب نقص أصبح وصمة للشعوب المولدة فى العالم الجديد . وعلى الرغم من أنه كان مكرما فى الأوساط الأدبية والعلمية فى إسبانيا ، وعاش حياة محترمة متينة ، فإنه لم يصل تماما فى أى وقت إلى الهدف السابق الذى وضعه نصب عينيه .

ويروى فيليب إينسورث مينز قصة تستأهل تكرارها حرفيا كإيضاح لمختلف إمكانات وتفرعات هذه المسائل الخاصة باختلاط الأجناس : « كان

للإنسكاسا يرى توباك وزوجته طفلة واحدة فقط هي الأميرة دونيا بيتريس كلارا . وبعد موت والدها وضعت مع أمها في منزل شخص مقيم في كشكو اسمه أرياس مالدونادو ، لكي تؤثر فيها زوجته وبناته ويصيرنها إسبانية خالصة — وكانت دونيا بيتريس ، وقد ورثت ميراثا ضخما بثلاث مزارع فيها يعمل أكثر من ١٦٠٠٠ من دافعي الخراج و ٩٠٠٠ من الهنود العاديين . وسمح مالدونادو لأخيه كريستوبال أن يغتصب البنت وكان عمرها أقل من عشر سنوات حتى يمكن إجبارها على الزواج منه . واستجابات ، ولكن الزواج ألغى فيما بعد . وعندما بلغت الخامسة عشرة اختارت الأميرة زوجا لها ابن عمها المباشر الأمير فيليبي كسبي تيدو — وكان يلزم استصدار فتوى بابوية لهذا الزواج . وبعد وفاة الأمير فيليبي تزوجت الأميرة بيتريس كلارا في سنة ١٥٧٢ بأمر الإنسكاتوپاك أمارو الأول ، وهو دون جارسيا أونات دى ليولا ابن أخى القديس أجناسيوس ليولا مؤسس اليسوعيين . وأخذت ابنتهما دونيا إلورتنا أنا ماريادى ليولا كويا إلى إسبانيا بأمر من الملك ، وهناك تزوجت من دون خوان انريكيث دى بورخا ابن القديس فرانسس أوف بورخا ، وحملت في سنة ١٦١٦ لقب ماريكزة أوروبيسا ، ثم تزوج ابن وابنة لها في أسرة أدياكيث ، نبلاء جرانا دا ، وينتمى إليهم القديس فرانسسكو خافيه . وهكذا امتزج دم الإنسكا بدم القديسين . فلنبتهل إلى الله أن يكونوا جميعا على الأرا ملك متكئين في جنات النعيم .

وعلى الرغم من أن آلاف الأطفال المولدين انطلقوا دون ضابط في المدن الجديدة في الهند الغربية بذلك القدر المحدود من الرعاية والرقابة الذى سمحت به لهم أمهاتهم اللينيات ، فإن كثيراً من الإسبانين قد حسبوا حسابا لأبنائهم الذين أنجبوهم عرسا ، وأحيانا في بيوتهم ومع أبنائهم الشرعيين . ومن الرجال الذين تقبلوا مسئولية نتائج عيشهم شخص اسمه ديجودى أوكانا . ومن ضمن ما نص عليه من بضع الرغبات التى تضمنتها وصيته دون الفقرة الآتية :

« أقول لأننى ذات مرة كانت لى اتصالات بأفطونيا المذكورة، التى أنجبت طفلا اسمه أوسبكو . غير أن الرقابة عليها كانت ضعيفة ، ذلك لأنها كانت كذلك على علاقة بهندى يعمل فى منزلى . ومع ذلك فبالحكم على لون الطفل يعلن كل الناس أنه يبدو ابنا لمسيحى . فهو يبدو لى هكذا ، فلربما يكون ابنى ، ولأنه فى حالة الشك يكون من الأفضل أن أعترف به من أن أنجاهله ، فإنى أمر أبنائى أن يقوموا بتريته وأن يتعهدوه بالتعليم ، ويفعلوا شيئا لخير مستقبله ، لأنى أعتقد أنه واحد من أبنائى وليس ابنا لهندى . »

ومن هؤلاء الذين حوصروا فى دنيا الظلال بين الجنسين ، ممتنين من هذا وذاك ، نزع من زادت عنده الحساسية أو العنف منهم إلى أن يصبح « مجرما حدثا » . والذى يعطى هؤلاء الأولاد المنبوذون أمانا فى المجتمع أنشأ نائب الملك الطيب القلب مندوثا مدرسة الأيتام فى سان خوان لتران فى مدينة المكسيك . أما فى پاراجواى فإن المولدين الذين أنجبهم الفاتحون سواء اعترف بهم آباؤهم أم لم يعترفوا فقد انتهى الأمر بهم إلى أن تسلبوا المستعمرة باسمهم ، ولحسن حظ إسبانيا ، باسم الملك .

وربما كانت الحالة فى تشيلي ممثلة إلى حد ما للحالة التى سادت بصفة عامة فى المستعمرات الإسبانية فى أثناء فترة الفتح . فقد كان هناك نفس النزوع إلى الفوضى الغرامية وتنوع الاتصالات الرفائية . ولم تكن ظروف الحياة المضطربة فى تشيلي تؤدى فى ذلك الوقت إلى مراعاة القواعد والعادات التى نظمت وثبتت العلاقات بين الرجال والنساء فى إسبانيا . وحتى ربان المنازل الرزينات والمحترمت فى مجتمع تشيلي المبكر يبدو أنهن كن أحيانا ينفغن فى مسائل الحب « مما نتج عنه خلق نسل مسيحي جديد فى المستعمرة » . وحدث فى تلك الأثناء أن تمت اللقاءات من وقت مبكر بين الفاتحين والنساء الهنديات فى الأماكن المحيطة . وقلما كانت هناك عاطفة تكتشف هذه الأمور الاتفاقية وسريعة الزوال من كلا الجانبين . ومع ذلك فسكن من مرة كانت

هذه اللقاءات منجبة لأطفال مولدين . وكثيراً ما كان الإسبانيون يكونون علاقات طويلة الأمد مع المولدات اللاتي كن يصبحن فاتحات السحنة شيئاً فشيئاً ، جيلاً بعد جيل ، وبصفة عامة ، أكثر جاذبية .

وأنجب الآباء المائة والخمسون الذين أسسوا تشيلي عدداً بمجموعه ٢٢٦ طفلاً مولداً ، اعترفوا ببنتهم ، . وادعى فرانسيسكو أجيري المفرط بنوة خمسين منهم بأنهم ذريته هو ، مما يقلل كثيراً النسبة العددية لكل فرد من رفقائه . ووفقاً لرواية نادر أوكيدويرجج أن كل إسباني كان مستولاً عن طفل مولد في المتوسط في كل عام . وينتج عن هذا المعدل مجموع كل يصل إلى ٢٠٠٢٨٤ بحلول سنة ١٥٦٥ ، وفيها وصل عدد الإسبانيين الذين استقروا في تشيلي إلى ١٥٢٣ إسبانيا . وكتب كريستوبال دي مولينا في تلك السنة يقول : إن المولدين كانوا متوافرين في سانتياجو ، وكان هناك من اثنين إلى ثمانية منهم في كل منزل في المدينة .

ومن المائة والخمسين الأصليين تزوج رديجودي أرايا في تشيلي مجدلينا غير نانديت ، وهي امرأة إسبانية ، وأنجب منها ابنة ، كما أنجب ابناً مولداً . وكان لسانتياجودي أوكا خمسة أطفال شرعيين وأربعة أطفال مولدين . وتزوج بدروبونال من باربولافلورس وهي ابنة من البنات المولدات اللاتي اتجهن بلومثال الألماني . وكان لبدودي سترناس عشرة أطفال شرعيين ومولد واحد . أما ألونسودي كوردوبا فكان له ابنان من زوجته الإسبانية ، بالإضافة إلى ثلاثة أطفال من نساء هنديات ، وطفل مولد من زنجية . وتزوج خوان دافالوس جوفري من كاتالينا دي ميو ، وهي مولدة من زنجية ، وربما كانت برتغالية وكان لها ابنة دكوارون . كما تزوج جارسى ديات دي كاستر ، وهو شريف أندلسي ، وكان قدم في أول الأمر إلى تشيلي مع الملاجرو ، من باربولا ديات لاكوبا ، وهي أميرة من الإنكا في بيرو ، وكان لها أربعة أبناء يحرق في عروقهم الدم الملكي . وتزوج خوان جاييجودي روياس وهو على



سرير الموت امرأة هندية لكي يصير ابنهما شرعيا . وتزوج جبرالدو جل ، وهو خياط أندلسي من خوانا دي لشكانو ، وهي أمة مغربية معتوقة قد وصم وجهها من قبل وأنجبا طفلين ، وكان له هو ابنان آخران من نساء هنديات . وتزوج جارسى هيرنانديث من ابنة مولدة لدييجو جارسيا دي كاسيريس أحدر فقائه ، وأنجبت منه عشرة أطفال . وتزوج خوان خوفري وهو واحد من زعماء المستعمرة من كنستانتا دي مينيسيس ابنة فرانسكو دي أجيري ، والتي جاءت مع أمها مع إسبانيا . ونتج عن هذا الزواج تسعة أطفال . وكان لخوفري طفلان أكبر سنا من نساء هنديات ، أما يندرو دي ليون ، وهو واحد من الإخوة الأندلسيين في قوة فالديا ، فقد تزوج من ماريامونيوت في إسبانيا ، وأنجب منها ابنتين . وعندما بلغ سن الهتر تزوج من هندية موشومة الوجه ، وبعد ذلك مسه طائف من الجنون ، وطاش إلى مابعد المائة . وكان لجابرييل دي سالانار سبعة أطفال من هنديات . كما تزوج دييجو سانشيش من دونيا اينيس دي ليون إى كارباخال ، وأنجب ستة أطفال من زواجه وثلاثة من خارجه . أما لويس دي توليدوم من أشبيلية فقد تزوج من ايزابل ميخيا ، وهي مولدة من هندية ، وقد كونت له أسرة ثمانية عشر أو عشرين طفلا . وكان لفرانسكو دي فياجرا ، وهو من الحكام الأوائل ، ابنة واحدة من زوجته الإسبانية كانديدا ديا مونثيسا . وكان ثلاثة له آخرون من امرأة إسبانية أخرى ، وواحد من امرأة هندية .

#### المرأة الإسبانية في فترة الاستعمار

اتخذ مجتمع أمريكا اللاتينية في خلال الفترة الاستعمارية الشكل الذي احتفظ به حتى بعد عصر الجمهوريات بوقت طويل . ثم جاءت مؤثرات جديدة لتعدل من تركيبه ومستوياته ، وتغيرت بعض العادات المتأصلة حينما فتح المجتمع أبوابه لتأثيرات القوى الاجتماعية الجديدة والغربية . وكان هذا امرأ واقعا بصفة خاصة في المدن الساحلية الكبرى مثل بوينس آيريس وهافانا وريودي جانيرو ، حيث بدأت العادات تتطور شيئا فشيئا في مجرى

بعيد عن طريق الحياة الذى كان لا يزال سائداً فى الأراضى الخلفية .  
 ومن ثم التباعد النأى بين العاصمة والولايات ، كما فى أرجنتيننا و «التخلف  
 الثقافى» المتزايد الذى علق عليه سارمينتو فى كتابه «المدنية والبربرية» (\*) .  
 وفى هذه الأثناء ظلت الأساليب القديمة باقية ، وازداد بقاؤها رسوخاً فى  
 الأماكن المزورة عن الطريق المطروق — مثل ميريدا فى فنزويلا ، وكوينكا  
 وخاين فى أكوادور ، ومويومبا فى بيرو ، وسوكرى فى بوليفيا ، وباستوفى  
 كولومبيا ، وكويابا فى البرازيل . فهذه المجتمعات ، لجرد عزلتها ، كانت  
 محصنة ضد البدع التى هددت سلامة النظام القديم .

وبحلول منتصف القرن السادس عشر انتهت مغامرة الفتح الكبيرة .  
 وإذا استثنينا الجهات الواقعة على طول حواف الحدود الجديدة ، حيث  
 كانت أطراف البلاد لا تزال مضطربة ولم تخلد إلى السلم الذى حل بها كما فى  
 أروكو والكاريب المتوحشين وأراضى الشيشيمك . وفى معسكرات  
 الثعدين مثل توسى ، أو على السواحل التى يجتاحها القراصنة ، فقد كانت  
 هناك نهاية للهياج والعنف . فقد جاء الوقت حينذاك للحياة المستقرة ،  
 والتودد إلى امرأة يختارها الرجل بدلاً من الإمساك بامرأة سهلة المتاع ثم  
 ينساها سريعاً ، ولتكوين أسرة تحمل اسمه بعد مماته ، وادخار ما يكفى  
 للمستقبل ، ولجرد الجلوس والتحدث إلى الأصدقاء والتمتع بالمسرات الهائلة  
 وما يرضى النفوس . فإذا أخرجنا من حسابنا الهنود والزنوج الذين  
 كانوا ينتشرون هنا وهناك ، وكذلك الاختلافات فى البيئة الطبيعية ، فربما  
 تخيلنا أننا فى مدينة ما من المدن الإسبانية .

ولم يكن العصر عصراً بطولياً . ولكن الوقت قدحان لتهدئة أعصاب  
 ازداد توترها والهمة العادية لبناء مجتمع جديد . وكان مجرى الحياة العادى

يتوقف في الفترات المنتظمة التي كانت تقام فيها الحفلات العائلية وأعياد الكنيسة ، ويومياً بنظام طقسى مزدوج : القيلولة التي زادت من الإبطاء في سير الحياة والاستعراض حول الميدان في الغسق . وهكذا كانت حال الحديقة المتوسطة في عصر الاستعمار . أما في العواصم الكبيرة مثل ليا ومدينة المكسيك ، فقد كان هناك تنوع أكثر ، وفرصة لاختيار أنواع النشاط وأحياناً كان هناك ثقل وقلق في المدن الوخمة . وقد أديا إلى للضغائن بين الأسر ، وإلى القضايا القانونية التي تمتد آماداً طويلاً ، والتي كانت تساعد على تفريج سأم المعيشة ، وإلى دسائس الحب والهروب التي كانت تتحدى تقاليد المجتمع الصارمة .

أما أولئك الذين كانوا يشعرون بالنضيق الشديد ، أو بدافع قوى للحنين إلى العهد الماضي ، ففروا إلى الحدود بعيدين عن متناول الأسقف أو حاكم المدينة ، وهناك كان في مقدور الرجل أن يفعل ما يريد ، إذا رغب في دفع الثمن ، لأنهم إذا بقوا في بيوتهم فلربما انقلبوا سفاحين (ه) أو مشاغبين في المدن ، وبذلك يصبحون مصدر تهديد للقانون والنظام في مجتمع مذهب . وأحياناً كان الناس الذين لديهم وقت فراغ زائد ، وكثرت زياراتهم لجيرانهم ، ينزعون إلى التعبير عن يأسهم بالحسد والغل — الحيتين التوأمتين في حديقة الفردية الإسبانية .

وفي القرون الهادئة التي تلت لجب وصخب الفتح بدأ بزوغ حضارة جديدة . أما العناصر التي كونت هذه الحضارة فهي ما أحضره الإسبان والبرتغاليون معهم ، وما أضافه الهنود والزنج إلىها على طريقتهم الخاصة . وفي أوقات بدا كما لو ان مجهوداً ضئيلاً قد بذل في العملية . فقد كان الإناء يغلي ، لأنه كان على الموقد الكبير ، وبدا الناس كأنهم في خوف من تحريك

النار أكثر من اللازم، وكانوا يأملون أن ما سوف يأخذونه منهم مفيد — وأن مذاق الطهو سوف يكون إسبانيا أكثر منه هنديا .

وكان الفتح من عمل الرجال ، ولكن عندما انتهى كان قد حل بالرجال التعب مما بذلوا من مجهود ، كما حدث لإسبانيا نفسها . ومع ذلك فلا بد من أنهم وجدوا من الصعب عليهم أن يتراخوا وعقولهم مفعمة بالذكريات ، لدرجة أن كثيرين منهم كانوا يمشون الليل خطوة بخطوة من الأرق ، كما فعل العجوز برنال ديات في جواتيمالا . أما الأجيال الجديدة التي جاءت بعدهم فقد كانوا لا يريدون سوى الإبقاء على ما كسبه لهم أجدادهم من قبل . ولقد كان هناك من مجد الأسرة ما يكفي لفترة طويلة ، ومن الأرض وما تغله ما يكفي لكل شخص . ولذلك فقد تراخوا وأخذوا الأمور بلامبالاة . وكثيرون منهم دخلوا الأديرة عندما كان هناك عمل زائد في حاجة إلى إنجاز في الخارج .

ولكن النساء لم يكلن ، وتسببت بلادة رجالهن في وجود فراغ مضمين فيه ، لا يقف في سبيلهن طائق ، وبكيفية فعالة ، باذلات كل مدخرات نشاطهن وولائهن . فلقد كان هذا هو وقتهن رغم أنهن لم يخبرن أحداً بهذا ، على الأقل رجالهن ، وأفدن منه أكثر ما أمكنهن . فلقد كانت المؤسستان الكبيرتان في المجتمع الجديد — الأسرة والكنيسة — مؤسستين فواحدة كانت ، بمعنى واقعي جداً ، من صنعهن ، وكن يغذيها وبرهينها بمجرد إنشائها ، وطاشت الأخرى بتعريضهن ومعونتتهن . وبينما كانت النساء ظاهرياً سلبيات ، ويمثلن لاحترام التقليد الإسباني الذي يقرر سيطرة الرجل ، فقد بقين المحافظات والقوة الموحدة في المجتمع الاستعماري وفي هذه الأثناء كان الرجال أحراراً في التجوال بالمعنى الفيزيقي والروحي معاً . فبينما كانوا في ضلالهم يقيهن ظلت الأسرة — ومصالحهم فيها — آمنة في أيدي قديرة .

وتبلورت العادات الاجتماعية خلال هذه القرون بين الفتح والاستغلال ، وأحيانا كانوا يبقون على العادات التي جرى بها من أوروبا كما هي غالبا إذ هي خدمت أهداف المجتمعات الجديدة . وقد غير المناخ بعض العادات القديمة ، وكذلك فعلت عزلة الجماعات التي جعلتها متأصلة في كثير من الأحيان . ولكن وجود العبيد من الهنود والزوج ومسألة الجنس عموما ، ربما أثر ، أكثر من أى شيء آخر في تعديل أنماط المعيشة المستوردة من شبه الجزيرة . ولقد كان هناك في إسبانيا خطوط فاصلة بين الطبقات ، ولكن الجميع — سواء الطبقة السفلى (\*) والعليا (\*\*) — كانوا إسبانيين ، ويحترم بعضهم بعضاً كرجال . أما في العالم الجديد فقد كانت الحال مختلفة جداً . فقد كان هناك عبيد ينتمون إلى جنس ولون آخرين ليخدموهم . كما كان هناك عدد غفير من سلالات مختلفة ، وتفاوت ودرجات مختلفة من التهجين على مستوى اجتماعي واقتصادي أدنى . وكانت الحدود بين الفئات الجنسية المتباينة تنزع إلى أن تكون أكثر وضوحا منها بين الطبقات في إسبانيا ، لأنها كانت مبينة باختلافات جسمية . فأصحاب البشرة البيضاء لهم مكانهم المنفصل ، وكانوا يعلون على أصحاب البشرة الملونة . غير أن الأطفال الذين ولدوا في إسبانيا كانوا أعلى درجة من الذين ولدوا في العالم الجديد . فهم وحدهم كانوا يرشحون لشغل المناصب الرفيعة في الخدمة الإمبراطورية ، كما احتفظ لهم بمزايا أخرى .

وهكذا أصبح الخلاسيون (\*\*\*) فئة فاشلة . فقد كان أجدادهم رجالا عظماء في البلاد ، وبمغامراتهم أعطوا لإسبانيا هذه البلاد . والآن هم كالطواشي السياسيين ، ليس لديهم أمل أن يصبح أحدهم حاكم مدينة ، أو قاضيا ، أو حاكم إقليم ، أو نائب ملك . ولم يكن هنالك مخرج مناسب لمطموحهم

arriera (\*)

grandes (\*\*)

Creoles (\*\*\*) الأوروبيون الذين يولدون في العالم الجديد أو أفريقيا .

للنبوغ أو النفوذ ، ولا مجال ملائم للممارسة التامة لفرديتهم الإسبانية . ولذلك فقد حولوا نشاطهم إلى طرق غير جديرة بهم ، أو أصبحوا بلداء تافهين . وفي كلتا الحالتين كان النساء يقاسين لفشل رجالهن ، ولأن الحياة في المستعمرات كانت لا تتطلب منهن أن يظهرن أحسن ما بهن من فضائل في أغلب الأحيان . ولذلك فواجباتهن في لم شمل الأسرة والبيت معا أصبحت أصعب . فأحيانا كان الرجال يخرجون هائمين في مغامرات لإحياء ذواتهم المتدهورة ، ويتربون من مسئولياتهم المنزلية التي شاركوا في بنائها .

وكان لدى الناس هذه الأشياء المادية أكثر مما كان لديهم في إسبانيا ، فقد كان العالم الجديد عالما واقعا على الحدود ، حيث يمكن الحصول على الكثير إذا أراد المرء أن يأخذ ، وهناك آخرون يعملون ما يلزم عمله . وكان هناك طعام أكثر للأكل ، وأرض أكثر للتملك ، وكثرة من كل شيء تقريبا سوى الحرية والميزة السياسية . ومن هذا الجود الجديد أصبح الناس أكثر تحرراً وبسطة يد ، فقد أصبح في وسعهم ألا يعبأوا بالمال حيث توافرت الموارد الطبيعية .

وفي هذه السنوات تبلورت أساليب المعيشة اليومية البسيطة . ولنضرب لذلك مثلا النوم في أرجوحة (هـ) في البلاد الحارة . وكان اللفظ نفسه أراواك ، وتعلم الإسبانيون استخدام السرر الموضونة ، ففي الليالي الحارة كان الهواء يسرى حولهم . وأحيانا كان تلاقى الجهات الإدارية والأراجيج والخدم يجعل المرأة الأوربية متراخية ، ولتعودهن العربى تناول الحلوى . كن ينزعن إلى البدانة . كتب خوان وايوا عن نساء كارتاخينا: إن كل أعمالهن التي يمارسها في البيوت هي الاضطجاع في الأراجيج يطوحن أجسامهن طلبا للنسيم ، وفي هذه يمضين معظم ساعات اليوم . . وفي بيت

من بيوت جوايا كيل - وهى الأخرى مدينة حارة - وجد الكابتن هول ثلاثة أجيال من النساء فى أراجيج تتدلى من سقف ارتفاعه عشرون قدما. قال : « إن المجموعة كلها كن يتطوحن بعيدا وبسرعة هائلة لدرجة أننا ارتبكنا ، ودارت رؤوسنا بحركات الأراجيج فى اتجاهات مختلفة . »

وكذلك عادة القيلولة بعد أكلة الظهر ، وهى عادة حسنة انتشرت فيما وراء حدود الأقاليم الحارة . والقيلولة خضوع للناسخ ، وهى تنقسمها اليوم إلى أربعة أقسام بدلا من قسمين ، توزع توتر الأعصاب وتعب ساعات العمل على فترة أطول ، وبهذا تخفف من عبئها . كتب مسيو ديبون الذى كان فى فنشويلا فى السنوات الأولى من القرن الماضى : « ليس هناك عادة تأصلت جذورها فى أحوال الإسبانيين أكثر من عادة القيلولة التى يمارسونها بعد الغداء . وليس هناك إسباني واحد فى المستعمرات الإسبانية ليس من عادته أن يخصص ساعتين أو ثلاثا أو أحيانا أربع ساعات من وقته يوميا لينام ، سواء أكانت الوجبة ثقيلة أم خفيفة . » ولاحظ أن الأجانب بصفة عامة يحاولون جاهدين أن يظلوا يقطن حين ينام باقى السكان ، وينتهى الأمر بأنهم يمارسون هذه العادة بحماسة ، كما فعل الكابتن هول وهو فى طريقه بين سان بلاس وتيبك .

ومن بين الانغماسات كان التدخين أكثر انتشارا بين النساء فى عصر الاستعمار مما هو فى الوقت الحاضر . وكن يدخن السيجار الصغير ، وهى عادة اقتبسها من الخدم الزوج فى المنازل . وقد أدى نزوح النساء شيئا فشيئا إلى رقة أكثر فى سلوكهن وانتهجان الأجانب لهذه العادة إلى الإفلاع عن تدخين السيجار ، إلا فى باراجواى ، حيث لا يزال تدخينه شائعا بين النساء . أما فساء بيرو من جميع الطبقات فقد تعودن أن يحملن معهن لفافة من طباق مضغوط يحسكن به أسنانهن لتنظيفها . وأما نساء الطبقة الدنيا اللاتى ، كما يقول خوان وايووا « يحدن هادة عن أحسن الأشياء » ،

فيحتفظن بحشوة من الطباقي في أفواههن « ويتظاهرن بشمين أنفسهن كلما كبر حجمها ». وكانت نساء الطبقة الراقية في عهد الاستعمار قد انسقن إلى المقامرة خصوصاً في إسبانيا الجديدة . وجاء وقت وصلت فيه هذه الرذيلة في مدينة المكسيك إلى حد جعل الملك يأمر سلطات نائب الملك لاتخاذ الإجراءات الصارمة لمنع هذه العادة . قال توماس جيدج الراهب الانجليزى : « كانت المقامرة شائعة بينهم لدرجة أنهم كن يدين الرجال الفضلاء إلى منازلهم لا لغرض آخر غيرها » . وقد حدث فعلاً أن سيدة « عريقة المحتد » حيث جيدج وراهبا آخر من شباكها واستدعتهما للدخول لجولة من المقامرة .

### الليماوية (\*)

وبمرور الوقت ، زادت الاختلافات في نمط حياة المرأة ومركزها في المجتمع . وربما كان أوضح الأنماط المحلية تطوراً امرأة ليما . ولما كانت المرأة الليماوية قد نالت إعجاب واهتمام المراقبين الأجانب الذين زاروا بيرو في القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماسحى ، فهناك مؤلفات ضخمة كتبت عنها . ومن سوء الحظ كانت الأزياء المتغيرة والضغط الذى تستلزمه وحدة الزى مسئولة عن قبول هذا الشكل الفريد الخبيث الذى اتخذ نهائياً طريق الإنسكا والجوشو في أرجنتيننا . وفي ترويجها عن نفسها أعطت مسحة خاصة وأندلسية صميمة لعاصمة الملك ، وكانت ليما ملاذاً لمصيرها النهائى .

وكان سر جاذبيتها وسطوتها يكمن في ملبسها العجيب الذى عاشت فيه كما لو كانت خلف قناع . ففي بعض صفاته يبدو واضحاً أنه أخذه عن العرب ، فقد صمم ليحمى نساءهم من أعين الرجال . أما بالنسبة إلى الليماوية فقد



أدى غرضاً مضاداً تماماً ؛ فقد أصبح ستاراً لتدليلها ولباس تخفى لتلاعبيها لا ينفذ فيه البصر . واللغة التي يمثلها ثياب النساء لغة أجنبية بالنسبة إلى الرجال ، ولكن من الذين حاولوا وصف ثوب التنكر المغربي الذي تلبسه « المرأة المقنعة » (\*) ربما كان أكثرهم تفصيلاً هو الكاتبين بازل هول من رجال البحرية الملكية ، وقد قضى بضع سنوات على الساحل الغربي في أواخر عهد الاستعمار . كتب يقول : « في الجو المعتدل ولمدة ساعة ونصف ساعة تقريباً قبل الغروب ، تخرج النساء ويمشين وهن لابسات ثياباً ، في رأي منقطة النظر ، وفي الحقيقة أنها خاصة إلى درجة فائقة بهذا المكان وتتكون هذه الثياب من قطعتين : السايا والمانتو . والأولى عبارة عن « تنورة » حيكت بحيث تلائم الجسم ، مشدودة ، لكنها مطاطة تماماً في نفس الوقت ، فإن شكل العضلات يصبح مرئياً بوضوح . أما المانتو أو العباءة فهي أيضاً « تنورة » ، ولكن بدلاً من أن تتدلى فوق الكعبين ، كما يجب أن تكون عليه كل العباات المستقيمة ، تسحب إلى ما فوق الرأس والصدر والوجه ، ويمسك الطرفان مضمومين جداً باليدين اللتين تحفيهما كذلك ، فلا يكشف من أجزاء الجسم سوى عين واحدة ، وأحياناً جزء صغير من عين واحدة . وكثيراً ما يعلق من حول الوسط إلى الأمام منديل حريري ملون أو رباط حريري ورساعة (\*\*) . يتدلى تقريباً إلى الأرض . وكثيراً ما يربط إلى الحزام أيضاً مسيحة مكونة من حبوب الأنوس بصليب صغير من الذهب . وفي أحيان قليلة تعلق على جانب واحد ، ولو أنها عادة تتدلى من الرقبة .

ولم يبدل ماكس راديكويه الفرنسي مجهوداً في تحليل « السايا والمانتو » ، ولكنه انطلق في نشوة بصف إحياء اتها . واهتم بعض الأجانب بلياقة هذا

---

(\*) Tapada  
(\*\*) شرابة للزركشة .

«الأنسامبل» الذى ، كما يقول و.ب. ستيفنسن . «يلتصق تماما بالجسم ، ويظهر شكله إلى أقصى ميزة ممكنة» . وقال خورجى خوان وأنطونيو دى ايويوا الضابطان البحريان الإسبانيان : «إن ثيابهن مختلفة جدا عن الثياب الأوروبية ويمكن تلبس العذر في ذلك في عادة البلاد وحدها ، حقيقة أنها تبدو شائنة للغاية للإسبانيين عند قدومهم لأول مرة» . وبعد أن علق الكاتب هول على «سماتها في نظر الأوروبي» انتقد المسافرين الذين يحكمون على العادات الغربية بمستويات أوطانهم ، وأضاف : «وبالنسبة إليها ، ونحن من يأخذون جميع الأشياء كما يرونها ، فإن «السايا والمانتو» قد دجلبا لنا تسليية كبيرة ، وأحيانا إزعاجا غير قليل» ؛ ذلك لأن النساء المقنعات كن يمارسن العادة المحرجة في مبادرة الأجانب الذين كانوا في ليا بعض الوقت ويذكرهم بأشياء ربما فضلوا نسيانها . وكذلك كن يبهجن في إحراج أزواجهن وعشاقهن ومنافساتهن والمتمتعين بالفخفخة والسلطة والنظام — أى جميع من كانوا عرضة للوقوع في شراكهن ودعابتهن . ومع إغفال أسماتهن وغموضهن صيرن ليا في ثورة «كرنفالية» من جراء دعابتهن الماجنة . فقد تغرى واحدة منهن زوجها إلى مغازلتها . وعندما يرتبط معها بموعد لقاء فقد تنزع «المانتو» من فوق وجهها كتوبيخ أخير على زرقه . وأحيانا كن ينطلقن غير مدعوات إلى حفلات خاصة فينعشن الجو بحضورهن المرح والوقح ، أو ينظرن من خلال للنوافذ ويعلقن على الضيوف وزهوهن ونقائصهم . ولم تكن هناك حصانة من قلة حيائهن وفضولهن . وعلى أية حال ، ربما كانت هناك امرأة عظيمة متخفية في قناعها . ولكن لما كانت النساء من شتى الطبقات قد انغمسن في هذه العادة فرما كانت أكثر المبادئ الديمقراطية في المدينة المتفخرة . واتخذ نائب الملك إماما من بين مقنعات عصره عشيقته له ميكائلا فييجاس ، واسمها الأشهر لا بيريشولى ، وهى مثلة مشهورة على مسرح ليا وجعلها أشهر امرأة في بيرو في القرن الثامن عشر . غير أن

جميع الرجال لم يستطيعوا أن يكونوا نواب ملك ، بل كان رجال ليا محل السخرية الأول لهروب نسائهم . ولذلك كان هناك مثل شائع يقول: إن ليا كانت جنة للنساء ، ومطهر للرجال ، وجحيم للحمير . وقال خوان وأيووا إن الليا وايات كن مغرورات ومتغطرات إلى درجة أنهن قلما يخضعن لمشينة أزواجهن . ومع ذلك فبحذقهن وبامتثالهن بالتلبس يكسبن التفوق عليهم كما لو تركن لفطنتهن ... ، وبالنسبة إلى الاستقلال الذى يتظاهرن به فليس أكثر من عادة متأصلة من زمن بعيد في البلاد .

وعلى الرغم من الحريات التى نالتها الليا وايات لأنفسهن علانية فقد كاتبت هناك على الأزواج خلاعة أكثر قليلا فى ليا عنها فى أية عاصمة من عواصم المستعمرات الأخرى ، ولو أن الجو الجنسي كان بالضرورة مقعما إلى درجة أكبر منها فى مدن هادئة من كوردوبا ومدن الأندلس . وكان المراقبون المعاصرون ينزعون إلى نقد الليا وايات على إسرافهن أكثر من نقدهن على أى نوع من الخلاعة . لأن اللاتي استطعن — وبعض من لم يستطعن ممن — كن ينزعن إلى اتفاق مبالغ طائلة على الملابس والمجوهرات والروائح الأجنبية التى قد تضيف إلى تجميل أشخاصهن الجميلة أصلا . ونستشهد بالكاتبين فريزييه ، المهندس الفرنسى ، الذى كان فى الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية بين سنة ١٧١٢ وسنة ١٧١٤ . فقد أبدى ملاحظات لاذعة على تبذير الليا وايات . فبالإضافة إلى ما ينفقنه على « أعلى الحرار ، وركبة اللهاتل الهائلة » فقد كن « لا يشبعن من ناحية اللآلىء والمجوهرات للأساو ، والمتديلات وحلى أخرى ، وكل ذلك على حساب تقويض « الأزواج وذوى الشهامة من الرجال » . وقال : لقد « رأينا سيدات عليهن ما يساوى ٦٠٠٠ قطعة من ذات الثمانية من المجوهرات (\*) » ، وأضاف : « لهن

(\*) Pieces of Eight ريال إسباني = ٨ ريالات .

بصفة عامة جميلات بدرجة كافية ، ولهن طلعة بهية وفتنة يتفوقن بها على سائر النساء في البلاد الأخرى . وهو يعد الليباويات رشيقات القوام بعيون وضوء و « حديثهن جذاب » . وهن يرضين « بالشهامة المنطلقة » من جانب الرجال الذين يردون عليهم بإجابات مازحة ، وأحيانا بإجابات بعيدة عن الموضوع . وعندما كان الرجال يتقدمون « بعروض فاضحة » إليهن علنا كن يشكرنهم على إطرائهم جاذبتهم ثم يذهبن لقضاء مهامهن . وكانت المرأة الليباوية تغورا بقدميها الصغيرتين وأحيانا تصرف ثروة صغيرة ما بين صانع الأحذية وصانع المجوهرات اتزنيهما . وذكر الفرنسي أيضا وجود ملجأ للنساء المطلقات أسسه أسقف سابق . وقال إن شغلته طلقن . لشكاوى من سوء التفاهم أو نقص في الصحة أو التراضى . ومن عجب أكثر أنهم يتزوجن بآخرين في وقت لاحق .

ووعلى الرغم من أن مدينة جواياكيل من أقل المدن جاذبية في أمريكا الجنوبية فقد اشتهرت من وقت طويل بجمال وسحر نساها . ولقد أطرى بحاران إنجليزيان نساء جواياكيل روى أحدهما ، وهو الكابتن بارل هول ، عنهن قال : « إنهن كن إلى حد فائق أكثر من قابلناهن في أمريكا الجنوبية مرحا وخفة روح ، بجانب كونهن أملح النساء وأرشقهن وأكثرهن وسامة . أما الكابتن وودس روجرز ، الذى عمل فى السفن التجارية التابعة للأسطول فى المحيط الهادى منذ من قرن من قبل ، فقد كتب عما كان يعمل به البحارة فى جواياكيل . كتب يقول : « كانت المنازل حول المجرى الأعلى للنهر خاصة بالنساء . وفى مكان معين بالذات كان هناك أكثر من اثنتى عشرة شابة وسيمة ظريفة حسنة الهندام وهناك حصل رجالنا على بضائع سلاسل واقراط ذهبية ، وفيما عدا ذلك كانوا يسلكون مسلكا مهذبا نحوهن لدرجة أنهم عرضن عليهم تهيئة الطعام وأحضرن لهم برميلا من الخمر . وكانت بعض سلاسلهم الذهبية الكبرى مخنفة وملقوفة حول حضورهن وأرجلهم وأغناذهن الخ

ولكن لما كانت السيدات في هذه البلاد الحارة يلبسن الملابس  
الحريرية والتيلية الرقيقة ، وكان شعرهن مربوطا بالشرائط بأناقة ،  
فإن رجالنا كانوا يحسون بالسلاسل عند الضغط الخ يشيرون بأيديهم  
وبواسطة ترجمانهم يطلبون هادب من السيدات خلع سلاسلهن وتسليمها. إلى  
أذكر هذا دليلا على عفة بحارينا واحتراما للمستركونلى والمرحوم  
المسترك سلكيرك حاكم خوان فرناندوس الذى كان يقود الجماعة . فلأنهم  
شباب كنت أرغب فى أن أنصفهم وآمل أن يرد الجنس اللطيف لهم  
المعروف عندما نصل إلى بريطانيا بسبب سلوكهم المؤدب نحو هؤلاء  
المسجونات الفاتنات اللاتي قصدوا منزلن للتموين عند عودتهم نحو مصب  
النهر . ولكونهم غاية فى الدماثة فى المرة الأولى فإنهم لم يقلقوا صاحبات  
المزل انجيليات ، ولم يفاجئوهن عند الزيارة الثانية . ويقابل السكايتن  
روجرز بوازع عدل من نفسه تحفظ بحارته الخجولين بمسك القراصنة  
الفرنسيين ، أو بالأصح لصوص البحار .

وعلى الرغم من أن مدينة المكسيك لم تطور مطلقاً نمطاً مميزاً من  
المرأة كما فعلت ليا ، فإن الحياة الاجتماعية فى عاصمة إقليم نائب الملك الشمالى  
لم تنقصها الفسائى غير العاديات . فمثلا كان هناك دونيا ماريادى مندوثا  
العجوز ، وهى حماة نائب الملك لويس دى فيلاسكو التى حاولت أن تدير  
شئون منزل نائب الملك والحكومة فى المكسيك ، والذى لم تكف عن الكلام  
حتى جاء يوم وهوى نائب الملك ، الذى قاسى طويلا ، عليها بشمعدان  
فضية . وكذلك كانت كثيرات من زوجات نواب الملك (\*) نساء مهمات  
بحقن الذائق ، مثل دونيا بلانكا دى فيلاسكو ماركيزة فيا ماريكى . وفى  
ذات مرة أقام رئيس دير خوشيملكو ، فرأى بدرو دى سان سباستيان ،

عيداً لبوكاشيو(\*) استمر أكثر من أسبوعين . وقد أسرف الناس في الشرب وإقامة المآدب والولائم والأفراح وغير ذلك من مظاهر العيد . وكانت زوجة نائب الملك وراهب من الرهبان يقذفان بعضهما بعضاً بالبرقال من القوارب السابحة في القناة ، ثم قذف جميع المحتفلين بعضهم بعضاً بمطر(\*\*) الذرة إلى أن أصيب فارس من الفرسان في أنفه ، وبدأ آخرون ينكفثون في الماء . وبعد قرنين من هذا التاريخ كانت ملكة جمال مدينة المكسيك « لاجوئيرا » ( رديجيث ) ، وهي سليلة أسر عريقة وممتازة في العاصمة . وبعد مداعبات مع بعض شباب من ضباط فرقة المشاة أمرت « لاجوئيرا » وأختها أن تتزوجا بأمر نائب الملك السيء السمعة : ريفاجيجندو العظيم . وكان هذا في سنة ١٧٩٤ . فتزوجت « لاجوئيرا » من خوسيه خيرونيمو لويث دى بيرالتا دى فيار فياميل ، وعاشت بعد موت زوجين آخرين حتى ماتت في سنة ١٨٥١ . وأنجبت ثلاث بنات جميلات تزوجن زيجات موفقة . ويعتقد أنها المرأة الوحيدة التي كان ألكسندر فون هوبولد يتوقف من أجلها فقط عن متابعة بحوثه العلمية . وعندما تسلمت مدام كالديرون دى لا باركا — الزوجة الأمريكية لأول وزير مفوض إسباني لجمهورية المكسيك — دعوة من « لاجوئيرا » وجدها لا تزال محتفظة بجمالها وجاذبيتها .

#### خمس من نساء المستعمرات

المرأة الإسبانية في عهد الاستعمار ، التي انحرفت إلى أبعد ما يمكن عن المثل الأعلى لبنات جنسها ، اختارت ، دون سائر الأشياء ، أن تكون جندياً ، واسمها كاتالينا دى اروسو ، ولكن اسمها الأشهر في التاريخ

(\*) الشاعر الإيطالي المشهور مؤلف « Decameron » — القرن الرابع عشر .

(\*\*) جم مطر : « النكون » .

والقصص ، الراهبة لإنسين . . ولدت في سان سباستيان في إقليم الباسك ، ولما بلغت الرابعة فقط أدخلها أبواها ديرا من أديرة الدومنيكان ، هربت منه بعد إحدى عشرة سنة لتتخذ الصورة التذكيرية التي كانت علامة لشهرتها . وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها أقفلت في سفينة من إشبيلية إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية . وهناك بدأت حياة مغامرة استمرت إحدى وعشرين سنة . وفي خلال أكثر هذه الفترة خدمت كحامل يبرق أو علم في القوات المسلحة ، ولفترة عملت تحت قيادة أخيها في الجبهة ضد الأروكان في تشيلي . ولما كان صدرها مستويا وأردافها غير بارزة ، وعضلاتها مفتولة ، استطاعت أن تحتفظ بادعائها حتى تبرات من تنسكها الرجولي ، فقط ، لتستأنفه بقية حياتها التي لا تمت بصلة إلى الأنوثة . ولما كانت تنزع إلى الشغب وحاذقة في استخدام السيف والخنجر كانه تحتال وتتفاخر في تنقلها في مدن الاندلس . وأخيراً بعد وقوعها في مأزق صاحب في جوامانجا أو أيا كوشو حيث اشتبكت مع حرس حاكم المدينة أدركت أن اللعبة قد انكشفت ، وألقت من على كاهلها الحمل ، بالإفضاء إلى الأسقف المحلي . وفي عدم ارتياحها وهي تلبس جلباب الراهبة غير المناسب لزمت ديراً محلياً في سانتا كلارا حتى أمكن عمل الترتيبات لنقلها إلى إسبانيا . وفي وقت لاحق زارت إيطاليا حيث استقبلها البابا وأصبحت مثار العواطف في جنوب أوروبا وبعد أن فترت حدة تحولها إلى السلوك الحسن ، وكتبت تاريخ حياتها ، انتابها القلق . وأخيراً عادت إلى العالم الجديد وأنهت أيامها الباقية في إقليم نائب الملك الشمالي حيث امتلكت وأدارت قافلة من بغال الحمل على « الطريق الملكي » (\*) بين فيراكروت ومدينة المكسيك . ولم تروض السنون الروح المحاربة التي اتصفت بها

المكارية(\*) المشهورة ، وأصبح مزاجها الحاد خطراً شائعاً في الفنادق المتناثرة على جانبي الطرق في المكسيك كما كان في أيام شبابها في بيرو .

وفي أواخر عهد الاستعمار اتى ستيفنسن امرأة هامة في وادي شانكاى في بيرو ، وكانت تعرف باسم « بنت الحى »(\*\*) وكان الناس في الأرجاء المجاورة يحترمونها ويهابونها . يقول : « كانت قامتها تبلغ ست أقدام . وكانت مغرمة جداً بالتمرينات التي يقوم بها الرجال . ولم يكن شيء أحب إليها من المساعدة في القبض على العبيد الأبقين أو اللصوص الذين يقطعون الطريق بين هذا المسكان ولما . وقد تمتطى جواداً خفيف الحركة — منفجرة الساقين — وتسليح نفسها بحزام معلقة به غدارات (طنبجات) . ورحلاً ، فإذا انضم إليها ثلاثة أو أربعة رجال فقد تكون لعصابتها رهبة أكبر من رهبة ضباط شرطة الفرسان(\*\*\*) . ولقد زرتها في محل إقامتها . ووجدتها أكثر المساماة بالآداب من عامة النساء الوطنيات . وكانت صريحة ومفضالة ولطيفة ، وتدير مزرعتها الخاصة ، وهى مزرعة قصب سكر ، بأحسن ما تكون الإدارة ، وتشرف بنفسها على جميع مراحل العمل . »

وعاشت دونيا كاتالينا دى لوس ريوس دى ليسپرجر . وأشهر ما يعرف به اسمها في تاريخ الشناعة « بالكنترالا » ، في تشيلي في العقد الأول من القرن السابع عشر . وكانت صاحبة مزرعة في الأراضى الغنية في الوادى الأوسط ، وامرأة لها نفوذ في المجتمع الريفي فيما هو الآن ولاية اكنكاجوا . وكانت خليطاً من ثلاثة شعوب — هندي وإسباني وألماني — وبدا كما لو أن الانفعالات تسلك في طبيعتها مسلكاً متناقضاً . فقد كانت

(\*) مربية البغال والخيول .

La Nina de la Huaca (\*\*)

encapados (\*\*\*)



سليمة بارثولوميس بلومثال ، وهو ألماني من أولئك الألمان الشارين ، وكان يظهر بين آن وآخر في الفتح . ولكي تكون له شخصية أكثر التصاقا بزملائه الإسبانيين ، غير مواطن نورمبرج هذا اسمه إلى فلورس . وكان له ثلاثة أطفال مولدون من الفيرادي تالاجاتي التي كانت ابنة زعيم من المابوشو في الأرجاء المجاورة . وفي مكان من الفرجة بين بلومثال ودونيا كاتالينا طعمت شجرة الأسرة بفرع إسباني ، وكان ما حملته الشجرة الممحنة نهائيا ثمرة سامة .

وكانت الكسنتريالا ، سفاحة تنلذ بالقسوة . قتلت أبيها ، وقسيسا كان عشيقا لها ، وعددا آخر من المدنيين اعتادوا ألا يترك أحد منهم منزلها وهو على قيد الحياة ، وفي مجتمع كان لا يزال يتخذ الموت شيئا عارضا تماما ، أصبحت العواقب المهلكة التي ترتبت على سخطها في النهاية ماثرا للفضائح العلنية . وأدت إلى محاكمتها أمام محكمة عليا حكومية (\*) . ولكن القضاة كانوا رحماء جدا بالقائلة التي كان لها نفوذ في الأوساط العليا ، وحكموا عليها بأن تلتزم دارها فترة من الزمن ليس إلا . وهناك انحدرت مرة ثانية إلى أساليبها القديمة ، ولكن ضحاياها منذ ذلك الوقت كانوا من الطبقة الدنيا الذين اعتمدوا عليها في كسب قوت يومهم في المزرعة ، بمن لم يكن لهم أصدقاء في الأوساط العليا . وعندما توفيت ضمت يداها الائتمنان على صدرها ، ونقل جثمانها ليستقر في الكنيسة الأوجستينية في سانتياجو . غير أنه لفترة ما أصبحت الحياة أكثر أمنا في تشيلي .

وولدت خوانا دي أسباخي إي راميرث دي ساتيانا في سنة ١٦٥١ في بيت في مزرعة مكسيكية بالقرب من قرية سان ميغيل نيبانثلا . وعلى الطريق الرئيسي الذي يمتد اليوم من العاصمة ويمر من خلف البراكين ثم ينزل إلى

كواوتلا في الأراضي الحارة ، ، توجد على جانب الطريق لافتة مكتوب عليها «نيبانتلا دي سورابنيس» ، فهي ، لوجه الله الذي وهبت له ريعان حياتها القصيرة ، وللأوساط العلمية والعالمية الذين كرمت لهم ثمرات عبقريتها الشعرية ، سورخوانا لينيس دي لا كروث ، راهبة ، ودة أهم شخصية أدبية في أمريكا الإسبانية في عصر الاستعمار . وكانت طفلة نابغة ، لها منهم لا يشبع في كل ميادين العلم . وعندما اكتملت أنوثتها في المدينة لم يكن شيء سوى حيوية عقلها وعذوبة خيالها هما اللذان أنقذاها من أن تصبح امرأة مدعجة العلم في بيئة كانت مكثفية أصلاً بمدعى العلم . وعلى الرغم من شهرتها المعاصرة ، هناك فجوات كبيرة في حياتها ، ولذلك فهي مشار لكثير من الآراء والجدل .

ففي سنة ١٦٦٥ - وكانت حينئذ قد بلغت الرابعة عشرة فقط - كانت وصيفة مفضلة لدى زوجة نائب الملك دونيا ليانور كاريتو ماركيزه مانسيرا ، وبعد سنوات من هذا التاريخ ، وكانت قد أصبحت راهبة ، قدر لها أن تكون صديقة وأمينة سر لزوجة نائب ملك أخرى هي كونديسة دي باريديس .

وفي سنة ١٦٦٧ دخلت لأول مرة ديرا ، وبعد سنتين أصبحت راهبة في فرقة الهيرونييمين (ه) ، وكانت لا تزال في الثامنة عشرة من عمرها ، وقضت الست والعشرين السنة الباقية من عمرها في الدير . وأحضرت معها إلى الدير من العالم الذي أنعمت عليه بفضلها وسحرته القدر الذي سمحت به رئيسة الدير والأسقف والمعرف . وفي صومعتها ألفت مقداراً كبيراً من القصائد - أناشيد طويلة ودينية في وحيها ، وروايات قصيرة للناسبات الخاصة الرسمية . وعملت أيضاً أمينة للمسكبة والملفات بالدين ، وقامت بنصيحتها في العمل الخيري الذي كلفت به الراهبات .

ولم تبد حياتها مرة واحدة على نمط واحد أو ملكا لها فترة طويلة إلا إذا

تعرضت شخصيتها لمؤثرات متضاربة لاعدادها - السكينة ، وبلاط نائب الملك ، وصنوف التعصب والتقاليد المتأصلة في المجتمع الإسباني . فقد كانت من الناحية العسكرية فوق المجتمع الذي كانت تنقل بين ظرائفه . سواء أكان ذلك في داخل الدير أم خارجه . ولم تنسجم عقليتها بعقلية أخرى سوى عقلية كارلوس دى سيغيونثا إلى جوبجورا الأديب الأول في إقليم نائب الملك . كتبت ذات مرة تقول : « إن الدراسة أمر فيه خطورة للنبي ، لأنها مجرد وضع سيف في يدي وحش ، فالتعليم - وهو الأداة النبيلة للدفاع - يصبح في يده أداة للانتفاع الشخصي وللكثيرين غيره ، . وكانت رائدة سابقة لأوانها من رائدات الحركات النسائية في دنيا رجال محدودة ، وكانت تتمتع بمرارة أن سقط في يدها عندما كانت تحاول تغيير الحال لصالح المرأة « تلك الروح المسكينة التي تعد خرقاء عادة . ولعلها في السنوات القليلة التي سبقت رهبنتها لم تقابل رجالا يروق لها أن تضحي من أجله شيئا من الاستقلال الذي استطاعت الحفاظ عليه إزاء مختلف الاضطرابات التي كانت تنوء بها روحها المتعالية . فحياتها العاطفية ، كحياة القديسة تيريزا دى أفيللا كان لا بد أن تنتهي باللجوء إلى الورع الديني . وقد تكون قصائد الحب الملتهبة التي كتبتها موجهة إلى قبي أحلام لم تحظ أبدا بمشاهدته .

وكانت مانويلا ساينث أشهر سيدة مجتمع كانت عشيقة لسيمون بوليفار ومع أنها لم تكن الوحيدة لعاشق النساء هذا ، فإنها كانت أطولهن مكنًا . وقد ولدت في « أسرة طيبة » في مدينة كيتو في سنة ١٧٩٧ . وعندما بلغت سن العشرين تزوجت من جيمس ثورن ، وهو تاجر إنجليزي ومدير لحركة ملاحية ، وكان يعيش في ليا . وفي تلك السنين التي كانت تتدهور فيها سلطة إسبانيا في بيرو عرفت الكثير عن الرجال والنساء معرفة قدمتها في وقت لاحق لتكون تحت تصرف عشيقها الشهير . وفي أثناء ذلك تأمرت ، وهي الثائرة بالفريزة ، مع جمعية الوطنيين السرية في ليا ، الأمر الذي استاء منه زوجها كثيرا .

وقابلت بوليفار لأول مرة في مسقط رأسها كيتو في مرقص احتفالا بانتصار بيشفشا على الماسكيين . وكان هذا في سنة ١٨٢٢ . وفي خلال سنوات المجد الثماني - والتي انتهت بالحسرة - التي بقيت له - كانت مانويلا « مغفلته المحبوبة » المرأة التي لا غنى له عنها مهما تكن مداعباته الوقتية للنساء . ولما كانت هي شجاعة وذات عزيمة ولا تفكر في تسلية أو راحة شخصية فقد كانت المثل الأعلى لرفقة محارب متبرم عصبي الإحساس مثل بوليفار . كما كانت سريعة البديهة بشكل غير عادي ، وبالتالي تقوم بدورها من وراء ستار ، أو تؤكد له إذا دعت الحال . فقد حمت مصالحه وحياته ضد أعدائه الكثيرين ، الظاهرين منهم والخافين وفي السنوات الإحدى والعشرين الأخيرة من حياتها كانت تدير دكان طباق في پايتا ، المدينة الساحلية الكثيفة في شمال بيرو . ومن الذين قاموا بزيارتها هناك سيمون ردريجيث المدرس الغريب الأطوار الذي كان يعلم عشيقها المشهور ، وألكسندر رودن ، من سنسناقي ، وكان القنصل المحلي لأمريكا ، وجوسيف غاريبالدي ، وهرمان ملفيل .

وعندما انفصلت نهائيا عن زوجها في سنة ١٨٢٥ ، وهي السنة التي تلت أياكوشو ، كتبت إليه الرسالة التالية : « سيدي ، إنك ممتاز ولا تهناها . ولكن يا صديقي ليس بالامر الهين أن أتركك من أجل الجنرال بوليفار . إنني إذا هجرت زوجا ليس له مزاياك فقد يكون ذلك أمرا هينا . فهل تظن لحظة أنني بعد أن أحبني هذا الجنرال سنوات ، وبالأمان الذي حصلت عليه من امتلاك قلبه ، أنني قد أختار أن أكون زوجة حتى للأب أو الابن أو روح القدس ، أو هم الثلاثة معا ؟ إنني أعرف جيدا أنني لا أستطيع أن أقترن به بحكم قوانين الشرف كما تسميها ، ولكن هل تعتقد أنني أشعر بأنه ينالني شرف أكثر أو أقل بسبب أنه عشيق وليس زوجي ؟ إنني لا أعيش من أجل أنواع تعصب المجتمع ، تلك التي فرضتها الجماعة واخترعتها لكي يعذب بعضنا بعضا ليس إلا !

« دعنى أعش يا عزيزى الانجليزى ، دعنى أعش . ودعنا بدلا من ذلك نعمل شيئا آخر لأنفسنا . إن واجبنا أن نتزوج عندما تصعد روحانا فى السماء . أما على هذه الأرض - فلا - ، ففى بيتنا فى السماء سوف نحيا حياة روحانية كلية ، وهناك كل شيء سيكون بريطانيا فى الصميم ؛ لأن السآمة هى من اختصاص أمتك فى الحب ، ذلك لأنهم أكثر هياما بإدارة الأعمال . فأنتم تحبون بلامتعة ، وأنتم تتحدثون بلا أناقة ، وأنتم تمشون فى غير عجلة ، وتجلسون باحتراس ، ولا تضحكون حتى على الملع التى تطلقونها بأفواهكم . هذه سجايا إلهية ، ولكنى بشخصى الفانى التيس وأنا أستطيع أن أسخر من نفسى ، أسخر منك أيضا ، مع كل هذه الجدية الانجليزية ... » .

### المرأة والاسرة فى الجمهوريات

مع الاستقلال والجمهوريات بدأ عصر جديد فى مجتمع أمريكا اللاتينية . وحدثت التغيرات ببطء ، ولكنها بدأت مبكرة على طول السواحل حيث قامت المؤثرات الأجنبية بدورها فى حرية أكثر . فوصلت إلى بوينس آيريس قبل وصولها إلى كوردوبا وسولتا بفترة طويلة ، وإلى جوايا كيل قبل وصولها إلى كيتو وكوينكا . وعلى الرغم من الهزة التى أتت بها الاستقلال فإن بعض الأساليب والأنماط الاستعمارية التى تمثلت فى إسبانيا كانت متأصلة إلى درجة جعلتها لا تتغير تغيرا جذائيا . وأدى كثير منها أغراضها بدرجة فائقة بحيث لم يصرف النظر عنها لمجرد أنها تذكرة للسيطرة الإسبانية . وكذلك كانت هناك عناصر رجعية فى المجتمعات الجديدة . عقدوا العزم على الاحتفاظ بأكثر ما يمكن من النظام القديم . ولذلك فإن التلكؤ فى قبول التغير كان نتيجة للرضا بالعادات القديمة ، ورجعية الكنيسة التقليدية . وقوة الاستمرار السلبية ، والعزلة . ولكن الشيء المهم هو أن أنواع القمع والكبح التى فرضها القانون والسلطة الإسبانية

تلاشت في ذلك الوقت ، وأن الفجوة التي تركتها كان يمكن ملؤها بشيء مما يختاره ويصنعه الناس أنفسهم .

وكان الاختلاف الرئيسى هو في الروح الجديدة التي غمرت الشعوب المحررة . وفي أغلب الأحيان لم يشعر الناس بها فترة من الوقت في أول الأمر ، شأنها شأن أى شيء لم يتعوده الناس . شيئا فشيئا بدأوا يشعرون أنهم أحرار في صنع عالمهم من جديد إذا رغبوا في ذلك . وعرف الخلاسيون مركزهم في النهاية . وانتاب الناس إحساس جديد بأهميتهم ، فلم يعودوا بعد رعايا ، أو إسبانيين من الدرجة الثانية ، ولكنهم أصبحوا حينذاك مواطنين في بلاد هي بلادهم ، لا بلاد ملك إسبانيا . وتفتحت أمامهم ميادين جديدة لأطماحهم ، واتخذت الحياة معنى أعظم بالنسبة إليهم . فلقد أصبحت شيئا أكثر من نمط من البهجة والألم ، أو اللحم والصدى في نسيج الزمن ، شيئا أكثر من مجرد طريقة لقضاء الفترة بين ميلاد الشخص ووفاته . وكان هناك أيضا سماحة نحو الشعوب المختلطة ، إدراك لشعور الأخوة الذي كان في الواقع دينيا وإسبانيا ، ولكن عوقته فيما مضى الاغتيارات السياسية . حينذاك بدأ المولدون من هنود وغيرهم من المهجنين يحدون في المجتمع والدولة المركز الذي تستأمله خدماتهم ونبوغهم . وأفاد النساء أيضا من الإحساس الجديد بالأهمية ومصالح رجالهن الجديدة ، وكذلك من الحيوية العامة التي طرأت على المجتمع والتي تبعت الاستقلال في نهاية الأمر .

وفي خلال القرن الحالى كانت هناك صنوف شديدة متزايدة من التضييق على النمط العادى للعلاقات بين الرجال والنساء ، وعلى نظام الأسرة التقليدى بصفة عامة . وبعض هذه تمثل القوة المتراكمة للاتجاهات التي ظلت من قبل مدة طويلة تتطور في ظل الجمهوريات ، وبعضها جديد نسبيا وأكثر ثورية في طبيعته . ويتعرض مركز النساء في الأسرة في

علاقته بالمجتمع الأكبر الآن إلى عدد من المؤثرات ، بعضها خارجي ، وبعضها وطني صميم في نفس الوقت .

ولا مفر من أن يؤثر العدد المتزايد من الأمريكيات أو النساء القاديات من غرب أوروبا ويقمن في دول أمريكا اللاتينية أو يتنقلن في ربوعها بضرب المثل على أحوال وعادات النساء المحليات اللاتي يراقبنهن أو يقابلنهن بطريقة اجتماعية . ويمتد هذا التأثير ، لا إلى الأشياء الخارجية فقط ، كاللبس والأساليب المتبعة في « عمليات التجميل » ، ولكن إلى مناسبات معينة ، مثل احتساء الخمر ، وتدخين السجائر ، وقيادة السيارات ، والانغماس في الألعاب الرياضية ، وبروتوكول الرقص المختلط ، وبصفة عامة ، إلى إهمال علني للمحظورات القديمة . ويؤدي الجو العالمي السائد في الحى الدبلوماسي المحلي وكذلك نادى الريف عمل المؤثر السكامن الذى يتفاعل مع العادات الاجتماعية ويلطف من حدة التعصبات .

وبطريقة مماثلة دخلت المؤثرات الأجنبية من خلال السبيل الذى سلكته نساء أمريكا اللاتينية اللاتي عشن أو سافرن إلى الخارج . وكثيرات من تعلمن منهن في مدارس الاديرة أو كليات مدنية في أوربا أو الولايات المتحدة جنن ومعهن مدخر من الآراء الخارجة عن المنهاج لأغراض تجريبية . فقد اعتادت زوجات وبنات الدبلوماسيين ورجال الأعمال والمهنيين أن يذهبن بعيداً عن منارهن في جولات يشترين فيها ما يلزمهن ، وفي إجازات طويلة يقضينها في بلاد ذات أساليب غير تقليدية . ولما كن يزعن ، ويزددن نزوعاً ، إلى السفر بدون أن يلزمهن رجالهن فقد كن مهمات ليتعلمن كثيراً مما له اهتمام مباشر ، ويمكن تطبيقه ، في حل مشكلتهن الحالية ، مع أن كثيراً من نفس هذه الانطباعات يمكن اقتباسها من الأفلام الأجنبية في صورة أكثر تمثيلاً ، وإطار متفنن وهن مقيمات في بلادهن . وعلى الرغم من أن مدى أثر هوليوود السكامل في العادات

في أمريكا اللاتينية مجال للأخذ والرد . فما لا شك فيه أن أثره في العلاقة بين الرجل والمرأة هناك عظيم . كذلك فإن انتشار المجلات الأمريكية خصوصا الطبقات الإسبانية والبرتغالية من المختار ، عامل في ترغيب الناس في التغييرات الاجتماعية .

والمدن الكبرى هي العدو الطبيعي للأسرة التقليدية في أمريكا اللاتينية . فإن نمو تلك المدن العملاقة . مثل مدينة المكسيك وساو باولو ، لا يعد نذير خير للبيت الأبوي الذي مضى وقته . إن وضعه الطبيعي ، حيث وصل ازدهاره إلى الذروة ، كان في بلد هادئ مثل أريكيما وبانيما في عهد الاستعمار . أما في المدينة التي لا تعبأ بالآفراد فقد فقد النظام كثيرا من سيطرته على أعضائه ، إذ كان عليه أن ينافس نداء الولاءات والاستمالات الدخيلة مثل مباحج النشاط التجاري ، وكان معرضا بصفة خاصة إلى النتائج المدمرة التي سببتها المؤثرات الأجنبية . وعلى الرغم من أنه استمر بكثير من قوته في الأوساط الأهدأ من السكان ، فقد أحس بأن زمنه قد ولى في المدن الجديدة فيما يتعلق بالأجيال الحديثة .

ولا تتمشى آلية الحياة الجديدة مع الأساليب القديمة . فقد كان سير الحياة بليدا وفي غير عجلة وفسيح الأرجاء ، فأصبح أكثر تعقيدا وموضعا للمقارنة وعاجلا . وفي البيوت الكبيرة ، التي امتاز بها النظام القديم كان هناك متسع من الوقت لكل شيء ، ومكان لكل إنسان - أفراد الأسرة الأقربين ، الأجداد ، والشرذ من الأقارب ، والخدم . وكانت هناك أجزاء من المنزل للأبنساء المتزوجين ، فيها كانوا يعيشون مع عرائسهم حتى يستطيعوا أن يبنيوا لهم بيوتا خاصة . وبالإضافة إلى الغرض الأساسي الذي أقيمت من أجله فقد قامت البيوت بوظائف الفندق ، ومحكمة تفصل في علاقات ذوي القربى ، ونظام للتأمين الاجتماعي . ولقد أجبر اكتظاظ السكان في المدن الناس أن يسكنوا في شقق ، أو مساكن غير مريحة تسمى



« فيلات » . وبخنتى صحن الدار وكل شيء كان يمثله ، وبدلاً من ذلك توجد الآن ردهات أمامية ، كما في المدن الأمريكية ، لا يجد المرء فيها مجالا للاسترخاء أو اللعب كما كانت الحال سابقا في الصحن الذى كان يشبه مكانا رحبا وملجأ آمنا في قلب الدار .

ولذلك فبسبب الثورة التى طرأت على الإسكان ، هناك أناس قليلون يسكنون تحت سقف واحد . أما الأسر التى عاشت معاً فيما مضى كفتنة سلاية مكتفية اكتفاء ذاتيا ، فتتوزع الآن إلى الانتشار حول المدينة والريف . ففي ريو دى جانيرو يستطيع المرء أن يلاحظ التغير فى المقابلة بين لارانييراس وكوپاكايانا ، وفى مدينة المكسيك التغير فى المقابلة بين كويوسان ولوماس دى شابولتيك .

وفى أمريكا اللاتينية ، كما هو الشأن فى أرجاء أخرى من العالم ، أثرت انعكاسات الاقتصاد أيضا على مركز المرأة والأسرة . فقد فتحت الصناعات الحديثة الباب لوظائف تشغلها النساء ، وكثيرات من أولئك العاملات فى المصانع يأتين من قرى الولايات ، وربما كن يعملن كخدمات فى المدن لولا المصانع ، ومهما يكن المورد الذى يأتين منه فإن توظيفهن فى الصناعة ينزع إلى إيجاد نقص فى المساعدة فى الخدمة المنزلية وإلى رفع أجور الخدم . ومن ناحية المهنة دخل النساء فى أول الأمر فى مهنة التعليم بأعداد جمة ، وأتاح انتشار التعليم فى المدارس الإلزامية لهن فرصا كثيرة . ولم يجذبهن التمريض إلا بعد انقضاء وقت طويل ، ولكن آلافا منهن يعملن الآن فى المستشفيات وخدمة الصحة العامة والنساء اللاتى يعملن فى المكاتب ظاهرة مألوفة فى كل مكان فى الأعمال التجارية والوظائف الحكومية ، ويزداد عدد البائعات حتى أصبحن القاعدة فى محلات البيع بالتجزئة .

و « المرأة العاملة » — كما هى فى الولايات المتحدة — المرأة غير المتزوجة ،

أو المتزوجة التي لسبب ما أولغيره ( الناحية الاقتصادية ، السأم ، الطموح ، روح سنة ١٧٧٦ ( \* ) ، أو عدم المبالاة بالرجال ) تسلك مسلكها الخاص في العمل أو المهنة - هذه المرأة قد ظهرت في أمريكا اللاتينية ، ومع ذلك فليس الجو مناسباً حتى الآن لبلوغها الذروة في هذا ، ولم تعد بعد شاذة بدرجة تكفي لتصبح موضوعاً للنقد من أخواتها اللاتي يتمسكن أكثر بالتقاليد .

وهناك مجتمعات تعد النساء فيها عماد الاقتصاد المحلي أو جزءاً مهماً منه ، خصوصاً الطبقات الدنيا . وأحياناً نجد النساء مجرد ناهلات لظاهرة تقسيم العمل التي كانت عادة مألوفة بين الهنود ، إلى نظام جديد وأكثر تطوراً . وأحياناً كان نقص الذكور من السكان بسبب الحرب أو الهجرة يترك مسؤولية بقاء الجماعة على عاتق النساء . حدث هذا في باراجواي بعد الحرب ضد التحالف الثلاثي المكون من البرازيل وأرجنتين وأوروغواي . وربما تساعد نفس الظروف على تعليل تفوق نساء التهوؤا في جنوب المكسيك . وقد يكون من العسير في الواقع أن تتخيل المكسيك بدون تأثير نساءها المثار والموطد على الرجال ، وقد جبل هؤلاء على التقلب والعنف إلى درجة كبيرة . وفي عاصمة بوليفيا أيضاً تفوقت الطبقة العليا من النساء المولدرات كثيراً على الرجال من نفس الطبقة . وكما هو الشأن في باراجواي فإن إدارة مختلف الأعمال التجارية البسيطة في لا پارت احتكاراً لهؤلاء النساء اللاتي يلبسن القبعات الصلبة المطلية والأحذية ذات الرقبة والأزرار ، واللاتي اتصفن بالجلد والاعتماد على النفس . وفي إقليم توينتا في بوليفيا عادة ما تسيطر النساء ذوات العقلية الصارمة على الرجال ، ويدرن الأعمال في الحى . وأحياناً نجد أن عدم تمسك الرجال بالرسيمات العالمية قد أسند

(\*) إعلان توماس جيفرسون ( ٤ يولية سنة ١٧٧٦ ) بأن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لضمان حق الحياة والحرية والرفاهية .

عبء الإشراف على الأسرة - والمجتمع المحلي - معا مناصفة على أكتاف النساء اللاتى يركن إليهن .

وهناك ظاهرة عامة قد نفذت إلى محيط الأسرة ، ذلك المكان المقدس الداخلى فى الحياة الإسبانية ، وملجأ الإسبانين الشائع مع ضغط نوايب الدنيا على النفس البشرية . وهى تقر بأن غرضها حميد - رعاية وحماية هذا للنظام الأساسى للمجتمع الإشباني وما يتعلق به من متع مساعدة ، مثل الزواج وتعليم الأطفال . ومع ذلك ، فإن النهاية المنطقية لهذا الاتجاه قد تكون بالتأكد الإضعاف المتعمد للأسرة كمنافس لولاء المواطن الفرد .

وتبدى أحدث تمرات الدساتير القومية اهتماما كبيرا بتحرير الأسرة . فقد نص فى القانون الأساسى لبوليفيا أن « الزواج والأسرة والامومة تكون تحت حماية الدولة » . أما دساتير كوبا وبيرو وجمهوريات أمريكا الوسطى فتعبر عن نفس الفكرة فى نصوص مشابهة إلى درجة كبيرة . وتعد جمهورية ال سلفا دوريسن وقوانين ونصوص لتحسين حالة الأسرة من النواحي المعنوية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ، ولتشجيع الزواج ، . وتعلن عدة دول نفسها مشجعة للزواج وتسهل الإجراءات القانونية لتحويل نظام المحظيات إلى زواج قانونى عادى . وبينما يعلن الدستور البرازيل أن الزواج لا تنقسم عراه فإن الدستور الكوبى فيه نص على إمكان الطلاق فهو ينص على أن ، الزواج يمكن فسخه بالاتفاق بين الزوج والزوجة أو عند تقديم دعوى من أى الطرفين ، . وعلى الرغم من أن عدة دول تعترف بالمساواة القانونية بين الجنسين فإن الكوسين بصفة خاصة يؤكدون هذا الأمر . وبموجب الوثيقة الكوبية : « تتمتع المرأة المتزوجة بمزايا السكفافية المدنية على قدم المساواة بدون ضرورة للحصول

على تصريح من الزوج ، أو تفويض لى تدير ملكية ، وتمارس التجارة بحرية ، وتعمل فى صناعة من الصناعات ، وتحترف مهنة من المهن ، وتمارس فنا من الفنون ، وتشغل وظيفة من الوظائف ، وتتصرف فى حصيلة عملها . ومن ناحية أخرى يتمسك أهالى نيكارا جوا بمسألة المساواة فى الحقوق ، وبعد إعلان مبدأ المساواة يضيفون تنازلا مضمونه عبارة « فيما عدا ما يختص بالنساء المبني على الاختلافات السكانية فى طبيعتهن أو فيما يتعلق بهالح الأسرة » . وبموجب دستور پاراجواى « تنظم حقوق النساء المدنية بالقانون مع مراعاة وحدة الأسرة ومساواة الرجل واختلاف وظائفهما فى المجتمع كل فيما يخصه » .

وتبدي عدة جمهوريات اهتماما كبيرا بتأمين الأسرة اقتصاديا ، وتتخذ الخطوات لتأمين التوارث العائلى ضد الحجز التحفظى أو نقل الملكية . وليس هناك على وجه الاحتمال بلد من بلاد العالم تظهر الدولة فيه مثل هذا القلق لحماية سلامة الأسرة . وينعكس هذا فى جداول ربط الضرائب وقوانين الإبراد التى تنزع إلى أن تكون مواتية إلى درجة كبيرة لرب البيت ، والتى عند التطبيق الفعلى تؤمن فى واقع الأمر الملكية العقارية ضد الحجز بسبب عدم أداء الضرائب المستحقة . وتتمثل صورة شائعة من هذا التشريع فى نص من نصوص دستور پاراجواى يعين أن « كل بيت فى پاراجواى يجب أن يقام فوق قطعة أرض مملوكة » . وتنعكس الصرامة التى يحمى بها المواطنون فى أمريكا اللاتينية ممتلكات الأسرة العقارية ضد تدخل الحكومة والجمهور بوضوح فى نص الدستور البرازيلى الذى يقول : « إن البيت هو الملجأ المصون للفرد » .

وتعبر كثير من الدساتير عن اهتمامها بسعادة الأطفال ، وهى عاطفة قوية بين سكان أمريكا اللاتينية . ودساتير كوبا وبنما وأورو جواى صريحة بصفة خاصة فى هذه الناحية . فينص الدستور الكوبى على أنه « يجب على

والوالدين أن يعولا ويرعيا ويريا ويعلما أطفالهما ، وعلى هؤلاء أن يحترموا ويساعدوا أبويهم ، وهكذا يكون الالتزام في الأسرة متبادلا . ويذهب القانون إلى حد إعلان أن الأطفال والشباب في حماية من الاستغلال ومن الإهمال الخلقى والمادى ، . ونص الدستور في بنما شبيه بنص الدستور الكوبي . وبموجب الدستور في أوروجواى : « رعاية وتعليم الأطفال حتى يصلوا إلى ثقافتهم الكاملة الجثمانية والفكرية والاجتماعية هى واجب وحق الوالدين .. » وسيتخذ القانون الإجراءات الضرورية لحماية الصبيان والأطفال من الآباء والأوصياء الذين يهملونهم جثمانيا وفكريا وخلقيا ، وكذلك ضد استغلالهم وإساءة استخدامهم » .

وتقرر كثير من الجمهوريات المساواة في المعاملة بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . ولما كان معدل الأطفال غير الشرعيين مرتفعاً جداً في معظم بلاد أمريكا اللاتينية فإن هناك نصاً من هذا النوع كانت له آثار اجتماعية بعيدة المدى . وينص الدستور البوليفى حرفياً على أن القانون لا يعترف بعدم المساواة بين الأطفال ، وهذا نموذج من نقوى الدساتير بصفة عامة . ويحدد دستور بنما أن « على الآباء نفس الواجبات نحو الأطفال الذين يولدون خارج نطاق الزواج كما هى نحو الأطفال الذين يولدون داخله » ، وفى حالة الميراث بلا وصية فإن كل الأطفال يشتركون بأنصبة متساوية فى بنما . أما فى إكوادور فإن الطفل غير الشرعى لابد أن يناله على الأقل نصف نصيب الطفل الشرعى . وهناك فى كل مكان نزوع إنسانى للإقلاع عن كل أنواع التمييز المجحفة للأطفال « غير الشرعيين » قد يصل إلى مدى فيه تمحى من سجلات ميلادهم أية نسبة إلى عدم شرعيتهم قد تقف فى سبيل تقدمهم .

وكما يتبين من الدساتير الجديدة ، هناك نزوع عام نحو منح النساء حق الانتخاب . ولا يرعى أو يشجع حركة إعطاء النساء حق الانتخاب أية

جماعة حرية من النساء ، لأنها لا توجد في أمريكا اللاتينية ، ولكن تساندها العناصر الحرة التي قد توجد في أية أحزاب سياسية . وتهمى جمعية نساء أمريكا اللاتينية منصات للخطابة في أرجاء القارة للثارة التي تقوم بها بضع نساء رائدات ومنفردات ، ولكنها في الغالب ذات علاقة ضئيلة جدا بالمكاسب التي نالتها نساء أمريكا اللاتينية في الميادين السياسية والقانونية والاجتماعية . والقاعدة هي أن النساء حتى الآن غير واعيات سياسيا ، وعندما يختنمن فعلا حق التصويت فإن الحصيلة الناتجة تنزع إلى أن تصبح سببا في مضاعفة الارتباك العادية التي تفتاب السياسة . ومع ذلك فقد أعطى حق الانتخاب النساء أداة يستطعن بها التأثير في المشرعين الوطنيين كي يسنوا تشريعا للرفاهية هن في حاجة ماسة إليه . وفي عدة مناسبات لم يترددن في انتهار وتخويف المشرعين المترددن بتهددهم أنهن سوف يقصونهم عن مقاعدهن في الانتخابات التالية . ومن بين جميع الجمهوريات اغتتم النساء أكثر فرصهن السياسية في تشيلي حيث لا يذهبن إلى صناديق الانتخاب بأعداد جمّة فحسب ، بل إن كثيرا منهن يشغلن وظائف عامة ، بل قد نلن مقاعد في المؤتمر القومي .

وتنص قوانين الانتخاب في تسع جمهوريات صراحة على الانتخابات العامة بدون تمييز للجنس فبينما يحق لأي ذكر في جواتيا لا بلغ سن الثامنة عشرة أن يدلي بصوته ، فإن على المرأة كذلك أن تكون قادرة على القراءة والكتابة قبل أن يسمح لها بالتوجه إلى صناديق الانتخاب . وفي هندورس المجاورة فإن الانتخابات مقصورة على الرجال . أما النساء في بيرو فيستطعن الادلاء بأصواتهن في الانتخابات البلدية . ومع أن دستور سنة ١٩١٧ المكسيكي شمل النساء كمواطنات لمن حق الانتخاب فإن المؤتمر بعد ذلك اتخذ موقف تدمر لإزاء تطبيق النص الدستوري : ولم يصدر التشريع الذي خوله التطبيق إلا في سنة ١٩٥٣ فقط .

وعلى الرغم من تهديد القوى الجديدة المربصة فقد وضح أن نمط الأسرة في أمريكا اللاتينية ، قد تغير تغيراً ضئيلاً في أساسياته فلا تزال الأسرة تحتفظ بالقوة والتماسك اللذين قلما يوجدان بين السلالات الأمريكية القديمة في هذه البلاد . فهي تدار بمجموعة مقبولة ومتزنة من المسؤوليات والسلطات ، إلا بين الطبقات الدنيا حيث يحتمل وجود عبوثة لا يستهان بها للأهواء والأمزجة الفردية في روابط الأسرة . وفي مستوى المجتمع هذا هناك احترام قليل للعرف ، بل يوجد عادة زوع عملي حر وسهل فيما يخص بتقاليد وقواعد السلوك . فهناك في الواقع يهرف النظر عادة عن رسميات الزواج ، وليس هناك مستوى مزدوج كما بين أفراد الطبقة الذين يفضلونهم ، اجتماعياً .

ويؤدي الزواج غرضه الحقيقي بدرجة تفضل كثيراً ما هو عليه في الولايات المتحدة . فلا يقدم الشاب والشابة عليه باستخفاف وطيش أو بخيالية زائدة على الحد ، بل بحرص وجدية وبأمل كبير في ارتضاءات عميقة وعلى مدى الحياة . فهو أكثر بكثير من باب لشهر عسل . وعلى الرغم من جهود الدولة لتحطيم احتكار الكنيسة لحفل الزواج ، تصل في المنافسة إلى عرض رسوم أقل ، فإن المرأة العادية تعتقد أنها ليست متزوجة زواجا حقيقيا ما لم تؤد المراسيم المقدسة كاملة وبمباركة القسيس . وربما كان الإصرار على هذا الاعتقاد يساعد كثيراً على شرح متانة الزواج والعزم على اغتنام أكثر ما يمكن من إمكاناته .

وتتحسن تربية وتعليم المرأة في أمريكا اللاتينية سنة بعد أخرى . وهي تنقل هنا وهناك بمفردها ، ولا تربطها المحرمات القديمة بإحكام كما كانت الحال في الماضي . وهي مشغولة بالأطفال وإدارة المنزل ، وربما يشمل ذلك توجيه بعض الخدم ، وهم أكثر الناس إغاظة في العالم . وإذا كانت تشترك

الآن في مناشط خارجية أكثر من ذى قبل فإن ذلك ليس نتيجة سأمه أو قلق . وليست في حاجة إلى ملء لجوات عاطفية في حياتها بشرب الخمر لنسيان الدنيا المادية أو بتدليل الكلاب ، أو بالمعركة الصورية على مائدة لعب الورق . وتقدم لها حياتها جزاءات كثيرة ، وهناك شك في أن لديها دافعا يدفعها إلى الثورة ضد أى شيء بالذات . وتنزع النساء الأجنبية ، اللاتي يرغبن أحيانا في جعلهن غير راضية بنصيبها ، إلى أن يرين فيها امرأة غير متعارنة إلى أقصى الحدود . ومن الأمور في عالم مضطرب أن يجد المرء قسماً كبيراً من البشرية لا يطمح في حمل الأعلام أو يشترك في مسيرة احتجاج . فهي تتجنب أعمال الرجال وأحوالهم — وتعرف عن عمل ومصالح زوجها أكثر مما تعرفه المرأة الأمريكية العادية عما يدور في رأس زوجها أو في مكتبه . ومن المهم في هذه الناحية أنه عند وفاة زوجها تتسلم عمله « كإرمله فلان » (\*) .

ولا يزال الرجل شيئاً مهماً جداً في أمريكا اللاتينية فلم يتبلعه بعد المؤسسات الكبيرة أو المنظمات الأخرى التي تلتهم نفوس الرجال في وجبة الإفطار . وتحاول الحكومات استرقاقه بطرق خفية ، بأن تقدم له حياة أفضل ، أو تشعره صراحة بقدرتها على تأديب المتمردين . ولربما كان في نهاية الأمر يخوض غمار معركة ميثوس منها ضد المحتوم ، وفي يوم من الأيام سوف يقيد بكل تأكيد ويوضع « في مكانه » .

وفي هذه الأثناء هو سيد نصيبه الذي أسهم به في خلق أمريكا اللاتينية أو على الأقل يظن نفسه كذلك ، وربما كان هذا هو الشيء المهم بعد كل شيء . فإذا حدث أحيانا وكانت سيطرته خداعاً فإن جميع المظاهر تراعى بحذق إلى درجة أن النتائج المترتبة على ذلك يكون لها تأثير الحقيقة . فهو



شخص يذ كر في منزله الخاص وبين أسرته ، وهناك يعامل باحترام واعتبار . وإذا وقع باسمه كرائم للأسرة فليس عليه جناح أن يضع هذه الحقيقة المتفاخرة بين ( ) . فهو قد يشعر ، إلى حين ، على الأقل في دائرة المقربين إليه ، أنه « أنا الملك - أو الملك الصغير » (\*) .

وأحيانا يغازل النساء . وقد يكون ذلك لما أو قد يستمر سنوات ويكتسب صفة الدوام ، وربما يحيط به الاحترام الرزين . وبتناقض ظاهري لا يفهمه غيره من الناس يمكنه في أثناء ذلك أن يبقى « رب أسرة طيبا » وزوجا متوددا ورقيقا . فروابط أطفاله المتينة وسمعة الأسرة الحسنة تعين حدود مثل هذه الأمور المقررة بروكول صارم . وعلى الرغم من أنه قد يتجول ها هنا على وجهه في بعض الأوقات فقد تحين الفرص في المرحلة المتوسطة من عمره ويصبح أكثر الأزواج كمالا ورجلا . وبينما نجد الأمريكي ميالا إلى أن يعد الرجل في أمريكا اللاتينية شخصا خليعا يشكل معيب فإن الأمريكي في نظر مواطن أمريكا اللاتينية ، بفضل حصوله على الطلاق بسهولة ، يدخل ما يرتكبه من فسق في سلسلة من التتابع الزمني ليس إلا .

وتبدأ الثقافة الشعبية (\*\*) والتشريع الخاصان بمسائل الجنس في أمريكا اللاتينية بالافتراض شبه المعقول ، وهو أنه لا توجد امرأة تأمن أن ينفرد بهارجل مدة عشر دقائق . وعلى هذه المظنة الأساسية توالى القوانين وجرى العرف لحماية الأسرة والمجتمع من عواقب الاندفاعات البيولوجية التي لا يمكن لها جراح . وبينما لا يراعى الناس دائما هذه القواعد فإنهم يحترمونها فعلا ولا يناقشون صلاحيتها . فهم أمناء وغير منافقين إلى درجة فريدة عندما يتناولون مسألة الجنس كلية . وقد عالجوا المشكلة علجا حاسما إلى درجة

(\*) "yo el rey" أو el reyezuea

(\*\*) الفولكلور .

كبيرة في مكانها المناسب في حضارتهم ، ولذلك فهم يتحدثون قليلا عنها ، ويكتبون أقل . والكتب التي تؤلف في الموضوع نادرة في المكتبات ، وهي عموما من تأليف « الخبراء » الأجانب في الميدان . فليس هناك أعمدة في الجرائد بعنوان « نصيحة إلى من هجرته جديده » ، لأن الحب إذا كان ضائعا فالعاشق لا يذهب إلى عراف مهنته لإسداء النصيح أو تقديم العزاء .

فوجود الجنس قد ارتضاه الناس بلباقة من زمن بعيد مع قوى أساسية أخرى مثل الطقس والحكومة وكالطقس والحكومة يغتشم الناس منه أكبر قدر مستطاع في حدود القواعد المرعية . فهم لا يعذبون أنفسهم حول الحلال والحرام في مسألة الجنس أو مظاهره المختلفة أوحى ما أسميته وزارة الخارجية الأمريكية ( الانحرافات ) ولما كان الجنس مسألة شخصية جدا فهناك مبدأ سليم في قانون أمريكا اللاتينية مضمونه أن ما يعمل شخصان بحيث لا ينتج عنه إضرار بالمجتمع ، مسألة تخصهما وتخص ضميريهما وحدهما .

## هوامش الفصل الثامن

١ - يروى جميع مؤرخى الفتح الاسباني تقريبا قصصا عن المحاربات بين الهنود • ويشير أوفيدو بصفة خاصة اليهن مرارا • وكتبت أنيتا برنر عن جيوش الثورة المكسيكية تقول : « تكاد توجد في كل فرقة سيدة مشهورة برتبة عقيد أو نقيب ، بنت خشنة ، تلبس في أذنيها قرطين ، ومسلحة الى أقصى حد ، وفي الصف الأول من بين המתاتلين المتهورين المغامرين » •

«The Wind that Swept Mexico (New York, 1943), P. 42.

٢ - « ان التخلي الطائش عن الذات الذي تبديه المرأة الراية . في بعض الأحيان ، وهي تسعى وراء أغراض غير شخصية ، ونزوعها الى التجرد من أنوثتها بتقليدها أفعال الرجال أمران متعارضان الى درجة قصوى مع طبيعة المرأة الاسبانية التي تعد نشاطها وحكمتها شيئين شخصيين متاصلين الى درجة يصعب فيها دفعهما دفعا متصنعا الى طرق الرجال » •

Havelock Ellis, «The Soul of Spain» (Boston and New York, n. d.), P. 105.

٣ - انظر

A. Curtis Wilgus, ed., «Readings in Latin American Civilisation» (New York, 1946), P. 51.

وأیضا

Augustin Zapata Gollán «Las Puertas de la Tierra (Santa Fé, Argentina, 1941), pp. 23 - 28.

٤ - Amédée François Frézier, «Relation du Voyage» (English tr., London, 1717), pp. 219, 257.

وطبقا لرواية خوان وأيووا « سيدة مكسوة بأغلى دنتلا ••• تتلألا من يديها الى قدميها بالمجوهرات ، مفروض فيها أن ترتدى من الملابس ما يقدر بما لا يقل عن خمسة آلاف أو ثمانية آلاف جنيه • وهذه فخفة مذهلة ، يدهش لها الشخص أكثر عندما يعرف أنها ظاهرة شائعة » •

Jorge Juan and Antonio de Ulloa, «A Voyage to South America» (tr. from the Spanish, 4 th ed., 2 vols., London, 1806), II, 60.

٥ - قال خوان وأيووا ان قطعة واحدة من جلد ماعز قرصبة كانت تكفى لنعل الحذاء ووجهه • وكانت مشابك الحذاء ترصع بالماس واللؤلؤ ، كما كانت ترصع ربطتا الساقين • وكتبا يقولان : « ان صانعى الأحذية ، ولم يكونوا على جهل بنقط الضعف عند الجنس اللطيف ، يولون اهتماما كبيرا لكى يصنعوها بشكل صمم ليؤدى خدمة عملية ضئيلة جدا » •

Op. cit., P. 58.

٦ - « يقال انه عندما تمسك الأم الأوروبية في هذه البلاد ( بيرو ) طفلها بين يديها ••• فانها تخاطبه بقولها : « عزيزى الأسقف الصغير » أو « رئيسى » •

William Lewis Herndon and Lardner Gibbon, «Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols. Washington D. C, 1854), I, 56.

٧ - « منازل الأسر القديمة في مدينة المكسيك آخذة في الانقسام والاختفاء » •

Herbert Cerwin, «These are the Mexicans» (New York, 1947), P. 278.

٨ - ( في تهوانتيك ) « المرأة - وهى أجمل شيء في المكسيك - سيدة البيت » •

John L. Strohm, «I Lived with Americans» (Chicago, 1943), P. 343.

« وكما هى الحال في تهوانتيك ، فان قلب وروح المدينة ( خوشيتان ) يتمثلان في السوق الصاخبة ، وحياتها وقلبها في نساؤها ، الدائبات النشاط ، اللاتى جبلن على طيبة القلب ، ولكن لا يرحمن في الأعمال التجارية ، فهن أنداد للمكر التجارى الذى يكره التجار الأجانب » •

Miguel Covarrublas, «Mexico South» (New York, 1946), P. 159.

انظر أيضا بيان كوفاروبياس عن تهوانا ، دونيا خوانا كاتا روميرو المشهورة •

Ibid., pp. 149, 226-37.

٩ - « المكسيك بلد الرجال • ففى جميع الأمور الرجال رؤساء أسرهم • أما النساء •• فيقبلن بلباقة أن يقمن بدور قريب من المقاومة السلبية ثم يشرعن في عمل ما يرغبن فيه ويحصلن على ما يحتجن اليه • فالمرأة المكسيكية وهى محتدة غضبا شيء لا يسبب للرجل انزعاجا » •

Herbert Cerwin, Op. Cit., P. 28.

« مهما رغب الرجال في التفكير عكس ذلك فالمولينيرا ( المرأة الهندية ) ٠٠٠ تسيطر عليه وعلى الأسرة بلباقة » .  
Olive Floyd, «Doctora in Mexico» (New York, 1944) P. 248.

١٠ - عن نساء كستاريا كتيب ستيفنز : « في سان خوسيه ٠٠٠ كانت السيدات جميعهن يشبهن من قد يسمون رجال أعمال مهرة ، فكن يدرن الحوانيت ويشترين ويبيعن البضائع ويتوقعن المساومة ، وكن يعرفن بصفة خاصة سلعة البن ١١  
«Incidents of Travel in Central America, Chiapas and Yucatan» (2 vols., New York, 1841), 1, 373.

Russell H. Fitzgibbon, ed., Constitutions of the — II Americans (Chicago, 1948) P. 52.

١٢ - حوالى ٢٥٪ من الأطفال الذين ولدوا في تشيلي في سنة ١٩٤٢ كانوا غير شرعيين . وكانت النسبة في سانتياجو ٢٠٪ وفي القسم الشمالى من هواسو كان أكثر من نصف مجموع المواليد غير شرعيين .  
Republic of Chile, Direccion General de Estadistica, Demografia y Asistencia Social Ano 1942 (Santiago, 1945).

ومن ١٧٦٤٣١ طفلا ولدوا في بير خلال العام يولية ١٩٤٢ - يوفية ١٩٤٣ كان حوالى ٤٥٪ أطفالا غير شرعيين . وكان المعدل في ليما أقل قليلا ، وفي كوكو كان حوالى ٥١٪ من المواليد لنفس العام غير شرعيين . ومن عدد السكان الذين كانوا يزدون على ملايين تمت ٢٠٢٦١ زوجة فقط خلال ذلك العام .

Republic of Peru, Direccion Nacional de Estadistica, «Extracto Estadistico del Peru 1943» (Lima, 1951).

ويقتبس جون و . هوايت من ٩ . ف . بنج ما مضمونه أن « معدل المواليد غير الشرعيين ( في أرجنتينيا ) في ازدياد ، بينما معدل المواليد نفسه في تناقص ١١ وطبقا لرواية هوايت نجد أن معدل المواليد غير الشرعيين في مدينة بوينس آيريس ١٢٪ ، ويصل الى ٤٣ و ٤٤ و ٤٦٪ في ولاية توكومان وسولتا وخوخوى على التوالي . وفي بعض أرجاء الدولة نجد أن أكثر من نصف المواليد غير شرعيين ، وفي بعض أراضى فورموزا يصل المعدل الى ٦٦٪ . وكان المعدل في الولاية جميعها ٢٨٪ في سنة ١٩٣٨

«Argentina : The Life Story of a Nation» (New York, 1942), P. 297

ويقول ت . لين سميث ان « سكان البرازيل يعيشون عيشة زوجية

بدرجة تقل كثيرا عنها في الولايات المتحدة » • فمن البرازيليين الذين بلغوا من العمر أكثر من خمس عشرة سنة في سنة ١٩٢٠ - ٤٤٩٪ كانوا متزوجين بينما كانت النسبة في الولايات المتحدة ٥٩٩٪ •  
T. Lynn Smith, «Brazil : People and Institutions» (Baton Rouge, La., 1946), P. 217.

١٣ - « قد لا توجد حاجة الى مزيد من التعاطف نحو نساء أمريكا اللاتينية بسبب وضعهن • اذ تبدو عليهن السعادة ر. • يحين الحياة التي يرونها • وهل هن حقيقة الخادعات للرجال ؟ » •

Charles E. Chapman, «Republican Hispanic» America : A History» (New York, 1937), P. 15.

وعندما أجرى مستر ومسز جون بيسانز عملية استفتاء بين نساء كستاريا أسفرت النتائج عن أن الشابات وضعن اخلاص الرجل في المرتبة الخامسة من الصفات المطلوبة من الزوج • بل أن النساء المتزوجات وضعنه في المرتبة الرابعة عشرة • أما أهم الصفات المطلوبة فكانت الثقافة (Cultura) ، أى « آداب السلوك ، والتلف ، وقدر من التربية الشكلية » •

John and Mavis Biesanz, «Costa Rican Life» (New York, 1944), P. 62.

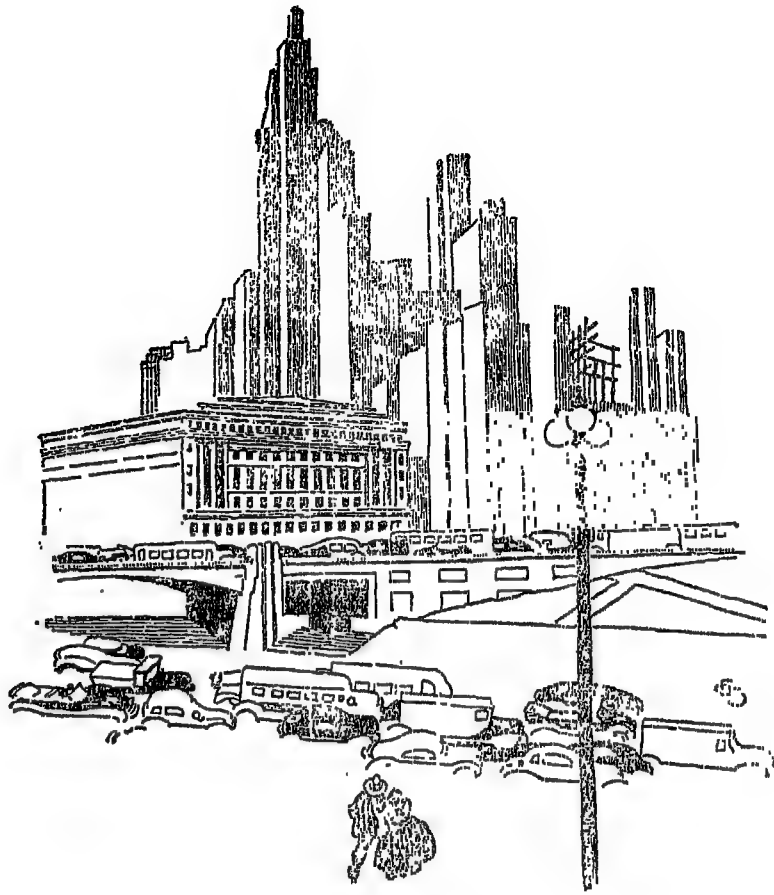
وعن الزواج في أمريكا اللاتينية أنظر :

Elizabeth Borton de Trevino, «My Heart Lies South» (New York, 1953).

وهو مؤلف يشتمل على الملاحظات اللاذعة والشائقة لامرأة أمريكية تزوجت في أسرة مكسيكية كبيرة تغمرها العاطفة والحب •

١٤ - « على النقيض من الصورة المزدهرة كثيرا التي نتخيلها للسيد الذي يعزف على القيثارة كان جارنا الأمريكى اللاتينى يجد الوفاء محصورا في الاحترام الزائد الذى يشعر به نحو زوجته والحب الشديد الذى يرمى به أطفاله » •

Kurt Severin, «To the South» (New York, 1944), P. 203.



الفصل التاسع

## المدنية

كانت حضارة إسبانيا حضارة مدن . فمنذ الوقت الذي استقر فيه الإغريق والشعوب القرطاجية (\*) في أيبيريا عاش الإسبان في المدن وتحاشوا الريف المكشوف . فإذا تجنبوا المعيشة في المدن تجمعوا في البلاد والقرى للتآلف والحماية . وفي الشمال الغربي فقط - في بلاد الباسك وفي استورياس

---

Punic (\*)

وغاليسيا - كان الإسبانيون ينزعون إلى الانتشار فوق الأراضي كما كان يفعل البرتغاليون . وهناك نجد أن المدن ساحلية في كثير من الأحيان ، مثل فيجو وكورونيا وبلبار ، وليس بها سحر خاص بها أو لذة ، ولكن بها أماكن صالحة لرسو سفن الصيد . وإنه لمن هذا الجزء من إسبانيا أن جاء رعاية الأغنام ليعنوا بأغنام المستأ (\*) ، ولا يزالون يهاجرون إلى الغرب الأقصى في الولايات المتحدة ليمارسوا حرفة من أكثر الحرف عزلة . ولقد كان الرومان أيضا شعبا يسكن المدن . وإقامتهم فترة طويلة في شبه الجزيرة أكدت لدى الإسبانيين الدافع الغريزي نحو سكنى المدن . وعندما جاء المسلمون نسي العرب صحارهم والمغاربة جبابهم ليضيفوا سناء جديداً إلى قرطبة وغرناطة وإشبيلية .

وعندما جاء الإسبانيون إلى العالم الجديد أحضروا معهم غرائزهم وميوهم المدنية (١) . ولما كانوا لا يتصورون حضارة لا تقوم حول المدن ، فقد بدأوا يؤسسون مدناً بالمعنى الحرفي بمجرد أن وطئت أقدامهم الأرض . وهناك اثنان من مؤسسى المدن الأوائل الذين كان لهم نشاط غزير في هذا المضمار ، هما سباستيان بنا لكاثار الذى خلف وراءه سلسلة من المدن الناشئة في مسيرته من كيتو نحو الشمال إلى كالى فى كولومبيا ، وپدرو دى فالديا ، حاكم تشيلي الذى صمم عدداً من المستعمرات ومواقع للحاميات التى أصبحت فيما بعد المدن الرئيسية فى ذلك الإقليم . وقد توقف كورتيس فى زحفه إلى عاصمة الأزاتقة ليقوم برسميات تأسيس « مدينة » فىرا كروث ، لأنه ربما لم يكن يشعر بأنه إسباني صميم لو خلف وراءه فراغاً لا تقوم فيه مدينة . وكتب المؤثق الإعلان اللازم وبنود التأسيس وألقاها بصوت مرتفع على الجنود المجتمعين ، وأعلنت أسماء العمدة ومجلس الأعيان ، وقام الأب الميدير راعى الكنيسة بمباركة المدينة التى لم تولد بعد ، ودعا الله أن يطر مصيرها من

(\*) mesta مؤسسة الرعى . ومركزها تشتالة .



فضله الإلهي ، فيعين موقع الميدان (\*) المتوسط ، وهو أهم شيء في المدينة ، وتوزع قطع الأراضي على المواطنين الذين سوف يقيمون منازلهم عليها . وعند ذلك فقد استطاع كورتيس أن يرضى لإتمام مهمته في فتح المكسيك . وفي وقت لاحق عاد الناس من الداخل أو من الجزر واستقروا هناك (٢) . وعندما تبين أن موقعها الأصلي غير صالح انتقلت إلى موقع آخر قبل نهاية القرن كما حدث لعدة مدن أخرى في عصر الاستعمار (٣) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت دائما الميناء الرئيسي للدخول في المكسيك وتغلّبت على ما اتبها من وباء وقرصنة وتمزيقات الثورة واحتلال القوات الأمريكية والفرنسية . وفي تلك الأثناء أصبحت آخر مركز ، كما كانت أول مركز ، للقوة الإسبانية في المكسيك . وحدث أن تكرر نفس الاحتفال ، ونفس التفاصيل مرات كثيرة خلال الفتح ، كما حدث عندما أسس بنارومان ميغيل دي بيورا في صحراء شمال بيرو الساحلية ، ومرة أخرى في ليما : وعندما تشاحن ديجو دي الماجرو مع شريكه مضي في تنفيذ الاقتراحات بتأسيس مدينته «هو» في موقع ناء جهة الجنوب ، ولو أنه مات في وقت مبكر جدا بحيث لم تصبح أبدا حقيقة ماثلة من شوارع ومساكن (٤) .

وكان بعض الشعوب الهندية مثل الأزاتقة والمايا والانكا بناء مدن عظاما على حسابهم الخاص . وقد اندثرت بعض المدن الهندية منذ ذلك الوقت البعيد ، مثل تولا في أراضي التولتك ، وماشو بكشو وتياهواناكو في الأنديز ، أو ربما تكون مدفونة في الغابة مثل شيشين في أراضي الإنشا ، وكوبان وبالنسكي ومجموعة من مدن أخرى في أراضي المايا ، بل إن معظمها لم يكن موجوداً أو لم يكشف اللثام عنه إلا في وقتنا هذا (٥) . ولكن بعضها كان قائما ومفعما بالنشاط مثل تينوشتيتلان وكشكو . وهذه تسلمها

الإسبانيون ملكا لهم وبنوا مدنا إسبانية جديدة فوق مواقع العواصم الهندية. وفي غضبة تخريب للآثار القديمة والصور والتماثيل الدينية دمروا ما استطاعت مدينة الأزانقة الحفاظ عليه من الحصار الطويل ، ولو أن كورتيس وضباطه رأوا ودهشوا من عجائباها (٦). ولكن كثيراً من مباني كتشكو الحجرية للهائلة الحجم ثبت عدم إمكان نقلها حتى باستخدام الآلات الفائقة التي يستعملها الأوروبيون ، ولذلك شيدوا مساكنهم الحجرية الصغيرة فوق أسس مباني الانكا وجعلوا منها مدينة مهجنة (٧) .

وبقيت، تينوشتلان على جزيرة بحيرية واسعة في فجوة جبلية كانت هي وادى المكسيك ، ومتصلة بالأراضي المحيطة بممرات طويلة . وكان هذا الموقع سببا في مشكلات خطيرة متعلقة بصرف المياه في المدينة الإسبانية التي احتلت مكانها . وبعد سلسلة من الفيضانات المديدة والمرؤنة شقت قناة تجرى في نفق في حافة الجبل نحو الغرب لتخفيف ضغط مياه الفيضان . غير أن التربة السفلى ظلت إسفنجية فسببت معضلات جديدة لمشيدى المباني الإسبانين والمكسيكيين ، كما تسببت في وجود مذشات مائلة وغير متوازنة لاتجد قواعدها أساسا في الحما . أما من شتى وجهات النظر الأخرى فالموقع مثالي للمدينة العظيمة التي تشغله .

وتقع معظم مدن أمريكا اللاتينية ، مثل مدينة المكسيك وكشكو ، فيما عدا المدن الواقعة على الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية ، في أحواض أو أودية الهضاب أو الجبال . وهذه حقيقة تنطبق بصفة خاصة على المكسيك وكولومبيا وكوادور . وهي الحال كذلك في مدينة جواتيمالا وسان خوسيه في أمريكا الوسطى ، وكاراكس وفالنثيا في فنشويلا ، ولا بات وكوشامبا في بوليفيا ، وسانتياجو في تشيلي ، وساويا ولو في البرازيل . وهناك مدن مثل بوتوسي وجواناخواتو وتاشكو نشأت حول المناجم ، وقد احتفظت بالشكل والخصائص النموذجية للمدن الجبلية . أما هافانا وكارتاخينا وريودي

جانيرو فقد بنيت على مرافىء ممتازة ، كما بنيت أريكيبا ومندوثا وتوكومان في واحات طبيعية ساعدت على قيام الزراعة التي تعتمد على الري على نطاق واسع . ومن العاصمتين اللتين تقعان على ضفتي نهر بلات مونتيفيديو ذات موقع بفضل موقع بوينس أيريس . أما البرتغاليون — وهم شعب ساحلي — فقد أقاموا سلسلة من البلاد الساحلية على الخليجان ومصبات الأنهار التي تذهب إلى الساحل البرازيلي الذي أمد السفن بمراص ممتازة على طول الطريق من يليم إلى ريو جراندى جنوبا ، فيما عدا أماكن قليلة . وبجانب ريو فقد شملت ساو لويز التي استولى عليها الفرنسيون فترة من الوقت ، ورسيف وهي على مضيق يقع خلف حاجز مكشوف ، وبالنسبة لبرقعها الشاسعة من المياه الهادئة ، وفيتوريا وهي جوانابارا صغيرة ، والنهر ذا الشاى والمعرض للهد الذى يجرى متثنيا عبر السهل الساحلي عند ساو فيسلى — سانتوس .

وأثرت عدة اعتبارات في اختيار موقع لىما التي قدر لها أن تصبح عاصمة أمريكا الجنوبية الإسبانية . ومن المدن البديلة كانت كاشكو مرتفعة إلى حد زائد — وهندية أكثر من اللازم ، وتقع على الجانب الخطأ من الكورديليرا . ولفترة من الوقت استهوى الإسبان أن يقيموا حكومتهم ومرافقها في وادى خوفا الجذاب الذى يقع في حوض المانتار وعلى الطريق الجبلى إلى هوانكاىو .

وبدلا من ذلك اختاروا موقعا على الحافة الضيقة للأرض الصحراوية بين سفوح الإنديز الرمادية والمحيط الهادى بالقرب من المكان ينفرج منه نهر ريماك من الجبال في طريقه الجياش إلى البحر . وشوهوا الاسم الذى كان يطلقه الكيشوا على النهر وقالوا لىما . ذلك لأن « مدينة الموك » ، أثبت أنها تسمية استعراضية ليس إلا . فهناك كان الماء متوافرا لحاجات عدد كبير من السكان ولرى الأراضى الساحلية المجاورة . وهى أخفق نهر ريماك

حلقة اتصال مناسبة للأراضي الهندية الشاهقة في الجبال ، وجنوبا عبر نهر ابوريماك إلى كيشكو . وكان الموقع بعيداً عن المحيط لدرجة لا تشجع القراصنة الانجليز ، حتى ولو لم يكن للمدينة حائط يحميها . ومع ذلك فقد كانت بضعة أميال فقط عن كياو مرفئها الذي كانت تحميه من المحيط الهادى المفتوح جزيرة سان اورنو . ولقد دفعت المدينة ثمن الميزات الظاهرة التي اختص بها موقعها الجغرافى بالنسبة إلى بقية أرجاء بيرو وطرقها البحرية الاستراتيجية مناخاً شتوياً كريها يغمره الضباب ، ولو أنه إلى الغرب ببضعة أميال في ثغرة شوسيكالو مشمس بلا انقطاع ودرجات الحرارة معتدلة طول أيام السنة .

#### تخطيط المدن الأسبانية

اهتمت الحكومة الإسبانية اهتماماً جدياً بموقع وتخطيط المدن في المستعمرات . فقد صدر قانون مبكر في سنة ١٥٢٣ ينص على الشروط التي يجب مراعاتها عند تأسيس المدن الجديدة . فأولاً يلزم أن يكون الموقع بجوار الماء ومواد البناء ، وأن تكون هناك مراعى ومصدر لأخشاب القواء على مقربة . ثم مضى ليقرر أن مواقع الإسكان يجب ألا تختار في الجهات الشاهقة الارتفاع نظراً إلى الإزعاج الذى تسببه الرياح وصعوبات الخدمة والنقل ، ولا في الأماكن المنخفضة والقريبة من المستنقعات والبرك ، لأنها عادة غير ملائمة صحياً ، ولكن يجب أن تكون المواقع على ارتفاعات معتدلة وفي أماكن تهب عليها الرياح من الشمال والجنوب بانطلاق . كما تتجنب الأماكن المعرضة للضباب ، وإذا أسست على نهر فيجب أن يختار الموقع بحيث ترسل الشمس المشرقة أشعتها أولاً على البلدة لا أن تنعكس على أعين الناس من سطح الماء . أما المذابح والحظائر وأسواق السمك والمذابح وغيرها من المؤسسات القذرة ذات الروائح الكريهة ، فيجب

أن تكون خارج مرافق المدينة ، ومن الأفضل أن تقام على الجانب الآخر من النهر أو على شاطئ البحر .

فإذا اتفق على اختيار موقع المدينة اختيار أنسب الأماكن ليكون الميدان الرئيسي . ومن الميدان ، الذي يصبح بمثابة قلب المدينة ، نحو الخارج يعمل الرجال في قياس الموقع بالشريط والمخطاط (\*) ويرسمون خطة للشوارع وقطع الأرض التي ستقام عليها المباني . فلم تكن المدن لتبنى خلط ملط ، كما كانت تبني في إسبانيا حيث لا يوجد شارعان اثنان يتخذان نفس الاتجاه ، ولكن وفقا لنمط هندسي متسق محدد من قبل . وهكذا تفرض خطة تصميم الشوارع مرة واحدة ، فإذا حدث تعديل في جهة ما عن الخطة المرسومة فقد يكون سبب ذلك أن وضع الأرض جعل من المستحيل اتباع الخطة الرسمية . ولم يكن من المحتم أن تكون الشوارع موازية الواحد منها الآخر فحسب ، بل كان من اللازم أن تتجه من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب ، تفصل فيما بين بعضها وبعض مسافات متساوية . حتى إن مجموعات المساكن (\*\*) التي تفصل الشوارع فيما بينها يصبح لها نفس الحجم والشكل . وتحتم أن تكون الشوارع واسعة في البلاد الباردة وضيقة في الأجواء الحارة ، كما هي الحال في كارتاخينا .

وكان الاهتمام زائدا بالميدان . وبنمو المدينة ربما كانت هناك ميادين كثيرة لتفي بحاجات السكان ، وحينذاك يعرف الميدان الأصلي بالميدان الرئيسي (\*\*\*) أو الميدان الأوسط (+) أو ميدان الأسلحة (++)

rule (\*)  
manzanas بلوكات (\*\*)  
Plaza mayor (\*\*\*)  
Plaza central +  
Plaza de armas + ' +

حيث يتمرن الجنود كما في ليا . ونصت اللوائح على وجوب أن يكون طول الميدان مرة ونصف مرة بالفسية إلى عرضه، لكي يكون أكثر تهية لحفلات الفروسية . فيما يتعلق بالأبعاد فيجب أن يكون على الأقل ٢٠٠ قدم في العرض و ٣٠٠ قدم في الطول ، ولا يزيد على ٥٣٢ في ٨٠٠ قدم ، ويتوقف هذا على أهمية وحجم المدينة المنتظر . ويجب أن تبتدىء الشوارع الأربعة الرئيسية وأكثر الشوارع الثانوية من أركانه ، ويزحم الميدان في الشوارع العامة الأربعة (-) التي أصبحت منذ ذلك الوقت ، وبلا انقطاع ، بهجة المتزهين والمتابعين من الحيوانات . وحول الميدان نفسه كانت توجد المواقع المختزنة للمباني الحكومية والسكاتيدراتية أو الكنيسة الرئيسية .

ونصف عواصم أمريكا اللاتينية العشرين تحمل أسماء هندية . والخمسة من هذه الأسماء دلالات دينية . وكان من المتبع أن يتضمن اسم المدينة الرسمي القديس الراعي ، مثل سان كريستوبال دى لا هابانا ، وسان فرانسيسكو دى كيتو ، أوساو سباستيان دى ريو دى جانيرو ، واسكن اسم القديس كان يحذف في الحديث العادى . وأعطى المستكشفون أسماء لثلاث عواصم من أول انطباعات للظواهر الطبيعية تأثروا بها ، حقيقية كانت أم وهمية . وتذكر الإسبانيون في حنينهم إلى الوطن ، شأنهم في ذلك شأن معظم الشعوب الذين يهاجرون بعيداً عن أوطانهم ، أسماء الأماكن التي الفوها . ولما كان كثير منهم قد أتوا من استراليا دورا فقد نشأت هناك مدن بأسماء ميديين ومريدا وثروخيو مبعثرة على الخريطة . وهناك جوادا لاغارا وكوردوبا (\*) وفالنثيا (\*\*) ، واسكن ليس هناك توليدو (\*\*\*) أو

(+) والبواكى ،

(\*) قرطبة

(\*\*) بالنسبة

(\*\*\*) طليطلة

مدريد (\*) أو سيفيفيا (\*\*) ذات أهمية . وكذلك ليس هناك  
 لشبونة (\*\*\*) أو أوبورتو في البرازيل . وعلى الرغم من وجود  
 سانتوس وساوپاولو وبليم ولاكنسبسيون فمن المحتمل أن الكنيسة خلقت  
 وراءها في كاليفورنيا من مسمياتها المقدسة أكثر من أية جهة أخرى بنفس  
 المساحة في الجنوب . وحيث وجد مكان معروف باسمه الوطني في الأصل  
 فغالبا ما احتفظ به الإسبانيون ، ولو أنهم قد يشوهونه كما فعلوا بالأسماء  
 في المكسيك وليما . ولما كان معظم البلاد في المكسيك ويرو أغلبها  
 هنديا على كل حال ، فقد أبقوا على أسماء الأماكن كما كان يسميها الأزانقة  
 بالحروف ت ، ل ، س ومقاطع أخرى للحروف الساكنة التي تبدو  
 خشنة ولا يمكن للأجانب النطق بها ، وكذلك المقطع الأسهل نطقا  
 «هواس» في كلام الكيشوا - مدن بأسماء هوانوكو ، وهواشو، وهوانكايا  
 أما في تشيلي فأسماء التيبيلشي مثل أسماء المدن كوكيني ، ولونسكوشو ،  
 والنال ، ولالاي ، فتفوق في العدد أسماء المدينتين الإسبانييتين  
 فالبارايسو وكورونل . وتحمل مئات من بلاد ومدن البرازيل أسماء  
 تويية (+) ، مثل اراكايو ، وكاشامبو، وأراراكوارا وبيراپورا، وموجي -  
 ميريم ، وباراجواسو . ولقد اعتاد البرازيليون كذلك أن يستخدموا  
 اسمين لبعض عواصم الولايات القديمة في الشمال الشرقي ، أحدهما اسم  
 الولاية المعنية . وهكذا ساو سلفادور هي باثيا ، ورسيبي هي پرنامبوكو ،  
 وليم هي پارا ، وفورتاليزا هي أيضا سيارا .

(\*) مجريط

(\*\*) إشبيلية - هذه هي الأسماء العربية للمدن الإسبانية المذكورة .

(\*\*\*) لزبوا

(+) نسبة إلى شعب وائفة التويي .

### أسماء الشوارع

جزء كبير من التاريخ مدون في أسماء شوارع أمريكا اللاتينية . ولقد بحث مستازمات السياسة والوطنية ودافع التجديد أحيانا هذه الذكريات الهبة للأيام الخوالي من مناظر المدن . وغالبا ما تشرف أعيان الجمهوريات ، كما تشرفت أيام العطلات ، ببساطة ، بأن تضاق أسماؤهم على شوارع قديمة . فمثلا في ليما تغير اسم شارع «خاية النحل» (\*) إلى نيسكولاس دي بييرولا (رئيس سابق لبيرو) ، وفي سانتياجو شارع «الأرواح» (\*\*) أصبح الآن ألونسوا وفابي ، وفي هافانا شارع أوبسبو غير رسميا إلى خوان كليمنتي ثيليا ، ولكنه لسكان هافانا لا يزال أوبسبو . وأحيانا يكون التكريم لشخصية أجنبية عظيمة مثل جورج واشنطن ، أو وودرو ويلسن ، أو فرانكلن د . روزفلت . ومع ذلك فبتأثير العادة المديدة قد يمضى الناس يطلقون أسماء الشوارع القديمة ، مما يخلط الأمر على سائقي التاكسي وموزعي البريد ، ويزعج الحكومة إذ تدرك مخافة المواطنين العنيدة . وأطلقت أيام السنة أيضا على الشوارع لإحياء ذكرى حادثة تستحق الذكر في تواريخ الأمة ، وهى وسيلة لإمكاناتها محدودة بطول السنة ولا شيء سواه . ولذلك فمن بين الشوارع والمتنزهات هناك ه من مايو في مدينة المكسيك و ٢٥ من مايو في بوينس آيريس و ١٨ من يولية في مونتيفيديو ، وفي ريو هناك ١ مارس و ٧ من سبتمبر .

بل إن أسماء الشوارع في مدينة المكسيك أكثر تنوعا منها في بوينس آيريس . فقليل من أسماء عهد الاستعمار استطاعت مغالبة آثار التغير العنيفة . ومن بين الأمثلة الشاذة لاكوريبيدورا على طول الثوكالو

Colmena (\*)

Las Animas (\*\*)



ودون سيليس وازابل لاكاتوليك - وكلهن نساء ، وكهنتين وحيدتين للفاتحين فيلاسكيث دى ليون ، وقد قتله الأزاقة فى « الليلة السكتية » وبنتى دى الفارادو . وكان سلوك الأزاقة أفضل . فخصص لكرايو تيمك طريق واسع تصطف على جانبيه الأشجار فى المدينة التى دافع عنها دفاع الأبطال ، ولمونقسوما ذى المصير المشؤم طريق عمومى أقل أهمية . وإلى الشمال الغربى ، فيما وراء طريق ملشور أو كامبو توجد متاهة من أسماء تيمسوك وشولتل وأشايكاكابل وكاماتسن . ولكوتما لىكوتل شارع ، ولكن هتيلوبوشتلى إله الحرب القتال محروم من شارع يحمل اسمه . وإلى الجنوب الشرقى من وسط المدينة يتفرع من سان خوان دى ليران شارع مهادى إلى بطل الثقافة ومالك تشكوكو التوحيدى نقنا هو الكريوتل . وقليل من الإسبانيين نالهم التشريف : الألبان موتولينيا ، وللاسكاس لأن لهما قرابة ما بالهنود ، واثنان من نواب الملك المتأخرين - والأفضل - بوكاريلى وريفيا جيجيدو . وهناك شوارع لزعماء الاستقلال مثل هيدالجو وايتوريدي ، ولسياسى الجمهورية الأحرار مثل خواريث وايردو . ومن ابصال الثورة اختار ما ديرو الشارع الرئيسى للبيع والشراء فى المدينة ، واختار أوبريجون ، طريقا واسعا تصطف على جانبيه الأشجار ، وإيميليانو ثاپانا شرفا لم يكن إختاره لنفسه . ومن الأجانب الذين ازدانوا بإطلاق أسمائهم على الشوارع أكثرهم أهمية واستحقاقا هم بولدت العظيم الذى كرم فى البر والبحر من كاليفورنيا إلى المحيط القطبى الجنوبى . ومن بين الآخرين رجال عظماء تفصل الحقب بينهما كهيروودوت ، ووالتر سكوت ، ومجموعة ضخمة متباينة من الفرنسيين تضم رينان ، وفلاماريون ، وسادى كارنو ، وميشليه . ونال الشرف أيضا الشعراء المكسيكيون : الأخت خوانا ، وامادونزو ، ومن العلماء الوطنيين ، إلى خوستو سيرا وايكابا لسيئا . وهناك مجموعات برمتها من الشوارع اتخذت أسماء أقطار ومدن وأنهار أجنبية ، ولايات وأنهار وأشجار مكسيكية . وهناك شوارع تحمل أسماء

للشمس والقمر والرجل الذى أعدم شنقا - وشولت وشليفان .  
 وفى سبيل التيسير والنظام حلت طريقة عديدة لتمييز شوارع بوجوتا  
 وكارا كس لتحل محل أسماء الشوارع البهيجية والرومانيسكية التى تميزت بها  
 المدن الاستعمارية . فقسم من كاريرا سبتيا ، أو الطريق السابع - الساحة  
 التى يجتمع فيها سكان بوجوتا (٠) يرغون ويزيدون ، كان ، لزوة من هوى ،  
 يعرف باسم الشارع الساخن (٠٠) ، وهو قطعاً اسم على غير مسمى عندما  
 ينحدر الضباب برذاذه من مونسيريت فى الغسق . وكان الطريق النائن (٠٠٠)  
 يسمى سابقاً شارع الحب . (٥) وكان هناك أيضاً شارع القلق (٥٥) وشارع  
 الإهمال (٥٥٥) ، وشارع المواساة ، (X) وشارع التهنيد (X X) وربما  
 كانت أكثر المسميات الإنجيلية تناقضاً موجودة فى كارا كس حيث كانت  
 هناك فى وقت من الأوقات شوارع تجسيد ابن الرب والختان ، وتعميد  
 يسوع المسيح فى المعبد ، والقبض على يسوع المسيح ، ويوم الدينونة .

وتعكس أسماء شوارع ريودى جانير ووضوح حنين الكاريوكا (+)  
 الكامن إلى أيام الامبراطورية . فدوم پدرو الثانى له شارع « الخاص » ،  
 وكذلك كثيرون من نبلاء الامبراطورية ، ومن بينهم البارون بتروبوليس ،  
 وماركيز دى أولندا وكونت بومفيم ، وفيكونت الوكيرك ، ودوق كاشياس ،  
 وعشرات غيرهم . أما الشارع الرئيسى فى الحى التجارى فى ريوفقد سمي

Bogotanos (٠)

Calle Caliente (٠٠)

Carrera Octava (٠٠٠)

Calle del Amor (\*)

Calle del Afan (\*)

Calle del Descuido (\*\*\*)

Calle del Consuelo (X)

Calle del Suspiro (X X)

(+) قبائل يتكلمون لغة التوى ( أو بيوتهم البيضاء - كاري : أبيض وبوكا :

بيت ) - وتطلق على رقعة .

من أجل بارون ريو برانكو ، أول دبلوماسي في أمريكا اللاتينية . ومن الشوارع الأخرى في ريو دي جانيرو ، العاصمة البرازيلية القديمة (\*) . هناك شارع — أوفيدور ، وهو متنزه السكان المحبوب — وهو شارع يشبه أوبسيو في هافانا ، وفلوريدا في بونيس آيريس ، وأوجستيناس في سانتياجو ، في أنه سوف يقاوم أية رغبات رسمية لتغيير اسمه .

وليس هناك على الأرجح بلد فيه تتصف أسماء الشوارع بالوضوح وتذكير الناس بالتاريخ الحى للكان كما في لبا أيام الاستعمار . ولقد عمل فيها الزمن والجمهورية ، ولكن بعضها قاوم حتى الوقت الحاضر كبقايا أرومة المدينة القديمة . وقد تغير أسماء الشوارع ، كما هو حادث إلى الآن ، بالنسبة إلى كل مجموعة من المساكن ، بل إنه في نفس المستعمرة قد تغير من عصر إلى عصر . فشارع خيرين يونيون الذى يتجه من ميدان سان مارتى إلى ميدان الأسلحة حيث نشأت المدينة ، وكذلك الشوارع التى تعبره ، كانت أسكنة لحرف وصناعات سدت حاجات السكان الإسبانين . وكانت الصناعات بأمر من نائب الملك أحيانا ، وأحيانا لما فيه من فائدة للصناعة ، تنزع إلى التركيز فى مجمع معين . وهكذا كانت هناك شوارع ، لصياغ الفضة ، وصناع القبعات ، والصباغين ، وصناع القيثارات ، والرياش . وكان هناك شارع الحديد الخردة ، وشارع لتجار الملابس القديمة الذى تقررت إقامته ليسكون وسيلة لرقابة بيع العبيد الزنوج ملابس سادتهم . وكانت هناك شوارع للبط والخير ، ومكان لبيع الخس والطاحونة المكسورة (\*\*) . كما كان هناك شارع المعجزة وشارع الحقد (\*\*\*) حيث كانت مواقف

(\*) نقلت العاصمة حراً إلى برازيليا فى الداخل .

Molino Quebrado (\*\*\*)

Amargura (\*\*\*\*)

المسيح وهو حامل الصليب (\*) منقوشة على المنازل ، وشارع الخطايا  
السبع (\*\*) الذى أحيى ذكرى سبع شابات أذنين، وشارع الحق السبع (\*\*\*)  
لأن طبيبا أنقذ رجلا مجروحا بسبع حقن شرجية ، وشارع البيضة (+)  
لتكريم راعة دجاجة وضعت بيضة كبيرة ، وشارع المعصرة (x) تكريما  
لامرأه عوقت وقتنا طويلا وهى تلد

### ليها فى عهد الاستعمار

على الرغم من أن ليما كانت أكبر وأهم من أية مدينة أخرى فى العالم  
الجديد ، فيما عدا مدينة المكسيك ، فقد كانت ممثلة لغيرها من المدن فى جميع  
النواحي تقريبا . وفى الحقيقة يمكن أن نعدّها حتى الآن المدينة النموذجية  
الأولى فى أمريكا اللاتينية - المدينة الخلاسية (x x) الحقيقة . ونظراً إلى  
مركزها كعاصمة لإقليم نائب الملك وإلى مجهودات تجارها ، أصبحت  
مدينة غنية يعيش أهلها عيشة بذخ وإسراف ، بل إن طبقة النبلاء الإسبانيين  
الذين عاشوا فى ليما دخلوا ميدان التجارة . كتب برتغالى عاش فى ليما أوائل  
القرن السابع عشر يقول : « إن كل شخص إلى درجة النبلاء العظيم يكرس  
نفسه للتجارة ... وهم مهرة فى كل فرع من فروع التجارة لدرجة لا يفوقهم  
فيها شعب آخر » . وكان بعضهم يمتلك رأس مال شغالا يقدر بأكثر  
من ١٠٠٠٠٠٠٠ بيسو . وكثيرون كانوا يمتلكون أكثر من

(\*) أربعة عشر موقفا وهو فى طريقه إلى جبل الجليظة .

Siete Pecados (\*\*\*)

Siete Jeringas (\*\*\*)

Huevo (+)

Pariö (x)

Ciudad Criolla (x x)

... ٥٥٠٠. وفي ذلك الوقت كان أغنى تاجر في ليا كورسيكي الأصل ومن المهم أن نلاحظ أنه من بين الأجانب في المدينة كان هناك فرنسيون، وإيطاليون، ألمان، وإغريق، ومن دلماشيارجنوا، وإنجليز، وهنود، وصينيون. وبعد مضي أكثر من قرن رسم خوان وايوا صورة مشابهة، ولكنهما قالوا: «إن ثورة معظم الأسر تتهى بانتهاء حياة الشخص الذي كونها». وقالوا: «إن لدى سكان ليا استعداداً غريزياً وميلاً للتجارة، ويمكن اعتبار المدينة كأكاديمية تلجأ إليها الجموع الغفيرة ليكملوا أنفسهم في مختلف فنون التجارة... وهناك أسر كثيرة يعيشون عيشة فاخرة من إيراد مزارعهم فقط، دون أن تكون لهم صلة بهموم التجارة وهلمها، ولكن عدداً أكبر من المزارع تضيف إلى إدارتها مزايا التجارة للحفاظ عليها».

وجلب الاستقلال معه تغييرات كثيرة لا يستهان بها في حياة ليا. فالمناجم في الجبال لم تعد تدر العائد الذي كانت تدره فيما مضى. وباختفاء الإسبانيين تسلم الخلاسيون إدارة المدينة الاقتصادية كما تسلموا حياتها السياسية. كتب كابتن بازل هول الذي كان يزور ليا في أثناء احتلال سان مارتن للمدينة يقول: «كان كل شيء ريبة ويأساً. ففي الأزمنة الماضية كان اللياويون يقولون إن مدينتنا كانت مدينة فيها تملك السرور بلاطها، وكانت الثروة واليسر خادمين، والمتعة شغلنا الشاغل. ولم نحلم بأى شرسوى الزلزلة: وعليهم حتى الآن أن يتعلموا أن هناك زلازل معنوية وسياسية، كما أن هناك زلازل طبيعية، قد تستطيع تدمير هيكل المجتمع رغم أنها تترك الكنائس والمسكن لايمسها سوء». وعندما زار تشارلز دارون ليا

لاحظ أنه رغم أنها كانت فيما مضى بلدا غنيا بكل تأكيد ، فقد كانت حينذاك وفي حالة يرثى لها من العفن ، . وأضاف : « الشوارع غير ممهدة تقريبا ، وأكوام القاذورات متراكمة في الاتجاهات ، وهناك يلتقط الدجاج الأسود (\*) ، وهو مستأنس كالدواجن ، القطع الصغيرة من الرمم وشاهد أ. ج. سكوير ليا في السبعينيات من القرن التاسع عشر عندما ازدهر اقتصاد بيرو من رواج سماد الجوانو (\*\*) . قال عن عاصمة بيرو التي كانت حاضرة نائب الملك الترفة المتعصبة : « إن مدينة الملوك القديمة لانزال غنية وهيجة ومزدهرة ، وأكثر رفاهيا كانت عليه في أكثر أيامها الاستعمارية افتخارا ، (٨) .

وعندما أقيم الاحتفال بتأسيس ليا في ١٨ من يناير سنة ١٥٣٥ لم يحضر سوى فرانسيسكو بثارو وأحد عشر إسبانيا . وسرعان ما حضر عدد أكبر من الداخل . وبانقضاء السنة بلغ سكان مدينة الملوك ، كما كانت تعرف آنذاك ٦٩ مسجلا (\*\*\*) أي مواطنين سجلوا أمام مجلس المدينة (X) وكانوا أكفاء لتسلم قطع من الأراضي في زمام البلدية . والجدول الآتي يبين نمو المدينة والنسب المختلفة لعناصر السكان .

وأهم ما يسترعى الاهتمام في هذا الجدول هو زيادة نسبة المرلدين من هنديات في مجموع السكان . وقد تسبب الاختلاط المنطلق للعناصر الثلاثة

gallinazos (\*)

(\*\*) طائر له ذرق يستعمل سمادا

vecinos (\*\*\*)

Cabildo (X)

هـ الكنتاكت  
ملك الأستاذ الدكتور  
ولسلى زكى بطرس

٤٦٥

الدينية

تحيات اخرى	مولدون من زنجيات	زنجوج	مولدون من هتديات	هنود	بيض	المجموع الكلى	السنة
٢,٥٥٦ آسيويون	٧٤٤	١٠,٣٨٦	١٩٢	١,٩٧٨	١٢,١٣٤	١٤,٣٦٢	١٥٩٩
٥,٦٢٤	١٠,٢٣١	٨,٩٦٠	٢٣,٢٣٣	٣,٢١٠	١٧,٢١٥	٢٥,٤٣٤	١٦١٤
٣,٥٧٢		١٧,٨٨١	٤,٨٧٩	١٠,٦٤٣	١٨,٢١٠	٣٧,٣٣٤	١٧٠٠
٥,٦٧٣						٥٤,٠٠٠	١٧٥٥
١٢,٤١٧						٥٢,٦٢٧	١٧٩١
						٦٣,٩٠٠	١٨١٢
						٥٥,٦٢٧	١٨٣٩
						١٠٠,١٥٦	١٨٧٦
						١٣٠,٢٨٩	١٩٠٨
						١٧٣,٠٠٧	١٩٢٠
						٢٧٥,٩٠٨	١٩٣١
						٤٠٢,٩٧٦	١٩٤٠
						*١,٣٠٠,٠٠٠	١٩٦٥

(\*) تقدير لسنة ١٩٦٥

الأساسية قبل نهاية عهد الاستعمار نشوء مجموعات مهجنة معقدة لانزوال  
 تميز ليا ، كما تميز مدنا كثيرة أخرى في أسربكا اللاتينية (١٠) . وكان من  
 نتيجة التهجينات المتتابة بين مختلف المجموعات أن التركيب الاثنوجرافي  
 للسكان كان في تدفق دائم حتى إنه لم يحدث أبداً أن كانت هناك سسلالة  
 قياسية . وفضلا عن ذلك فإن التدرجات في الاختلاط كانت كثيرة وبحيرة ،  
 والاختلافات في الملامح خادعة ، لدرجة أنه لم توجد قاعدة للتحديد الدقيق  
 للسسلالة التي ينتمى إليها شخص من مجموعة بالذات . أما الاصطلاحات  
 المنمقة التي ابتكرت للتفريق والتمييز بين جميع التهجينات الممكنة فقد كانت  
 ذات قيمة محدودة جدا في التطبيق العملي ؛ ذلك لأنه لما كان دم البيض  
 مرغوبا فيه كأمنية قصوى وسامية في كل المجتمعات الاستعمارية فإن المولد  
 الفاتح السحنة كان ينقل نفسه على سلم اللون الاجتماعي إلى المستوى اللوني  
 المعادل كلما سنحت الفرصة لإعلان شخصيته . فإذا كان تلوينه فاتحا إلى  
 درجة كافية فليس هناك من يوجه أية أسئلة ، ويكون الشخص قد أخذ  
 مكانه بين الطبقة المختارة في المجتمع ، على الأقل فيما يتعلق بالنواحي  
 الاثنوجرافية . أما الباقي فكان مسألة سلوك وافنصاديات ، ولو أن النقص  
 في حلقات سسلالة النسب في المجتمعات المتعاطمة كان دائما أمرا معوقا .  
 ولمثل هذه الأغراض كان دم الانكا يؤهل صاحبه إلى الارستقراطية ،  
 كما حدث لأسرة أمبورو والمؤرخ جارسيلاسو دي لافيغا (١١) . وأحيانا  
 كان ذوو الطموح الاجتماعي من الناس يشترون تراخيص بيضاء (٥) من  
 بيت مال مازوم ، لم ترك أية شكوك قانونية في حقهم الانتماء إلى البيض ،  
 مهما تدخلت الحقائق البيولوجية في الموضوع . وإلى حد ما أصبح هذا



لأجراء عاديا في البرازيل حيث كان هناك تعصب لوني أقل مما كان في المستعمرات الإسبانية .

وفي مجتمع سادت فيه مثل هذه التنظيمات أصبحت الضغائن العميقة ومظاهر الحنق بين الطبقات غير الممتازة اجتماعيا ، بعبارة أخرى السلالات المبهجنة ، أسراً لا مفر منه . فالدماء النقية كانت تصف مقابل الدماء المختلطة التي لا خلاص منها سوى عن طريق سلسلة من التهجين الاتفاقي المتجدد الذي يحقق انحدار الشخص من طبقة البيض المحسودة . أما البديل الوحيد فقد كان الحصول على نوع من الامتياز الشخصي الفائق بمجهوداته الخاصة والذي يجبر الطبقات الممتازة اجتماعيا على الاعتراف به . أما بالنسبة إلى المهجن من عنصرين هندي وزنجي (\*) ، والخالى من أكسير دم البيض في عروقه ، فإن مطمحه الاجتماعي يكاد يكون ميؤوسا منه .

وتجاوز الحكام الإسبانيون ، تجاوزاً ضئيلاً على الأقل ، عن هذه الفروق والعداوات في المجتمع الاستعماري . فاستمرارها كان يؤكد أن هذه السلالات المبهجنة لن تتحد لكي يجمعوا خيبة أملهم ويحولوا استياءهم نحو الأقلية للبيضاء ونحو سلطة إسبانيا التي كان يمثلها البيض . وكانت الحكومة مهتمة فقط بأن تبقى احتمال ثورتهم تحت السيطرة ، وبأن تمنع أي قسم من أقسام السكان من التوكيد على كيانه إلى الدرجة التي تضر بالصالح العام . وبمرور الوقت أصبحت الأنواع المختلفة الناتجة عن الاتصال الجنسي قد اختلطت جيداً حتى إنهم كانوا يعاملون جميعاً دون تمييز « كإناس ملونين » ، « ديمستشوس » ، إذا أخذنا المعنى الفرنسي للجنس (\*\*) فأصبحت هناك أغلبية متكاملة من المولدين ، وقد يكون جزء منهم مولدين

(\*) تامبو zambo

(\*\*) métis بمعنى مهجن .

من زئوج في تركيهم الجنسي . وأصبح التغير في غضون هذا القرن واضحا تماما ، ويشاهد في تجميع كل السلالات المختلطة في الإحصاءات الرسمية في بيرو . ولم يؤثر الأوروبيون الآخرون الذين قدموا بعد الاستقلال ، ولا الشرقيون الذين بدأوا يفدون بعد منتصف القرن الماضي تأثيرا ماديا في عملية التهجين . فبخلاف الحال في أرجنتينيا وأرجواى وجنوب البرازيل ، حيث كانت العناصر غير الإسبانية من الأوروبيين عاملا مكوناً رئيسيا ، أصبحت المشكلة مشكلة قومية بحثة ، تمتد جذورها عميقا في تاريخ بيرو (١٢) .

والليبارى العادى اليوم مولد فهو يعاني من نفس مركب النقص ، ونفس الاطلاح التي لم تتحقق ، ونفس الإحساس الغامض بأنه غير « منتم » وهذا هو الذى يحس به المولد في أية جهة أخرى . غير أن المولدين في المكسيك استردوا مركزهم في المجتمع بعنف الثورة ، وفي أسونثيون وسان سلفادور بنوع من التطور الطبيعى . أما في بيرو فهناك فرصة أكبر ، على الأقل في الميدان الاقتصادى ، عما كانت عليه الحال دائما فيما مضى ، وقليل من الأبواب — وتلك الأبواب ضيقه غالبا — مقفلة في وجه الطامحين والموهوبين ولكن بين الأغلبية من المولدين هناك فتور ظاهرى في العزيمة ، واتجاه إلى ترقب ما ستقوم به الدولة من أجلهم . فرءوسهم مفعمة « بالمشروعات التي لم تكتمل بعد » والتي قلما تكتمل بسبب النقص في التفكير السليم وفي الثقة بأنفسهم . وهكذا ، كما في كل الجهات التي لم يجدوا فيها مكانا يستقرون فيه في المجتمع ، يصبحون وقوداً لاندلاع الثورة والقادة الأعزاء . لتوار الشعب الذين قد يعرفون التطور المنتظم للأمة تحقيقا لمجدهم الخاص . فهم يمثلون احتياطا ضخما من الذكاء لم يستغل منه إلا النزر اليسير ، والذين تحرروا منهم من النطاق الحديدي

لقصورهم الداني كي يصلوا إلى مركز عال في المجتمع أظهروا كفاياتهم بدرجة كبيرة .

وفي هذه الأثناء ، تغير التركيب الأساسي للمجتمع في ليما إلى حد ضئيل يدعو إلى الدهشة . فلا تزال هناك نفس الطبقة العليا التي يغلب البياض في بشرتهم ، تعودوا السيطرة من تجارب قرون خلت ، بأرائهم فيما هو أفضل لبيرو — وما هو ، بصفة عامة ، صواب . وهناك نفس الهنود ، بعضهم « بالملايس المدنية » ، وبعضهم قادم لنوه من الجبال ، والجميع يشعرون بالقلق في المدينة التي لا يلتزمون إليها . أما الدم الزنجي فتمتصه كتلة المولدين شيئا فشيئا نظراً إلى عدم وجود مورد لسد النقص ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الهنود . ولذلك فقد أصبح السود قلة نادرة .

ولقد كانت ليما دائماً مقرا للسلطة السياسية حين أسسها بثارو وزمرة من الرفقاء منذ أربعة قرون على التوالي . وكانت الحكومة في بيرو سواء مثلها نائب الملك ، أم دكتاتور جمهوري ، أم رئيس دستوري ، تنطق عن سلطة عليا . ففي عهد الاستعمار كانت ملكية كاسبانيا الجديدة أو إسبانيا القديمة نفسها ، وكانت حكومتها في روحها ، إن لم يكن في شكلها ، صورة طبق الأصل من حكرمة العاصمة . وكما يتبين من الاسم كان نائب الملك خدنا للملك في ممتلكاته فيما وراء البحار . فكانت تحيط به العظمة والاحتفالات التي كانت تهب الجموع السريعة الانفعال في الإقليم . فلم يعارضه الناس ببساطة أو يعارضوه وينتظروا أن يظلوا أحياء . لجميع عملائه وخدمه — من قادة الجيوش والحكام وحكام المدن والقضاة — كانوا يقفون في ظل جبروته المديد وبناتهم نصيب من حصاناته . ولم يحدث مطلقاً أن هيء المسرح لنحدي ادعاءات إسبانيا القديمة والمهيبة في الأمريكتين حتى زاح الغلاسيون أو الإسبانيون الذين ولدوا في المستعمرات بأعداد جمّة وجريئة في أواخر القرن الثامن عشر .

وفي خلال حروب الاستقلال قامت ليما بمحاولة خطيرة العاقبة مع الوطنيين . فقد كانت هناك ولايات مناصرة لإسبانيا لم يكن من السهل استئصالها ، وكان هناك إحجام عن التخلي عن الحقوق الإمبراطورية لعاصمة إقليم نائب الملك من أجل تقييدات الجمهورية انتقصت منها الولايات الخارجية . ولقد حيرت شهية الشعب المتقلب والمحبة للفرح والديسيسة ، دون اقتناع كبير ، إلا إذا أثر هذا في مصالح المرء الخاصة ، تفكير سان مارتين القويم وبوليفيا الساخط ، وهو نفسه ليس غريبا عليه الخداع والادعاء . ولكن ليما كانت قد تعودت أن تحكم ، ولذلك فبعد أيا كوشو ، استمرت تسيطر على جمهورية بيرو الجديدة والمنتقصة ولم يقيم الجمهوريون باستعراض جميل كما كان يفعل الإسبانيون ، بل كان بعض رجال السياسة الجدد محدثين وسلوكهم غير وقور . ومع ذلك تحملت ليما قادة الجيش الصاخبين والرؤساء المدنيين ٤ خلافاً ، لأنها كانت لا تزال سيدة بيرو - ولم تسكن بيرو جزءاً تافهاً حتى تسيطر عليه مدينة ما .

وكانت ليما في عهد الاستعمار أكثر من أن تكون عاصمة أكبر إقليم نائب ملك في التاريخ . لقد كانت مشهدة للحياة التمثيلية الزاهية ، بمجونها وجرائمها ومهازلها وفواجعها ، صورها بوضوح ريكاردو بالمبا في كتابه « التقاليد البيروفية » (٥) ، وهو القراءة المفضلة لأهالي بيرو المتعلمين (١٣) . وبطريقة ما تركت شدة انفعالات الفتح أثرها في روح المدينة ، وكانت الزلازل المتكررة تذكر سكانها كم آلت آمالهم ورضائهم جميعاً إلى زوال وكان نبض المدينة يضرب أسرع من نبض مدينة المكسيك ومن نبض بوجونا . ولذلك فقد كان هناك اتجاه لاقتناص متعتهم كلها كانت عندهم بقية من وقت . وكان الليل والضباب والأبواب الضخمة التي كانت لبيوتهم

المحصنة تخفى تودداتهم ودسائسهم، ومخاتلاتهم(\*) وانتقاماتهم وقد تكون الضحية نائب ملك اشتط به حب الشهوات مثل كونتدى نيفا، أو الخطيب الذى يلح أكثر من اللازم فى خطبة سيده فوق مستواه الاجتماعى. أما النهاية فقد خصصت لمستلزمات التقوى والإحسان، والاستعراض والزهة والتحدث، وللعمل لإدارة أشغال المدينة وإقليم نائب الملك.

وبقيت بعض المدن والبلاد الاستعمارية حتى العهد الجمهورى كقطع متحفية وآثار لتاريخ قديم. فربما كانت المناجم التى اعتمدت عليها فترة مجدها القصير قد نفدت كما فى أوروريتو فى ميناس جيرائس، أو أن اقتصاديات الجمهوريات لم تجد مقوما آخر لها تعتمد عليه. ولذلك فلو أن الوصول إليها ميسر بطرق المواصلات الحديثة فإنها تصبح أما كن تجذب السياح، وأهدافا تستوجب الاحترام عليها. وأول مكان من هذا النوع كشكو العاصمة القديمة لامبراطورية الإنكا، حيث يحتفل فيها بأهم حادث تاريخى فى السنة وهو الاحتفال الهندى، (١٤) (٥٥) ومع كونها معجزة أثرية وتاريخية فإن لها موارد قليلة ظاهرة لإعاتتها، فهى تستجدى بالحاح على أبواب الخزائنة الألهية، فى حين أرسلت الأمم المتحدة فريقا من الإخصائمين الدوليين ليخططوا وسائل لإعمارها. ومن بين البلاد الأخرى التى تنتمى إلى نفس النوع بوتوسى، وكانت فى يوم ما من أكبر مدن نصف الكرة، ولوجا، وهى مخبئة بعيدا فى ركن من الجبل فى أكوادور. ومن هذه الناحية كيتو أيضا، وبوبايان فى كولومبيا، وجواناخوانو فى المكسيك، وترنداد فى كوبا. وبعد الاستقلال بوقت طويل احتفظت مدن كثيرة مزورة عن طرق السفر الرئيسية بجوها القروى المتراخى. وعلى الرغم من أن اسونثيون عاصمة أمة مستقلة فقد تغيرت تغييرا ضئيلا بمرور الزمن بشكل يلفت النظر.

enganos (\*)

lati - Rami (\*\*)

أما سائتا كروث دى لاسييرا ، فلكونها منفردة رغم خطوط الطيران ،  
 فى سهول بوليفيا الشرقية ، فهى لا تزال تحتفظ بكثير من جو اللهو والمرح  
 الذى شاهده هيرندن وجيبون منذ قرن مضى فى تلك المدينة الواقعة على  
 حدود الجنس الإسباني . وعاش سكانها مستقلين عن العالم الخارجى ،  
 وبمجهود ضئيل تمتعوا بثمار بيئة طبيعية سخية . أضف إلى ذلك أن جنود  
 البحرية الأمريكية لاقوا هناك درجة من الرقة والأدب قلما لاقوها فى  
 أماكن متمدنة أخرى من العالم .

### بوتوسى

على الرغم من أن الفضة قد أخلت السبيل من زمن طويل للقصدير ،  
 فإن مدينة التعدين الشهيرة بوتوسى ليست إلا قوقعة فارغة من ذاتها الماضية ،  
 أسست فى سنة ١٥٤٥ عند سفح الجبل المخروطى الذى يظهر فى درع جمهورية  
 بوليفيا وسرعان ما أصبحت أغنى معسكر تعدينى فى بيرو وفى العالم أجمع ،  
 وكونت ثروات طائلة لعدة من الفاتحين الأوائل . وكانت من بادية الأمر  
 مكانا مضطربا ، وتعدت حوادث الشعب المزمته بها ومعارك الشوارع عدة  
 مرات قوة نفوذ نائب الملك . وعاش المعدنون والتجار فيها عيشة بذخ  
 وعنف فى جو من التوترات ، يزيد من حدتها ، على ما يبدو ، المناخ المجهد  
 إلى درجة فريدة على ارتفاعها البالغ ١٤٠٠٠ قدم . وقد قال الأب الكوستا  
 عن مناخها : «أعظم الكنوز قاطبة الموجودة فى العالم ، . أما الأب فائسكيث  
 دى إسبينوسا الذى شاهدها فى أوائل القرن السابع عشر فقال : «إنها كانت  
 أكبر مستعمرة يجدها المرء فى الهند الغربية ، . ومن بين ما كنيها الدائمين  
 كان هناك أكثر من ٤٠٠٠ إسباني من يملكون مناجم وطواحين ومن  
 التجار . وكذلك كان هناك كثير من المحاربين القدامى يعرفون باسم جنود  
 الشرف ، ( \* ) الذين كتب عنهم الأب فائسكيث يقول : والحقيقة أن كثيرا

منهم نفوس ضائعة . وقد كان من الأفضل لو أنهم مارسوا عملاً أو حاولوا أن يكسبوا شيئاً بطريقة أخرى لأنهم السبب الرئيسي في الاضطرابات التي يحتمل أن تنشب في تلك المملكة . وبالإضافة إلى الحرائر وأدوات الترف الأخرى التي رآها معروضة للبيع في الحوانيت قال إن فنادق المدينة كانت تصرف سنوياً أكثر من مليون ونصف مليون ، دورق ، من النبيذ . أما الفرنسي أكاريت دوسكى الذى زار بيرو عن طريق بونيس أيريس خلال السنوات ١٦٥٧ - ٥٩ فقال إن هناك من ٣٠٠ - ٤٠٠ إسباني قادر على حمل السلاح ، وإن حوالى هذا العدد من المولدين كانوا يعيشون في بوتوسى . ووجد أهاليهم المحبين للشجاعة ومتغطرسين ومنغمسين في التباهى . وقال إنه شىء عادى أن يلبس المرء ثلاث أو أربع صدريات من الجلد لتحمية من ضربات السيوف . وكان لا يزال هناك ثروة عظيمة في البلدة بعد أكثر من قرن من تشغيل المناجم . وكثير من الأفراد كانوا يملكون ثروات تصل إلى ثلاثة أو أربعة ملايين بيسو . وكانت النساء يقرن في بوتون ، بدرجة أكبر بكثير مما في الحال في إسبانيا ، ويبقين (نشوانات) بتعاطى السكوكا وعند مارأى (الإنكا) المتجول كونسكولور كورفو بوتوسى في سنة ١٧٧٠ كان هناك فقط حوالى ١٢٠٠٠ من السكان في المدينة ، وكانت المناجم خربة . قال : « على الرغم من وجود ثروة طائلة فليس هناك بناء نفخ في البلدة إذا استثنينا دار سك النقود - وهى دار نفخة حقيقية » . وكان السكان في شجار لدرجة أن رجلين قلما يتصادقان مدة أسبوع . وبدأ الثبات الوحيد في السعى وراء « شهوات العشق » ، وهى حرفة مجزية تقاعدت عنها حديثاً بضع نساء ليعشن سخاء رخاء بعد أن أجبرن عشاقهن الوقتيين على الزواج منهن . وقال جوزيف اندروز الذى رأى بوتوسى فى أواخر عهد الاستعمار : « إنها تبدو كمدينة لأمير المعاصى ، غريبة ، مهجورة وحيدة ، غامضة ومكاناً للفتنة الشريرة » .

هناك عدد لا يستهان به من المدن الجديدة في أمريكا اللاتينية .  
 ما كان قري ( \* ) خاملة عاشت في نخولها طوال عهد الاستعمار ،  
 ما انطلقت تحيا حياة جديدة في القرن الماضي لصبح مراكز هامة  
 وتنفيد وروساريو ، ثاني مدينة في أرجنتينا اليوم . وبعضها مدن  
 كلية أنشئت لسد حاجة خاصة في حياة الأمة الاقتصادية والسياسية .  
 هذه اندوفاجستا ، وهي أهم ميناء في شمال تشيلي ، ولم تنشأ حتى سنة  
 ، ولا بلاتا وقد تأسست في سنة ١٨٨٢ ، وقد سميت من جديد ايفيتا  
 ، وتوريون ، وهي مركز تجارى صاحب في شمال المكسيك ،  
 ما خمس وسبعون سنة فقط . بل هناك مايناليس ، وهي أصغر عمراً  
 مة إقليمية هامة ومركز للين في كولومبيا . أمايلو هوريزونتي وجويانيا  
 هما هاضمان للولاياتين البرازيليتين ميناس جيرائيس وجوييز على  
 ، فهما مدينتان أنشئتا قسراً وبالامر بعد خطة مدروسة مثل  
 لمن وكهرا . وييلو هوريزونتي يسكنها الذين يناهزون أكثر من ثلث  
 ، نسمة من أشد المدن جاذبية في أمريكا الجنوبية . ومنذ زمن بعيد  
 حكومة الجمهورية البرازيلية لإنشاء عاصمة فيدرالية في منطقة تخصص  
 غرض في هضبة جويارالناية ، وهناك اقترض أن القيمة الخام المرحلة  
 كون ملائمة لتحسين الخدمة العامة . وعلى الرغم من أن اقتراح نقل  
 للحكومة من ريو دي جانيرو كان يحدده من وقت إلى آخر مشرع  
 ( \*\* ) لغرض تطهير الدولة ، فقد تأخر نقل العاصمة إلى برازيليا  
 قت قريب ، رغم ما شيد من مساكن لإيواء موظفي الحكومة  
 ادية البيروقراطية الذين كانوا يعنقون عن قبول الانتقال إلى عاصمة  
 البرية ( \*\*\* ) .

Puebls (١)

( \* ) Catonian نسبة إلى كاتو مشرع روماني .

( \*\* ) سرتاو Sertao : غابات وفيافي فوق المرتفعات .



وفي أقطار معلومة في أمريكا اللاتينية تطورت مدن ثلاثية - نمط ثلاثي لوظيفة المدينة . ذلك أن الأغراض الرئيسية الثلاثة المدينة - السياسية والاقتصادي والاجتماعي أو الثقافي - تمثلها بدرجة غير عادية مدن كثيرة مختلفة بدلا من تركيزها في عاصمة واحدة ، كما هي القاعدة في معظم الجمهوريات . فمدينة واحدة هي أساسا العاصمة السياسية ، أى مقر الحكومة على الرغم من الوظائف الأخرى التي قد تؤديها . وأخرى هي ، فوق كل شيء ، مدينة اقتصادية ، أى مركز الصناعة والحركة التجارية ، ومخصصة أساسا لخلق وتوزيع الثروة والثالثة هي حرفيا مدينة متحضرة ، أى مركز حضارة تتخصص في فنون المعيشة . وقد تتفوق في إنجازاتهم الثقافية ، ولكن هذا ليس ضروريا . وهي عرضة لأن تصبح المدينة المفضلة لشعب بأكمله أو المدينة المحبوبة ( \* ) - المكان الذي يفضلونه للزيارة في أوقات فراغهم . وايست الولاءات العميقة نحوها نتيجة اهتمام ، بل نتيجة عاطفة ، وقيمها العزيزة هي قيم الروح وفي إسبانيا نفسها نجد هذا النمط الثلاثي في مدريد وبرشلونة وإشبيلية . وعلى الرغم من أن هذا النمط ليس واضحا في تفاصيله فهو يمثل في إيطاليا في روما وتورينو وفلورنس . أما في أمريكا اللاتينية فهناك مثل كلاسيكي في البرازيل في الثلاث المدن اسكل من ريو دي جانيرو وساو باولو وبائيا . وأمثلة أخرى مدينة المكسيك - مونترى - جوادالاخارا في المكسيك ، وفي كولومبيا تظهر الأجزاء الفردية من الثلاث في بوجوتا وميديين وبوبايان ، المدينة الاستعمارية القديمة الجميلة .

## المواضع

كان الاتجاه العادى فى الجمهوريات هو نحو سيطرة العاصمة على جميع المدن الأخرى واليهود من شأنها . وهذه الحالة الاحتكارية هى ميراث النظام الاستعماري ، عندما كانت القوة والثروة والثقافة تشجع لىكى تنجذب نحو مقر الحكومة ، وذلك لخدمة أغراض السياسة الامبراطورية . واستمرت الخطة بإصرار فى بساتنها الأصلية فى أرجنتيننا وتشيلي وكستاريكا وكوبا وجمهورية الدومينيكان وباراجواى وبيرو وأوروغواى وفنزويلا . فليس هناك مدينة ثوية تقرب من حيث نفوذها أو سكانها من مركز العاصمة الأمر فى أى من تلك الأقطار . وتوجد حالة مماثلة إلى درجة غير ممكنة فى جمهوريات أمريكا الوسطى ، هى جواتيمالا وبنما وال سلنادر . ولا تسود هذه الظاهرة فى بوليفيا أو أكوادور أو نيكاراغوا ، ولا فى الدول الكبرى المذكورة آنفا ، ونفى بها البرازيل وكولومبيا والمكسيك . فالمدن البوليفية - كوشامبا وأوروو وسوكرى وپوتومى وساننا كروث - وهى منعزلة الواحدة عن الأخرى وتفصل بينها مسافات طويلة ، عاشت حياتها الخاصة وطورت كل منها صفات خاصة بها ، وأصبح تطورها داخليا وخاصة من حيث موقف الواحدة منها بالنسبة إلى الأخرى . وعلى الرغم من أن لابات أصبحت بمرور الوقت تملأ فراغا سياسيا مينا من بين جميع هذه الانعطافات المتباعدة عن المركز ، وجاءت بحلقة ربط صناعية لوصول أجزائها ، فإن المدن الأخرى كانت تنزع إلى النظر إليها كطغيلي يعيش على إيراد زهيد يجمعه من البلاد (١٦) . بل إن كيتو فى أكوادور ليست أكبر مدينة فى الجمهورية ، وهى مضطرة إلى معاملة جوايا كيل بالاحترام وتنظر إليها بعين الاعتبار نظراً إلى تفوقها فى الأعمال والأهمية . أما بخصوص نيكاراغوا فإن ليون

وجراناذا قد لا تعترفان برضا يتفوق ماناجوا العاصمة المحدثنة النعمة والتي تدين بمركزها إلى منافستهما المبريرة التي لا تقبل المصالححة (١٧) .

ويمكن التعبير عن مركز العاصمة العادية المسيطر بالتفاوتات الكبير  
المرجود عادة بين سكانها وسكان المدن الكبرى في الأقاليم ، فبينما يبلغ  
عدد سكان ليا العاصمة ١٣٠٠٠٠٠ نجد أن عدد سكان أريكيبا ، وهي  
ثاني مدينة في بيرو أقل من ٩٠٠٠٠ . ويزيد عدد سكان كشمكو على  
٤٥٠٠٠ ، وتروخيو حوالى ٤٠٠٠٠ وشيكلايو حوالى ٣٥٠٠٠ .  
وفي تشيلي أكثر بكثير من ١٥٠٠٠٠ نسمة يعيشون في سانتياجو من  
بين مجموع السكان البالغ عددهم ٨٩٠٠٠٠٠ . وفي مدينة فلبارايدسو  
الساحلية ، وهي في الحقيقة ملحق اقتصادى للعاصمة ، مثل كياو بالنسبة  
إلى ليا ، هناك حوالى ٢٥٠٠٠٠ نسمة وفي كونسبسيون ، ثالث مدن  
تشيلي أقل من ١٠٠٠٠٠ . ويعيش حوالى ٨٠٠٠٠٠ كوبى في هافانا ،  
ولكن في سانتياجو يعيش حوالى ١٧٠٠٠٠ فقط ، و ١١٥٠٠٠٠ في  
كاماجوى . بل إن التباين في أوروغواى أكبر ، فولتيفيدو حوالى  
٨٥٠٠٠٠ أو تقريبا ثلث مجموع سكان البلاد ، وپاساتندو ، ثاني مدينة ،  
بها فقط حوالى ٤٧٠٠٠ نسمة ، ومرسيدس حوالى ٤٠٠٠٠ ، وليس  
هناك في پاراجواى مدينة كبيرة ، إذ يبلغ مجموع سكان أسونثيون  
وضواحيها أقل من ٢٠٥٠٠٠ شخص ، ونياريكا ، وهي الثانية في الحجم ،  
بها فقط حوالى ٣٠٠٠٠ بما في ذلك الأشخاص الذين يقطنون في وحي  
البلدية ، الذى يماثل الدائرة (٥) الأمريكية ، ومن بين ٢٢٥٠٠٠٠٠  
شخص في أرجنتين ٥٠٠٠٠٠٠ تقريباً يعيشون في العاصمة الكبرى  
بوينس آيريس ، وهو تفاوت خطير فيما هو أساسا بلاد زراعية . وهناك

(\*) County : قسم من الأقسام الإدارية التى تنقسم إليها البلاد لأغراض إدارية أو  
قضائية أو انتخابية الخ .

أربع مدن أخرى - روساريو (٥٦٠ ٠٠) وكوردوبا (٤٦٠ ٠٠٠) -  
ولابلاتا أو ايفيتا بيرون (٢٦٠ ٠٠٠) وسانتافي (١٧٢ ٠٠٠) -  
تضيف تقريبا ١٥٠٠ ٠٠٠ إلى السكان المدنيين في الجمهورية (\*).

والعاصمة في الجمهوريات المركزية مثل بيرو وتشيلي ، بنظام حكمها  
الهرمي المتوارث بواسطة الحكام ورؤساء المصالح و « كبار السياسيين » ،  
تتحكم في الحياة السياسية للبلاد بفعالية ، كما كان يفعل أى نائب ملك إسباني  
أو قائد جيش طوال العصور . فقد كان مصدر القوة الهائى فى قرارة  
الهرم هو الرئيس المحلى (\*\*) الذى يوصل الرغبات فى ناحية ، وفى الناحية  
الأخرى يرسل الأوامر والمؤن من العاصمة إلى المواطنين ، ولقد دعمت  
تسهيلات النقل والمواصلات الحديثة قبضة العاصمة على بقية أرجاء  
البلاد . وينقل الراديو صوت السلطة إلى أطراف الجمهورية ، وربما  
يدوى من مذبح فى الميدان فيزعج القائلين (+) فى بلدة فى الأقاليم .  
وتعمل الطائرات الصحف التى تجسم ما يجرى من الآراء فى العاصمة ،  
وأوراق (++) الإدارة ، وبيروقراطيين من ذوى الهيبة فى رحلات  
التفتيش إلى داخل البلاد . فمثلا بينما كان موظفو الحكومة البيروفية  
الرسميون يذهبون سابقا إلى ايكيتوس عن طريق قناة بنما والأمزون ،  
وفى طريقهم قد يعرجون أحيانا فى رحلة عارضة على نيويوك ، فإنهم  
يستطيعون الآن الطيران إلى المدينة فوق نهر مارانيون فى بضعة  
ساعات .

وتصبح العاصمة واجهة عرض للبلاد . فقد طرأت عليها مظاهر

(\*) جميع هذه الأرقام معدلة إلى تعداد سنة ١٩٦٥ (تقديرات) .

(\*\*) jefe politico

(+) من ينمون بعد الظهر - من المقلولة .

(++) papeleo

المدينة الحديثة ، وتلايلات بالأنوار الكهربائية ، والشوارع الواسعة البهية (٥) ، والمتنزهات التي تذكرنا بباريس ، والمباني العامة الأخاذة . أما الموانئ الجوية مثل ليما ، نابو ومينيسوترو ، يستأرنى فى بوينس آيريس فقد تكون مشار حسد نيو يورك أو شيكاغو . وزيد الاهتمامات الشخصية من الأثر بالحوائيت الجذابة وأنوار النبون والعمارات السكنية الفخمة . فى مكان يهرع المال والناس إليه . ونظراً إلى أن العاصمة هى مركز البنوك والمال فإن الأرواات تندفق فيها بطبيعة الحال للاستثمار أو كودائع أو لى تصرف ، لأن أولئك الذين يكونون ثرواتهم فى الأقاليم ينزعون إلى صرفها فى العاصمة ، وقد يقضون فيها جزءاً كبيراً من السنة يعولون فيها بيوتهم هنالك . أما الشباب الأكثر طموحاً وتفتحاً فى الأقاليم فقد تعودوا أن يذهبوا إلى العاصمة لاستكمال تعليمهم وكثيراً جداً ما لا يعودون إلى بلادهم الأصلية لطبقوا ما جنوه من تدريب لسد حاجات مجتمع غلب عليه التخلف ، وذلك بعد أن أخذوا بسحر المدينة الكبيرة والفرص الكثيرة للترقى والشهرة . وعلى ذلك فهاك ميل لأن تغص العاصمة بالأطماء والمهنيين الآخرين الزائدين على الحاجة ، وغالباً ما تكون هناك قلة نادرة منهم فى المراكز الريفية ليعنوا بالحد الأدنى من حاجات السكان المحليين .

#### مشكلة النحضر\*\*

بلغ النحضر فى أمريكا اللاتينية دوجة فائقة زائدة على الحد ، مع بضعة استثناءات كالبرازيل وبيرو ، خصوصاً إذا أخذنا فى الاعتبار

granvias (\*)

urbanisation (\*) وبمقد به نشوء وتطور المندر التي امتاز بها العصر الحديث .

الصفة الرئيسية لاقتصادها وظرف تطورها الحالى . ففي معظم الأقطار لا توجد أموال عامة كافية للتداول لتمويل تجديد جميع المدن دفعة واحدة . ولذلك فالبلاد فى الأقاليم تعطى قليلا قليلا ، وما هنالك من أموال تنعجه الدولة إلى صرفها بصحاء على العاصمة وأية مدن أخرى تستطيع أن تضغط سياسياً على خزانة الدولة . وإلى حد ما لا توجد مدن فى البرازيل لتوفير الخدمات الثقافية والاقتصادية الضرورية التى هى حق لآية جمعية أن تتوقعها منها . ولذلك فهناك تخلف ثقافى كبير بين ريو دى جانيرو وساوپاولو والمنطقة الساحلية الجنوبية عموماً من جهة ، والخلفية الشاسعة من جهة أخرى . وفى ميناس جيرائس ، وهى ولاية هامة عدد سكانها ٩.٠٠٠.٠٠٠ ، نجد أن بيلو هوريزونتى هى المدينة الوحيدة التى يزيد عدد سكانها على ١٣٥.٠٠٠ . وأما جوبير دافورا ، وهى ثانى مدينة فى الولاية ، فعدد سكانها حوالى ١٠٠.٠٠٠ ( \* ) . وفى ولاية ساوپاولو تتحسن الظروف كثيراً عن ذلك ، لأن المدن الداخلية الكبرى مثل ريبيريو برتو لم يكن لديها السكرباء والمبادأة المحليان فقط ، بل أيضاً الموارد الضرورية لجعلها مدناً جذابة بحقها الذاتى . أما البرازيل ، كما هو الوضع فيها ، فهى نسبة من أعلى النسب الموجودة فى أى بلد فى العالم بين سكان الريف والقرى وسكان المدن والمشكلة الأساسية الأمة فى هذا الصدد ليست فى زيادة سكان المدن ، بل فى النمو السريع الزائد على الحد فى سكان ريو وساوپاولو بالنسبة إلى سكان المدن الأخرى ، وفى التسهيلات التى تستطيعان تقديمها إلى جيش الوافدين الجدد من بقية أنحاء البلاد . وفى بيو تفسر لنا تقاليد ليا ، المصرة على أنها عاصمة إقليم نائب ملك . ومركزها غير العادى فى كل ميدان فى حياتها القومية . أضف إلى ذلك أن مجموعات الهنود المحافظين وذوى العقليات القروية فى الجبال يهتفون على أنهم معوق لآى تحرك عام

للناس نحو العاصمة . ولذلك فإن ليا تجتذب لنمو سكانها من الأقاليم الساحلية إلى الشمال والجنوب أكثر من تستميلهم من الأراضي الجبلية في الشرق .

واعنت السكفاح المربر بين بوينس أيريس والأقاليم فترات كثيرة من تاريخ الجمهورية الأرجنتينية . وكان القرار الخطير هو : هل يجب أن تحكم البلاد من « الميناء » بواسطة نوع مركزي من الحكومة كما في تشيلي وبيرو ، أم بنظام فيدرالي كالنظام الذي اتبعته المكسيك من قديم ولمدة طويلة كانت هناك حروب متقطعة بين «الوحدويين» (\*) و«الفيدراليين» عوقت تطور الأرجاء الداخلية الغنية . ولم يعم السلام في الجمهورية التي جعلت فيدرالية حتى صيغت طريقة اعترف بها بمركز بوينس أيريس غير العادي ، وأدجت في «إقليم فيدرالي» بدلا من أن يسمح لها باستخدام ولايتها الهامة التي تحمل نفس الاسم كأداة لأطماعها في السيطرة . وقد وصف دومنجو فاستينو سارمينتو الذي تولى الرئاسة من سنة ١٨٦٨ إلى سنة ١٨٧٤ النزاع الذي حدث في الأثناء في كتابه «الفصاحة» (\*\*). أو «المدينة والبرية» . وفي كتاب سارمينتو كانت بوينس أيريس المقر الوحيد للعادات المتعدنة في أرجنتينينا ، في حين كان داخل البلاد متخلفا وقرويا بعادات خشنة فظة تتجسم في الجوشو .

وحتى الاستقلال ، كانت بوينس أيريس بلدة إقليمية خاملة الذكر ، لا ميزة فريدة لها ولا سحر ، فما إن زال كابوس إسبانيا من فوق لإقليم نائب الملك الجديد في حوض نهر بلات ، حتى تبوأَت المدينة مكانتها . وبتدفق البضائع الأجنبية في المدينة المرجوة صاحبها الأفكار والعادات . وهكذا كان هناك جو جديد من التأنق حول المكان ، وكان الميناء الساحلي

Unitarians (\*)

• Facundo (\*\*)

يطل دون تردد نحو أوروبا ، وبخيلاء أدار ظهره المنعظم نحو خشونات الداخل . ونما شيتا فشيئا تنافر اجتماعى بين عظمة بوينس أيريس العاصمة والأجواء المتواضعة الموجودة، حتى فى أكثر المدن الإقليمية تطورا ، تنافر لا يمكن استقصاله إلا بمرور الوقت .

وهناك مجموعة من العوامل المختلفة ساعدت على «التحضير» الزائد الذى ميز معظم الجمهوريات ، وأثر بصفة خاصة فى نمو العواصم ، مثل كراكس وسانتياجو . فشبكة الطرق الممهدة التى تتجمع على «روما» المحمية ، ورخص أجور الأنوبيسات التى تستخدمها متنقلة بين المدن ، قد جعلت عادة السفر فى متناول أفقر طبقات السكان . ووصلت الكلمة إلى أقصى أركان البلاد تقول إنه قد يوجد فى المدينة العظيمة وظائف شاغرة فى الصناعات الجديدة أو مشروعات الأشغال العامة الحكومية ، وأيضا الأشياء الأخرى التى تستموى الناس فى العاصمة التى يعلن عنها بوسائل أكثر فعالية من ذى قبل الأنوار اللامعة ، المباهج البسيطة ، واجهات المحلات التى تبسج الطرائف ، الاحتفال يوميا بتغيير حرس القصر ، بل وصخب التطور ذاته .

وكانت المدن الكبرى أحيانا تزدهر بشكل غير لائق ، لأنها تسد حاجات عميقة بشرية واجتماعية يجب إشباعها ، وارد الحياة الريفية والقروية ، وبما تقدمه ثقافة المدن الصغيرة والبلاد الإقليمية من خدمات - بأوسع معانى الكلمة .

### المدينة والريف وجهان لوجه

أخفقت أمريكا اللاتينية فى أن تجعل الحياة الريفية جذابة . ولم يكن استمواء المدينة الفانى وحده سببا فى انهيار نظام المزرعة القديم شيئا فشيئا ، ذلك الاستمواء الذى جعل من صاحب المزرعة (\*) صاحب أملاك متغيباً

haciendado (\*)



عن أملاكه ، لأن كثيرين جدا من السادة شبه الإقطاعيين الذين يملكون الأرض أو خلفائهم قد فضلوا السكنى في طريق الفيبار الذى تصطف على جانبيه الأشجار ، أو فى سان إيسيدرو فى ليا ، أو فى فيدادو ، ويوزرون مزارعهم لمسا . وكثيرا ما يحتفظون بأماكن للفرجة ، فى البمبا أو فى الوادى الأوسط فى تشيلي ، يمكن أن تكون أكثر قليلا من استراحات باذخة فيها تنضى أسرم وأصدقاؤهم الإجازات . وهذا ينزعون إلى التنازل عن دورهم الطبيعى فى القيادة فى مجتمعهم المحلى ومستولية تطويره الذى يتمشى مع مركزهم الممتاز وأعدادهم .

ولكن نظام المزارع الكبيرة جميعه كان قد تغير بعض الوقت . وباستبعاد قاعدة العمل التقليدية ، قوض تحرير العبيد فى سنة ١٨٨٨ نمط المزارع الكبيرة التى ميزت شمال البرازيل منذ أيام الاستعمار الأولى . وصفى النظام فى المكسيك أثر ثورة سنة ١٩١١ ، لاشيء إلا ليعود زاحفانى وقت لاحق فى أماكن فى شكل ملكيات جديدة . وفى أرجاء من بوليفيا ، نظراً إلى ازدياد عدم ثقة الملاك بالهنود ، قصرت مدة إقامتهم فى مزارعهم المنفردة شيئاً فشيئاً . أما فى الأقطار المدارية فمزارع الشركات اتى كانت على درجة من الكفاية وجهت النظر إلى طرق جديدة فى إنتاج محصولات للتصدير . وفى هذه الأثناء اضطرت زراعة المزارع ، وكانت فيما مضى طريقة مرضية جداً للعيشة — ولكن قلبا كانت مشروعا تجاريا — اضطرت بتوالى الظروف إلى الدخول فى عالم الاقتصاد . فظروف المنافسة الجديدة فى الأسواق العالمية — فيما يتعلق بالسكاكو والسكر ، وارتفاع تكاليف عملية الإنتاج ، والجموح المتزايد من جانب عمال المزارع ، كل هذه كانت سبباً فى معظم الدافع الذى كان ينادى بالتغيير فى نمط الزراعة ذات الإنتاج الكبير . وإذا كان أصحاب المزارع قد توقعوا أن يعيشوا تحت تغير الظروف ، فربما كان عليهم أن يعضوا

بعض الوقت في المزرعة ، أو ينتهوا باستقرارهم هناك على الدوام ، ولا يزورون المدينة إلا إذا لم يكن لديهم غير هذا يؤدونه .

ولم تقو بعد فئة مزارعى الطبقة الوسطى بدرجة كافية أو تصبح لها أهمية عديدة لتكون عاملا أساسيا في المجتمع الريفي . ولهذا العنصر المرتقب مناطق راسخة في « المستعمرات » (\*) (الأرجنتين) ، وفي بعض أودية المكسيك ، وفي المناطق التي أدخل فيها نظام الري حديثا على الساحل البيروفي ، وفي مساحات واسعة في البرازيل ، وبين طبقة ملاك المزارع (\*\*) في الأفطار « المعتدلة » التي تزرع البن حول البحر الكاريبي . وإن التقدم خطوة في سبيل تعميمها قد يكون أقوى ضمان لتحسين المستوى الاجتماعي والاقتصادي في الحياة الريفية في أمريكا اللاتينية .

وهناك طور للمشكلة غموما أصعب بكثير من مجرد مواجهة المدينة للريف ، وهي المشكلة التي تتمثل في ملايين الزراع الذين ينتجون لكفائتهم الذاتية . ويختلف مستواهم اختلافا كثيرا ، ولكن يجمع غالبيتهم عامل مشترك هو الفقر . وكثير منهم يعيشون خارج النظام الاقتصادي التقليدي كلية .

فالمسألة ذات أهمية أساسية كبرى ، لأن عددا كبيرا منهم يمثلون مشكلة إصلاح بشري عظمى . وبعبارة أخرى يجب أولا إنقاذهم من المرض والجمل ، ومن حياة التنقل المزمنة ، ومن لعنة طرق الزراعة البدائية . ومع ذلك قلما كان هناك عدد كبير منهم ، ولما كانوا من عنصر طيب ، فهم جديرون بأية رعاية ومجهودات قد تلزم لإنقاذهم من التخلف .

وما ذكر إنما هو بعض العوامل التي تحيط بمحاولة إيجاد توازن أفضل

بين المدينة والريف في جانبي حضارة أمريكا اللاتينية . وهناك عوامل أخرى هي مد طرق أكثر ، وإنشاء مدارس أكثر ، وتعميم الشبكات الكهربائية في الريف ، وإنشاء عيادات صحية عامة .

وقد خلق نمو سكان المدن السريع الزائد على الحد مشكلات عويصة لهذه المدن . فكثيراً ما تجد المرافق العامة أن مطالب الصناعة والاستخدامات المنزلية فوق ما تقدمه طاقتها الفعلية أو إمكانياتها الذاتية من تسهيلات ، وكان من نتيجة ذلك أن الماء والكهرباء يوزعان بالبطاقات ، ويمكن الحصول عليهما في ساعات معينة من اليوم ليس إلا . ويميل النقص فيهما إلى أن يصبح إحدى مضايقات المعيشة في مدن أمريكا اللاتينية . ثم إن ارتفاع الأسعار الذي يبدأ عادة بإيجارات المساكن ، ثم يمتد إلى المواد الغذائية والملابس ، عادة ما يصبح أي نزوح كبير ومستمر من السكان القادمين من الداخل . وقد تضاعف كثير أعمل موظفي الحكومة الاجتماعيين بما فيهم رجال الشرطة والمؤسسات الخيرية . أما سكان الأقاليم كالهنود الذين ينزحون إلى ليما من الجبال فيجلبون معهم الجرائم الخاصة بهم ويصبحون بؤراً للعدوى مما يضيف أعباء على أهباء مصلحة الصحة العامة . وهناك أيضاً مشكلات متلازمة شبيهة تؤثر في الحكومات الأهلية . فثلاً أي تدخل في سكان الريف وإبواؤهم في العاصمة يقلل من مقدار الغذاء الذي يمكن الحصول عليه في البلاد بنسبة نزوحهم عن الريف ، لأن كل منتج ساق للغذاء يصبح مستهلكاً للأشياء التي كان ينتجها من قبل ليس إلا . وبنفس الطريقة قد تزيد مطالب المدن على موارد الطعام العادية ، وفي بعض الأحيان الموارد المزروعة . وهو خطر يتفاهم أحياناً كما في حالة ريو لفشل وسائل النقل التي ينقل بها الطعام محلياً .

## المدينة في حضارة أمريكا اللاتينية

إحساس المرء بالانتماء إلى المدينة في أمريكا اللاتينية ، كما هو الشأن في إسبانيا ، هو مسألة زهو يحس به سكان المدن . وهو يتخذ صورة الولاء لمدينة ، والرغبة في تمجيدها وتجميلها أما الأمة فلا تثير نفس هذا التعلق العاطفي ، لأن تزعزع ثقة الناس بالحكومة الأهلية منتشر ومتأصل .

فالجُمهورية وحدة جديدة وصناعية إلى حد ما ، أنشئت بطريقة تعسفية تقريبا بزسم خطوط معلومة على خريطة ، ثم حذر الأجانب ليلبّقوا خارج الحدود . ولكي تكتمل العملية لابد أن يكون هناك علم ونشيد قد لا يغنيه شخص ما من تلقاء نفسه ، وجيش ، ودستور ورئيس .

وأنشئت المدن من زمن بعيد ، لأن الإسباني كان عرضة لأن يصبح غير سعيد بدونها ، كما كان مواطن پاراجواي بدون شجرة البرتقال التي غرسها ، أو الريفي في تشيلي بدون شجرة التين . وقد نمت المدن لأنها حققت الأطماع العميقة في قرارة نفسه ، فكانت تمثل تقليدا لم ينقطع ، استمر يقاوم الحروب والجاتحات الطبيعية وانحيار الحكومات . وكانت ذات حجم تحيط به العين بسهولة أو يمضي أي شخص عبره بوسيلة نقل يملكها . فإن منظر ريو من قمع السكر (\*) ، أو كوركو فادو (\*\*) ، أو من نقطة تهيء الفرصة لرؤية طريق تيوكا . أو عبر الخليج ، وأيضا منظر سانتياجو عند الغروب من جبل سانتا لوسيا ، أو المستوى الأعلى لسان كريستوبال ، أو منظر مدينة المكسيك من غمرات الجبال التي تحيط بها — كل ذلك يكفي لرفع معنويات من يسلك هنالك . ففي استطاعته بسهولة أن يحكي مدينته بنفس الرهبة والتبجيل كما كان يفعل رعايا الإنكا عند ما كانوا يدخلون كشكو

(\*) "Sugar Loaf" : تل ارتفاعه ١٢٦٠ قدما يشرف على المدينة.

(\*\*) معناها « الأحب » .

وينحنون أمام العاصمة الإمبراطورية ويكررون الصلاة لألهتها الحارسة .  
 فالواطن يعد المدينة ملكاً له ، أما القطر فهو ملك للحكومة . وعادة ما يكون  
 النطر كبيراً إلى درجة زائدة ، وأرجاء كثيرة منه تنزع إلى أن تصبح كريمة  
 ومعادية . وهناك جبال كثيرة العدد، وجمات صحراوية وغاية كثيرة ،  
 أو فراخ كبير كما في البها حيث لا يوجد ما تتعلق به عاطفة المرء . وليس  
 هناك ما هو محبوب لديه كميدان في مدينة من صنع يديه نفسه . ويعرف  
 المواطن العادي في أمريكا اللاتينية جيداً شيئاً قليلاً عن بلاده فيما وراء  
 الأفق المباشر وبعيداً عن الطرق المألوفة . والطرق المألوفة تميل إلى القصر ،  
 وضيقة ، وغير مريحة ، فينتهي الأمر به إلى أن يبقى في مدينته . ذلك لأن  
 مدينته شيء أليف وعزيز عليه ، يشعر نحوه بالحب ، ويعتز بما يقدمه لها  
 من إنجازات . فلا غرو إذا كانت المدينة يكاد يسودها كلها حكم أفضل  
 مما تحكم به الدولة .

ويحيي المواطنون بمظاهر الأبهة أعياد مدنهم المثوية . وكثير من هذه  
 الأعياد أعياداً لمدن مضى عليها أربعة قرون من حياة المجتمع التعاونية .  
 وهم يحبون ذكرى معالم تاريخهم بالظواهر والخطابة ، وبؤلف علماءهم كتباً  
 جميلة تذكراً لعظمة المدينة كما كتب دانييل سامبر أورتيجا عن بوجوتا .  
 وقد تنشر البلدية سجلات مجالس المدن(\*) في عهد الاستعمار لحفظ الأجيال  
 القادمة التمثيلية البشرية المنحركة لسجلاتها التي استحققت التدوين كما  
 فعلت لها (١٨) .

ولذلك تسكافح المدن دائماً من أجل قدر أكبر من التجميل والتزين .  
 وتحقيقاً لهذا الغرض المشترك فإن قادتها الإداريين ورجال الفن والمعماريين  
 والمهندسين فيها يوحّدون جهودهم في تخطيط المدينة . ويجعل الرؤساء

والعمد ، مثل بيريرا پاسوس ، عمدة ريو العظيم ، طموحهم الخاص في أن يتركوا المدينة شيئا أكثر مهابة ونخامة عما وجدوها . فإذا كان الذي خلفوه شاهدا لهم ، وربما كان شاهدا على غرورهم الفردى ، فإن ثمار ما غرسوه تجنيها المدينة ومواطنوها . فقلما يتعدى خيالاتهم الشخصى نطاق أنفسهم ، على الرغم من أن حاجات أخرى ماسة في البلاد قد تضحي لسكى تشق العاصمة الهامة الطرق الواسعة ، وتقام التماثيل والأبنية العامة الفخمة والمرافق العملية اللازمة لحياتها اليومية ، كالأسواق وعمليات المياه والمجارى .

### مهاراة المدن

تغير منظر المدن الكبرى تغيراً أساسياً في كثير من الأحيان ، وأحيانا بدرجات متفاوتة وبطريقة موهشة ، كما حدث بالنمسة إلى مدينة المكسيك . وأحيانا يحدد منظر المدينة العتيقة بخفة كما حدث في بوجوتا ، أو تغير شهوة التجديد قلب المدينة كما يجرى الآن في كاراكس . أما معظم التغير الذى طرأ على بوينس آيريس فيبدو أنه وفق خطة منظمة ، ولكن نمو ساو باولو حدث هارص له صفة جوهريه وعالمية تبدو كما لو تتخطى كل تخطيط يصنعه الإنسان . وعلى الرغم من أن أربعة من عواصم الكاريبي — سانتودونيجو ومدينة جواتيمالا وماياناجوا ، وسان سلفادور — هدم معظمها أو تقوضت أبنيتها من جراء الزلازل أو العواصف في القرن الحالى ، فإن نمط تجديدها مقيد اضطرابيا بالحدود المتواضعة للوارد المتاحة لهذا الغرض .

وخاض منظر الأبنية العامة في أمريكا اللاتينية غمار طور تمتد من نمط مدرسة هيريرا (\*) الكلاسيكى ، خلال فن الباروك (\*\*) ، ثم العودة إلى الكلاسيكية من جديد ، وأخيرا إلى نمط مقلد للباروك أو نمط سوق

(\*) الأب والابن : من رسامى القرن السابع عشر .

(\*\*) نمط معمارى مسرف فى الزخرف .

العالم، في العمارة الذي يثله قصر مونرو في ريو و «الفنون الجميلة» في المكسيك (١٩) أما في الوقت الحاضر ففهم التطورات الإنشائية تشاهد في معجزات مباني «المسلح» والزجاج المصنوع بالأساليب العملية الحديثة. وبرهن بعض مصممي أمريكا اللاتينية، مثل نيمير في البرازيل، على أنهم جديرون بأنهم تلاميذ لو كوربوزيه وغيره من رجال المذهب المعماري القويم وقد كان التأثير الفرنسي كبيرا في بونيس ايريس لدرجة أن كثيرا من مبانيها باريسية جدا في منظرها. وإذا استثنينا حالات قليلة وبعض تفاصيل زخرفية ضئيلة لم يترك الهنود أثرا في العمارة الغالبة في أمريكا اللاتينية حتى وقتنا هذا. ومن جهة أخرى كان تأثير عرب إسبانيا (٥) في عمود الاستعمار الأولى واضحا أحيانا في أعمال المعماريين الأندلسيين الذين ذهبوا إلى العالم الجديد. ولما كانت معظم العمارة أكليريكية فقد كانت السكنية هي النمط النموذجي لفن المعماري، وعليها كانت تنصب مهارة وخيال المصممين بسخاء. وإذا استثنينا بضع حالات كأعمال البيادينو في أورو پريتو والواجهات المميزة للسكنائس اليسوعية المسرفة في الزخرفة (٥٥)، فإننا نجد أن عمارة البرازيل في عهد الاستعمار لا تستحق الثنوية. وكما قد نتوقع فإن عدم التناسق في الأبنية العامة في المدينة الكبيرة العادية مثل مدينة المكسيك لا يزيد على عدم التناسق الموجود في لندن أو نيويورك. ومن فوق آثار العمود القديمة في ساوپاولو يبدو منظر المدينة بارزة منه في جهات متناثرة ناطحات السحاب العالية.

وأخضر الإسبانون معهم فن عمارتهم السكنية إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر كما أحضروا جميع ثقافتهم وأشياء أكثر قد يحتاجون

---

mudéiare (\*)

(\*\*) باروك

إليها . ورأى خلفاؤهم والقادمون المتأخرون أن ليس هناك سبب معقول لتغييرها كثيرا جدا حتى العصور الحديثة ، فقد كانت تبدو من الخارج بسيطة ومتينة ، وكانت من الداخل تقدم لهم الخلوة والحماية لحياة الأسرة . وكان المسكن مكونا من طابق واحد ، ولو أنه في حالة كبر حجم الأسرة ويسارها بدرجة كافية ، قد يكون مكونا من طابقين . وفي جميع أرجاء أمريكا اللاتينية لا يزال هناك مئات الأميال تصطف على جوانبها مثل هذه المنازل . ويستطيع المرء أن يشاهدها الآن في سيلايا أو تونيا ، أو سولتا أو أولندا ، أو في آلاف المدن الأخرى أو ، لهذا الغرض ، في هافانا وبوجوتا وليما ، لأنها أبنية متينة جدا . فقد كانت الجدران تبنى عادة من اللبن ، والسقف من القراميد الجراء تحرق في الجهات المجاورة . وكان الحائط الأمامي يطلى باللون الأبيض وينساب مع الممشى الجانبي الذي كان يرصف ببلاط ثقيل من الحجر واعتادت نساء المنزل أن يضطجعن على الوسائد في الشبايك الأمامية يشاهدن العالم المحلى يسير أمامهن . فإذا كانت الشبايك مسيجة بالقضبان فإن شباب البلدة كانوا يتقدمون لخطبة عرائسهم (\*) من خلال شمسية الشبايك (\*\*) ، كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم في إسبانيا . وكان باب الشارع سميكاً وثقيلاً ، وعندما كان يغلق بالمفتاح الكبير لا يستطيع أن يزعج أمن من في البيت سوى آلة لخدم الأسوار . فإذا كان المنزل مكونا من طابقين فغالبا ما كانت له شرفة أو اثنتان . وكان بعض هذه الشرفات مجرد بروزات في الشارع من حجرات النوم العليا ويقيها حاجز « درايزين » . وكان الطراز في ليما وكشكو أن تبنى شرفات كبيرة مقفلة من الخشب المزخرف الجميل ، فستطيع النساء أن يشاهدن المسارة في الشارع إلى أسفل دون أن يرين تماما ، كما كان يستطيع

novias (\*)

rega (\*\*)



المرء ذلك من وراء حصير نوافذ البندقية وأقطار البحر المتوسط الشرقي (٥) ويمكن مشاهدة بقايا هذه الظاهرة المميزة في العمارة في يبرو إبان عهد الاستعمار في الأحياء القديمة من ليما . ومن أحسن أمثلة طرار المباني هذا دار تورى --- تاجي (٥٥) ، وهي تستخدم الآن مقرّاً لوزارة الخارجية . وقد احتفظ المعمار يون الحديثون بهذا العنصر المميز في كثير من المباني الجديد بما في ذلك قاعة المدينة (٥٥) في ميدان الأسلحة .

ومن خلف المدخل الأمامي ، ومن دون ردهة معترضة ، كان يوجد صحن الدار أو الحوش ، وهو مهم للغاية . واختلف حجم ونظام هذا الصحن باختلاف موارد ومركز صاحب الدار . فلقد كان شيئاً إسبانيا صميماً ، له أصول رومانية ؛ وجعل من الدار أو المنزل ( + ) بيتاً ( ++ ) . وعكست زينته والعناية به الذوق السلم والطباع العائلية لأجيال الزوجات والأمهات المتعاقبة . ففيه ، عندما يكون الجو جميلاً ، كانت الأسرة تقضى معظم وقتها . وجميعه ، أو بعض منه ، كان يرصف باللون الأحمر الصقول أو القيشاني المنقوش بالصور كما في الأفنية الجميلة في أشبيلية . بل قد تقام فيه نافورة إذا كان الماء متوافراً . وكانت هناك أزهار ومنبت شجيرات وطيور تغريد وبيغاء لتسلية الأطفال بسيل لا ينقطع من الزهرة وربما فأرغسال شق أو حيوان صغير أليف من البرية للتدليل . وكثيراً ما كانت هناك أشجار البرتقال أو أشجار فاكهة أخرى لتضيف إلى جمال المكان وبهيجته . وأحياناً ، إلى الخلف من المطبخ ومكان الخدم ، وربما

(\*) levant : اليفانت .

Casa Torre - Togle (\*\*)

ayuntamiento (\*\*\*)

Casa ( + )

bogar ( + + )

وجد فناء ثانٍ بمماش ومقاعد لطيفة بين ظلال الأشجار والأعشاب المزدهرة ، كما كانت الحال في دار ساو باولو في كاراكس . أما غرفات المنزل فكانت أبوابها تطل على الفناء الرئيسى ، وإذا كان هناك طابق ثانٍ فقد كان يحيط به رواق مكشوف يصعد إليه بسلم .

وعاش كثير من هذه المساكن الجميلة في الأرجاء القديمة من المدن التى كانت مراكز الأرسقراطية الاستعمارية كما فى بوتافوجو ولارانجيراس فى ريو ، وفى بوجوتا وبلاد هادنة قديمة مثل كيتو ، وتروخيو ، واريكيبا ولكن المعماريين توقفوا عن إقامتها الآن ، لأن الإنشاءات السكنية انتابها ما انتاب الأبنية الأخرى . وعلى كل حال فقد كانت « البيوت الكبيرة » تبني لعصر كان فيه وقت كاف لفنون المعيشة الأولية . وكانت تصمم لتكون مقرا لطريقة أبوية من الحياة التى أضفت قيمة كبيرة على الفسحة والراحة ووقت الفراغ . ولذلك فقد اختفى الفناء من رسوم المعماريين الحديثين ، لأن يشغل مساحة من الأرض أكثر من اللازم . وهناك عوامل أخرى ساعدت على التحول هى : ضغط ارتفاع قيمة أراضى البناء ، وتكاليف المبنى المتزايدة ، وظهور طبقات جديدة حصلت على الأموال لم يعرفوا أبدا شيئا عن سحر منازل « السادة » القديمة ، وظهور « مشكلة الخدم » فى أمريكا اللاتينية ، الرغبة الجارحة فى الحصول على الأدوات الكهربائية التى لم تكن لتلائم بسهولة المساكن الفسيحة التى أقيمت لتلائم عصرًا غير آلى ، ومنافسة السيارة والنشاطات الخارجية التى قللت من أهمية المنازل بالنسبة إلى ما كانت عليه فيما مضى ، والرغبة فى تقليد أساليب المعيشة عند الأجانب .

وتتجه العمارة السكنية الآن نحو « الفيلا » و « الشاليه » ونحو منازل الشقق التى تشبه منازل بمباى أو القاهرة أو استكهولم أو بزوكن . وهناك ضواح جديدة و « تقسيمات » و « تطورات » إسكانية كما فى لوماس دى شابولتيك والبدرىمال فى المكسيك ، وسان ايسيدرو ولويس انجليس فى ليا ،

وجارديم أمريكا في ساو باولو فهي تشتمل على منازل بفضاء حولها لا يجلس فيه أحد كما يبدو، بدلا من الأفنية الداخلية التي كان الناس فيه يجلسون ويسترخون طول الوقت . وعلى الرغم من الثورة التي طرأت على فنون المعيشة فإن سكان أمريكا اللاتينية لا يستطيعون أن يعودوا أنفسهم أن يفعلوا ما يروق لهم على مرأى من الجمهور . ولذلك فقد يقيمون جدراناً عالية حول فضاء منازلهم لكي يحصّلوا على الخلوة التي كان يقدمها لهم الفضاء الداخلي فيما مضى . والمنازل ملكى بالميسرات الحديثة ، فهناك وفرة من الأجهزة الأوروبية الكهربائية ، والسبائك آخر ما وصل إليه التقدم حتى شملت ظاهرة البيدي ، الأوروبية . غير أن مسيل الماء قد ينقطع في الساعة السادسة بعد الظهر ، وإلا فقد لا توجد قطرة ماء بعد حلول الظلام أو في أيام الخميس . وكثير من هذه المنازل تتصف بقرط الأناقة والمخامة ، ورسمها وتخطيطها يقدمان دائماً يوم دراسة ميدانية للمعماريين ، ويعد هؤلاء هم الفنانين المتفوقين في بعض الأماكن ، مثل ليبيا . فهم ينغمسون في إجراء تجارب لاحد لها بالمواد والعناصر الزخرفية ، وأحياناً يصلون إلى نتائج باهرة ، ودائماً إلى مجموعة مختلفة من الآثار .

### الشوارع والميادين

احتاجت المدن الاستعمارية إلى طريق رئيسي واسع أكثر من اللارم حيث كان في مقدور أفراد الطبقة الأرستقراطية المحليين أن يعرضوا أنفسهم وزيتهم وبطاتهم في أحسن ما يروق لهم . ولم تصبح الطرق الفسيحة ولا التي تصطف على جوانبها الأشجار حاجة ماسة حتى جاءت السيارة ووضعت قوة حصان مضاعفة في أيدي سكان أمريكا اللاتينية المتحمسين ، نخلقوا بذلك مشكلة مرور كبرى . وتعددت المشكلة بعد ذلك ببقاء شبكة من الشوارع الضيقة والأزقة التي سدت مطالب العربات التي تجرها الثيران والتي تجرها الخيول وأرتال البغال . وتفاقت بمقاومة شعب يتصف بالفردية

لأية قبود على حقوقه أن تضيق أو يضيغها أحد . وعلى كل حال ، فلنكن  
تكون هناك مدينة ، لا قرية نمت منذ عهد الاستعمار نموا زائدا ، كان  
يلزم أن توجد نسخة من الطريق الخامس (٥) أو الشانز اليزيه ، أو هما معا  
على وجه التفضيل .

لذلك شرعت المدن في تجديد شوارعها الواسعة القديمة أو شق طرق  
واسعة جديدة ومتفخرة أعطيت أسماء خرسstof كولمبس ، وسيمون  
بوليفر ، ووودرو ولسن ، و . ف . د . روزفلت ، و فرق البحرية  
الأمريكية ، وعدد غفير من المشاهير المحليين ، أمثال برناردو ، أو هيجنز ،  
وخوسيه ارتيجاس . وقد اجنثت الأشجار من طريق ريو برانكو المتسع  
في حي الأعمال في ريو دي جانيرو ، لا لتسهيل سيل الحركة فقط ، ولكن  
كذلك ليسمح بدورة الهواء من وراء الخليج إلى المدينة الحارة . أما طريق  
بيرا مار بحدائقه ، وهو أنخم طريق شاطئ (٥٥) ، فيتبع ثنيات شاطئ  
الخليج الطويلة لأمال كثيرة إلى ما دور التلال الحجرية الواطئة التي تحجب  
معظم مدينة ريو المنبسطة عن البحر ، ثم يظهر ثانية باسم طريق اتلانتيكا  
وامتداداته . وفي بوينس آيريس يتبع طريق مايو كثيراً من النمط الباريسي  
نفسه كطريق ريو برانكو . وشقت الحكومة في وقت لاحق طريقين  
فسيحين - خوليو روكا وسايث يينيا - ويتجهان نحو قلب المدينة في  
ميدان مايو . ويعترض طريق مايو في اتجاه من الشرق إلى الغرب ساحة  
فسيحة مكشوفة هي طريق ٩ يوليو ، ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق  
أوسع شارع في العالم ، وعبوره اختبار لتوقيت المترجل واستخدام قدميه .  
ومن أجل الشوارع طريق الإصلاح (\*\*) الذي تصطف فيه الأشجار ،

---

Fifth Avenue (\*)

(\*\*) كورنيش

Avenida de la Reforma (\*\*\*)

وهو يصل بين حى الأعمال فى مدينة المكسيك ومنتزه شاولتيك .  
أما الأمر الأكبر الذى تركه دافع جوادا لاخارا للتجديد فهو طريق خواريث  
البهى الذى أزال كثيراً من معالم المدينة القديمة .

وليس هناك دور من أدوار التغيير الذى طرأ على جوادا لاخارا عولج  
بذوق سليم أكثر من المعالجة الحاذقة للميدان المرصوف امام الكاتيدرائية ،  
والتي جعلتها واحدة من أعظم البقاع انطباعاً فى أية مدينة فى نصف الكرة  
الغربى . وأشهر متنزهات وميادين مدينة المكسيك هى جميعاً جزء لا يتجزأ  
من تاريخ المسكن القديم . وحتى الأشجار فى شاولتيك قديمة جداً ،  
وكانت الألبدا متنزهها محبوباً فى عهد الاستعمار . وكان الثوكالو هو المقر  
الأصلى للمعبد الهرمى (٥) لدى الأزاتقة ، أو معبد القرايين . ومن الميدان  
الكبير حكم نواب الملك إسبانيا الجديدة فترة طويلة . وكثير من ألوف  
المتنزهات والميادين الأخرى فى أمريكا اللاتينية تعد أما كن بدعة وبهيجة  
مثل جارديم دالوز الصغير فى ساوباولو . وبعضها كبير ومتنوع من حيث  
جاذبيته مثل بالرمو والحديقة الوسطى فى بوينس أيريس ، ويلتأب المرء  
نحوها شعور بسر بدائى مثل لوس كابوس ، وهو غيضة كاركس العثماء  
من أشجار الموجنى العملاقة . وبعضها لا يزيد على أركان هادئة صغيرة فى مدينة  
كبيرة حيث يتوقف الناس للاستراحة على المقاعد . وبعضها مراکز تنص  
بالحركة تنفرع منها خطوط المواصلات إلى أطراف المدينة كما هى الحال  
فى ميدان سان مارتن فى ليما . وبعضها أما كن من الجمال النادر ، مليئة  
بالذكريات القديمة مثل الكروبول (\*\*) سانتا لوسيا المشجرى سانتياجو .  
وأحياناً نجد لها محاطة بمواقف ودهاكشاك ، تجار المدينة الصغار وبائعى

(\*) Teocalli [ Teoth = God — Calli = dwelling ] : مسكن الرب .

(\*\*) نسبة إلى قلعة أثينا القديمة .

الطعام للفقراء كما في القرى المكسيكية . وكثير منها عبارة عن أما كن مكشونة متواضعة تتخلل الشوارع والمساكن المزدحمة حيث يصطلي الناس في الشمس في الأيام الباردة ، أو يجلسون في الظل في الأيام القانظة ، وحيث تصطف الأسر حول المساكن في المساء . وفي هذه الأثناء ربما تعرف فرقة موسيقية أنغام الفالس أو ألحان السير العسكرية تعلو على حديث الناس الهادىء حتى يأووا إلى المنازل ليناموا ، وهى مصدر مستمر للبهاج البسيطة التى ترضى حاجة ماسة في حياة السكان ، شأن للعناء الذى أخذ يندثر في البيوت القديمة .

وعادة ما تتخلل الآثار الحدائق والميادين، والمتنزهات (\*) والبرارى (\*\*) إحياء لذكرى شىء ما أو شخص ما . لأن سكان أمريكا اللاتينية يفضلون التماثيل المتطية لإقامتها في الخلاء ، ولو أب الشخص منهم لم يكن في حياته شغوفاً بالتحيل أو كان يتجنبها كالوباء . فربما كان حصاناً أهده حكومة أجنبية وأضيف إلى مجموعة التحف الأثرية الثمينة الكبيرة الحجم . وأشهر تمثال في أمريكا اللاتينية التمثال المسمى « الحصان الصغير » ، (\*\*) للمقام عند التقاء طريق خواريث والإصلاح في مدينة المكسيك . وبحمل الحصان فوق ظهره العريض التمثال اللابطولى لشارل الرابع الملك قبل الأخير من ملوك إسبانيا في النظام الاستعماري . وعلى الرغم من أن المكسيكيين قد انتزعوا كل آثار الملكية من النظام الجمهورى فمن سخریات القدر أنهم احتفظوا بر من الملكية المضحك هذا بين ظهرانيهم . وهناك كثير من تماثيل الفرسان المتبخرين أو المتهمجين ، بما فيهم بشارو برباشه الذى ظل مقاما فترة طويلة أمام الكاندرامية في ليما ، وغاريبالدى المتدفع ، وأوهجنز الحرون

---

Paseos (\*)

Prdos (\*\*)

Cadatito (\*\*\*)

في بوينس ايريس . وأحياناً نجد أن هناك تحفظاً ووقاراً كبيرين في فكرة هذه التماثيل كما في سان مارتن الذي يعتريه التعب في ليما ، وهو تمثال من أحسن الآثار التي نحتت لحررى أمريكا الجنوبية العظمين . وقليل من المجهوعات المنحوتة ذات صفة أو ميزة خاصة . ومن بين هذه : التمثال الإسباني ، والذي فيه شيء من الزهو ، في شارع ألفيار في بوينس ايريس . ومن بين مختلف الآثار الأخرى التي تميل إلى الضخامة الموريلوس ، وهو التمثال الحديث في جزيرة خانتشو في بحيرة باتشكوارو المكسيكية ، والمسيح المنفرد فوق كوركوفادو في ريو ، ومنسارة كولمبس الكبيرة في سانتو دومينجو ، وقد أقامها القائد العام تروخيو ، وتمثال السرير العملاق المقام لذكرى الثورة المكسيكية ، و « المسلة » في بوينس ايريس . وربما كانت أعجب مجموعة مخملطة من التماثيل في مكان واحد على وجه الأرض هي في مدافن بوينس ايريس المسماة لاريكوليتا (٥) . فهناك مقابر أكثر عظماء أرجنتيننا . وبالإضافة إلى مر في غابة شابولتيك يمشى فيه الطلبة بعد العصر توجد نافورة صغيرة تستهوى النفوس تكسوها القراميد المزدانة بالصور وعلى جوانبها نضد للكتب أقيمت لإحياء ذكرى ميجيل دي سرفانتيس مؤلف دون كيخوت ، - وهو شيء لا ينسى في نمطه الخاص ، كما لا ينسى الحصان الصغير ، سواء بسواء .

وكما هو الشأن في جميع الأماكن التي يصر الناس فيها أن يعيشوا في حشد ، هناك أحياء وبيئة في مدن أمريكا اللاتينية . فمثلاً إلى الخلف من واجهات المكسيك ، وبعيداً عن طرق السياح الموجودة في العاصمة هناك حظائر بشرية - طبقات وصفوف لا نوافذ لها وتشبه الصوامع ، تطل على منور عميق وضيق . وفوق سحر ريو قامت الأكواخ السكنية (٥٥)

(\*) الذكرى

Favellas (\*\*\*)

متشبثة بالتلال الجرانيتية الجرداء فوق أرض المدينة لا تصل إليها أنابيب المياه ولا المجارى . ويقاوم سكانها جميع الجهود التى تبذلها السلطات البلدية لنوطينهم فى جهات أخرى ، وهم فى فقرهم يؤلفون أغانى مرحة للكاريوكا لينغوها فى أوقات الأعياد ، كما كان يفعل رعاى باريس فى العصور الوسطى الذين صورهم فيلون (\*) فى شعره . وفى ليما ينشر الضالون من الناس الذين يتكدسون فى التراب والقذارة فى سان كوسميه عدوى جرائمهم وأمراضهم فى المدينة . وعلى الرغم من أن مشروعات إسكان ضخمة قد أنجزتها الحكومات وهى على علم بهذه الأحوال وقلقة على تحسينها ، فإن المشكلة تبدو أحيانا على درجة كبيرة من الضخامة لكنى تحل بأية طريقة سريعة ، أو حتى لتخفيف وطأتها بجهودات إنسانية من جانب الأفراد أو المنظمات .

ويذمنا تختلف المدن فى أمريكا اللاتينية الآن كثيراً فى لقاة هوائها فإن الوباء والبلاء فى صورة أمراض الكوليرا والجدرى والحمى الصفراء كانت تصيب الكثيرين فى الماضى . وفى البلاد الهندية ، حيث كانت التربة والمياه السطحية عرضة للتلوث دون انقطاع ، ومواد الطعام معرضة للفساد كانت أمراض الزحار (\*\*) متوطنة ، كما كانت الأمراض المعوية كالتييفود . وعلى الرغم من أن مرض الملاريا قل كثيراً فى المدن حيث أمكن صرف المياه عمليا ، وفى أماكن أخرى مثل ماناجوا ومناوس وجوايا كيل لم تجد أية وسائل للسيطرة عليها . ونظراً إلى ارتباط الظروف المناخية والمعيشية التى تساعد على العدوى فإن معدل الإصابة بالسل فى مدينة عادية فى أمريكا اللاتينية مرتفع إلى درجة غير عادية . أما المدن الإدارية التى كانت مكامن للوباء مثل ريو وسانتوس وهافان وبما وجوايا كيل فقد طهرت أحيانا بواسطة أخصائيين فى الصحة العامة من المواطنين مثل الدكتور أوسالدو

(\*) Villon ( فراسوا ) — القرن الخامس عشر .

(\*\*) الدوسنتاريا .



كروز في البرازيل ، ومن بعض النواحي تعد نماذج من المدن الصحية . واختفى البعوض فعلا ، كما في ريو ، أو يعيش لفترة محدودة . أما البرازة التي كانت في وقت ما منتشرة في كل مكان - النسر الأسود في البرازيل وصقر المكسيك - والتي كانت فيما مضى عاملا مساعدا في خدمة الصحة العامة ، بل إن القانون في فيرا كروث يحميها من تحرش الناس في الشوارع ، فتشغل الآن مركز العراف (\*) وفي ربيع القرن الأخير حدث تقدم هائل ، ولو أنه غير متساو ، بانتشار جميع وسائل الرعاية الصحية الآلية - موارد المياه ، والتفتيش على توزيع الطعام ، والمستشفيات والعيادات والمستوصفات ، والتسهيلات التي تقدمها المؤسسات للتدريب المهني ، واعتماد الأموال اللازمة من جانب الحكومة . أما كمية المياه التي تعد مدينة المكسيك ، ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين (\*\* ) ، فلا تزال مزعومة . ولو أن مؤنسا رأى اليوم بعض أسواقها العامة لاحمر وجهه خجلا .

ولا تعبر المدن عن الصفات الفريدة التي تتميز بها الأخلاق القومية فقط ، ولكن على خلاف المراكز المدنية في الأقطار ذات الصفات المعيارية المتقاربة ، نجد أن كل مدينة لها شخصيتها التي تنفرد بها ، حتى إن الأجنبي الذي لديه قوة ملاحظة يرى نفسه بخافة فيها قد لا يتعرض لأن يخطئها بمدينة أخرى . فالمقومات المتنوعة لشخصيتها قد تحتوى على وضع طبيعي غير عادي ، كما في حالة ريو دي جانيرو ، أو عزلة نسبية من المؤثرات الخارجية ، كما في بوجوتا ، أو الظروف الخاصة التي مر بها تاريخها وتطورها الاجتماعي ، كما في ليا ، أو الدمج البشري الذي انتاب تكوين سكانها ، كما في مدينة المكسيك - أو مركب بنسب مختلفة من بضعة عناصر من هذه العناصر .

(\*) أو الطبيب الساحر .

(\*\*) تقدير سنة ١٩٦٥

## مدينة المكسيك

يسمى المكسيكيون عاصمتهم مكيكو . أما لعلم الجغرافية ومصالحة البريد فهي مكسيكو د. ف. (هـ) ، وللازاتقة تينوشيتلان بمضمونها الرمزي الممثل في نسر ، وثعبان ، وصبار صبغى (\*\* ) ، وصخرة . أما لسكرتيس ورجاله فكانت باختصار كولوا . ومنذ ذلك الوقت أصبحت لبقية العالم مدينة المكسيك .

وهي الآن رابع مدينة في نصف الكرة الغربى . ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ نسمة (\*\*\*) أو حوالى عشرة أمثال عدد سكانها في أوائل هذا القرن . وفي مائة السنين الماضية تضاعف عدد سكانها بل زاد على الضعف قليلا . وكانت الزيادة غير منتظمة وغير سليمة . فقد نمت المدينة إلى ما دون حدودها الاقتصادية . ومع أن تطور مدينة المكسيك الاقتصادى كان تطوراً مشهوداً في السنوات الأخيرة ، فإن الأساس المتين السامن وراء المظاهر التى تثير الإعجاب والقبول لا يزال واهنا جداً لى يساند مثل هذه المدينة الكبيرة بالأسلوب الذى تستطيعه الأرجاء الأخرى من البلاد . ومن الأدلة على توقيت تطورها الخلط الملط وجود الحفر العميقة فى الطرق الجانبية ذات الحركة الكثيفة والهاكل الصلب للعمارات التى بدىء فى تشييدها منذ سنوات طوال ولم تكتمل أبداً بعد ، والحالة المنتشرة فى كل مكان من مظاهر عدم الإصلاح ، والتهدم فى بعض أحياء المدينة جنباً إلى جنب مع الفنادق التى تعد آخر صيحة فى التطور ، وغيرها من دلائل الثروة والترف المتفاخرة والانتصارات المعمارية الخيالية وتخطيط المناظر السطحية كالمدينة الجامعية الجديدة والنهضة السكنية فى البدرىمال .

(\*) Distrito Federal أو Federal District

(\*\*) الصبار الذى يعيش عليه حشرة اللعى . nopal cactus

(\*\*\*) تقدير سنة ١٩٦٥ .

وعلى الرغم من أن عاصمة الثورة الحديثة حديثة النعمة فإن حاسة فطرية تقدر الجمال والذوق السليم يتصف بها الشعب تستطيع أن تقيها من مظاهر الإسراف في وصمة الفجاجة .

وهي أولى مدن أمريكا اللاتينية من ناحية الأهمية المحضة ، كما أن البلاد أولى الجمهوريات أهمية . وهي ليست مدينة سهلة لكي نتفهمها أو نتراضى معها ، ولو أنها توحى في النفس الإعجاب والإحساس بالدهشة . وهي مدينة لا يمكن التمكن بما سيكون من أمزجتها ، وثورية وغير رصينة . وتحت هدوئها الظاهري وأدب سكانها فقد يصبح مزاجها غاضبا وعنيفا . ومن هذه الوجبة نجدها مكسيكية صميمة ، وليست ، بأي حال من الأحوال ، عاصمة عالمية مزيفة . فهي ذات أطراف خشنة قدت من السبع . وفي صميمها إفليمية جداً ، وتكن للأجانب بغضا شديدا ، لأن جذورها ممتدة إلى أعماق بعيدة في ماضى أنا هواك المضطرب ، ولم تقتض من الثقافات الأخرى إلا غضبا . وهناك يجرى في نسيجها الدرامي خيط دموى لذكريات كثيرة مثل الشدائد والمعارك . ونظراً إلى أنها تقع على مرآى من البراكين الهادئة ، فإن ذلك له أهمية أكبر من أن تكون عرضية . فإن الرئيس الذي يحكم البلاد من القصر القديم في الثوكالو لا يجلس في مقعد نواب الملك فقط ، بل في مقعد الأباطرة ، الأذاتقة ، ولا تزال النغمات الهائفة الحزينة هندية ، ولو أنها الآن تخص المولدين ، وقد يستمر ذلك إلى الأبد كما خصت الإسبانيين لقرون من قبل .

### بوينس آيريس

بوينس آيريس هي وحدها المدينة العالمية الحقيقية في أمريكا اللاتينية . وليست المسألة مسألة حجم نسبي ، لأن شيكاغو و برلين أكبر ، ولكنها مسألة جو أو نزوع لا يمكن تعريفه نحو العالمية ، تختص به العواصم الكبرى

على سطح هذا السكوكب . فهمى فى الواقع مدينة عظيمة وبديعة كما قد كان يسميها ملك إسبانيا لو أنها بقيت ملكا له يشرفها ويصدر أوامره منها . كما أنها ليست مدينة أرجنتينية بالمعنى الذى فيه كوردوبا وتوكومان . ولا هى مدينة تنتهى إلى أمريكا الإسبانية ، ولكنها مدينة أوروبية . فوجه الناس ولغاتهم آتية من أماكن كثيرة — أقطار البحر المتوسط ، أقطار شمال أوروبا المسماة بالآرية ، العالم السلافي ، أقطار الليفانت . ومن شتى الأشياء التى يشترك سكانها فيها إيمانهم العميق المتعصب فى مستقبلها . والناس أنفسهم « أجانب » ونظراً لذلك لا يسيئون الظن بالاجنبي كما يفعل المكسيكيون .

وعلى عكس ريو ومدينة المكسيك لاتدين بشيء من ثخامتها أو تطورها المتوقع إلى موقعها الذى لا ميزة له ، كما هو الشأن فى موقع كلكتا أو هوستن . ولسكانها تدين بكثير من أهميتها إلى مركزها كمر — ومنتفع كبير — لثروات البجيا التى تستمد منها مكوسا ضخمة للخدمات التى تؤديها كوسيط . فهى مدينة للثراء العظيم ويعيش أهلها عيشة رغدة وينغمسون بحرية فى حدود ما يسمح به القانون فى جميع ميسرات الحياة المتقدمة . وهى مركز كبير للنشر ، وتتوافر فيها كل زخارف الثقافة المقتناة ، ويمكن الخدمات الأصلية التى تؤديها إلى ذخيرة الإنسانية الفكرية والفنية قليلة . « فرجال الميناء » (\*) زهرة يملؤهم الزهو والغطرسة ، ويقدمون على المشروعات العظيمة ، وذوو دهاء ، ويدركون فى غلواء إمكانيات بلادهم الكامنة . وهم ليسوا جنسا ، إذ ليس هناك جنس أرجنتيني ، كما يوجد جنس برازيلي أو جنس تشيلي . ولقد كان هناك جنس أرجنتيني قبل أن يفرق تدفق المهاجرين الأوروبيين السلالة الأصلية ويخفف من دمها وحضارتها . وهناك جنس فى دور

التكوين ، واسكن على الرغم من الدعاية الرسمية لإدماج السكان في قومية أرجنتينينة (\*) فإن العناصر التي تدخل في تكوينها لا تزال بعيدة عن إدماجها في نمط جنسى معلوم ومع أن اهالى الجمهورية الأرجنتينينة شعب ممتاز من وجهات كثيرة فإنهم ينزعون إلى أن يصبحوا ضحية لا حول لها لمكاييد السياسيين المتآمرين ، إذ ليس لديهم تقليد مشترك أو روح قومية يتجمعون حولها . وكثير من تؤكد شخصيتهم ومن « شعورهم بالأهمية » ، وكثيراً ما يكون هذا أمراً شافئاً على الأجانب الذين يميلون للخير ، هو بدون شك تغذية لا شعورية لاضطراب معلوم في التفكير والحاجة إلى الثقة بالنفس .

وليست بوينس أيريس مدينة مرحة ولا خفيفة الروح كما قد تشتهر بذلك شهرة عالمية أحياناً . وهى « باريس أمريكا الجنوبية » من الناحية المعمارية ليس إلا . وهى تميل إلى أن تأخذ مآهجها جدياً وبمهاة ، وبدون الخلاه واللقائية اللتين تمارس بهما ريو وترتكب زلاتها وكثير من مواطنيها أولاد بلد شداد . يقضون الليالى في بيوتهم وهمهم ما يحصلون عليه من يسر والسياسة .

### ساو باولو

ساو باولو فريدة ومنقطعة النظير من بين المدن الكبرى في أمريكا اللاتينية فى مدينة إقليمية مستنفرة لا طابع لها . أما المدن الأخرى ، فهما يكن لطابعها من خصائص مميزة ، فهى جميعاً ذات علام تشير إلى نفس الأرومة الإسبانية . وهى واثقة بنفسها ، وإيجابية ومتفاخرة وقوية العزيمة وتنبه بأنها سوف تنفوق على بوينس أيريس في بضع سنين . وهى تشبه شاول ملك طرطوس (\*\*) ، وقد سميت من أجله ، فى أنها مدينة تفكر بالمنطق أكثر مما تفكر بالعاطفة ، ولا يمكن « تقويمها تقويماء سلباً إلا بلغة الإحصاءات فأهلها رجال أعمال وغير عاطفيين إلا فيما يمس مصالحهم . وهم لا يزلون إلى انفعالات وشطط المدن المراهقة ، بل ينزعون إلى أن يروا

Argentinidad (\*)

(\*\*) أول ملك لليهود

في السكرايوكا في ريو أناسا طائشين انغمسوا في إغراء نور القمر وأما كن إرضاء الجسد وفي الواقع أن ساوباولو تحقر من شأن اخوانها المدن الرائدة في جميع أرجاء البرازيل، وتنفرج أسارير رجال الأعمال الأمريكيين الذين يزورون البلاد تقديرا وتفاهما عند ما يراقبون الناس وهم يندفعون رائحين جاثمين وراء الكروزييرو والسكوتو (\*) وهم يحدون قلة الثروة والكلام الدخيل الذي لا جدوى منه، فرجة مخففة لبروتوكول الأعمال الشرقي الطابع المنتشر في جهات أخرى .

وترجع ديناميكية ساوباولو إلى أقدم عهودها . فقد أسست منذ أربعمائة سنة على وجه التحديد كمركز تبشير يسوعى للقديس بولير ايتينيجا . وبينما كان القساوسة يتجولون في أرض فسيحة ونائية بحثا عن نفوس التوبى كي يهدوها سواء السبيل ، كان العلماء يوز من البرتغاليين والمولدون الذين أقاموا حولهم فوق الهضبة أكثر مخاطرة وإقداما في اصطياذ نفوس الهنود وبيعهم رقيقا . وكما فعل المستكشفون البرتغاليون ، توغلوا في شجاعة في القيا في الواقعة إلى الغرب فيما وراء نهر بارانا واندفعوا إلى الشمال الغربي فوق خط تقسيم المياه المنخفض إلى حوض نهر ماديرا ، بل أبعد من ذلك إلى فراخ البرازيل الشاسع ، فقد كانوا رجال حدود حقيقيين كالرواد الأوائل الذين ارتادوا إقليم الغرب عبر جبال اليجاني . ولم يقنع أهالي ساوباولو أبدا بأن يقعدوا بلدا بما جنوه ، ولكنهم تحركوا دون انقطاع ليحصلوا على المزيد . ولم يكن تهرتهم أو نشاطهم راجعا إلى وجود أى عنصر أجنبي في السكان - ألماني أو إيطالي - ولو أن الأجانب كانوا يتحمسون لو أنهم دخلوا في جو السكان الذي يهلون منه على أشياء . فلقد عرفوا

(\*) عملة برتغالية و برازيلية : السكوتو ١٠٠ كروزيرو إسكودو .

المسكان عندما كان لا يزيد على قرية في بلاد هندية ، وكان الأجانب الوحيدون من البرتغاليين .

وظلت مدة طويلة مجرد بلدة مستعمرة ولو أنه كان يرجى من مواردها السكّانة أكثر مما كان يرجى من غيرها . ثم جاء القرن الأخير وأصبحت مركز البن في العالم ، وبدأت تنمو بقوة مع الولاية التي تقع خلفها ووصلت صعودا إلى ميناس ، وغربا إلى ماتوجروسو ، وجنوبا إلى بارانا لتضيف إلى نشاطها الاقتصادي . وبنيت مصادفة وبدون خطة واعية حول تلاها المتدحرجة الواطئة وأخاديد العميقة . وجاءت الأعمال الاقتصادية الكبيرة لتستقر في شوارع المثلث ، المشهور ، في حين انتشرت العمليات إلى الجهات الصناعية الغاصة في المدينة الضخمة وهي لاتدعى تفوقا ثقافيا ، وقد استاء من أن يلصق بها تهمة الغباء (٥) من جانب الاثنيين العصريين الذين يسكنون جهات يهتم الناس فيها بقراءة الكتب مثل بوجوتا فلديها أشياء كثيرة بدرجة زائدة على الحد لتسكون «مدينة مباهج» (٥٥) أو مركزا للمغريات التي تقدم للسياح . فهي بالنسبة للأجانب الذين يبحثون عن المتعة مكان كثيب حقا .

### ريو

إذا توخينا أغراض الشهرة الرسمية نجد أن ريو دي جانيرو هي «المدينة العجيبة» (٥٥) . ولقد أخطأ استاسيو دى سا الذي أقلع بسفينته بين فتوات مدخلها العملاقة في صبيحة مديدة ليوم من أيام شهر يناير فحسب خليج جوانابارا مصبا مستطيلا لنهر ، وأطلق عليه نهر يناير

(\*) Boetianism : نسبة إلى بيثونيا في اليونان اشتهر أهلها بالغباء والبلادة .

(\*\*) ville de plaisir

(\*\*\*) Cidade Marvilhosa

( ريو دى جانيرو ) . فهو ليس نهراً ، ولكنه تعريجة ساحلية مقفلة في ساحل تحف به الجبال مثل أكابولكو ولم يكن هناك شيء حول خضرتها الدائمة يوحى بمنتصف الشتاء في نصف الكرة الشمالى . فهم مرفأ الكرة الأرضية الذى لا يقارن ، ولكن يجب أن تكون ميناء الفردوس . وإن جمالها للطبعى الفائق فوق كل مغالاة ، وأية دعاية عنها هى دون الحقيقة ، وهناك قصيد كثير يوحى به موقعها لدرجة أنه لا يخدم غرضاً شريفاً فقد يصلح لأن يكون مقرراً لسلالة من المثاليين ، ولكن روعته تجعل منهم أقزاماً . إذ يجب أن تكون عاصمة المباهج العالمية ، ولا وظيفة أخرى لها سوى توزيع المباهج على الجنس البشرى .

إنها سيبارس (\*) نصف الكرة الجنوبي ، وابنة عم كورنث والإسكندرية الطلمية - مدينة تعبد الآلة ، ومكان للاستجمام والهوى ، ميولها دائماً نحو الحفلات والرعونة . ويجب أن يحال عملها إلى إدارة ساو باولو القديرة وأن تنقل حكومة البرازيل الفيدرالية من جوها الأوركيدي إلى بقعة تبعث على التأمل والتفكير (٥٥) وعلى الرغم من تمثال المسيح الذى يبعث فى النفس الشجن . والذى يطل على المدينة ، وجميع أولئك الذين باسم القديس بطرس وجون كالفن ومارتن لوثر يدرسون إنجيله لشعبه ، فإن هناك فتورا في مسائل العقيدة المقدسة لدى الكاريوكا ، ولا يستطيع المرء أن يتصور إحراق الضالين في أرجاء مدينتهم بسهولة كما لو حدث في المدن الإسبانية . فهم واثقون في فراة أنفسهم ، والراحة يحون بهيج الامتثال إلى الرب الأبوى والعفار كما صورهم العهد الجديد . ومهما يكن الأمر ، فقد يكون الرب واحداً منهم ، لأنهم يقولون إن « الله برازيلي » ، ويدللون على ذلك بأن يداً إلهية هى وحدها التى تقيمهم من عواقب ما يرتكبونه من أخطاء وحقاقت .

(\*) Sybaris مدينة اغريقية في جنوب إيطاليا كان أهلها يشبون عيشة ترف .

(\*\*) نقلت العاصمة الفيدرالية إلى برازيليا في الداخل كما ذكر آنفاً .



وربو أكبر مدينة واقعة في النطاق الواسع من الأرض بين مدارى السرطان والجدي . وهناك حوالى مليونين من السكان يوكا يتشبثون بجوانب التلال الصخرية والحافة الجبلية الضيقة الى تحف بالخليج والبحر ، أو يتكدسون على المسطحات التى تمتد الى الخارج نحو الشمال الغربى على طول السكك الحديدية حتى مستنقع البشادا . وقد حاول الناس أن يستغلوا الجمال المنتشر حولهم إلى أقصى حد ، ولكن أعمالهم ، على أحسن تقدير ، تعد بمجهودا ضئيلا . فربما كان التحدى كبيرا لا يستطيعه أى شعب . وعلى الرغم من أنه قد يتفق أن يأتى رئيس للمدينة فيندفع بالإنجازات المبتغاة من عظمتها الطبيعية ، فإن الهمم الصناعى يبدو أحيانا كالحا ورثا . وأحيانا تساء إدارة الشؤون العملية في هذه المدينة الفاتنة فتحتد أمرجة سكانها العاطفيين . وتتوقف السكة الحديدية الوسطى بين آوة وأخرى فتترك المدينة منعزلة عن مصادر طعامها الفضة الطازج من خلفيتها المرتفعة . وليس هناك ماء كاف فوق التلال المحيطة بها لإنشاء محطات لتوليد الكهرباء . ويفيض ماء الجارى من شقق المنازل المكتظة والفنادق فى كوبا كابانا نحو الشاطئ المزدحم ، إذ ليس هناك مكان آخر ينصرف إليه ، وعلى كل حال فإن من يعيشون فى ركن من أرجاء جنات عدن لا ينبغي أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذه الأمور الدنيوية .

## الفصل التاسع

(١) « في أمريكا أيضا نجد أن المدينة في كل الأرجاء هي التي تميز توسع اسبانيا ٠٠٠ فالمدن هي أعظم ممثل حقيقي ، والاسباني الصميم ، من بين جميع النظم الكبيرة • والمدينة بميدانها وكنيستها وقصر بلديتها هي المركز العصبى للمجتمع • فهي الرمز الجسم للسيطرة الاسبانية في أمريكا • وثبوتها دليل على قوتها وحيويتها » •

Richard F. Pattee, «Essai sur l'Evolution Historique de l'Amerique Espagnole» (Port-au-Prince, 1944), P. 17.

وقال مانويل جالفيث ، كاتب القصص الأرجنتيني ، ان الثقافات قد تعرف بالمدن التي تخلقها • فقد كتب يقول : « المدينة هي التعبير المادي لمكونات الشعب وثقافته الاجتماعية والشخصية » • وقد أطلق على ثقافة بلاده هو « مادية كريهة » • ووردت هذه العبارة في

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 150.

(٢) قال توماس جيدج انه في سنة ١٦٢٥ ، أى بعد حوالى قرن من تأسيسها الاول بلغ عدد سكانها حوالى ٣٠٠٠ • وكتب يقول : « ان عدم توافر الوسائل الصحية في المدينة هو سبب ندرة السكان » • وفي ذلك الوقت كان يوجد في المدينة بضعة تجار تتراوح رءوس الاموال التي يمتلكونها بين ٢٠٠.٠٠٠ - ٤٠٠.٠٠٠ دوكات •

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York 1929), P. 35.

(٣) من المدن الأخرى التي انتقلت من مواقعها الأصلية بنما وجواتيمالا وهافانا وليون في نيكاراغوا •

(٤) « اننا لا نجد هذا مذكورا في وثيقة التأسيس ، لأنه لم يستمر أياما كثيرة • • • وبمجرد أن أعلن عن تأسيس المدينة عين مهظفو البلدية وأقيمت المشنقة والحنالك • وعندما فرغ من هذا الأمر صمم الحاكم ( الساجرو ) على أن يستشير ضباطه وأناسا آخرين فيما يجب عمله بعد ذلك » •

Pedro de Cieza de León, «The War of Las Salinas», P. 106

(٥) عن مدن المايا أنظر

Sylvanus G. Morley, «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), passim.

(٦) عن أسواق عاصمة الأزاتقة المواسعة أنظر

Cortés, «Letters», I, 257-58.

وأيضا

Bernal Diaz del Castillo, «True History», pp. 175-77.

الخاص بحى الفنانين والذهب - وصائغى الفضة فى أثقاببيتالكو  
محدثائق قصر مونتسوما والأسواق العامة • كتب برنال ديثا يقول :  
لقد دهشنا عند رؤية جموع الناس والانتظام الذى كان سائدا ،  
وكذلك مقادير التجارة الضخمة ••• وكان لكل صنف مكانه الخاص  
وتميزه علامة • وكانت السلع تشمل الذهب والفضة والمجوهرات  
والرياش والعبي والشوكولاته والجلود المدبوغة وغير المدبوغة  
والأحذية المكشوفة ( الصنادل ) وسلعا أخرى مصنوعة من جذور  
والألياف « النيكين » وأعدادا كثيرة من العبيد ذكرانا واناثا بعضهم  
كانوا مطوقين فى أعناقهم ومربوطين فى أعمدة طويلة • ومونت سوق  
اللحم بالدجاج والحيوانات والكلاب • وكانت هناك أيضا تباع  
الخضراوات والفواكه والأطعمة المهيأة والملح والخبز والشهد والبطائر  
الحلوة • وخصصت أماكن أخرى فى الميدان لبيع الأتية الفخارية وأثاث  
المنازل المصنوع من الخشب ••• وأخشاب القواء والورق والقصبات  
الحلوة مملوءة بالطباق المختلط بصمغ العنبر والبلطات النحاسية  
وأدوات الشغل والأتية الخشبية كثيرة الزركشة • وكان هناك ثنسات  
من النساء يبعن الأسماك •

(٧) « كانت الممالك الجديدة فى الواقع تطعيمات أجرتها اسبانيا و  
جذع الشجرة الهندية • فقد كانت مدينة المكسيك وليما وكارتاخينا  
والمدن الأخرى فى شمال القارة مدنا اسبانية بجو من العالم الجديد  
مرجعه الى الروح المحلية التى تميز الأقطار المختلفة ، وكذلك الى طباع  
الشعوب التى تطورت هذه المدن بين ظهرانيهم • ولربما كانت مدينة

الهند الغربية التي تمثل هذا التطور خير تمثيل هي كثكرو العجيبة ،  
أو بابلون الانكا ، التي بنى الاسبانويون فوق جدرانها العملاقة سلامانكا  
ذات صفات قشتالية محضة »

Salvador de Madariaga, «Cuadro Historico de las Indias»  
(Buenos Aires, 1945), P. 47.

(٨)

«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Lands  
of the Incas» (New York, 1877), P. 25.

كتب جيمس برايس الذي كان في ليما في أوائل هذا القرن يقول : « تحتفظ  
مدينة الملوك بتلك البهجة الخفيفة الروح وموهبة المتعة الاجتماعية  
اللتين اشتهرت بهما في الأزمنة الماضية . فلم تطغ على روح السرور  
حتى الخطوب السياسية ولا الثورات التي فاق عددها عدد الهزات  
الأرضية » .

(٩) الاحصاءات المذكورة مأخوذة من

Juan Bromley José Barbagelata, «Evolucion Urbana de la  
Ciudad de Lima» (Lima, 1945).

ويورد هذا الكتاب أيضا مجموعة من الخرائط توضح اتساع رقعة  
المدينة من أيام الاستعمار الأولى حتى الوقت الحاضر .

(١٠) قدر هنبولدت عدد سكان مدينة المكسيك في سنة ١٨٠٣ ب  
١٣٧٠٠٠ شخص اعتماده على استنتاجاته الزيادة المحتملة في عدد  
السكان منذ أن حدده احصاء نائب الملك ريفاجيجيدو في سنة ١٧٩٠ ب  
١١٢٩٢٦ . وقد صنف المجموع الكلي كالآتي :

أوربيين بيض ٢٠٠٠٠ ، أوربيين مولودين في أمريكا ٦٥٠٠٠ ،  
هنود ٣٣٠٠٠ ، مولودين من بيض وهنود ٢٦٥٠٠ ، مولودين من  
بيض وزنوج ١٠٠٠٠

«Essays Politico» op. cit., II, 219.

وقال الأب فائكيث دي اسينوسا الذي كان في مدينة المكسيك في سنة  
١٦١٢ انه يسكن المدينة والضواحي القريبة أكثر من ١٥٠٠٠ اسباني  
٨٠٠٠٠ هندي ، ٥٠٠٠٠ زنجي ومولد

Compendium and Description of the West Indies» (tr.  
from the Spanish, Washington D.C., 1942), P. 156.

وطبقا لرواية ثاديوس هينكي الذي كان في شمال أرجنتين في أواخر القرن الثامن عشر بلغ عدد السكان في أربع مدن في تلك المساحة كالاتي :

الديانة	المجموع	إسبانيون	بيض وهنود (مستيسو)	هنود	زواج	مولدون من بيض وزنوج (مولاتو)
كاخا ماركا	٢٠,٣٩٠	٥,٩٠٠	٤,٩٠٠	٦١٠	٨٣٤	٨,١٤٦
خوخوى	١٩,٢٦٦	٩٢٣	٢,٥٠٠	١٣,٥٧٠	٥٠٥	٧٨٦
سولبا	٢٢,٣٨٩	٥,٣٨٦	٤,٤٣٦	٧,٦٢٠	٢,٦٤٠	٢,٢١٠
تو كومان	٢٢,٨٠٩	٥,٨٠٠	٧,٢٠١	٦,٥٠٨	٦٠٠	٢٧٠

(١١) « كان يسر ملوك اسبانيا أن يمنحوا هذه الأسرة القصاب المشرف والمزايا عنوانا على صفاتها العظيمة ، كما رغبت أسر بارزة في المدينة للتزاوج منها » .  
Jorge Juan and Antonio de Ulloa, op. cit., II, 53.

(١٢) عن المولدين من بيض وهنود ( مستيسو ) في أمريكا اللاتينية  
انظر  
Jahn Gillin, «Mestizo America», in Ralph Linton, ed.,  
«Most of the World: The Peoples of Africa, Latin America  
and the East Today» (New York, 1949).

(١٣) من بين بضع الطبقات التي صدرت من هذا المؤلف ربما كان أحسنها الأجزاء الستة الموضحة بالصور والتي نشرت في اسبانيا في سنة ١٩٣٠ . وترجم هاريت دى أونيس مجموعة مختارة من القصص الى الانجليزية تحت عنوان  
«Knights of the Cape» (New York, 1945).

وكان لبالما فرصة للحصول على مصادر خطية كثيرة عن تاريخ ليما وبيرو بوصفه كان أمينا للمكتبة الأهلية لسنوات عدة ، فنهل منها حرقيا للمادة المتعلقة بالموضوع و « اللون المحلي » لقصصه .

(١٤) كتب E. G. Squier الذي كان في بيرو في منتصف القرن الماضي يصف كثكو : « ان منظر المكان ٠٠٠ وهو منظر مدينة هندية تماما . ويكاد لا يوجد شيء يمكن أن يسمى مجتمعا ، ولو أن أفراد

الطبقة الراقية يتصفون بالكرم وعدم التصنع ، وأكثر صراحة وبساطة في سلوكهم من أفراد الطبقة المائلة في بلدان الساحل حيث نبذ الناس العادات الأهلية في محاولة يشوبها الغرور لتقليد المظاهر والشمائل الأجنبية . وتعيش بعض الأسر على نمط فضفاض ، وبيوتهم مهياة بأنافة حقيقية « . ودهش سكوير عند رؤيته المعازف الضخمة ( الليانو ) والمرايا الفرنسية التي نقلت من الساحل . وقد كان هذا قبل أن نمس السكة الحديدية الجنوبية بين مويندو وكثكو .

«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas» (New York, 1877), P. 455.

(١٥)

«Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols. Washington, D. C., 1854), II, 161 - 63.

قارن بالصورة المشاعرية التي أوردها توماس جيدج عن ليون في نيكاراجوا قبل ذلك بقرنين من الزمان : « كانت البهجة الكبرى التي ينشدها السكان هي في بيوتهم ، وفي السرور الذي يملأ قلوب الناس في البلاد المتاخمة ، وفي وفرة الأشياء التي يحتاج اليها الانسان أكثر من بهجتهم بالثراء الزائد الذي ينشده الناس كثيرا للتمتع كما كانت الحال في أرجاء أخرى من أمريكا . فقد كانوا راضين بالحدائق الجميلة ومجموعات متنوعة من الطيور المغردة والبيغاوات ، وبوفرة من السمك واللحم ، وقد كان هذا رخيصا ، وبالنازل البهيجة ، وبذلك عاشوا عيشة لذيذة متراخية تافهة ، لا يتوقون كثيرا الى ممارسة التجارة والحركة . . . وبسبب البهجة التي كانت تتصف بها هذه المدينة بصفة خاصة أطلق الاسبانيون على ولاية نيكاراجوا جميعها جنة الله في الأرض » .

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York, 1929), P. 340.

(١٦) « على الرغم من الطقس الجميل والسناء الدائم للذين يسودان اليماني في معظم الأحيان « فهناك شيء غير لائق ومفجع حول هذه المدينة . انى أتخيل الهنود جالسين حول خراب الهضبة يلقرن بأبصارهم من أعلى نحوها كالنسور يتربقون اندثارها » .

Christopher Isherwood, «The Condor and the Cows : A South American Travel Diary» (New York, 1949), P. 174.

(١٧) أنظر

Frederich Boyle, «A Ride Across a Continent : A Personal Narrative of Wanderings through Nicaragua and Costa Rica» (2 vols., London, 1868), II, 179.

(١٨) في خلال عصر الاستعمار كان مجلس المدينة ( كابلدو ) الملجأ الأخير الوحيد للديمقراطية في ظل نظام سياسي يتصف بالحكم المطلق . وعندما كانت تتأزم الأمور أحيانا في شئون المدينة ينعقد مجلس مفتوح (Cabildo Abierto) أو اجتماع حاشد للمواطنين الاسبانيين لمعالجة الازمة . ولا تزال هذه العادة التي تذكرنا باجتماع المدينة في نير انجلند تمارس في جهات من أمريكا اللاتينية .

(١٩) هناك فصول مختصرة فائقة في وصف تطور العمارة في مختلف الجمهوريات في طبعة

Earl Parker Hanson, «New World Guides to Latin America» (3 vols., New York, 1945).

وعن العمارة المكسيكية أنظر

Trent Elwood Sanford, «The Story of Architecture in Mexico» (New York, 1947).

(٢٠) « يخرج ظرفاء هذه المدينة يوميا ، بعضهم على ظهور الخيل، ومعظمهم في مركبات كبيرة حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر في متنزه ظليل بهيج يسمى لا الاميدا ، تكثر فيه الأشجار والطرق حيث تلتقى فعلا ٠٠٠ حوالى ٢٠٠٠ عربية مملوءة بالسادة والسيدات والمواطنين ليشاهدوا ويشاهدوا ويطارحوا الغرام ويطارحوا الغرام . ويصحب السادة حاشياتهم من العبيد الزنوج ، وبلغت حاشية بعضهم اثني عشر عبدا . وكان لبعضهم ستة يخدمونهم ، مرتدين حلا أخذة لطيفة مثقلة بخيوط الذهب والفضة ويلبسون في أرجلهم السوداء جوارب حريرية وورودا مرصعة بها أقدامهم ، والسيوف مدلاة على جوانبهم »

Thomas Gage, op. cit., P. 91.

(٢١) الى وقت متأخر كسنة ١٧٧٩ ، مات أكثر من ٩٠٠٠ شخص من انتشار الجدري في مدينة المكسيك . وطبقا لرواية همبولدت ، «هلك عدد كبير من شباب المكسيك في تلك السنة المشؤومة » OP. cit., II, 51 وفد منع التطعيم الذى أدخله دون توماس ميرفى في سنة ١٨٠٤ تكرار حدوث مثل هذه الأوبئة المنكبة . ونتيجة لقصور انتاج الطعام في المكسيك ، خصوصا في سنوات الجذب ، كان الموت جوعا يعد أحيانا كارثة كبرى تصيب جموع الناس كأوبئة الأمراض . ففي مركز التعدين في جواناخواتو مات أكثر من ٨٠٠٠ شخص من الجوع ومن الأمراض الناتجة عنه في سنة ١٧٨٤ .

ibld., P. 57.





## الفصل العاشر البرازیلی

لم يكن البرازيليون (\*) الأوائل الذين نعرفهم في العصور الحديثة سوى جماعين للأخشب البرازيلي والصبغة التي إذا ما عرضت للشمس اكتسبت لون قطع المحم المنوجمة (\*\*). وقليلًا ما كانت تعد هذه البلاد مهمة إلى درجة تكفي لإعطائها اسمًا خاصًا بها، والأسماء الدينية التي سميت بها على

Brasileiros (\*)

brasas (\*\*)

التوالى لم تثبت ألبتة ، ولذلك فقد أصبحت البرازيل وأصبح شعبها البرازيليين .

وعرف تاريخ البرازيل المبكر مصادفة واتفاقاً (١) . ولما كانت قلة ضئيلة ممن اشتهروا بنصيب فيه كتاباً ، فنحن نعرف قليلاً عن كثير مما حدث على طول ساحلها الذى يبدو لا نهائياً . أضف إلى ذلك أنه لما كانت البرتغال تدرك ضعفها من ناحية عدد سكانها فإنها لم تستسلم إلى الإعلان المألوف عما كانت تحكمه حكما مزعوماً . فقد كان لديها عمل آخر — ويعود بريح أكبر — تهتم به فى بلاد الشرق قبل أن تولى اهتمامها لتنمية الفياق المدارية الشاسعة التى كانت البرازيل . وعندما ولى بدو الفاريس كابرال وجهته شطر الهند مقتفياً أثر فاسكو دا جاما رأى نفسه مصادفة أمام البرازيل فى آخر عام من القرن الخامس عشر . فقد كان متجهاً فى رحلة عملاقة نحو الغرب ، محاولاً تجنب ظروف الملاحة الصعبة أمام ساحل غينيا ، وبعد أداء احتفال متكلف ادعى فيه حق امتلاك « جزيرة فيراكروث » استمر فى طريقه إلى الهند . ومضى وقت طويل قبل أن تضم البرازيل إلى مجال مشروعات البرتغال فيما وراء البحار . وقد كانت مشغولة من قبل بمغامراتها التى نهر الأبصار فى آسيا (٢) وحدث فى هذه الأثناء أن سادة متفرقين من ربانة السفن التجارية البرتغالية قاموا بعياحات بقصد الحصول على الخشب البرازيلى وحمولات إضافية كالبيغاوات الزاهية الرياش والبيغاوات الأمريكية الطويلة الذيل والقردة اللعوب ذات اللقبعات ، وهى تجارة قلما كانت تجذب اهتمام الأمة وتحولها عن التوابل والأقمشة والجواهر التى كانت تجبى بها أساطيل الغلايين (٥) إلى لشبونة من جزر الهند الشرقية . وفى الفترات التى كانت تنقضى بين المفاوضة مع الهنود

وتسليية أنفسهم مع نسايم المضيافات حاول التجار البرتغاليون أن يطردوا الدخلاء الشاردين من الفرنسيين الذين بدأوا في وقت مبكر القيام برحلات إلى البرازيل من موانئ بريتاني ونورماندى .

وكان الفرنسيون يصرون في محاولاتهم على إنشاء فرنسا قطبية جنوبية ، في البرازيل ، وأقاموا مستعمرات متناثرة على طول الساحل من جزيرة ماراجو عند مصب الأمازون نحو الجنوب إلى خليج ريو . غير أن فرنسا كانت لديها دائما مشاغل كثيرة في جهات أخرى من العالم تركز على عملياتها ضد جبهة ضعيفة من البرتغاليين الذين تشبثوا كما يتشبث سرطان البحر ، بساحل البرازيل ، كما قال الأب فيسنتي دو سلفادور . وعلى الرغم من أن البرتغاليين كانوا دائما يبدون غير متحمسين واعتباطيين في عملياتهم في البرازيل ، فقد كانت لديهم طريقة ليهبوا لملاقة الظرف الذى منه تهدد مستعمراتهم تهديداً جدياً ، ولذلك فعلى الرغم من إغارات الفرنسيين والهولنديين ، بقيت البرازيل لهم أكثر من ثلاثة قرون ، أو إلى أن كان السكان أنفسهم على استعداد لدولى حكمها .

وبعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاما اتخذت الحكومة البرتغالية أولى الخطوات لاحتلال البلاد . ولهذا الغرض منحت تراخيص إقليمية وسياسية مترابطة لعدد من الأعيان وذوى الشهامة الموسرين الذين كلفوا باستعمار أراضي قوادهم على حسابهم الخاص وتعد سلسلة المستعمرات مثل أولندا - رسيبي وباميبا وساوفيستى - سانتوس التى أسست نتيجة لهذه التنظيمات النواة الأولى للبرازيل الحديثة ، وازدهر بعضها أكثر من البعض الآخر ، بالنسبة إلى المزايا الطبيعية التى اختصت بها المنطقة ، وإلى أخلاق صاحب الالتزام (\*) . وكانت قلة منهم ، مثل دوراتي كوبولو رئيس برنامجو

رجالاً أقوياء اكتسبوا حذقا من تجاربهم في التعامل في بيئته مدارية في جزر الهند الشرقية . وكان ينقص بعضهم رأس المال اللازم أو صفات الزراعة ، فأصاب مستعمراتهم الفتور خلال العصر الاستعماري .

وكانت أكبر المشكلات في تأسيس البرازيل هي الحجم ، والمسافة ، وتطرفات الطبيعة ، وتطور قاعدة اقتصادية للمستعمرة ، والخطط التي كان يرسمها منافسون ذوو عقلية امبراطورية . ولم يكن على البرتغاليين أن ينازعوا دولا حربية منظمة كما فعل الإسبانيون في المكسيك وبيرو . فقد كان التوحي جنسا تربط بين أفراد وشائج القرى ، وكان على درجة أكثر انخفاضا على سلم المدنية من الازاتقة ورعايا الإنكا ، وعلى الرغم من أن القبائل البرازيلية كانوا يحبون للقتال في علاقاتهم بعضهم ببعض ، فقد عجزوا عن أن يكونوا جبهة متحدة ضد البرتغاليين . وحدث بعض القتال المتقطع ، ولكن البرتغاليين جاءوا ليقوموا بدور المستعمرين بدلا من أن يجيئوا فاتحين ، فتجنبوا العداوات الصريحة ما استطاعوا .

وعندما جاء البرتغاليون كانت البرازيل مجرد فراغ شاسع . فلم يكن لديهم فكرة عن كم هي شاسعة حتى خرج مستكشفو الأرجاء الداخلية من ساو باولو إلى الغرب الأقصى من القارة المكشوفة . وكان البابا بورجيا قد حدد من قبل خطأ تحكيا لتوسعاتهم زحزح فيما بعد بمعاهدة تورديسياس في سنة ١٤٩٤ . وفيما دون خط التقسيم بكثير وطء الإسبانيون مركزهم في الاندز ، وبدوا راضين بالبقاء هناك بعد عدة انتكاسات خطيرة في اختراق قبة الأمزون . ومنذ ذلك الوقت لم يهتموا إلا قليلا بهرية الأمزون إلى الهرق من الجبال ، أو بالميل إلى تحدى عمليات البرتغاليين التي كانت أقرب إلى رحلات الكشف منها إلى مجهودات يبذلونها لاستعمار مناطق الحدود . وأول الجهود البرتغالية في هذا الصدد بذله وحده مخاطر اسمه اليكسو جارسيا مع قوة كبيرة من هنود الجواراني ، وقد وصل

إلى الأطراف المسكونة من امبراطورية الإنكا من قبل أن تطل قدم بنارو ساحل بيرو . وكانت أقرب المستعمرات الإسبانية إلى الساحل البرازيلي هي هند سانتا كروث دي لا سيرا في سهول شرق بوليفيا واسونثيون على نهر باراجواي . أما معاوالات البرتغاليين لإقامة مركز على نهر بلات فقد أحبطها الإسبانيون نهائيا من الجانب الآخر من النهر . ولم يكشف الاتصال من الشرق إلى الغرب مع المستعمرات الإسبانية في بيرو عن طريق الأمزون من فاحية البرازيل حتى سنة ١٨٣٨ ، عندما صعد پدرو تيشيرا النهر إلى إقليم كيتو . وقد حدث هذا مباشرة قبل نهاية الستين عاما التي مكثها الأسر الإسباني ، للبرتغال ، وفيها توقف كل جدال حول الحدود وبمرور الوقت أصبح الحد الطويل للبعثات التبشيرية اليسوعية من أراضي نهر بلات إلى الأمزون الأعلى يكون مصدا محايدا لآية محاولة بمكة عند اعتداء دولة على الأراضي الخلفية للدولة الأخرى في داخل القارة .

ولم يحدث أبدا أن عمرت البرازيل ، كما هو الشأن بالنسبة إلى كثير من أرجائها إلا بعد انقضاء أربعة قرون على احتلالها . ومن بادية الأمسر كان هناك دافع شديد للتجول في البلاد . فلم تكن هناك جبال شاهقة تسد الطريق على المتقدمين ، ولم يكن هناك من العوائق الأخرى مالا يمكن التغلب عليه . ولما كانت معظم الأنهار الصالحة للملاحة في البرازيل تتجه في مجاريها من الشمال إلى الجنوب فإنها لم تكن ذات أهمية كبرى كطرق مؤدية إلى الداخل كما كان منتظرا ، ولو أن نهر ساو فرانسيسكو كان حلقة اتصال عظيمة القيمة بين الشمال الشرقي ومرتفعات ميناس .

وكان الهندي على الدوام جوالا يبحث عن الطعام أو ملجأ يقيه من الأعداء الغريباء . وكان السكابوكو أو المملوكو (\*) ، وهو مهجن من

هندية ، ورجل الحدود البرتغالي الذي أصبح « هندية » ، قد اكتسبا عادات التجوال التي كان يمارسها السكان الأصليون . وكذلك انطبعت حالة من القلق في نفس البرازيلي الذي يعيش في الأقاليم ، ولا تزال تميزه ، ومن الصعب أن يجعله يستقر في مكان واحد . وفي ذلك الوقت ، كما هي الحال الآن ، كان يشعر أن الأمور ربما تتحسن بمرور الزمن ، ولذلك فقد كان الأفق يتحداه دائما . ثم إن المناخ ونمط زراعة الحريق (٥٥) ساعده وشجعاه على حياة التنقل ومعيشته الراكدة . ولذلك فقد كان مجتمعاً يبدو عند حافاته مجتمعاً يخصص بالحركة الدائمة .

#### سكان البرازيل

كانت المستعمرات متباعدة كثيرا بعضها عن بعض ، حتى إن الناس كانوا يقومون برحلات برية طويلة . ولم تكن المواصلات بالبحر آمنة دائما ، وكانت الرياح السائدة على الساحل الشمالي تجعل الملاحة صعبة في اتجاه واحد . وكان موزعو البريد الذين يحملون الرسائل الرسمية بين مدن السواحل يلتزمون الشواطئ الطويلة كلما أمكنهم ذلك . وكانت الماشية التي تمد المستعمرات بالحاجات كثيرا ما تساق مسافات طويلة من المزارع في الجنوب القاحل في خلفية البرية (٦) . أما في البلاد الخلفية التي تقع على الطرق القديمة فلا يزال المرء على دراية بحدة الماشية (٦٦) وأرنال البغال المجاجة التي ظلت دائما مظهرا من مظاهر الحياة البرازيلية . وكذلك سكان باييا الذي يعبرون جوياز أو ميناس بخنا وراء الألباس أو الذهب في قيعان الأنهار ، هم أيضا جزء من عادة التشرّد القديمة . غير أن أكثر الناس تجوالا من بين جميع البرازيليين هم سكان ولاية سيارا (٦٦) ،

tapuyado = Indianised (\*)

roça (\*\*) نوع من الزراع المتتلة يحرق الزراع فيها الأرض بعد جنى المحصول ثم يتقلون

إلى أرض جديدة .

Sertao (†)

boiados (††)

(\*\*\*) في شمال البرازيل

وهم المولدون الأشداء في تلك الولاية الجدياء الذين توغلوا إلى المنافذ البعيدة لوادي الأمزون ، وفي السنوات الأخيرة ينزحون إلى الجهات الصناعية في الجنوب . وكثير من التجوال الذي لا ينقطع في البرازيل يمارسه الناس على أقدامهم . فليس هناك سكة حديدية تربط الأقاليم الشمالية بالجنوبية لهذه البلاد العملاقة وطريق العربات بين ريو ومدن الشمال الشرقي عبر تيوفيلو أوتوني لا يعد طريقا ملكيا (٥) بمسدا في كل الأجواء .

ولم يكن هناك عدد متوافر من البرتغاليين المطلوبين لفتح البلاد وتبويبها مركزها . وإنه لمعجزة أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بها على وجه الإطلاق فقد كان هناك عدد قليل جدا منهم . فأولا كانت البرتغال أمة صغيرة للغاية ، واستنفدت المغامرات الشرقية عدداً كبيراً من سكانها . فكان السكان الباقون في منتصف القرن السادس عشر قد انتشروا في كثافة خفيفة جدا في العالم ليحتفظوا بأى شيء ضد عدو قوى عنيد . ولذلك فقد كان عليها أن تقتصد من نزر واردها البشرية الخاصة وتبحث عن موارد أخرى من الرجال ، خصوصا من الأيدي العاملة المتوافرة العدد والذين يعتمد عليهم لنظام المزارع الذي كان قد راودها . وبدأ الهندي هو المورد المنطقي للحصول على العمال . ولكن الهندي لم يكن لديه ميل للعمل المنتظم ولم يشعر بالسعادة في المزرعة التي كان يحس فيها أنه شبه أسير . وفي زمن مبكر صرف المزارعون البرتغاليون النظر عنه كعامل على الأرض ، وإذا كانوا قد استطاعوا أن يمنعوه من التجول بعيدا في الغابات فقد استخدموه في أغراض مجالها أقل تقييدا ، وله ميل طبيعي إليها ، كأن يعمل ملاح زورق وصيادا . أما الرقيق الزوج ، وقد كانت لهم تجارب طويلة معهم من قبل في وطنهم ، فقد برهنوا على أنهم الحل السليم لمشكلتهم في

الحصول على العمال وكان الزنجى من الناحية الجسمية مهما لمطالب المعيشة في وطن مدارى ، وما يتصف به مزاجه يساعده على تحمل أعباء الخدمة دون أن يشعر باليأس المحقق أو روح التمرد الكئيبة التي يكنها الهندي في نفسه . إن صنع البرازيل لم يكن ممكنا بدون الخدمات التي أداها جسمه وروحه .

وبالاختلاط المفرط بين دم البرتغاليين أنفسهم ودم كل من الهندي والزنجى ، شارك البرتغاليون أيضاً في حل مشكلة السكان في البرازيل ولم يكن التهجير الجفسي شيئاً جديداً عليهم ، فقد كان البرتغاليون في جنوب نهر الناجة (٥) بصفة خاصة شعباً مختلطاً ، فلم يكن عندهم عقبات تمنع طغيان أى لون منهما على حدود اللون الآخر أو تصرفاته أو الفارق الاجتماعى . وقبل أن يبدأ احتلال البلاد المنتظم رهن فلة متناثرون من البحارة البرتغاليين الذين جنحت سفنهم أو اختاروا من تلقاء أنفسهم المعيشة مع الأهالى إمكانات الاختلاط على نطاق واسع . وأشهر طلائع عملاء الاستعمار البرتغالى هؤلاء . كاناديو جو الفاريس ، وأشهر ما يعرف به اسمه كارامورو أو د صانع النار ، وجوياو رامالو . وقد استقر أولهما في الأراضى الغنية حول خليج سلفادور حيث نشأت مدينة باييا في وقت لاحق أما مسرح أعمال الآخر فقد كان نايميا في إقليم سانتا كاتارينا . وكلاهما أصبح زعيماً من نوع ما ، ورجلا مهما مهيما بين القبائل التي تبنيهاها ، زد على ذلك أنهما أنجبا نسلا كثيراً ووضعاً نمطاً للخاط ساعد كثيراً على ملء الفراغ التناسلى في البرازيل وفي وقت لاحق جاء رواد الشمال الشرقى العظيم ، مثل جارسيا دافيللا وجيرو نيمو دى ألبوكيرك ، ليصبغوا أرباب أسر غزيرى الإنجاب في البلاد ، واقعد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا دليلاً على



السيادة والمسئولية ، وكعامل هام مساعد على تبيض بشرة السكان الذين يغزر في دهمم التهجين في تلك الجهات الإدارية من البرازيل .

وفي وقت مبكر بدأت المستعمرة تجد في السكر أساسا هاما في اقتصادها . فقد كانت السمول الساحلية المنخفضة ملائمة كثيرا لزراعة القصب ، ولما كانت موارد السكر في أوروبا قليلة ، ظل السكر فترة طويلة للغاية محصولا مربحا ، ولو أن سكر جزر الهند الغربية كان في الهاية منافسا خطرا قتل من أرباح صناعة السكر الازيلية . وأمد الطباق الذي زرع في المنطقة المحيطة بانيبا والقطن الذي زرع في المنطقة الجافسة إلى الشمال من برنامبوكو (ه) حتى مارانياو السكان بمحصولين ثانويين قيمين .

### نظام المزارع

كانت حياة المزرعة تدور إلى حد كبير حول المزارع الكبيرة . ومهما يكن فيها من قصور فإن الزراعة الإدارية لم تمارس بذلك القدر من النجاح في أية مستعمرات أوروبية أخرى في ذلك الوقت . فقد كان أفراد الطبقة الارستقراطية من المزارعين الذين يستخدمون الرقيق هم حكام البرازيل الفعليين . وكان إقدامهم الشخصي مهما كل الأهمية بالنسبة إلى مركزهم . وكانوا عادة رجالا حذقين أقوياء العزيمة واسكنهم كانوا كرماء في معاملتهم لمجوعهم الغفيرة المختلني الألوان من الأتباع أحرارا كانوا أم عبيدا ، وانغمسوا في كثير من المظاهر الحشنة خصوصا عند زيارتهم للبيدنة تصحبهم أسرهم وبناتهم . وفي هذه الأثناء كان قواد الجيوش في باييا ، ثم في وقت لاحق نواب الملك في ريو ، رموزا مثيرة للعواطف للسلطة البرتغالية . وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا ذوي كفاية وموظفين مملكين ذوي ضمير فقد بقيت السلطة كملجا أخير في أيدي أصحاب الأراضي

الكبار ومن حسن الحظ الذى ساعد على نجاح إدارة هذا النظام المتراخى أن الحكومة كانت أبعد كثيرا وأقل تدخلا في حياة المستعمرين منها في الجو السياسى الصارم الذى كان يسود المستعمرات الإسبانية .

وكان ينقص المستعمرة ، حتى في المدن ، جو من التهذيب الاجتماعى . ففي بادىء الأمر كانت مجتمعا للذكور ، إذ كانت هناك قلة من نساءهم ليشاركهم فيها وحتى عندما جاء النساء من البرتغال ، قبعن في عقر ديارهن ثانية . ولم يكن لمن على ما يبدو تأثير خارج جناح الحريم (\*) في البيت الكبير ، بل إن هذا التأثير كان قليلا بسبب نشاط رجالهن الأشداء فيما وراء الأسوار . ولذلك فإن نساءهن الشاحبات قليلا لم يكن في مركز يؤدين منه للمستعمرة مسحة من اللطافة الرشيقة التي كانت تستحقها نتيجة ثرائها ومركزها في العالم الخارجى . فقد كان المستوى الاجتماعى الحقيقى للمستعمرة مستوى الأبيقورية القروية فقد كانت المستعمرة تلبس حلة مزخرفة في المواقب وتخبتر وتؤدى حركات التعارف والمجاملة كأحسن ما تؤدى به في لشبونة وملئت المنازل بمختلف أنواع الكماليات الشرقية . ولكن أقدامها كان يعلوها الطين ، وشعرها كان يكسوه النقع (\*\* ) ، لأنها عاشت ملتصقة بالأرض رغم كل ادعاء ووقفة مصطنعة ، وفي صميمها كانت تحت تأثير دافع ريفى عام نحو المباهج والمسرات الغريزية .

### الثقافة الاستعمارية

كانت اهتماماتها الفكرية على مستوى منخفض كستواها الاجتماعى . فلم ينغمس المستعمرون في قراءة الكتب ، ولم تنشر أية كتب في البرازيل في العصر الاستعمارى إلا متأخرا (٣) . ولم تكن هناك جامعة كما كانت

(\*) zonana : زانلة ، كما تسمى في إيران والهند - زانا امرأة بالبرازيلية .

(\*\*) الفوسار .

الحال في المدن الإسبانية مثل ليما ومدينة المكسيك لتقدم سترا من لوزعية وحذقة العالم القديم على فجائتها الحيوية والثارة . وكان يحدث أحيانا أن مزارعا غنيا يرسل ابنا مرجوا من أبنائه عبر البحار إلى كوينبرا ليكمل منه عالما و « دكتورا » ، ولكن معظم ما كان موجودا من نشاط عقلي عاطل في المستعمرة كان مرجعه إلى اليسوعيين أو يهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانت لديهم تقاليد فكرية قوية خاصة بهم .

وكانت أدوات الثقافة العالية في أغلب الأحيان في أيدي اليسوعيين القديرة . ولكن اليسوعيين لم يتفوقوا مع استقرارية المزارعين على أشياء كثيرة سواء أ كانت ذات طابع روحى أم دنيوى . أضف إلى ذلك أنهم كانوا منهمكين جدا في محاولتهم حماية من في عهدتهم من الهنود من نهم الفريق العلماني وتمدينهم على طريقتهم الفريدة لدرجة لا يودون معها إرجاع أنفسهم كثيرا برفع مستوى المستعمرين الفسرى . ومع ذلك فبعض زعمائهم مثل الآباء انشيتا ونوريجا وكارديم وفييرا كانوا رجالا ذوى مقدرة عظيمة وأخلاق نبيلة تركوا أثرا لا يمحي على مر السنين في تاريخ البرازيل المبكر .

ووقعت معظم مسئولية تأدية الخدمات الدينية لفريق السكان العلمانيين على عاتق قساوسة الابروشيات من الفرق الأخرى وعلى رعاة البيوت الكبيرة ، وكانوا ، بصفة عامة ، زمرة متكاسلة يعظون مسيحية مزلية وبسيطة ، وفي ظل النظام الهرمى الذى ارتضاه المجتمع أظهروا تجلّة لائقة وانقيادا للسادة ملاك الأراضى الذين كثيرا ما كانوا يدعونهم إلى مواعيدهم المضيفة . وفي المزارع تعودوا العمل أيضا كمدربين في نظام بقارب مرحلة أولية من التعليم الابتدائى كانت سائدة في ذلك الوقت . وكانوا يقومون بالخدمة الدينية في رفق أثناء الاحتفالات الدينية المتكررة . وفيها كان القديسون يندمجون كآلهة الإغريقية في العصور القديمة مع

هبادهم في جو من الأانس البهيج . ولم يكونوا صارمين في أمور العقيدة ، وتفاوضوا عن البدع الدخيلة غير الضارة التي أحضرها معه الهندي والزنيجي إلى أشد المذاهب الكاثوليكية كنيسة .

ذلك أن الثقافة الشعبية الخصبة لكل من هذين الجنسيتين عمرت العالم الخفي الذي تصوره في مخيلتهم بجيش من العفاريت وشياطين الجو ومخلوقات أخرى خيالية . وخرج من غابة البرازيل العظيمة وأنهارها خليط من الحيوانات الكاريكاتورية مثل ساحفأة الماء (\*) ، والتساح (\*\*\*) ، والدر فيل الوردى اللعوب (\*\*) ، الذي يشتهر به الأمزون ، والتي كان الآهالي يعتقدون أن لها تأثيراً في حياة الناس ، سواء أكان خيراً أم شراً . وعلى الرغم من أن رجال الدين لم يوافقوا على هذا التيه من الخرافات المتزاحمة على عقائد الكنيسة ، والتي تخلط الأمر في عقول الرعايا البسيطة ، فإن هذه الخرافات كانت متأصلة في غريزة الشعب بدرجة لم تخضع معها للمنطق أو اللوم . فقد أصبحت جوهر خرافات البرازيل الوافرة والدائمة ، وفيها تقوم الحيوانات غير العادية بدور هام جداً . فهم جزء من الميراث القصصى لجميع أطفال البرازيل ، ويستمد منها كبارهم مادة لتشخيص أوهامهم مثل جيكا تاتو ، وجوسيه كاريوكا - جو البيغاء - في فيلم والت ديزني ، الفرسان الثلاثة ،

ومن جميع التأثيرات التطورية التي كانت تعمل في العناصر الخام للأمة البرازيلية . التكوين الجنسي ، عمل القوى الطبيعية ، الشمس والمطر والمناخ والمرتفعات وعظم مساحة الأرض نفسها ) ، عملية التغير التاريخي نشأ بمرور الوقت جنس مختلف عن الجنس البرتغالي الأصلي ، ولكن الأساس

Jaboti (\*)

jacaré (\*\*) بالأحرى فصيلة من للتساحيح alligators

boto (\*\*\*)

بقى لوسيتانيا (٥) . وكانت البرازيل شاسعة الاطراف ، وظلت أرجاؤها زمنا طويلة متباعدة بعضها عن بعض لدرجة أنه ، كما هي الحال في الولايات المتحدة ، أصبحت هناك عدة فروق إقليمية تختلف عن النمط الأصلي . ولكن جنسا برازيليا كان طول الوقت في طريق التكوين له صفة مميزة خاصة به ، بصرف النظر عن الاختلافات بين مواطن من سارباولو ومواطن من الشمال الشرقي ، أو بين مواطن من ميناس جيرائس أو جوشو .

### البرتغاليون

لم يكن البرتغاليون جميعا كإسبانيين ، ولو أنهم كانوا أقرب شبا منهم من كونهم أبعد شبا (٤) . واشتركوا مع بعض الإسبانيين في صفات كثيرة كما هالي أستورياس وغاليسيا أكثر مما كان بينهم وبين سكان أراجون وقشتالة من صفات . واتصفت جميع شعوب شبه الجزيرة الفردية ، ولكن البرتغاليين كانوا بصفة عامة أكثر استعداداً للمصالحة أو الخضوع من الإسبانيين ذوي الخيلاء ، لأنهم كانوا عمليين أكثر ، ولم يهتموا كثيرا بالمظهر اهتمامهم بجوهر الأشياء . فإن بدا منهم العناد عندما يدفعهم أحد أكثر من اللازم ، أو عوملوا معاملة جافة ، فقد كان ذلك أيضاً دليلاً على أخلاقهم الريفية في الأساس . وكانوا بصفة عامة واقعيين أكثر من الإسبانيين ، ومع ذلك ففي مناسبات يستطيعون أن يكونوا كبحوتين مثلهم ، كما بدا من بعض مغامراتهم الصليبية الخيالية في إفريقية . وكانوا عاطفيين أكثر من الإسبانيين ، كما أن البرازيليين أرق عاطفة من أهالي تشيلي أو أوروغواي . وانساقوا في حالات نفسية تسودها السكابة قد تجد متنفسا في غناء الأناشيد الشعبية الحزينة (٥) التي يغنونها في الربف . وعلى النقيض

(\*) نسبة إلى Os Iusiadea البرتغال

(\*\*) Fados

من ذلك قد يتغمسون في مزاح ولهو استعراضي (\*) ، فقد كانوا أناسا دنيويين وسدجا اتخذ طوهم ناحية الجسد أكثر من ناحية الفكر . وكان تفكيرهم في الحرب أقل من الشعوب الإسبانية ، ولو أنهم لا يقولون عنهم شجاعة في الممارك إذا كانوا يحاربون عن إيمان ، فإذا لم يكن ذلك فقد كانوا ينزعون إلى إظهار شعور قوى بالمحاطة على الحياة ولما كانوا شعباً معتدلاً بطبيعتهم فقد كانوا أبطأ في اللجوء إلى العنف من القشتاليين المحبين للقتال . كما لم يلبوا إلى المخفضة الزائدة والآبهة ، لأنهم كانوا على علم بأنهم ينتمون إلى بلاد صغيرة وليس لديهم أطماح لأن يلبسوا ثياب الأقوياء . وكان حبهم للربح شديداً ويحبون المال وكانوا على وجه العموم رجال أعمال ومال أفضل من معظم السلالات الإسبانية ، وبخرج من بينهم أمناء مخازن ونجار أقوياء ومحفظون . واستمرت أعداد غفيرة منهم تهاجر إلى البرازيل ، وهناك رغم أنهم هدف للسخرية والنسكات ، يرحب بهم لجدهم وصفاتهم الجوهرية الأخرى ، كما يرحب بأهالي غاليسيا (\*\*) المثابرين والمجدين في كوبا . واعترافاً بقيمتهم في تطوير البلاد أعفوا من حصص القيود التي فرضها قانون الهجرة الفيدرالي .

#### الولايات البرازيلية وسكانها

- تنقسم البرازيل كلها إلى خمسة أجزاء . فإذا ضممتنا وادي الأمازون كجهة منفصلة تصبح ستة أجزاء . أما الأجزاء الخمسة فهي :
- ١ - الشمال الشرقي .
  - ٢ - ولاية ميناس جيرايس
  - ٣ - الإقليم الفيدرالي .
  - ٤ - ولاية ساو باولو .
  - ٥ - ولاية ريو جراندى دوسول . وهي تمثل عند البرازيليين الناذج

(\*) في الأصل Bruegel-like : نسبة إلى رسام هولندي مشهور بلوحاته الزاهية .  
(\*\*) Callegos .

البشرية الآتية على الترتيب : نورد ستينو ، مينيرو ، كاريوكا ، بوليستا ، جوشو . وليست الحدود بينها ثابتة ، لا من ناحية اصطلاحات علم الجغرافية ، ولا من ناحية ثقافتهم الإقليمية المميزة . فلا تزال البرازيل بلادا للريادة ، وأحيانا تبدو الهجرة الخارجية التي يقوم بها الناس من المنطقة الساحلية القديمة المطلة على المحيط نحو الأراضي الداخلية كما لو كانت بدأت مؤخرا ليس إلا . خيشما وجدت سكك حديدية أو طرق يسلكها الناس وأرض غير مأهولة للاستعمار ، فإن تيارات الهجرة لا تلبث أن تبدأ نحو الداخل كما في حوض نهر توكانتنس في جوياز في القطاع المتسع على طول السكة الحديدية الشمالية الغربية في جنوب ماتو جروسو ، أو منطقة البن الجديدة في جنوب غربي ساو باولو ، والركن الشمالي الغربي لبارانا . وقد تكون أغلبية المهاجرين من أهالي سيارا هارين من فترات القحط التي تلتاب ولايتهم المعرضة للجذب ، أو من سكان بايبيا (\*) ينزحون غربا عبر مجرى نهر ساو فرانسيسكو ، أو من أهالي ميناس أو ساو باولو بحثا وراء فرص جديدة لإنتاج البن أو الرز أو تربية الماشية . وبعد ذلك تصبح الأرض المستعمرة حديثا ، من ناحية ، ملحقا بالإقليم الذي جاءت منه أغلبية المستعمرين .

والشمال الشرقي هو البرازيل القديمة للرقيق والسكر . ومساحته شاسعة ، تمتد من حدود ولاية پارا ، تم جنوبا مارة « بروز » أمريكا الجنوبية حتى مدينة ريو دي جانيرو تقريبا . ويمتد غربا عبر البرية (\*\*) حتى يلتقي بغابة الأمزون . والبرية معظمها شبه صحراء تنمو فيها «الكاتنجا» أو الأشجار القزمية والأهشاب التي يهيل لونها إلى البياض . وأحيانا كما في مارانيو ويوهي — توجد مساحات شاسعة من الفخيل (\*\*\*) . وهناك

Bahianos (\*)

Sertão (\*\*)

Palmeiras (\*\*\*)

أيضا جهات تصلح أرضها الغنية لإقامة المزارع بالقرب من الشاطئ . وفي الجزء الجنوبي بين نهر كونتاس في باييا ونهر دوسى في اسبيريتوسانتو توجد مساحة شاسعة تنمو فيها غابة مدارية مطيرة تسكاد تسكون خاوية من السكان . والشمال الشرقى هو الإقليم المفضل للشعوب المختلطة التى هى مركب من البرتغاليين والهنود والزنوج . ويتصف الناس فى النطاق الساحلى بطلاقة اللسان وسعة الأفق والنودد . ومعظم خطباء البرازيل المفضلين وشعراء الأناشيد ، مثل روى باربوسا وكونساليس دياس ، جاءوا من سلالاته الخصبة المزدهرة . أما الشخص الذى يعيش فى البرية الهزيلة والأراضى الخلفية فمعجم ألفاظه فقير ، كما هو فقير فى طعامه وبنيتة وفى قرارة نفسه مضطرب شديد من التصوف . وكان من أنصار أنطونيو كونسيليروفى كانودوس ويتبع القساوسة الذين يبرئون الأمراض ويظهرون أحيانا فى البرية ليشرحوا سكانها البسطاء إلى جنون التعصب . ونظرا إلى أنه عديم الثقة بالسلطة نجده قد انساق إلى عبادة الأبطال الذين يتحدون القانون مثل لامبياو أو البرق ، قاطع الطريق .

وأهالى ميناس جيرايس جبليون ، ولهم الصفات التى يمتاز بها سكان الجبال وهناك نحو تسعة ملايين معظمهم يعيشون فى قرى فى الوديان المرتفعة أو فى مزارع صغيرة وقد نظموا حياتهم بأساليبهم الخاصة ، ويمكنهم أن يقولوا القليل فى كلمات كثيرة ، فى حين ينتظرون أجنبيا ليتم حديثه ويومئ بيديه وهم محافظون ومتحفظون ، ولذلك فهم عجلة البرازيل المنظمة . والسكراريوكا هم سكان ريودى جانبرو الأصليون ، أو سكان الإقليم الفيدرالى (هـ) وضواحي المدينة الكبيرة ، وهم قوم يحبون التزين والاستعراض إلى حد ما ، ويتصفون بالحصافة ، وسلطة السلطان ،

(\*) نقلت العاصمة الفيدرالية إلى برازيليا كما تقدم، وأصبحت ريودى جانبرو عاصمة ولاية .



والنزوات ، والتقلب ، والعبوس ، والتهكم ، ويعدون معرض ، الحياة أعظم ما يجذبهم فيها ، ولا يسبقه في هذا إلا احتفالهم السنوي .

وفي ميناس جيرائس توجد العجلة المنظمة في الآلة البرازيلية ، كما أن ولاية ساو باولو هي المحرك . وأهالي ساو باولو ديناميكيون وأقوياء العزيمة ويحبون التملك . وهم يفكرون بعقلية المال والتنمية . وقد أحضروا الثورة الصناعية إلى البرازيل وأداروها للعمل لمصلحتهم ، وبطريق عارض لمصلحة البلاد ومنفعتيها . ويمتد تأثيرهم ونطاق زعامتهم عبر حدود الولاية إلى بارانا وماتوجروسو و « مثلث » ميناس والأرجاء الملاصقة من ولاية ريو . ولما كانوا عماد الاقتصاد البرازيلي فهم يتكلمون بصوت أغلبية حملة الأسهم ، وتعودوا أن يستمع الناس إليهم . وأصبحت ولايتهم تنزع إلى الظهور بظهور السيادة ، ولما لم تسر الأمور وفق هواها ثارت مرتين في وجه الحكومة الفيدرالية .

والجوشو هم شعب ريو جراند دوسول ، الولاية الواقعة في أقصى جنوب الجمهورية . وتحدها من جانبيين أراض إسبانية ، وتعكس آثارها في كثير من الأمور بما في ذلك الاسم المحلي لشعبها . فالجوشو أقرب في مزاجه إلى أهالي أوروغواي منه إلى مواطن باييا الموجودة في بلاده هو . فهو أكثر من البرازيليين الآخرين في كونه « يخرج إلى العراء » ، كما أنه أشد عنفا و « حيوية » ، وفي مكانه الطبيعي عندما يمتطي جوادا ، وهو حيوان قد يكون غريبا كلية على موج السكاريوكا ، فقد يفضل مواطن ميناس جيرائس كثيرا بغلا ثابت الأقدام كوسيلة للنقل البري .

### الاخلاق البرازيلية

البرازيليون هم صينيو العالم الجديد . وهم شعب حديث إذا اعتبرنا الناحية التاريخية ، أما من الناحية الروحية فهم جنس قديم له جذور في

مكان ما في التاريخ . وليس التوازي بطبيعة الحال كاملا ، فالصينيون ، من بين أشياء أخرى ، شعب نفعى أكثر من البرازيليين . ومع ذلك فصفة الشرقية في نواح معينة من الحضارة البرازيلية واضحة تماما ، وهناك مجالات للفكر والسلوك فيها ينزع كل من الشعبين إلى أن يتصرف تصرفاً واحداً . وهذه حقيقة في الصفات الصينية الدائمة — قبل وبعد النظام الشيوعي — وهي القيم والعادات التي تحل بها الجنس ، والتي تأثرت تأثراً ضئيلاً لآثر التغيير السياسي .

فهنالك شعور متبادل بين البرازيليين والصينيين على حد سواء ، وروابط الدم هي الحلقة الرابطة الوحيدة (٦) ، وكلاهما يتجه إلى ألا يكون له أثر سياسي ، وفي النهاية هناك قوى أخرى غير الإكراه الحكومي تمسك الالتمتين معا وتحفظهما من أن يطوح بهما في فضاء سياسي ، والأخلاق والوسائل في إدارة الأعمال لا بد أن يتحد كل منهما مع الآخر .

والبرازيليون والصينيون يعمقون الحرب بشدة كمضيعة للوقت والمال ، اللذين يمكن أن يخصصا لما هو أنفع ، وإجراء لا يحل شيئا في النهاية سوى مصير أولئك الذين لا قوا حتفهم . وكل منهما يتصف بالمرح الشديد ، ويصيبهم كثير من أمور الحياة فيرون فيها أشياء توجب الضحك والاستهزاء ، والشعبان يحبان الكلام ، ووهبوا الثروة كنوع من التسلية .

وما يسميه البرازيليون «دقة الإحساس» (٧) هو مفتاح أخلاقهم القومية (٧) . وهي ليست «سرعة التأثر» ، ولا هي «دقة الإدراك» ، ولكنها أقرب إلى حدة العاطفة ، ومن ناحية الدافع ، تعنى سيطرة الشعور على الذكاء . وبعبارة أخرى يميل البرازيلي إلى أن يفكر بقلبه أكثر مما

يفكر برأسه فيما يختص بأمل معلق على عمل معين يقوم به . والتفكير  
 ووجهات النظر تميل إلى أن تصبح شخصية أكثر منها موضوعية ، لأن  
 الحياة أمر شخصي إلى درجة فائقة ، مكونة من علاقات بين الأفراد .  
 أما المبادئ العامة مثل الواجب ، والعفة ، فهي عبارات خداعة وفي  
 الحديث الجدى قد تصبح ذات فائدة كنقطة تجميع لأفكار أبسط ، واستنها  
 صعبة عندما يراد تحويلها إلى تطبيق عملي فيما يمس أفعال واهتمامات  
 الشخص الخاصة فالناس إما ظرفاء (\*) وإما ثقلاء (\*\*\*) ، فإذا كانوا ظرفاء  
 فأنت تحبهم ، وإن لم يكونوا كذلك فأنت تكرههم (٨) . وتتخذ  
 الصداقة (\*\*\*) أهمية لا تعرفها أمزجة الشعوب الشمالية الباردة ويمكن  
 تصنيف الناس إلى أصدقاء (+) أو أعداء (٩) (++) .

وسلطان الاعتبارات المؤثرة أو العاطفية يعتقد مسلك الأمور الجدية  
 ويجعل من الصعب حل المسائل بما تستحقه . وله تأثير ملحوظ فيما يؤدبه  
 العزيمة من عمل . وكما هو الشأن في اندفاعه (\*\*\*\*) مواطن أمريكا  
 الإسبانية يميل الناس إلى أن يتصرفوا تبعا للدافع وفق انعكاساتهم  
 العاطفية . وقد تكون هذه البواعث أو الدوافع الداخلية عنيفة جدا في  
 شدتها حتى ولو قصرت مدتها . فالجرائم عادة أعمال انفعالية ترتكب  
 لفورها دون خطة أو تفكير سابق .

ويزيد من خطورة عدم إمكان التنبؤ ، وما هو عند الحريصين من  
 الناس صفة القلب وفق الأهواء ، وهما الصفتان المتضمنتان في هذا الجو

simpotico (\*)

antipatico (\*\*)

amizade (\*\*\*)

amigos (+)

inimigos (+ +)

gana (\*\*\*\*)

الشخصى ، إيقاع غير منتظم للجهود الذى يشترك فيه البرازيليون ومواطنو أمريكا الإسبانية . وكما هى الحال فى تسكون الضغوط الجوية فى منطقة عاصفة حتى نقطة الانفجار فإن هذه قد تسكون مقدمات طويلة نسبيا استعدادا لاتخاذ إجراء . أما التراخى الذى يحدث فى أثناء العملية فهو مما يلائم الطبيعة البرازيلية حتى ولو كانت ظروف الحياة الفعلية لا تناسب الانغماس . والتمتع بالتراخى دليل على السمو فوق المستلزمات الاقتصادية . كما أن الأيدى البيضاء الرحيمة دليل على مرتبة اجتماعية . وفى كثير من أرجاء البلاد نجده أيضا ودفع دفاعى ضد المناخ ، ولذلك فهو يمثل اقتصادا فى القوى أكثر من أن يمثل تسكاسلا صريحا ، أو ميوعة فى الأخلاق . ومن جهة أخرى لا يوجد هناك نظام تقليدى يحث على العمل الشاق ، ويعبر عن الفلسفة الشعبية تعبيراً واضحاً بملاحظة أبدأها مواطن برازيلي وهى أن « التراخى الموقر يبدو دائما أسمى ، بل أشرف من كفاح فيه وعونة يصرفه المرء لكسب قوت يومه » . ونظرا إلى أن البرازيلي يهمله الحاضر أكثر مما يهمله المستقبل البعيد فإن البرازيليين يبدون بمستوياتنا التى نعهد لها ، شعباً عديم الغبطة . وبرغبون ، وهم فى الطريق إلى أى مصير يقودهم إليه المستقبل ، أن يجدوا فسحة من الوقت يستمتعون فيها بالمباهج البسيطة والملاذات التى هى على جانبي الطريق .

وفى هذه الأثناء لا ينتظر أحد أو يرغب أن يصبح غنيا نتيجة عمل شاق . والعاقبة السعيدة لابد أن تعتمد إما على الحظ وإما على نوع من الإقدام الفائق الذى يغامر به الفرد . ويعتقد البرازيليون اعتقاداً راسخاً فى الحظ (\*) ونظرا إلى أنهم جنس من المقامرين أو المضاربين العتاة فهم دائما يأملون أن يربحوا الجائزة الكبرى فى اليانصيب أو لعبة البيشو ولا يرغبون (\*\*) ،

sorte (\*)

«bicho» (\*\*)

وهي تقابل لعبة « الأعداد » في ريو ، وفيها يقامر المرء على حشرة مألوقة أو « رغوث » ( بيشو ) . ولقد قاومت « البيشو » جميع المجهودات الهوجاء التي تبذلها الحكومة بين حين وآخر لمنعها ، وأفلحت في إبقاء الطبقات الدنيا في ريو في حالة مزمنة من الترقب والإفلاس . وعند ما يسوء الحظ ونزواته يركن المرء إلى نفسه ، كما يقولون ، ويكسب المال بممارسة نوع من الدهاء . ولذلك فالشغل ليس شغلا ، إنما الشغل لعبة . ويفسر الاتجاه المسبق نحو مجيء الحظ الباهر الخدعة التي ينتظرها المرء من عملية تجارية برازيلية . وربما لا يعني ذلك نقصا متعمدا من ناحية الأمانة ، ولكنه أقرب إلى تحد في معركة من الذكاء . لأنه إذا استثنينا حوادث النشل البسيطة المنتشرة بين أفراد الطبقات الدنيا في شتى أرجاء أمريكا اللاتينية ، والتي تعد ظاهرة اقتصادية بقدر ما هي ظاهرة خلقية ، فإن مستويات البرازيلي من ناحية الأمانة الشخصية ربما تضارع في سموها مستويات شعوب أخرى في حالة مماثلة من التطور .

والآن نأر « المعادية للنظام الاجتماعي » التي يمكن أن تترتب على تأكيد البرازيليين على العاطفة يخففها وجود صفات معلومة أخرى في الأخلاق القومية . وإحدى هذه الصفات هي طيبة القلب (٥) . فهناك إنسانية عميقة في الناس ، دينية في صميمها وعندهم حساسية تجاه ما يقاسيه للغير من آلام ، وينزعون إلى البذل والكرم إلى أولئك الذين يعيشون في محيطهم ويحتاجون إلى عون . وإذا كانوا كالإسبانيين يميلون إلى ألا يكثرثوا لتعاسات من لا يعرفونهم فليس ذلك أبدا نتيجة قسوة القلب ، ولكنهم يدركون حدود قدرتهم ليقوموا بدور السامري (٥٥) . وفي الأراضي الخلفية لا يزال

---

(\*) bondade

(\*\*) A good Samaritan نسبة إلى السامرية في فلسطين — يوصف به من يقدم

الدون للمحتاجين .

هناك كثير من الجود القديم الذي تنصف به أقاليم الحدود . ومع ذلك ففي ميناس تحفظ كثير بالنسبة إلى وجهة النظر نحو الغرباء . فليس لدى المواطن هناك ، بصفة عامة ، فائض من « السلع العالمية » ، وعلى ذلك ، فإذا بدا منه من أول وهلة عدم الترحيب والشح ، فلأنه يشعر بكل فطنة أنه يجب عليه أن يتمسك بالقليل الذي بين يديه . ويخامره قدر معلوم من سوء الظن (\*) نحو الغريب المفاجيء ، وهو بقية من بقايا القرن الثامن عشر المضطرب عند ما كان المغامرون السفلة يحوون الجبال بحثا عن الذهب .

ويتصل بطيبة القلب الأساسية عند البرازيلي فقوره من الإجراءات أو الحلول المتطرفة أو العنيفة . فإذا لم يكن هناك ، في ظرف معين ، بديل لاستخدام القسر أو القوة البدنية ، ينزع الناس إلى استخدامها في صورة رحمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فمثلا عقوبة الإعدام ، إنها لم تحرم فقط ، بل إن النظام التأديبي صوما يتجنب العقوبات العنيفة أو اللاإنسانية (١١) . وكذلك يفضل البرازيليون أن يخرجوا من سجن معضل بالكلام على اللجوء إلى نزاع تستخدم فيه العضلات . وإن الشهرة القومية في الحنق في المفارضة الدبلوماسية مبنية على أسس قوية وعلى نزوع البرازيلي الشديد إلى التراضي في الشئون الدولية . وفي الحديث العادي يكرهون استخدام ألفاظ أو عبارات جافة أو سيئة دون ما لزوم . ومن جهة أخرى انساق البرازيليون إلى استخدام ألفاظ التصغير والتناوب باللقاب والاسم الأول أو الشخصي (\*\* ) ، وهو الذي يرفع التكليف في العلاقات الإنسانية . أما المحادثة بين أفراد الأسرة والأصدقاء فتتمق بالنزعة المشهورة التي تدل على المحبة : « نه » أو « آيا » . وهكذا جرت العادة أن يخاطب المرء أمه (\*\*\*) بلفظ « مايزينيا » (+)

desconfiança (\*)

Christian name (\*\*)

mae (\*\*\*)

maezinha (+) وتطلق مايزينيا

أو يشير إلى الجذ بلفظ « أفوزينو » ، وليست كل الأسماء الهندسية دليلاً على استهزاء أو حط من الكرامة ، ولو أنها مجونية ، وغالباً ما تلجأ إلى ظاهرة جسمية أو مزاج في الشخص ولكن بدون ضغينة .

وعادة الإشارة إلى الأشخاص بأسمائهم الأولى أو الشخصية شائعة في البرازيل . فأولاً أخذ البرتغاليون كثيراً من اللغات الأجنبية وصاروا ينقبون في ميادين الوهم والتاريخ عن الأسماء الأولى . والتنوع كبير لدرجة أن الشخص كثيراً ما تعرف شخصيته باسم فريد ، بل ربما يظهر في ترتيبه الأبجدى بدلاً من اسم الأسرة في دليل الهاتف . ومن أمثلة هذه العادة الشائعة اسم « أوجيتوليو » ، أو « الجيتوليو » . وهو الاسم الذي أطلقه البرازيليون الوقحاء على الرئيس جيتوايو فارغاس .

وهذه الأوضاع المشخصة تشخيصاً كاملاً تجعل المسائل ذات الأهمية القصوى كمسرات للوظائف الاجتماعية . ومن المرجح أنه لا توجد بلاد على سطح الأرض فيها قانون الآداب أكثر إنقانا أو أحسن مراعاة . وليس هناك بلاد تركز فيها الابتسامه كسبا أكبر ولا العبوسة خسارة أعظم . وينقاد البرازيليون بسهولة إذا لجأ القائد إلى العاطفة ، ومن الصعب قيادتهم غصبا . والتوكيد على الأمور الشخصية متأصل إلى درجة أنه أحيانا يؤدي إلى إلغاء القوانين التي يظهر منها أنها لا تتفق مع العلاقات الإنسانية المقررة . فالقوانين والقواعد لا تسرى على الأصدقاء ، ولكنها صيغت للتعامل مع الأجانب والغرباء .

وتتضمن القيود الأخرى على الأوضاع التي قد تؤدي ، في ظروف أخرى ، إلى فوضى بهيجة في المجتمع البرازيلي ، الحاسة القوية الديمقراطية ، وهي الميراث المتأصل لشعب الحدود ، وروح المرح المنعجية ، وعدم المبالاة بالأشياء التي لا تؤثر في صميم سعادة الشخص . فبتدوين الفوارق بين الناس

على الأقل من الناحية الفلسفية ، بصرف النظر عن مركزهم المادى بعضهم بالنسبة إلى بعض، يمتنع عدم المساواة عن أن تكون مصدراً كبيراً للشقاق بين أفراد المجتمع ، وذلك بتقليل الفرصة لكل من الاستغلال والحقْد . واستعداد البرازيل للضحك على ما يضحك يلمن التوترات في العلاقات الشخصية . ومع ذلك فأحياناً يشوب مزاجه إضمار الحُبث (٥) ، ولكن ليس من الضروري أن يكون ذلك ضغينة ، بل ملعنة ، أو صفة من صفات المسكر ، ولو أن إغراء إطلاق النكتة على شخص آخر جعل نفسه موضعاً للتنكيت قد يكون شديداً إلى درجة لا تقاوم . وعلى الرغم من روح البرازيل المرحّة والسهولة التي يضحك بها فإنه ينساق إلى حالات انقباض النفس . فكثير من مشكلاته — ومشكلات بلاده — لم نجد لها حلاً بعد ، وقد تأتى أوقات تبدو له فيها أنها لن تحل ونظراً إلى حساسيته فهو معرض لدرجة غير عادية لتأثير الانفعالات التي تثار من حوله . وفي الأجزاء المدارية من بلاده تثبط الطبيعة يافراطها وسيطرتها الزائدة من عزيمته وتضغط على همته .

وهناك أيضاً روح عدم الاكتراث في طبيعة البرازيل، والتي قد تمنعه من أخذ أى شيء جدياً إلى درجة زائدة ما دام لا يهددها الشيء فظام حياته الذي ارتضاه تهديداً مباشراً . وهذا هو مسلك اللامبالاة، وهو أن لا شيء يهم كثيراً شريطة أن يظل المرء مستمتعاً بالأشياء التي تجلب له السعادة . وهو ينزع إلى أن يجعل من الأيسر التغاضي عن الإساءات البسيطة وتقصير عمر الضغائن . وهناك قليل من التعبيرات التي كثيراً ما يسمعها المرء في البرازيل مثل « ليس في هذا ضرر » أو « إن هذا لا يهم » (٥٥) . وهناك تعبير آخر يحتوى على معنى مختلف من هذه القدرية غير العابثة ،

malicia (\*)

“Nào faz mal” or “Nào importa” (\*\*)



أو قل الاستسلام ، وهو : « اتركه وشأنه حتى نستطيع أن نرى ما سيصير إليه » (\*) .

### ثقافة البرازيل

العقل البرازيلي أداة حادة . وفي وسعه البت في الأمور بسهولة ووضوح ، ولو أنه إذا تعمق كثير في ميادين الفكر فقد يشعر بالتعب سريعا أو بالملل . وتمتاز آثاره بالبساطة والجمال ، ولكنه عقل ذو بعدين ، ويحتمل إلى الافتقار إلى العمق والمثابرة وإلى الشعور بالإتقان والدقة . ويغلو في تأكيد النشاط والتألق العقليين ، وينزع إلى إعطاء قيمة أكبر لثمرات الإلهام والبدئية أكثر مما يقدره لثمرات الأسامية للعمل الكادح والجد العائد وعند البرازيلي ، خصوصا مواطن الشمال الشرقي فيض مداري من الخيال يد عقله بجناحين ولو أنهم ما قد يكونان جناحي عصفور الجنة أو إوزة برية . وعنده كذلك بصفة عامة طلاقة تعبير السكوني والميل إلى التenskيت والدعابة اللذين يمدان الحديث بالحياة .

والثقافة بالبرازيل دليل الطائفية . وبهذه الصفة نجد هامسالة اجتماعية بقدر ما هي مسألة فكرية ، وإذا أخذنا في الاعتبار النسب المئوية لمن يعرفون القراءة والكتابة والمسيحيين في المدارس نجد أن البرازيليين شعب غير متعلم (١٣) ولا يترك المدرسة الابتدائية ليلتحق بمرحلة أعلى سوى جزء صغير من السكان ، وبالمقابلة هناك عدد قليل من الخريجين في المدارس العليا (\*\*) ؛ ولذلك فعدد المؤهلين للالتحاق بالجامعات لا يعتد به .

وكما هو الشأن في معظم البلاد الإسبانية نجد أن الحصيلة النهائية لهذه

(\*) "Deixa-o como está, fara ver como fica."

(\*\*) الليسية lycea

«الغربلاء» المتتالية هي وجود أرسنقراطية ثقافية ، وأفرادها ، دكاترة(\*) . والامتياز الفكرى يقاس بالدرجات ، والدبلومات ، وشهادات الجدارة ، وألقاب الشرف ونشر الرسائل ، وجميع أوسمة العلم الظاهرة الأخرى . فهى مكونة من الأشخاص الذين يقرأون الكتب ، وغالبا لأنهم يرون فى ذلك متعة ، ولكن أحيانا بسبب أنه إذا أريد أن يعترف بالشخص رجلا مهذبا فعليه أن يقرأ الكتب ، ويكون قادراً على الاقتباس منها . ويحرز كثيرون مجموعات ضخمة إلى حد الإثارة من المعلومات المختلفة وغير المترابطة ، هى نتيجة كثرة القراءة المتناثرة كالأهالى بوجوتا الذين يشبهون البومة والذين يعرفون محليا « بأثنيى أمريكا الجنوبية » . ولقد تطوروا ثقافيا إلى مستوى أعلى بكثير من مستوى قراءة الجرائد ، والذي يشمل قراءة خريج المدرسة الابتدائية ، وأعلى من مستوى المجلات المحلية بما فيها النسخة البرتغالية من « المختار » ، والتي تكون المجال الحدى الجديد للعقلية العامة . ويستطيعون سرد فقرات بطلاقة من سارتر وفاليرى وموريالك ، كما كان آبائهم يستعرضون براعتهم فى الاقتباس من كومت وتين وجوينو .

وأحيانا يؤلفون كتباً موثوقاً بها ، بل ممتازة . وحصيلتهم من الكتابة الجديدة ذات القيمة تفوق كتابة أية جمهورية من الجمهوريات الأخرى ، فمثلا ليس هناك شعب آخر فى أمريكا اللاتينية قام بدراسة تحليلية لأنفسهم بكفاية وأمانة ، كما فعل جلبرتو فريرى ، وفرناند ودى ازيفيدو ، والسواموروسوليا ، وإدوارد وبراو ، وكثير غيرهم ، مثل هرنانى تافاريس دى سا . وإذا كانت الحصيلة الكلية للابتكار العلمى الأصيل تبدو صغيرة ، كما هو الشأن فى جميع أرجاء أمريكا اللاتينية ، فمرجع ذلك إلى الجمهور المحدود نسبيا الذى يستطيع قراءة الكتب باللغة البرتغالية ، ويستطيع شراءها

والكتابة في البرازيل ليست مهنة مكتفية اكتفاء ذاتيا حتى بالنسبة إلى أولئك الذين استقوا من السوق الخارجية للترجمة من كتب أجنبية . وعلى ذلك فعلى المؤلف أن يكون له مورد دخل آخر لتحمل تكاليف التأليف مثل دخله من المحاماة ، أو الصحافة ، أو وظيفة في الإدارة البيروقراطية ، أو إيرادات من الممتلكات العائلية . ولا يميل البرازيليون كثيرا إلى التفكير الفلسفي أو البحث العلمي — وهما ميدانا العلم اللذان يحتاجان إلى مجهود متابر وتدريب — أكثر مما تميل جمهورتهم إلى قبوله . وهم يتفوقون أكثر في النقد والتحليل الأدبي والاجتماعي ، كما يتفوقون في القصص الطويلة وكتابة التاريخ . وهناك كتب تؤكد على الذوق الفني الأدبي في الأسلوب واللغة أكثر من توكيدها على المادة الفكرية . وهذا يشبه الأهمية التي يعينها البرازيليون على المظهرية (\*) — وهى البراعة أو الفطنة لعمل الشيء في أسلوب من العظمة رغم أن المناسبة قد لا تكون ذات أهمية كبيرة في حد ذاتها .

## هوامش الفصل العاشر

(١) لم يكتب تاريخ واف مختصر عن البرازيل بالانجليزية .  
ولا تغطي الرحلة الجبرية المشهورة التي قام بها الشاعر الانجليزى  
روبرت سوثى عصرى الامبراطورية والجمهورية

Robert Southey, «History of Brazil» (3 vols., London, 1810 - 19).

أما مؤلف Joao Pandia Calogeras وزير المالية اليونانى  
البرازيلى ، والكتاب من جزء واحد فمكتوب بأسلوب وزير مالية .

«A History of Brazil» (tr. from the Portugueses and edited  
by Perry Alvin Martin, Chapel Hill, N. C., 1939).

أما المؤلف الممتاز بقلم كايو برادو الصغير  
(Caio Prado Junior).

وعنوانه

«Formação do Brasil Contemporaneo».

والذى صدر فى ساو باولو فى سنة ١٩٤٢ فلم يكمل بعد ، ولم يترجم  
حتى الآن الجزء الأول الذى يعالج عصر الاستعمار . ومن الكتب  
المفيدة الأخرى التى تعالج الأصول البرازيلية

Serão Buarque de Holanda, «Raizes do Brasil» (São Paulo, 1948).

وهناك مادة سليمة عن تاريخ البرازيل فى  
Mary Wilhelmine Williams, «The People and Politics of  
Latin America» (rev. ed., Boston, 1945) PP. 92 - 101, 143 - 48,  
245 - 75, 319 - 23, 753 - 802.

ومن المؤلفات الأخرى الممتازة عن البرازيل :

Roy Nash, «The Conquest of Brazil» (New York, 1926) ;  
Gilberto Freyre, «Brazil : Interpretation» New York 1945).

T. Lynn Smith, «Brazil : People and Institutions» (Baton Rouge, La., 1946) ;

Lawrence F Hill, ed., «Brazil» (Berkeley, 1947) ;

T. Lynn Smith and Alexander Marchant, eds., «Brazil . Portrait of Half a Continent» (New York, 1951).

(٢) عن مشروعات البرازيل في الشرق انظر

Edgar Prestage, «The Portuguese Pioneers» (London, 1933).

(٣) لم تجد ماريا جريهام التي كانت في البرازيل في العقد الثالث من القرن التاسع عشر أية مكتبة في ريسيفي ، وعلى الرغم من أنه كان يوجد اثنان من بائعي الكتب في بائييا ، فقد كانت اثمان الكتب « مرتفعة بدرجة غير عادية »

«Journal of a Voyage to Brazil, and Residence there, During Part of the Years 1821, 1822, 1823» (London, 1824) pp. 111, 138.

وقالت عن ريسيفي : « هنا تكاد أسماء الآداب والعلوم نفسها لا تعرف » وعلقت على البرازيل بصفة عامة بقولها : « ان حالة التعليم العام منحطة الى درجة أنه للحصول على أى قدر منه يحتاج المرء الى نكاء يفوق الذكاء العسادي والرغبة في تحصيل العلم »  
Ibid., P. 147.

(٤) عن تاريخ البرتغال انظر

Henry Morse Stephens, «The Story of Portugal» (New York, 1891) ;

وأيضاً

H. V. Livermore, «A History of Portugal» (Cambridge, England, 1947) ;

وانظر أيضاً

Aubrey F.G. Bell, «Portugal of the Portuguese» (London 1915).

ويقول جليبرتو هيريرو عن المستعمر البرتغالي الأنموذجي في القرن السادس عشر انه كان « كاسباني بدون الأورثوذكسية الحربية ، وكانجليزى بدون حدوده البيوريتانية ( الحنبلية ) • فقد كان جريئا ، مثابرا ، كفئا ، ولكن قلما كانت تعوقه مبادئ جامدة ، وهكذا كان أكثر مرونة من الاسباني أو الانجليزى • مشهورا بقدرته معلومة من التهيئة للظروف والتمثيل جعلته في مركز فريد دون سائر الأوربيين في عصره » •

«Some Aspects of the Social Development of Portuguese America «in Charles C. Griffin ed.,» (Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 82.

(٥) يميز تافاريس دى سا هذه النماذج بالعبارات الآتية : « النورد ستينو » - كثيرا ما يعيشون على الأمجاد الماضية وكشف الرواتب العام ، وكثيرا ما يسعون مركزهم المالى على صفحات الجرائد ، كما يتصفون بزلاقة اللسان ، والسرعة ، والعقول المماحة • «الينيرو» حب التناسب ، التأنى ، حسن الادراك • « الكاريوكا » - الفتنة ، سرعة الخاطر ، التراخى ، القلب ، روح العالمية ، الاستسلام للنكات الخبيثة malicia ، السامبا - الاحتفال • « البوليسستا » - أوغاد عظماء ، شديدي المراس في القتال ، الشراة ، المرونة ، العناد ، الديناميكية ، الاجتهاد ، الجد في العمل ، العجلة • « الجوشو » - المرح ، الصخب ، حب المشاجرة ، الشغف بركوب الخيل •

Hernane Tavares de Sà, «Brasileiros» in «Americas», May, 1949.

(٦) ان الروابط العائلية هنا جميلة جدا • فهي متينة وطابعها الاخلاص ، كالروابط التى تسود بين البطون الاسكتلندية •

Maria Graham, op. cit., P. 226.

وطبقا لرواية مسز جريهام كان الشعور بالأسرة قويا في البرازيل لدرجة انه عاق تكوين علاقات أخرى بين الأشخاص • ويكتب روى ناش عن « الشعور بالتماسك الذى يربط بين أشد الأقرباء تباعا ، والشفقة التى ينالها الطفل غير الشرعى وأمه ، وهذا هو عين المسيحية ، والبيئة التى فيها قلما يساء الى الأطفال أو يجبرون على اطاعة الأوامر ، والاحترام الأبوى ، وهو شيء جميل حتى ولو كان في غير محله »

Op. cit., P. 313.

« ففى تفكير البرازيليين الأسرة هى الوحدة الأسمى والتي تستحق أعظم وقار »

Tavares de Sà, op. cit., P. 633.

أنظر أيضا

T. Lynn Smith, op. cit., P. 633.

(٧) أنظر

Fernando de Azevedo, «A Cultura Brasileira» (Rio de Janeiro, 1943).

وقد ترجم هذا المؤلف الى الانجليزية ونشر بعنوان

«Brazilian Culture : An Introduction to the Study of Culture in Brazil» (New York, 1950).

ويحتوى على أتم تحليل للأخلاق البرازيلية وصورها الاقليمية لا مثيل له فى مؤلف آخر .

(٨) « يقيم ( المرء ) باعتباره شخصية • أما مركزه اللاحق ، حتى ولو كان هذا رسميا ، فيتوقف الى حد كبير عما اذا كان دمث الاخلاق • »

Konrad Guenther, «A Naturalist In Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 359.

(٩) « نحن لا تغرينا القوة ، ولا المال ، ولا الأعداد ، ولكننا نلبى نداء العطف ولطف الشمائل ، ونغيث الملهوف • وفصلا عما يتصف به البرازيلي من قوة العزيمة والذكاء وحدة الطبع فهو رجل عاطفى • وان مدنيئنا أقل اعتمادا على السيطرة أو الطاعة أو المبادئ الفلسفية أى التنظيمات الاجتماعية أو التقاليد الجامدة أو الايديولوجية المحكمة منها على مبدأ الصداقة الرهيف والمقدس ، ويكرس شعب البرازيل كأفراد وكأمة للصداقة أحسن طاقاتنا • »

Alceu Amoroso Lima, in «Tomorrow», (March, 1943), P. 36.

(١٠) يرى تافاريس دى سا معلقا على العبارة البرازيلية

«Fazer minha independencia»

أى « انى أصنع استقلالى » أن ليس هناك تعبير يعادل فى لغة

البرازيليين التعبير الأمريكى «to make money» أى «يربى ثروة» فقد يفزع البرازيلى من فكرة أنه قد يضطر الى تكريس سنين كثيرة ليصنع استقلاله ، كما لا يقبل مطلقا عن قصد على حياة كلها عمل حتى ولو كانت لتدر عليه الثراء ، فهو دائما يقع فيه كرها أو بخدعة » .

Op. cit., P. 137.

(١١) «اعتقد أن القانون البرازيلى معتدل ورحيم ، وانى واثق من أنه يطبق بروح الشفقة » ولدى البرازيليين ما أتصور أن يكون الفوز الحقيقى من أخذ الحياة قضائيا فهم لا يخافون الحرب ، ويدفعهم الغضب والغيرة المفاجئان سريعا الى القتل » .

William Lewis Herndon and Lardner Gibbon, «Exploration of the Valley of the Amazon (2 vols., Washington, D.C., 1854), II, 340.

وكتب ريتشارد بيرتن عن الأحوال فى ميناس يقول : « ان نسبة الجريمة الى عدد السكان تافهة ٠٠٠ وان مراة أخلاق المينيرو المحبة للقانون ، أو بالأصح اللطيفة رغم حديثها ، هى حالة الشرطة » فبمثل هذه القوة الضابطة وصغر عددها ربما كانت معظم البلاد الأوربية تصبح غير صالحة للسكنى »

Op. cit., I, 403.

« لم يحدث فى تاريخ البلاد أن اغتيل نائب ملك فى البرازيل ، ولا ملك . ولا امبراطور ، ولا رئيس ، ولا أسقف » .

Gilberto Freyre, «Brazil : An Interpretation» P. 159.

(٢) داب الأجانب على التعليق على نمائة سلوك البرازيليين « أينما التقيت بالبرازيليين ، من أعظمهم شائنا الى أقلهم منزلة ، أرائى مضطرة الى القول انى لاقت دائما أعلى درجات الأدب » .

Marla Graham, op. cit., P. 265.

وعن « لطف السلوك المطرد الذى يتحلى به جميع الناس » قال كونراد جنتز : « هذه صفة يتفوق فيها البرازيلى على الأوروبى دون اعتراض » .



«A Naturalist in Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 360.

• « يسود أدب عام بين جميع الطبقات والألوان »

Henry Walter Bates, «The Naturalist in the Amazons» (Everyman edition, 1910), P. 49.

وقد قضى بيتس أحد عشر عاماً في وادي الأمزون (١٨٤٨ - ١٨٥٩).

(١٣) « حتى في أيامنا هذه ربما كان أكثر من ثلثي مجموع البرازيليين أميين

T. Lynn Smith, op. cit., p. 665.

وقال هيرناندي تافاريس دي سا أنه في سنة ١٩٤٧ كان معدل الأمية يزيد الثلث على الأقل على التقدير الرسمي وأن ٣٠٠٠٠٠ طفل بين السابعة والحادية عشرة لم يكن لهم مدارس يتعلمون فيها •

Op. cit., pp. 64 - 65.

(١٤) عن آداب اللغة البرازيلية انظر

Isaac Goldberg, «Brazilian Literature» (New York, 1922, Ronald de Carvalho, «Historia da Literatura Brasileira» (Rio de Janeiro),

Erico Verissimo, «Brazilian Literature : An Outline» (tr. from the Portuguese, New York, 1945) ;

Harriet de Onis, ed., «The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature» (New York, 1948) ;

Samuel Putman, «Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing» (New York, 1948) ;

Arturo Jorres Tioseco, «New World Literature : Tradition and Revolt in Latin America» (Berkeley and Los Angeles 1949), passim ;

Pedro Henrique Urena, «Literary Currents in Hispanic America» (Cambridge, Mass., 1945).

## خاتمة

توجد في أمريكا اللاتينية عشرون أمة . وجميعها حالياً جمهوريات ، ولو أن ثلاثاً منها كانت ملكية في أثناء أعمارها القصيرة . وهى تنزع بطبيعتها إلى النوع الجمهورى من الحكومة، رغم أن الديمقراطية قد لا تكون جزءاً من صميم حياتها السياسية .

وربما كان ينبغي ألا يزيد عدد الجمهوريات على أربع عشرة ، لأن شعور المرء بوجوده فى أمة مشروع باهظ التكاليف ، ولا تستطيع الجمهوريات الأخرى ، أو لا تبرر ، الترف الذى يستلزمه مركز دولة مستقلة وذات سيادة . وست منها فى الحقيقة مجرد ولايات سارت فى معمة شعورها بأنها أمم ، ولا تقصد تحقيق هدف معين خلاف المضى فى خطأ أساسى وواحدة منها ، لو أرادت ، قد تصبح إحدى القوى الكبرى فى العالم ، ولكنها لا تهتم بذلك لمصلحتها الشخصية .

وعلى الرغم من السمعة الخاصة التى التصقت بهذه الأمم العشرين بأنها مثيرة للشغب ، فإنها فى الواقع تكون أكبر مجموعة دولية محبة للسلام فى العالم ، وقد طورت أكفاً جهازاً لمجموعة من الدول لحسم خلافاتها . ومع أن هناك مشاحنات وضغائن وتوترات سطحية ، فإنها ليست قديمة أو متأصلة كما هى الحال بين دول أوربا . واستطاعت هذه الأمم أن تعيش بعضها مع بعض فى تناسق ملحوظ . ونظراً إلى أنها بصفة عامة تسلك مسلكاً حسنًا ، ولها أثر ضئيل كدول مقلقة ، من الناحية الدولية ، فإننا ننزع إلى التغاضى عنها لنهتم بشعوب أكثر مجلبة للمتاعب يقلقون راحة بالنا . وهم ينسجمون فيما كان يسمى بلطيف العبارة « اتحاد الأمم » ، ودون أن يتسببوا فى أى نزاع .

وفي خلال هذه الأثناء لا يهتمون بالطريقة التي تدير بها الدول القديمة شئون العالم ويتجهون إلى الانطواء لحماية أنفسهم . وإذا ما سجلوا مبادئهم السلبية في دساتيرهم فهم مخلصون في عملهم هذا .

والقوات المسلحة التي يملكونها ، وهي صغيرة نسبيا إذا قورنت بالجيوش الضخمة الحديثة الأسايب ، إنما هي أحيانا أكبر قليلا من جماعات لهاروساء ومن المحتمل أن دورها ، وهي على هذا الشكل ، أهم كجماعة حاسمة لها وزن في السياسة الداخلية القومية أكثر من كونها أداة في العلاقات الأجنبية . وفي سنة ١٩٥٣ كان حوالى نصف رؤساء جمهوريات أمريكا اللاتينية رجالا حربيين وهناك اتجاه في الجمهوريات الصغيرة حول السكرابي لاستبعاد الجيش القائم كلية أو ، على الأقل ، تقليله حتى يصبح تنظيمها هيكليا صغيرا يمكن أن يستخدم كنواة للتعبئة القومية في حالة طارئ دولي . وبدلا من ذلك فقد أقيمت مسؤولية حفظ النظام الداخلي وصد أي غزو محلي من أرجاء البلاد على قوة « كونستابلات » أو على الشرطة الأهلية ، وقد تكون في طبيعتها قوة أشد خطراً في القتال من جيش الدولة

وهذه ثقافات انتقالية . وبينما تختلف في درجة تطورها ، فليس منها ما وصل إلى حالة من السكمال أو التهام الذي قد نشاهده في أوروبا وآسيا ، فهي مجتمعات في دور التكوين ، وقد يظن المرء أحيانا أن العملية لم تبدأ إلا مؤخرا . ولا يرجع هذا فقط إلى أنها من الناحية التاريخية حديثة العهد نسبيا ، ولم يتسع لديها الوقت بعد لتنمية بناء نضجها القومي السكمال . فالسبب الرئيسى هو أن اختلاف العناصر الانثوجرافية التي تدخل في تكوينها لم تندمج بعد . فكثيراً ما تتركب حضارة واحدة من ثقافتين أو ربما ثلاث أو أربع . والمعادلة التي يتم بها الدمج هي : إسباني ( أو برتغالي ) هندي ( أو زنجي ) ، أو مولد من هندي أو زنجي ، أو خليط من كل هؤلاء = الجنس الجديد . وقد لا يكون هو الجنس السكوني ، الذي كتب

عنه جوسيه فاسكندسيلوس ، ولكن النتيجة ستكون شعبا لا يشبه أيًا من عناصره المتفرقة .

ونظراً إلى أن الثقافات المؤتلفة تمثل توترات متراكمة في علاقاتها بعضها ببعض ، فإنها لا تستطيع أن تعيش إلى الأبد جنباً إلى جنب في توافق إذا مالت إلى هذا الجانب أو إلى الجانب الآخر . وهذه التوترات هي ميراث ذكريات من أخطاء الماضي ، ومن أساليب الحكم ، والمصالح الاقتصادية المقررة ، والاضطرابات الثورية وفي هذه الأثناء ، ونظراً إلى عدم وجود نظام اجتماعي ديمقراطي ، فإن قبول مبدأ المساواة ، وهو شرط لازم للتعايش المتسق لثقافات متفاته ، يصبح أمراً مستحيلاً ولذلك فلا يمكن أن يكون هناك طوية قومية واحدة من أي من هذه البلاد حتى تتم عملية التهجين ، وتخفي العوائق الموجودة في سبيل الوحدة الثقافية مع أسبابها الاجتماعية . وهذا هو حل متطرف ، ولكنه في النهاية يضع حداً فعالاً للمشكلة ، كما أدرك البرازيليون أخيراً . فلو أن حدة الضغط الذي يسببه كفاح الطبقات والثنافر الدولي خفت عما هي عليه الآن ، فقد يكون هناك حل ممكن آخر ، دون أن نذهب بعيداً فنهدم منزلاً أقامه بضعة بنائين ، لسكل منهم آراؤه ، ثم نعيد بناءه من جديد بنفس المواد وفي هذه الأثناء لا تكون البوادر البيولوجية اللازمة لتكوين شعب واحد يضم المجتمعات المختلطة قد تمت بعد في جميع الأرجاء تقريباً . وحتى ذلك الوقت ، فإن معظم الثقافات القومية ستظل « شخصيات منقسمة » ، ولا تتكلم بصوت واحد ، ولكن أهدافها كثيراً ما تتضارب .

ويختلف مستوى الاستيعاب المتبادل للعناصر الجنسية المختلفة للسكان كثيراً من قطر إلى آخر . وتتوقف قوة الطبقة الوسطى ، وهي التي تقوم بدور العامل الوسيط الأساسي في عملية التطور الاجتماعي ، على نسبة أعداد البيض أو الجماعات المولدة الفاتحة البشرية من السكان . فإذا غلب

## خاتمة

٥٥١

وجود إحداهما ، كما في أوروغواي ، كان هناك سلام اجتماعي نسبي وشعور  
بأناس قد وصلوا إلى حافة مصيرهم القومي ، أي إلى حضارة نشيغ الحاجات  
والأطلاح الأساسية . وتسود مثل هذه الظروف بعض الشيء بين سكان  
باراجواي الذين ينتمون إلى أصل مولد من قديم ، على الرغم من مستواهم  
المعيشي المنخفض ومركزهم السياسي المتخلف . أما في أرجنتيننا فمع تفوق  
طبيعة السكان الجهورية فهي منقسمة نفسها بشق يفصل بين العنصر الإسباني  
الأصلي ومطالب القادمين الجدد من أوروبا إلى البلاد . وكانت النتيجة أن  
«الأرجنتينيين النموذجيين» ، كما يسمى ، هو تهجين ناقص بين شخصيتين  
متباعدتين وستكون الروح القومية لهذا الشعب المرجوه هي حصيلة التراضي  
بين مطالب كل من الفريقين بالاعتراف الواجب لكل من فريديهما  
الخاصتين . أما في تشيلي ، فيسمى «التفوق المنزاد لطبقة وسطى تنصف  
بالحيوية والذكاء» ، وتجذب أفرادها من أعلى ومن أسفل على السلم الاجتماعي  
لنظام الطبقات الهرمي التقليدي ، الفرصة المرجوة لتطور هادئ لمجتمع  
قومي متوازن خال من التوترات والإجهادات الناكبة .

والعملية التطورية أكثر تعقيدا في الأفطار التي كان من نصيبها ميراث  
كبير من السكان الهنود . فقد بقي في هذه الأفطار نوع من المجتمع الأرستقراطي  
مؤسس على قبول الهنود لسيادة البيض منذ أيام الاستعمار . ولانزال  
الطبقة الوسطى صغيرة وضعيفة ، وينزع أفرادها إلى أن يكونوا أتباعا  
للطبقة العليا الحاكمة . وحيث يكون الهنود كتلة عديدة ومتناسكة من  
الآهالي ، ويكونون أغلبية السكان فوق مساحة كبيرة ، فإنهم يميلون إلى  
أن يصبحوا جامدين ، ويقاومون أية عروض أو اقتراحات لاندماج أكمل  
في الثقافة القومية . وفي هذه الأثناء يصبح مهم الوحيد أن يتركوا وشأنهم  
ويتمسكوا بما تبقى من حضارتهم التي استطاعوا أن ينقذوها من التدمير  
الذي أصاب استقلالهم السياسي منذ أمد بعيد .

والعنصر الأبيض في بوليفيا صغير جدا وعديم الأثر ، وقاعدته الاقتصادية مزعزة للغاية لكي يقوم بالدور الذي يناط به عادة في عملية التطوير . فطبقة المولدين ، هم مؤهلون تأهيلا سيئا لتحمل المسؤولية بسبب ما اتصفوا به من مزاج وبسبب خلفيتهم ، ووجود أغلبية هندية منفصلة بدرجة غير معهودة عن تأثيرات المدنية الغربية ، هما عاملان رئيسيان فيما يبدو من تجمع ظروف ميئوس منها .

والنموذج الكلاسيكي للشعوب المختلفة موجود في بيرو . فهناك أرستقراطية متأصلة في البلاد يغلب فيها الدم الأوروبي ، ولو أن فيها اختلاطاً كبيراً من مولدين من عنصر متفوق ، وهذه الأرستقراطية تسيطر على البلاد وعلى حياتها بقوة العادة المتناهية القدم ، ونقص أو ضعف أى تحد لنفوذها . واحتفاظها بموهبة قومية معلومة للسيطرة . وفي علمين ، وبمعزل في الأنديز ؛ توجد المجموعة الضخمة غير واضحة الألفاظ من ورثة امبراطورية الإنكا الذين حرّموا ميراثها . وعلى الأعراف ( \* ) بين المنطقتين تتحرك كتل المولدين من السكان في اضطراب ومضض ، فريسة لمركبات النقص التي يعانون منها ، ولتوسلات المسيحيين المخلصين الذين لم يجرؤوا أبداً على التفكير من خلال أناجيلهم الاجتماعية في النتائج المنطقية لمقدماتهم . فالهندي لا يرغب إلا أن يعيش هندياً . وقد يمضى وقت طويل قبل أن يرضى أن يصبح مواطناً يوروبياً لحماً ودماء بتلك المزايا والمستويات التي قد تتضمنها هذه المنزلة . ومع ذلك فما دام راضياً أن يبقى عنصراً سلبياً في السكان فلن يكون عائقاً لآية حركة يقصد منها تطوير اجتماعي وسياسي للأمة . ويعتمد أى برنامج للتطوير من هذا النوع على استغلال أتم لكل نشاط وذكاء طبقة المولدين ، حتى ولو أدى ذلك إلى الحد من سلطة حكم الخاصة في الشئون القومية .

(\*) In the Limbo • Limbus, limbo • الأماكن الخارجة عن جهنم والمخصصة لغير الممدين ( الصالحين الذين عاشوا قبل المسيح والأطفال ) .

وكما يليق بشعب منساق إلى التطرف ، فقد حسم المكسيكيون بالعنف والثورة المسلحة مرحلة أساسية من المشكلة الخاصة بالشكل الذى يتخذه نظامهم الاجتماعى نهائيا ، إذ فقدت حكومة الخاصة من ملاك الأراضى والعقارات مركز سيادتها التقليدى القديم ، الذى تحول إلى سادة المكسيك الجدد من المولدين الذين وجدوا أمامهم أكبر فرصة لإظهار كفاءتهم التى التزمت بها طبقتهم فى العالم الجديد . وعلى الرغم من أن الهندى نودى به أصلا أنه أهم منتفع حرر من ربق نظام المزارع ، فهو لا يزال يكون طبقة وحدها فى المكسيك . وهناك كثيرون من قومه ، وشعوب متفرقة كثيرة — أزاتقة ، تابوتك ، مايا ، تاراسكان ، أوتومى ، والقبائل الصغيرة مثل الياكى . وهو ينطوى على نفسه ، على الأقل داخلها ، كلها استطاع ذلك ، كما يحفظ السر الذى يفرض إليه به ولم يتحدد بعد مركزه النهائى فى التخطيط المكسيكى .

والمشكلة الخاصة بمستقبل البرازيل معقدة بسبب ضرورة التوفيق بين كل من واجبات الثقافة الإقليمية والتنوع الجغرافى للسكان . فلا تختلف أساليب مواطن باييا فى كثير من النواحي عن أساليب مواطن ساو باولو أو مواطن ميناس فوس ، بل إن هناك كل أنواع الاختلاط التى يمكن تصورها بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء ، بما فى ذلك نزعة من الجنس الأصفر . وتجمع الظروف هذا قد يمثل عقبة تكاد تكون مستحيلة فى طريق وعى قومى حقيقى ، ونمط ثقافى موحد فى التركيب الاجتماعى الصارم للأقطار الإسبانية .

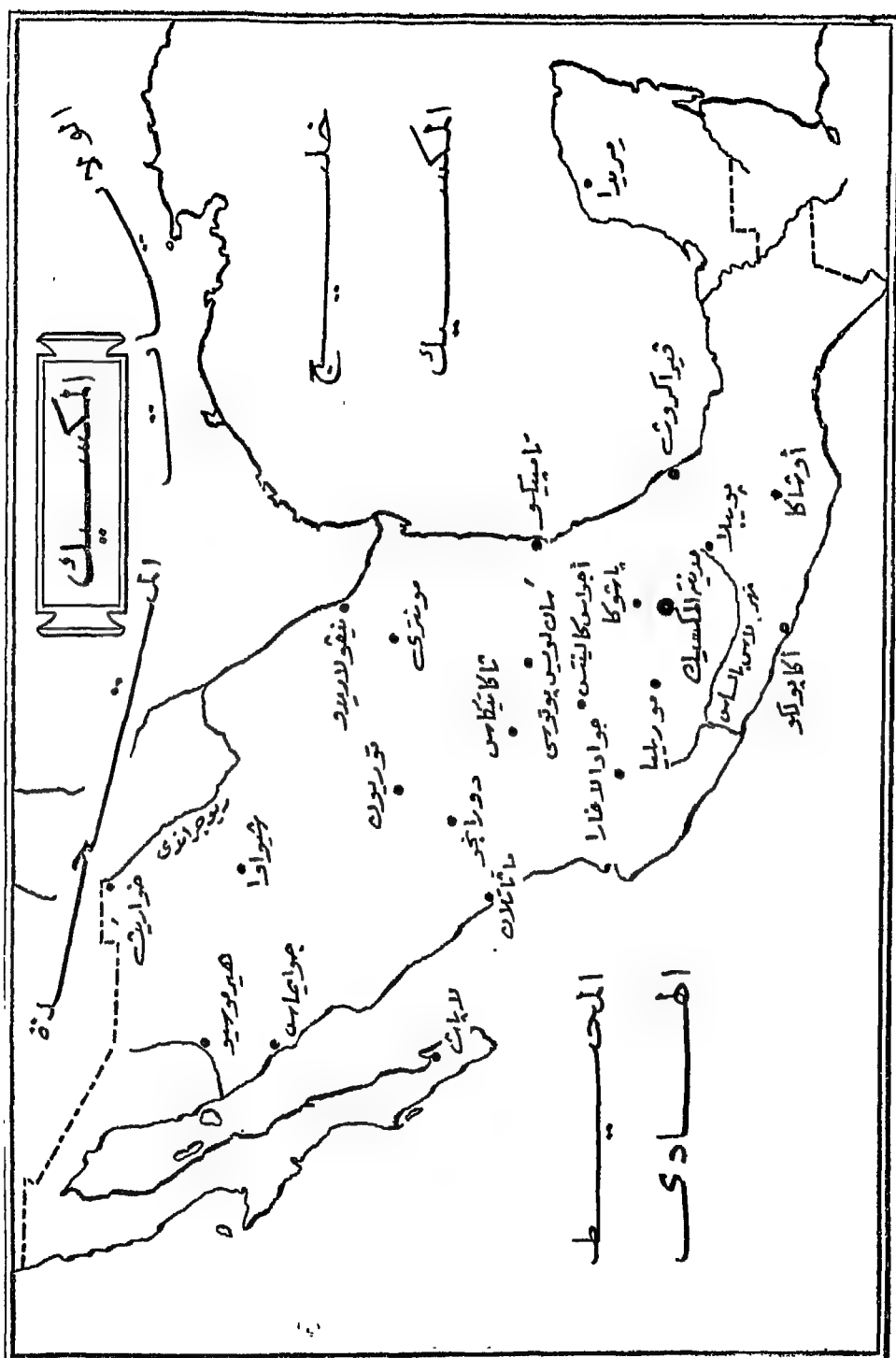
وإن سماحة الروح والإنسانية العميقة فى الشعب البرازيلى ، والنزعة العامة فى أن يعيش المرء ، ويدع غيره يعيش ، رغم أنها عاطفة سلبية قائمة على اللامبالاة ، والركة غير العادية والحرارة فى العلاقات الشخصية الجميمة ، والنفور من الحلول المتطرفة ، والتقليد القديم لنظام أنوى متهاون فى

الأراضي الخلفية — كل آثار الأخلاق القومية هذه ، بما بلين التورات العادية للعيشة الجماعية ، وتقدم ( في حالة عدم التحلي عملياً بحب الخير وحسن الجوار ) إطاراً مناسباً يبنى فيه المجتمع البرازيلي النهائي وفي الدور البطيء الذي تمثل فيه العناصر التي تتضمنها هذه الحضارة المركبة هناك نزوع إلى قبول اختلافات وجهة النظر والرأى ، فلا إصرار على المماثلة ما روعيت الأساسيات التي تميز البرازيليين عن غيرهم من الشعوب وهناك قليل من التعاطف في الأرستقراطية البرازيلي ، وهو رستقراطي من نوع مختلف ،(\*) كما لا توجد هناك قسوة في رجل الريف (\*\*) ولذلك فهناك ديمقراطية اجتماعية حقيقية لتعفى التورات التي لا بد أن تعترى الامتيازات الطبقة لآى مجتمع معقد . وفي هذه الأثناء نشط التهجين بدون عائق من قانون أو عادة كشيء أساسى ملازم لعملية التطوير .

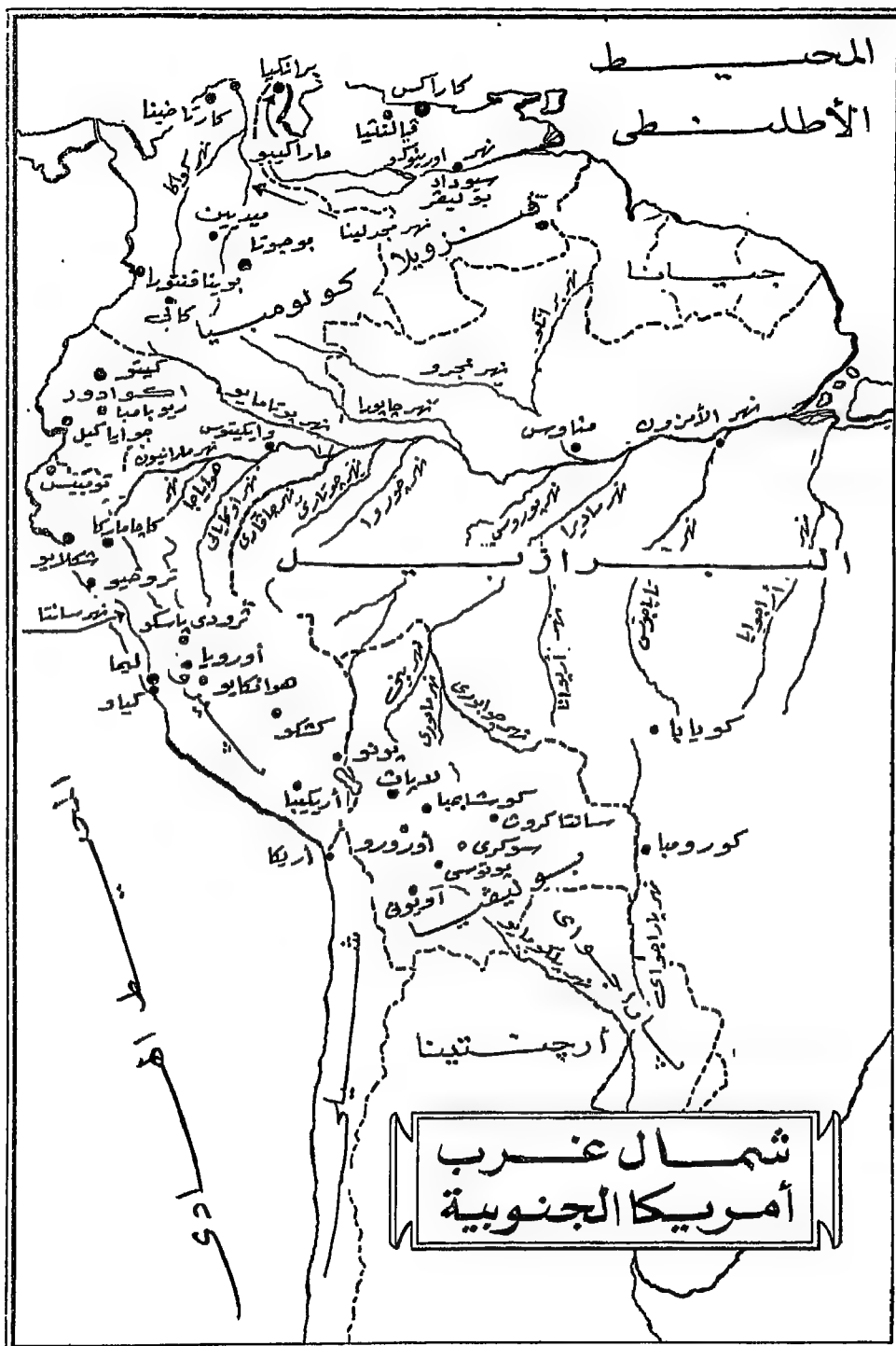
سوف يتوقف مصير أمريكا اللاتينية وأقسامها العشرين التي تتألف منها ، من جهة ، على عوامل أخرى غير الاستيعاب الناجح للعناصر الاثنوجرافية التي يتكون منها السكان . وبعض هذه العناصر ، مثل مشكلة هنود بيرو ، ليست سهلة الحل . فهناك ضغائن راسخة ، كما أن هناك مصالح مقرر ، تجتريح لاستمرار الأمور على ما هي عليه وعلى الرغم من أن الميراث الإسباني المشترك يعد بمثابة ملطف لتسوية الفوارق في المعادلة ، فإن قوته غير متساوية في مختلف الجمهوريات . وقد تبلور في النهاية بضع جماعات قومية تصبح في صميمها شيئاً أقرب إلى الهندية منها إلى الأوروبية ، حتى ولو بدت الحضارة في ثياب أوروبية . ذلك لأنه مهما اتخذت روح الشعوب المختلطة من شكل أو اتجاه في النهاية ، فإن تلك الأمم ، بسبب موقعها وظروف ماضيها القريب تتصل بالغرب ، الذى أشار إليه أرنولد توينبي المؤرخ المعاصر .



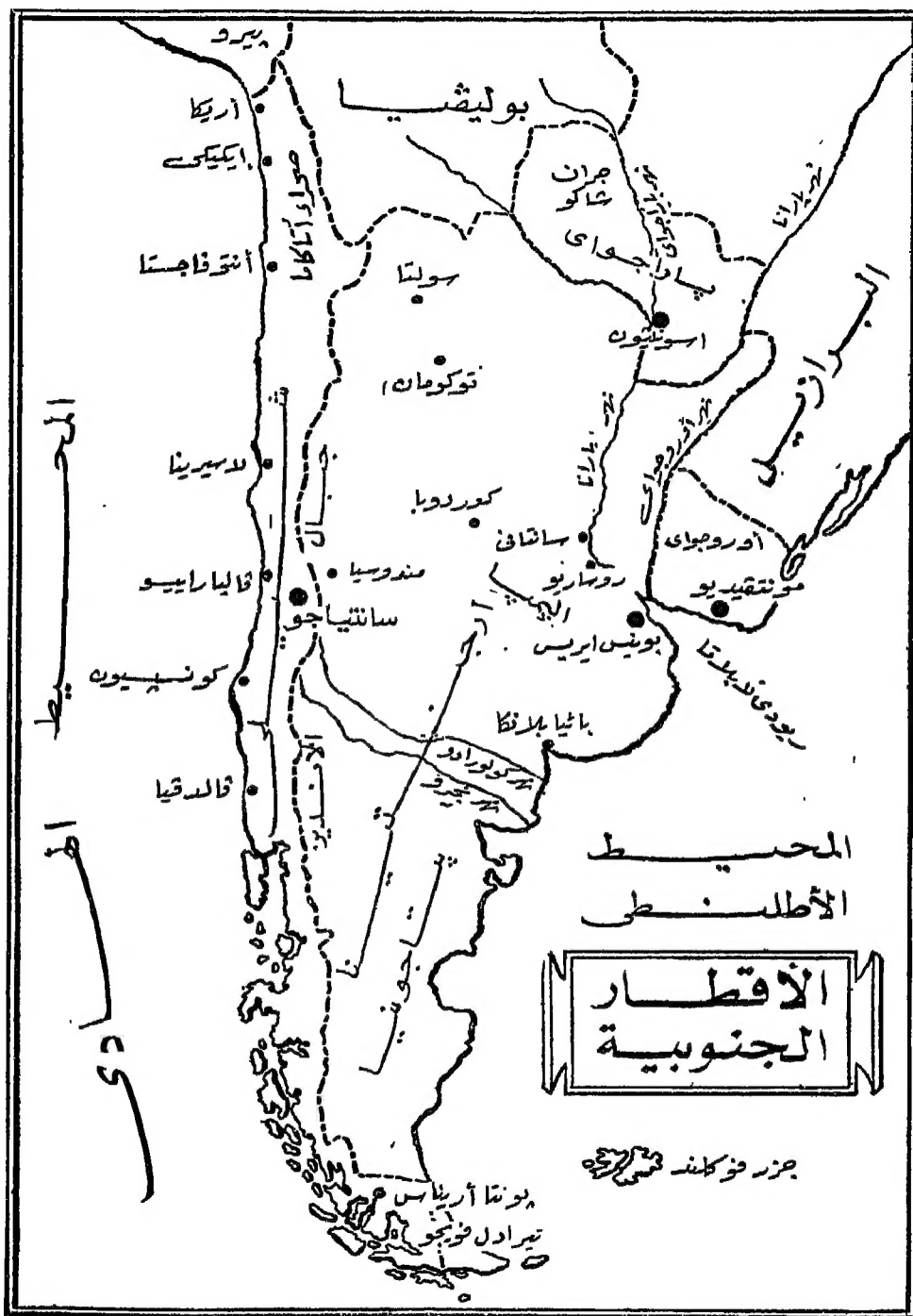
واتجاه مستقبلها مشروط بالخلفاء والعادات الاقتصادية والسياسية .  
وبعض هذه العوامل محدود في الطبيعة نفسها ، ولذلك فهناك حد لإمكانات  
تطورها . وقد تضطر إلى المعيشة في فقر لأنها لا تملك من الموارد الطبيعية  
ما يجعلها تعيش عيشة مخالفة ومن المحتمل أن بعض الشعوب كالنشيانيين  
سوف يتغلبون على العائق الذي يعترضهم بأخلاقهم الفارقة ، وبعضهم  
يعيش في أراضٍ ممتازة ، تجرد بالخير العميم من ناحيتي الزراعة والتعدين  
على حد سواء ، يستغلها سكانها ، فينتجون فائضا من الأشياء التي تؤدي إلى  
الحياة الرغدة ، وما يتبعها من مشتملات ثقافية .













مكتبة  
الكتاب  
اللاتينية  
مكتبة  
الكتاب  
اللاتينية

## هذا الكتاب

ما هي جمهوريات أمريكا اللاتينية ؟ ما هي العناصر التي تكونت منها ؟ كيف أصبحت كل جمهورية فيها بهذه الأخلاق وهذه العادات ؟ هذا الكتاب تناول « مفصل » لهذه الجمهوريات والعناصر المختلفة التي ساعدت على تشكيل كل منها . والكتاب يتكلم عن ضرورة التفاهم الدولي بين هذه الجمهوريات .

أن هذا الكتاب حصيلة جهد كبير متصل لمدة سنوات طوال ، وقد أدى هذا الجهد إلى ذخيرة من المعلومات جمعت بمهارة ، ودراسة مستفيضة قام بها مؤرخ لامع وخبير بهذه الأقطار التي تشتمل عليها أمريكا اللاتينية .

ويعرض المؤلف للأجناس المختلفة ليبين أثر هذه الأجناس في أعماق الإنسان في أمريكا اللاتينية . ويمتاز المؤلف بأنه استطاع أن يخلص نفسه من أي غرض أو نظرة دعائية ليبقى نظريته عميقة مجردة بريئة إلا من محاولة الوصول إلى الحقيقة العملية وحدها .

قال هوبرت هيرنج حين قرأ هذا الكتاب أن مؤلفه يستطيع أن يشيع المحبة البعيدة عن الخيال ، وأن يكشف الأشرار دون أن يصفح عنهم أو يحرجهم ، كما تستطيع بصيرته النفوذ إلى الحياة المضطربة التي تحياها جمهوريات أمريكا اللاتينية العشرون . أنه كتاب لا بد أن يقرأ .



Bibliotheca Alexandrina



0356398

سنة ١٧٠